....

الأرملة الأولى

رواية

نصر رأفت

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد بهي الدين

الأرملة الأولى

نصر رأفت

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢٤

ص. ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil Boulac Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٠٦٩/ ٢٠٢٤
I.S.B.N 978- 977- 91-4690-4

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة،
بل تعبر عن رأى المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن

أرملة الجنة

(أنا أول من يفتح الله له باب الجنة يوم القيامة ، إلاأنه تأتى امرأة سعفاء الخدين فتزاحمنى ، وتحاول أن تسبقنى إلى الجنة .. فأقول لها :

- **من أنت أيتها المرأة ؟!**

فتقول :

- **أنا أرملة حبست نفسى على تربية أولادى اليتامى .. فأقول لها ادخلى الجنة)**

صدق رسول الله .

****

(سعفاء الخدين : هي المرأة الكادحة التي تكون خدودها مائلة

إلى الأسفل، وعليها أثرمواجهة الشمس ،وعلى وجهها الإجهاد والشقاء).

****

أرملة النار

أنا الآن فقدت نصفى الآخر .. أنا الآن أرملة .. إذن أنا أتألم !

أنا امرأة أبكى من جرح شوكة صغيرة تمس جلدى الشفيف .

أنا امراة أقف فى وجه إعصار قد يقتلع قلبى الضعيف .

أتألم حين أرى الشفقة فى أعين الذين جاءوا لعزائى .

أتألم حين أتسلم شهادة وفاة حبيبى وشريك أيامى .

أتألم حين يسألنى صغارى عن سر غياب درعنا الواقى .

أتألم حين أرى نظرات وقحة فى عيون الرجال النشامى .

أتألم حين تبتعد الجارات والصديقات عنى خوفا على أزواجهن منى .

أتألم حين أفكر فى أن يكون مصيرى مثل الهندوسيات نفيا إلى مستعمرات الأرامل ..

أوحرقا بنار حامية حتى لاتفارق ذرات رمادى - فى الدار الآخرة - رماد فارس أحلامى ! ..

******

(1)

- (رحمتك ياالله .. رحمتك ياالله)..

صرخة هائلة دوت فى الأفاق بينما كان هناك رجل عجوز أصلع الرأس نحيف الساقين ، نحيل العود يتقافز على حافة النهر ، وهو يصرخ بتلك الكلمات ، والنهار مازال يفتح عيونه ، والشمس تطل على الدنيا بخجل عذرى ، بينما كانت فاطمة تطل من نافذتها لتراقب النهر مع ميلاد يوم جديد بأمل وتفاؤل ، ولم تكن تدرى إن كانت صرخات هذا العجوز تعبيرا عن فرح أوفزع .. الله وحده يعلم .

كان المدى بعيدا والمسافة شاسعة فلم تتبين ملامحه ولامن يكون هذا العجوز النحيل ؟!

لكنه كان فلاحا من فلاحى (عزبة الحنكاتى) - مكان ناء يبدو من فرط عزلته كأنه لاوجود له وسط غابة من النخيل - مظهره يكشفه بينما جوهره فى علم الغيب .. وهى لاتدرى من أمره شيئا .

ولم تكن تدرى لماذا كان هذا الرجل يصرخ فى هذا الوقت ؟! هل رأى شيئا خارقا ؟! وهل تخرج أرواح الغرقى من النهر قبل أن تهبط الشمس ، وترخى ستائرها على ديار العزبة وأهلها ؟!

شعرت فاطمة بالحيرة الشديدة ، ومن عاداتها أن تنهض من نومها قبل الجميع ،وتظل تطالع على إمتداد بصرها النهر والنخل ..لكن النهر فى هذا اليوم لم يكن ساكنا كعادته ..أحست به غاضبا ، وأمواجه ثائرة متوترة يوشك أن يطرد مياهه لتخرج على شاطئيه !

فى تلك الأثناء كانت فاطمة ماتزال زهرة يافعة خضراء العود فى العاشرة من عمرها ،وتهوى الإستيقاظ بعد الفجر تتأهب للذهاب إلى مدرستها البعيدة سيرا على الأقدام برفقة ابن خالتها الصبى رضوان .

أطالت الفتاة الوقوف فى النافذة تراقب مايجرى على إمتداد بصرها ، رأت الرجل العجوز النحيل الأصلع يجرى كالمجنون ثم يتوقف لحظات ، ويقترب من حافة النهر ، ثم يمد كفيه ليلتقط حفنة من الماء ، ويلقى بها فى الفضاء المفتوح على قدر استطاعته ، ثم تنتابه حالة من الهوس فيعاود الجرى كالمسعور ، ويعاود الصراخ مجددا بأعلى صوته الذى يتردد صداه فى الفراغ اللانهائى ، فيكسر صمت السكون ، ويوقظ الأسماك النائمة فى مهد النهر :

- رحمتك يارب .. رحمتك يارب !

فى نوفمبر دائما ماتهب الرياح باردة من فوق النهر فتلسعها برفق حاد كوخز الإبر ،بينما تنهض من فراشها قبل الآخرين ، ويراودها خيال بأنها سترى عروس النيل تسير فوق الأمواج الهادئة ،ولاتشك لحظة واحدة فى أنها ستحظى برؤيتها ذات مرة فى غفلة من النائمين جميعا .. ويكاد الفضول يسرق النوم من عينيها لترى العروس الأجمل - بنت الحكايات والأساطير - التى كانت قربانا للنهر الأعظم والأطول والأقدم .

لم تر فاطمة عروس النيل حتى الآن لكنها رأت النهر منتفضا ، ولاتدرى لماذا ؟! رأته يعلو ويهبط ثم يعلو متمردا ، ويزداد علوه كلما إرتفع ضوء النهار ،وإقتربت منه خيوط الشمس العذراء .

لم يخرج الصيادون بمراكبهم الخشبية الصغيرة القديمة المتهالكة هذا النهار ..هل سرقهم النوم .. أم أنهم يعرفون أن النهر فى ساعة غضب ، وقد يطيح بقواربهم ، ويلقى بها وبهم إلى التهلكة ؟!

تلاشى الرجل العجوز من محيط رؤيتها، وغاب عن ناظريها .. اختفى فجأة فى ناحية أشجار النخيل العالية المتزاحمة على الطريق المؤدى إلى المدينة الكبيرة ، ومازال يواصل الصياح بكلمات منغمة :

- رحمتك ياالله .. رحمتك ياالله .

تصل كلماته إلى مسامعها ، ولاتدرى من أين يأتى الصوت ؟!

حاولت أن تتجاهله ، ومدت بصرها نحو طيور النهر تراقبها بإعجاب حذر وهى تدور فى الفراغ ، وتحوم حول الماء ثم تهبط فجأة لتلامسه باشتياق ثم تصعد لأعلى بسرعة فائقة كأنها مست النار الحارقة ، ولاتتوقف إذ سرعان ماتعاود رحلتها الحلزونية تحوم وتحوم ،وتهبط وتصعد فوق صفحة النهر ثم ترتفع لأعلى ولاتعود .

أدركت فاطمة أن شيئا ما فى هذه اللحظة يفزع طيور النهر ، ويدفعها للطيران والتحليق بشكل عشوائى ويمنع إنتظامها فى سرب محكم كعادتها .

هنا فى عزبة الحنكاتى لاشىء عادى ، بل كل شىء استثنائى حتى النيل الذى تنام العزبة فى حضنه ، وترتاح على صدره - منذ سنوات بعيدة لايعلم عددها سوى الله - بدا النهر غريب الأطوار ليس كمثله نهر من الأنهار !

فى موسم الصيف والأيام العجاف ،وعندما تجف الأنهار يخالف النيل هذا الشح الطبيعى لأقرانه من الأنهار، وتفيض مياهه على الضفاف لتسقى الحقول والأشجار من عسل مصفى .

وعندما تهب عليه الرياح قاسية آتية من الجنوب ، يزداد عنادا وتنساب أمواجه نحو الشمال حيث مستقره ومنتهاه .

ولاتدرى فاطمة سر هذا النهر المدلل على مر الزمان ، وإن كانت تحبه وتهواه وتألفه وتأنس به ،ولابأس عندها من أن تخافه أحيانا لأنها تسمع أن أرواح الغرقى تسكنه منذ ألاف السنين ، وربما تخرج منه فى وقت ما .

حين دخلت الفصل مع ابن خالتها ورفيق دربها اليومى إلى المدرسة التى تبعد عن عزبة الحنكاتى مسافة ساعة سيرا على الأقدام ،أول مافعلته سألت المدرس عن النيل .. ذلك الكائن الحى العجيب الرابض على ناصية بلدتها الصغيرة مسقط رأسها .

أفادها المدرس بأنه ينحدر من تلال أفريقيا البعيدة مهيبا كملك يتهادى فخورا بذاته ، لايأبه بالغابات الكثيفة ، ولابوحشة الصحراء المخيفة ،.. صامد كالجبل الأشم ..مستقيم يخترق جلاميد الصخور الصلدة بصبر ،لايوقفه شىء عن سيره ورسالته ، يواجه الشلالات العنيدة ، ويملأ الغابات الخضراء بالضجيج والهدير ، يفور ويثور بالزبد ، ، يراوغ ببراعة أشجار السنط العالية والأبنوس العتية ، ولايخلف وعده مع التوت والجميز والصفصاف .

يمضى النهر لحال سبيله محروسا بأمر الإله منفردا متفردا كراعى غنم وحيد وسط مجاهل الصحارى والغابات لكنه سعيد .. بلغ النهر من الكبر عتيا ، وتجاوز عمره 20 مليون سنة .. فسبحان من له الدوام الأبدى ، لاتوقفه الهضاب الشرسة ، ولاالكثبان الرملية الماكرة المتحركة منها والثابتة ، ولا تعطله جبال من رخام أوحجر صوان !

ينزل بعنفوان من شلال عنق الجمل ، وتموج مياهه عند شلال المرجان ثم يهدأ قليلا عساه يستريح قبل أن يخترق شلالات بيت العبد والمعفور والحارك، وخلال هذا المشوار الطويل لايتلقى أى مدد إلاالقليل من مياه نهر عطبرة ، وتأبى السماء أن تجود عليه بقطرات من مطر ، وتمتنع الثلوج عن الذوبان لإنعاشه ، وتظل الصخور الصماء والجلاميد الحجرية الخرساء تشاطره كفاحه الطيب كما تشاطره أسراره الأبدية .

ويحرص النهر النبيل بدوره على ألايمحو ماعليها من نقوش أثرية ، ورسوم وخراطيش حتى وهو فى أسوأ حالاته يندفع ،وهو متقلب المزاج حاملا بين كفيه طمى الخلق الأول .. فيه حفنة من تهور النيل الأزرق ، وشىء من رزانة النيل الأبيض ، يرتفع وينخفض .. يموج ويسكن .. يعلو ويهبط كأنه يغلى ثم

يتفرق ، ويتناثر عسله فى دهاليز المستنقعات ، وسرعان مايلملم ذاته الضائعة ، ويضعها بعناية فى شريانه الوحيد المتوحد .
وإن ظل فى حالة من الفوضى الخلاقة ، ولايعود لعقله وحكمته إلاعندما يلمح رؤوس النخيل ، وهاماته المرفوعة نحو عنان السماء فى وادى مصر المحروسة .
فى تلك البقعة من أرض الله الواسعة أقدم نخيل عرفته البشرية ، يقف شاخصا شامخا منتصبا عالى المقام على ضفاف النهر منذ ملايين السنين .
غرسه هنا الفراعنة الأجداد ، وربما غرسه الله بيده ، ورعاه الأقباط القدامى ، وأكل من بلحه جنود الرومان ، وأدرك العرب الفاتحون أسراره ، وقدروه حق قدره ،وتمتعوا بثمره وسعفه ، وغرسوا فسائله فى كل مكان حطوا فيه الرحال وطال بهم المقام .
هذا النهر الذى جعل من النخل خليله ..عصى على الحبس أوالترويض .. هو الذى يروض بنفسه كل ماحوله ، وفى كثير من الأحيان تتناقص مياهه ، وتفقد عنفوانها إلا أن السواقى تلاحقه ، والأبقار المغطاة العيون لاتكف عن الدوران .
كانت فاطمة تلهو ببراءة على شاطىء النهرمع الصبى رضوان فتاها وابن خالتها ، وهو يدور كما تدور الساقية ممسكا عصا مربوط فيها حبل ثم يرفعها فى الهواء محذرا البقرة مغمضة العينين من التكاسل عن الدوران ، ومن حين لآخر يرفع صوته كى تدرك البقرة أنه أقرب إليها من حبل الوريد .. فتدور بسرعة ،وعندئذ ترتفع دفقات المياه من النهر ، لتصب فى قنوات ثم تجرى فى عروق الأرض مجرى الدم فى شرايين الإنسان ، وبقدرة قادر تتحول الأرض السمراء بلون المسك إلى خضراء بلون الياقوت ، وتحتشد الحقول بالفول الأخضر ، والقمح الذهبى الأصفر ،والعدس والبصل ، وفواكه وخضروات شتى ، بينما الفتاة تلهو وتمرح وتضحك من قلبها مع رضوان كعصفورين من الجنة .. وشىء جميل برىء غامض ينمو فى قلبيهما ، ولايدركان ماهو ، وإن كانا يحسان بأن له مفعول السحر .
زرع أخضر يرتوى بالألفة والمودة ، ويصعد النخل ويعلو للسماء كأذرع الألهة الفرعونية القديمة ، جذوره مغروسة فى طمى النيل بينما رؤوسه مشرئبة .
يواصل النهر سيره الدؤوب بصبر عجيب ، وسط صمت الوادى حتى ترتفع المآذن بنداء الحق ،وتطير الحمائم حول النهر ، تكحل عيونها بمشهد المياه الزمردية ثم تعود إلى أعشاشها عند الغروب ..
يضحك رضوان ويجرى حول فتاته كما يحوم الطير غراما حول الأمواج ، ودائما يخبىء لها مفاجأة سارة من ثمار الأرض السمراء ..وهو يعلم أنها مغرمة بالبلح الأحمر .
يغيب لحظات ليجمع لها مالذ وطاب من عطاء النخل العالى ، وإن لم يجده يستحضر كل قوته ، ويظل يرجم النخل حتى يحصل على مايريد .. ومايحسبه يرضيها ويسعدها .
يبدو الفتى رضوان ناعما كالبنات خجولا كعذارى المدارس له وجه أبيض مشرب بحمرة الورد ، مستدير كالبدر ، وشعره أصفر كخيوط من ذهب .. عيناه عسليتان حين يصوبهما نحو فاطمة فتشعر بالحياء والنشوة ولاترى فيهما سوى الإعجاب ، وفيض من ود ومشاعر ليس لها سوى تفسير واحد ، وأحيانا تسأل نفسها :

- هل ياترى ماتحسه تجاهه ، وماتراه فى عينيه العسليتين البراقتين لمابينهما من صلة قرابة فقط ..أليس ابن خالتها ؟!

وإن كانت تدرك فى قرارة نفسها مايدور فى أعماق الفتى ، وتعلم أن الأمر أكبر بكثير من صلة القربى ، كما أن مشاعرها لاتخطىء ولاتكذب ، فهى لاتود أن تفارقه طول الوقت ، وتحب دائما النظر إلى وجهه الوسيم .. وهو أيضا لايطيق فراقها ليوم واحد .

وبرغم حداثة سن الفتى إلا أنه يمتلك ذراعين قويتين ، وكلما شب عن الطوق أصبح قادرا على رجم النخل ، وإطلاق قذائف من حجارة تصيب سباط البلح الأحمر ، وينفرط عقده ، فيهرول الفتى ليجمعه ، وتزغرد

الفرحة فى عينى فاطمة ، ويملؤها الفخر بقدرة ابن خالتها على أن يهديها ماتحب من البلح الرطب الطازج الذى يفيض عسلا وشهدا بين شفتيها المكتنزتين .

عندئذ ترمقه بنظرة اعجاب مستتر تخاف أن تفصح عما فى قلبها تجاهه .. ويبزغ من عينيها السوداوين الواسعتين الساحرتين ومضات براقة يفهمهما الفتى كما يفهمها النخل أيضا .. ثم تسترخى على وجهها ابتسامة رضا وإمتنان ، وتنساب خصلات من شعرها الأسود الفاحم الناعم على كتفيها ،وفوق جبينها فتبدو كواحدة من ملكات الفراعنة المرسومات على جدران المعابد بجوار النيل عند الجنوب .

وتشى ملامحها الآسرة بأنها حفيدة نفرتيتى جميلة عصرها ومصرها حين تربعت على عرش البلاد والعباد .

للأسف لم تلعب جينات الوراثة لعبتها فى شجرة العائلة ، فالصبى رضوان له وجه أبيض أحمر كأنه أمير إنجليزى ضل طريقه إلى عزبة الحنكاتى ، بينما فاطمة تبدو سمراء قليلا واسعة العينين ، غليظة الشفاة ، خلاسية البشرة كفرعونية من سلالة أصيلة ، ويظل الجمال فى عين الراعى وليس فى الصحارى !

تبدو الفتاة كأنها إنتزعت من عالمها الأصلى ، وضاع السبب الذى من أجله جاءت من وادى الملكات إلى هنا فى وسط دلتا مصر لتعيش فى عزبة الحنكاتى التابعة لمركز سمنود بمحافظة الغربية ، حيث لايوجد سوى الأرض والنهر والنخل والبيوت القديمة.

يختلسان بعض الوقت للهو البرىء فى ساحات الحقول ، وسط العشب الأخضر ،وغابات النخيل التى تميز عزبة الحنكاتى عن غيرها من قرى البر كله .

اعتاد الصغيران يوميا على الفرار ساعة العصارى من الأعباء المدرسية لممارسة هواية المرح فى الحقول الخضراء الشاسعة ، ومنازلة الفتى للنخيل المثمر بقذائف من أحجار صغيرة تطلقها أصابعه النحيلة .

وقبل أن يهبط الليل بستائره السوداء يعودا سويا ، ويحرص رضوان على أن يوصلها حتى باب دارها التى لاتبعد سوى خطوات عن داره ، فتضحك بتلقائية، وتظهر أسنانها الناصعة البياض ثم تهمس بخجل :

- شكرا يابن خالتى .

يبتسم قائلا :

- فى الصباح أنتظرك كى نذهب سويا إلى المدرسة .

تهز رأسها وتدخل دارها على عجل حتى لايسألها أحد عن سبب تأخرها .

وفى غرفتها تتذكر كل ماقاله لها ، وهو يقدم لها البلح مزهوا بذاته وكأنه عنترة ابن شداد العبسى جاءها بمهرها من الناقات الحمر بعد معركة مع جيش الملك النعمان ابن المنذر !

استعادت كلماته وعلى محياها استقر الإرتياح المريح :

- فى المرة القادمة سأحاول صعود النخلة بنفسى كى أقطف لك بيدى البلح الذى تحبينه .
- ولكنى أخاف عليك يارضوان ، فالنخل عالى وغادر ، وأنت صغير .
- لايافاطمة .. لم أعد صغيرا ، وكل يوم يمر يكبر الحلم بداخلى فى أن أمتهن (طالع النخل) مثل بعض الناس فى العزبة .

تضحك قائلة بمكر أنثوى :

- ولماذا تخاطر بحياتك والدنيا مليئة بمهن سهلة ومريحة ومربحة ؟!
- صدقينى لاأريد لنفسى مهنة سهلة .. بل أريدك أن تدركى أننى مستعد أن أمتطى النخل العالى طويل القامة ، وأروضه حتى آتيك بما تحبين .

نظرت إليه وعلى شفتيها المكتنزتين ابتسامة ، دون أن تبوح له بشىء .

****

(2)

تسير فاطمة على شاطىء النيل ، ورضوان إلى جوارها بزى المدرسة ، تواصل الغناء بصوت شجى نقى ينطلق من حنجرتها الصافية ليحلق فى السماء مع طيور النهر ، ومقاطع غنائها تتسلل إلى أعماقه وتسرى فى وجدانه ،ظن أنها تغنى من أجله .. ربما كان الأمر كذلك بالفعل ، وربما كانت تغنى لنفسها عساها تقطع ملل الطريق الطويل .

الحقول الخضراء تحيط بهما من الناحية الشرقية ،والنهر يؤنس وحدتهما من الناحية الغربية ، وعندما سكتت عن الغناء وجدته صامتا يفكر ، ولاينظر سوى تحت قدميه ، كان شاردا على غير عادته ، والجو فيه لسعة برودة ، وقطرات من المطر تتساقط على استحياء ، كأن السماء مترددة هل تمطر أم تستقر ؟!

لاحظت صمته المريب ، وإن شعرت فى حضرته بغيبوبة لذيذة ،لكنها التفتت إليه متسائلة :

- أراك اليوم مشغول البال .. متغير الحال .. ماذا بك ؟!
- قررت أن أتوقف عن التعليم بعد الحصول على الشهادة الإبتدائية نهاية هذا العام .

دهشت الصبية وهتفت مستنكرة :

- لماذا يارضوان وأنت نابه فى التعليم ومتفوق ؟! وهل ستتركنى أواصل هذا المشوار وحدى ؟!
- سأكتفى بالإبتدائية .. وأتجه للعمل .
- عمل .. أى عمل يامجنون ؟!
- يافاطمة كما تعلمين لم يعد أبى قادرا على العمل فى مصنع الطوب بعد أن تمكن منه فيروس الكبد اللعين ، ويكاد يفتك به .
- لكنك مازلت صغيرا على العمل ياابن خالتى .
- إثنا عشر عاما عمرى الآن ، وأقرانى يعملون فى الحقول ومصانع الطوب وصيد الأسماك فى النهر .. لاتنسى أننى الإبن البكر لأبى .. وكيف أترك أشقائى الصغار بلامورد رزق ؟! على كل الأحوال الموضوع انتهى ، وصاحب المصنع - أكرمه الله - وافق أن أحل محل أبى بعد نهاية الموسم الدراسى .

همهمت فاطمة بحسرة :

- خسارة ..

وبدأت قطرات المطر تتساقط ،وصوت ارتطام حباته بأوراق الشجر على جانبى الطريق يحدث لحنا منغما كأنه نقر على طبل .. ثم عاد الصمت حاجزا عاليا بينهما ، فأحست بالضيق وقالت :

- وهل والدك لن يذهب للعمل أبدا ؟!
- ليس الأمر بيده.. الداء هد قواه ، وصار يتحرك بصعوبة ، ولايغادر الفراش إلا لدخول الحمام أوالصلاة .

توقفت قليلا تحت شجرة توت عتيقة كى تتحاشى أن تبتل ملابس المدرسة فاستدار إليها متسائلا :

- هل سنتوقف عن السير ؟!
- ننتظر بعض الوقت حتى تكف السماء عن البكاء .
- علينا أن نسرع الخطى حتى لانتأخر عن موعد المدرسة .

تبسمت ساخرة ثم قالت بمرارة :

- المدرسة .. الآن صرت حريصا على المدرسة يارضوان ؟!
- يافاطمة هذا عامى الأخير فيها ، وأريد أن أنجح وأحصل على الشهادة .. لاوقت للرسوب وإعادة السنة ..مصنع الطوب أمامى، وأمى وأخوتى ورائى .
- ربنا كريم .

قالتها بأسى وبدأت فى السير مجددا إلى جواره ، ووجهها الفرعونى المنحوت ببراعة بدا مهموما .. ثم مد الفتى يده الصغيرة ليمسك يدها الأصغر ، وتقبض أصابعه المتوحشة على أصابعها الواهنة برفق كما لوكان يقدم لها اعتذارا ملموسا .

استسلمت أناملها فى كفه ، وتوقفت السماء عن المطر ، وزقزقت العصافير فوق الشجر ، تتراقص هناك على أشجار الصفصاف والتوت العالية على جانبى الطريق الممتد بلانهاية ، وهواء بارد يأتى مصحوبا برائحة النهر والطمى الفواح برحيق الزرع والماء يملأ البراح .

سرح بفكره ، وشردت هى الأخرى تتمنى أن يضمها بين ذراعيه القويتين ، ويجريان معا حتى منطقة غابات النخل ،وفوق قممه المرجان الأحمر بطعمه السكرى المعسول الذى تعشقه .

كان خيالها البكر يصور لها أن فتاها الوسيم ، ابن خالتها المتيم بها ورفيق طفولتها وصباها سيطوف بها فى غابة النخل ، وهى بين أحضانه سبع مرات كما يطوف الحجاج فى البقعة المقدسة .

تمنى رضوان أمنية غريبة لم يكتمها فى نفسه ، بل رفع صوته كمن يتكلم وهو يحلم :

- يارب أعيش لأصونك وأكون لك وتكونى لى .

بدا على وجهها الفرعونى الخلاسى امتنان عميق ، ورأت فيه عذوبة ماء النهر.. لاشىء يضاهى جاذبية لين القلب :

- يارضوان لاتتركنى وحدى ..لا أدرى كيف أعيش بدونك ؟!

كان الفتى يؤمن بينه وبين نفسه أن حياته يمكن لها أن تسير فى خط مستقيم نحو المستقبل كشريط قطار بلاتعرجات ، فهو يوم يخرج من المدرسة سيكون مثل التائه فى الصحراء يدرك أن كل خطوة إلى الأمام ربما تركت أحلامه تذروها الرياح.. إن قلبه شديد الحساسية ، وروحه هائمة فى الرومانسية .

لاتنسى فاطمة ذات يوم وهى عائدة من المدرسة ، والطريق خال من المارة ، وقد تعبت قدماها من المشى ، وطلبت أن تستريح قليلا تحت ظل شجرة جميز هائلة على حافة الماء ، وعندما جلسا سويا سقطت فجأة ثمرة جميز طازجة ينوح منها العسل فمدت يدها الرقيقة ورفعتها إلى فمها تتذوقها ، ورقصت على شفتيها إبتسامة ملؤها الطمأنينة والوداعة ثم هتفت :

- الله .. عسل .. جميز عسل .

تبسم رضوان وكبرت بداخله نخوة الرجولة المبكرة وقال :

- **أتحبين الجميز ؟!**
- **لذيذ وأنا جائعة .**

أزاح حقيبة كتبه بجوار حقيبتها بعيدا عن جذع الشجرة الضخم ، وخلع حذاءه ، وبدأ يتسلق هيكل الشجرة بحماس وبراعة فى الصعود لأعلى كأنه يمشى على الأرض .

وعندما سألته :

- **ماذا ستفعل يامتهور ؟!**

رد عليها بثقة وهو يحتضن جسد الشجرة ، ويرتفع شيئا فشيئا :

- **سآتيك منها بأحلى مافيها من ثمر .**

تطلعت إليه بإعجاب :

- **ولكنى أخاف عليك ..**
- **لاتخافى العمر واحد والرب واحد .. كل مايهمنى أن أقطف الجميز الطازج من هذه الشجرة إلى فمك مباشرة .**

ضحكت بصوت مرتفع فيه سعادة ..وكلما طالت يده ثمرة جميز ورآها طيبة ناضجة ألقاها إليها بحرص من أعلى قائلا :

- **خذى يافاطمة ..**

ترفع رأسها وتفتح كفيها بعناية حتى لاتسقط الثمرة فى الأرض ، تلتقطها بفرح ومرح ، ثم تلتهمها بشراهة وهى تبتهل :

- **ربنا مايحرمنى منك ياابن خالتى .**

وكلما سمع دعواتها صاعدة من الأرض إلى السماء عابرة فوق رأسه ،وهو على الشجرة يزداد حماسه فى أن يجمع لها المزيد ، وفجأة سمع صرختها :

- **رضوان .. يارضوان .. أدركنى يارضوان .**

أطل برأسه من أعلى الشجرة فرأى شخصا فوق حصان يمد يده محاولا أن يمسك بها ،ويرفعها فوق حصانه بالقوة ،بينما هى تحاول الهرب من المكان وتستنجد به ، نزل قفزا مسرعا جزعا لفزعها ، وقفز فى الأمتار الأخيرة من الشجرة إلى الأرض ، وبقدرة قادر تحول إلى وحش كاسر يدافع عنها بشراسة ضد هذا الشخص ، وعندما صار فى مواجهته جذبه من قدمه بكل قوة ، فأسقطه من فوق الحصان إلى الأرض ثم هجم عليه رغم أن صاحب الحصان فراج أبودومة أكبر منه بعدة أعوام ، فتمرغ تحته فى التراب ، وكان فى يده عصا أبنوسية لامعة سقطت إلى جواره ، واشتبكا بالأيدى حتى صرخت فاطمة فى رضوان أن يكف عنه ويتركه يذهب لحاله ،ولم يكن فراج أبودومة فى وضع يسمح له بالإنتصار ، ولم يكن يملك الجرأة والشجاعة فنهض متثاقلا ، وتلاشت جفاوة طبعه ، وجهارة صوته ، وقد آثر السلامة ، وانهمك فى نفض الغبار عن جلبابه الصوفى الفاخر ثم إلتقط عصاه ،وهو يمتطى حصانه بشىء من الحذر والإنكسار بعد أن باغته رضوان بجرأة وشجاعة ..وبعد أن استوى فوق ظهر حصانه قال بنبرة تحد وسخرية :

- الأيام بيننا ياحارس السنيورة !

ونظر نحو فاطمة وغمز بعينه قائلا :

- المهرة يلزمها فارس !

ثم ضرب بيده اليمنى ضربات خفيفة على صدره مشيرا إلى أنه هو هذا الفارس ،وانسحب من أرض المعركة كأحد جنود الفلول ، يبدو منكسرا رغم غطرسته ، واستدار بعوده الربعة ، وجسمه السليم عائدا نحو أرضه ومزرعته ، وقد بدا وجهه الأسمر نامى شعر الذقن ، وزغب خفيف فوق شفته العليا يشى بتباشير شارب جديد !

شعر رضوان بأن السهم موجه إليه ، وأحس بشىء من الغيرة يأكل صدره ، وإن كان كل شىء يدور فى هذا اليوم بطريقة حلم تقطعه لحظات من اليقظة .. سألته فاطمة بعد أن ابتعد فراج :

- من هذا يارضوان ؟! ولماذا يفعل ذلك ؟!
- ألاتعرفينه يافاطمة ؟!
- أول مرة أراه .. هل هو من بلدنا ؟!
- فراج .. ابن عوض أبودومة عمدة العزبة .

دهشت وخيل إليها أنه يمزح معها فسألته :

- ابن عمدة بلدنا .. وأنا لاأعرفه ؟!
- كان يعيش مع أمه فى القاهرة ، وهى تعمل راقصة فى ملهى ليلى بشارع الهرم ، وعندما وقع فى غرامها وزير مهم تزوجته لكنه اشترط عليها أن تتخلى عن ابنها ،وترسله لوالده خاصة وأنه اقترب من العشرين من عمره ،وقانونا أصبح الولد من حق أبيه ،وفترة حضانتها له انتهت .. .. وكان عمدة بلدنا قد تزوج تلك الراقصة لمدة شهر واحد !
- ياالله .. ماهذه الحكاية الغريبة يارضوان ؟!
- تلك هى الحقيقة .. أمه راقصة ووالده عمدة .
- وهل انتهى به المطاف فى العزبة ؟!

قالتها وهى تهز رأسها كمن فهمت مسألة حسابية معقدة ، واسترسلت قائلة :

- وبلدنا ماذنبها .. وهل المشرحة ينقصها قتلى ؟!
- كان فراج يأتى للبلد ،وهو صغير على فترات متباعدة جدا ليزور والده العمدة ، ويحمل فى ذاكرته حفنة من المشاهد ، ومجموعة من الذكريات عن الفلاحين والأرض والنهر ثم يعود من حيث أتى إلى أمه وعالمها المبهر بالأضواء والليل والسهر والرجال ، وهو يحس فى نفسه أن كائن تاريخى طالت عزلته عن الناس فى عزبة والده حتى نسى وجوه الكثير من الناس ، ونسيه الكثير منهم ، ولم يعد يذكره إلاالقليل .

وأخيرا جاء بشكل نهائى ليسكن العزبة، بعد أن غادر المدينة الكبيرة مضطرا ، وأقبل على الريف قسرا ، بعد أن عاش سنوات طويلة هناك يسير فوق الأسفلت ويقيم فى عمارات عالية من الحجارة ،تآلف مع قسوتها وصلابة حجارتها ،وربما أخذ منها سماتها ،وإلا لماذا صار فظا غليظا خشنا هكذا ؟!

ليس هذا من سمات الريفى الذى يعيش مع الزرع الأخضروالنهر الطيب ، والطمى اللين والأرض الحنون .

ليس من سمات الريفى مضايقة الورد ،إنما هذا من سمات ابن الأسفلت !

أومأت فاطمة برأسها قائلة :

- **ياترى هذا الفتى ظالم أم مظلوم ؟! مفترى أم مفترى عليه ؟!**
- **لاذ بصمت قصير ثم تنهد وقال :**
- **أقسم بالله لوتعرض لك مرة أخرى لأقتلنه .**

شهقت فاطمة وتسللت ابتسامة خجلى على شفتيها وهمست :

- **أتغار منه يارضوان ؟!**

تلعثم وتهته قائلا :

- **ليست مسألة غيرة .. لكننى كرهت مضايقته لك .**
- **لابأس .**
- **لن أسمح له أولغيره أن يجرحك بنظرة أوكلمة بعد اليوم .**
- **لماذا ياابن خالتى ؟!**

قالتها بدهاء ، وحملقت فى وجهه تراقب ردفعله :

- **ألاتعرفين يافاطمة ؟!**
- **لأننى بنت خالتك .. أليس كذلك ؟!**

قال بنبرة ساخرة لائمة :

- **لا ياترعة الذكاء .. لايانهر المفهومية ..ليس لأنك بنت خالتى فحسب .**

داخلها الإعجاب بذاتها وتصنعت السذاجة :

- **وهل بيننا شىء آخر ياابن خالتى ؟!**
- **أنت تعرفين أن أيامى وحياتى ومستقبلى مرهون بك ، ولاأتصور هذه الدنيا بدونك ،وأحس أن الله خلقك فى هذا الكون الواسع لتكونى لى ،وأن الله خلقنى لأكون لك أيضا .**

صوبت نظرات خجلى فى عينيه ، ولم تنطق ، وتذكرت القرويات وبنات المدارس ، وفتيات العائلة من حوله ، وأن لكل شاب فى الدنيا فتاة على الأقل هى نصيبه وهو نصيبها ،ثم راوغته متسائلة :

- **ومن يدريك أننى سأكون لك .. ربما أكون لغيرك ؟!**

أحس كأن شيئا ضخما يهوى فوق رأسه ، ولاذ بالصمت كما لوكان يتألم سرا !

****

(3)

فى تلك الليلة لم ينهض القمر بعد من نومه فى الأفق البعيد ،والوقت شتاء والليل قد جاوز منتصفه بساعة على الأقل ، وديار العزبة المطلة على الحقول من ناحية ، وعلى النهر من ناحية أخرى قد هجعت بكل مافيها حتى الطيور فى الأعشاش ،والمواشى فى الحظائر استسلمت لنعاس لطيف !

إن الليل شديد السكون بدرجة مخيفة ، يحرك الغرائز ويثير الرغبات ،ويهيج الخوف فى نفوس المنفردين بالليل ، وهناك فى مكان ما فوق سطح العزبة ينبح أحد الكلاب الساهرة كأنه يرى فى الظلام مالايراه النيام فى الأحلام !

وخيال فاطمة يصور لها أن فى الحقول القريبة ذئبا متوحشا يعوى .. كانت تبدو جميلة حتى ولوحزينة مهمومة ، وفى دقة ملامحها بساطة ريفية طبيعية ممزوجة بتقاسيم فرعونية ،وأنفها المرفوع لأعلى كأنف نفرتيتى يزيدها شموخا وكبرياء ، وعندما ألقت الأنوثة بسحرها عليها واستدار عودها وظهر ثمرها ، واكتمل نضجها ، صارت أنثى شبه كاملة .

هناك دار على الطرف الشرقى نامت منذ وقت طويل ،ربما بعد أذان العشاء بقليل ،فيها غلام له قلب أخضر ،ووجه أبيض دون أن يدرى أن ملك الموت يحيط بالدار، ويتأهب لإقتناص روح الأب الذى هو عامود الخيمة فى تلك الدار .

فى الصباح الباكر دوت صرخة أم رضوان حين حاولت إيقاظ زوجها كعادتها ليصلى ، لكنه أبدا لم ولن يستيقظ ولن يصلى .. لأنه نام للأبد .

فتحت فاطمة نافذة غرفتها الصغيرة كعادتها لتراقب النهر ، ومجاذيبه من الطير والبشر والشجر ، لكنها رأت مالم تره من قبل .. رأت غرابيب سود تحوم فوق الماء ، ونعيق البوم لاتدرى من أين جاء ؟! وتذكرت أنها لم تسمع كعادتها فى الليلة السابقة دعاء الكروان ولاتسبيحه لرب العالمين .. لم تسمعه يردد مثل كل الليالى .. الملك لك .. لك لك .. الملك لك .

انقبض قلبها بشدة من الخوف ، وتدافعت أنفاسها متلاحقة لاهثة كأن صخرة ثقيلة تكاد تطبق على صدرها ، فى تلك اللحظة وصل الخبر المشئوم دارها .. مات زوج خالتها .. مات والد رضوان .. بكت أمها ، وتأهبت بالسواد لمشاركة أختها مصيبتها .

وعندئذ بكت فاطمة بدموع ساخنة فى صمت مهيب بلاصوت مسموع ، لاتدرى أين اختفى صوتها ، وهل حنجرتها صارت خرساء ؟!

بدت كمن أصابها التخديرالطبيعى الذى يصحب الكوارث الكبرى ، ويشل حركة الإنسان وقدرته على الفعل ،كانت تتطلع إلى السماء ، وتحدق فى الفضاء من خلال الشرفة فتراها ملبدة بسحابة حزن ، وغيوم سرمدية سرعان ماتنفجر قطرات بكاء !

هاهى الظروف المعاكسة التى كان يخشاها رضوان تحدث ، وهاهى الأقدار تعاندها ، وتحاول التفريق بينهما ،ولسوف يكتفى الفتى من رحلة التعليم بالشهادة الإبتدائية ، ويغير مساره من طالب إلى عامل ، وبالطبع ستكون وجهته مصنع الطوب خليفة لأبيه ، بعد أن كادا يمسكان السماء بأيديهما الصغيرة ، لكن فى غمضة عين صار القريب بعيدا .

كان هناك بصيص أمل أن يواصل الفتى معها مشوار التعليم ، ويتراجع عن فكرة المصنع لكن موت أبيه قطع الخيط الأخير ، وقد استحال الحلم الجميل كابوسا فظيعا .

لاشىء يبقى على حاله ..هذه هى الدنيا ..ولها من اسمها نصيب .

فى تلك اللحظات العصيبة لم تخرج من غرفتها رغم أنها سمعت كل شىء ، وعرفت بمافعله عزرائيل ، ولم تفتح الباب لأحد ، وعند زوال النهار كانت خائفة ، ومع إرتفاع الضحى تحول خوفها إلى قلق غامض ،وبعد الظهر تحول القلق الممزوج بالحزن إلى شرود ولامبالاة ، ليس نوعا من الإستهتار ، فهذا أمر الله ولاراد لأمره .. لابد من الصبر ..والصبر نصف الإيمان .

إن عقلها دائما يفكر فى رضوان ، وقلبها حزين لحزنه فليس بعد الأب سند ، وهى نفسها تدرك كم كان زوج خالتها كالنهر الفياض بالحنان ، طيب القلب سمح السمات يحبه الغريب قبل القريب .

ومنذ اليوم الأول لرحيل الأب المريض الذى استراح بالموت من الداء اللعين أدرك رضوان هشاشة الخيمة بعد اختفاء عامودها فجأة ، وكأنه كان مجرد ضيف أو طيف .

إرتاعت الزوجة خوفا وهلعا لفكرة أن زوجها غادرها ورحل إلى العالم الآخر ، وتركها وحيدة تعانى فى هذه الدنيا .

وعندما يغيب الأب يصبح الإبن الأكبر مهما كان صغيرا هو رجل الدار ، ولطول غياب الأب وفراقه الأبدى أصبحت الأم هى الشخص الأول فى حياة رضوان وأخوته ،وإن بدأ يشعر أنه صار الشخص الأول فى حياتها وكذلك لأخوته أيضا ، ويحس بإحساس الإبن وأمه تأنس إليه فى وحدتها ، وتنظر إليه كرجل يمكن الوثوق به والإعتماد عليه ،وحين ينام الصغار ويسكت الليل ، وتنام العزبة تظل هى تسامره وتحكى له شئونها وشجونها ،مايفهم ومالايفهم ، ولم يكن يدرك وهو فى بواكير صباه ومراهقته ، وحداثة عهده بعالم الرجال ، وانعدام خبرته أن المرأة أقرب ماتكون إلى الجنون ،وهى بعيدة عن الرجل ..بينما الرجل يكون أبعد مايكون عن الجنون وهو قريب من المرأة !

تلك أية الله فى خلقه ، وسنته فى أدم وحواء منذ الأزل وإلى الأبد .

وكلما طالت غيبة الأب تحكى الأم على مسامع رضوان بحماس وشغف وحنين قصة زواجها بأبيه ، تكررها بقصد أوبغير قصد ، وكأنها أسطورة تريد أن تحفرها على جدران ذاكرة ولدها البكرى .. وتظل تحكى وتحكى ، وهو راقد فى فراشه بين اليقظة والنعاس حتى يغيب عن الوعى .

تنسى أولاتنسى ، لكنها تعيد الحكاوى، وتسترجعها كأنها تحاول أن توقف عجلة الزمن .

فى تلك الأيام كان رضوان يعود من مصنع الطوب عندما تغيب الشمس ، ويهبط الغروب منهك القوى مهدود العزم كمنزل آيل للسقوط .. يفكر فى فاطمة ولاتتاح له الفرصة ليراها إلا نادرا ..إن الظروف تغيرت والأيام لاتترك أحدا على حاله .

اجتاحت العزبة خلال هذه الأيام الشتوية موجة غريبة من الحرائق ، وكأن النار تسرى بالعدوى مثل الوباء من دار إلى دار ، ولاأحد يدرى من يشعلها ، ودائما تقيد الحرائق ضد مجهول ،فالرياح الشمالية الشرقية تهب جافة ، وتمر مر الكرام فوق النهر لتأخذ مسحة من مياهه العذبة ، وتنشط أثناء الليل بطريقة عنيفة مخيفة تهدد أسقف الخشب والقش والحطب فى كل دار ، وفور أن تغمض العيون ، وترتاح الجفون ، وتهجع الأجساد المتعبة تحت الأغطية الثقيلة حتى ينهض الناس على الصراخ المزعج ، وهرولة الفلاحين بملابس

النوم الهزلية ، وسراويل الفراش الشفافة ، يخرجون مهرولين بنعالهم الخفيفة أوأقدامهم الحافية العارية إلى حيث تستعر النار .. يطفئونها بحماس ، وهم يتصايحون كأنهم فى معركة مع الشياطين الحمر !

أليست الشياطين مخلوقة من النار ؟! كما أن نسوة العزبة لايتأخرن عن أبدا عن الرجال فيسارعن بالأوانى والبلاليص المملوءة بالماء ، وهن يصرخن ويولولن بحسرة ورجاء :

- سترك يارب .. أعوذ بالله من النار ..سترك ياستار .

يستيقظ رضوان فى معظم الأوقات فيجد الليل باسطا ستائره ، والسكون مخيما .. يوقظه برغوث مارق ضل طريقه فدخل أذنه بلااستئذان ،أوهاجس مزعج يوحى إليه بأن حريقا شب فى داره وأكل أمه وأخوته ، فيفتح عينيه عساه يتلمس حقيقة الأمر ، فلايرى سوى سطرا من الأطفال يرقد تحت الأغطية ، والأم قريبة منهم ، والمصباح يكاد يلفظ أنفاسه من إرهاق السهر الطويل ، يلقى الفتى نظرة على أمه وأخوته ثم يعود ليستأنف نومه من جديد .

ذات ليلة نهض من نومه مؤرقا من شىء غامض لعله كان زمجرة الريح فى أجواء العزبة ،أصوات متداخلة غير واضحة المعالم ، وعندما أرهف السمع تبين له وقع حوافر حصان خلف حائط الدار الفاصل بينهم وبين الطريق .. تحرك من فراشه وتخطى أخوته وأمه ثم مد يده وفتح النافذة بحرص وحذر عساه يستطلع الأمر .

رفع بصره المثقل بالنعاس ، ورغم حذره أحدث فتح النافذة صريرا فى هدأة الليل ، ورأى حصانا يتراجع وأشباحا تتحرك فى المكان .. فصاح بصوت مرتفع :

- من هناك ؟!

لاأحد يرد ، ولايرى شيئا ، فالضباب والعتمة يصنعان ستارة تحجب الرؤية ،ولم يعد يدرى إن كان نائما يحلم فيطمئن ، أومستيقظا فيخاف من الأشباح التى تحوم حول الدار كما يخاف الصغار .

كان واثقا أن أمه مستيقظة ، وربما لاتنام نهائيا منذ غادر والده الدنيا ، وأنصت لها قليلا فسمع الشهقات تقطع صمتها ثم تعود لتستأنف نشيجها مرة أخرى بلامبالاة ، وكأن أى خطر يتربص بالدار ، وكل خطر يأتى بعد ترملها ورحيل رجلها أمر هين لايستحق الإنتباه !

حاول أن يسترد سكرات النوم من رأسه فعجز ، وظل مؤرقا لوقت طويل ، وفكرة واحدة تسيطر عليه .. هل هذا الحصان هو نفس الحصان الذى حاول صاحبه أن يؤذى فاطمة ؟! هل شبح فراج أبودومة سيطارده مرة أخرى ؟! ربما يتربص به لينتقم منه بعد أن رده مهزوما .

يتعجل خروج النهار للنور كى يخرج هو إلى الشارع بعد مشرق الشمس مباشرة ليرى وجه النهار ، وهل سيكون يوما كبقية الأيام ترتفع شمسه على رأس العزبة.. أم أن هذا النهار سيكون له ملامح أخرى ؟!

لاشك أن الكواكب ستؤدى عملها بطريقتها التى لاتتغير لكن الناس هم الذين تغيروا .. سبحان الله له الأمر والنهى وحده فى هذا الملكوت .

لم تكن أم رضوان - التى هى خالة فاطمة - استثناء فى العزبة ، فهناك الكثيرات مثلها ، وهى لم تكن سيدة دارها فحسب بل كانت تكدح فى الحقول والمزارع كلما أتيحت لها الفرصة ، وفى العزبة شباب من كل صنف ..منهم من لم يفرح بالدنيا بعد .. ومنهم من لم يسعده الحظ فى زواجه الأول .. لكنهم - فى الأغلب - ممن يحملون الفأس مع مشرق الشمس ليدبروا رزق يومهم ،وتعتمد إقتصادياتهم العائلية على أساس الإزدواجية فتعمل المرأة مع الرجل جنبا إلى جنب ، وليست الديار من التى تقسم فيها المسألة إلى قسمين ..

الرجل يسعى بدأب فى سبيل الرزق ،بينما ترقد الأنثى على البيض وتحتضنه حتى يفقس !

أما اليوم فلم يعد الزمن هو الزمن ، وبرغم براعتها فى تدبير أمورها إلا أن نفقات الأولاد الأربعة الذين يكبرون يوما بعد يوم وتكبر معهم مشاكلهم واحتياجاتهم ، بددوا مدخراتها الضئيلة ، ولم يبق لها سوى جلباب شبه جديد تلبسه - ليستر مايجب ستره - تحت الجلباب الريفى البالى الذى نالت منه قواقع القطن فى الحقول خلال موسم الحصاد .

لقد أحست فى تلك الأيام بمرارة الحياة ، وانتابها الإحباط الشديد بسبب شظف العيش ،وغياب الرجل الزوج والسند ، وكأن المصائب لاتأتى فرادى .

وكلما نظرت تلك الأرملة فى وجوه أولادها تلاحظ أن تعابير الألم قد حطت رحالها على ملامحهم .. لكن الحياة لاتتوقف أبدا ، ولابد للرحلة أن تستمر مهما كانت قسوتها وعثراتها .

لابأس فالأيام ترمح ، والشهور تقفز ، والسنوات تسرح ، ورضوان يدخل بكل ثقة ريعان الشباب ، ويبدو عنفوانه زينة لايغلبها الفقر ،كل شىء يزيده تفاؤلا حتى أصعب المصاعب .. لايعرف معنى اليأس .. ولامكان للإحباط فى قاموسه ، وقوته البدنية التى تزداد يوما بعد يوم تمد روحه بالكثير من الثقة حتى أنه عندما يرى خسائره القريبة يتفاءل بأنها ربما تكون مكاسب بعيدة آتية لامحالة ،وإذا رأى بعين البصيرة المستقبل المفلس ، يدرك بعقله الذى يكبر عمره أن المشاكل جزء أساسى من طبيعة الحياة اليومية ، ولابد منها ، ولايوجد مشكلة عصية على الحل .

ولاينسى ماقالته له أمه بعد موت أبيه مباشرة :

- **الرجل يابنى عليه أن يطارد الرزق حتى النهاية ، أما المرأة فعليها أعباء أخرى ، ومعارك أخرى فى ساحات أخرى ..**

كانت توحى إلى ابنها الغض صغير السن بأنه صار فى طور الرجال ، ولم تكن الإشارة سوى نشوة من حب نفضت بها عوده الأخضر من أعلى إلى أسفل ، كما تهز الريح الشجرة فتزيح عنها الغبار ، وتحثها على أن تترك ثمارها تتساقط هدية لعابر سبيل !

فى قرارة نفسه أحس أنه مغبون لأنه ترك الكتب مضطرا ، وابتعد مجبرا عن بنت خالته أحب الناس إلى قلبه .. ومالبث هذا الشعور أن فاض وحل محله ميل إلى البكاء .. فقالت له أمه بحكمة السنين :

- **ياولدى الحزن والفرح توأم واحد بحبل سرى له وجهان ، وليس أمام الغريق سوى أن يعوم ، وإلا فلا يلوم .**

زارت فاطمة دار خالتها والتقت رضوان وقالت له الكثير بعينيها والقليل بلسانها ، وكان يظن أنه يدور فى دوامة مملة خالية من التقدير ، فلاتعليم بصحبة من يحب ، ولاشهادة ترفع قدره بين الناس سوى الإبتدائية ، وأمامه مستقبل باهت منزوع الدهشة ، لم ولن يكون له شأن فى هذه الحياة سوى مجرد عامل فى مصنع للطوب يحرق الطين بالنار فيحيل سواده إلى احمرار .. خرج من شروده على همس فاطمة قائلة :

- **أنت يارضوان أنبل من عرفت فى حياتى .**

أحس الفتى بالفخر وأدرك أن تضحيته من أجل أمه وأخوته لم تذهب أدراج الرياح ،اقترب منها والتنهد يكاد يخلع قلبه :

- **فرقتنا الأيام .. هل يمكن أن تجمعنا مجددا ؟!**

أطرقت خجلا ثم قالت بمكر:

- **لم أفهم قصدك .**
- **يابنت خالتى .. لاأريد أن أخسرك ، ولاأستطيع أن أعدك الآن بشىء .. لأن الوعود أرخص هدية يمكن تقديمها فى أوقات المحن .**

انخرطت الفتاة فى أفكار شتى ، ورأت بعينى خيالها أشياء كثيرة ، رأت زوجا وسيما قسيما يهبها حبا عظيما ، وذرية رائعة ..رأته الجواد الذى تراهن عليه .

استفاقت من خيالاتها ، وأحلامها الوردية على صوت مزعج لشىء يتحطم ، أشبه مايكون بوعاء الخزف ، ولم تسمع صوت خالتها تناديها أوتستبقيها فى الدار لآخر النهار كعادتها معها .

أطبق الصمت وإزداد عمقا ، وهى لاتسمع سوى دقات قلبها ، ورفعت رأسها قليلا ، وحدقت فى عينى فتاها وقد أحست أن قلبه يكاد يقفز من بين أضلعه ،رأت فى عينيه توسلات ورجاء أن تبقى على العهد .. وأن تظل على الوعد الذى لم تنطق به أبدا مهما حاول أن يستدرجها إليه أو يستنطقها به ..كانت فى كل مرة تكتفى بأن تقول له بنبرة مجربة عاشت ألف عام :

- **كل شىء قسمة ونصيب ياابن خالتى .. كله بأمر الله ..الأمس فى ذمة الله ..واليوم لنا بمشيئة الله ..أما الغد فلانملكه ، ولاندرى ماذا يخبىء لنا الله فيه ، وماذا يعطينا الإله فيه أويأخذ منا ؟!**

كل منهما كان يدور فى فلك حلمه ، وأرض الحلم واحدة ، وإن كان الفتى الذى ملك قلبها الصغير يخاف من غدر الأيام وألاعيبها، وكفاه دليلا مافعلته به حتى الآن .. فالموت والفقر والغربة والوحدة والحرمان من القوى الطبيعية التى لاتصمد أمامها ، ولاتستطيع ردها فضائل البشرية !

بل يقف الإنسان أمامها عاجزا يتحسر ألما .

لكن من أى شىء تخاف فاطمة البريئة ، فرعونية الملامح ،ريفية الأخلاق ، بسيطة السمات ، ؟! ومن أى شىء يخاف ابن خالتها ، ورفيق طفولتها وصباها حتى اختطفه منها مصنع الطوب كما إختطف الموت أباه ؟!

إنها تخاف من التغيير وهو كذلك ،برغم أن التغيير هو الثابت الأصيل فى هذه الحياة الدنيا ، كل شىء من حولها يتغير ، الغياب والحضور طبيعة الأشياء ،وأحيانا يكون الغياب أقوى من الحضور .

الإنسان الواحد كائن يتغير بين لحظة وأخرى ، وكل الناس يتغيرون لأن الحقائق ذاتها مواقع متحركة على أرض تدور .

تخاف فاطمة من أن تصهره نيران مصنع الطين فتحرق براءته ، وتسحق طينته ، وتجعل من قلبه اللين حجرا صلبا ، لاتريده أن يكون فى قسوة هؤلاء الذين بين الأحجار ، ويقطنون الحجارة والحديد فى عمارات شاهقة ، ويسيرون على أرصفة صلدة مثل فراج أبودومة .

تريد رضوان عودا أخضر كما هو بقلبه الصافى الدافىء العذب كماء النهر ، تريده كما خلقه الله بروحه المرحة المحبة للناس والحياة .. تريده كطيور السماء وعصافيرالبساتين .

لاتريده أن يحترق أبدا بنارالرجولة المبكرة ، وعندما غادرت داره ، وخرجت لشوارع العزبة وحواريها ، رأت فى السماء سحابة معتمة ، وخمائل الزروع الخضراء ، والأعشاب تتمايل على ضفة النهر مع ريح طرية

لم تشتت شمل مجموعات الطيور التى تحلق فوق صفحة النيل الملساء ، بينما كل شىء حولها يوحى بهواجس غامضة ، أشياء غريبة وشيكة الحدوث .. تطلعت نحو السماء بتوسل ورجاء فوجدتها حبلى بالكثير .

******

(4)

بدأ الفتى المدلل حديث العهد بالريف بعد سنوات قضاها فى المدينة يلهو ليلا وينام نهارا ، ولم لا ؟! أليس ابن العمدة الرجل الثرى الذى بيده السلطة والنفوذ ؟!

تعرف على شلة من العاطلين والحرفيين والأجراء فى العزبة ،.. أسعدهم كثيرا أن يظهر فراج أبودومة فى حياتهم فجأة بمال أبيه وأرضه الواسعة وسطوته على البؤساء البسطاء من الفلاحين .

وإذا إجتمع البؤساء ليلا مع فتى مستهتر كان الشيطان راعيهم والعبث طريقهم ، عرفوا سكة الدخان الأزرق ، والثرثرة فى كل شىء ، وذات ليلة شتوية باردة مارسوا طقوسهم ، أكلوا وشربوا ودخنوا، وغادروا دوار العمدة مع مطلع الفجر إلى ديارهم يتحسسون وقع أقدامهم ، بينما امتطى فراج جواده الأشهب واقتحم به شوارع العزبة الصامتة ، والناس نيام ، ولاصوت يسمع سوى نباح الكلاب هنا وهناك ، ومن حين لآخر يعوى ذئب جائع من أقاصى الحقول .

طاف بأطراف العزبة كأنه حارسها متفقدا حالتها ومتلصصا على رعاياها ..وعلى الناحية الجنوبية من البلد دار صغيرة من الطين كان يتردد على هذه الدار كلما لعب الليل برأسه ، أوطار فوق السحاب بفعل الدخان الأزرق ، ورأى الحور العين بعين الخيال وأوهام الدخان يتراقصن له وحده بدلال وإغواء .

يشعر فى هذا الجو البارد بسخونة طاغية فى جسده ، وبرغبة محمومة فى صباح التى تعيش وحدها فى تلك الدار المنسية على حافة العزبة .. مسكينة تكدح نهارا فى الحقول ، ولولم تكدح لتدبير قوت يومها ربما تموت جوعا دون أن يدرى بها أحد .

وتنام ليلا منهكة بائسة بلاأنيس ولاجليس ، ولاتملك من حطام الدنيا شيئا ..تجاوزت الثلاثين من عمرها دون أن يطلبها أحد للزواج ، ربما لأن حظها من الجمال شحيح ، تبدو ضامرة هزيلة مثل عود القصب الممصوص !

راودها ابن العمدة عن نفسها فاستجابت غير مصدقة أن فراج اختارها من بين كل البنات ،أحست بأنوثتها لأول مرة بعد أن طغت عليها فكرة أنها سقطت سهوا أوعمدا من عيون الرجال .. فلاأحبها أحد ولاأحبت هى أحدا .. أليست أنثى ومن حق كل أنثى فى هذه الدنيا أن يكون لها رجل يشاركها الحياة ؟!

عاشت وحيدة على هامش الهامش بعد رحيل والديها ، وأحيانا تظن أنها والعدم سواء .. ولاتدرى إن كانت فعلا موجودة فى الدنيا أم لا ؟! ربما تكون موجودة لكنها والهواء سواء .. تحتار أهى حقيقة أم خيال ؟!

وإن رضيت بتجاهل الناس والحياة لها ، ورضيت بالعدم وحسبت أنها صارت نسيا منسيا .. لكن إيمانها راسخ بأن كل شىء مكتوب .

وحين ظهر فراج فى حياتها ، وعملت عنده فى أرضه عششت فى رأسه ، ربمايكون هذا ذوقه .. ربما يكون معجبا بقبحها وضمورها .. من يدرى ؟! لكنه اختارها وقرر أن تكون فريسته ، راوغها بكلام معسول لم

تسمع مثله من قبل ، فأحست أنها ملكة متوجة صرعتها كلمات الغزل لدرجة أن أحد رفاقه فى سهراتهم الليلية ، وقد صنع الدخان سحابة من الغيبوبة فى رؤوسهم عندما سمع فراج يذكرها كثيرا قال لهم :

- **يبدو أن ابن العمدة عاشق القبيحات !**

ضحكوا جميعا وعلق آخر وهو بين العقل والجنون :

- **مؤكد أن صباح هى الدواء المر لمريض حالته ميئوس منها .**

قال فراج :

- **آه والله ..أنا مريض بداء النساء .. جميلات قبيحات لايهم .. كلهن جميلات فى نظرى .. برغم أنهن جميعا فى ظلام الليل سواء ..عندما تطفىء النور لافرق بين مارلين مونرو والبنت صباح ....كل امرأة فى نظرى هى سيمفونية من الموسيقى يجب أن تكون قلوب الرجال مصغية لتسمعها .. لايهم تلك السيمفونية رائعة مثل مارلين أونشاز مثل صباح !**

قال آخر من رفاقه وهو يسحب نفسا عميقا من الشيشة :

- **صباح منسية منذ سنوات وكأن لاأحد يراها .**

هتف فراج :

- **ياصديقى .. لعله خير .. نحن مسئولون فى كثير من الأحيان عن أمور وأحداث وتجارب لاتقع لائمتها علينا..هذا جزء من الحياة التى تورطنا فيها رغما عنا .**

فى الليلة التالية ظل فى مخدعها ساعتين ثم غادر دارها قبل أن تدب حركة الفلاحين فى طريقهم للحقول ،كانت صباح تحس نحو الرجال بأسى غامض ، ربما لأنها لم تمارس الحب كل هذا العمر ،ولأن لاشىء يبقى سرا للأبد فى تلك العزبة صغيرة طالتها الشبهات ، وعرفت الألسن الهمس بسيرتها ، وصار اللغط بسمعتها مثل لغط الدجاجات فى الحظيرة .

وكلما ناوشه الحنين ، وداعبه الشوق فى الربع الأخير من الليل ، يمتطى فرسه كأنه يتفقد أحوال رعيته ، ويتردد عليها بين الحين والآخر خلسة من كل العيون المتربصة ، والأذان المتلصصة !

يجوب العزبة فوق فرسه مزهوا بنفسه ، متباهيا بنفوذ أبيه وطينه وسلطانه ، يبدو مثل ذئب يتنكر فى ملابس الحارس على العزبة وناسها بينما العكس هو الصحيح .. فمنذ متى كان الذئب حارسا على الأغنام ؟! ومنذ متى نامت النعجات آمنة مطمئنة تحت حراسة ذئب جائع ؟!

ذات نهار حار كانت فاطمة عائدة من المدرسة ، وجلست تحت شجرة جميز عتيقة عملاقة فى نفس المكان تقريبا الذى إلتقت فيه فراج أبودومة لأول مرة .. بينما صباح عائدة من العمل فى الحقول بأجر يومى كما إعتادت ، وجلست تحت ظل الشجرة تستظل وتستريح من لسعات الشمس وسياطها اللاهبة ،ودار بينهما حوار ودى لطيف ، حكت خلاله فاطمة ماحدث بينها وبين فراج ، وكيف حاول مضايقتها بحماقة كلب مسعور لولا أن تصدى له رضوان بشجاعة وشهامة .. عندئذ دهشت صباح وقالت مستنكرة باندفاع وغيرة :

- **ألاتعرفين أن فراج زوجى ؟!**
- **زوجك .. هذا أمر عجيب .**
- **صدقينى هو تزوجنى سرا بعقد عرفى .**

- ولماذا لايكون زواجا علنيا على رؤوس الأشهاد ؟!
- هذا شرطه الوحيد .. وقد أصر على ذلك حتى يرتب أموره مع والده العمدة ، وقد وعدنى أن يجعل زواجنا علنيا فى الوقت المناسب .
- وماهو الوقت المناسب ؟!

تلعثمت صباح وهمست بضيق :

- لاأدرى .. لم يحدد .
- وهل عندك نسخة من عقد الزواج العرفى ؟!
- لا .. للأسف .. المأذون كتب نسخة واحدة من العقد بناء على رغبة فراج الذى يحتفظ بهذه الورقة فى مكان لاأعلمه .

بدت فاطمة غير مصدقة لماتسمع وعادت تتساءل :

ـ وهل يعرف أحد من أهل العزبة بهذا الأمر ؟!

- أبدا .. على الإطلاق ..
- ولماذا ياصباح ؟! الزواج إشهار .
- هو يريد أن يبقى الأمر سرا كما قلت لك .
- لكن هذا الوضع فى غاية الغرابة .. كما أنه ظالم لك أيضا ..ويضر سمعتك .
- لايهمنى شيئا سواه .. ولسوف أصبر حتى يأتى الوقت المناسب الذى وعدنى فيه أن يخرج سرنا للنور .
- ولماذا كشفت لى أنت سرك هذا ياصباح ؟!
- لاأدرى والله ..ربما شعرت أنك مثل أختى أوصديقتى .. ارتحت لك فألقيت بهمى على صدرك ، وأرجو أن تحفظى سرى .

ربتت فاطمة عليها بحنان بالغ ووعدتها خيرا :

- أنا لاأرى .. لاأسمع .. لاأتكلم .

تبسمت صباح ثم استغرقت تفكر فى المصيبة التى ارتكبتها بزلة لسان ، وماذا تفعل لوأفشت فاطمة سرها ، وهتكت سترها ؟!

ثم عادت تخفف اللوم على نفسها قائلة لنفسها :

- كان لابد أن أخبرها حتى تصده وترده وتردعه عنها ..ويبدو مما قالته فاطمة أنه وضع عينه عليها ، ولسوف يعاود المحاولة معها .. أنا أعرفه جيدا .. طفل كبير أرعن لايتوقف عن الإلحاح بكل الطرق حتى يقتنص اللعبة التى يريدها .. مأأحمقه ! ويكفى أن يكون سره مفضوحا أمامها ،وعاريا تماما حتى من ورقة التوت ، كى لاتكون له فرصة أبدا فى خداع فاطمة ، واستمالتها إليه ،وهو يرتدى قناع الفارس النبيل ابن العمدة المليونير الآمر الناهى فى عزبة الحنكاتى ؟! أليس هو الغنى بين فقراء ؟!

أليس هو مالك الأرض بين أجراء ؟!

دارت الأيام دورتها ، ولاتتوقف عجلتها أبدا ، دائما تقفز للأمام ، وحين جاء الربيع بدأت الأشجار تتعرى لتتباهى بالخجل ، وبدأت ثمرة الليالى الغرامية ـ فى غفلة من أهل العزبة النائمين ـ تعلن عن نفسها فى بطنها !

الأيام تعطى الثمرة نضجا كلما قفزت خطوات إلى الأمام ، فلاشىء يبقى على حاله على الدوام .. وتشعر صباح بثقل غير عادى فى جسمها ، وإنبعاج فى بطنها ، وتمد يدها لتلمسها وتتحسسها فتراها تبرز للأمام ، ، وقد لفتت الأنظار ، وصارت العيون الفضولية تحدق فى البطن البارزة مستغربة .. ونساء العزبة يتساءلن بمصمصة شفاههن :

- ماذا جرى لصباح .. ولماذا إرتفعت بطنها هكذا ؟!

لقد عرف الهمز والغمز واللمز طريقه إلى صاحبة الشأن ، وأدركت أنها تحت الحصار ، وفى مرمى نيران الألسنة الجارحة ،وليس أمامها من فكاك سوى إفشاء السر الكبير ، وإعلان زواجها من فراج حتى لاتسرى الشائعات كالنار فى الهشيم وتلوك الألسنة سمعتها .

فهل تنتظر حتى تلد ، بينما الناس لن يكفوا عن سؤالها .. من أين لك هذا ياصباح ؟!

هل تظل صامتة ، وهى تسمع بأذنيها الهمس ، وترى بعينيها النظرات الوقحة المصوبة من العيون الجريئة على بطنها المنتفخة ؟!

سمعت امرأة خبيثة تصفها بالبغى ..فى تلك الليلة بكت بحرارة ، وتوسلت لفراج أن يعلن لأهل العزبة جميعا أنها زوجته ،وأنها شريفة طاهرة ، ولم تقرب الفاحشة .

استنكر فتاها رغبتها ، واستكبر على الإعتراف بها زوجة ، صم أذنيه عن إلحاحها ، وجعل واحدة من طين والأخرى من عجين ..استحلفته بكل الأباء والأنبياء أن ينقذها من العار ، لكنه ظل على قسوته وجبروته ، وصفعها على وجهها، تماسكت وهددته بأنها ستقول لأهل البلد ، وأولهم والده عوض أبودومة عمدة العزبة وكبيرها ومالك زمامها حاكمها وحامى ضعفائها .. لكنه ازداد عنادا وصلفا وكبرياء ، واستشاط غضبا حين أدرك أنها قد تجر عليه مشاكل هو فى غنى عنها لوكشفت المستور .

بمكر ودهاء فكر فى الأمر ثم طلب منها مهلة أسبوع واحد فقط كى يحقق لها مرادها .

ظل يفكر ويفكر كيف يخرج من هذا المأزق اللعين ؟! لعبت به الشياطين ، وقادته إلى خطة جهنمية ، ورسمت له سيناريو محكم يضع به نهاية تلك العلاقة التى بدأت فى الظلام ،وتطور الأمر إلى صداع فى رأسه لاينتهى أمام إلحاحها المتواصل ، وخشى أن تعلن هى للناس ، وتسبب له بالغ الحرج ،فكر فى قطع لسانها ، فلاتستطيع أن تبوح بالسر وينتهى الإلحاح والصداع الذى يؤرقه ، اللعنة على النزوة التى أوقعته فى هذا الفخ ، لكنه بعد تفكير عميق تراجع عن هذه الفكرة ، لأنه لوقطع لسانها سوف يتساءل الناس بشغف أكبر :

- من الذى نفخ بطنها بهذا الشكل ؟! ومن الذى أخرس لسانها ؟!

هداه شيطانه إلى خطة أخرى أكثر فاعلية ، عليه أن ينفذها فى مهلة الأسبوع .

أدرك فراج أن صباح فى وضع أقوى منه ، وقوتها فى بطنها ،وحملها هو سلاحها الذى بدأ يتحرك فى أحشائها معلنا عن نفسه ، فماذا عساه أن يفعل ، وهولايستطيع أن يخبر أحدا بنزوته الجنونية التى ساقته إلى دار صباح فى تلك الليالى ؟!

ومن المستحيل أن تكون صباح زوجته فى يوم من الأيام جهارا نهارا أمام أهل العزبة ، فهى من عالم وهو من عالم آخر ، ولايمكن للشرق أن يمتزج بالغرب ، قررأن يظل سره مكتوما للأبد ، سيقبره ولن يسمح له أن يرى النور ، سيبقى مدفونا فى بطنها ..انتهى شهر العسل ، وانقضت أيام العبث ، وإن بدأ الهمس يسرى

على الألسنة فى العزبة حين أغمى عليها ، وهى تعمل فى جنى القطن ، فحملوها إلى طبيب الوحدة الصحية الذى أخبرها- أمام امرأة من أهل البلد كانت ترافقها- بأنها حامل وتحتاج للراحة التامة، والتغذية المناسبة .

وعندما أخبرت فراج بهذه الواقعة ، ازداد إصراره على تنفيذ خطته فى أسرع وقت ممكن لأن كل لحظة تأخير تعنى أن غطاء الستر على وشك السقوط !

وقبل الموعد المحدد لإنهاء سهرته مع شلة الأنس أومأ لهم بأنه يعانى من الصداع ويود أن يرتاح ، فانصرفوا على استحياء ، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بساعة ، امتطى حصانه خلسة واتجه صوب دارها ، وهو يتلفت حوله حرصا وحذرا ، وقد وضع على رأسه عمامة بيضاء كبيرة ، وفى نيته أن يستخدمها لإخفاء وجهه .. وطرق بابها ثلاث طرقات خفيفة كعادته معها ، فتحت بسرعة كأنها كانت تنتظر خلف الباب ، وتعرف مواعيد تأجج أشواقه ، وهياج مشاعره بخبرتها وتجربتها معه فى ليالى العشق.

دخل وعلى وجهه ابتسامة باهتة ، احتضنته بلهفة ثم همست فى أذنه :

- لماذا تأخرت .. أنتظرك منذ وقت طويل ؟!
- كل شىء بأوان .. لاتتعجلى .. هذه الليلة ستكون الأخيرة .

بدا على ملامحها شىء من الإنزعاج وتساءلت :

- ماذا تقصد يافراج ؟!

فى تلك اللحظة إرتدى وجه الشر ، وتقمص دور الشيطان ، وسحب العمامة البيضاء من فوق رأسه ، وفردها قليلا ثم ألقاها حول رقبتها بطريقة دائرية ،وجذبها بكلتا يديه بكل قوة وغل ، فتحشرج صوتها واحتبست أنفاسها ، وإن حاولت قدر طاقتها أن تبعد العمامة عن رقبتها دون جدوى ، وبعد لحظات من الضغط الشديد كتمت أنفاسها وصعدت روحها لبارئها ، وسقطت من بين يديه على الأرض .

تخطاها بسرعة ودخل غرفة النوم ، وسحب ملاءة السرير ثم لفها فيها وربطها حول جسمها بإحكام ، وفتح الباب وحملها ثم وضعها فوق الحصان وقفز فوقه بسرعة، وهو يسندها بيده بحرص حتى لاتسقط على الأرض ، ثم لكز الحصان بقدمه فتحرك على الفور ، واتجه به قاصدا النهر من الناحية الجنوبية للعزبة حتى لايراه أحد .

إن الحرص واجب والحذر مطلوب رغم أن أهل العزبة وفلاحيها ينامون مبكرا بعد نهار شاق من الكدح فى الحقول ، وسار الحصان يتهادى ببطء على غير عادته كما لوكان يسير فى جنازة ، ثم لكزه بباطن حذائه مرة أخرى لكزة أقوى من سابقتها ، فأسرع الحصان الخطى قليلا حتى وصل إلى شاطىء النهر فى مكان آمن عند شجرة صفصاف خضراء يانعة كثيرة الفروع هائلة الحجم ، وتحت الشجرة سجادة من القش كمصلى لكل عابر سبيل .

أنزل جسدها الملفوف فى الملاءة من فوق الحصان ، ووضعها على القش ، وجلس بجوارها يفكر ،ثم نهض فجأة كالمجنون ،وحملها بين يديه وألقاها فى النهر فأحدثت صوتا مدويا فى سكون الليل ، بدت له كقنبلة إنفجرت فى الماء ، وأحدثت دوامات متعددة ثم اختفت فى القاع.. وربما تكون وجبة دسمة لكائنات النهر فى تلك الليلة والليالى القادمة .

نفض يديه واعتلى حصانه وعاد إلى فراشه، مطمئنا أن نزوته انتهت للأبد بحلوها ومرها كما انتهت صباح من الوجود ، وظن أن النهر سيخفى جريمته فى باطنه !

****

(5)

فى هذا اليوم الربيعى المشمس لم تذهب فاطمة إلى المدرسة إلا لتعتذر ،ثم خرجت وعند ساحة النخيل الواسعة قابلته ، وكان رضوان فى أجازة يوم الأحد من مصنع الطوب ، بينما هى جاءته تحمل حقيبتها المدرسية ، وترتدى تنورة زرقاء اللون ، وبلوزة بيضاء شمعية .. الزى الرسمى للسنة النهائية لدبلوم التجارة ، وشعرها الأسود الناعم الفاحم معقوف خلف أذنيها كذيل حصان ، لم تكن تشعر بالخوف على الإطلاق كأن مشاعرها تجاه ابن خالتها تجعلها فى مأمن من أى شىء وكل شىء !

أما رضوان فقد كان يخبىء لها مفاجأة غريبة ، ولم يكن لديه فكرة كيف يكشف لها عن تلك المفاجأة ، ووقف حائرا .. من أين يبدأ ؟! وكيف يعلن لها الأمر ، وهى صامتة شاخصة كتمثال من متحف (مدام توسو) للشمع فى لندن تنظر وتبتسم فى هدوء ، ولاحظت أن فى يده حقيبة صغيرة من قماش رمادى ، وسألته عنها ضاحكة :

- **ـ ماهذه الحقيبة ؟! هل أحضرت لنا طعاما لتعزمنى عليه هنا تحت أشجار النخيل ؟!**

شرد قليلا يفكر ، وذكريات حلوة تجول بخياله ويستحضر أيام طفولتهما المبكرة ، ثم وضع الحقيبة من يده ، وأطرق نحو الأرض بينما رفعت هى رأسها لأعلى تتأمل البلح الأحمر فى أعالى النخيل بشغف وشوق ،وتذكرت مذاق العسل المصفى القريب منها الآن لوبدأ رضوان ـ كعادته القديمة ـ يقذف سباط البلح بالحجارة فيساقط عليها رطبا لذيذا شهيا .

قالت جادة :

ـ هل أنت خائف ياابن خالتى ؟!

ـ لا على الإطلاق .

ـ ولماذا لاتتكلم .. ألست معك الآن ، ومنذ فترة طويلة لم نتقابل ؟!

ألاتقذف البلح بالطوب من أجلى كما كنت تفعل من قبل ؟!

هز رأسه قائلا :

- **نجلس قليلا ، وسيكون بين يديك البلح الكثير .**

على كومة من تراب مرتفعة قليلا عن مستوى ساحة النخيل ، أشار لها أن تجلس ففعلت ، ثم جلس إلى جوارها ، وقد سحب الحقيبة القماشية الخشنة لتكون بالقرب منه ،بينما هى سحبت حقيبة كتبها من فوق ظهرها ووضعتها بجوارها ،ورمقت سلاسل الياقوت الأحمر الذى تحبه مربوطا بحبل سرى بالنخلة الأم .

اقترب منها وقد صار مكتمل الشباب ، وتجاوز الثامنة عشرة من عمره بقليل ،وأصبحت هى فى تمام البدر .

أحس بطعم الدفء الذى يفيض من جسمها البض ، وعندما هبت نسمة رطبة قادمة مباشرة من النهر حركت خصلات شعرها على جبينها فمدت يدها تعيد خصلاتها إلى مكانها ،وبدت أمامهما خضرة الحقول وانبساطها والنخيل عالى القامة مرفوع الهامة نحو السماء .

مد يده وأمسك يدها فاحمر وجهها خجلا ، وارتجفت قليلا وتلاحقت أنفاسها وازدادت ضربات قلبه ، وتنهد بعمق .. وسألته وهى تسحب يدها الرقيقة برفق من قبضته الخشنة :

- **ـ ما الذى تفكر فيه ياابن خالتى ؟!**
- **ـ أشياء كثيرة يافاطمة .**
- **ـ لماذا تبدو مثل التائه ؟!**

- أبدا .. لاشىء .

- لايارضوان .. أرجوك لاتفكر وأنا بجوارك إلا فى شىء واحد .

- شىء واحد .. ماهو يافاطمة ؟!

- أقصد شخص واحد .

ثم ضيقت عينيها السوداوين الواسعتين قائلة :

- أنا .. أنا فقط .

ابتسم ثم قال هامسا :

- أتمنى أن أكون بجوارك إلى مالانهاية يافاطمة .. لك حق .. أحيانا يحلو للإنسان أن يتوه حتى عن نفسه ، والدنيا كلها ، ويكفى النظر فى عينيك لكى أتوه .

قالت بدلال :

- هل تشعر بالسعادة وأنت معى ياابن خالتى ؟!

- السعادة كلها تكون فى حوزتى .

- وما المطلوب الآن وأنت لاتحرك ساكنا من أجل اسقاط البلح الأحمر من برجه العالى ؟!

- سأفعل ..

- وماذا تفعل لومرت أمى من هنا ، وسألت عن معنى وجودنا هكذا وحدنا فى الخلاء ؟!

شرد قليلا ، وعيناه تتجولان فى الفضاء الواسع الممتد ثم تبسم قائلا :

- وماذا تفعلين أنت يافاطمة ؟!

ضحكت بشىء من المرح ، وهى تكاد تسند رأسها على كتفه حتى لفحت أنفاسها الساخنة خده البارد ولم تتكلم .. ظلا صامتين متلاصقين ، والنخل العالى يزين رؤوسه بالياقوت الأحمر ذو المذاق المسكر ، وأمواج من السحب كنتف الثلج تنتشر فى السماء .

نظرت إليه بعينيها السوداوين الواسعتين وهمست :

- هل سنظل نتطلع إلى البلح ولانحصل عليه ؟!

- الآن يافاطمة سأصعد النخل ..

دهشت وصوبت نحوه نظرة جانبية فيها استغراب :

- تصعد النخل كيف يارضوان .. هل تود الإنتحار ؟!

- أنت لاتعرفين عنى شيئا ، فمنذ أكثر من عام ونحن كالغرباء ، مالاتعرفينه عنى أننى صرت (طالع النخل) وهى مهنتى الجديدة بجانب عملى فى المصنع ، تعلمتها من أجلك فى وقت قصير وبشغف كبير .

ـ أحقا تعلمت صعود النخل ؟! وهل تسلقت الأشجار بالفعل ،ووصلت بنفسك إلى البلح الأحمر من قبل ؟!

ضحك بثقة وهتف قائلا :

ـ سترين بنفسك الآن يافاطمة .

بنبرة فخر مرح قالت :

ـ طول عمرك مصدر ازعاجى واعجابى ياابن خالتى .

تبسم برضا وارتفعت معنوياته أعلى من النخيل ،وأحس فى تلك اللحظات أن الحياة من الممكن أن تصفو له كما صفت السماء بعد تكدر ،لكن شيئا طارئا جعل قلبه يرتجف ، تصوره المخيف أن يعيش يوما ما بدونها.

وعندما طال بينهما السكوت ، بدأت فاطمة فى تلك اللحظة تغنى بصوت خافت ناعم ، وتأكد له أنها لاتحس بوجوده ، أو هكذا تحاول أن توحى إليه حتى يتحرك ، ويكسر حاجز صمته ، ويخرج من ثوب خجله ، ولم يكن ذلك طبيعيا ، ولامن عادتها .. كما أن رضوان يعرفها كما يعرف نفسه تماما ، فقد مستها العصا السحرية ثم تلاشت ، وظل أثرها يؤدى سحره ، وليس من الضرورى أن تبقى العصا طالما أثرها ممتدا !

فى أثناء تلك الدقائق كانت روحه قد تشبعت بأشياء كثيرة حرمته منها ظروف الفراق والغياب والإنقطاع عن مواصلة الدراسة معها ، وهاهى الأيام قد هرولت حتى صارت الفتاة فى السنة النهائية ، وقد كان الفتى مستعدا لأن يحارب شياطين الإنس والجن من أجلها ، وإن كان ينتظر منها الضوء الأخضر ، وها هو قد جاءه منها الضوء بكل ألوان الطيف ، وإلا فما معنى وجودها معه الآن فى هذا المكان شبه النائى عن ديار العزبة وبعيدا عن كل العيون ؟!

فجأة تذكر المفاجأة التى أعدها لها ، طوى همه خلف ظهره كجندى جاء دوره فى التجنيد قبل الأوان ، ومد يده وفتح حقيبته القماشية الخشنة ، وأخرج منها حبلا قويا يلفه حول وسطه ويسميه (المطلاع) والفأس الصغير الذى يستخدمه فى تقطيع سباط البلح ، وفصله عن جسد النخلة .. تلك هى كل أدواته فى مهمته الخطرة ، وتأهب لفعل ماخطط له ، وفعله عشرات المرات من قبل دون أن تراه على مدى عام كامل ، وداخله يقين بأن الحياة لاتساوى شيئا لولا الحب .. فبدونه لاتستحق حتى عناء الشهيق والزفير .

فوجئت به يصعد لأعلى ، ويتسلق جسم النخلة ببراعة وثقة ، ودون أن يكترث بالمخاطرة ، ولايرى غضاضة فيها ، بل يشعر بنشوة وشجاعة ، وهو يؤدى تلك المغامرة أمام عينيها السوداوين الواسعتين ، وخطورة تلك المهنة التى شغف بها لم تمنعه من احترافها للبحث عن باب أوسع للرزق إلى جانب عمله الأساسى فى مصنع الطوب بديلا عن والده الراحل .

فى كل موسم ينتظر بلهفة شهر الحصاد ، ولم يستغرق الأمر طويلا حتى نزل من فوق النخلة بمساعدة

(المطلاع) كأنه يركب الأسانسير صعودا وهبوطا حاملا لها حزمة من البلح الأحمر اللامع .

بدت فاطمة مدهوشة مبهورة لاتصدق ماتراه بعينيها من خفته ورشاقته كلاعب سيرك محترف ثم سألته بإعجاب واستغراب :

ـ متى وكيف تعلمت تسلق النخل بهذه البراعة ياابن خالتى ؟!

ـ علمنى عبدالمنعم شعيشع الله يكرمه ، وهو أفضل (طالع نخل) فى بلدنا كلها ،وقد أحببت هذه المهنة بشكل لايوصف برغم خطورتها ، ومع أنها ليست مربحة بما يكفى ، وكثير من رجال عزبة الحنكاتى يجيدون تسلق

النخيل ،نظرا لطبيعة النخل الذى يحيط بعزبتنا ويملأ حقولها ، ويمتد على النيل فى أرضها الطيبة ،ويقدر البعض أن فى عزبتنا وحدها حوالى مليون نخلة أويزيد .. لذلك كان لابد من وجود هواة ومحترفين لهذه المهنة الهواية .. وإذا تواجد النهر تواجد السباح .. فكذلك الحال مع النخل والبلح .

بدت متعجبة بمايقول وظلت تتأمله حتى انتهى ثم سألته :

ـ ومتى تعمل فى صعود النخل بأجر ياابن خالتى ؟!

ـ أعمل (طالع نخل) مرتين فى العام .. المرة الأولى تستغرق شهرا واحدا وتكون فى موسم تقليم (سعف النخيل وجريده).. أما المرة الثانية فتستغرق شهرا آخر فى موسم جنى محصول البلح من فوق رؤوس أشجاره العالية ، وتتطلب المرتان مجهودا كبيرا ، ومخاطرة هائلة لأن الأمر كله يعتمد على ألات بدائية بسيطة كان يستخدمها الإنسان المصرى منذ ألاف السنين ، وتعد أقدم مهنة فى التاريخ وأشقاها ، وعمرها أكثر من 4 ألاف عام .

ضحكت قائلة :

ـ بماذا تشعر- ياابن خالتى - وأنت فوق النخلة بين السماء والأرض ؟!

ـ أشعر بلذة وغصة فى آن واحد !

ـ كيف ياابن خالتى .. أخبرنى بالله عليك ؟!

ـ الأمر يافاطمة لذيذ وممتع حين أكون فى الأعالى مستلقيا فوق النخلة أحتضنها وتحتضننى تحت السحاب فى الهواء الطلق ، أتحدى الجاذبية الأرضية ..والأمر أيضا جد خطير ، ويستلزم الحيطة والحذر لأن أى خطأ لطالع النخل قد يكلفه حياته ، ويظن البعض - وإن بعض الظن إثم - أنها مهنة سهلة ، أونزهة فى الفضاء ، ولكن طالع النخل هو إنسان يعانق السحاب ،ولأنها مهمة إنتحارية فلابد لها من أدوات ومهارات تضمن له السلامة وسرعة الإنجاز ، ويجب على طالع النخل أن يستخدم القدمين واليدين بحرفية عالية ، ومهارة فائقة فهما سلاحه فى الوصول لهدفه ، ولابد له من سواعد قوية ، وعزيمة حديدية مع حساب كل خطوة يخطوها بدقة .

ظلت مبهورة كأنها تتابع حكاية أسطورية ثم قالت :

ـ لكن خطرها كبير يارضوان .. ألاتخاف ؟!

ـ صحيح أن لها مخاطر عديدة لكن الحياة كلها مخاطر ، والناس كلها ستموت..وأحيانا أتعرض لجروح فى القدمين واليدين ،حيث أننى أتسلق النخيل حافى القدمين كى أستطيع ضبط توازنى ، والسيطرة على خطواتى إلى جانب وجود بعض الزواحف والحشرات الخطيرة التى تسكن جريد النخل مثل الثعابين والتى سبق وهاجمتنى العام الماضى لولا ستر الله .

ـ ياساتر يارب ..وكم يدفعون لك ؟!

تبسم وتذكر أمه ، وهى تسأل أبيه - الله يرحمه - عن كل جنيه كان يكسبه ثم قال :

ـ أحصل على 100 جنيه مقابل كل نخلة أتسلقها وأحصد ثمرها .

ـ لكن يارضوان هذه مهنة موت .

قاطعها بنبرة صوفية قائلا :

ـ لكل أجل كتاب يافاطمة ،وأنا أبدأ عملى الشاق هذا بأيات من كتاب الله ، وبعدها أصعد النخل .. لكن الغريب فى الأمر أن النخيل أنواع مثل البشر تماما .

هزت رأسها مستغربة ، وداعبت خصلات شعرها الأسود الناعم بدلال :

ـ النخل مثل البشر .. سبحان الله .. كيف ياابن خالتى ؟!

ـ آه والله يافاطمة ..هناك نخلة طيبة ونخلة شريرة .. النخلة الطيبة تكون ناعمة الملمس مستقيمة المطلع ، لاتعاريج فيها ولاانبعاجات ولامطبات عكس النخلة الشريرة مثيرة المتاعب بحسب ملمسها وقوتها ودروبها أثناء تسلقها ..الأمر يتطلب مهارة ومعرفة بطبيعة كل نخلة .

ـ وهل هناك وقت مناسب وآمن لصعود النخل ياابن خالتى ؟!

ـ طبعا موسم الحصاد ..كما أن الوقت الأفضل لتسلق النخل هو تجنب الأيام التى تكون فيها الرياح عاصفة قدر الإمكان لأن النخل يهتز ويتمايل بشكل كبير وخطير يسبب المتاعب لمن يركبونه ، وقد يهدد حياتهم .

ـ هل تحب النخل ياابن خالتى ؟!

ـ بالطبع .. ومن الذى لايحب النخل ..وأنت يافاطمة ألا تحبين النخل ؟!
ضحكت وقالت بعفوية :
ـ أنا أحب البلح .. وأكره النخل .
ـ يبدو أنك يافاطمة لاتعرفين قيمة النخلة .. هذه الشجرة المباركة التى أنعم الله بها على بلاد العرب وصحاريها كانت ومازالت حتى يومنا هذا الملاذ الآمن للشعوب العربية من الجوع ، فالبلح هو الزاد الأول لأهل الصحراء ، والعرب جميعا بلااستثناء يعيشون فى أجواء صحراوية ، ومن قديم الأزل كان العرب يقولون (من يملك نخلة لايجوع أبدا) فهى تضمن له البلح كغذاء ، والسعف والجريد الذى يوفر له المسكن ،وفى النخلة مآرب أخرى ، فهى شجرة كلها خيرات .
أومأت برأسها وتلاشت ابتسامتها ، وتملكها شىء من الشرود ، فقد أدركت أن فتاها الموعود شب عن الطوق ، وصار شامخا كالنخل العالى ، وينطق بحكمة الرجال ، ويتكلم بصوت خشن أجش ، ورأت قوة ساعديه ، وصلابة ساقيه ،واستقامة عوده فازدادت اعجابا به ، ونظرت فى ساعة يدها الصغيرة وشهقت فجأة :
ـ لقد تأخرت كثيرا .. يجب أن أعود للدار يارضوان .
وضع المطلاع والفأس الصغير الذى يشبه المنجل فى حقيبته القماشية الخشنة ، وأغلقها على عجل ثم حملها على كتفه وأشار لها قائلا :
ـ هيا ياحبيبتى .
تبسمت بخجل واحمر وجهها بينما العسل يذوب من البلح الأحمر الذى تحبه فى فمها ذوبان السكر فى الماء ، وأحست كأنها عصفورة من عصافير النيل تحلق فوق النهر والنخل من فرط السعادة ، فلأول مرة تسمعه يناديها قائلا .. حبيبتى .
وسارا معا متجاورين كى يوصلها حتى باب دارها ، ومد يده اليمنى ليمسك بيدها اليسرى ، فأحس بنعومة وطراوة يدها الصغيرة ، وأحست هى بخشونة وغلظة يده الكبيرة .
ارتسم خجل عذارى المدارس على وجهها الخلاسى ، وسكنت الفرحة كل خلاياها بينما يحاول هو إثبات المثبت وتأكيد المؤكد ، وتكاد تقفز فى الطريق من فرط الفرحة ، وكلما مر بهما أحد يعرفانه أويعرفهما

تظللهما سحابة من الخجل المغلف بشىء من اللامبالاة ، فهى ليست بصحبة غريب ، وإنما برفقة ابن خالتها .
يسير الفتى معها فى تلافيف الشوارع والطرقات مرورا بالحقول وساحات النخيل والنهر العظيم ، والشمس تمد يدها الحانية تتلطف بهما ، وأمواج من الهواء البارد الخفيف تمر بهما مرور الكرام حتى وصلت إلى باب دارها ، وهو إلى جوارها كملاكها الحارس ، وأراد أن يتركها وحدها تدخل ، ويعود هو إلى داره لكن خالته لمحته من النافذة المطلة على الشارع فتبسمت وأسعدها أن تراهما معا كعصفورى كناريا فى رحلة صفو وانسجام ، نادت عليه ودعته للدخول كى تراه وتصافحه ، أحس بالإرتياح لهذه الدعوة الحانية فدخل الدار يتبع خطى فاطمة وقال هامسا :
- حاضر ياخالتى .

****

(6)

بعد ثلاثة أيام فقط طفا الجثمان على سطح الماء ،واقترب نحو الشاطىء ، وكان أحد الفلاحين قد نزل على حافة النهر يتوضأ تأهبا لصلاة العصر ، فرأى وجهها مكسوا باللون الأزرق الغامق ،بسمل الرجل وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهرول خارجا من الماء مفزوعا يصيح مناديا على غيره من أقرانه الفلاحين فى الحقول المجاورة للمصلى الذى لايزيد عن سجادة من القش ،وأسرع كل من سمع صيحاته فإذا بالجثمان يتحدى الجميع ،ويفرض نفسه فى مشهد نادر الحدوث فى العزبة ،والعيون شاخصة كأن أصحابها لايصدقون مايرون ، لكن الحقيقة ثابتة راسخة مستقرة بجوار السلم الصخرى الذى يستخدمه من يريد الوضوء ، وهو عبارة عن أربع درجات من حجارة بيضاء ، وحين يفيض النهر تختفى تلك الدرجات .. احتاروا .. تساءلوا ماذا يفعلون ؟!

سرت الهمهمات ، وتناثرت الغمغمات ، وكل من كان يمر على طريق النهر والحقول اتجه نحوهم بشغف وفضول ، وقد أشار عليهم أحد العقلاء فى تلك اللحظة الجنونية بضرورة إخراج الجثمان من الماء ، إنها صباح ولابد من إبلاغ العمدة الذى يتولى بدوره إبلاغ النيابة والشرطة .

وبالفعل امتدت الأيادى مرتجفة تنتشل المسكينة الغارقة الملفوفة فى ملاءة متآكلة مهترئة ، ومن تحتها قميص نوم أحمر شفاف ، وكأنها كانت على موعد مع الموت والغرام فى نفس التوقيت !

وضعوها على السجادة القش فى المصلى البدائى البسيط ، وغطوا ماتعرى من جسدها بأوراق شجر الصفصاف ،وبسرعة البرق طار الخبر فى كل الأرجاء ، وصدعت الأفواه بالأمر الجلل ،ووصل الخبر المشئوم للعمدة عوض أبودومة الذى إتصل على الفور بمركز الشرطة فى سمنود .

وقبل أن تمر ساعة زمن كانت سيارة الشرطة قد وصلت العزبة ،ودوت السارينة من فوقها لترسل إشارة تحذير وإنذار ،وإجتمع العمدة برجال الشرطة ومعهم الطبيب الشرعى فى الدوار ،وخرجت نسوة القرية وبناتها يزاحمن الرجال والشباب لإلقاء النظرة الأخيرة على هذه الفتاة التى عاشت وحيدة حياة غريبة غامضة ، وماتت غريقة ميتة مثيرة غامضة أيضا .. ضربهم جميعا ذلك التخدير الذى يصحب الكوارث الكبرى .

وسط الحشود الهادرة ، والتراب يغبر الوجوه من هرولة الأقدام وارتباكها ،ظهرت فاطمة بجمالها ودلالها تبكى فى صمت ، ودموعها الساخنة حبيسة مقلتيها ، وبعد قليل صبر تطلقها لتنزف ،وفى قلبها حزن عظيم ، وكأنها تودع أختها التى لم تلدها أمها إلى مثواها الأخير ، واستعادت من دهاليز ذاكرتها الحوار الذى دار بينهما تحت شجرة

الجميز العتيقة على ضفة النهر حين باحت لها بسرها الرهيب ،واستأمنتها على أمرها الكبير ، وكشفت لها أخطر موقف يمكن أن تتعرض له امرأة .

همست لنفسها متسائلة بحسرة :

- كيف ماتت فى النهر بهذه الطريقة البشعة ؟! لابد أن السر الذى كانت تخفيه عن الناس - رغما عنها - هو قاتلها ، وأيقنت فى قرارة ذاتها أن يد فراج أبودومة الآثمة وراء هذه الجريمة المروعة ، ولكن ماذا عليها أن تفعل ، ومباليد حيلة ، وليس فى وسعها أن تفعل شيئا ، وحتى لوباحت بالسر للناس والشرطة فليس بين يديها دليل ، ولن يصدقها أحد ،وربما تقع فى مشاكل أكبر من قدرتها على تحمل تبعاتها .

أحست فاطمة بالقهر والغدر والضيق والحزن العميق وهمست لنفسها :

- لابد أن الملعون فراج قتلها لتخفى سره المكنون فى بطنها ، لكن الناس لوغفلوا فرب الناس لايغفل ، وعين الله لاتنام أبدا .

زحفت الشمس نحو مخبأها اليومى بصبر وهدوء ، وتلاشى النهار مثل كل نهار ،وسادت ظلمة كظلمة أركان الأضرحة .. وجاء فراج أبودومة ، ووقف يراقب بعين ذئب من آخر صفوف المحتشدين ، راكبا فرسه بغرور ، وينظر بأسى إلى المكان الذى يرقد فيه جثمان صباح ، تلفتت فاطمة نحوه وألقت بنظرات تمنتها سهاما قاتلة ، وبرغم أنها لم تذق سوى الحب العذرى البرىء مع رضوان ابن خالتها إلا أنها صارت تحس بأسى غامض نحو الرجال .. كل الرجال .. بينما كانت صباح - الله يرحمها - تريد من فتاها الأرعن أن يترك حكايتهما ترى النور ، لم تكن تريد أكثر من ذلك ، لم تكن تريد لنفسها أن تكون فى يوم من الأيام ساقطة قيد فى دفتر الشرف المعروف !

لم يكن العمدة عوض أبودومة يعلم شيئا عن فعلة ولده ، فهذا الرجل الذى يصلى ويفسق ، ويقول للناس فى عزبة الحنكاتى :

- إن الميزان قد خلق بكفتين واحدة للحسنات والأخرى للسيئات .

وبينما المشاهد الحزينة تغالب عين وعقل فاطمة وتهزم رقتها ، شعرت بذات الإحساس الذى تكتشفه عندما تدرك فجأة أهمية أى شىء أو أى شخص كنا نعتبره عاديا فى حياتنا قبل أن نفقده ثم تجرى الغصة فى حلوقنا ، وتسرى مرارة العلقم فى قلوبنا .

وسط الزحام ، وأجواء الغيوم بدت فاطمة فى تلك اللحظة نحيفة تآكل جسمها من الأفكار المخيفة ، ولاتدرى فى تلك الأوقات العصيبة لماذا تذكرت أمها التى كانت تطعم الدجاجة قبل أن تذبحها مباشرة فكأنما هو اعتذار الإنسان المتمدين عن الإنسان الوحشى ، مع أنها كانت تستخرج نفس الحبوب التى أطعمت بها الدجاجة بعد دقائق ، وهى تنظفها قبل طهيها بلحظات ؟!

هكذا بدت المقاربة فى رأسها بين صباح ودجاجة أمها .. ولاحول ولاقوة إلابالله .

تلفتت نحو فراج فبدا شاخصا كصنم صامت ، وقد ملأ الإنفعال وجهه المكور ثم همست :

- الله يرحمك ياصباح .. الله يرحمك يامن كنت تبحثين عن رائحة الأمان فى كهف المخاوف ، الله يرحمك يامن كانت مشاعرك وحدها هى بوصلتك ومصدر إلهامك ، هاهى الآن مصدر هلاكك .

تذكرت فاطمة ماقالته لها صباح بأن فراج أبودومة وعدها أكثر من مرة بأن يعترف بزواجه السرى منها لكن المسكينة لم تكن تدرى أن الوعود الرخيصة مخدر مؤقت للهروب من المسئولية . .

سارت الأمور على مايرام ، العمدة عوض أبودومة يتابع مع رجال الشرطة والنيابة كل الإجراءات لكن الطبيب الشرعى كتب فى تقريره أن صباح ماتت مقتولة خنقا قبل أن تلقى مصيرها غرقا فى النهر عسى أن تكون المياه قبرها الأبدى ، بينما فراج ابن العمدة يراقب من قريب ، وهو مطمئن البال مرتاح الحال ، وكأنه محصن من العقاب ، ويقف فى مكان آمن من المساءلة ، ولم لا أليست كل الخيوط الآن فى يد والده حضرة العمدة ؟!

لم يتم العثور على دليل قاطع أوشاهد واحد يشير إلى القاتل ، وإن خرجت صباح من القبر الذى إختاره لها فراج ،وتم إغلاق القضية ، وقيدت النيابة فى أوراقها أن الفاعل مجهول ، وكتب الله لصباح أن تستقر فى مقبرة مثل باقى البشر ،لكنها واحدة من مقابر الصدقة التى بناها العمدة على نفقته الخاصة للأموات الذين لايملكون مقبرة من أهالى العزبة .

سبحان الله .. ومأأغرب أحوال الإنسان ..قتلها ابن العمدة .. ودفنها العمدة فى مقبرته !

انتهى الأمر بنهاية حياة تلك الفتاة البائسة ، طموحاتها الجامحة التى وصلت عنان السماء انتهت بها فى باطن النهر ثم فى باطن القبر .

إن كل إتجاهات من ضل الطريق متساوية مادامت لاتؤدى إلى الغاية المنشودة .. وصباح ضلت الطريق ، وراهنت على الجواد الخاطىء ، واختارت الفارس الغادر !

أعادت فاطمة مراقبة ملامحه من بعيد ، وكأن كل مايخص الإنسان من رذائل قد تجمع على وجهه ،أحيانا لايستطيع القاتل أن يتخلص من المقتول حتى ولو أغرقه فى قاع النهر ، أودفنه تحت الأرض السابعة .. تلك حقيقة مؤكدة ومؤلمة لكل مجرم !

لم يكن لدى فاطمة أدنى شك فى أن فراج أبودومة هو قاتل صباح مع سبق الإصرار والترصد ،ولم تشعر تجاهه يوما بالإرتياح منذ رأته لأول مرة ،فعلها الأحمق فراج أبودومة بشجاعة نادرة وخسة بالغة ،ولاشىء أشجع من الحصان الأعمى !

لقد ماتت صباح وارتاحت وفى رحمها طفلها البرىء ، ولأن اليأس إحدى الراحتين ، والموت هو الأخرى ، فقد يئست المسكينة من اطلاق زواجها وحملها للنور ، ونالت مالاتستحق من نهاية ،والمجتمع الذكورى المتوحش متأهب دائما لأن ينهش أى ضعيفة من بنات حواء .

بعد أيام قليلة عادت الحياة لطبيعتها ، وعاد الفلاحون لطقوسهم اليومية ، وحقولهم الخضراء ، وطوى الجميع صفحة صباح وحياتها الغامضة ، وموتها الأكثر غموضا ، وعاد ابن العمدة يسهر مع رفاقه كالمعتاد كأنه لم يفعل شيئا ،ولم يرتكب إثما ،يضحك ويقهقه ، ويسأل أعضاء شلته عن بنات العزبة ونسائها ليعرف من منهن الشريفة العفيفة ، ومن منهن المارقة الشاردة ،عساه يرمى بشباكه كصياد لئيم على إحداهن ، وعندما سأل عن أجمل بنات العزبة التى لوفكر فى زوجة له يختارها فجاءه الرد من الجميع وبالإجماع :

- فاطمة .. فاطمة عبدالعاطى .

هز رأسه وعاد يفكر فى خطوته القادمة دون أن يتغير فيه شىء ،بعد أن حكم على صباح بالإعدام ونفذ الحكم بنفسه ،برغم كل الماء العذب الذى تصبه السماء فى البحر إلا أنه يبقى مالحا .. البعض لايتغير مهما حدث !

أفلت الفتى ابن العمدة بفعلته ،وهو واثق تماما أنه فى مأمن من العقاب ، فالقانون مثل خيوط العنكبوت لايقبض إلا على الحشرات الضعيفة !

حين تجاوز الليل أكثر من منتصفه ، وهمت الشلة بمغادرة دوار العمدة ،وكر السهر اللذيذ همس له أحد الخبثاء مواسيا :

ـ لاتحزن على نجمة ضاعت منك ، فالسماء مرصعة بالنجوم ، ولولم تكن إحداهن من نصيبك فمن يدرى .. ربما يكون القمر هو نصيبك ؟!

تبسم فراج ساخرا على استحياء ، ولم ينطق بكلمة ، وإن أدرك أن هذا الخبيث ربما يعرف شيئا عن سره مع صباح ، كلماته تشى بذلك ، لكنه لايريد أن ينبش قبر الماضى ، فليترك القبور لأهلها مغلقة بأسرارها .. وليدع الماضى كما هو بكل مافيه وماله وماعليه ،ولاداعى لأن يفتح على نفسه أبواب جهنم .

يقفز الزمن بضعة أيام إلى الأمام ، وفراج أبودومة يفكر كثيرا ، والوحوش الضارية تتصارع فى عقله ، وذات مساء قرمزى كان يسير على النهر فى طريقه للمزرعة ، ورأى فاطمة تملأ جرة من ماء النهر مع قريناتها من البنات ، ويتضاحكن بصوت مثير ، وعندما اقترب منهن سكتن ، فنظر إلى فاطمة نظرة فيها شىء من التوسل الخفى والرجاء المستتر ، لكن من تعرف حقيقته ، وروحه الشريره ، ويده الملوثة بالدم صوبت نحوه نظرة إحتقار ، بينما البنات معها ينظرن إليه بشغف كما لوأنه أعجوبة من الأعاجيب ، ورأت إحداهن فى عينيه شراهة وتوحشا فقالت هامسة :

ـ يبدو أنه يتوحم على لحم النساء ..أعوذ بالله من عينيه .

كان الفتى يعرف مايريد ، ويطارد هدفه بإصرار ،ويعلم علم اليقين أن السعادة تتطلب نضالا من أجلها ، إنها ثمرة مصارعة المشكلات ، فالسعادة لاتنبت من الأرض كالزرع بل هى صناعة إنسانية ، والحياة مسار حلزونى صاعد لاينتهى ، ولوظن الإنسان فى أى لحظة من ذلك المسار أن فى وسعه أن يتوقف عن تسلقه يكون قد خسر كل شىء ، كما أن المتعة الحقيقية ليست فى الصعود إلى قمة المسار ، بل تكمن فى التسلق ذاته .

عادت فاطمة إلى حيائها ولم تعد تنظر إليه ،رغم أن نظراته ظلت تلاحقها ، وفطنت إلى أن الحياء هو الزمام الطبيعى الذى يضبط الرغبات الإنسانية المارقة ، وأنه البذرة الأولى فى حقول الفضيلة .

فى تلك الليلة الحزينة جافاها النوم ، وظلت مسهدة مؤرقة تفكر فيما حدث .. لقد كان يوما طويلا عصيبا خسرت فيه العزبة إنسانة بريئة بلاذنب ولاجريرة ،وشاءت الأقدار أن تكون فاطمة دون غيرها مطلعة على سر تلك المرأة الغارقة .

فلالوم علي صباح إن وقعت فى حبائله حتى حملت منه ، وحدث لها ماحدث ،إنها الأقدار تحدث بأيدى الأشرار ،وإن كانت صباح وفراج كالزيت والعسل محال أن ينسجما ، لكنهما انسجما وإختلط الزيت بالعسل .

أحيانا تظن فاطمة أن السعادة تختبىء فى مكان حصين بعيد ،لاتستطيع الوصول إليه ، وإلافما معنى أن تنتهى حياة المسكينة صباح بهذه الطريقة المأساوية ، وهى فى رحلتها للبحث عن السعادة ؟!

أليس الإنسان ـ سواء رجل أوامرأة ـ بنيان الله وملعون من يهدم بنيان الله ؟!

انتابها لوم ذاتى ، وعذاب نفسى لأنها عاجزة مقيدة لاتستطيع أن تفعل شيئا ، وتدرك أن النفس البشرية مثل الذهب يزداد بريقا ، ويلفظ شوائبه بالنارالمتوهجة ، إن الله يطهر الإنسان وينقيه بالألم .

غرر بها شاب أهوج اسمه فراج عوض أبودومة ، ذئب العزبة افترس ضحيته ، ولم يترك منها شيئا ، لم يترك منها سوى طعام الأسماك الجائعة فى النهر .

اليوم أفلت الجانى من العقاب ، ولابد أنه سيكرر هذا السيناريو مرة أخرى فى قادم الأيام ،فالولد المدلل العابث لن يمل من تحطيم لعبته ، وتكسير عرائسه ، وهو يضحك فى كل مرة ، وينظر للعبته المكسورة من فوق حصانه نظرة كبرياء واستعلاء ،.. إن من يذنب ويفلت من العقاب ، وهو يضحك سيدخل النار وهو يبكى !.. تلك عدالة السماء .

نامت فاطمة حزينة باكية فى تلك الليلة ، وقد آثرت الصمت فالكلام لايجدى شيئا ،فقد ماتت صباح ولم يبكيها سوى الغرباء ، فليس لها أهل أحد ، كلهم ماتوا وتركوها وحيدة فى هذا العالم الملىء بالشرور والأشرار .

أدركت أن الحياة كثيرا ماتجبرنا على مانكره ،وتفرض علينا مالانشتهى .. غطت فى نوم قلق مضطرب بعد محايلة حتى زارها أخيرا ،وفى نومها جاءها فراج أيضا بملامح جامدة متجهمة ،وعلى تقاطيعه تكشيرة قاسية ،ووجهه مسودا وهو كظيم ثم سألها بحدة مستنكرا :

- لماذا تنظرين لى نظرة إحتقار ؟!

قالت بشجاعة :

- لأنك مجرم .

- هل تعرفين ؟!

- أعرف كل شىء ..

- وكيف عرفت يافاطمة ؟!

- صباح اعترفت لى بكل شىء ..ألم تكن زوجتك فى السر ؟!

- هل قالت لك كل شىء ؟!

- حرام عليك .. مافعلته بها.. كيف طاوعك قلبك على أن تفعل ذلك بشريكة لياليك وعشرة عمرك ؟!

- عندما يموت الحوت يلقيه النهر على الشاطىء دون أن يحسب حساب عشرة العمر !

- أهذا جزاء من أحبتك يافراج ؟!

امتقع وجهه واسود أكثر ، وجحظت عيناه وتطاير منهما الشرر،ثم اقترب منها أكثر وأنفاسه متلاحقة ، وأصدر فحيحا كالأفعى الغاضبة ، ومد يده وقبض على عنقها وصاح بها ،وهو يضغط على أسنانه بغل :

- سيكون مصيرك مثلها ..من يعرف سرى لابد أن يخرس للأبد .

وظل يضغط ويضغط ويهتف بحقد :

- موتى .. موتى ..موتى مثلها .

أحست أن أنفاسها مكتومة ، والأوكسجين ينفد من جسمها ، وروحها تنسحب منها ،ولاتستطيع أن تفعل شيئا على الإطلاق لمقاومته .. يداه قويتان غليظتان شريرتان كأنهما من حديد وفولاذ .

أدركت أنها صارت فى عالم الأموات أوتوشك أن تكون معهم ، ارتكب حماقته فى الظلام ، ويريد أن تظل سرا فى الظلام ، وكل الظلام الذى فى الدنيا لايستطيع أن يخفى ضوء شمعة واحدة ، وهو لايريد لهذه الشمعة أن تسلط ضوءها على فعلته .

حاول مرات ومرات حتى يكتم أنفاسها للأبد ،وفجأة استطاعت أن تدفعه بكل قوتها ، وتصرخ بكل مافيها من عزم وعزيمة وتصيح :

- اتركنى أيها السافل .. اتركنى .

فتحت عينيها ونظرت حولها ، وتحسست فراشها فلم تر له أثرا فى غرفة نومها ، وجاءها من بعيد صوت عذب فيه شجن مريح للقلب والأذن يهتف بخشوع :

- الله أكبر .. الله أكبر .

حان موعد صلاة الفجر.. تلاشى الفزع ، وابتعد عنها الخوف والهلع وتمتمت برجاء وتوسل :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. الله أكبر .. الله أكبر .

****

(7)

لم تكن فاطمة تريد من هذه الدنيا الواسعة سوى ابن خالتها رضوان ، ولم يكن رضوان يريد من هذه الدنيا الواسعة سوى فاطمة ،يريدان أن يكونا حزامين حول الكرة الأرضية ، مثل جدار الجدى ومدار السرطان ، خطوط وهمية .

جلسا سويا فى نهار ربيعى بينما فاطمة قد أنهت دراستها لدبلوم التجارة ،واستدارت واكتملت كالبدر فى تمامه ،وتناست هى مأساة صباح ، وحاولت أن تجعلها نسيا منسيا أوتضعها على أقل تقدير فى بئر الكتمان ،عساها ترتاح وينعم ضميرها بشىء من الطمأنينة .. عليها ألاتأخذ كل الأمور بجدية ، وتسمح للأشياء والحوادث أن تحدث كما أراد لها صاحب المشيئة ،فالكون يدار على أكمل وجه ، ويديره حكيم عليم قدير .

إن الحياة تطيب لمن لايبالى بمنغصاتها التى لاتنتهى .. بدت سعيدة فى تلك الأثناء ، وبسمة لطيفة تداعب وجنتيها ، وتلهو بخصلات شعرها الأسود الحريرى ،بينما أشجار النخيل السامقة تقف حولهما فى كبرياء وثبات كأنها حراسة خاصة لهما وحدهما ،وحين تكون فاطمة بقربه تفقد احساسها بالزمان والمكان ، ولاتدرى كم مر من الوقت ؟!

وهل أسرع أم أبطأ ؟! فلاشىء يعنيها إذا كان هو معها لأنه كل شىء لها ، تنصت لكلماته الناعمة ، وصوته الهادىء الودود الهامس كعذارى المدارس ،يتكلم ببطء ، ويفكر قبل أن يتكلم ،ولاينطق إلا بكلمات حلوة أوفيها حكمة ، لاشىء يعكر صفوهما إلا نظرات فضولية ترجمهما بين الحين والحين ،كلما مر بهما عابر سبيل من أهل العزبة أومن الفلاحين فى طريقهم للحقول ذهابا أو إيابا .

لابأس إن العيون دائما تراقب ، والناس جبلت على الفضول والتلصص ، وحين يسمعها رضوان ماتحب من التغزل فى فتنتها ، والشوق إليها والحرمان من صحبتها الدائمة ، ويصفها بأنها صارت الآن فى موسم القطف كالبلح تماما حين يكتمل حمرته وحلاوته ،ويمتلىء بسكره .. تضحك وتسأله بدلال ماكر :

ـ منذ مدة طويلة لم تأتينى بالبلح ـ كعادتك القديمة ـ ياابن خالتى وأنت تعرف مدى حبى له .

ـ آه يافاطمة لوتعرفين كم أغار عليك من أشجار النخيل تلك !

أه لوتعرفين مدى غيرتى عليك من حبات البلح .. ياليتنى كنت نخلة أوحبة بلح .

ضحكت بصوت مرتفع ، ودوت ضحكتها المجلجلة فى الفضاء الممتد إلى السحاب ،وعادت تهمس :

ـ ياطالع النخل أين ثمره الأحمر أو الأصفر ؟! أتريدنى أن أبحث عن طالع نخل آخر أكثر منك مهارة فى التسلق ؟!

ارتسمت على وجهه ملامح الجدية وقال لائما :

ـ وهل هناك فى عزبة الحنكاتى كلها طالع نخل أبرع من ابن خالتك رضوان ؟!

ـ طبعا .. كفاك غرورا ياابن خالتى .

ـ ماذا تقصدين يافاطمة ؟!

ـ هل تنكر أن عبدالمنعم شعيشع الذى علمك أبرع منك ؟!

أطرق قليلا يفكر ، وقبل أن ينطق استرسلت :

ـ لاينكر فضل أستاذه إلاجاحد .

ـ لاوالله يافاطمة لست بجاحد ، ولكن ألاتسمعين أن تلميذا تفوق على أستاذه ؟!

ـ سمعت كثيرا .. لكن مادليلك على تفوقك هذا على أستاذك ؟!

ـ ألاترين بنفسك وبعينيك هاتين الجميلتين ؟!

بطريقة مرحة قالت :

ـ هيا ياابن خالتى النخل أمامك .. وأنا بجوارك ..هيا أرنى براعتك ، وتسلق أى نخلة تعجبك ، وهات لى أطيب بلحها ..هيا أيها المغرور .

ورسمت على وجهها ابتسامة .. لكنه لم يرد بكلمة واحدة ، وبعد لحظات تطلع نحو النخل وقال :

ـ يافاطمة .. دعك من حديث النخل والبلح .. أريدك فى أمر آخر أكثر أهمية .

قالت بنبرة يختلط فيها الجد بالهزل :

ـ ليس عندى أهم من النخل يارضوان ، ولاأحب إلى قلبى من البلح الطازج .

ـ يافاطمة لاتمزحى .. دعينا نتحدث بجدية .

ـ والله ياابن خالتى أنا لاأمزح على الإطلاق ، وإنما أنا جادة جدا .

سادت لحظة صمت ، وكأنهما فى مبارزة كلامية ، وفجأة قال كمن يلقى قنبلة مدوية :

ـ أريد أن أتزوجك أيتها البلهاء .

هزت رأسها وتبسمت ثم أخفت ابتسامتها عنه وقالت مازحة بمراوغة ودلال :

ـ لكنك لاتصلح لى زوجا !

دهش وارتسمت على تقاسيمه الحيرة المباغتة :

ـ أحقا ماتقولين يافاطمة ؟!

ـ وهل فى أمور الزواج هزل ياابن خالتى ؟!

ـ ولماذا لاأصلح لك زوجا ؟!

ـ لأننى أريد رجلا يستطيع أن يدفع مهرى .

ـ أتظنين أننى لاأستطيع أن أدفع لك مهرا ؟!

ـ ربما ..

ـ لماذا يافاطمة .. هل ستطلبين مهرا كبيرا يفوق طاقتى مثلما فعل والد عبلة ؟!

استغربت متسائلة :

ـ عبلة .. من تكون عبلة ؟! وماذا فعل والدها ؟!

ـ عبلة بنت مالك وهي ابنةعم الشاعرعنترة ابن شدادالعبسى (525م - 608م)،وهوأحد أشهرشعراءالعرب في فترةماقبل الإسلام،والذي اشتهربشعرالفروسية،وله معلقة مشهورة،ولقدذكرعبلة في شعره العفيف لشدة عشقه وحبه لها،حيث لاقى العديد من المصاعب كى يتزوجها .

ـ وماذافعلوالدها ؟!

ـ والدها طلب لها مهرا ألف ناقة حمر من نوق الملك النعمان بن المنذر .

ضحكت وقالت :

ـ أنا فعلا لست أقل من عبلة حبيبة عنترة ، ومهرى ليس مالا ولانوق حمر من عند الملك النعمان ..

ـ وماهو مهرك إذن يافاطمة يابنت خالتى ؟!

ـ مهرى سباطة بلح أحمر طازج لايقل وزنها عن خمسة كيلو جرامات من فوق هذه النخلة الآن .

تلاشت جديته ، وتبددت تكشيرته ، وضحك بهستيرية من لطف رغبتها وقال :

ـ الآن .. الآن ..

ـ هاهو النخل أمامك بالألاف ، ويحمل على أعناقه الأطنان من البلح .

ـ لكن يافاطمة .. الجو عاصف وفيه رياح قد تشتد فى لحظة ، وهذا لايساعد طالع النخل بل يمثل خطرا عليه .

ـ ألم أقل لك أنك لست أبرع من صعد النخل وقطف البلح ؟!

أحس بالإستفزاز والإستنفار وقال بثقة :

ـ الأمر لله ياست فاطمة ..سأدفع مهرك اليوم .. وأزوركم غدا أنا وأمى كى نضع النقاط فوق الحروف .

ضحكت ببراءة :

ـ النقاط موجودة فوق الحروف منذ زمن بعيد .

فتح حقيبته الخشنة ، وأخرج المطلاع والفأس الصغير وقبل أن يصعد إقترب منها قائلا :

ـ لوسقطت من فوق النخلة ، وكسرت رقبتى أكون شهيد حبك يابنت خالتى ، وقتيل بلحك ياقرة عينى ؟!

ضحكت مجددا بنبرة مختلفة ، ولمعت عيناها ببريق أخاذ من الإعجاب ثم قالت :

ـ عمر الشقى طويل مثل النخلة ياابن خالتى ، فلاتخشى على نفسك من السقوط ، وحاول أن تعود سالما حتى تأتينى بالمهر .

تنهد قائلا :

ـ آه منك يانخلة عمرى .. إن لذة الحياة تكمن فى أخطارها !

همست بصوت خفى ، وتمتمت بدعوات أن يحفظه الله من كل سوء ، وأن يجعل الملائكة تحرسه من السقوط .

صعد النخلة بمعنويات عالية مثل سنجاب سريع مدهش ،ولم يعر الرياح أدنى اهتمام ، وعيناها تلاحقانه بحذر وترقب ورجاء ،وحين وصل القمة قطع بضربة واحدة سباطة ثقيلة من البلح ، وألقاها على الأرض بيده اليمنى فهوت أسرع من البرق والرعد ، وعاد ينزل بسهولة وسرعة ورشاقة كما لوكان جزءا من النخلة ينسل منها وقتما يشاء ، ويعود إليها وقتما يشاء .

حمل السباطة وذهب بها إليها ، وهى ثابتة فى مكانها لاتحرك ساكنا بل تكتفى بإرسال أشعة اعجاب نحوه ببريق عينيها الواسعتين .. ووقف أمامها قائلا وهو ينحنى قليلا كقائد عاد منتصرا يخاطب أميرة البلاد :

ـ هاهو مهرك تحت قدميك يامولاتى .

نظرت إلى البلح الملقى على الأرض ، ومدت يدها إلتقطت واحدة انتقتها بعناية ، وحرصت أن تكون حمراء لامعة كبيرة عن زميلاتها فى نفس السباطة ، ثم وضعتها فى فمها وأكلتها بتلذذ قائلة :

ـ وفيت وكفيت ياابن خالتى ..هيا بنا نعود للدار فلن أستطيع أن أحمل كل هذا الياقوت الأحمر وحدى .

حمل سباطة البلح على كتفه ، وسار إلى جوارها مزهوا بنفسه ،لايعبأ بنظرات العيون فى شوارع العزبة ودروبها ،وحاولت أن تملأ فراغ الصمت فقالت متسائلة :

ـ ألاتود أن تزور خالتك ؟! منذ فترة طويلة لم تسأل عنها .

ـ والله يافاطمة أنا مقصر فى حقها ،ولكن ظروف عملى فى مصنع الطوب ،وتقليم النخل وجمع البلح فى أيام الأجازات تنهب كل الوقت .

ـ أترى أنك مقصر فى حق خالتك فقط ؟!

فهم سؤالها الماكر ، وقال باسما مداعبا اياها :

ـ وهل هناك مخلوق فى الدنيا أهم من خالتى ؟!

رمقته بنظرة ذات مغزى وقالت بدلال :

ـ يا سم ...

ـ أنا سم ؟!

ـ خالتك .. خالتك هى الأهم عندك ؟!

ـ خالتى وبنت خالتى .. فلولا خالتى ماكانت بنت خالتى .

دخلت فاطمة وتبعها رضوان كظلها ، استقبلته خالته بترحاب حذر وصوت خافت على غير عادتها ، فقد كانت تخشى أن يصل صوتها لغرفة الضيوف .. لم يعر الأمر الكثير من الإهتمام ، ووضع حمولته أمامها فى الصالة خلف باب الدار فتبسمت قائلة :

ـ ماكل هذا البلح ؟! عشت ياابن أختى ، لاحرمنا الله من دخولك علينا .

تهادى صوت غريب قادما من غرفة الضيوف عندئذ تساءلت فاطمة وهى ترهف السمع لتتبين من بالداخل :

ـ أين أبى ؟!

ـ فى غرفة الضيوف .

ـ وهل لدينا ضيوف يأمى ؟!

ـ نعم يابنيتى .

ـ من يأماه ؟!

وقبل أن تجيب الأم وبينما رضوان شاخص كتمثال حجرى فى مكانه يراقب الحديث ، جاء صوت الحاج عبدالعاطى والد فاطمة من الداخل ينادى قائلا :

ـ تعالى يافاطمة .. عندنا ضيف عزيز يسأل عنك .

الحاج عبدالعاطى.. رجل طيب نحيل الجسد مثل عود حطب جاف ، ، يبدو للناظر إليه أن عظامه فوق جلده عكس كل البشر ،أصلع الرأس وله لحية خفيفة ، تنبت أحيانا وقد لاتنبت فى أحيان أخرى ،ويضع على رأسه طاقية من الصوف المغزول .. يهوى أن يصنعها بنفسه لنفسه ،وهو فلاح ابن فلاح بالفطرة والوراثة ،ولديه قطعة أرض لاتزيد عن فدان يزرعها ويرعاها ، ويعيش منها هو وزوجته وأولادهما ..اعتاد الجميع أن ينادونه بالحاج رغم أنه أبدا لم يحج بيت الله ، ولم يغادر عزبة الحنكاتى فى حياته إلى أى مكان أبعد من سمنود التى تعتبر هى المركز الذى تتبعه العزبة إداريا ..ويعتبرها أهل العزبة البندر أوالمدينة التى يسافرون إليها ـ مرة كل أسبوع ـ لقضاء حوائجهم وشراء مايلزمهم مما لايتوفر فى العزبة .

لم يذهب عبدالعاطى أبدا إلى مكة المكرمة حيث كعبة رب العالمين ، ولم يكتب له الله حتى اليوم أن يزور رسول الله فى مدينته المنورة ، ومع ذلك صار الحاج لقب ملازما لإسمه ـ على ألسنة الجميع ـ ملازمة النور للنهار والعتمة لليل .

بحذر مشوب بقلق مشت فاطمة الهوينا ، وتسللت على أصابعها ، وهى تتجه صوب غرفة الضيوف فإذا بها ترى ماتكره مرتديا جلبابا مكويا نظيفا بنى اللون من الصوف الإنجليزى الفاخر ، ومفتوح الصدر قليلا ، ويظهر الصديرى الأبيض من تحت الجلباب البنى .

يجلس بإسترخاء وفى يده كوب من الشاى بالنعناع كما لوكان يجلس فى دوار والده العمدة ، وفور أن رآها نهض واقفا بهدوء ثم وضع كوب الشاى أمامه ، وهم بأن يمد يده ليصافحها ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة مشرقة لولا أن رأى رضوان يتبعها فتراجع قليلا ، ولملم إشراقته وسحب إبتسامته ، وتلاشت رويد رويدا من على وجهه حتى اختفت .. عندئذ قال فراج أبودومة بطريقة فيها مكايدة :

ـ أهلا وسهلا بعروستنا الحلوة ..

لم تصدق فاطمة ماترى وماتسمع وأحست بإنقباض قلبها وقالت :

ـ أهلا ..

ثم انسحبت قبل أن ينطق والدها بكلمة واحدة ، وذهبت إلى غرفتها ، بينما ظل رضوان واقفا فى مكانه على باب غرفة الضيوف حائرا ..أشار له الحاج عبدالعاطى بترحاب وود أن يجلس ففعل ، وأومأ فراج أبودومة لائما مستنكرا متسائلا :

ـ ياحاج عبدالعاطى .. لماذا لم تجلس فاطمة معنا ؟!

فكر الرجل بسرعة وقال :

ـ ربما منعها خجل البنات يافراج ياابنى .

اعتدل فى جلسته وأسند ظهره للكرسى ، وأشعل سيجارة ثم قال موجها كلامه لرضوان بنبرة استعلاء :

ـ ورضوان ماذا يعمل الآن ؟!

رد الحاج عبدالعاطى بشىء من التباهى :

ـ رضوان ربنا يكرمه ، ويحميه يعمل فى مصنع الطوب ، وفى أيام الأجازات (طالع نخل) فى موسم البلح ..استطاع أن يصمد فى وجه قسوة الحياة منذ رحيل والده الله يرحمه ، ويتحمل نفقات أخوته.. مكافح ربنا يوفقه ويكرمه .

سحب فراج نفسا عميقا من دخان سيجارته ، وقال بشىء من التهكم :

ـ مكافح فعلا .. ربنا يوفقه .. مكافح صحيح !

لم ينطق رضوان بكلمة ، بل كان مشغول البال يفكر فى سر هذه الزيارة النادرة الحدوث .. حتى قال فراج :

ـ اسمع يارضوان .. لوكنت تحتاج لعمل أفضل وبأجر أكبر يمكن لك أن تعمل عندى .

رد رضوان مستفهما :

ـ عندك .. ماذا أعمل عندك ؟!

ـ عندى فى المزرعة .. أوالأرض .. أو اسطبل الخيل .. العمل كثير ياأخى .

ـ وماذا أعمل فى المزرعة ؟!

ـ أى عمل يعجبك .. مزارع .. حارس .

ـ لاياسيدى .. أنا أحب عملى ولاأريد له بديلا .

ـ براحتك يارضوان ..وكم تكسب فى الشهر ؟!

بدا السؤال مستفزا .. تماسك رضوان وقال بصبر :

ـ أكسب ماقسمه الله لى ، وراض به تماما ، والعمل مهما كان بسيطا أشرف وأفضل من البطالة لأن اليد العاطلة رجس من عمل الشيطان .

رد الصاع صاعين ، وأحس براحة كبيرة لكنه حتى الآن لايعرف لماذا ابن العمدة موجود هنا ؟! كاد يجن وبدأت الغيرة تنهش قلبه ،فهو يعلم أن فراج لايدخل مكانا ، ولايمشى فى طريق إلا وكان الشيطان له رفيق ، وكل يوم يسمع عنه أشياء غريبة ، وتطارده شائعات وأقوال مشينة ،وإن لم يثبت عليه أى شىء حتى اللحظة ، لكن لايوجد دخان بلانار !

شرد رضوان ، ولزم الصمت عساه يسمع من فراج أوالحاج عبدالعاطى مايشفى غليله ،ويفصح عن سر هذه الزيارة .. لكن لاشىء .. نهض فراج من مكانه بغرور وقال بلهجة شبه آمرة :

ـ سأنتظر ردك فى بحر يومين ياحاج عبدالعاطى بشأن الموضوع الذى حدثتك فيه .

ـ ربنا يقدم مافيه الخير يافراج يابنى .

****

(8)

تنفست فاطمة الصعداء فور مغادرة فراج الدار ، لم تسأل عن سبب مجيئه المفاجىء ، وجلوسه مع والدها على انفراد ، فقد كانت بحاستها الأنثوية السادسة تدرك أنها هى سر الزيارة ، ومحور الحوار الذى دار فى غرفة الضيوف .

منذ أول لقاء بينهما رأت فى عينيه نهم ذئب لن يمل ، ولن يكل من مهاجمتها فإن لم يستطع فسوف يسعى لإمتلاكها بكل السبل ،ولم يكن خبثه يخفى عليها .

إن العيون مرايا تكشف حقيقة صاحبها ، ونظراته لها تشى بكل مافى داخله ..لاذت بالصمت ، ولم تسأل بينما ألح رضوان فى السؤال ، وكان يخشى أن تكون فاطمة هى هدف ابن العمدة من هذه الزيارة ، وبمكر الفلاحين ودهاء المجربين راوغ الحاج عبدالعاطى ، ولم يكشف له الأوراق ، وقال كذبا وهو الصادق دائما :

ـ جاء يستشيرنى فى بعض شئونه الزراعية لأنه بلاخبرة كما تعرف

استغرب رضوان وقال مستنكرا :

ـ وهل نضبت العزبة من الفلاحين ،وأهل الخبرة حتى يزهد فى الجميع ويأتى إليك هنا ؟!

ضحك الحاج عبد العاطى وقال :

ـ لاتنسى أنه ابن العمدة ونزل ضيفا عندى ، واكرام الضيف واجب ياولدى .

ـ أرجو ياحاج ألايكون إكرام الضيف على حسابى .

ثم استأذن منصرفا يحاول أن يكتم غضبه ، ويكظم غيظه ، وفى رأسه ألف سؤال وسؤال ، وهو يعلم تماما أنه لايمكن له أن يأمن مكر فراج ،وجاهد نفسه كى لايحملها على الصبر المر حتى يعرف فيما بعد من فاطمة مالم يقله له الحاج عبدالعاطى .. وإن غدا لناظره قريب .

فى الوقت الذى كان يتأهب فيه لإعلان رغبته لخالته ، وزوج خالته بالإرتباط بفاطمة إلى الأبد ، واشهار حبه لها جاءت زيارة فراج أبودومة لتقلب الطاولة فوق رأسه .. فماذا يفعل ؟!

لم يكن فى حاجة إلى الشرح والحديث والتوضيح ، فالجميع فى العائلة يعرف منذ الطفولة أن فاطمة لرضوان .. ورضوان لفاطمة ، فقد كان يكفى أن تتشابك أصابعهما ، وتتلاقى أكفهما ، وينظر كل منهما فى وجه الآخر حتى ينسى كل منهما مايحزنه ، ويعرقل تتويج حبهما الطويل الممتد الذى يجرى فى عروقهما كما يجرى النيل العظيم فى شرايين الحقول فتخضر بقدرة قادر وتثمر وتزهر ، يكفى أن يتفاهما بالعيون ، والعيون فصيحة ،ولغة العيون حين تنطق بلسان الحب تكون أصدق وأكثر إخلاصا من أفصح لسان .

ولعل فاطمة تعلم بمالايدع مجالا للشك أن كبرياءه لن يسمح له بالحضور مرة أخرى إلى دارها ، ويكفى أن يعلم أن هناك من ينافسه على قلبها ، وكيف له أن يحتمل هذا الأمر ، وهو يعتبر فاطمة جزءا من روحه ، وقطعة من قلبه .. هى ماضيه وحاضره ومستقبله .

حين عرف أن فراج طلب من الحاج عبدالعاطى أن يزوجه فاطمة ،علت وجهه سحابة من اليأس والكآبة ، وتملكه حزن مباغت ، وحزنت هى لحزنه ، واكتأبت لإكتئابه ، وكرهت أن تكون سببا لشقائه وتعاسته ..وحين أمسك بيدها وأطرق برأسه أحست أن روحها تنسحب من جسدها ، وتكاد تنهار ثم ترك يدها وقال :

ـ لافائدة يافاطمة .. صفقة ابن العمدة رابحة ..يجب أن نفترق .. من الحمق أن نحكم شد أنفسنا برباط سيؤدى بنا سويا إلى حافة الهاوية .. لاأمل لأحدنا فى الآخر بعد اليوم ، علينا أن نكتفى بصلة القرابة ، ونضع الحب فى الثلاجة ،وأن ننسى ونستعين بالصبر .. اعلمى يابنت خالتى أن الإنسان لايستطيع أن يفعل كل مايحب فى هذه الحياة ، ولاأن يحب كل مايفعل .. أين أنا من ابن العمدة ؟!

همت فاطمة أن ترد عليه صارخة فى وجهه بأنها تحبه دون سواه ،ولن تضحى بحبها مهما كانت الظروف والمبررات .. ولن تكون لغيره أبدا ، لكن صوتها تحشرج ، وتجمعت الدموع فى مقلتيها ، وحاولت جاهدة مغالبة دموعها فلم تستطع ،وأحست بها تنساب رغما عنها على صفحة وجهها الخلاسى الآسر !

وحين رأى رضوان دموعها تلمع أمسك يديها بين يديه ، ودفن فيهما وجهه ، بينما شعرت هى بدموعه الحارة تنهمر فتبلل يديها ،وأصابتها رجفة شديدة ، وبلغ بها التأثر منتهاه ، فلم يسبق لها أن رأته يبكى .

مضت فترة سكون رهيب وصمت مهيب ، وتعطلت لغة الكلام ، وانقطع الوصال بينهما إلا من لغة الدموع والشجون التى غسلت الأحزان ، وبددت الكابوس ، وحملت لهما بشائر الصبر والسلوان .

جففا دموعهما ، وشعرا براحة غريبة ، ماكان أمتعه من بكاء ثم قال :

ـ المقارنة ظالمة بينى وبين ابن العمدة ..هو يملك كل شىء ، وأنا لاأملك من حطام الدنيا شيئا ، هو أغنى الناس فى العزبة ، وأنا أفقر فقرائها ، ولايمكن أن يستوى الغنى والفقير ،ولايمكن لك أن تختارى البؤس وترمى بالغنى وراء ظهرك ..لايمكن أن تفضلى الشقاء على الهناء ،أرضه يجرى فيها الخيل حتى يصيبه الإرهاق ولايبلغ نهايتها .

قالت لائمة برفق حنون :

ـ أنت عندى أغنى الأغنياء ياابن خالتى ..أنت من دمى .. وأنا من دمك .. وحبنا يفوق كل شىء فى الدنيا ..

ماذا تريدنى أقول لك أكثر من ذلك ؟!

ـ لاأريد منك شيئا يافاطمة .. لاشىء على الإطلاق ، وسأحاول أن أهب لك هبة لاأشك أنك فى حاجة إليها ، إنى لاأستطيع أن أمنحك اسما ولامالا ولابيتا ولاولدا ـ لواخترت غيرى زوجا لك ـ لكنى أستطيع أن أهبك صداقتى وحبى وإخلاصى منذ فتحت عينى على هذه الدنيا وحتى ألقى ربى .. إن كل إنسان فى هذه الحياة يحتاج إلى قلب مخلص أمين يضع فيه ثقته ، ويكون مستودع أسراره ، إنى سأكون لك أما وأبا وأخا وصديقا .. يجب أن نفترق على هذا .. على أن يذكر كل منا صاحبه ولاينساه أبدا .. علينا أن نستبدل الحب بالصداقة .

غضبت بشدة وبكت من جديد ثم قالت مستنكرة :

ـ لايمكن ياابن خالتى استبدال شجرة الحب بشجرة الصداقة فى القلب .. هذا مستحيل ..وهل تقوى النفس البشرية على مقاومة رغباتها وتبديل أحاسيسها بهذه البساطة ؟!

حاول أن يهدىء من جزعها وغضبها ، فالتقط يدها ورفعها لأعلى وطبع عليها قبلة متسائلا :

ـ هل تستطيعين أن ترفضى من هو أفضل منى ؟!وكيف يمكن لك أن تصمدى فى وجه والديك يافاطمة ؟!

ـ أستطيع أن أتحدى الدنيا كلها من أجلك ، ولن أكون لأحد سواك ، فلايهمنى مال ولاجاه ياابن خالتى .

أحدث قولها المفعم بالحرارة والصدق فى نفسه مفعول السحر ، وترك أثرا بالغا فى معنوياته التى وصلت عنان السماء ،وشد كل منهما على يد الآخر ، واتفقا على الدفاع عن حبهما فى وجه كل العواصف .

بدا لها من لهجته اليائسة ـ للمرة الأولى ـ أنه ينوء بأعباء الحياة ،وربما لم يعد الإنسان المتفائل المملوء بالأمال والطموحات ،وهى لاتبدو أسعد منه حالا ،ودت لوطال اللقاء أكثر من هذا ، وأفضى كل منهما للآخر بهمومه ، وشجونه وتشاركا فى الشكوى ، وحين سألته قبل أن تنصرف :

ـ لاتبدو سعيدا ياابن خالتى .. لماذا والحياة تفتح لنا ذراعيها ؟!

ـ صدقينى يافاطمة .. لست سعيدا ولست شقيا ، حياتى طبيعية مثل غيرى من مخلوقات الله ، ماالذى يمكن أن ننتظره من هذه الدنيا الماكرة التى لاتترك أحدا بدون هموم ومنغصات ؟! واقع الحال أن حقائق الحياة ليس فيها الكثير من بهاء الأمانى ، وبريق الأحلام الوردية .

شردت فاطمة ودون أن تهتز ثقتها فى ابن خالتها الذى تراه فارس أحلامها منذ كانت طفلة صغيرة ، منذ عرفت معه طريق الذهاب إلى المدرسة ،وهما يتقاسمان الساندوتشات ، ويحمل عنها حقيبة كتبها لواشتكت من ثقلها طوال المشوار ذهابا وإيابا .

وتسأل نفسها .. كيف يمكن أن يراها الآن ؟! هل مازال يفكر فيها أم أن الفراق والشهادة المدرسية التى نالتها وضعا حاجزا عاليا بين قلبيهما ؟! هل مازالت هى فى عينيه كما كانت من قبل المخلوقة النموذجية المثالية السامية التى يضعها على حد قوله لها ذات مرة فى مصاف الملائكة ؟! وإن كان ماتبقى لها فى هذه الحياة هو حبها له وتفكيرها الدائم فيه ، ورغبتها أن تكون له فى يوم من الأيام ،ويقينها أنه مازال يراها بعين العاشق كما كان يراها دائما ..إنها المخلوقة الأولى فى حياته التى سيظل مهووسا بها حتى آخر العمر ،فهل يجعل منها أمله المنشود ؟!

وتسأل فاطمة نفسها بإلحاح :

ـ كيف أحطم أحلام ابن العمدة المغرور ، وأبدد أوهامه ؟! هل أكشف له حقيقة مأأعرف عن مأساة صباح أم أدفن سرهما فى صدرى ،وماستره الله لايفضحه إنسان ؟! لكنها جريمة .. جريمة كاملة مع سبق الإصرار .. ماذا أقول لأهل البلد وأهلى جميعا ؟! فى كل الأحوال لن أرضى أبدا بفراج أبودومة زوجا وشريكا لحياتى حتى ولوكان آخر رجل فى الدنيا ، لن أرضى به أبدا ولوأهدانى العالم كله على طبق من ذهب ،لن أرضى به لوقدم لى مال قارون وخزائنه .. كيف لى أن أشارك القاتل الهواء الذى يتنفسه ،ونحن تحت سقف واحد ؟! لن أسكت أبدا ولواضطررت سأبوح بالمستور .. ولو قتلونى مثلما قتل صباح وألقونى فى النهر طعاما للأسماك الجائعة لن أقبل بقاتل يتنكر فى ثياب حمل وديع !

ظلت فى حيرة تتخبط فى أفكارها لكن لايمكن لها أن تفرط فى إصرارها على الرفض ، وإن بدا هذا الرفض غريبا مريبا ، وغير مبرر أمام والدها الحاج عبدالعاطى الذى ظن أن الحظ ابتسم لإبنته ، وأن أبواب الجنة صارت مفتوحة أمامها ، وهذا الفتى الربعة البدين قليلا ابن العمدة هو المفتاح الذى ستفتح به فاطمة أبواب السعادة كلها لكنها ظلت تقاوم وتقاوم ، وتحتفظ لنفسها بالورقة التى ستكون الرصاصة الأخيرة التى تطلقها على حلم والديها فى اتمام هذه الزيجة المستحيلة التى قالت عنها أمها :

ـ يافاطمة ياحبيبتى ..كل بنت فى عزبة الحنكاتى ستحسدك على فراج ابن العمدة لوكان من نصيبك .

ـ ربنا يسامح كل فتاة فى العزبة تظن أنه كامل الأوصاف ، ولاتعرف حقيقته .. الرجال أسرار ياأمى .

ـ وما سر فراج يابنيتى ؟! الفتى يبدو مثل الكتاب المفتوح ولاغبار عليه .. أم أنك تقصدين قصة أمه الراقصة ؟!

ـ لاياأماه هذا ليس ذنبه ..(وَلاتَزِرُوَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) وكون أمه راقصة فهذا لايعيبه .. الله يستر على الجميع .. ألف رحمة عليك ياصباح .. دمك ضاع هدرا .

دهشت الأم ولم تفهم شيئا مما تهذى به ابنتها وتساءلت :

ـ اسمعى يافاطمة أنا أفهم الحياة أكثر منك ، وأعرف الناس أيضا أكثر منك ، الرجل يابنيتى لايعيبه سوى جيبه ،كما يقول المثل العربى القديم .. فما عيبه فى نظرك أيتها العمياء التى ترفس النعمة ؟!

ـ أخشى ياأمى أن تتهمينى بالجنون ،أنا أعلم مالاتعلمين .. أعلم أشياء لاتقال فى عزبتنا المملوءة بالعجائب ،ونحن فى بلدنا نشعر بالإشمئزاز من الحديث عن أفعال نشمئز منها ومن فاعلها ،فإذا كان فعل المنكر عيبا كبيرا فإن الحديث عنه عيبا كبيرا أيضا ،وليس أسهل على الإنسان من أن يبيح لنفسه فى ظلام الليل مايشمئز منه ، ويسعى جاهدا لإخفائه فى نور النهار !

ـ يافاطمة مالذى أصابك ؟! كلامك يبدو غريبا لاأفهمه .. فراج هو فرصة عمرك يامجنونة ، وأراه شابا مثاليا ومناسبا لك ، ولسوف تعيشين معه فى نعيم .

هزت فاطمة رأسها وقالت ساخرة :

ـ كانت صباح أولى بهذا النعيم !

ـ لاحول ولاقوة إلابالله .. وماشأن صباح بالأمر .. الله يرحمها .

ـ لن أعيش ياأمى فى عالم النفاق والمنافقين ، لن أغمض عينى وأذنى عما عرفت وسمعت ،كلكم تتمنون أن أذكر ماحدث ، كلكم منافقون بامتياز ، وتعطون ابن العمدة احتراما لايستحقه ،وأشدكم نفاقا وأكثركم تظاهرا بالحرص على الفضيلة هو ابن العمدة ذاته ، لن أشارككم نفاقكم ،ولن أشارك قاتلا آثما طعامه وشرابه وفراشه ..مستحيل أن أتزوج بمثل هكذا شخص .

قالت أمها ساخرة :

ـ ومن تتزوجين إذن ياست الحسن والجمال ؟!

ـ لن أتزوج إلا من الشخص الذى اختاره قلبى ، وربطنى به حبل الحب منذ سنوات ..لن أرتبط إلا بمن ملك قلبى ..

ـ ومن هو ؟!

ـ ابن خالتى رضوان .. النبيل الذى ليس له مثيل .

فكرت قليلا ثم شهقت ونادت زوجها :

ـ ياحاج عبدالعاطى .. تعالى اسمع كلام ابنتك المحروسة ..إنها تهذى وتقول عن فراج أنه قاتل فاسق وأننا منافقون ، ولن ترضى به زوجا أبدا .

فى ليالى الشتاء الطويلة غير المقمرة يعوى ذئب يختبىء فى مكان ما بعيدا عن المتناول ، ويهطل المطر فيحول شوارع العزبة إلى مستنقعات يخوضها الفلاحون بمواشيهم فى مطلع النهار ، فى تلك الليلة احتدم النقاش ،وشبح العتمة يتمدد ثقيلا فى دروب العزبة الموحشة إلى درجة لاتطاق ،دخل الحاج عبد العاطى فى دهاليز الحوار ، أبعد نظارة القراءة عن عينيه ، وأغلق المصحف الكبير الذى كان يقرأ فيه كلام الله ،كما اعتاد أن يفعل فى ليالى الشتاء الباردة الممطرة ،هوعاشق للقرآن ولايتوقف عن النظر فى أياته المحكمات وتأملها كلما سمحت له الظروف ،ومسبحته بحباتها السوداء الكبيرة لاتفارق يده ، أقرب مايكون إلى الدراويش المتصوفيين ، ويبدو الرجل ذاكرا شاكرا محافظا على الصلوات الخمس فى مواقيتها برغم أنه لم يأخذ من التعليم سوى أقل القليل .

لقد كانت محطته الأخيرة هى شهادة الإبتدائية الأزهرية ،أنصت الرجل إلى رأى فاطمة وموقفها الصلب ، وكذلك تشبث أمها برأيها المعاكس ،وكأن كل واحدة منهما تسير فى اتجاه مضاد للأخرى ، ولايمكن أن تتلاقيا فى طريق واحد ،وكل واحدة تسعى لجذبه إلى صفها وطريقها .

فكر الرجل أن يؤثر الصمت لأنه لايريد أن يغضب زوجته على حساب ابنته ،ولاأن يغضب ابنته على حساب زوجته ، وهو يؤمن بأن مصائر البشر بيد القدر ، وأن لهذا الكون الكبير رب عظيم حكيم يدبر أموره باقتدار ، ويكتب سيناريوهات أحداثه ببراعة ، ومهما كانت قدرة البشر فلن يغيروا شيئا من إرادة صاحب المشيئة .

أدرك الحاج عبدالعاطى أن الصمت ليس الحل المثالى ، بل ربما قد يقوده هذا الصمت السلبى إلى التهلكة ، لكنه لزم الصمت لأنه لايستطيع أن يجبر ابنته على فعل شىء لاتريده ، ولايستطيع أن يدخل فى معركة وهمية مع زوجته العنيدة الطبع ،وبناء عليه آثر السلامة بعد أن سمع حيثيات فاطمة ، وأدرك أنها تعرف مالايعرفه الآخرون عن فراج ،ولن يخدعها مظهره مثل الآخرين ،ولاأرضه وماله ونفوذ أبيه .. لاشىء .. اختلطت الصور فى ذهن الرجل .. فلاملائكة تمشى على الأرض ولاشياطين أيضا .. إنما البشر هم الذين يمشون ويعيشون على الأرض !

كان فى قرارة نفسه يميل إلى الوقوف فى صف ابنته ، دون أن يعلن ذلك صراحة فى وجه زوجته ،لأن رأيه لن يغير من الأمر شيئا ،بل سيجلب عليه مشاكسة زوجته ،برغم أن فاطمة أعلنت لها أنها لن تتزوج سوى ابن خالتها ، ومن رابع المستحيلات أن ترتبط بغيره .

وحين سمع الحاج عبدالعاطى بشبهة تورط ابن العمدة فى قتل المغدورة صباح وإلقائها فى بطن النهر ، وعرف أيضا بالحديث الذى أفشت فيه صباح سرها لفاطمة لم يرغب فى أن يفتح على نفسه وعائلته أبواب جهنم !

فمن يقتل مرة لن يتورع عن القتل ألف مرة ، وفى أعماقه صدق رواية ابنته ، وكانت تلك الرواية تفسيرا منطقيا وطبيعيا للغز النهاية الغامضة لصباح ، ولن يلقى الرجل بابنته فاطمة فى التهلكة أبدا مهما كانت المغريات ، واكتفى باحتقار فراج والإشمئزاز منه، كان يظن تقدم ابن العمدة لإبنته فرصة ذهبية لكنه اكتشف أنها مصيبة سوداء .

وقد عقد العزم ألا يضع يده فى اليد الملوثة بالدم ، ولم تنس فاطمة ذلك اليوم الذى حدثتها فيه صباح بحكايتها الغريبة ، وكأن الله أنطقها رغما عنها لتبوح بالسر الرهيب الذى قتلت به فى النهاية .

صحيح أن فاطمة أحست بالعجز والخوف لكنها ظنت أن الله أرسل لها اشارة تنجيها من ذات المصير ، ولولا هذا اللقاء العابر بترتيب ربانى ، والحوار المفاجىء العفوى لربما وقعت فى الفخ ، واستطاع فراج أن يخدع الجميع ، ويستبدل ثوب الرذيلة بثوب الفضيلة !

لم تأبه أمها كثيرا برواية ابنتها ، وظنتها خيال العذارى ،ومكر البنات ، ولم تأبه بأن تكون ابنتها من نصيب ابن أختها ، لأنها تؤمن أن الفقر لايجلب سوى الفقر ، وقالت لإبنتها صراحة :

- يافاطمة .. المال يابنيتى أهم شىء فى هذه الحياة الفانية ، دعك من أوهام الحب وأكاذيبه الملونة ،إن من يملك المال يملك كل شىء ، والعمدة وولده يملكان الكثير من المال .

- ياأمى .. قلت لك ألف مرة لن أستطيع أن آكل طعاما لاأحبه ،فمابالك بالحب والزواج وعشرة تدوم العمر كله ؟!

- لايهمنى يافاطمة سوى تأمين مستقبلك وضمان سعادتك .

- ياأمى .. راحتى ومصلحتى وسعادتى مع ابن خالتى ..لاأريد مالا بل أريد حبا وحنانا .. وهذا لن أجده إلا عند رضوان .

- ستندمين ياابنتى ذات يوم ..الحب مثل السراب لن يدوم طويلا ..هو كالسحاب يتحرك ثم يتلاشى ،والحنان لن يشترى لك كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، ولن يشترى لك الحب الذهب والخدم وكل سبل الراحة والسعادة .

- ياأماه .. هل ترضين لابنتك أن تعاشر قاتلا ؟!

- هذه أكاذيب وأوهام فى رأسك ، وربما شائعات الحاسدين ، ولوكان كلامك صحيحا لكان فراج الآن فى السجن .

- الله عادل ياأمى .. يمهل ولايهمل .

****

(9)

سيطر الغضب على فراج أبودومة ، ونالت منه الكآبة حين وصلته رسالة الحاج عبدالعاطى بأن ابنته فاطمة مخطوبة لابن خالتها رضوان ، وأنه قرأ فاتحتها مع المرحوم والده منذ سنوات .

يثور الفتى الأرعن فجأة غير مصدق لتلك الرواية ، ويرفع يده مهددا ومتوعدا الحاج عبدالعاطى ، ويكشر عن أنيابه ويسقط قناعه المزيف على الأرض ليظهر وجهه الحقيقى قائلا بغطرسة :

- أستطيع ياعبدالعاطى أن أسحقك كما يسحق الفيل النملة ، وأستولى على ابنتك .

يتركه الحاج عبدالعاطى يهذى بسفالة ، ويمضى فى طريقه إلى المسجد ليلحق بصلاة العشاء فى جماعة .

يبتلع فراج ريقه فى حنق ، ويشعر بمرارة فى الحلق ،ويفكر فى طريقة للثأر لكرامته من هذا الفلاح الذى يصفه بالجربوع والذى يرفضه زوجا لابنته .

يهدأ قليلا من الصدمة الكبيرة ، ويعيد التفكير ليدرك أن الحاج عبدالعاطى تغير كثيرا منذ التقاه فى داره بعد أن كاد يطير به فرحا ربما ابنته هى السبب ، وإلا ماتفسير هذا الإنقلاب الكبير فى لهجته وموقفه الرافض ؟!

لم يعد أمامه سوى صاحبة الشأن ..فاطمة عبدالعاطى وهى فتاة عنيدة صلبة لها شخصية فولاذية ، ولاأحد يمكن له السيطرة عليها إلاإذا ملك قلبها .

يقول ذلك لنفسه بلهجة قاسية ،ويومىء برأسه ، ويلكز جواده متجها به إلى المزرعة عساه يبحث عن حل ، فلم يكن يظن أن فتاة فى هذه العزبة النائية ترده خائبا أبدا ، وهو ماهو وعنده ماعنده .. لكن قلوب البنات ليست مرهونة دائما بحسابات البنوك والأطيان والثروات إنما مرهونة بحسابات المشاعر والأحاسيس والوجدان .

من تكون بنت عبد العاطى تلك حتى ترفضه ؟! مجرد طفلة عنيدة متمردة ،تتقافز على شاطىء النهر دائما لتأكل من ثمار الشجر مع ابن خالتها البائس الذى يكاد يدبر قوت يومه بصعوبة بالغة ، لايدرك أحد مدى المرارة التى يشعر بها فراج الآن ، لكنه فى كثير من الأحيان يبدو مثل طفل مذنب لايعرف طريقا للإعتذار ، كما لايعرف سبيلا للغفران ، ولاتوجد حجة يخفف بها من ذنبه ، وإنما من يلجأ طالبا الغفران ، يعلم تماما أن تحقيق الأمنيات يستحق الكثير من التضحيات ، كما يستحق تحقيق الأحلام بعضا من الدموع ، ويستلزم اقتلاع الجذور كثيرا من الألم ، تبدو صدمته فى الحاج عبدالعاطى وابنته أشبه بالسقوط فى حفرة صغيرة عليه أن يتجاوزها ليفكر فى الخطوة القادمة .

يغرق فراج أبودومة فى صمته تحت ستائر الليل السوداء ، ونار الإهانة تشتعل بداخله تكاد تحرقه مثل ذئب مهزوم مقهور من فأر صغير حقير .

بينما فاطمة ورضوان يعبران ذكريات أروقة الطفولة البعيدة إلى حياة هانئة قريبة ..لكنه قرر أن يحول بينهما حتى ولووصل به الحال إلى حد القتل ! ولم لا ألم يقتل من قبل ؟! هل النهر ضج أو اشتكى ؟!

على العكس مازال النهر فاتحا فمه لإلتقاط كل شىء كتمساح جائع متوحش .

مرت صباح بخاطره ، وكادت دمعة تفر من عينيه ، وهو يستعيد سريعا ذكرياته معها ، وبنبرة من الشجن والحنين والإفتقاد هتف فى جوف العتمة بندم :

ـ الله يرحمك ياصباح ..عمرى ماكرهتك بل على العكس ، لكن رغبتك المحمومة وإلحاحك الجنونى فى الأمومة والإشهار سبب موتك ، لاتلومينى على مافعلت بك بل لومى نفسك .. ياليتك رضيت بما أعطيته لك .. لكن القطة اللئيمة الماكرة لوأعطيتها كعكة لطلبت كوبا من الحليب .. هكذا تعاملت معى صباح فى أيامها الأخيرة وأعطيتها كوبا من السم فخسرتها !

ماذا أصابه فجأة ؟! لاحظت شلة السهر أنه لم يعد هو ، كان مستهترا عابثا يضحك لأتفه الأسباب ، واليوم صار عابسا يفكر بعمق ويحدق فى الوجوه والأشياء والأشجار كأنه يراها لأول مرة ، يراوده الحنين إلى قتيلته ولياليهما ، ويأخذه الشوق الجارف إليها .. يشعر بحسرة هائلة ، وتأنيب ضمير ، وندم طويل .

هاهو مأخوذ كالمبهور المسحور بفاطمة بنت عبدالعاطى ، فهى أجمل بنات العزبة كلها ، وجمالها مقرون بشخصية صلبة آسرة كأنها أميرة من أسرة ملكية عريقة ، وجهها ممتلىء بالنضارة والحيوية ، وفى عينيها جاذبية لامثيل لها تشع منها رائحة الطهر والبراءة ، الرضا عن الدنيا وعن حياتها لايفارقها ، وتبدو مطمئنة إلى الماضى والحاضر والمستقبل ،أحيانا يكشف جلبابهاعن نحر عاجى ساحر ،لاترتدى حول عنقها إلاسلسلة معلق فيها ماسة صغيرة زرقاء ، لاتبالى بأحد من شباب العزبة ورجالها سوى ابن خالتها .

تمر أيام كموج النهر المار بناصية عزبة الحنكاتى ، ويعتزل فراج شلة الليل إلى أجل غير مسمى ، وإن ظل على حالة التعاسة ينام النهار بطوله ، ويستيقظ الليل بطوله ، وتمر الشهور دون أن يرى الشمس أوتراه ، يريد أن يبكى وحده بجانب جثة المرأة التى شاركها حبا ،ويريد أن يبكى وحده على الفتاة التى أحبها وتمنعت عليه ..ماذا يفعل ؟! هل يستسلم لشيطانه الذى يوسوس له بفكرة قتل رضوان كى يخلو له الطريق إلى قلبها ؟!

يراها فكرة جيدة لكنها خطيرة ،ويمكن أن تقوده إلى حبل المشنقة .

تمر الليالى عليه طويلة ثقيلة مملة ، وهو شارد مسهد يدور حول نفسه غاضبا بين حنينه الطاغى لصباح ، ولهفته الجارفة وتهافته الحارق لفاطمة .. وبين الحنين والتهافت يتمزق هو ألف قطعة كل ليلة .

تحول مرحه إلى صمت كئيب ،ولم يعد يدرى بمايدور حوله ، يسمع تراتيل القرآن قادمة من مكان ما ، فيجلس مجهدا على أحد المقاعد المريحة ، يأتيه أحد الخفراء يسأله إن كان يريد أى خدمة ، فيسأله فراج ساخرا:

- لماذا أسمع القرآن باستمرار منذ ليلة البارحة فى كل مكان ؟! هل أعلنت عزبة الحنكاتى اسلامها من جديد ؟!

يضحك الخفير فيهتز كرشه وشاربه الرفيع ويقول كمذيع نشرة الأخبار :

ـ البقاء لله .. ألاتعرف ؟!

ـ أعرف ماذا ؟!

ـ لقد مات أهم رجل فى الدنيا ؟!

ـ وهل هناك رجل فى الدنيا أهم منى يامغفل ؟!

يتلعثم الخفير ويرتبك ثم يتلفت حوله هامسا :

ـ طبعا .. طبعا ..أنت أهم رجل فى الدنيا لكنى أقصد الزعيم ..

ـ أى زعيم ياخفير الشؤم ؟! تكلم بسرعة .

ـ الزعيم الرئيس القائد المؤمن .

ـ أى رئيس ؟!

ـ رئيس الجمهورية .. آه والله مات .

ضحك فراج وقهقه بصوت جهورى ثم قال :

ـ أخيرا مات لنا رئيس .. كنت أظن أن الرؤساء لايموتون مثل بقية الناس العاديين .

ـ سبحان الله يافراج .. كل ابن أدم من تراب وإلى التراب يعود .

بنبرة قاسية :

ـ عرفنا يافصيح .. لكن لماذا مات ؟!

ضحك الخفير ، وفتح فمه عن آخره فظهرت أسنانه الصفراء المتهالكة ثم قال مستغربا واعظا :

ـ وحد الله يافراج .. الموت أمر الله .

ـ أعرف أعرف .. لكنى أقصد كيف عرفت أنت ؟!

ـ الدنيا كلها عرفت ، والإذاعة أعلنت الحداد ثلاثة أيام ، والقرآن ليل نهار فى كل دار .. الله يرحمه .

ـ وكم كان عمر الزعيم القائد المؤمن حين مات ؟!

ـ سمعت أنه اقترب من المائة عام وبالتحديد قالوا فى الراديو 96 سنة ـ ماشاء الله ..عاش من أيام الجنيه الخشب إلى عصر الإنترنت !

قهقه الخفير بسعادة وقال :

ـ ربنا يعطيك طول العمر يابن حضرة العمدة .. لكن الزعيم كان يعانى من مرض عضال فى أيامه الأخيرة .

هز رأسه وقال وهو يحك جبهته بأصابع يده :

ـ ذكرنى باسم الزعيم المرحوم .

دهش الخفير وظل مشدوها فاغر الفاه مرفوع الحاجبين وهتف :

ـ يانهار أسود .. ألاتعرف اسم الرئيس الزعيم القائد ؟!

ـ الله يلعنك ياخفير الندامة ..وهل مطلوب منى أن أحفظ أسماء زعماء الأمة ؟! الله يسامحه ويغفر له .. الحاكم فى دول العالم الثالث يحكم واقفا فإن لم يستطع لدواعى المرض أوالعجز والشيخوخة فقعيدا فإن لم يستطع فعلى جنبيه ، فإن لم يستطع فراقدا ، فإن لم يستطع فيكفى أن يرمش بعينيه ليحكم البلاد ويسيطر على العباد ، وذلك أضعف الإستبداد !

بشىء من الإنكسار والحزن قال الخفير اسم الزعيم بوقار واحترام ، وطأطأ رأسه نحو الأرض كما لوكان يسير فى جنازة الزعيم بالفعل .

أدرك أن ليالى الشتاء معتمة باردة خالية من امرأته صباح ، وهاهو يقضى لياليه وحيدا مع حاله ، يسير فى الليل المتأخر بجواده حتى يصل دارها فتبدو له أطلالا معتمة ، الشوارع خالية ، والناس موتى بفعل جبروت النوم وسلطانه الطاغى ،والديار لاتختلف كثيرا عن المقابر فى هذا الوقت .

يغادر العزبة إلى الحقول الواسعة فلايسمع سوى همس الأشجار وصمت الزرع الأخضر ، وعواء الرياح ، ووشوشة الطيور المختبئة فى أحضان الأغصان .. والكلاب تنبح فى أكثر من مكان ، ولفحات من هواء بارد تضرب مسامه كمسامير حادة ، يشعر وقتها بشىء من الملل وهو يقترب من مزرعته ،وفجأة يظهر أمامه شبحان يقفان منتصبان ، ويسدان عليه الطريق وبنادقهما مصوبة نحوه ثم يصيح أحدهما :

ـ قف مكانك .. من أنت ؟!

بنبرة ثقة يقول :

ـ أنا فراج عوض أبودومة .. من أنتما ؟!

يقفان أمامه فى جمود ، ويفسحان طريق الدخول إلى المزرعة كأنهما حرس الشرف ، ويسود الصمت المهيب ، ولايسمع سوى صوت وشيش النهر ، وعواء الكلاب البعيدة ، وذئب جائع ينوح فى مكان مجهول ، تشتد الرياح وينال منه الإرهاق لكنه لايريد أن يبدو أمامهما متخاذلا خائفا خوارا .. يدخل ليستريح فى مقر مزرعته المجهز بكل سبل الراحة ، لايريد أن يرى وجوه الخفراء المرهقة من طول السهر ، يسيرون بعيون نصف مغمضة سواء حول المزرعة أوعلى حدود العزبة بتكليفات من حضرة العمدة .

فى مخدعه جافاه النوم واستعصى عليه ، بينما الفجر يوشك أن ينادى عباد الله للصلاة ، يتذكر فى الشتاء الماضى حين غادر العزبة لزيارة أمه الراقصة السابقة حرم معالى الوزير حاليا ، وظل فى القاهرة ثلاثة أسابيع حتى عاد إلى فراش صباح الله يرحمها ذات ليلة باردة ممطرة عاصفة حولت شوارع العزبة إلى برك ومستنقعات ، وحين زارها بعد منتصف الليل والناس نيام أموات وجدها ساهرة مترقبة لقدومه تطل من نافذتها الصغيرة على الشارع حين سمعت وقع أقدام الحصان ، وهو يخوض بحوافره فى الطين ، وفور أن طرق الباب كالمعتاد هرولت لتفتح بلهفة ، وهى لاتصدق أنه عاد إليها ، وألقت بنفسها بين ذراعيه تحتضنه بشوق وحرارة وهى تهمس :

ـ ياإلهى ..يارحمن يارحيم .. كم كنت خائفة ألاتعود ، كنت أخشى أن تستمرىء حياة المدينة وتنسانى يافراج ..كنت سأبقى وحيدة فى الحياة بدونك وكأننى فى عداد الأموات ، أرجوك لاتتركنى وحدى مرة أخرى .

تبسم ابن العمدة وقبض عليها بين ضلوعه ، وأحس بحرارة وليونة جسمها ، وهى ترفع رأسها لتغمر وجهه بالقبلات ، ويحس بدموعها تنساب عليه ، ثم يجلسان معا على أريكة قديمة فى أحضان بعضهما ، يشعران بمدى حاجتهما للدفء والتلامس بشدة ، جوع كل منهما للآخر لايحتمل ولايطاق .. هنا يوجد الدفء والهدوء ، وخارج جدران تلك الدار لايوجد سوى الضجيج والبرد والمطر .. ثم سمعها تهمس كقطة أليفة خائفة من شىء ما :

ـ قلت لك لاتتركنى مرة أخرى .. أريدك أن تقضى الليل كله معى ، أريد أن أستيقظ فى الصباح وأنت إلى جوارى.

يضحك بمرارة مازحا :

ـ سوف يبحثون عنى فى كل مكان ، وربما يعتبروننى لصا هاجم امرأة وحيدة تعيش فى دارها آمنة مطمئنة !

تهتف بتوسل من أعماقها :

ـ أنا امرأة تعيسة .. حزينة .. قليلة الحظ فى هذه الحياة .

يستعيد فراج بعضا من هذه الليالى السعيدة الضائعة من صندوق ذكرياته الأسود ثم يتنهد بحرقة ويحاول التحايل على النوم أن يزوره فلايستجيب لحيله .

لايدرى كيف تسربت إلى بعض الناس فى العزبة حكايته مع صباح ، لاأحد يعرف متى بدأت الشائعة أوالحقيقة الغائبة ؟! وهل صدقها الناس أم لا ؟! لاسر يبقى سرا للأبد .. الهمس له صوت عال فى القرى والنجوع والعزب ، وخاصة عزبة الحنكاتى .. تقترب الشفتان من الأذن هامسة بلسان مبين بالسر الرهيب ، وفى لحظات لم يعد السر سرا ، والغريب أن من يفشى السر يطلب من السامع أن يكتمه ،ويواريه ويخفيه عن الآخرين فى أعمق بئر فى الدنيا ..سبحان الله الذى لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولافى السماء .

قفزت عجلة الزمن عدة قفزات إلى الأمام ، وطوت عدة أيام حتى حانت الفرصة ، وجاءت اللحظة الحاسمة .. كان يتبختر كالطاووس مزهوا بنفسه ،وعزه وجواده الأشهب الأصيل على شاطىء النيل ساعة العصارى يراقب الناس ويتأمل الماء والخضرة الغراء ، ولم يكن ينقصه سوى الوجه الحسن لتكتمل ثلاثية السعادة (الماء والخضرة والوجه الحسن) .. كان مثل أمير يتفقد رعاياه فى زمام إمارته .

لم يمر الكثير من الوقت حتى ساقت له الصدفة الوجه الحسن المفتون هو به ، رآها تسير على شاطىء النهر .. هى دون سواها بدلالها وجمالها وسحرها الآسر ..فاطمة عبدالعاطى تمشى بدلال حاملة على رأسها لفافة فيها طعام لأبيها الذى يكد فى الحقل ، وعندما لمحها انتفض قلبه بين ضلوعه ، ونسى الدنيا ومافيها ، ثم اقترب منها بحصانه الأشهب ،ونزل من فوقه كى يكون أقرب إليها ،وناداها بنبرة محايدة فالتفتت إليه ولم تنطق بكلمة فألقى عليها التحية ردت عليه بأقل منها أومثلها .. وقال بنبرة توسل :

- أريد أن أعرف وأسمع منك دون سواك .. لماذا ترفضيننى زوجا لك ؟!

- لوأخبرتك سبب رفضى هل ستتركنى فى حالى ياابن العمدة ، وتنصرف عنى وتنزعنى من رأسك ؟!

- لاأعدك ..صدقينى لاأستطيع ، وحتى لواستطعت أن أنزعك من رأسى فلاسبيل لى أن أنزعك من قلبى ..ليس الأمر بيدى .

- ومالسبب ؟!

- ببساطة لأن قلبى ليس فى يدى ، والقلوب ذاتها خارج السيطرة لحكمة إلهية لاندركها .

ضحكت ساخرة قائلة :

- لحكمة إلهية القلوب خارج السيطرة .. أراك تتحدث واعظا كما لوكنت إمام المسجد !

- ماذا تقصدين يابنت عبدالعاطى ؟!

- لاشىء ياابن العمدة .. لاشىء .. اتركنى وشأنى ، واذهب لحال سبيلك حتى لاأصرخ وأجمع لك أهل البلد وتكون فضيحة .

- لن أتركك فى حالك حتى أعرف سبب رفضك لى .

- أنت تعرف .. ألم يخبروك بأننى لرضوان ابن خالتى ؟!

- لا .. ليس هذا هو السبب الرئيسى للرفض يافاطمة .

ـ هذا هو السبب الأصلى وأنت رأيت رضوان عندنا ، ورأيته معى أكثر من مرة ،وتعرف أن زواجنا مسألة وقت .. ابن خالتى أريده ويريدنى .. هو أولى بى وأنا أولى به .. ألاتعرف أن الأقربين أولى بالمعروف ؟!

ـ كلامك صحيح تماما يافاطمة ..لكنك قلت أن هذا هو السبب الأصلى ، وطالما هناك سبب أصلى فلابد من وجود سبب فرعى .. أليس كذلك ؟!

قالت بنبرة تحد وعناد :

ـ اسمع ياابن العمدة .. ابعد عن سكتى ولاتدس أنفك فى شئون حياتى ..أنا حرة وليس لك على سلطان ..أنا لاأريد أن أنبش قبور الموتى ، ولاأريد أن أفتح ملفات قديمة لأن الله حليم ستار ، وماستره الرب لايفضحه العبد .

اتسعت حدقتا عينيه وحملق فيها وقطب مابين حاجبيه ثم قال بغضب :

ـ قبور الموتى .. ماذا تقصدين يابنت عبدالعاطى ؟!

ـ أنت تعرف أفعالك كما تعرف خفافيش الليل أوكارها .

ـ خفافيش الليل ..أوكارها ؟!

جن جنونه وزادت حيرته ، وأحس بنبرة تهديد فى كلماتها ،وهيمن عليه الفضول كى يعرف ماتعرفه تلك الفتاة الجميلة الجريئة ،ولاتبوح به وإنما تكتفى بالتلويح الخفى والتهديد المستتر .

استرسلت فاطمة بطريقة تغيظه، وهى تسرع الخطى مبتعدة عنه :

ـ أنا أحب ابن خالتى وسأتزوجه .. لن أتزوج غيره .

ـ لكنه لايناسبك يابنت عبدالعاطى .. أنا الفارس المناسب لك .. سأجعل كل أيامك سعادة .. فكرى جيدا واختارى الأنسب لك .

ـ لاتحاول يافراج أن تلعب معى هذه اللعبة .. أرجوك أن تنسانى .

ـ لاأستطيع يافاطمة .. هل يستطيع إنسان أن ينسى أن الشمس مشرقة وتأتى كل يوم ، وهل يستطيع إنسان أن ينسى الهواء الذى يتنفسه ؟!

ـ اخدع غيرى وغرر بغيرى كما خدعت صباح الله يرحمه ، وهذا النهر يشهد عليك !

بهت الذى سمع ولاذ بالصمت ، وعاد أدراجه مهموما مغبونا يجز على أسنانه .

****

(10)

عاود فراج أبودومة كسر الملل الليلى والأرق الذى يداهمه كلما حل عليه الظلام باستدعاء شلة السهر التى يطلق عليها (شلة الأنس) ،عادوا ليملأوا الدوار الواسع الفسيح صخبا وحياة ،، يريد أن يسمع منهم ، وعندما يلعب الدخان بالرؤوس ينطقون بالحكمة أحيانا وبالهزل أحيانا .

تساءل :

ـ يارفاق ماذا يفعل الفارس الهمام مثلى حين ترفضه حرمه من عزبة الحنكاتى ؟!

قهقه أحدهم وهو ينفث دخانا كثيفا ثم قال :

ـ إذا رفضته يرفضها هو أيضا وينتهى الأمر ..

ـ أيها الأحمق أريد أن أكسرها وأذلها .

ـ ليست الرجولة أن ينتصر الرجل على المرأة ، ولكن الرجولة ألايكسرها !

عاد فراج يتساءل :

ـ أريد منكم حلا لهذه المشكلة .

قال آخر :

ـ كل مشكلة ليس لها حل إنما لها نهاية !

قال فراج :

ـ ياسلام يافصيح .

رد آخر وقد بدا فى حالة من الغيبوبة بفعل ماشرب ودخن :

ـ هكذا هى الحياة يافراج صدقنى .. سيئة لئيمة فى أحيان كثيرة ، وعلينا أن نتقبلها كما هى بحلوها ومرها .

قال فراج بتهكم :

ـ وماذا لولم نقبلها كما هى يانهر الحكمة وترعة الفلسفة ؟!

ـ من لايريد أن يقبلها بماهى عليه أن يغادرها لأن الحياة مجانية لاتأخذ منا إيجارا شهريا ولا خلو رجل أو مقدم أومؤخر .. هى مجانية والحمد لله .

قال آخر ضاحكا :

ـ هل هى شقة للإيجار أم حياة للحمار ولامؤاخذة ؟!

رد عليه زميله منفعلا :

ـ ليس بيننا حمار سواك .

وهجم عليه بقفزة بهلوانية سريعة كأنه أرنب جبلى ، وظل يضرب فيه والآخر تحته يستغيث بفراج أن ينقذه من هذا المعتوه .. وبالفعل تدخل صارخا فيهما بلوم أن يتوقفا عن هذه التصرفات الصبيانية :

ـ توقفا عن هذا .. أنتم جميعا فى دارى ودوارى وعليكم احترامى ..عليكم اللعنة جميعا ..

فض الإشتباك وعاد الهدوء ، وسادت لحظة صمت ، بينما الشخص المضروب الذى وصف صاحبه بالحمار يتحسس وجهه وجسده من أثار اللكمات ،ولم يجد سوى سجحات خفيفة ، وإن كان يحس بالألم فى أماكن متفرقة من جسمه كما يحس بدوار فى رأسه ، لابأس فالبادىء أظلم .

كسر فراج الصمت بصفته كبيرهم وصاحب الدار والدوار ، وهم ضيوفه يأكلون ويشربون ويدخنون على حسابه قائلا :

- اسمعوا ياجماعة أنا لاأخفيكم سرا .. لقد وقعت فى هوى فاطمة بنت عبدالعاطى وطلبتها للزواج لكنها رفضت وتمنعت .

دهشوا جميعا وقال أحدهم :

- لابد أنها مجنونة كى ترفضك يافراج .. ألاتعرف هذه البلهاء من أنت وابن من تكون ؟!

بدا فراج هائما يفكر وينظر للسقف ثم قال :

- هى جميلة مليحة كأنها لاتنتمى إلى أسرتها ولالعالمها فى تلك العزبة البائسة ، وهى فى دار أبيها مثل شمعة مضيئة أخشى عليها أن تذوب وتزوى وتنطفىء فى النهاية .

قال آخر بضيق :

- دعك منها .. ونزوجك من هى أفضل منها ألف مرة .

قال ثالث :

- البنات أكثر من الهم على القلب الحزين يافراج .

طأطأ رأسه كطفل ضاعت منه لعبته المفضلة وقال :

- لكنى لاأريد سوى فاطمة بنت عبدالعاطى .

رد عليه أحدهم بمنطق التاجر :

- الرجل العاقل لايجزع أبدا على امرأة خسرها لسبب بسيط جدا ، لأنها سلعة معروضة فى كل الأسواق ، وعلى الرجل أن يفتش فى السوق عما يرضيه .. أما الرجل فليس سلعة على الإطلاق لسبب بسيط جدا لأن الرجل هو التاجر لهذه السلعة سواء كان البائع أوالمشترى !

صاح فراج بضجر :

- أقول لكم أيها الحمقى أريدها دون غيرها ألاتفهمون ؟!

وأين عقولكم لتدلونى .. أنتم بهائم بلاأربع قوائم .

ضحكوا جميعا ولم يشعروا بالإهانة على الإطلاق ثم قال أحدهم :

- بهائم بهائم .. الجاموسة اليوم ثمنها ألاف الجنيهات بينما الواحد منا يظل يعمل أجيرا اليوم كله ولايحصل على مائة جنيه .. ماأغلى البهائم وأرخص البشر !

نطق أحدهم بحكمة عظيمة قالها وهو شبه غائب عن الوعى ، ويكح ويسعل ويهذى :

- إن الحب لايقتل أحدا ولكنه يجعل المحب فى منطقة وسطى بين الحياة والموت .

سكت فراج وظل يفكر ، وقد اكفهر وجهه من الغضب واحمرت عيناه من طول السهر :

ـ كل ماسمعته منكم كلام فارغ كما أنكم لاتعرفون معنى الحب .. أريد منكم المشورة المفيدة .. أريد حلا أواقتراحا له قيمة .

لاذوا بالصمت المطبق وكأن على رؤوسهم الطيور الجارحة ثم قال أحدهم بلامبالاة :

ـ أحلامك فى بنت عبدالعاطى أوغيرها يمكن أن تتحقق لوكنت تملك الشجاعة لمطاردتها .

ـ ماذا تقصد .. أطارد أحلامى أم أطارد فاطمة ؟!

لم يأتيه الرد .. سأم وجودهم ، وشعر كأنهم خيل الحكومة العجوز الذى يستحق الإعدام ، فلاجدوى من وجودهم .. يلازمه الأرق ، يجاهد النوم ويستجديه ،ولايأتيه سوى اغفاءة قليلة يرى فيها المرحومة صباح تصيح باكية، وتحاول أن تجذبه من رقبته إلى قاع النهر .

فى الصباح يصحو من نومه المضطرب ، يفتح عينيه المرهقتين الجاحظتين المحمرتين ، واحساس أليم فى كل أنحاء جسده ،يدرك أنه مريض أوعلى وشك المرض ، تطالع عيناه سقف الغرفة وجدرانها ،يحاول الوقوف فلاتحمله قدماه إلابصعوبة كبيرة ، يحس بدوار غريب ، يخيل إليه أن الأرض تدور من تحته ،والجدران تلف وتهتزوتتراقص من حوله .

يسمع صياح الديكة فى هذا الوقت المبكر من النهار ، مازال السكون موحشا ، وقطرات الندى تتساقط فى هذا النهار الشتوى ،أشعة الشمس تختبىء خلف رداء الفجر الرمادى الأغبش ، يحس باللزوجة على جلده ،يخلع جلبابه الثقيل الذى نام به على غير عادته ،ثم يستبدله بملابس خفيفة مريحة قطنية ، يتحرك قليلا نحو النافذة فيشم رائحة هواء الصباح الندى ، وفى طريقه للخروج من الباب الخلفى للدوار يمر على غرفة المعيشة .. والمخزن العامر بالحبوب والغلال والأقوات للإنسان والحيوان فى أجولة كبيرة ثم يمضى نحو الحظائر التى تطل من داخل العتمة فى آخر الدوار ،ومن خلال أشعة الصباح الندى يلمح إحدى العاملات تجلس القرفصاء تحت جاموسة ضخمة مستسلمة لمصيرها، ومسلمة ضرعها لأصابع المرأة المدربة على الحلب ، وبمهارة كبيرة تتحسس المرأة بأصابع يدها الخشنة زغب الشعر فوق الضرع الوردى الأملس المملوء بالخير ، يسمع صوت اصطدام سرسوب اللبن الدافق المندفع بقوة إلى قاع الإناء المعدنى ، بخار اللبن الدافىء يسترخى على خديها فيزيدهما احمرارا .

يمتطى حصانه المفضل ، ويسير فى الطريق بين الحقول الخضراء الشاسعة ، وأشجار النخيل المتناثرة فى كل مكان ، بينما ينطلق النهر فى مشواره هادئا فى حقول العزبة منذ ألاف السنين آمنا مطمئنا .

الحصان يخطو بتثاقل فوق تراب الأرض المبلل بالندى والمطر الخفيف ،والشمس تخرج من عباءة الأفق الشرقى البعيد الممتد لتتوضأ بماء النهر العذب ، تصافح عيناه خضرة الزرع والشجر ،يهوى التجول مبكرا فى الحقول والغيطان ومزارع الفاكهة دونما هدف إذا جافاه النوم واستعصى عليه الليل ،يشعر أن حصانه مرهقا مثله تماما ،ربما لم ينم هو الأخر بمايكفى .

يترجل عن حصانه ويجلس على مدار ساقية قديمة تحت شجرة توت ضخمة .. تسرح عيناه فى الأجواء بين زرقة السماء الملبدة بغلالة من غيوم مخملية ، وخضرة الزرع التى تخفى سواد الأرض .

ترتفع الشمس نحو الأعلى ، وينسى نفسه ويطول مقامه بلاهدف ، ويغرق فى أفكار ضبابية ، تطل أمه عليه من نافذة الذاكرة فيبتسم لها ويهز رأسه حين يتذكرها ،امرأة محيرة راقصة ثم سيدة مجتمع ثم وزوجة وزير مهم ذو نفوذ خطير وكبير !

يقلد صوتا من أصوات الفلاحين فى العزبة ،ثم ينام مضجعا على ظهره ، والحصان يتحرك حوله متوافقا مع المكان غير مستغربه ، يبحث عن نباتات خضراء ،وحشائش طفيلية تنمو على حافة الحقول فيلتهمها متلذذا بنهم وشغف ، يمسك فراج بحفنة من الحصى ، ويقذف بها الواحدة تلو الأخرى فى قلب النهر كأنه يرجم الشياطين التى تسكنه ،ويطارد الأرواح الشريرة للغارقين فى الماء ، يتأمل تكسر الأمواج الهادئة ، يقلب وجهه بين السماء والماء ثم يدير عينيه نحو الأرض والأفق البعيد ، تستهويه المساحات الخضراء ويحبها كثيرا ، ويكره المساحات البيضاء من الأرض ، إنها الأرض البور المالحة على مدد البصر .

يبدو مهموما يخشى شيئا ما لايعرفه ،ربما الإحساس بالذنب ،وتأنيب الضمير الذى يمسك بتلابيب روحه ويعذبه ،مازال الصمت هو سيد الموقف رغم أنه يلمح على امتداد البصر فلاحا هناك فى أرضه ،وآخر فى مكان ما يسعى على رزقه ، كل أهل العزبة إلا القليل فقراء بؤساء ، وأغناهم فقير باستثناء والده العمدة عوض أبودومة ،ونفر قليل .. يحس بشىء من الغربة .. أغرب الغرباء من صار غريبا فى بلده ، وأبعد البعداء من كان بعيدا وهو فى عزبته !

إن الأجواء من حوله فيها كائنات أخرى ، فالحياة ليست للإنسان فقط ، هناك حيوانات تسرح وتمرح ،وتأكل وتتصارع من أجل البقاء ، وأشجار تتحرك مع نسمات تهب من النهر ،وتداعب أوراقها الأغصان ، قنوات مياه عكرة ، ومجارى جارية رائقة صافية تنساب نحو الحقول ،وطيور متعددة الأحجام والألوان والأشكال تطير فى الفضاء ،وتجول فى السماء بانسجام تام وحرية بلاحدود .

يخرج من تحت رحمة أفكاره ، وينسل من شروده وذكرياته ،يحاول الفكاك من كل مايعكر صفوه ،يتذكر حالته النفسية ، يكور قبضته ، وتسرى فى جسمه رعشة خفيفة كأنها زلزال ضربه فجأة ، يشيح بقبضة يده يهدد كل من حوله ، الأرض السوداء ونباتاتها الخضراء والأشجار والزروع والنخيل ، والسماء الملبدة رغم الشمس الخجولة ، يصيح بأنه لابد أن يجد حلا .. ثم ينهض من رقدته على التراب ، وينظر لحصانه ويقف شاخصا لايدرى ماذا يفعل ؟!

يدور حول نفسه دورة كاملة ثم ينظر إلى أبعد مدى ، ويرى الحياة تتحرك للأمام ، وحركة الفلاحين تدب فى الحقول ومواشيهم أيضا ، المساحة أوسع من حدقتى عينه .. يرى كل شىء ولايرى شيئا !

يحاول أن يكتشف العزبة من جديد ،وكأنه يراها لأول مرة ،تجول بخاطره فكرة أن يتركها للأبد ، ويعود للقاهرة العامرة بالضجيج ،والتى يكره ضجيجها وزحامها وتلوثها أيضا ، وإن كان يستهويه فيها عشقها للسهر الدائم ، فهى مدينة غير كل المدن لأنها لاتنام أبدا ..المدن دائما لها قلوب صلبة مثل الأسفلت ،وحيث يوجد الأسفلت يوجد العالم المتوحش !

يتحسس مسدسه المرخص ، ينظر للنهر بحسرة فيشم رائحة الفجيعة ، يرى شراع قارب فى قلب النهر فتدب فى نفسه حالة غامضة من الخوف والشجن عن الرحيل والفراق والسفر والغربة .. ويتساءل :

ـ أين أمى ؟! أين صباح ؟! أين فاطمة ؟! لاشىء يدعو للرحمة .. لاشىء يدعو للشفقة .. كلهن فارقوه !

يخرج مسدسه من جيب جلبابه ،ويفكر فى استعماله ولولمرة واحدة فى حياته منذ اشتراه له والده حضرة العمدة ورخصه له فى مركز الشرطة بسمنود ، ولكن متى يستعمله ،ومن يستهدف برصاصاته ؟!

عاد إلى حصانه واستقر فوق ظهره ثم أومأ له بالتوجه نحو ديار العزبة ، ورأسه يكاد ينفجر من الفكر .. هل يطلق رصاصة من هذا المسدس على رأس فاطمة ويستريح ؟! لماذا لايلحقها بصباح ؟!

لا .. لايستطيع أن يفعل ذلك ، ليس أمامه سوى أن يصوب على رأس رضوان فيفجرها .. ربما يتردد فى ذلك ، لعله لايملك من الشجاعة مايكفى .

إذن يمكن له أن يطلق الرصاص على نفسه فيريح ويستريح ، وإن كان يكره أن يموت كافرا منتحرا ..ألم يسمع فى خطبة الجمعة الإمام يقول ..إن من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا ؟! ياالله ماذا أصابه ؟! لماذا يحب الحياة ويفكر فى الموت ؟!

يتمدد بداخله معنى اليأس والحزن ،وماأسرع ماينقضى كل شىء فى هذه الدنيا ، ينصت إلى قلبه بينما عقله فى غيبوبة حين يتعلق الأمر بفاطمة ،على عكس ماحدث مع صباح .

فى هذا الوقت المبكر من النهار صادفه رضوان فى طريقه إلى مصنع الطوب ، قطع فراج عليه الطريق بحصانه الأشهب باسما واثقا ساخرا :

ـ أراك تمضى مبكرا يارضوان .. إلى أين يافخرعزبتنا ؟!

ـ أبحث عن رزقى ورزق أمى وأخوتى يافراج .

ـ مكافح .. والله مكافح .. طول عمرك مكافح .. وكيف تعيشون فى هذا الزمن الصعب ؟!

ـ نحمد الله فى كل الأحوال .. إنه لشرف عظيم أن أسترزق من عرق جبينى فلست مدللا ولاابن عمدة عاطلا عن العمل أملك بالوراثة الطين والمال !

ـ أظن أن حياتكم ولقمة عيشكم من اليد إلى الفم .. أليس كذلك يارضوان ؟!

ـ اليد الشريفة تكسب الكثير والحمد لله .

ـ والأفواه الجائعة تبتلع كل ما تكسبه اليد يوما بيوم يارضوان .. وتبقى اليد خاوية والمعدة ممتلئة إلى أجل مسمى .. أليس كذلك ؟!

ـ معك حق ياابن العمدة لكننا نعيش على الستر ، وهذا أعظم شىء فى الوجود ،والستر يعنى ألانجوع ولانمد اليد لمخلوق .

ـ اسمع يارضوان .. عندى لك صفقة رابحة تغنيك عن عملك الحقير هذا كأجير باليومية فى مصنع الطين أوالطوب كما تسميه ،عشر ساعات يوميا منذ سطوع الشمس حتى تعود إلى كهفها العالى فى الأفق من أجل رغيف خبز .

ـ هات ماعندك ياابن العمدة .. أسمعك .

ـ سأعطيك مبلغا كبيرا من المال لم تكن تحلم به ، ويكفيك لتشترى مصنع الطوب كله بمن فيه ، وبدلا من أن تكون أجيرا فى هذا المصنع ستكون مديره ومالكه .. حياتك كلها ستتغير .. مارأيك ؟!

دهش رضوان مماسمع وتساءل :

ـ وما المقابل ياابن العمدة ؟!

ـ لاأريد منك سوى شىء واحد فى غاية البساطة ،وهو أن تترك فاطمة كى أتزوجها !

ـ هل استوقفتنى الآن لتساومنى على فاطمة ؟! اسمع يافراج واعلم أن فاطمة أغلى عندى من كل كنوز الدنيا ، وكل أموال وأرض والدك العمدة عوض أبودومة لاتشترى شعرة واحدة من رأس فاطمة .

هز فراج رأسه ممتعضا مستغربا ثم قال :

ـ يبدو أن المسافة بين خفقة القلب واستدارة الجنيه ليست كبيرة !.. انتهت العواطف والأشواق .. والآن لاصوت يعلو فوق صوت المال ، وعليك أن تنصت لحديث العقل كى تهرب من أنياب الفقر ، فمن يسير وراء قلبه يعيش تعيسا بائسا للأبد !

ضحك رضوان بلامبالاة :

ـ لايهمنى المال .. وكم من أغنياء يملكون خزائن مكدسة لكنهم بؤساء تعساء .. كل شىء يباع ويشترى إلا الإنسان .. أسواق النخاسة أغلقت أبوابها منذ قرون بعيدة مضت إلى غير رجعة .

بدأت عكارة الغضب تطفح على وجه ابن العمدة ، وأحس أنه عديم الحيلة فقال لائما باحتقار :

ـ أنت ياابن هناهم ترفض فرصة عمرك من أجل حرمة !

ـ إذا كنت أنا ابن هناهم فهذا شرف كبير لى .. أما أنت ابن راقصة فى الملاهى الليلية تبدل الرجال كما تبدل جواربها .

صرخ فراج كالمجنون بطريقة هستيرية :

ـ اخرس ياكلب .

وقفز من فوق حصانه وارتمى عليه ، وفوجىء رضوان به يسقط فوقه بجسده الربعة الثقيل ، وتدافعت الركلات والضربات واللكمات من الطرفين فى كل اتجاه ، وكل منهما يحس بالوجع ولايتراجع ، بل يرد اللكمات بمثلها ويزيد عليها .. تمرغا فى التراب الندى ، ورائحة قطراته الطازجة تفوح ، وملابسهما اتسخت تماما حتى تدخل المارة من الفلاحين والعمال والصيادين الذين كانوا يستهلون يومهم ، وهم فى طريقهم بحثا عن الرزق وقوت اليوم الجديد .

أخيرا فضوا الإشتباك وأنهوا المعركة دون منتصر أومنكسر .. لاغالب ولامغلوب ، وظلت أثار العنف عالقة على الوجهين ، خدوش وكدمات وسجحات زرقاء وحمراء .. تورمات هنا وهناك .

عاد رضوان إلى داره فلم يكن فى حالة تسمح له بالذهاب لعمله متسخ الثياب متورم الوجه ، وقد انتوى أمرا عليه أن يفعله على وجه السرعة ، ولن يمنعه منه أى قوة على وجه الأرض .

وعندما رأته أمه على هذه الحالة شهقت ، وضربت قلبها بيدها ، وعندما علمت بالأمر حاولت أن تذهب إلى دوار العمدة عوض أبودومة تشكو له فعل ولده فراج لكن رضوان منعها قائلا :

ـ ياأمى لن نداوى الجرح بالملح !

ـ وماذا نفعل ياولدى .. هل نسكت على هذا السفيه ؟!

ـ لاياأماه .. لن نسكت .

ـ وما العمل يابنى ؟!

ـ زوجينى فاطمة اليوم قبل الغد .. أرجوك ياأمى .

****

(11)

التأم شمل فراج أبودومة مع شلته ليلا ، يسهرون ويتسامرون ،مع أنه لم يكن هناك فكرة محددة تشغل باله فى هذه الظروف سوى أنه يحس بقلق مبهم فى أعماقه ، وبداخله شىء من الغضب الممزوج باحساس المهزوم ، ويفكر فى طريقه للثأر لذاته المكلومة ولكرامته المأزومة ، ورغم أنه يدرك أشياء كثيرة من مجريات الأمور ،لكنه صار عاجزا عن فعل أى شىء ، بل أصبح مفعولا به !

فى كل مرة يسمع ويدرك ويبصر محاولا أن يفهم الناس والدنيا والحياة ، يسعى لأن يعرف أهل العزبة وبنات حواء ، يحاول أن يفهم فاطمة عبدالعاطى دون جدوى ، لكنه يتألم لدرجة أن الدموع تنهمر فى أعماقه كالنهر المار بالعزبة .

يسمع صوت تساقط دموعه فى أعماقه كما يسمع ارتطام حبات المطر بالأرض فى موسم الشتاء ،ولاشىء أكثر من هذا ، يحس بأنه كائن ليلى يسكن الظلام ، ويبدو هذا الظلام ممتدا مثل المتاهة .. وكيف السبيل للخروج من متاهة الليل الطويل ؟!

شعر فراج وهو القوى الجرىء الثرى المدلل أنه مخصى الإرادة والرجولة ،وفى الظلام سأل نفسه قبل رفاقه الساهرين معه :

ـ ماذا يمكن أن يفعل ؟!

بدا له أن كل شىء فى هذا المكان النائى لتلك العزبة المنسية النائية ، ولامكان لها على خارطة العالم لاقيمة له ، وأنه لايملك إلا الشقاء هنا .. لاشىء يسعده ، بل على العكس يجد الأشياء مقلوبة ، ويرى فى قوته ضعفا وفى غناه فقرا ، وفى عزه ذلا .. ويسال نفسه بضيق وحسرة :

ـ أين أمى ؟! وهل هناك حياة بلاأم ؟! وهل للحياة معنى بدون الأم ؟!

تراوده تساؤلاته الحائرة وتتواصل :

ـ لماذا تخلت عنى ؟! ألم تشبع من الرجال بعد وقد بلغت من العمر أرذله ؟!

قاتل الله المرأة التى تستسلم للغريزة .. قاتل الله الغريزة ولعنها فى كل كتاب فهى التى تفرق بين الأم وابنها الوحيد !

لايملك الآن هنا فى هذه البقعة من الديار المحفوفة بالنهر والنخل والحقول إلا أن يتألم .. تدور الأمور فى ذهنه كطواحين الهواء ، ولاتتوقف أبدا عن الدوران بلاملل ولاسأم مثل ترووس الساقية القديمة التى تئن من طول الدوران ، يحاول أن يعيد ترتيب أوراقه ، وتنظيم أمور حياته فلايجد عنده القدرة ، ولايجد فيها سوى الفوضى .

فى نهاية المطاف ينتابه احساس أملس بأنه منسى هنا مثل عزبة الحنكاتى ، ..يسكنه احساس غامض ينام تحت ضروسه كمذاق حبات الملح حين يذوب فى الحلق .

يشعر أحد رفاق الليل به فيقول مباغتا :

- يافراج لاتفكر كثيرا ، وعليك أن تسحق كل من يقف فى طريقك .

- ماذا تقصد ياصديقى ؟!

- أقصد أنك ابن حضرة العمدة وكبيرها وكلامك سيف على رقاب الجميع

- لم أفهم منك شيئا .. فسر كلامك .

- فاطمة بنت عبدالعاطى من حقك يافراج .. أنت سيد البلد وتاج رأسها .

- ومالحل إذا كان الرفض من حقهم ؟! ولاأستطيع أن أجبرهم على شىء .

- الحل سهل وبسيط وبين يديك ياابن حضرة العمدة ؟!

- كفاك ألغازا وأفصح ..

- استأجر من يقتل رضوان ، ورصاصة واحدة عمياء تنطلق من بندقية جوفاء مجهولة تنهى الأمر .

- ومن أين لنا بهذا الشخص وبندقيته ورصاصته ؟!

- موجود دائما طالما أن أوراق المال موجودة .

- هل تعرف أحدا ؟!

- القتلة بأجر فى كل عزبة ونجع من حولنا ،ويعانون من البطالة ، عليك أن تعطى أحدهم فرصة عمل مقابل حفنة جنيهات لإزهاق أى روح ولك الأجر والثواب !

سكت فراج أبودومة يفكر فى الأمر بإمعان ، ويحملق فى زميله مندهشا .

ثم تكلم فراج :

- لكنى لوأعطيت الأحمق خنجرا أصبحت قاتلا !

- لاتعطيه خنجرا بل عليك أن تعطيه أوراقا ملونة فئة البنكنوت .

عاد لصمته وظل يتأملهم ويحملق فى وجوههم ، يأكلون ويدخنون ويشربون ويتسامرون ، ويسخرون ويقهقهون كأنهم شلة مجانين خارج السيطرة ، يثرثرون كل ليلة بحكايات غريبة مثيرة مدهشة ، تشتعل الحكايات من بعضها البعض ، نميمة لكنها لذيذة .. أخبار العزبة وأهلها .. ويمتد الحديث ويتوهج بأصداء قصص تتناقلها ألسنة العزبة وتجرها الحياة جرا بطيئا ويجرى النهر شاهدا عليها .

يتبادلون أسرار الناس فى عزبة الحنكاتى وكأنها كل عالمهم ، ويتبادلون النكات اللطيفة أحيانا والفجة الفاحشة أحيانا أخرى .

يضحكون من قلوبهم ، وأفواههم مفتوحة على كامل اتساعها ، ثم تجف الضحكات على الشفاه ، ويلاحظون أن الضحكة تذبل على شفتى صاحب الدار والدوار ، وتلتمع فى عيونهم الدهشة غير أنهم فى النهاية يفترقون ، على وعد أن يلتقوا مرة أخرى فى نفس المكان وزمان الليلة القادمة ..عساهم يبددون وحشة الليالى .

عندما تتأهب الشمس للغروب فى اليوم التالى يفيق فراج من غيبوته متأخرا بعد نوم طويل مؤرق ، يتمرد على الإستسلام.. ينهض للناس والأشجار والأشياء ، ينتصب فوق حصانه قبل أن يفر منه النهار شامخا كفارس مغوار يغزو الأرض والفضاء فى ذات الأوان .

يطل على الحقول ، يتأمل وجه النهر الذى لايمل من الجريان منذ كتب الله عليه أن يحفر مجراه ،ويسير من منبعه إلى مصبه بأمر السماء ، يرى الرجال فى قواربهم الخشبية الصغيرة يبتهلون إلى الله سرا أن يرزقهم من ثمار النهر ،وآخرون هناك فى الحقول يكدحون ، وينثرون البذور فى باطن أرض صماء عجفاء عارية إلا من سوادها ،

وعندما يجرى الماء فى أوردتها تحدث المعجزة التى يراها الناس يوميا على أنها اعتيادية ، وبقدرة قادرتدب فيها الروح ،وتنهض من موتها بزرع مختلف الألوان والثمار.

كان يقف هناك عند آخرحدود مزرعته العامرة بالخيول والأغنام والأبقار ، ومزروعات شتى من الفواكه والخضروات ،يترقب وصول قاتل مأجور ليلقى عليه مهمة ثقيلة خطيرة ، ويدفع له عربون الدم الذى سيسال على شاطىء النهر .

يشعل سيجارة ويتطلع فى كل الإتجاهات فلايرى شيئا ، يخشى أن يخيم الظلام ،ويتوه المأجور القادم من عزبة بعيدة ،وربما يضل الطريق .

يحس بالضيق لأنه يريد أن يراه فى النور ليبلغه الرسالة ، ويبوح له بمافى صدره ثم يعطيه أوصاف الشخص المغدور ،ساد السكون وسكنت الظلمة المكان ، ولاشىء يسمع سوى حفيف الهواء ، ومسه للشجر والأوراق ، وعواء ذئب يأتى من قريب لاشك أنه يختبىء فى مكان ما لايراه !

عساه يظفر بفريسته كما يفعل فراج نفسه الآن ، ماذا لولم يصل هذا المجرم الذى دله عليه أحد رفقاء سهراته الليلية ؟! لماذا لايتصل به ورقمه مسجل على هاتفه ؟! ومافائدة هذه الهواتف المحمولة الملعونة لو لم تف بالغرض فى مثل هذه الحالات ؟! لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة ،وانهمك فى امتصاص نيكوتين سيجارته الرخيصة حتى آخر نفس ، كان يمصمص عظام السيجارة بنهم وشره عجيب وتلذذ مريب كما لوكان يلتهم ورك دجاجة !

ثم همس لنفسه بانشراح :

ـ آخر ليلة فى حياتك يارضوان ياابن هناهم .. ومن الغد ستكون الساحة خالية لى وحدى ،وتكون فاطمة عبدالعاطى ملكة جمال العزبة رهن اشارتى .

فجأة سمع ارتطام حوافر جواد قوى عفى بالأرض ،وبسرعة ظهر أمامه رجل ملثم على ظهر حصان أسود ، فمد يده إلى جيب جلبابه يتحسس مسدسه فإذا به الشخص المطلوب ـ ضخم الجثة له صوت رفيع مسرسع لايناسب حجمه وصفته ـ يهتف بإسمه :

ـ مرحبا يافراج ..أهلا ياابن العمدة .. أنا عويس .. هل تأخرت عليك ؟!

ـ أهلا عويس .. لابأس .. كل شىء بأوان .

ضحك عويس وبكلمات ذات مغزى قال :

ـ لكل أجل كتاب .. من هو الشخص المراد إزهاق روحه ،ومسح اسمه من سجلات الدنيا ؟!

ـ رضوان .. رضوان ابن هناهم ..يخرج كل يوم مبكرا فى طريقه لمصنع الطوب ، ويسيرعلى هذا الطريق وحده ، ويعود آخر النهار وحده ،وعليك أن تأتى لعزبة الحنكاتى وتراه بنفسك ياعويس .

قال بنبرة ساخرة :

ـ اطمئن يافراج ..لابد من التعرف عليه قبل أن نقرأ الفاتحة على روحه ، لأن أرواح الناس ليست لعبة .. لن نقبض روح شخص آخر بالخطأ فلامجال للخطأ فى أمرين .. الزواج أوالقتل !

تبسم فراج أبودومة من كلامه السخيف الذى يوحى بأنه قاتل محترف لاقاتل أهوج ثم قال :

ـ طبعا طبعا ياعويس .. معلوم .

ومد يده وأخرج مظروفا من جيب جلبابه به عشرة ألاف جنيه وقال :

ـ هذا هو العربون ياعويس ، ولك مثله بعد التنفيذ .

التقط المظروف وتحسسه بحرص ولهفة ، وأدرك بخبرته أن المبلغ كاملا بالتمام والكمال ، ووضعه فى جيب الصديرى بجوار قلبه تحت جلبابه وقال منتشيا :

ـ فى بحر أسبوع سيكون الشخص المعلوم هو المرحوم !

ـ أسبوع .. أليس هذا وقت طويل ياعويس ؟!

ـ يافراج ياأخى .. ربك خلق الكون فى ستة أيام ، وهذه مهمة صعبة ، وأنا لاأسلق البيض بل أقتل نفسا حرم الله قتلها إلابالحق !

هز فراج رأسه مستسلما وقال :

ـ طيب خير .. دنيا وكل من عليها فان !

ثم استدار وانصرف كالشبح ، لم ير فراج وجهه كاملا ، بل هيكل ضخم رابض فوق حصان لئيم ، وصوت عفريت خرج من الحقول السوداء قبل أن تخضر .

ظل واقفا فوق جواده الأشهب ، وهواء بارد يأتى من حيث النهر ، وظلام الليل حالك على غير العادة ، وجو البلد ثقيل على قلبه ، والليل الأسود يحتوى كل الأشياء ، ويبتلع كل الأشباح والأرواح ، ويعود ببطء لايتعجل حصانه ، ولن يتعجل الأشياء أن تحدث فليس القاتل الأجير أكثر منه حكمة .. ألم يقل له منذ لحظات أن لكل شىء موعدا ؟! وأن الله خلق الدنيا فى ستة أيام ؟!

يدرك أن هذا الليل المعتم له آخر ، فلاشىء يبقى على حاله ،وهذا هو سر شغف الإنسان بالحياة ، وعندما يأتى النهار ،ويخرج النور للدنيا من جوف الليل تتساقط خيوط الضوء الذهبية لتلقى بأشعتها فتوقظ الناس والأشجار والديار ومئذنة المسجد فى العزبة ، وسيجد أن كل شىء قد ضاع فى جوف الليلة الماضية ، ولايبقى فى النهاية سوى الرجل الغامض الذى عقد معه صفقة تحت جنح الظلام ، ولم يكن شاهدا عليها سوى الله ،وبالطبع كان الشيطان حاضرا وإلا ما تمت بنجاح .

ثم جاءه هاتف داخلى يسأله :

ـ لماذا لاتقتل أنت غريمك بنفسك ؟!

رد على هاتفه الداخلى لائما :

- لا .. لايمكن وكفى ماحدث من قبل مع صباح ، أنا لست بقاتل ولن أستمرأ القتل أبدا .

عاد هاتفه الداخلى الشرير يلومه ويثير فى نفسه الشك والخوف :

- ومن أين تضمن أن ينفذ عويس مهمته تلك دون أن يصيبك أى ضرر ؟!

رد على نفسه :

- قالوا أنه محترف والقتل عنده أسهل من إشعال سيجارة !

استنكر هاتفه الداخلى ماقاله :

- يافراج .. المكسو بثوب الآخر عار تماما .. وكيف تظن نفسك فى مأمن ، وسرك مفضوح عند عويس ورفاق سهرات الليل ؟!

- أنا فى مأمن ، ولاعلاقة لى من قريب أوبعيد ، ولذلك لم أفعلها بنفسى .

- ومن أدراك أيها العبقرى ألايفشى عويس سرك لوانكشف أمره وتم القبض عليه ؟!

صاح بصوت جهورى تردد صداه فى الحقول الخرساء المترامية الأطراف :

- اللعنة على عويس .. اللعنة على رضوان ، وعلى كل الناس فى عزبة الحنكاتى .. اللعنة على الجميع ! فليذهب الجميع إلى الجحيم ، وليذهب رضوان إلى الدار الآخرة فى أقرب فرصة بيد عويس الملعون لابيدى أنا .

إن طيف صباح وشبحها النواح مازال يطارده فى كل حين ، ولايفارق خياله ، ويقض مضجعه فى كثيرمن الليالى .

لايستطيع أن ينسى أن الموت نزل فجرا على يديه ليحرر جسدها المنهك من عناء الدنيا ، ومتاعب الحمل وأوجاعه ، فالموت نعمة كبرى لأنه يحدث ولايأتى بعده ألم على الإطلاق ، ولكن للأسف لم يرجع أحد من الأموات ليخبرنا ما الذى حدث له هناك بعد أن صار من سكان العالم الآخر !

سأل نفسه وهو يتوجس خيفة من الفكرة الجهنمية التى شرع فى تنفيذها :

- هل تستحق فاطمة أن يقتل من أجلها ؟! وهل هو يستحقها لكى يقتل حبها ؟!

ولماذا قرر أن يتفرق دم رضوان بين الفلاحين مثلما حدث مع صباح ؟!

وماذا عن الشرف .. وهل فاطمة شريفة حقا ؟!ومانوع الشرف ؟!

- آه .. إنها حقا شريفة عفيفة وأشرف البنات ، وشرفها من ذهب ، ولايعيبها أبدا أنها فقيرة ، وجمالها لن يظل محفوظا فى الخزينة أوالفاترينة طويلا .. لابد له من مستهلك ..وماذا عن شرفه هو ؟!

للحق فراج أبودومة لايستحقها ، فأصلها أفضل من أصله لأن أمها فلاحة بينما أمه راقصة ، وفى داخله يشعر أنه مجرم وثوب شرفه ملوث بدم صباح .. وفى قرارة نفسه يعلم أن سوق الحسناوات انفض من حوله لدرجة أن القبيحات تدللن !

كان يسهر ليلا مع رفاقه وينام معظم النهار .. وينتظر أن يأتيه الخبر العاجل السار .. إن رصاصة طائشة من مجهول لايعلم أحد مصدرها انطلقت من وسط الحقول ، أومن قلب النهر أومن فوق الشجر لتقصف عمر روميو عزبة الحنكاتى رضوان ابن هناهم ، ولاشك أن جوليت العزبة فاطمة عبدالعاطى ستحزن كثيرا وتبكى طويلا وترتدى السواد ،وتعلن الحداد ثم ينتهى الأمر مع الأيام وتنسى حبيب القلب .. تلك سنة الحياة .

وعندما ينتهى الحداد الذى لن يطول بطبيعة الحال ، وتقلب نفسية الأنثى كفصول السنة الأربعة ، ستلبس الألوان ، وتنفتح شهيتها للحياة وتكون من نصيب فراج أبودومة .

لابأس .. تلك كانت حساباته لكن مشيئة الله دائما دائما فوق مشيئة العبد ، وهاهو يفكر ويدبر ،ويبقى تدبير القدر أكبر .

مر يوم .. يومان .. ثلاثة .. أربعة .. والملعون عويس لم يظهر له أثر ، ولم تظهر له كرامات ، ولم تحل له أى بركات حتى كان اليوم الخامس .. استيقظ فراج أبودومة على أصوات متشابكة كخيوط العنكبوت ، وساد لغط كلغط البط المتزاحم على الطعام فى الحظيرة ، فهب من نومه يفرك عينيه المتعبتين ، ويمعن التنصت عساه يعرف ماالأمر ، فإذا به يسمع أصوات الأهالى يطالبون بتسليم عويس لمركز الشرطة فى سمنود بعد أن أطلق النار على رضوان عند الغروب ، بينما كان الفتى عائدا من عمله فى مصنع الطوب !

ياللمصيبة .. ياالهول ماسمع .. الشبح الذى قالوا عنه .. يقتل القتيل ويسير فى جنازته .. يبدو أنه فشل فى مهمته بدليل أنه الآن بين أيديهم ،ولوسلمه العمدة عوض أبودومة للمركز سيعترف على فراج ابن العمدة وتكون فضيحة ثلاثية الأبعاد .. تصيب العمدة وابنه وهذا الخائب الذى لايستطيع أن يصطاد حمامة عابرة ، وزعموا أنه قاتل محترف !

لعنه فى سره كما لعن الشلة التى أشارت عليه بتلك المشورة المشئومة ، وعندما سأل عن مصير رضوان عرف أنه لم يصب إصابة قاتلة ، وأن الرصاصة استقرت فى كتفه ،وذهبوا به إلى المستشفى ، وحالته مستقرة ولابأس عليه ، عندئذ تدخل فراج لدى حضرة العمدة ، وأوعز إليه بألا يسلم عويس للمركز ، وأدرك الاب أن ابنه متورط فى هذا الفعل الطائش ، وكما يقول المثل العربى القديم .. (إن كل من يربى قردا يعرف ألاعيبه) ، وحاول العمدة بمكره ودهائه أن يقنع أهالى العزبة بأن سجن عويس لن يجدى شيئا طالما أن رضوان نجا بأمر الله ، واقترح علهم أن يلزم عويس هذا بدفع تعويض لصالح رضوان ، وأوعز له ابنه فراج أن يحكم على عويس بدفع عشرة ألاف جنيه ، وبالفعل دفعها صاغرا بحسرة !

وقد شعر فراج بالشماتة فى هذا الشخص الساذج الأبله مدعى الإجرام كذبا وبهتانا ،ولم يستطع أن يصيب غريمه الأعزل برصاصة فى طريق واسع مفتوح ، ولاأحد يمنعه منه إلا داء الحول أوالعمى !

تبسم فراج براحة وهو يراه يسلم أهل البلد نفس المظروف الذى أخذه منه قبل أيام معدودة ، وبداخله الألاف العشرة من الجنيهات .. حار ونار فى عويس .. لعله يستحق .

وفى نهاية المطاف طرده العمدة ،وأهل العزبة ببعض اللكمات والركلات والإهانات .. خرج خائب الرجاء بعد أن دفع التعويض واعتذر وأبدى الندم ، وأقسم بأغلظ الأيمان كذبا بأنه لم يكن يقصد أبدا قتل رضوان .. وكيف يقتله وهو لايعرفه ؟!

كان يتحدث ببراءة مثل أخوة يوسف الصديق ، ويعلن أنه برىء براءة الذئب من دم سيدنا ابن يعقوب .

****

(12)

على الضفة الأخرى من النهر ، يعرف الناس فى تلك الناحية رجلا مشهورا بين الجميع بأنه أغنى رجال الدائرة ، يعيش الدكتور عبدالله حبيش فى العزبة التى تحمل اسم عائلته (عزبة حبيش) والتى لاتبعد عن عزبة الحنكاتى أكثر من ساعة زمن سيرا على الأقدام ، ولماكان المال يجلب المال وأشياء أخرى فإن الثروة التى آلت إليه بالميراث تضاعفت أكثر من مرة ، وأصبح مايملكه الدكتور عبدالله لاتحده حدود عزبة كبيرة ، وأرصدة فى البنوك وقصر منيف على النهر العظيم .

ولايسكن القصر معه سوى زوجته الألمانية ، ومجموعة من الخدم ، ولكل أمر فى هذه الحياة غرابته ، وقد تعرف على زوجته أنجيلا خلال دراسته للدكتوراه فى ألمانيا ، وعندما تزوجا كانت كل ظروف حياتهما تؤهلهما لرحلة سعيدة ممتدة حتى نهاية العمر وإنجاب ألف طفل .

يكبر الدكتور عبدالله أنجيلا بخمس سنوات فقط ،ومرت سنوات زواجهما بصورة طبيعية ، وجرت مياه كثيرة فى النهر المطل عليه قصره البديع الشاهق الذى يشبه قلعة وندسور الإنجليزية ، وإن تعكرت المياه بفعل طمى الفيضان ، سرعان ماتعود إلى زرقتها الصافية ولاجديد يذكر .

ظل الحال على ماهو عليه ولم ينجبا ، وكلما لاكت ألسن الناس فى العزبة حكايته ،وجاءت سيرته تعجبوا من الدنيا ومكرها وتمردها على من لاينقصه شىء على الإطلاق إلا طفل !

يبدو الدكتور عبدالله حبيش رجل مكتمل الرجولة ، أسمر رشيق أنيق طويل القامة ، ناعم الشعر واسع العينين له صوت خشن أجش ، ويكسوه مهابة ووقار طبيعى يطغى دائما على أساتذة الجامعة والسفراء وكبار العلماء ، وحين يتعجب الناس من حكمة المنع والمنح فى حياة هذا الرجل يرفعون رؤوسهم للسماء مبتهلين :

- حكمتك يارب .. اللهم لااعتراض على مشيئتك .

الناس فى عزبة حبيش وأجوارها من العزب المجاورة ، والكفور والنجوع البعيدة والقريبة يطرحون أسئلة ، ولايجدون لها إجابة شافية كافية ، وحكايته تضيف إلى ألغاز الحياة لغزا كبيرا ومتشابكا .. ينظرون لهذا الشاب اليافع الثرى الذى يحمل أعلى درجة علمية ،ومحروم من الذرية ،بينما الفقراء المعوزين الذين يعرفونه ويعرفون حكايته لايملون من الشكوى من كثرة الأولاد ومن مشاكلهم التى لاتنتهى ، ويتمنى معظمهم أن يموت نصف أولاده مقابل أن يتضاعف رزقه !

ويرى هؤلاء التعساء أن العدالة غائبة فى هذه الدنيا ، وأن كل مافيها تم توزيعه بطريقة عجيبة ، وأن حكايته تثير فى نفوسهم احساسا بعدم الإستيعاب لحكمة الله ،وتسود سحابة سوداء على عقولهم تضللهم عن حكمة الرزق والموت والحياة والغنى والفقر والنجاح والفشل والصحة والمرض ،وتدفعهم للتفكير فيما وراء حكمة العاطى الوهاب ، كما يفكرون فى ألم الجوع وعذاب البؤس ولعنة الحرمان .

يظل الدكتور عبدالله حبيش بنضارته وعافيته ونجاحه وماله ، وزوجته البيضاء الشهباء الحسناء الألمانية الجنسية هو النموذج الكامل للسعادة الإنسانية فى قمتها ، هو الكتالوج الأصلى .. أوهكذا ينبغى أن يكون .. لكن الواقع أبعد مايكون عن النموذج المثالى والكتالوج الأصلى ..ويبقى الواقع غير المتوقع !

حين نال عبدالله درجة الدكتوراة فى علوم المحاصيل الزراعية من الجامعة الألمانية فى برلين ، وعاد إلى بلده وقع الإختيار عليه ليكون رئيسا لأكاديمية البحث العلمى بدرجة وزير .

وسارت به سفينة الحياة على خير مايرام ،يقضى نصف الأسبوع فى القاهرة الجائرة ليتبوأ موقعه الوظيفى المرموق ، والنصف الآخر يقضيه فى مسقط رأسه ، فى مملكته الريفية البديعة ، وقصره المنيف الضخم فى عزبة حبيش ، لايفارق النيل ولايفارقه النيل ،وبينهما حالة عشق منذ سنوات طفولته الأولى حين كان يمرح ويلهو ويلعب على شاطئه .

وبرغم تنقله بين عواصم أوروبا المبهرة لم يحب بلدا مثلما أحب عزبته فهى فى عينيه أجمل بلاد الدنيا ، وأحبها إلى قلبها .. بسكنها وتسكنه ، ولاينسى هذا الفتى النابه النابغة إلحاح أنجيلا زوجته أن يعيشا فى ألمانيا بقية عمرهما ،وجاءه أكثر من عرض مغر كى يعمل ويبدع فى كبريات الجامعات الألمانية ، ومراكزها البحثية والعلمية ، لكنه تعفف عن كل هذا ،وفضل العودة لجذوره حيث الأرض والنهر والقصر .

عندئذ اضطرت أنجيلا أن ترافقه إلى حين .. والمثل يقول .. (إن كنت فى روما .. فإفعل كما يفعل أهل روما).. الناس هنا فى عزبة حبيش يعيشون حياة بسيطة هادئة ، يعيشون بمنطق الطيور ، يأكلون من زرع الأرض وخيرها كما يأكلون من صيد النهر وثمره ،لكنها مع مرور الوقت لم تستطع أن تكون واحدة من نساء عزبة حبيش ، رغم أنها حاولت كثيرا ، وشاركت نساء العزبة طعامهن وعاداتهن وطقوسهن وثيابهن حتى أنها تعلمت الرقص الشعبى منهن أيضا ، وإن ظلت المرأة الألمانية وسط هذا الزخم الإنسانى وهذا الزحام البشرى تعانى من الوحدة الطاغية على نفسها ،وظلت بلاولد ولاوطن !

عبدالله وأنجيلا يفهمان جيدا معنى الوحدة لأنهما جرباها وعانياها كثيرا فى أيام الترحال والبعد عن أرض الوطن ، وإذا كان عبدالله قد تمرد على غربته ،وانتصر عليها فمازالت أنجيلا تجاهد الغربة وتسعى للتمرد عليها ، أصابها السأم ولم تعد قادرة على البقاء فى تلك العزبة المجهولة المنسية التى تنام عندما يستيقظ الليل ، وتتحول فى الليل إلى مقابر سكانها كلهم أحياء .

الناس هنا ينامون مبكرا كى يستيقظوا مبكرا للذهاب إلى حقولهم ومراعيهم وصيد النهر ، وبرغم احساسها القاتل بالوحدة والإغتراب لم تفكر فى العودة إلى ألمانيا فى بداية الأمر ، لزمت الصبر مثل صياد حصيف ذكى .

لقد وضعتها الظروف فى موقف لاتملك معه سوى الإستمرار والصبر ، ويزيد من مللها ومرارة اغترابها أن عبدالله يسافر إلى القاهرة ، ويبقى هناك مشغولا لثلاثة أيام أوأربعة قبل أن يعود إليها ، ويتركها وحيدة فى القصر مع العمال والخدم .

وإن شاءت الظروف وذهبت معه إلى القاهرة ، يتركها أيضا تعانى الوحدة فتتمنى أن تعود للعزبة ،ودائما لديه المبررات فهو رجل مهم على درجة وزير ،ولديه مسئولية كبيرة فى إدارة أكبر مؤسسة علمية فى مصر ، وعليها أن تقدر ظروفه وتراعى مسئولياته بعين الزوجة ،فهو ليس ملك نفسه إنما هو شخصية عامة ،وعلى كاهله مهام جسيمة .

إنها تشكو من الوحدة الرهيبة ويؤرقها الملل ، ولاجديد فى حياتها ، يومها مثل أمسها مثل غدها .. ليلها كنهارها .. لاشىء سوى القصر والأرض والنهر ،ومجموعة من المزارعين وزوجاتهم بسماتهن وأوصافهن الكلاسيكية كأن الفلاحة المصرية والمرأة الريفية لم تتغير منذ أيام المرأة الفرعونية .. تبقى كما جسدها الرجل شكلا ومضمونا على اللوحات الحجرية وجدران المعابد القديمة .

كانت أنجيلا بين الحين والآخر تتحسس مكان القلب ، تحاول التأكد أنه مازال موجودا ينبض فى موضعه بالقفص الصدرى حبيس الضلوع مثلما هى حبيسة التاريخ والجغرافيا فى تلك البقعة البعيدة عن بريق المدن الكبرى وأضوائها البراقة .. لم يكن الأمر سهلا أن تستمر بقية حياتها هنا إلا أنها كانت ترجىء الأمر ، ولاتجرؤ على

الإقدام على المغادرة لأنها مغامرة ،وإن حاولت جاهدة فى وقت ما لكنها فشلت بفعل الحيرة والتردد ، وفى نهاية المطاف عزمت أمرها ، وحزمت حقائبها وقالت لزوجها بنبرة قرار :

ـ سأغادر عائدة إلى ألمانيا .

ـ لماذا ياأنجيلا ؟!

ـ الملل هنا يكاد يزهق روحى .

ـ ومتى ستعودين ؟!

ـ لاأدرى .. ربما لاأعود .

ـ وحبنا ياأنجيلا ؟!

ـ لاأعرف ياعبدالله .. ربما تلاشى لإنصرافك معظم الوقت لعملك ومنصبك المهم ..

أحس أننى لاشىء هنا .. لاحياة .. إن الحياة هنا خالية من الحياة !

امتعض عبدالله حبيش كثيرا لكنه تماسك وقدر ظروفها النفسية ، ولاتخفى عليه حالتها الإنسانية كامرأة لم ترزق بالأطفال ، رغم مرور أكثر من خمس سنوات على زواجهما ، وبعد رحلة طويلة مع الأطباء فى مصر وألمانيا .

أثبتت التحاليل والفحوصات أنه عقيم ، أصابه الحزن الشديد حين سمع تلك الحقيقة المؤلمة ،ومع قفزات الأيام آمن بأن الله لايعطى كل شىء للإنسان ،وهو عنده كل شىء إلا النسل .. إن عدل الله طال كل مخلوقاته ، يوزع الأرزاق كيفما شاء ويجعل من يشاء عقيما ..سبحانه وتعالى له حكمة فى المنع أوالمنح .

أخفى غضبه فى داخله ،وكتم حسرته وخيبة أمله فى بئر سحيق ،وبدا ودودا لطيفا محبا لها حتى أبعد مدى ، وإن ظل يراقبها ويرافقها حتى صعدت الطائرة من مطار القاهرة فى طريقها عبر السماء إلى بلدها .

ظن فى نفسه أنها ربما لوزارت أهلها ، وعادت لذكرياتها وأحبابها سترتاح نفسيا ، وتعود إلى سابق عهدها معه ،لكنها كانت قد قررت أن تكون النهاية .. فما الذى يجعلها تعيش فى غربة داخل العزبة ، فى بلد ليس بلدها ، وبين أناس ليسوا أهلها بل غرباء عنها ، وهى غريبة عنهم ، لايشبهونها ولاتشبههم ولاينطقون بلسانها ، وحاولت أن تنطق بلسانهم دون جدوى.. فلماذا تبقى لها كى تبقى ؟!

الحب .. أين الحب ؟! ضحكت ساخرة فى نفسها .. إن الحب يأتى ويذهب مثل المال ، والقلب مثل خزينة البنك ، وقد حان الآن وقت الجرد ! المال مثل الحب يضيعه الإنسان ليكسب غيره !

بعد عدة سنوات قضتها تحت جناح عبدالله حبيش أدركت أن الحياة أوسع وأكبر من هذا الرجل وعزبته وقصره ومصره ! أصبحت عواطفها باردة برودة الأجواء الثلجية فى برلين ، ولم يعد قلبها يستقبل موجة واحدة نابضة كما كان فى السنوات الماضية ، وأدركت أن القلب مثل الراديو يمكن لصاحبه أن يغير المؤشر فى لحظة ، ويستقبل موجة أخرى ، ويسمع صوتا آخر ..فهل ينصت قلبها لصوت آخر غير عبدالله حبيش ؟! وهل بدا قلبها فى حالة ارسال واستقبال من جديد ؟!

فى ألمانيا كل شىء ممكن ، وفى أوروبا عامة الحرية تفوق الخيال ، ولووصل إلى عنان السماء ، ولاشىء مقدس سوى قيمة الإنسان والإستمتاع بالحياة بكامل الحرية .. فماذا ستفعل أنجيلا حين تستقر فى مسقط رأسها مجددا ؟!

كان عبدالله فى أيامه الأخيرة معها يحس بها ، ويتحاشى التعليق الذى يظهر على وجهها ويشع بلاهة ، فلايجد معنى أفضل للسعادة من الإهتمام بكائن حوله صار ضحية الغربة ، وصمت الريف وجبروت البعاد ، وقد اختارت الغرق فى عالمها بالعيش مع صور قديمة وذكريات من الماضى .

استبد بها داء الحنين ، وأخذها إلى ذكريات متباينة المعنى والمذاق ، ذكريات ماقبل مرحلة علاقتها بفتاها المصرى الريفى الأسمر الذى ساقته الأقدار ليدرس الدكتوراة ،ويعيش فى وطنها البارد ، ويكون شريك أحلامها .

لاتستطيع أنجيلا أن تمسك بخيوط الماضى كما لاتستطيع أن تمزق الحاضر المثقل بالإخفاق ،كما لاتستطيع أن تستشرف المستقبل لكنه لوكان مع زوجها عبدالله سيكون مثل حائط أصم بلاإثارة أوتشويق أومفاجأت تجدد دهشة الحياة ورونقها .

أصابها الحنين لكل شىء فى وطنها وذكريات صباها وشبابها ، تستعيد صورالشباب الذين أحبوها وكانوا يلاحقونها كالمراهقين ، ويلهثون وراءها فى كل مكان ، تراودها أطيافهم الآن .. تتذكر وسامتهم وتغزلهم فى جمالها ، وعنفوانهم وجنونهم بها وتتنهد .. وبسرعة فوجئت بوجهها الأبيض الشمعى يحمر ويكسوه الخجل مثل خجل عذارى المدارس .

إن البقاء مع عبدالله فى قصره على النهر يصيبها بخيبة أمل كبيرة ممزوجة بداء الحنين ، ولاشىء يجبرها على البقاء هنا .. مكانها ليس هنا ، مكانها هناك فى المدينة الصاخبة فى قلب أوروبا .. لوعاشت هنا فترة أطول ربما لن تظل على قيد الحياة ، إنها تشعر أن الدم سوف يتجمد فى عروقها ، فالحياة هناك فى وطنها كائن حى متغير متلون متجدد دائما ، أما فى عزبة حبيش فالحياة كائن ثابت متجمد صامت كصنم من حجر أحمق صوان !

أعجبتها فكرة الحنين إلى الماضى ، واستحضار أرواح الفتيان اليافعين عشاقها القدامى ، وهى فى مرحلة الجامعة ومابعدها بقليل ، كانت تكره تتابع الزمن ، وتتمنى أن تكون قادرة على إيقاف زحف الزمن لكن تلك مهمة مستحيلة!

أحيانا تمتدح النسيان لأنه نعمة عظمى للإنسان ،وأحيانا تلعنه لأنه نقمة كبرى ، تريد أن تتجاوز مرض الحنين ، وتمحو كل مافى الذاكرة ، وإن كانت فى حاجة ماسة إلى احياء الماضى بشخوصه ،وأحداثه بعد أن شعرت بالعدم يسود قصرها الريفى على النهر .. تبدو مثل مومياء محنطة فى متحف هذا الرجل ، أليس هو حفيد الفراعنة ؟!

لن تسمح له أبدا أن يحنطها هنا ، لن يحنط حياتها ومستقبلها ،إن الناس فى العزبة يتفرجون عليها كما يأتى السياح من آخر الدنيا ليتفرجوا على مومياء فرعونية قديمة فى المتحف المصرى الكبير .

لم تعد تعجبها هذه الحياة ، لاتحب أن تكون مومياء محنطة فى قصر الفرعون ،لاتحب أن يتجمد الدم فى عروق أيامها ، تريد بداية جديدة لحياة جديدة ، تريد حبا جديدا ولامانع من حب جديد قديم ، لاتحب أن يطول الصدأ قلبها على الإطلاق .

أحست بالراحة والإستقرار ، وشعرت أنها سيدة الموقف ، وسيدة أمرها حينما غادرت القصر الكبير ،وأن حزنها تبدد وتلاشى ، وصارت جامدة الحس باردة الأعصاب كأنها كانت فى سفر طويل بعيد وانتهى ، لم يعد يعنيها شىء .. المهم أن تنعم بالتغيير فى أرض باردة مثل أعصابها !

إن الشمس تشرق وتغرب ، والليل يكر ويفر فى أثر النهار ،والنهار يفعل ذلك أيضا مع الليل ، وهى لاتأبه بالليل ولابالنهار ، وتظل الشمس تشرق وتغرب كما تشاء ، إنها تكره الشمس لأنها جامدة قاسية ترقب مآسى البشر بلاحس ولاخبر .. تبا للشمس وعجبا لها .

كيف عاشت أنجيلا معه كل هذه السنوات متقمصة أخلاقه ، مستعيرة طباعه ، متماهية فى عالمه ؟!

أما اليوم فلاشىء يجبرها على البقاء فى دنياه ، والعيش تحت عباءته .. من اليوم لن تعيش فى جلبابه ، وستخرج من تحت شمسه ، ولن تعيش داخل قصره فى بلاد الشمس المشرقة .. لن تفعل بعد اليوم

وليكن مايكون !

لحظة الشجاعة النادرة التى انتابتها حين ألقت قرارها فوق رأسه كقنبلة موقوتة منزوعة الفتيل ، وأخبرته بأنها ستغادر إلى بلدها وربما لاتعود أبدا ، ولوأرادها فليلحق بها ، لأنها لم تعد تطيق فراق جذورها وستبقى هناك تحيا على نهر الدانوب ، وشددت على أنها مثل ورد النيل يطفو فوق الماء ، وتراه من كل نوافذ القصر أما لوخرج هذا الورد من حضانته فى النيل يموت ! هى ليست ورد النيل .. هى ورد الدانوب ..لايمكن لأحد أن ينزعه من حضانته ، ويغرسه فى حضانة أخرى ، ولوفعل لمات بين يديه .

هتفت فى وجهه قائلة :

- ياعبدالله لوأردتنى أن أموت هنا فى أقرب وقت امنعنى من السفر .. امنعنى من العودة لجذورى وبلدى ونهرى .

لقد اختلطت لحظة الشجاعة حين نظر إليها شذرا كأنه عدوها اللدود بلحظة خوفها الفظيع من رد فعله المجهول ، لكنه لم يحرك ساكنا ، وإن شعر بزلزال جبار ، ولم يفصح عن غضبه ، بل اكتفى بطرح قليل من الأسئلة الموجزة عليها ، وردت بإيجاز وشجاعة :

- هل كنت تظن أننى سأبقى فى القصر طول العمر حتى أغادره إلى القبر ؟!أنت مخطىء ياعبدالله بالتأكيد .. أنا ألمانية والألمان يعشقون الحياة من الوريد إلى الوريد ، والحياة أيضا تبادلهم عشقا بعشق .. لقد خلق الله الشعب الألمانى لأمرين لاثالث لهما .. لأجل الحياة ولأجل العمل !

فكر عبدالله فى أن منعها من السفر قد يقوده إلى مشاكل كثيرة ، وفكر أيضا أن يتركها تمضى لحال سبيلها ، وإن تركها تذهب وهذا هو الرأى الأصوب سيكون الضرر أقل من استبقائها رغما عنها .. فلن تترك ألمانيا مواطنتها أنجيلا تعيش فى مكان لاترغب البقاء فيه ، ولسوف تتدخل السفارة الألمانية فى القاهرة ، وتنزعج السلطات وتزعجه لووصلها الأمر !

وفى النهاية ستصل امرأته الألمانية إلى ماتريد .. وهو شخصية عامة ولاينبغى أن تطوله وسائل الإعلام بالغمز واللمز .. فلماذا إذن لايمنحها ماتريد ، ويظل فى نظرها الرجل الشرقى النبيل ، والزوج الشهم ؟!

فليتركها تطير إلى نهر الدانوب ، ولامانع من أن يلحق بها فى موطنها حين تحين الظروف .. ألم تترك الباب مفتوحا ليفعل ذلك ؟! وربما يفعل ويتفرغ بعض الشىء من مسئولياته ، ويتحرر من أعبائه ،ويطير إليها ويشربا القهوة سويا على نهر الدانوب .

لأول مرة يشعر أنه رجل ضعيف وامرأته قوية ، مع أن المنطق يقول والحكمة أيضا بأنه (لاتوجد امرأة قوية بل يوجد رجل ضعيف).

أدرك الدكتور عبدالله حبيش أنه أكثر من ضعيف ، ويبدو هشا .. تركها تغادر ورسم على وجهه ابتسامة رضا منزوعة الرضا رغما عنه ، طبعت قبلة وداع باردة على خده ، وأحس أنها الأخيرة مثل مكافأة نهاية الخدمة ، ولم يهتم كثيرا بكلماتها التى امتدحت بها طيبة قلبه .

إن أسوأ ماحدث له انطباعها عنه وانطباعه عن نفسه ..وسؤاله لنفسه عن معنى أن يكون طيبا لدرجة السذاجة ..كره صورته على هذه الطيبة ، وبعد ذلك ثرثرت دون أن يعرها اهتماما كافيا .

تفكر أنجيلا بمايحدث حولها ، ويضيق تنفسها قليلا ، تشكو من الجفاء والبعاد بينهما كأنها امرأة مهجورة ، ربما تشعر بعوارض تظهر على بدنها المثقل بإحساس الخطيئة التى قررت ارتكابها بعد اشتياقها لرجل مجهول لايعرفه عبدالله ، وإنما هى تعرفه .

تتخيل هذه المرأة الألمانية البيضاء الشمعية البضة التى تشبه طبق القشدة الفلاحى صوت هذا الشاب المجهول يأتيها دافئا هامسا ناعسا يسكب العسل فى أذنيها بحروف وكلمات رومانسية ، يخبرها عن رغبته فى إصطحابها معه إلى رحلة بحرية مثيرة يجولان فيها المحيط الهندى ، يعانقها ويراقصها ويراودها تحت ضوء القمر ، وينسج لها من زبد المحيط سريرا أبيض شفاف تتمدد عليه كحورية خرجت بلا استئذان من قصرها فى الجنة .

ماذا جرى لها ؟! هل استيقظت الأنثى بداخلها بعد سبات طويل ؟!

ربما لأنها عادت لمتابعة أفلام هوليوود الرومانسية التى كانت مغرمة بها فى مراهقتها وصباها ،ومن حين لآخر ترتدى لنفسها قمصان نومها الحريرية بألوانها الصارخة ، وتقف بها طويلا أمام المرآة تتأمل مفاتنها بإعجاب وحسرة كأن لها عيون رجل عاشق يشتهى الجميلات !

رحلت أنجيلا إلى ديارها ولم تعده بالعودة ، ولم تطلب الطلاق .. بل تركت الباب مواربا ، ربما أرادت فترة نقاهة بعيدة عن عالمه كى تعيد حساباتها بلاتأثير منه .. ربما .. لكنه لم يكن قاسيا معها ، فلاينسى لها أبدا أنها منحته أقصى لذة ممكنة ذات يوم ، والآن عليه أن يعتاد على غيابها .

حرص عبدالله خلال أوقات فراغه فى القصرعلى قراءة القرآن الكريم ، وسير الصحابة الصالحين والخلفاء المهديين الراشدين ، وخصص فى غرفة بالطابق الثانى من القصر تطل على النيل زاوية صغيرة للعبادة فرش فيها سجادة أصفهانية فاخرة يصلى عليها ويرتل القرآن ، ويعيش مع سير العظماء .

بدا راضيا مرضيا حين صارت زاويته تلك منبرا للتأمل فى مصير الكون والإنسان والحياة والموت .

ظل قلبه معلقا بهذا المكان ، واطمأن قلبه تماما بذكر الله ، ألابذكر الله تطمئن القلوب .. ولم تعد أنجيلا تراود خياله ، وتؤرق وجدانه إلاحين يتمدد فى البانيو ، ويغمر جسده بالماء الدافىء فى الشتاء ، تنعشه وترده الذاكرة إلى أيام العسل الأولى مع تلك الألمانية التى لها مذاق العسل الأبيض .

آه من تلك المرأة التى تمردت على حياتها معه تمردا ناعما ، وانقلبت على حياتها ، وفوجىء بتحولاتها واصرارها على الفرار من عالمه ، لابأس فليس للمرء يد فى كل مايجرى حوله ، وحتى مايخصه من الأشخاص والأحداث والمواقف .

يستسلم لأقداره ويسلم لامرأته برغبتها عساها تعود إلى رشدها ذات يوم ، ويسأل الله وهو فى صومعته وزاوية تعبده عابدا متعبدا بإخلاص أن يردها إليه ردا جميلا ، وليس أمامه سوى أن ينتظر فالأيام حبلى بالمفاجآت الكبرى دائما .. ولاتخلو الحياة من الإثارة ، والأحداث كاشفات ، وما عليه إلا الصبر .. إن الفرج قريب لاشك فى ذلك.. ربما يراه الآخرون بعيدا لكنه يراه قريبا .

****

(13)

إذا كان النهر لايغير مجراه أبدا ، والتاريخ لايغير مساره طوعا أوكرها.. فإن فاطمة لم تتوقف عن ضخ مشاعر دافئة لابن خالتها الذى استوطن قلبها ، وسرى طيفه فى شرايينها ، وتوغل حبه فى أوردتها ، وأثر الحادث المأساوى لايكمن فى حدوثه فحسب بل يشى بأن رضوان فى خطر ، وأن هناك من يدبر له شرا فى الظلام .

صحيح أن الله كتب له النجاة هذه المرة ، وأخطأت الرصاصة الشريرة طريقها إلى مواطن قاتلة فى جسده لكنه نزف كثيرا ، وهاهو يرقد على فراش أبيض بمستشفى سمنود العام يبتسم لها رغم أوجاعه .

تشرد فاطمة قليلا وتلزم الصمت الوقور ، وإن أرعبها منظره على سرير الألم فى المستشفى ، ووجهه بلون قشر الليمون ، يلهث عاجزا عن الكلام ، كان الرعب موجودا يملأ الأجواء حولها.. لكنها فتشت فى نفسها عن خوف حقيقى فلم تجد ، حتى عندما نظر إليها بعينين مذعورتين كأنه يلتمس منها نجدة لاتملكها ،وعندما مدت يدها تلمس يده تبسم بفتورلايمكنها أن تخطىء معناه ،أحس بدفء يدها ، وحنوها عليه فلمعت عيناه ببريق لايمكن أن تخطىء هى مغزاه ، وبدا ساكنا مستسلما لقدره ،وكأن حياته ليس فيها مايكفى من التعقيد !

وهاهم أهل عزبة الحنكاتى يتوافدون حبا وكرامة للإطمئنان على الفتى الذى سكن قلوب الجميع بأخلاقه الطيبة ،جاءوا يحملون له كل التقدير ، وإن ظلت فاطمة أسيرة شكوكها وأفكارها ، وتحوم ظنونها حول شخص واحد يريد حرمانها من حبيبها وابن خالتها ، شخص واحد شرير يتمنى أن يزيح فتاها النبيل من طريقها .

وسألت نفسها :

ـ ألهذه الدرجة تمكن الحقد الأسود من قلب فراج أبودومة ،وأعمى بصره وبصيرته ؟! لابد لهذا الأرعن أن يفهم أنه لوخلت الدنيا من الرجال ،ولم يعد فيها إلاهو فلن يكون رجلها أبدا ولن تكون هى امرأته على الإطلاق .

هذه الرسالة التى تود أن تبلغه إياها صريحة فصيحة حتى لايفكر فى تدبير مؤامرة جديدة ، ويقطع خيط الأمل الرفيع الذى يظن أنه سيربطه بها فى حال نجحت إحدى مؤامراته لاقدر الله .

وتتساءل بحسرة :

ـ ماذا فعل فتاها المسكين ليطلقوا عليه النار ، وهاهو يرقد طريح الفراش يتوجع بعد أن أنقذته عناية الله من القتل بأعجوبة ؟!

صحيح أننا مسئولون طوال الوقت عن أحداث ومصائب لاتقع لائمتها علينا لكننا نغرق فيها وندفع الثمن .. هذا جزء من الحياة ومكرها !

ثم قالت بنبرة هادئة مثل مفتش مباحث محترف :

ـ هل تعرف ياابن خالتى من الذى أطلق عليك النار ؟! ولماذ فعل ذلك ؟!

وضع ابتسامة غامضة على شفتيه ، وجسده مسجى بين أربطة القطن والقماش الأبيض الناصع ، ونصفه الأعلى عار تماما إلا من تلك الأربطة ،ثم قال بشجن واهن متلعثم :

ـ الله وحده أعلم يافاطمة .

ـ لكن إدارة المستشفى أبلغت الشرطة ، ولسوف يأتى من يحقق فى تلك الجريمة ، ويوجه إليك عدة أسئلة .

أومأ برأسه قليلا يفكر ثم قال ببطء :

ـ لم أر شيئا .. كانت الشمس قد لملمت ثوبها ورحلت ، ونزلت غمامة الغروب تحمل ضبابا أغبش اللون ، وفجأة سمعت صوتا مدويا ، ثم أحسست بألم رهيب كأن جمرة من النار سكنت أضلعى بلااستئذان ، وبعدها بقليل سرى فى أوصالى خدر غريب عجيب ، وغبت عن الوعى ، ولم أعد أعرف كم مر من الوقت ؟! وعندما أفقت فوجئت أننى هنا على فراش أبيض ،وتحت رعاية ملائكة الرحمة الذين أطفأوا النار ، وأسكتوا وحش الألم الذى كان ينهش لحمى قبل الخدر .. إن رحمة الله كانت أقرب إلى من رصاصة الموت ! أصابتنى الرحمة كما أصابتنى الرصاصة ، وانتصرت الرحمة على الغدر بأمر من الله.

بدا رضوان راضيا مرضيا ، ليس حانقا ولاحاقدا على أحد مثل كثيرين من أهالى االعزبة الذى يحسنون نسج خيوط الأمل وصناعة الحب ، ووأد اليأس والكراهية ، لايرهبهم عوز ولايخيفهم داء ولاوباء ولارصاصات هوجاء .

إيمانهم بالله يمنحهم حصانة طويلة الأمد ، لايكرهون السلطان ،ولايبغضون الظالم إنما يشفقون عليه ، رؤيتهم للوطن والحياة والعالم الواسع الكبير لاتتعدى حدود عزبتهم النائية المنسية التى لامكان لها على خريطة مصر المحروسة ، وطالما أن العزبة فيها أبقار لها أثداء ، وأغنام لها أصواف ، وأشجار تطرح الثمار فالدنيا نعيم مقيم ،أما خارج حدود عزبتهم الصغيرة فلايعنيهم شىء وكل شىء سواء .

الأرض والنهر والصلاة عماد حياتهم ، أذانهم تسمع الراديو كما تسمع آذان المسجد بنفس الوقت الذى تلهج فيه ألسنتهم الطيبة وقلوبهم الصافية ـ كماء النهر الخالد الذى يمر بالعزبة مرور الكرام منذ ألاف السنين ـ بذكر الله .

لايجزعون من خطر الجوع ، ولايفزعون إذا جاء أحدهم الموت أونفقت إحدى أبقارهم ، ومنهم هذا الفتى الناجى من الهلاك بأعجوبة ..لايحقد على أحد وإن كان قد تناسى أوجاعه ، وسره أن تكون فاطمة إلى جواره تبادله الأمنيات الطيبة ، وتقاسمه الهمس الحنون .

ألحت عليه أن يقول شيئا عمن يضمر له شرا .. فسكت طويلا ثم قال نبرة مؤمن بسطوة الأقدار :

ـ أظن أننى أعرف من أرادنى بالسوء ورمانى بالنار !

تهللت أساريرها ، وانفرجت شفتاها ، وعلت الدهشة تقاسيمها الوضاءة وقالت :

ـ هيا يارضوان تكلم ..أخبرنى ياابن خالتى ربما تهدىء من روع الوحوش التى تتصارع فى رأسى .

ـ الشيطان يافاطمة هو من أرادنى بسوء .

ـ الشيطان .. من تقصد ياابن خالتى ؟!

ـ لاأحد سواه يافاطمة .. صدقينى .

ـ لكن يارضوان الشيطان لايمسك السلاح ،ولايطلق النارعلى الأبرياء أمثالك .

ـ كلامك صحيح يافاطمة .. لكن أخبرينى ماذا يفعل الشيطان إذا كان لايمسك بالسلاح ويطلق اللنار ؟!

قالت بضيق :

ـ الشيطان يوسوس بالشر فقط .

ـ ومن الذى ينفذ وساوس الشيطان ؟!

ـ شخص ما فى كل الأحوال ياابن خالتى .

ـ إذن فأنا صدقتك القول حين قلت لك إن الشيطان هو الذى رمانى بالنار .

ـ يارضوان .. أرجوك أخبرنى من هو الشخص الذى وكله الشيطان لقتلك ؟!

ـ ليس لى أعداء كما تعرفين ، فأهل العزبة جميعا أصدقائى وأقاربى وأحبابى .. ربما شخص غريب أطلق النار بالخطأ وهو يصطاد طيور النهر .

ـ لايارضوان .. لاتكن ساذجاهذه مسألة حياة أوموت..أنا أعرف من الذى حاول قتلك ولن يتوقف عن المحاولة .

ـ ومن هو يافاطمة .. ولماذا يريد قتلى ؟!

وقبل أن تنطق بكلمة دخل الطبيب المتابع لحالته ،وتبعه خمسة من رجال الشرطة والنيابة ..

وقال الطبيب بلطف موجها كلامه لرضوان :

ـ النيابة تود أن تسألك عدة أسئلة ، ولن يطيلوا عليك .

انزوت الفتاة الخلاسية حميلة جميلات عزبة الحنكاتى ، وقلبها ينبض بعنف ،وملامحها جادة تتابع فى صمت ، وقد اعتزمت ألاتبوح بشىء أبدا مما تعرف حتى لاتزيد الأمور تعقيدا .

بدأوا يسألونه وأحدهم يسجل مايقوله رضوان فى محضر رسمى ، توالت التساؤلات وجاءت الإجابات هلامية لاتؤدى إلى نتيجة واضحة ، ولم يتهم أحدا بعينه وهو لايظن ولايتصور أن هناك عدوا يتربص به ،طيبة زائدة عن الحد تصل إلى حد السذاجة ، وعندما انتهوا من مهمتهم غادروا الغرفة ، وتركوه راقدا فى فراشه يحمد ربه ويشكره ويستغفره ،ثم جالت نظراته الحائرة فى أرجاء الغرفة حتى نام .

يبدو أن تأثير جرعة المخدر المكثفة التى حقنه بها الطبيب ـ جعلته كائنا نواما ـ لكى لايشعر بوخز الألم ،وتأثير الشظايا المتناثرة والتى لم تدم فى بدنه طويلا ،بينما ظلت هى تراقبه بشغف واهتمام ، ولاتفارق غرفته ..بقيت فاطمة بجواره خوفا عليه فى قادم الساعات والأيام لوعاد الشيطان يوسوس للشخص المجهول المعلوم الذى يملك السلاح .

عيونها المتيقظة تجوب المكان ،وتستقر فى البداية والنهاية فوق وجه فتاها الأحب إلى قلبها وعينيها ، ابن خالتها الساكن وجدانها بذكريات طويلة ممتدة بلاانقطاع منذ الطفولة ونعومة الأظافر وحتى اليوم .

تكاد تبكى حزنا وخوفا عليه ، لكنها تتمالك نفسها بصعوبة ، غادر الجميع ونام فتاها ، وهاهى تنصت لصوت أنفاسه ، وتسمع بوضوح دقات قلبه ، وتحس بفؤاده ينطق باسمها ،ويكاد يقفز من بين أضلعه ..الذكريات تتسابق داخل رأسها ، والأفكار تتسارع ووتتصارع فى عقلها مثل كلاب مسعورة !

تدرك بحاستها السادسة أن غباء فراج أبودومة ،ورغبته فى تملكها يدفعه لفعل أى شىء ، كما تدرك أن الغباء جند من جنود الله ، وقد يسلط الله عليه الغباء ليقع فى شرعمله ،لكن كل مايهمها ألايكون مصير رضوان مثل مصير صباح !

لاشىء أغلى من الإنسان فى هذه الحياة ، وتعلم فاطمة علم اليقين أن هذا الملاك النائم أمامها قدرى بالفطرة ، متسامح لأقصى درجة ، ولايأخذ الأمور بحذر على الإطلاق لأنه يؤمن بأن للكون رب حكيم يديره بيد مباركة لاتفعل إلا الخير حتى لوظن الإنسان أنه الشر ، وقدريته تلك تمنحه الطمأنينة ، وتكسبه القدرة على الإستمرار ،

هذا الإيمان بأن هناك خبير عليم يدير دفة الكون يعطى لوجوده حياة ومسار وغاية لايقتفى أحدا .. له نبعه وللآخرين نبعهم ، ولايضع الآخرين فى عقله ، ولاينظر لنبعهم ولايفكر أن يرتوى منه ..بل يهمل الآخرين كما يهمل حذاءه عند النوم !

كانت فاطمة فى تلك الأثناء بين نارين .. ارتاحت لأنه نجا وتجاوز مرحلة الخطر رغم أن الخطر قرين الحياة ذاتها ووجهها الآخرالمستتر ، وربما عاود الشيطان ـ الذى يسكن دوار العمدة ويتقمص شخصية ابنه فراج ـ فعلته المشينة .. والنار الأخرى أنها تقبض على السر الأعظم وراء تلك الجريمة ، ولن يخطئها حدسها أبدا هذه المرة ، ولابد أن تفعل شيئا قبل أن يفعل الشيطان فعلته ، ويدبر مؤامرة جديدة ، وينصب فخا ليقضى على ابن خالتها .

لن تقف مكتوفة الأيدى حتى تأتى الرصاصة القادمة الغادرة بغتة فتسكن القلب وتقتل الحب .. لن تسكت .. تحس أنها تجلس على شوك ، ونفسها ملأى بالأسى والغضب ، فهى نالت شهادتها ، وتفكر فى مشروع عمرها ، مثل كل البنات ، تفكر فى الزواج من فارس أحلامها وشريك طفولتها وصباها ابن خالتها ، ولاترى فى هذا العالم شخصا أفضل منه ، ولن ترضى بغيره بديلا .

كان الوقت قد تجاوز الغروب بقليل ، ذهبت إلى دوار العمدة ، وسألت عن فراج فاستغرب الخفراء الأمر ،ورد عليها أحد هم مستفسرا عن سبب سؤالها عليه فقالت بحزم :

ـ مسألة شخصية .

ـ أنه نائم الآن .

ـ ومتى ينهض من نومه ؟!

ـ بعد قليل يستيقظ .. ينام النهاربطوله ، ويستيقظ مع هبوط الغروب .

ضحكت قائلة :

ـ هاهو الليل قد أوشك .. يارب يكون شبع من النوم .. ألاتوقظه من فضلك ؟!

ـ انتظرى يافاطمة قليلا .. سأدخل كى أوقظه .

هزت رأسها بإيماءة امتنان ، وظلت شاخصة فى مكانها ، وأشار لها أن تجلس على أريكة خشبية قديمة فى مدخل الدوار ، وبالفعل جلست وهى تفرك يديها بشىء من التوتر والتحفز لأن مهمتها ليست سهلة على الإطلاق ، هى مطالبة بإنقاذ مستقبلها حين تسعى لإنقاذ ابن خالتها ، وبعد لحظات جاءها الخفير قائلا :

ـ خمس دقائق يافاطمة ويكون هنا لمقابلتك .

شكرته همسا وحياء ، وظلت متسمرة فى مكانها فوق الأريكة الخشبية كما لوكانت جزءا منها ،مشغولة البال مضطربة الحال ، تفكر فيما ستقوله لهذا الوغد ، وترتب أفكارها ولاتتوقع كيف سيكون رد فعله ، وعليها أن تكون صلبة متوازنة فلاتهديد يجدى معه ، ولااستجداء أواستعطاف ينفع ..عليها أن تتخذ بين ذلك سبيلا .. حان وقت الحزم والحسم ، ولاشىء ينفعها سوى الشجاعة .. وإن كانت ترتجف فى أعماقها ، وتكاد تموت فى جلدها خوفا ، فهى فى نهاية الأمر أنثى رقيقة ضعيفة هشة حتى ولوأظهرت عكس ذلك .. كما أنها تتعامل مع شخص مارق خارج عن السيطرة بلا أخلاق ، ولايتوقع أحد رد فعله .

يبدو لها كأنه مشروع مجرم فى طريقه ليكون محترف الإجرام ، وقد هداها تفكيرها بعد تردد أن تكشف له صحيفة سوابقه ، وتذكره بأنها تعرف خطاياه ،وأثامه عساه يرتدع عما فى رأسه .

لقد قررت أن تظهر له العين الحمراء ربما يتراجع عن خطته للنيل من فتاها أملا فى الفوز بها لنفسه ..الآن ستضع النقاط فوق الحروف ، ولديها أوراق ضغط كافية لإخافته ، ويكفى أن يعرف أنها تعرف ماجرى لصباح على يديه ،ويمكن لها أن تؤكد له أنها حالة ميئوس منها بالنسبة له ، ولايمكن أن تكون له فى يوم من الأيام . وبينما يدور داخلها صراع مزعج دخل فراج عليها مهووش الشعر منكوش الحاجبين ، محمر العينين جاحظهما ، وبصوت أجش رحب بها ،ودعاها للدخول فى غرفة استقبال الضيوف لكنها اعتذرت وقالت :

- لايافراج .. أنا متعجلة ، وأريدك فى كلمتين فقط .

فرك يديه وقال بمكر :

- خير ياغالية .. تحت أمرك .. أراك تتعاملين معى كأننى غريب مع أننى أقرب إليك من أى قريب !

- ياسبحان الله .. بأمارة أنك قتلت مرة ، وتحاول أن تقتل للمرة الثانية أقرب الناس لى .

دهش وتلفت حوله فإذا به يجد الخفير واقفا انتباه ، وفمه مفتوح وأذنيه منتصبتين أيضا ،وينصت بحرص لكل شاردة وواردة .. فصرخ فيه :

- ياحيوان لماذا تقف هنا ؟! هيا انصرف .. أنت هنا لحراستى وليس لمراقبتى .

ارتجف الخفير من صرخة ابن العمدة فيه ، و زمجر وضرب برجله فى الأرض وانصرف غاضبا ثم عاد فراج إلى فاطمة قائلا :

- أنا مستعد أفعل أى شىء يرضيك ، حبك هدفى يافاطمة ..

قالت بإمتعاض :

- الحب هدية بين قلبين .. الحب يوهب ولايطلب .. الحب يحدث ولايستعطى .. فلاتطلب منى مالايطلب ياابن الأكابر ، وليس عندى قلب آخر كى أهبه لك ، وأظن يافراج أنك تعرف أين قلبى ومع من ياابن حضرة العمدة .. ومايرضينى أن تبتعد عن حياتى ، ولاتتعرض لرضوان بسوء .

قال ساخرا :

- آه فهمت .. أنت الآن هنا لأنك خائفة على حبيب القلب .. أليس كذلك ؟!

- الحمد لله أنك فهمت يافراج ، ولاتنسى أننى حتى الآن لم أتكلم بشأن حكايتك مع صباح .

بدا غاضبا ضجرا وقد تقلصت ملامحه :

- هل جئت إلى هنا كى تهددينى فى دارى ؟!

- لا .. أبدا .. جئت لأنبهك فقط .. وأقول لك أننى لايمكن أن أكون لك حتى لوكنت آخر الرجال فى هذه الحياة !

- لماذا يابنت عبدالعاطى ؟!

- لاأحبك يافراج ..

- عندى كل مايسعدك ويجعلك أميرة ، وقد يأتى الحب فيما بعد .

ـ ياابن العمدة .. أنا أحب رضوان وسأتزوجه .

ـ أنا أفضل منه ألف مرة وعندى ماليس عنده ولايحلم به .

ـ المال لايجلب الحب والسعادة .. والقلب له أحكام .. كما أن الحب له شريعة غير شريعة التجارة ومبدأ المكسب والخسارة .. أنت من قماشة غير قماشتى .. نحن طبقة وأنتم طبقة أخرى .. نحن من طين وأنتم من طين آخر .. أتفهم ياابن حضرة العمدة ؟!

أحس أمامها بالضآلة وأنه قزم يملأه الشعور بالخطيئة ، يرى نفسه عاريا أمامها بذنوبه وخطاياه فلعن صباح فى سره ثم قال بنبرة لائمة :

ـ لماذا تعاملينني كالبعير الأجرب ، وكأن العدوى تسرى منى للآخرين؟!

لماذا تعاملينني معاملة الكلب الضال ؟! أشعر أنك تحتقرينني .

حاولت أن تستميله بنبرة لينة ، وتستعطفه ولاتستعديه فقالت برفق :

ـ بالعكس يافراج ..أنت ابن عمدة بلدنا .. وأنت شاب طيب لكن عليك أن تطرد الشيطان من نفسك .. معدنك طيب وأصيل .. وكل إنسان خطاء ، ولابأس من التوبة والعودة إلى طريق الصواب .

ـ أنا مستعد للتوبة لكن أرجو أن تقبلى الزواج منى .

ـ وهل ترضى أن أتزوجك بلاحب .. فى حين أن قلبى معلق بغيرك .. أظن أنك لن ترضى بذلك أبدا ؟!

قال بتلعثم :

ـ طبعا لا .. لن أرضى .. لكن ..

قاطعته قائلة :

ـ أجمل بنات البلد تتمناك يافراج .

ـ لكنى لاأريد سواك يافاطمة ، ولن أقطع الأمل فيك ومنك أبدا.

ـ مستحيل ياابن العمدة .

ـ أنا لاأعرف المستحيل يا يابنت عبدالعاطى والأيام بيننا .

ـ ماذا تقصد يافراج ؟!

ـ أقصد ماسمعت يافاطمة .. لامستحيل عندى ولن أتركك لغيرى .

ـ لكنى لاأحبك يافراج .

ـ وأنا أحبك يافاطمة ولن أتخلى عنك أبدا .

ـ لن أكون لك أبدا يافراج .

ـ سنرى يابنت عبدالعاطى ..

ـ أمرك غريب ياابن العمدة .. كل شىء بالعافية إلا الحب والزواج بالإتفاق والتوافق والتفاهم .

ـ ستندمين يافاطمة !

ـ البنات أكثر من الهم على القلب المهموم .. ابحث عن غيرى .

ـ اليوم لاتحبيننى وغدا ربما تتغير الأحوال وتحبيننى .. من يدرى ؟!

ـ أيام قليلة وأتزوج ابن خالتى ،وينتهى الأمر وينقطع خيط أملك الواهن .

حدق فيها بنظرة غل ، والشرر يتطاير من عينيه ثم قال :

ـ. الشاطر هو الذى يضحك فى النهاية ، وأنا لاأستسلم بسهولة ، ولاأرضى بالهزيمة مهما كانت الظروف ، وعندما أريد شيئا إما أن أناله أوأحطمه !

ـ أنا لست شيئا يافراج ..أنا كائن حى .. أنا إنسانة لها قلب وعقل ومشاعر ..وقلبى وعقلى ومشاعرى ليسوا لك .

****

(14)

مرت ستة شهور وأكثر قليلا على مغادرة أنجيلا للعزبة ، ومنذ غادرت لم تتصل أوتتواصل مع زوجها عبدالله حبيش ، وإن كان دائما هو الذى يبادر بالإتصال بها ، فترد عليه بكلمات قليلة جافة فاترة ، وإذا قال لها أنه اشتاق إليها ، لاترد بنفس الحرارة والحميمية ، وإذا حدثها عن العودة إلى قصرها فى العزبة راوغت ، وتعللت بأنها مكتئبة ، ومازالت تفكر فى المستقبل ،ولم تستقر بعد على خطة حياتها فى قادم أيامها.

يدرك من نبرة صوتها وجفوتها أنها تغيرت كثيرا ،وتنسحب منه رويدا رويدا كأنها شبح يتلاشى مثل السراب ، ويختفى بالغياب.. أليس البعيد عن العين بعيد عن القلب ؟!

أحيانا يسأل نفسه :

ـ هل أنجيلا حقيقة أم سراب ؟!

ذات صباح فوجىء على مكتبه بدعوة من إحدى الجامعات الألمانية لحضور مؤتمرعلمى وإلقاء محاضرة على طلابها ، تأمل الدكتور عبدالله الدعوة وتبسم قائلا لنفسه :

ـ ياالله ماأكرمك ..لقد جاءت تلك الدعوة فى موعدها .. يالها من صدفة رتب لها القدر باقتدار.

خطر على باله أن يتصل بزوجته ويخبرها لكن هذا الخاطر لم يعجبه ، وقرر أن يتريث قليلا ، ويجعل الزيارة لألمانيا مفاجأة ليرى وقعها على أنجيلا .

يريد أن يرى رد الفعل على ملامح وجهها الأبيض الناصع مثل طبق القشدة التى يحبها ، عسى أن تكون الفرصة مواتية لإستعادة ذكريات أيامهما الحلوة معا .. كما ستكون الفرصة مواتية أيضا للقاء بعض الأصدقاء المشتركين بينهما ، ورفاق الدراسة فى مشوار حصوله على الدكتوراه ، ويغالبه الحنين إلى الماضى الجميل ، وارتباطه بالأماكن التى عاش فيها بألمانيا عدة سنوات .

ارتاح إلى اخفاء الأمر عن أنجيلا لعل الله يكشف له شيئا ما .. ولعل القدر يدبر أمرا ما .

فى الأسبوع القادم يطير إلى بلاد الألمان حيث نهر الدانوب ،والثلج الأبيض والوجوه الشمعية ، والأجساد الفارعة من فصيلة النخل عالى المقام فى عزبة حبيش .

أعد حقيبته وتأهب نفسيا للقاء زوجته بالأشواق والحنين والحب ، بعد أن غابت عنه ، وطال غيابها ، وإن كانت أنجيلا فى عالم أخر ، ولاتعزف معه على موجة واحدة ، ولم يعد الرجل يعرف ماإذا كان شعورها بالضيق والملل قد زال أم أنها مازالت فى حالة نفور وسأم من عزبة حبيش خاصة والمحروسة عامة ؟!

هذه الزيارة ستحسم موقفها منه وموقفه منها ،ولوقررت أن تعود معه سيكون أسعد إنسان فى الكون ، أما لوفضلت البقاء فى وطنها ، ومسقط رأسها فربما يقدم استقالته من رئاسة أكاديمية البحث العلمى ، ويعيش معها فى ألمانيا ،وعنده أكثر من عرض عمل كأستاذ فى الجامعات الألمانية ، ولامانع لديه من أن يسير على نهج حجا حين قال :

- إن بلدى هى التى فيها زوجتى !

لابأس فلاشىء يعوض خسارة زوجة ضحت بالكثير من أجل زوجها .. ضحت بالأهل والوطن ، وعليه أن يستعيدها مرة أخرى ،لكن لايدرى ماذا يدور فى عقلها وقلبها ؟!

إن العقلية الألمانية غير العقلية العربية .. لكن الغريب فى الأمر أنها أخبرته بعودتها لعملها السابق فى مركز الأبحاث العلمية فى برلين .

جاء السفر ليلا والوصول فجرا والناس نيام ، والطائرات تحلق فى الفضاء كالنحل ، سرت السعادة فى أوصاله حين وصل ، ودق قلبه بسرعة حين دق جرس بابها فى البيت الذى عاش معها فيه خلال أيام زواجهما الأولى فى ألمانيا ، فتحت له الباب خادمة أفريقية سوداء - لم يرها من قبل - تتحدث الإنجليزية بطريقة ركيكة ،كانت تتأوه تفتح فمها الواسع ،وتفرك عينيها من أثر النوم ، وتحملق فيه كأنه كائن خرافى هبط من السماء ، وعندما سألها عن أنجيلا استغربت ،وهرشت بيدها فى شعرها الخشن المنفوش.. ثم قالت :

- يبدو أنك مخطىء فى العنوان ياسيدى .

- لا .. لست مخطئا .. أنا صاحب البيت .

ودخل نحو غرفة النوم بعد أن وضع حقيبته على الأرض فى الصالة ، وهرولت وراءه الأفريقية السوداء تحاول أن تمنعه بلطف ، فدفعها بيده برفق وقال :

- دعينى أفاجىء أنجيلا بوجودى هنا .

توقفت عندما وجدته مصرا وينطق اسم أنجيلا أكثر من مرة ، وأدركت أن الرجل لم يخطىء العنوان ..وإنما أنجيلا هى التى أخطأت العنوان حين جاءت برجل آخر يشاركها فراشها !

لم يصدق الدكتور عبدالله مايراه بعينيه ، كابوس فظيع لم يكن يتوقعه ولايتمناه أى رجل ، يالها من لحظة قاسية ،رأها ببياضها الساخن شبه عارية تماما إلامن قميص نوم وردى ، وبجوارها شاب ألمانى أبيض الوجه أصفر الشعر طويله .. أخضر العينين له نظرة قط شرس ، والفتى يطارحها الغرام كما لوكان زوجها ، وحين رأت عبدالله زوجها واقفا فوق رأسها ،وبجوار فراشها هبت مفزوعة غير مصدقة أنه هنا فى مخدعها ،وصاحت وهى تحاول أن تتماسك :

ـ عبدالله .. ماالذى جاء بك من مصر ؟!

ـ هل نسيت ياأنجيلا أننى مازلت زوجك ؟!

بنبرة مستهترة :

ـ اعتبر أن كل شىء انتهى بيننا .

تبسم بحسرة ساخرا :

ـ بالطبع بعد مارأيته الآن هنا فى غرفة النوم كل شىء انتهى .. لكن من هذا الشاب المحظوظ الذى أخذ مكانى ويتمرغ فى فراشى ، ويدنس شرفى ؟!

ـ هذا صديقى مايكل .. أرجوك ياعبدالله لاتغضب لم أعد أريدك ..

ـ والآن تريدين مايكل .. أليس كذلك ؟!

ـ أنت السبب ياعبدالله .

ـ أنا السبب .. كيف ؟!

ـ طالما ابتعدت عنى ، وانشغلت بأبحاثك ودراساتك ، ومنصبك المرموق ، وطموحاتك التى لاتنتهى ، ولواستجبت لى لكنا الرابحين .. انتهى كل شىء !

خرج من الغرفة مشمئزا مقهورا مذلولا ،وارتمى على كرسى فى الصالة كأن رصاصة قاتلة أصابت قلبه ، لايدرى ماذا يفعل الآن ؟! أيقتلها ويغسل عاره ؟! أم يصبر ويتماسك ويفكر فى الأمر ؟!

تماسك وكظم غيظه ودفن قهره وذله فى صدره ، لم ينفجر فى وجهها ، ولم يغضب على شرفه المهيض ، ولااندفع هائجا لينتقم من الخائن والخائنة ، بينما انبرت أنجيلا بكل بجاحة تلومه ، وتعاتبه وتحمله مسئولية ماحدث بدعوى أنه كثيرا ما تجاهل نداء عواطفها .. آلمه كثيرا أن تقضى زوجته لياليها مع رجل غيره فى فراش واحد .. ولماذا لايتألم ..أليست أنجيلا ترى فعلتها تلك أمرا عاديا ؟!

الغريب فى الأمر أنها تحدثت عن حقها ومشاعرها وحريتها ، وكأن كل ماحدث أمرا لايعنيه .. أحس بثورة الغضب تتصاعد فى صدره ، وهم بأن يثور عليها ويدخل على مايكل الراقد فى أحضانها فيقتله ، لكنه كبح جماح نفسه المشتعلة ، واكتفى بالتحديق فيها كما لوكان يحدق فى نوع غريب من الكائنات !

رفعت إليه حاجبها فى دهشة وقالت مستغربة :

ـ يجب أن تفهم أن الحال هنا غير الحال فى بلدك .. ووقتك معى قد انتهى .

أحس بذل مر مرارة العلقم ، وصرخت فيه رجولته أن يفعل شيئا ،وفكر فى الثأر لكنه أنصت إلى صوت العقل الذى أخبره أن لاجدوى من ذلك ، ولوتهور ربما يخسر نفسه أيضا ، وكفى خسارته لها .. اكتفى عبدالله بالضغط على أسنانه حتى أحس أنها سوف تتكسر ثم قال :

ـ خائنة .. سافلة .. امرأة لاتعرف معنى الشرف .

ـ هذه خزعبلات تتمسكون بها أنتم أهل الشرق ..ونحن هنا فى ألمانيا ولسنا فى عزبة حبيش .. الحرية هنا .. حياتنا هى الحرية .. والحرية هى حياتنا !

شعر بأنه عاجز مكبل تماما ، وكأن الشلل المؤقت قد ضرب أوصاله ، تثاءبت وقالت ببرود وهى تشير إلى الناحية الأخرى :

ـ تستطيع أن تنام فى هذه الغرفة ،وتستريح من عناء السفر مؤقتا .

ثم تركته ودخلت غرفة النوم تواصل ماكانت تفعله مع مايكل دون حياء وكأن شيئا لم يحدث .

صرخ فيها بحدة :

ـ انتظرى ياأنجيلا .

توقفت والتفتت نحوه متسائلة :

ـ ماذا تريد ؟!

ـ ألست زوجك ياأنجيلا ؟!

ـ ياعبدالله لاتكن متخلفا ..إن الرابطة الزوجية التى بيننا لاتعدو سوى أن تكون شيئا وهميا .. مجرد شكليات لاقيمة لها ولاوزن ، الناس هنا يعيشون مع بعضهم البعض ، ويفترقون وينجبون الأطفال وربما يتزوجون بعد الإنجاب بسنوات وربما لايتزوجون .. الحرية هنا مقدسة .. الحرية شىء لاتعرفونه أنتم فى الشرق ياعزيزى !

ـ هل تنكرين مابيننا ياأنجيلا ؟!أنا زوجك حتى اللحظة !

جاء صوت مايكل من الفراش يناديها من الداخل فردت عليه بالألمانية أنها ستعود إليه بعد لحظات .. ثم عادت تتحدث مع عبدالله قائلة :

ـ ألم أقل لك من قبل ياعبدالله أن مابينى وبينك كان عقدا شكليا كتبه ذلك الشيخ المعمم ؟! لقد قلت لك ذلك قبل أن أعرف مدى تقديرك لهذ الرابطة الشكلية ، فمابالك الآن وقد رأيت بعينك أننى مزقت تكل الرابطة إربا وحطمتها شظايا .. أتريد حرزا آخر أكثر من مايكل الذى يرقد فى فراشى ؟!

ـ وحبنا ياأنجيلا ؟!

ـ انتهى ياعبدالله ..

تحطمت صورة المخلوقة المثالية السامية ، وسقطت من نظره تماما ، تكسرت البراويز التى تحيط بتلك الصورة ، وضاعت المخلوقة الأولى التى أحبها فى حياته ،والتى كان يظنها كل أماله فى الدنيا ، فجع فيها ورأها سرابا مفعما بالسواد ،تردت فى الهاوية وسقطت فى بئر الخيانة ، لايهمه منطقها فى الشرف عند الألمان أوعند المصريين ، لقد تلوثت بقذارة مايكل ، ولامعنى للشرف عندها ،وإن كانت تظنه سخافة شرقية ، وفلكلور عربى ردىء !

تركته يهذى وحده فى الصالة بجوار حقيبته ،والخادمة الأفريقية تراقب من قريب ، وكان يظن ـ وليس كل الظن إثم ـ أنها سترقص فرحا حين تراه بعد أكثر من ستة شهور من الفراق ، وتوقع أن هذا اللقاء سينهى فترة الجفاء السابقة ، وينهى أيضا الخرس الزوجى الطارىء بيهما !

لقد كان يأمل أن حرارة اللقاء قادرة على أن تذيب الثلج الألمانى ، وتتجاوز الماضى ، ويظهر الحب والشوق مجددا ،فقد كان يظن أنه يكفى أن تتشابك الأيدى وتلتقى أكفهما ، وينظر كل منهما فى عينى الآخر حتى يتناسيا كل شىء ، ويغفر كل منهما للآخر ، وتتبدد سحب الوساوس ،كان يظن أن لغة العيون ستنطق بالحب مرة أخرى ، وأن العيون فصيحة بتلك اللغة أكثر من اللسان مهما كان اللسان فصيحا صداحا .. لكن حدث ماحدث !

إن كبرياءه لن يسمح له بالبقاء لحظة واحدة فى هذا المكان ، ولن يبقى معها تحت سقف واحد ، وقد حل مايكل مكانه فى الغرفة إياها ،حمل عبدالله حقيبته بإنكسار، وخرج دون أن تعيره هى أوالخادمة أدنى اهتمام ، وأغلق الباب خلفه والحزن يملأ قلبه ، وكرامته فى أسفل سافلين .. وهل هناك أقسى وأمر على الرجل العربى من استبدال امرأته له برجل آخر على طريقة أنجيلا ؟!

هام على وجهه فى شوارع المدينة الثلجية ، وبردها القاسى يندس بقسوة فى مسامه كوخز الإبر المؤلمة حتى وصل إلى فندق قريب مبنى على طراز القلاع القديمة ، وقرر أن يقيم فيه ليومين أوثلاثة حتى ينتهى المؤتمر ويعود من حيث أتى .

وكل لحظة يزداد عداد عذابه ، ويكبر ويتنامى حتى صار مثل جبال الألب ، وسالت من عينيه الدموع الساخنة المتمردة فى هذا الجو البارد جدا ، ولم يستطع أن يمنعها من النزف ، لقد كان أهون عليه أن تقتله أنجيلا ولاتستبدله بمايكل بهذه الطريقة المنحطة ، أدرك أن المرأة لووضعت الرجل فى قلبها لرفعته إلى السماء ، ولووضعته فى رأسها لخسفت به الأرض خسفا .

صارت الحياة فى نظره مثل المرأة التى لم يعرف سواها وغدرت به .. إن الحياة سيئة لئيمة فى أحيان كثيرة ، وعليه أن يتقبلها كماهى وإلا فليغادرها لوكان يستطيع أن يفعل ، فليس هناك حياة أخرى يمكن أن يلجأ إليها هربا من الحياة الأولى .. للأسف الشديد فى رصيد كل إنسان حياة واحدة فقط !

ظل يفكر ويفكر ويتساءل كأنه أفلاطون زمانه ..هل صحيح أن المرأة سلعة معروضة فى الأسواق ؟!أم أنها تاجر جشع تبيع وتشترى فى الرجال كما تشاء ؟! لم يعد يدرى ..هل المرأة هى السلعة أم الرجل هو السلعة التى تباع وتشترى ؟!

كره أنجيلا كثيرا ونقم عليها أكثر ، وتمنى لوقتلها وشرب من دمها قبل أن يعود إلى صومعته وقصره ونهره ومصره فى العزبة التى تحمل اسم عائلته الكبيرة آل حبيش .

آه من الخيانة .. آه من المرأة .. لم تقتله الخيانة بل جعلته فى منطقة وسطى بين الأموات والأحياء .. فى مساحة وسط بين الوجود والعدم ، وإن كان الموت عليه أهون من ذل الحياة بطعم الخيانة !

لافائدة من أنجيلا على الإطلاق بعد اليوم ..وكل أنثى هى أنجيلا فى رأسه الآن .. ومن الحماقة أن يربط مصيره بامرأة ، ويحكم شد نفسه برباط سيهوى به إلى الهاوية .. لاأمل له فى الخائنات ، وعلت وجهه سحابة يأس واكتئاب ، وتملكه حزن عظيم يكفى كل الرجال الذين خانتهم بنات حواء منذ خلق الله أدم حتى اليوم .. ورغم أن الله أهدى الرجل حواء لتخفف عنه قسوة الحياة .. لكن ماذا فعلت حواء وبناتها من بعدها ؟! ماأشقاه هذا الرجل وأتعسه حين تنقلب عليه حواء .

مازالت الصور الوقحة تلح على عقله ، وهو مضجع فى غرفة أنيقة مريحة فى فندق هادىء ،لم يعرف النوم طريقا إليه برغم عناء السفر وعذابه ،ويستعيد بحسرة اللحظة الفارقة التى دخل فيها غرفة النوم التى شهدت ليالى العسل ، ورأى مايكل يستوطن عرينه مثل وحش فى غابة البشر تلك !.. ياليته مادخل ورأى مارأى ويا لبشاعة مارأى .. كان يمنى النفس بالعسل من جديد فى تلك الغرفة وفى ذات الفراش .. لكن قلب المرأة ومايهوى ..مايكل الآن هو سيد قلبها وسلطان فراشها .

يستطيع أى إنسان فى بلاد الشرق أن يدرك مدى لوعته من هذا الموقف العصيب قليل الحدوث فى بلاد الشرق ، كثير الحدوث فى بلاد الغرب .

وهو يخطو نحو الباب مفعما بالأشواق المحترقة ، والحنين الجارف المهدر دون أن يكون لديه أدنى فكرة عن وجود ذئب بشرى فى الداخل ، وبسرعة زال الذعر ، وتلاشت الصدمة لتحل الدهشة محلها ، والقدرة على استيعاب ماحدث .

أبلغت بها الصفاقة والخسة أن تنحط إلى هذا المستنقع ؟! وماذا يتبقى له من معنى الحياة وقيمتها ؟! أهان عليها إلى هذه الدرجة حتى تستحل فراشه بهذه البساطة ؟!

أقسم فى نفسه ولنفسه أنه لوكان يملك فى تلك اللحظة الرهيبة مسدسا لأفرغه فى رأسها ، أو لوكان بيده وسيلة أخرى للقتل لماتردد فى القضاء عليها هى ومن اختارته شريكا لخطيئتها الكبرى .

أحس أنه عاجز عن فعل أى شىء ، والغريب فى الأمر أنها دهشت حين رأته فجأة ثم عادت لبرودها كلوج ثلج أبيض فى تمام تماسكه ،وتحدثت بكلمات قليلة دون أن ينتابها احساس بالعار ، وبعدها أدارت له ظهرها ، وتركته ودخلت لتكمل نومها بشكل طبيعى ، فمازال الوقت مبكرا ،والنهار لم يفتح عينه بعد !

خرج شبه مطرود ، وسار فى الطريق ، ونيران مسعورة تأكل قلبه المذبوح ، وتملكه احساس غريب خليط من المذلة والتعاسة واليأس والغضب والرغبة فى الثأر ، لقد كان فى حاجة إلى من يثأر له ، فهو يحس أنه مخلوق خجول ضعيف هش عاجز تماما ،لايملك سوى الفرار والانزواء والإستسلام للقدر والبشر ، أما وقد تلقى الطعنة المسمومة فى شرفه وكبريائه ورجولته .. فماذا بوسعه أن يفعل ، وهو يترنح وينزف كجريح يحتضر ؟!

يكره المدينة وشوارعها الأسفلته النظيفة حتى لوكانت برلين بجلالة قدرها ،فهى متوحشة وموحشة قلبها من حجارة ، ويحب العزبة بلونها الأخضر ، ويظن أن النساء فى الريف لهن قلوب خضراء مثل الحقول .. المدينة صخب وضجيج وزحام ، والناس تدوس بالأقدام كل ضعيف ، والأبواب من حديد ، ومغلقة بألف قفل وألف مزلاج لايدرى لماذا ؟! عكس الريف فالديار مفتوحة ليل نهار لكل عابر سبيل غريب كان أوقريب لايهم مثل القلوب تماما مفتوحة دائما .

ذات مرة همست له أنجيلا فى الأيام الخوالى حين بدأت حياتها معه فى العزبة :

ـ لولاك ماجئت هنا .. أنا أكره الريف .. عزلة وملل وقذارة وطين وناموس ، لكنه لم ينتبه لإشارتها بأنها تعتبر عزبته المنفى القذر !

أحيانا كانت تثرثر عن ذكرياتها ، وغرامها بالسهرات والأضواء والحفلات والأصدقاء فى سنوات الصبا والشباب وحتى مرحلة الجامعة ، وظن عبدالله بسذاجته أنها مجرد ذكريات وأنها مرحلة وانتهت من حياتها للأبد لأن هذا هو التطور الطبيعى للحياة ، مراحل يعيشها الكائن الحى من فصيلة البشر ،وتمر بما لها وماعليها ، لكنها كانت تضمر شيئا خبيثا فى نفسها ، وهو غارق حتى أذنيه فى البحث عن ذاته ومجده الشخصى ، منهمك بالدراسات والأبحاث العلمية ، ويظن نفسه أينشتاين عصره !

آه .. كم كان مغفلا لم يفهم المرأة التى عاشت معه عدة سنوات تحت سقف واحد ، وأكلت معه فى طبق واحد ، وكانت أقرب إليه من حبل الوريد .

ياللحماقة التى عصفت به وبحياته ، ظن نفسه قد استقر فى جنة النعيم ، وفجأة فتحت جهنم الحمراء أبوابها ليجد نفسه من سكانها الأصليين .. ياللمصيبة التى تحل على الأغبياء من الرجال حين يعجزون عن فك شفرة النساء .. أقرب النساء .

كيف تجرأت وأقدمت على هذه الفعلة الشنعاء ؟!

كانت تتوقع منه ثورة جارفة لاتبقى ولاتذر ،كانت تنتظر منه عاصفة هوجاء .. كانت تنتظر أن يثأر لشرفه المسلوب ، وعرضه المسروق كرجل شرقى ريفى ، فهى تفهم رجال الشرق ، لكن أدهشها أكثر استسلامه التام إلا من نظرات اللوم ، والتحديق فيها وفى مايكل كالمعتوه الذى فقد عقله توا .

اكتفت بمراقبته بعين الحذر ، وهى تتحفز لماينوى أن يفعله لوتهور أوفكر فى فعل شىء جنونى ، لكنه لم يتهور على الإطلاق ربما لأن الأرض تلعب مع أصحابها بمنطق الساحرة المستديرة كرة القدم .

اللعنة على برلين وعلى ألمانيا كلها ، وفجأة نبتت فى ذهنه المشتت فكرة مجنونة .. لماذا لايلقى بنفسه من نافذة غرفته فى الفندق من الطابق العاشر فيستريح من هذه الحياة اللعوب ؟!

ومالذى يجعله يتشبث بحياة فارغة خائنة حالكة لايبدو منها بارقة أمل أوشعاع رجاء ؟!

وماذا يمكن له أن يأمل من حياته بعد هذا اليوم المشهود ؟!

عاد إلى عقله ، وعاد إليه عقله الرزين ، وتراجع عن فكرة قتل نفسه ، وتمتم فى سره :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك .

وبعدها استسلم لنوم عميق هادىء مطمئن .

****

(15)

عاد فراج أبودومة ينسجم مع الليل بصحبة رفاق السهر والسمر ،تعافى توا من صدمة الإخفاق فى إزاحة غريمه رضوان من طريقه ، وهاهو يستعيد من أيامه الماضية صورا قديمة متجددة ،يتحسر بحرقة على ضلاله ، وتسرعه فى الخلاص من صباح ، ويرى روحه مثقلة بالذنوب ، فكر فى أيامه حين كان يندس فى سريرها المتواضع فتمضى بهما الليالى الطويلة كأنها حلم جميل مسروق من الدنيا المتوحشة .. يسترخى فى مضجعها الحريرى باحثا عن رائحة الجسد الباذخ ، يفتش عن عناقيد الخطيئة التى يتوهم حملها فى حنايا روحه القلقة المتوترة .

يخرج من ذكرياته ، وينسحب من حسراته حين يأتى العشاء ساخنا طازجا محمولا على صينية فضية بيد أحد الخدم فى الدوار ، يتناوله بنهم مع مجموعة من الشباب الذين يشبهونه فى الصفات ،يتحدثون عن نعمة الليل حيث فيه السهر والستر ، وينابيع المتعة عكس النهار الذى لايجلب سوى الضجيج !

يستيقظ من خيالاته ، وقد طغى دسم الطعام على حواسه ، ويبحث فى شلته عن الأنس الضائع ، والحرمان الإضطرارى .. يفتش فى أرشيف ذاكرته عن صور جديدة تقيه الصور القديمة ، أمه الراقصة التى كان يراها دائما فى ملابس خفيفة شفافة ، وقمصان نوم وأزياء رقص شبه عارية ،وحولها رجال مستذئبون بعيون جوعى يلتفون حولها ،يتمنى أن يبدل صوره القديمة ، ويمحوها بصور جديدة دفعة واحدة ، يحلم بأن يولد من جديد طفلا بريئا بلوح أبيض بلاخطايا ولا آثام ، تخط الملائكة أمنياته على لوحه الأبيض بحبر سرى ..تتدافع فى رأسه الصور والوجوه التى يعرفها جيدا ،صورة جدته لأمه ـ الله يرحمها ـ التى كانت تأخذه إلى الحدائق والملاعب وحمامات

السباحة فى الصيف ،بينما أمه تكافح فى الملاهى والمراقص الليل بطوله ، وتنام النهار بطوله أيضا .. لاأحد يختار أمه .. تلك هى مشكلة كل من له أم !

الآن تختلط عليه الصور .. صور أمه على صور جدته على صور الخادمة .. كل الصور تأتيه فى الحلم من لحم ودم .. أمه التى صارت أشهر راقصة فى مصر ، قالت أمامه ذات حين حاولت جدته أن تهديها إلى طريق الله ..أنها ستكتب ذات يوم مذكراتها ، وتفضح فيها كل الأكابر والوزراء والمشاهير ونجوم المجتمع الذين راودوها عن نفسها ، وستكون تلك المذكرات تحت عنوان (أنا وأكابر الرجال) وتؤكد أنها كانت تستدعى فى بعض الليالى إلى قصور المشاهير الأثرياء ، ويأتون لها بشيخ جليل يتوضأ ثم يكتب لها عقد زواج عرفى مع أحدهم ثم يأتى هذا الشيخ اللامع على الشاشات والبرامج التليفزيونية فى الصباح ليطلقها ، ويبارك تقوى أزواجها الذين لاتستطيع حصرهم وربما لاتتذكر معظمهم ، وتضحك بصوت خليع وتقول .. ربما السبب أن ليلة واحدة لاتكفى !

ولعل أقلهم شأنا هو عمدة عزبة الحنكاتى عوض أبودومة الذى أنجبت منه ولدها فراج فى ليلة تعيسة ليتها ماكانت .

أما جدته لأمه فقد زارت بيت الله الحرام ، وطافت حول الكعبة وصلت كثيرا وبكت كثيرا فى سعيها وطوافها وصلاتها ،وزارت مدينة رسول الله ، وصلت فى مسجده الشريف ، وعادت صفحة بيضاء ، تصلى وتسبح وتستغفرربها أناء الليل وأطراف النهار ،وتصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع ، ومن حين لآخر تنظر بأسى وحسرة لابنتها أم فراج الراقصة الشهيرة ، وهى تهدم جدران العفة ،وتحطم الطهر فى صالات العهر بفنادق خمس نجوم ومراقص ليلية جهنمية ، وتدعو الله لها ـ بقلب أم ـ أن يتوب علي ابنتها من لعنة الرقص والمراقص والذئاب من الرجال ، وكفى ماحصلته فى رصيدها من ملايين الجنيهات مكدسة فى خزائن البنوك ، وكفى ماحصلته فى رصيدها من ملايين الذنوب مسجلة فى كتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها .

ولم تكن تلك الراقصة اللامعة تنوى أن تنزوى عن الأضواء والرجال والمال وبريق النجومية ،وتترك أمها تهذى وتخلط بين الأحاديث النبوية والأيات القرآنية ، فتبدو كبائعة الوهم فى صحراء خالية من البشر !

لقد تذكر فراج جدته الراحلة بأسى ومرارة وحنين ثم قال لنفسه أنه سيطلب الغفران لنفسه ولأمه التى لم تتذكر رحمة الله فى شبابها وجمالها وعنفوان أنوثتها ، ويعلم يقينا أنه سيأتى اليوم الذى تكون فيه أمه من التائبين الكبار فى التاريخ .. ربما تكون رابعة العدوية الجديدة فى يوم ما ، ولم لا وباب التوبة لايغلق أبدا ؟!

يختلط عليه وجه أمه فى ذهنه المشوش مع جلسائها من الرجال ، لم يعد يحتمل هذه الصور الراسخة فى عقله منذ سنوات طفولته المبكرة .. لاأحد يختارأمه تلك هى المشكلة !

تذكر آخر مرة رأى فيها وجه صباح ـ الله يرحمها ـ حين أعربت له عن حلمها المفضل فى ممارسة الحب تحت ضوء القمر ـ فى الليلة الأخيرة ـ دون أن تدرى أنها النهاية ، وذئاب الرغبة تعوىفى نفسها ، بينما تتهادى أمامه فى ملابسها الشفافة المثيرة ، وتنظر لتجاعيد بطنها بشىء من الضيق الممزوج بالسرورالخفى ،وتتحاشى النظر إلى تهدل ثدييها ، وتهمس له بهدوء ، وهى تلون شفتيها أمام المرآة بأحمر صارخ ، أنها تحلم بطفل منه يوثق حبهما ، وربما يمنحها الشرعية المفقودة !

استسلمت لحلم الأنوثة ، كما استسلمت لغريزة الأمومة مثل قطار سريع جامح دون مكابح لايعرف حجم الكوارث التى سيخلفها وراءه ،وبالفعل حدث ماحدث .. نامت أحلامها واستقرت معها فى قاع النهر ثم فى جوف القبر !

أحيانا يضبط فراج نفسه مستسلما لتأنيب من ضميره ، وهو يدعو لها بالرحمة والمغفرة والراحة الأبدية ،يفتح القرآن ويقرأ فى سره آيات من الذكر الحكيم عندما يزور قبرها خلسة ويجلس بالقرب منها .

استغرب اشتياقه إليها ، واستغرب تعلقه بالمرور على دارها القديمة التى تقف على حافة العزبة كأطلال ،وشاهد حزين على ماجرى لصاحبة الدار على يديه .

يستفيق من غفوته ، ويخرج من أرشيف ذكرياته ، وينتزع نفسه من دهاليز صفحات ماضيه القريب والبعيد ليتأمل رفاقه ، ثم ينظر محدقا فى حجاج صاحب المشورة الجهنمية بالإستعانة بعويس للخلاص من رضوان ، وسأله ساخرا لائما :

- قل لى ياحجاج من يكون عويس هذا الذى وصفته بالحيوان الكاسر الذى يقتل القتيل ،ويمشى فى جنازته ، ويقرأ له الفاتحة أيضا ؟!

ضحكوا جميعا وتصايحوا وتصاعدت القهقهات الممزوجة بالسعال ، وتلعثم حجاج قائلا :

- أنا سمعت عنه ولم أجربه من قبل فى أمر خطير مثل هذا .

بنبرة غضب قال فراج :

- كنا جميعا سنذهب للسجن بسببه .. عليك اللعنة أنت وهو .

تدخل آخر وأخرج دخان الشيشة من فمه وأنفه نحو السقف ثم قال :

- ياسيدى الحكاية كلها أن عويس هذا بدأ حياته تاجر بط ، واستمر عدة سنوات فى هذه التجارة حتى تراكمت عليه الديون لأصحاب مزارع البط ومحلات الأعلاف ، وتأكد من فشله الذريع فقرر التخلى عن تجارة البط ،ونقل نشاطه التجارى إلى تجارة الحمير ، وسارت الأمور معه على مايرام ، وتوسعت تجارته الجديدة فى سوق الحمير ، وزادت مكاسبه حتى وقعت الواقعة فتم القبض عليه وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات .

دهش فراج أبودومة وتساءل :

- لماذا سجنوه ؟! هل تجارة الحمير ممنوعة ؟!

عادت ضحكاتهم تتعالى وتصل أصداءها فى جوف الليل إلى أبعد مدى ثم قال أحدهم مازحا :

- لعلهم حسبوه حمارا هاربا من الحظيرة - أقصد الزنزانة - فأعادوه إليها !

بينما حجاج يبدو خجلا تكلم صاحب الحكاية مسترسلا :

- ياسيدى أقول لكم لماذا سجنوه .. وإذا عرف السبب بطل العجب ..ذات ليلة مشئومة أغراه أحد زملائه فى تجارة الحمير بالإشتراك معه فى سرقة حظيرة أحد الأعيان ، وكانت تلك الحظيرة ممتلئة بالأبقار ، وفيها مالايقل عن خمسين بقرة ، وظل يوسوس له بسرقة هذه الأبقار ، وبيعها فى سوق طنطا العمومى للمواشى ، وبذلك يحصلان على ثروة تغنيهما عن الحمير ،وتجارتها الهزيلة المكسب ، ومشاكلها التى لاتنتهى .

عندئذ استسلم عويس للغواية ، وأحس أنها عملية سهلة ومضمونة المكسب الهائل ، ولم لايفعلها ويستريح بعد ذلك من الحمير وأصحابها ؟!

وبالفعل استعانا بسيارة نقل كبيرة ، وقاما بحفر فتحة فى جدار الحظيرة وأخرجا منها الأبقار بكل سهولة ، وفجأة وقبل أن تنطلق السيارة ظهر حارس الحظيرة الذى كان نائما فى ركن هادىء من الحقل بعيدا بعض الشىء وصاح بهستيرية :

- حرامى .. حرامى .

وأطلق عدة رصاصات أصابت احداها زميل عويس ، وتم القبض عليهما فى حالة تلبس ، وبعد خروجهما من السجن قرر عويس أن يحترف القتل لعل حياته تتغير للأفضل !

فرك فراج يديه وتبسم ساخرا موجها كلامه لحجاج :

- بالله عليك .. قتل كم نملة هذا المجرم العتيد ؟!

ضحكوا جميعا وقال أحدهم مازحا :

- كان من المفروض على عويس هذا أن يجرب نفسه أولا فى قتل الحمير ،ولونجح ينتقل بعد ذلك لقتل البنى أدمين.

هز فراج رأسه وقال:

- سبع مهن وحياته محن !

تعالت ضحكاتهم وقال حجاج مبررا ومعتذرا :

- والله لم أكن أعرف أنه خائب خيبة الغريق الذى لايعرف السباحة فى النهر الهادىء الأمواج !.. لكن المهم أن المبلغ المالى طار من بين يديه ، وذهب إلى صاحب نصيبه ، وكاد يموت وهو يسلم الفلوس حسرة عليها !

قال آخر وهو يتخلص من زحام الدخان حول وجهه :

- تكون فى يدك وتذهب لغيرك .. كل شىء نصيب .

قال حجاج متهتها :

- عويس عمل فى عدة مهن .. تاجر وحرامى وماخفى أعظم .. لكن ماجدوى العمل إذا كان الفشل حليفه ، والخيبة القوية صديقته ؟!

قال آخر :

- يحاول أن يعمل أى شىء ليدبر لقمة عيشه ، ويكسب قوته ، ويعيش بكرامته مستورا .

انبرى فراج واعظا :

- ولماذا لايعمل الآخرون .. أليس لهم حياة ولهم أيضا كرامة ؟! ولماذا لاأعمل أنا مثلا ؟! ولماذا لاتعملون أنتم ؟! ولماذا لايتناوب الناس كلهم أعمالا مختلفة ؟! لماذا لايعمل الوزير خفيرا ، ويعمل الخفير وزيرا ؟!

لماذا لايعمل الناس كلهم دون استثناء فى تنظيف الشوارع ، وجمع القمامة ومسح الأحذية ، وتشجير الطرقات ؟! ولماذا لايعمل عويس كعمدة لعزبة الحنكاتى ، ويعمل عوض أبودومة بدلا منه فى تجارة الحمير أوحتى فى تجارة الكلاب ؟!

إن تقسيم العمل وتوزيعه وتبادله مهمة لابد منها لأن الجمود فى عمل واحد يعنى النهاية .. لماذا يلتصق الإنسان بمهنة واحدة حتى يموت ؟!

قال آخر بتلعثم :

ـ قيمة كل إنسان فى هذه الحياة يافراج فى مهنته ومايملكه .

هز فراج رأسه وقال :

ـ قيمتى كإنسان تتحقق فى إحدى الحالتين .. تناوب القيام بأعمال مختلفة ، أوحذف قيمة الفرد التى يكتسبها من مهنته .. أنا معك أنه لاقيمة لأحد بمقدار مالنا جميعا من قيمة ، كما أن التفوق الذى يتميز به شخص ما ـ رضوان مثلا ـ يمزقنى نصفين .. أنا لست أسوأ منه بل العكس هو الصحيح ، وحتى لوكنت أسوأ هم الذين جعلونى هكذا .

قال حجاج :

ـ لكن الناس فى العزبة تعاملك بقدر ماتملك .

ـ صدقنى ياصديقى .. وأنا أرفض تقسيم الأدوار فى الحياة كما هى حاليا ، وأرفض تقسيم العمل كما هو الآن لأنه مرتبط بالعبودية .. عبودية المرء لمهنته حتى لوكان قاتلا خائبا أوتاجرا فاشلا مثل صاحبك إياه !

الناس هنا تعاملنى حسب ماأملك بالفعل ، ومأأملكه لايساوى شيئا .. إن ذكائى أقل من ذكائهم لكنى أستغرب .. وأقول لماذا ؟! الجواب واضح بالطبع .. لقد أدركت اللعبة بعقلى ومازلت أعيشها ، نحن نعيش فى سيرك كبير ، نحن ندور مغمضمى العينين مثل الجاموسة فى الساقية .. إن واقعى اليوم لايختلف كثيرا عن ذكرياتى ، كلها خيوط متقاطعة .. عشت ومازلت وقد امتلأت نفسى بشىء من الحقد على أبى وأمى والمجتمع والناس أجمعين .. أريد أن أثأر لنفسى من الجميع بلااستثناء إلا جدتى عليها رحمة رب العالمين .

قال أحدهم مستفسرا بشغف :

ـ هل نفهم من كلامك أنك صرفت نظر عن فاطمة بنت عبدالعاطى ؟!

تنفس بعمق ثم أطلق زفيرا بحرقة :

ـ أظن أن الإنسان يسعى نحو مالا يستطيع تحقيقه ، وينجذب بشدة إلى المستحيل بالنسبة لإرادته ورغبته .. المستحيل مطلوب دائما .. المستحيل أمر ممكن .. ومايستطيع الإنسان تحقيقه ربما يكون قد حققه وعاشه بالفعل ولم يعد يجذبه أويشغله .. إن السعى نحو الصعب مثل الضوء ينتشر نحو الأماكن المظلمة بشكل أسرع .

لكن الغريب فى أمر حياتنا أنهم علمونا الخوف منذ الصغر .. قالوا لنا (مد قدميك بقدر غطاءك).. لاأدرى لماذا .. ربما حتى لاتخرج القدمين من تحت الغطاء فتبرد .. لماذا لانبحث عن غطاء آخر أطول ؟! واقع الحال أننا غرقنا فى الوهم وتشبعنا بالتفوق المكذوب ، وتضخمت ذواتنا بشكل كبير ، لاأدرى لماذا أخرجونا من قوقعتنا ووضعونا فى أرض وعرة مملوءة بالأشواك ؟!

إن التفوق مشروط بالخيال والإحساس بالهزيمة .. التفوق عباءة يلبسنا إياها الآخرون ، وبرغم ذلك نقاسى الإنكسار ، ونغرق فى مآسى بأيدينا وبأيدى الأخرين ، نغوص فيها بكل دناءة .. وإن كان الواجب الإنسانى يدعونا للترفع والتسامى .

فتح حجاج عينيه على كامل اتساعهما مستغربا مايسمع قائلا :

ـ كيف نتسامى فوق مآسينا يافيلسوف عزبة الحنكاتى ؟!

ضحك فراج ورد قائلا :

- سأخبرك ياوزير الغرام يامستشار السوء كيف نتسامى فوق مآسينا .. بمعنى أن نتجنبها ، ولانلتفت إليها وكأنها غير موجودة حتى لوعجزنا عن الهروب منها .

ثم سكت فجأة وكأن الخرس قد أصابه بغتة ، وكان بعضهم يراقبه مدهوشا ، وآخر يحملق فيه ويموء كقط سقطت من بين أنيابه قطعة لحم .

عاد السؤال يطارده من أحدهم :

- وماذا ستفعل يافراج مع فاطمة بنت عبدالعاطى ؟!

لمعت عيناه ببريق أخاذ ، دائما يبدو مأخوذا أومسحورا كلما سمع اسمها ، وهاهو يقوم من بينهم يقف لحظات ثم يعود فيجلس كأمير بين حاشيته .. نفسه مضطربة ، رياحه هوجاء ، عواطفه ثائرة ، رغبته فيها عارمة ، يتألم ولايتكلم .. ينظر إليهم ويستعرض ملامحهم الواحد تلو الآخر كما لوكانوا غرباء عنه يراهم لأول مرة .. وبعدها يخرج مسرعا مغادرا ،وسرعان مايعود حاملا حقيبة بلاستيكية فيها فواكه وخبز ولحم ويضع كل شىء أمامهم .. تتهلل وجوههم ، ويمدوا أيديهم ، يأكلون بشراهة الكلاب الجائعة ، لافرق على الإطلاق .. عالم الحيوان يشبه عالم الإنسان تماما ، وعالم الإنسان ليس أرقى من عالم الحيوان رغم الفوارق !

وقال فراج :

- لن أترك فاطمة أبدا وستكون لى فى يوم من الأيام ..أعرف أنها شجرة تين لن أذوق ثمرها قبل أن تؤلمنى أشواكها !.. أنا أنتظر وأترقب ولاأخشى شيئا لأن الحب اضمحلال لافكاك منه ولاخلاص .. لم تعرفوه بعد أنتم أيها البلهاء.. وأنا لم أعترف بعجزى بعد ، ولن يغلبنى اليأس منها ، ولن يمنعنى العجز عنها مهما كشر لى عن أنيابه ،وضحك ساخرا من حيلى الفاشلة حتى الآن ! لن أتركها كما ترك أبى العمدة أمى الراقصة رغما عنه ، والدى الذى خاب سعيه فى الإحتفاظ بها ، وتاه فى صحراء خيبته اللانهائية بسبب إلتصاقها بعالم غريب ، وأضواء مبهرة مزيفة تصيب بالدوار .. ومرت السنوات حتى جرنى وراءه مثل كلب الراعى إلى هنا ليستقر بى المقام معكم أيها الأوباش فى عزبة الحنكاتى !

بدا الفجر قريبا ، وإن غابت تباشيره فى غبشة الحد الفاصل بين الليل والنهار ، وقد امتلأ رأس كل واحد منهم بخيالات تجعله يحلق فى السحاب العالى ، وأجسادهم تترنح أمامه ، وعيونهم حاجظة محمرة كقطع الجمر المشتعل ، وفور أن خرجوا للهواء الطلق لفحهم البرد بإبرة الحادة توخزهم فاستفاقوا بعض الشىء .

ويظل صاحب الدار والدوار يفكر فى حاله ، وينتابه احساس بأنه عدم لاوجود له .. فلاهو إنسان ولاهو جماد ولاهو حيوان .. أنه مجرد شىء مهمل ، وإن عكس ذلك للناظرين والحاسدين والبائسين الذين يظنون أنه أسعد سعداء العزبة .. ولم لا أليس ابن العمدة وعنده كل ماعنده ؟!

أما هو فيحسب نفسه ليس له محل من الإعراب فى كتاب الحياة ، هو مجرد عفريت خرج من علب الليل ، وظهر فى نهار العزبة ، ويحسبونه بالخطأ إنسان ! عفريت يسكن الفانوس ، وهذا الفانوس لاهو مطفأ ولاهو مضاء .. لهذا هو عدم .. جاء من عدم إلى الدنيا رغما عنه ، ولم يأخذ أحد رأيه ، ولم يسأله أحد إذا أراد أن يكون كائنا بشريا أم يبقى عدما فى علم الغيب أومجرد كرسى خشب قديم أوشجرة على رأس أرض خضراء أوحتى عجفاء ! أنجبوه وتركوه يسعى ويبقى عدما فوق الأرض .

مابيده شىء .. كل شىء بيد الله وقدر الله ..العفريت يحاول أن يخرج من الفانوس ، وإن لم يستطع سيحطم الفانوس أويحطم نفسه.. لايريد أن يبقى عدما وهو حى يرزق .. لايريد أن يبقى كائنا هامشيا فى كوكب الفلاحين !

****

(16)

بعد أن زالت حرارة الشمس ، وانسحبت إلى أطراف السماء الملامسة لجريد النخل العالى الذى يحيط بالعزبة احاطة الإسار بالمعصم ، شعر رضوان بالدموع تنساب على خديه ، فرفع كفه ليمسحها برفق ، ومرة أخرى عاد إلى داره بعد أن كتب الله له النجاة من رصاصة قاتلة ، ورأى الأرض بساطا أخضر ، والنهر عسلا ينساب فى مساره الطبيعى منذ ألاف السنين كأنه يراقب الناس ، ويشهد على الأحداث ، ولكن شيئا مايربط قلبه بهذه الأرض الطيبة ونخيلها ، واحساسه بالبلد حين يمشى فى شوارعها ، ويتأمل ديارها كاحساسه بفاطمة ملاكه الحارس تحوم حوله .

إن شعوره هذا لايقل عن شعوره بحضن أمه حين يرتمى عليها فيشعر باتساعه وعمقه وحنانه ،ومثل شعوره بهيبة أبيه ـ الله يرحمه ـ وسيره وسط الرجال فارها بجلبابه الصوف ، وعمامته الوضيئة فيستمد من وجوده الراحة والأمان ، وفجأة سمع صوت فراج أبودومة فاستفاق مرة واحدة من شروده ، وأفكاره وتأملاته ، وغاصت أحاسيسه ليراه أمامه بجسده الربعة ،وبنيته المدكوكة الصلبة فوق مدار الساقية التى تظللها شجرة توت ضخمة عتيقة ، وتفرد أجنحتها الكبيرة على المكان كله ، وإلى جواره رجل يتلفع بعمامة ناعمة بيضاء ، ويتحسس جلبابه الرمادى الخشن بيده عند صدره .

قال فراج وهو رابض فوق حصانه الأشهب :

ـ حمدا لله على سلامتك يارضوان .. مازال فى عمرك بقية !

غمغم همسا بصوت هادىء :

ـ الحمد لله ..قدر ولطف .

القى نظرة أخيرة على الأرض الخضراء ، واقترب منه الرجل ذو العمامة ، وتسلق المدار ، ومد يده الباهتة الخشنة مصافحا رضوان .. وما كانت هذه اليد إلا يد شيخ الخفر عبدالهادى الفار .

أثناء عودته إلى داره من تلك النزهة القصيرة خارج جدران ديار العزبة إلتقى صدفة على الطريق الموازى للنهر مع فاطمة التى كانت عائدة بعد أن ملأت جرة الماء من النيل من أجل الشاى الذى يفضله والدها الحاج عبدالعاطى بمذاق ماء النهر .. هذا مزاجه والناس فيما يشربون أمزجة !

جمعتهما الصدفة وحدها ، عانقها بحرارة لأول مرة فى حياته ،فبدت خجلى مثل كل العذارى ، رأت هزاله وضعفه ومآل إليه حاله ، فحدثته فى هذا الأمر ، وأكدت عليه أن يهتم بصحته غير أنه تجاهل الأمر ، واكتفى بابتسامة وهو يدارى ارتباكه من خجلها قائلا :

ـ هل يعقل أن أراك بالصدفة يابنت خالتى بعد خروجى من المستشفى ؟!

ردت وهى تضع عينيها فى الأرض حياء :

ـ ربما صدفة أفضل من ألف ميعاد ياابن خالتى .

ـ ابن خالتك فقط !

ازدادت خجلا ولمعت عيناها ثم همست :

ـ أنت تعرف كل شىء ، والعارف لايعرف يارضوان .

قال وهويمسك يدها ويحس بنعومة ملمسها :

ـ إن حياتنا مجموعة من الصدف .. لعل الحب أجمل الصدف .

ـ ياترى صدفة طيبة أم العكس ؟!

أكمل حديثه بينما سحبت هى يدها من بين أصابعه برفق :

ـ إن الحياة كلها صدفة كبيرة ، يخططها الحالمون ، ويبكى عليها السذج ، ويقدسها المؤمنون الذين يتخذونها سبيلا إلى الجنة ، ولايعيشها فى نهاية المطاف سوى الحمقى !

ـ من تقصد بالحمقى ؟!

ـ لأحد .. إنما أتحدث فى العموم .

ـ أعرف يارضوان يابن خالتى من تقصد .. ألاتعرف أننى أقرأ أفكارك ؟!

ـ ياسلام عليك يافاطمة .

قاطعته قائلة :

ـ تقصد فراج أبودومة وشلته بالطبع .

باغتته بماقالت واختفت ابتسامته التى حلت محلها تكشيرة ثم قال :

ـ قابلته منذ دقائق .

شهقت وهتفت بشىء من الخوف :

ـ قابلته .. أين ؟!

ـ هناك عند الساقية القديمة ،وشجرة التوت العتيقة .

ـ ولماذا قابلته ؟! ألاتدرى أنه يضمر لك شرا ؟! وأظن أنه وراء محاولة قتلك يارضوان .

هز رأسه قائلا :

ـ صدفة .. ألم أقل يافاطمة إن أشياء كثيرة فى حياتنا تحدث صدفة ؟!

سارا متجاورين كعصفورين عاشقين ،، امتد الصمت بينهما ، ومن خلاله بحث كل منهما منفردا فى جمع شمل الذكريات من ذهاليز صندوق الذاكرة ،ثم إنتقلا إلى المستقبل حين قالت فاطمة :

ـ أمك التى هى خالتى تحدثت مع أختها بشأن زواجنا .. مارأيك ؟!

عادت إليه ضحكته المرحة قائلا :

ـ ألم تخبرك خالتك أننى الذى أرسلتها إلى داركم ؟!

ـ ولماذا لم تخبرنى ياابن خالتى ؟!

ـ أخبرك بماذا ؟!

بنبرة خجل ممزوجة بسعادة لاتستطيع كتمانها :

ـ زواجنا ..

ـ الناس كلها فى عزبة الحنكاتى تعرف أن أمر زواجنا لابد منه منذ كنا صغارا نلعب سويا ، ونذهب للمدرسة سويا ولانكاد نفترق إلا للنوم .

ـ لايهمنى يارضوان الناس ومايعرفونه أويقولونه .. المهم أنا وأنت .

ـ قريبا يافاطمة ستكون لنا حياتنا وحدنا .. قريبا تدخلين القفص .. عصفورى الجميل سيدخل عشه الجديد لكى يغرد فيه لى وحدى ويملأ على حياتى بهجة .

ـ أتحب العصفورة ؟!

ـ الناس يافاطمة فى عزبتنا دائما يحاربون العصافير ، ويريدون ألاتكون هنا عصفورة واحدة ، ويتهمون العصافير البريئة بأنها تسرق أقواتهم سواء كانت تلك الأقوات من الحبوب والغلال فى سنابلها أوفى الحقول أومايخزنونه فى الشونة الكبيرة .

ـ وأنت ياابن خالتى .. أتحب العصافير أم تعلن الحرب عليها مثل الآخرين؟!

ـ أعوذ بالله .. أحب العصافير بالطبع .. وأستطيع منذ كنت طفلا أن ألهو مع الطيور بشكل عام ، وكنت أنت معى يافاطمة فى كثير من الأحيان ، وعندما أراها فى الحقل تأكل الحبوب ماكنت لأطردها أبدا ..وكنت أميز العصفورة من اليمامة من الحمامة من الهدهد ، وأحب أن تقترب العصافير من الأرض وتأكل من سنابلها ، وأقف أراقبها وأتأملها بحب واعجاب ، وأحيانا لاأقترب منها رغم حبى الشديد لها حتى لاتخاف وتهرب ،أهوى مراقبة المنقار الصغير ،وهو يبحث عن حبات القمح الذهبى الزاهى ، وأعرف أنه فى اللحظة التى سأرفع فيها العصا التى فى يدى كى أضرب على صفيحة قديمة صدئة فى يدى الأخرى ستطير العصفورة فزعة .. عندئذ أتباطأ فى الطرق على الصفيحة ، وأتشاغل عنها حتى تأكل وتشبع !

يبتسم ويسكت ويدور بعينيه نحو الشجر الشاخص على حافة النهر ، ينظر إلى طيور شتى تشكل شبكة متحركة فوق الأشجار ، وترسو أحيانا فوق الماء ثم تعود للتحليق فى الهواء بين الأرض والسماء ، وحين اقترب الغروب ، وآن للشمس أن تأوى إلى غرفة نومها قال مشيرا بيده :

ـ أنظرى يافاطمة .. العصافير تأوى إلى أعشاشها .. كل زوجين يذهبان معا إلى عش واحد بينما أنا الآن فى طريق وأنت فى طريق .. مازلنا نفترق عكس العصافير .

فهمت فاطمة مايرمى إليه وقالت :

ـ أيام قليلة وتسكن كل العصافير أعشاشها .

ـ يارب .

أرجو ـ ياابن خالتى ـ أن يفرد العصفور جناحه على عصفورته مثلما نرى على شجرة الصفاف أمامنا .

ضحك لذكائها قائلا :

ـ أخبرى العصفورة أن تطمئن وتأمن لأنها ستجد كل الحنان فى عشها .. فالعصفور ليس غريبا عنها .. العصفور من لحمها ودمها وريشها أيضا !

ـ آه فهمتك ياابن خالتى .

ثم غيرت مجرى الحديث ، وبدأت تسأل عن داره ، والطابق الثانى الذى ستسكنه ، وهل إنتهى من إعداده ..رد عليها بالإيجاب .

فى تلك الأثناء تطاير الخبر فى أنحاء عزبة الحنكاتى ، ولاشىء يمكن مداراته حتى دبة النملة يعرف بها القاصى والدانى ، ويحرص أهل العزبة على الإعلان حتى يسارع من يريد المجاملة أن يقدم الهدايا ، ومن يريد أن يسدد دينا عليه ، أويرد مجاملة سابقة .

لقد حددوا يوم الخميس القادم موعدا لعقد القران والزفاف ، يالها من لحظة فارقة ، وكعادة أهل العزبة فى مثل هكذا مناسبات سادت الفرحة بين الجميع إلاقليلا ..فالجميع كأنهم أسرة واحدة تربط بينهم علاقات القرابة أوالجيرة والصداقة أوالمصاهرة باستثناء شخص واحد لم يسره هذا الخبر الذى شاع وذاع فى البلد كلها ، زمجر وسب ولعن .. وتملكه الغضب .. لكن مابالبد حيلة .. ماذا بمقدوره أن يفعل بعد كل مافعله ؟!

يبدو أنه موعود بالتعاسة ولو فكر فى خطوة متهورة ربما يفتضح أمره وتكون نهايته ..إن الله لن يستره فى كل مرة ، ولكن لماذا تخاصمه السعادة وتتمنع عليه ؟! هل حظه هكذا .. أم أن السعادة نصيب ؟!

إن الحب يحدث فجأة كما تمطر السماء فجأة .. لكن السعادة لاتحدث فجأة مثل الحب لأن السعادة تتطلب نضالا طويلا شاقا.. إنها ثمرة مصارعة المشكلات.. كما أن إن البهجة لاتنبت من الأرض كما تنبت الأزهار والأشجار والثمار ،إن السعادة حديقة واسعة ممتدة مفروشة بالأشواك والخيبات !

لم يستطع فراج أبودومة أن يبقى فى العزبة ، ويسمع الزغاريد والأهازيج والطبول ليلة زفاف فاطمة أجمل بنات العزبة إلى فتاها رضوان ابن خالتها المحظوظ .

أحس فراج بالقهر والذل ، وضربه التخدير الطبيعى الذى يصحب الكوارث الكبرى والمحن العظمى ، وقرر الهرب إلى الأسفلت حيث المدينة القاهرة ، وحيث الزحام والأضواء والبيوت العالية الحجرية .. هناك فى تلك المدينة القاهرة عند أمه يبحث عن سلواه ومثواه من الحزن العظيم الذى استوطن قلبه !

هاهو يشعر أن السعادة عصية عليه لئيمة تراوغه ،ولاتستسلم له أبدا مثل امرأة لعوب ، ويكاد يؤمن أن السعادة تختبىء منه وتتمنع عليه فى مكان ما حصين لايمكن الوصول إليها مهما فعل !

خطر على باله كلمات كان يهذى بها أحد أفراد شلته مواسيا إياه بعبرة وعظة :

ـ الرجل العاقل لايجزع أبدا على امرأة ضاعت منه مهما كانت هذه المرأة لأنها سلعة معروضة فى سوقها وعليه أن يبحث فى السوق عما يرضيه ويعوضه !

هز فراج رأسه غير مصدق تلك الهلوسات معتبرا أن المرأة توجد مرة واحدة فى حياة الرجل ، وكذلك الرجل يوجد مرة واحدة فى حياة المرأة ، ماعدا ذلك ليس إلا محاولات تعويض !

تنهد الفتى طويلا وشد رحاله إلى القاهرة عساها تبدد قهره ، ولسان حاله يواسيه .. ويقول له .. لاتحزن على نجمة ضاعت منك ، فالسماء مليئة بالنجوم ، ولولم تكن من نصيبك إحداهن فمن يدرى ربما يكون القمر هو نصيبك !

أصوات الأهازيج والزغاريد ترن فى أذنه صرخات ونواح ، خطر على باله أن يحمل سلاحه ، ويذهب إلى دارها ،وتحت تهديد السلاح يحملها إلى دواره ثم يأتى بالمأذون ويتزوجها ، فالسلاح مغرى يعطيه جرعة شجاعة منقطعة النظير ، ويقوى قلبه .. هذا أمر طبيعى فعندما يمسك المرء بالشاكوش سيرى كل الناس مسامير !

تراجع فجأة عن جنونه وتهوره ، وكظم غيظه ، وأغلق عينيه على دمعة لم يمنعها المال والأرض من السقوط على خده ،وظل يعانى برغم أنه أغنى أهل العزبة .

إن الحياة ذاتها نوع من أنواع المعاناة ..يعانى الأثرياء كما يعانى البؤساء ..يعانى الأثرياء بسبب ثرائهم ، ويعانى الفقراء بسبب عوزهم ،ويعانى المحروم من الحب كما يعانى من يحب ، ويعانى من لديه أسرة كما يعانى من يعيش بلاأسرة ، ويعانى من ينشدون المسرات الدنيوية كما يعانى من يتعففون ،ويستنكفون عن المسرات الدنيوية ،وليس معنى ذلك أن أنواع المعاناة متساوية كلها .. لا والله بالتأكيد هناك معاناة أشد ألما من معاناة أخرى ، وتبقى الحقيقة المؤكدة أن الجميع يعانى بلااستثناء .

وفى طريقه لأمه ملأ الإنفعال وجهه المكور وسأل نفسه :

ـ إذا كانت الدنيا سوق ، وكل شىء فيها بثمن .. فلماذا عجز عن شراء الحب ؟!لماذا استعصى عليه قلب فاطمة ؟!

تأمل من نافذة القطار مساحات ممتدة فى الفضاء .. راقب السماء شاردا يفكر فى العدم ، كان فى السماء سحاب غامق ، وخمائل الغاب والأعشاب والأشجار تتماوج مع ريح لينة لم تشتت شمل مجموعات الطيور التى تحلق فى سماء المنطقة ، والقطار يهرول بلاقلب قاطعا المسافة بين قلبين أحبهما واستعصيا عليه أمه وفاطمة ، وكل شىء حوله يوحى بالجفاف والقسوة وحدوث أشياء غريبة .

أغمض عينيه وصوت القطار يهدر فى رأسه ، ويظن أن القطار أفضل منه لأنه له محطة .. أما هو فيسير بلاهدف ولامحطة .

كان يظن بغروره أن الحياة لاتستطيع أن تأخذ منه شيئا لكنها بالفعل أخذت منه كل شىء .. أمه وفاطمة .

عادت صورة صباح تطارده ، وها هو شبحها يخيفه .. أحيانا لايستطيع القاتل أن يتخلص من المقتول حتى لودفنه تحت الأرض السابعة أوفى قاع النهر !

ثم راح فى غفوة ذات طعم نادر تشبه توقف تيار الحياة بالموت ، فقد استهلك الفكر والحزن ماتبقى من قواه .

حتى صباح التى قضى منها وطرا ، وتخلص منها تأبى أن تتركه فى حاله كأن روحها معذبة وتتعلق فى رقبته ، رغم أنه اعتبرها ساقطة قيد فى دفتر الشرف المعروف .

كان القطار يهتز يمينا ويسارا كأنه يمشى على الأشواك ، أخذ يتنفس جو عرباته الخانق ، وأصوات غريبة متداخلة تبعث الجلبة النحاسية فى هذا السكون المستتب ، ثم تسود ظلمة رقيقة كظلمة أركان الأضرحة رغم أنه بجوار النافذة ، فالليل قد جاء وأخفى الشمس فى جلبابه الواسع ، التهمها كما التهم النهر جسد صباح !

فى تلك الليلة التى يراها قريبة ويرونها بعيدة برغم أنها لاتبعد عنه أبدا .. سبحان الله .. الإنسان لايشعر بالأسى عندما يكتشف أهمية أى شئ كان يعتبره عاديا قبل أن يفقده - بتدبيره أورغما عنه - تجرى غصة المرارة فى حلقه ، وهو مايحسه الآن .

صوت الزغاريد ابتهاجا بفرح فاطمة ورضوان يدق فى رأسه كالمطارق ويختلط بأزيز عجلات القطار ، وهى تلاطم حديد القضبان ، وفى رأسه أصوات أخرى مسعورة مثل الكلاب الجائعة تعوى فى كل زاوية من زوايا رأسه الكبير فتكاد جمجمته تنفجر ،يمسك رأسه بين كفيه ويضغط على أسنانه بأسنانه بغل عساه يرتاح من المعاناة .

لافكاك من المعاناة لكل كائن حى على وجه الأرض ، وهاهى الرياح تجرى أمام عينيه كما أرادت لها السفن ، ولايستطيع أن يفعل شيئا ، ولوكان فأرا لكان أكثر أثرا - على أقل تقدير - يمكن للفأر أن يقرض خشب السفينة ويعطلها عن السير فى مسارها وربما يتمكن من إغراقها .

عندما وصل إلى أمه استقبلته بالأحضان ، وصرخت من لهفة الأشواق كأنها كانت قد فقدت الأمل فى رؤيته ، لاحظ الثراء الفاحش الذى تعيش فيه ، والعز اللامحدود الذى تنعم به ،تسكن قصرا واسعا فخما بأثاث فاخر ، وحديقة مترامية الأطراف تحيط بالقصر ، وكتيبة من الخدم والعمال والطهاة فى ملابس أنيقة يترقبون أى إشارة أوايماءة لتلبية مايؤمرون به منها ، لم يحب هذه الرتابة ولايعجبه هذا النظام ، أنه يعشق الفوضى ، ويحس أن هؤلاء الذين يتناثرون فى أرجاء القصر كلهم عيون تراقبه .. مجرد عيون ، ليس مهمتهم خدمة أهل القصر فحسب بل مراقبة الجميع ،وهو لايحب أن يكون تحت رقابة العيون المتطفلة ، يهوى التخفى والإستمتاع بخطاياه بعيدا عن العيون ، لذلك هو كائن ليلى ، ويسعد بالليل مثل الخفافيش .

كان الظلام قد لف ذلك البناء الشاهق الصامت ، والأضواء التى تحيط به وتستقر فى الحوائط والأسقف ، وتنتصب على أعمدة فى الحديقة الفسيحة تجعل الدنيا نهارا، والنفس البشرية التى تسكن فراج يستهويها الخفاء أكثر مما يستهويها الوضوح .

أعطت الأم الراقصة - المعتزلة مؤقتا لدواعى منصب زوجها الوزير ومركزه الإجتماعى - التعليمات للعناية بولدها الذى جاءها بعد غياب طويل ، فجاءوا بوليمة كبرى من ألذ وأفخم المأكولات ، وعاملوه كملك متوج .

لاحظ أن أمه تراقبه هى أيضا .. تراقبه بحب .. وكأنه كائن غريب غير مألوف هبط عليها فجاة من كوكب آخر ، وليس ابنها الذى من روحها ودمها .

ارتبك قليلا ، وأدرك مشاعرها ، وعمد إلى اللامبالاة كى يستريح ويريح ، ولن يستطيع أن يغلق العيون التى تحيط به فى هذا القصر الحصين ، وتراقب الشاردة والواردة .

أحس بالغربة تحت جناح أمه ، تتصرف فى كل شئ حولها مثل ساحرة بارعة ، ودائما فى حياتها رجل ما ، ويظن أنها لن تستطيع أن تعيش يوما واحدا بلارجل ..امرأة تتنفس الرجال .. شهيقها رجل وزفيرها رجل ، ودائما الرجل يقف فى الظل وتتصدر هى الصورة .. وتنقلب الحياة رأسا على عقب حين يسكت الديك وتصيح الدجاجة !

وبنبرة تردد سألها عن زوجها الوزير المهم فردت بمكر :

- عنده مسئوليات كبرى فى أماكن أخرى .

- آه ..طبعا ..مفهوم طبعا .

- هل تريد منه شيئا ؟!

ـ لا .. أبدا لاأريد شيئا على الإطلاق ..

ـ عموما ستراه ياحبيبى لوبقيت معنا هنا .

هز رأسه وقال :

ـ أنا أراه على شاشة التليفزيون ..دائما فى مؤتمرات وإجتماعات .. كان الله فى العون .

ثم همس لنفسه مغمغما بشىء من الضيق دون أن تسمعه :

ـ ملعونة هذه الحياة ..وملعونة هذه السعادة وهذا الثراء فوق حطام إنسان ، ولوكنت أستطيع أن أرجمك ـ بحجر كريم ـ لرجمتك ياأماه .

إن تحمل نقائص الآخرين شىء فوق طاقته حتى ولوكانت أمه بين هؤلاء الآخرين ، ولايستطيع أن يحتمل نقائص نفسه هو أيضا .

****

(17)

إذا خضع الرجل وإستبدت المرأة ، وطغت عليه تحت راية الحرية والتمرد ، فالعلاقة بينهما إلى زوال ،هذا ماتعلمه الدكتور عبدالله حبيش حين عاد إلى قصره فى عزبة حبيش حيث النهر فى مكانه لايغير مجراه أبدا ..حيث الوطن والأرض والنخل ..آمن الرجل بأن الوطن هو المكان الذى تطمئن قدماه فوق أرضه ، وفيه تراب الأجداد .. هنا عاشوا وبصماتهم على وجه الأرض وفوق صفحة النهر ، وتشهد عليهم أشجار النخيل عالية القامة .

كان رجلا غنيا يسكن قصرا جميلا وسط واد أخضر فسيح ، ولكن مع ثرائه ومركزه المرموق وشهرته التى تملأ الأفاق وصوره كعالم جليل تزين مساحات فى وسائل الإعلام المختلفة ، فقد كان كنزه الحقيقى الذى يخاف عليه ويفخر به هو اسم عائلته (آل حبيش) وهو آخر هذه السلالة ويخشى أن تنقرض، وهذا وارد أليس هو بعقيم ؟! لكن الله قادر على كل شىء رغم أنف الأطباء والنظريات العلمية .

فى كل الأحوال لولم يحمل اسم العائلة (ولد أوبنت) فهناك المكان الذى له الخلود (عزبة حبيش)، فالناس إلى زوال والجميع راحلون ، والفناء لن يترك شيئا يتحرك على وجه الأرض إلى ونال منه وأفناه ، وحوله إلى عدم معدوم ،لاشك فى أنها إرادة الله ، وإيمانه لايتزعزع بأن الله لايعطى الإنسان كل شىء ، وإلامامعنى حياته الدنيا ؟! ولماذا يسعى فى الدنيا إذا كانت الأنهار تجرى من تحته والثمار على باب فمه ؟! ولوكان الحال فى الدنيا رغدا ونعيما لماسعى الإنسان إلى جنة الله فى الآخرة .

إن الله سبحانه وتعالى الكمال كله وله الحكمة التى لايدركها الإنسان ،الذى هو النقصان كله ، وعليه أن يرضى .

بالفعل استسلم لنصيبه ورضى بقدره بل وسعد بحاله ، ويكفى أنه يملك مالايملكه كل أهالى عزبة حبيش ولواجتمعوا بمايملكون ، ودائما يده ممدودة لهم بالخير والإحسان لأن أغناهم فقير .

رضى عبدالله بكل شىء إلاالمرأة كرهها كراهية التحريم ، وطردها من حياته كما لوكانت إثما يمشى على قدمين ، وكبيرة من الكبائر عليه ألايقربها .

كيف احتمل برودتها كل هذه السنوات ؟!وكيف احتمل برودة بلدها ؟! وكيف أصبح أكثر غربة فى هذا البلد الغريب حين ذاق طعم الغدر بخنجر فى الظهر ؟! مزقت كرامته وداست رجولته وألقت بشرفه على قارعة الطريق !

آه من المرأة والحياة .. وفى الحياة غصات أنواع .. فيها الموت وهوالغصة العظمى لكل كائن حى ، وفيها المرض وفيها الخيبة فى الحب .. وفيها الخيبة فى الزوجة والأبناء .. خيبات كثيرة ، منها الشمس التى تحرق الوجه، ومنها البرد الذى يشل الأطراف .. منها الكذب والدموع والهجر والخيانة .

فى الحياة غصات كثيرة ، وخيبات أكثر لكن من يستطيع تحملها ؟!

إن كانت شرا وإن كانت خيرا على المرء أن يتحملها مادام لايستطيع الإنتحار ولايملك شجاعة الإقدام عليه .. فلابد من الصبر ولابد من الصمود والبطولة فى التصدى للخيبات بكل أنواعها .

ولكن الغصة الكبرى هى الوقوع فى هوى حواء ثم تأتى الخيانة .. ولونال ألف امرأة أخرى شريفة طاهرة بعد امرأة واحدة خائنة تبقى الغصة فى حلقه بمرارتها العمر كله ،وتظل تلاحقه الحسرة وتباغته بوجهها البشع ، ويرى الرؤيا من جديد ، وتستجد الحسرة مرات ومرات .

ماعاد يحتمل النساء ، ولايطيق أن يرى واحدة من الصنف الناعم زورا وبهتانا ، وإن كانت فيهن نعومة فهى نعومة نصل السكين الحاد .. نعومة جلد الأفعى قبل أن تنتفض وتنفث السم فى شرايين ضحيتها .

صار يريد الخلوة ويبغى الوحدة ، يريد أن يغمض عينيه ويفتحها فلايرى أثرا للنساء على كوكب الأرض ويريد ألايعرفه أحد بإسمه أووجهه ، واحد من مليون .. واحد من البسطاء المجهولين يصطدم به المارة فى الطريق ولايعرفونه يتمنى أن يحدث هذا ولكن هذا مستحيل .

هل كانت أنجيلا التى أحبها وعاشرها حبا وكرامة عدة سنوات شبحا أم حقيقة راسخة ؟! عرفها فى البداية تتراقص ابتسامتها على شفتيها ، ووجهها الأبيض الشمعى الناصع فضاح وضاح يصرخ بمايستر وراءه .. عيناها جريئتان لاتعرفان كتمان السر ، رموشها السوداء الطويلة تكحل الحدقتين ، وإذا هما كعيون المنحوتات السومرية القديمة تفيضان شوقا وهياما ومباشرة ،كان وجهها الثلجى الأبيض الناطق بكل مالديه من نظرة واحدة ، إنه وجه المأساة فى أبهى صورها .. الوجه الذى يلاحقه إلى الأبد ملاحقة الليل للنهار وملاحقة النهار لليل .

ظل هذا الوجه البرىء الجرىء المباشر دائما ، الماكر الثعلبى المراوغ أحياناأخرى يلاحقه - رغم كل مارأى بعينيه - أنساه أياما وأزعجه أشهرا .

يطارده ويباغته ويغرقه فى غمرة من الأسى ، أنه الحب الذى تبخر كالسراب ، الحب الذى كان عظيما مثل سمات العظماء ، وحين رأها فى أحضان رجل آخر تمنى أن يصاب بالعمى ،ولايرى مارأى ،تمنى لولم تكن هناك ، تمنى لولم يكن هوهناك .. تمنى لواستطاع أن يهرب ، تمنى لو استطاعت هى أن تهرب .. ولكن هاهى راسخة كالجدار ، ملتوية متقلبة كالنهر ، شاخصة عنيدة كالمارد أمامه .. تمثال حى مصنوع من شهوة وشوق وعبث وجنون وطيش ، لاشىء يكسر الرجل إلاعبث المرأة .. لاشىء يقتل الرجل إلا طعنة غدر من امرأة ، لاشىء يهزم الرجل إلاامرأة اختارت الخيانة سبيلا !

اعتكف فى قصره المطل على النهر العظيم ، وكأنه درة التاج فى عزبة حبيش ، لم يكن متحمسا للقاء أحد ، بل كان زاهدا فى كل شىء ، كارها لكل شىء ، ناقما على كل حواء ، طلب الإعفاء من منصبه ، دهش رئيس الحكومة ورفض استقالته ، واكتفى بمنحه أجازة شهرا واحدا كى يتطهر من ألمه ، ويلتئم جرحه ، وأصدر

تعليماته لعبدالصبور خادمه فى القصر أن يمنع تماما دخول جنس أنثى للقصر مهما كانت الظروف والأسباب ، بهت الذى سمع وتساءل الرجل مستغربا :

ـ ومن يطهو الطعام يادكتور ؟!ومن يغسل الثياب ؟! والمرأة التى تأتى مطلع كل شهر بالقشدة والجبن القريش والعسل الأبيض وغيرها وغيرها ..ماذا أفعل معهن ؟!

صاح فيه محذرا :

ـ اسمع ياعبدالصبور .. أقسم برب الكعبة لوعرفت أن امرأة ما دخلت القصر لأى سبب سيكون آخر يوم لك هنا .

ـ وإذا جاءت امرأتى للقصر يادكتور عبدالله هل أطردها ؟!

ـ قلت لك هذا القصر محرم تماما على كل النساء .. أظن كلامى واضح ومفهوم .

هز عبدالصبور رأسه مستسلما وقال :

ـ أمرك يادكتور .. لكن ..

قاطعه بضيق :

ـ لاتتكلم كثيرا ..عندما ينتهى الرجال من الدنيا تستطيع أن تستعين بالنساء للطهى والكنس والغسل وغيرها من الأمور .. إن الرجل أفضل ألف مرة من المرأة فى المهن التى تظنها حكرا على بنات حواء !

فهم عبدالصبور بخبرة السنين أن هروب امرأته الألمانية سبب عقدته من حواء .. لكنه لم يكن يتوقع أبدا أن يصل إلى هذا الحد .

عاد يكرر بحزم :

ـ لاأريد أى أنثى تخطو داخل حديقة القصر ياعبدالصبور .

رضخ الرجل واستجاب مكرها على أمل أن الزمن قادر على أن يغير كل شىء ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .. فلاشىء يبقى على حاله ، وانهمك الرجل يفكر فى كيفية أن يزف هذا الفرمان العجيب إلى كل امرأة تتعامل أوتعمل فى القصر وشئونه ، وتأكل عيشها وتكسب رزقها منه ؟!

وكيف سيخبر زوجته بأنها ممنوعة هى الأخرى من أن تطأ قدمها حديقة القصر الذى يشبه قلعة وندسور الإنجليزية العريقة .

أنه يعرف أن الأمور لن تستقيم هكذا على طول الخط .. فكيف يمكن للحياة أن تكون برافد واحد ؟! وكيف يمكن للطائر أن يطير بجناح واحد ؟! كيف يمكن للدنيا أن تكون نهارا فقط بلاليل ؟!وكيف لهذا الكون أن يكون أرضا بلاسماء ؟! لايستقيم الحال فى هذه الدنيا بهذا الوضع الأحادى ، والحياة كلها ثنائيات ؟! لايستقيم للحياة أن تمضى بالرجال فقط دون النساء ؟!

هو يعلم يقينا أن اليوم ليس كالغد .. إن الحياة تسيل وتجرى تسابق البشر ، وتتغير كل يوم تأكل منه وتقضم من حواشيه ، وتوسع رقعة الخدر فى قلبه الجريح ، وكل يوم تضيف إليه وتأخذ منه ، تكبر حجمه وتضخمه كما تدق فى قلبه مسامير من أنواع مختلفة .. مسامير الألم ومسامير المتعة !

إن التغير هو سيد الأشياء والكائنات ،ومن يراهن على قانون التغير يكسب دائما .. سبحان الله .. يغير ولايتغير . . ومن لايؤمن بالتغير فلينظر إلى نفسه أولا ليرى قدرة الله المعجزة فى صنع التغير ..إن طفولة الإنسان التى ترافقه بعض الوقت سرعان ماينالها قانون التغير ، وتغادر صاحبها على الفور بحكم الزمن والنمو الطبيعى وقانون التغير الأصيل فى هذه الحياة ، وتظل الطفولة ذكرى ..مجرد ذكرى ولكنها ماعادت جزءا من صاحبها ..سوى ذكريات من الماضى تبقى هناك بعيدة ملقاة فى الذاكرة مع أفق الذكريات الأخرى فى الجزيرة التى يراها المرء فى بحر أحلامه وأيامه الوردية.

شاب نابه نابغة ناجح مفعم صدره بخواطر الحب ، لكنه شهيد الغدر ، وضحية الخيانة ..لاريب أنه مصدوم لأبعد حد .. لابأس .

قد يعرف المرء امرأة واحدة وقد يعرف عشر نساء ، وربما يعرف ألف امرأة لهن نهود ملفوفة كالتفاح الناضج ولهن أفخاذ ممدودة كالرخام الأملس الساحر .. بعضهن يتركن غلالة من الغيوم مثل شبورة الفجر ، وبعضهن يتركن الرجل جثة هامدة ميئوس منها من أثر الحب ، ويعذبن العين بحضور قوى ،ولأنه من فصيلة الرومانسيين فى الحب وشئونه وشجونه كانت نهايته على مقصلة الرومانسية السوداء المفرطة .

هو الآن فى أجازة .. استراحة محارب مهزوم مقهور فى معركة غير متكافئة الأسلحة ،أجازة طويلة عريضة ربما تمتد لنهاية العمر من النساء.. هو الآن فى أجازة من كل ماكان يستعبده ويستحوذ على حياته ويلتهمها ، وهل هناك كائن حى له سلطة استعباد الرجل فى هذا الكون سوى المرأة ؟!

توهم الصدق وإذا به ضحية سذاجته ! فليسقط الصادقون ، وليحيا الكاذبون المراءون المخادعون فى هذا العالم .

فى الليل تنتابه ذكريات أليمة كما تنتابه رغبات متوحشة أيضا .. الوحدة شبح قاتل .. لكن هل يستطيع الزمن أن يداوى ألمه ، ويغير حياته ؟! الله وحده أعلم .

يتنهد طويلا ويطل من شرفة قصره يتأمل النهر فيراه حزينا مثله لايدرى لماذا ؟! هاهو يسير بهدوء كأنه يسير فى جنازة إلى مصيره ومنتهاه منذ ألاف السنين ، ويفكر فيما جرى له ، وإن داس الزمن على كل حلم جميل جاءه من وراء البحار والمحيطات من البلاد البعيدة الباردة ..مثل ألمانيا .. ولماذا أسموها ألمانيا .. ربما اشتقوا إسمها من الألم ذاته ؟!

أدرك مبكرا أن الزمن هو العدو الحقيقى للإنسان .. عليه أن يعيش ويحاول أن ينتصر على جبروت الزمن قدر استطاعته ، ولن يبقى له غير ذلك ، ولكن دون أن يحظى بتلك التجربة المريرة التى هى نتيجة الإختيار الطائش الخاطىء !

كان الرجل فى حقيقة أمره يتمزق ، يخاف أن يمشى الناس وراءه فى العزبة والعيال معهم يزفونه وهم يعايرونه مرددين :

- هذا الرجل خانته امرأته .. هربت منه إلى عشيقها .

يتمزق الإنسان باستمرار بين الأشياء والأشخاص الذين يحبهم ، أوالذين يحبونه أويتوهم أنه يحبهم وأنهم يحبونه ، وكثيرا ماتكون الصدمة فاجعة مروعة .. يحدث ذلك عندما تكون هى تحب نفسها أكثر من أى شخص آخر فى الكون ..وتتمسك بمنطقها الخاص أكثر بكثير مما يأبه هو وبمايشتهى ..ولاتعير هى أى شىء أو شخص الإهتمام اللازم .. هذا هو منطق الأنانية .. كل مايهمها ذاتها ومتعتها الشخصية ، ورغبتها فى القبض على الحياة بمسراتها قبل أن تفر من بين يديها بفعل قانون التغير !

إن عجلة الزمن لاتتوقف عن الدوران أبدا ، والزمن لايرحم أحدا ولايترك شيئا أوشخصا على حاله ، الكل تحت مقصلة التغير الإجبارى .. وحياة الناس فى أى مجتمع - شرقى أوغربى - مثال حى على ذلك فى التناقضات بين الحب والكراهية ..الحياة والموت .. المال والبؤس ..السعادة والشقاء .. الإخلاص والخداع ..الأمانة والخيانة .. الزواج والطلاق .. كلها ثنائيات تمزق الإنسان أشلاء .

لكن أين المكان الذى يمكن للإنسان فى أى زمان أن يأوى إليه فيعصمه من التمزق والألم والتعاسة والغدر ؟! لامكان فى هذا العالم المترامى الأطراف .. ولاعاصم للإنسان من التعاسة فى هذه الحياة الدنيا .

لامكان على الإطلاق .. ولوكان هناك مكانا يعصمه من هذا الطوفان لكان لجأ إليه ابن سيدنا نوح عليه السلام قبل أن يأوى إلى حصين بعيد يعصمه من الطوفان لكنه لم يمنعه من الطوفان ، ولم يعصمه من الغرق !

ماذا فعل الدكتور عبدالله سليل آل حبيش ؟! أطلق لحيته مثل الرهبان ومشايخ السلطان وانزوى عن العيون ..لابأس من الحزن لبعض الوقت فالحزن خير من الجنون الذى هو مصير الكثير من الرجال الذين كانوا أوفياء وكانت الخيانة لهم هى الجزاء ..لابأس فكل الرجال يولدون باكين ، وبكاء الرجل اليوم أوغدا ليس بجديد عليه !

ويقول أحد هؤلاء الرجال وهو شاعر قديم :

- يموتون فى زوبعة من الرعب .. ومالذى هناك بين الولادة والموت ؟!

لاشىء سوى زوابع من الحب .. تقتل العاشق وترده إلى الصمت !

ظل فى تلك الأثناء ينام كثيرا .. نومه أشبه بالموت ، وكأنه يريد غيبوبة لايصحو منها أبدا ولايستفيق ، وإذا نهض واستيقظ لم يعد يتكلم كما كان يفعل من قبل .. بدا عزوفا عن كل شىء حتى أن عبدالصبور خشى عليه من أن يكون قد أصيب بداء الخرس ! لاحول ولاقوة إلا بالله .. يصمت طويلا صمتا رهيبا مهيبا .. صمت ملىء بتأملات المتصوفين ، ربما انتظاره لزوبعة جديدة قد تأتى أولاتأتى ، أوهربا من الزوبعة القديمة الجديدة .

فى هذا اليوم الخريفى كان يحتسى الشاى بالنعناع الذى أعده له عبدالصبور فى شرفة قصره المنيف الرابض على كف النهر العظيم ، يتأمل النيل شاخصا كتمثال من حجر صلب ، وقد هبت عليه رياح الذكريات من الزوبعة إياها ، اجتاحته بجنون ، وكانت أقرب إلى كوابيس اليقظة المزعجة فيحاول أن يتخلص منها بالتأمل الصامت كناسك يتعبد فى صومعته النائية ، ولايدرى بحركة الناس من حوله ، ولايحس بضجيج الأشياء والكائنات .

لم يستطع أن يتخلص من تمزقه .. تأتيه الكوابيس فى صورة مارد أبيض شاهق البياض لامرأة تهاجمه فى خلوته وترغب فى امتصاص دمه فيرى مايرى .. يرى بياضها لعنة ، ويرى طولها الفارع صاروخا مدمرا ، ويرى وجهها وفمها وأسنانها كفك مفترس !

هل هى المرأة الألمانية الهاربة من قفص الزوجية إلى وكر العشق المحرم ؟! وإذا كانت هى فكيف السبيل إلى النجاة من مخالبها ؟! وكل النساء عنده الآن أنجيلا الملعونة فى كل الكتب الإنسانية والسماوية ؟!أين يفر وإلى أين ؟! وهل هناك من جبل يعصمه ؟!

ينكفىء على صمته الذى يلازمه أياما بطولها ،يشتت فيها أفكاره ، وتراوده مشاهد ورؤى كلها تدور حول امرأة اختزلت عنده كل النساء !

ارتفعت حرارة الشمس إلى الأعالى ، ابتعدت عن النهر والحقول وديار العزبة فى الفراغ السحيق ، تنسحب لتدارى خجلها مثل امرأة خائنة بعد فعلتها السخيفة ، راحت على المغيب ، عبرت به إلى فضاءات يكاد يكون الكلام عنها محرما ومستحيلا .. إنها لاتوصف .. غيوم متراكمة فى قلبه تأججت فيها غيوم الغروب ،واختلطت بها

كأنها نار منطفئة منذ لحظات وربما تكون مختبئة تحت الرماد ، وقطع من ذهب مسفوح فى كل فراغ ، وتضطرم بداخله أمواج من أشواق مسحوقة مبعثرة .

استقر فى داخله الشيطان ، وقد انفجر الشيطان المستقر فى الأعماق استقرار الإيمان !

نام الشيطان فى الأعماق كأنه صاحب الدار لاتطرده صلوات ،ولاتمائم تمحو الذكريات .

ظل الرجل مأخوذا بمارأى ، وياليته مارأى ، فالعقل عاجز عن التصديق عاجز عن التسليم بماجرى ، والقلب يكاد يكذب العين مارأت .

وفى صمته الرهيب يحاور الله والشيطان فى آن واحد .. ليست المسألة مسألة امرأة غردت خارج السرب ، لقد أصبحت المسألة معه قضية حياة .. ضرورة من ضرورات البقاء .

ظن كثيرا أنه بلغ بها ومعها كل الأمانى ، ويستطيع أن يهزم كل الصعاب ، ويعبر كل الصحارى .. لكنه اكتشف أنه أضعف وأصغر من أن يعبرمغامرة مع امرأة أحبها من بلاد بعيدة ، وظن أنها ستبقى معه تعينه على مقارعة الشمس ومعايشة النجوم ، وعبور كل البحار والمحيطات ، لكن يبدو أنها تعلم ، وعرف الحب فى مجتمع لاينسجم معه ، ولايتوافق مع عقلية أمثاله .

آه من امرأة لم يكن يخشى يوما زواجها ، خمس سنوات أوأكثر عاش فيها بين الألمان ، وتعلم فيها النطق بلغة لن يقرأها ولن يكتبها .. لغة صعبة باردة مراوغة مثل امرأة متمردة تهوى التلاعب بقلوب الرجال .

مازال يذكر حين عاد بأنجيلا إلى القصر فى أول زواجهما ، وقال لأمه الله يرحمها :

ـ تزوجت أجمل النساء ياأمى .. جئت لك بوردة جميلة من بستان أوروبا .. هاهى زوجتى .

احتضنتها بفرحة طاغية ثم احتضنتنى وقالت برفق حنون :

ـ إن أجمل النساء ـ ياعبدالله ياولدى ـ هى التى تكون فى حضورك أنثى ، وفى غيابك رجل !

فى غمرة الفرحة وحضورأنجيلا الطاغى لم يفهم مقصد أمه لكنه الآن عرف مقصدها ـ الله يرحمها ـ كانت حكيمة وترى المستقبل بعينى زرقاء اليمامة .

فى البداية حسبها كلمات عادية .. كلمة جميلة تطرب وكلمة حارقة تلهب .. لابأس أفكار كثيرة مغلوطة فى ذاته أوهكذا صارت بعد الصدمة .

فمامعنى الحياة إن لم تكن هى الشجاعة المتجددة ، ولايبقى للجبان فيها إلاموته المبكر ؟!

لم يستطع أن يضمد تمزقه ، ولم يقدر على مقاومة الصراع الماحق بداخله .. أحيانا يحتار وهو لايتحمل كل هذا الأذى .. ومن أين يأتيه ؟!

من المؤكد أنه لايأتيه من الله لأن الله لايأتى إلابالخير .. الله كله خير .. الأذى يأتى للإنسان من الإنسان ، كما يأتى الأذى من الطبيعة ومافيها من قوى شيطانية شريرة تتربص بالإنسان فى كل مكان .

صار جرحه لايطاق ..ولكن ماالذى يحس به تحديدا ؟! الغيرة ربما أوأكبر بكثير من الغيرة .. يحس بمرارة أفظع من الغيرة ..هل ينتحر ويرتاح ؟! أى شيطان يغريه بالانتحار ؟! سيقولون كان رجلا ناجحا ، زوجته جميلة ،

وربما أضافوا لكنها خائنة ، وهو رجل ثرى جدا وفى أوج رجولته كأنما القضية قضية زوجة ومال ، وكأن الحياة يمكن أن ترتشى لتتفادى أمرا كهذا .

وبرغم كل شىء هو فى قصره الشاهق ، وفى وطنه الغالى لابرودة ولاغربة بعد اليوم .. لاألم ولاألمانيا بعد اليوم .. إن تراب الوطن لايستبدل إلابتراب الجنة .

غابت الشمس تماما ، وحل السواد المخيف الذى يرافق الليل ، والتحفت الأشجار والنهر والأشياء كلها بلحاف أسود ، وعلا نباح الكلاب احتجاجا على إحتلال الظلام لكل الأرجاء .

****

(18)

فى يوم عرسها كانت فاطمة تقاوم هواجس كثيرة سوداء مخيفة ،تتوقع أن يهجم فراج أبودومة على الناس فى حفل الزفاف ، ويطلق رصاصات غادرة فيموت رضوان بين يديها فى ليلة دخلتها .. ظل الهاجس الكئيب يطاردها ، ولم تكن تعرف أن من يطاردها هو الآن مطارد خارج عزبة الحنكاتى كلها ، لم تكن تدرى أن فراج هاجمه اليأس والحزن وغادر العزبة إلى المدينة القاهرة عاصمة المحروسة !

سألته بحذر :

ـ ألاتخاف اليوم يارضوان ؟!

ـ ومن أين يأتى الخوف يافاطمة واليوم فرحنا ؟!

ـ ألاتعرف من أين يأتى الخوف ؟!

ـ لا والله .. لاأعرف .

ـ تخاف من فراج وغدره .

ـ فراج مسكين بائس .. لاأخافه اطلاقا بل أشفق عليه .

ـ والموت ألاتخشاه ؟!

ـ بالطبع ومن لايخشاه ؟! الآن الجنة تفتح لى ذراعيها والحياة تقول لى هاأنا لك .. لكن أحيانا أسأل نفسى كيف سيباغتنى الموت بعد عمر طويل إن شاء الله ؟! هل سيأتينى برصاصة عمياء أو كموت عادى بعد مرض قصير أوطويل ؟! وربما حادث عابر غير مدبر من يد آثمة باختناق فى الحمام مثلا أوتسمم من طعام أوسقوط من فوق نخلة لئيمة .. لاأدرى .

وربما يزورنى طائر الموت بلامقدمات على الإطلاق .. لكن أترين يافاطمة أنه من المناسب أن نتحدث عن الخوف والموت ، ونحن نعيش أسعد لحظة فى حياتنا كلها ؟! ألاتسمعين دوى الزغاريد والأهازيج والأغانى التى تملأ الدار ،وكثير من الديار فى عزبة الحنكاتى ؟!

هزت رأسها وقالت بصدق :

ـ معك حق .. لكن كان لابد أن أنقل لك مشاعرى والخوف التى سكن صدرى .. كان لابد أن أبوح لك كى تأخذ حذرك .

تبسم قائلا :

ـ يافاطمة الحذر لايرد القدر ..فلاتجعلى هواجس الخوف نفسه تفسد علينا لحظة العمرالتى حلمنا بها كثيرا ، ولاتشغلى بالك فالمكتوب سيجرى علينا سواء كنا خائفين أوكنا حذرين غير خائفين !.. اسمحى لقلبك أن يفرح اليوم ، ولاتعكرى عليه صفو سعادة يتوق إليها .. مئات الأشكال من المخاوف تختبىء فى زوايا مظلمة من نفوسنا لتنقض علينا مرة واحدة فى النهاية .. علينا ألا نتعمد استحضار شر القدر المستور عن عيوننا ، ونحن فى وهج اللحظة الأكثر بهجة فى حياتنا .. من يبحث فى ذاته عن السعادة سيجدها تختبىء تحت جلده ، ومن يبحث عن التعاسة سوف يستحضرها من أعماقه ويأتى بها من مخابئها المعتمة !

نظر رضوان إلى وجهها الذى يحبه ويراه أجمل من القمر فى ليلة البدر ، لكنه رأى شيئا من الخوف يمتزج ببريق عينيها الآسر ،وأدرك فى التو أن حبها له ، وخوفها عليه يفوق بكثير ماكان يعرفه .. خيم شىء من الخوف على حالة الفرح العامة فى دار فاطمة ودار رضوان وكثير من ديار العزبة .

لم تعد قادرة على رؤية الأشياء إلا بعين الخوف والحذر وهو يلتمس لها العذر .. ليت صباح ـ الله يرحمها ـ صمتت للأبد ولم تبح لها بشىء ..منذ تلك اللحظة الفارقة صارت فاقدة للثقة فى فراج ، وتراه الشيطان الماكر الذى يسكن العزبة ، ويدبر الشر للآخرين ، وأولهم حبيبها وابن خالتها رضوان ليس لحقد شخصى أوغيرة ذاتية وإنما من أجلها ..لاشىء يصد عنهما سيف القدر ، وعليهما أن يقبلا كل شىء .

ألقت بهواجسها وراء ظهرها ، وارتدت ثوب زفافها الأبيض الناصع ، وتهيأت بمساعدة أخريات تسلمن قوامها لينزعن عنه الغبار ، كما تسلمت يد ناعمة خبيرة مدربة جسدها تحلوه وتجلوه .. فالليلة ليلتها وعليها أن تعطى من عسلها كل ماتملك ، تفوح الوردة بأفضل عطرها حين تحب البستانى الذى يسقيها ويرعاها .

منذ اليوم ستعرف ويعرف هو أيضا أن الحب كالنار لاتتركنا إلارمادا ، وحين قال لها بنبرة صادقة :

ـ أنا عشقتك يافاطمة .

احمر وجهها خجلا وضحكت قائلة بدلال :

ـ أعرف ياابن خالتى .. لكن مامعنى العشق ؟!

فكر قليلا ثم قال :

ـ العشق شجرة رقيقة يقال لها اللبلابة تخضر وتتفرع ثم تصفر .. ومنها جاء مغزى العشق ..

همست متسائلة :

ـ وماذا عن الزواج يافيلسوفى الصغير ؟!

ـ الزواج أجمل تذكار للحب .. الزواج غزو واخضاع متبادل بين طرفين ، ودائما يدفعنا جهلنا وعواطفنا الجياشة إلى اللجوء للزواج بوصفه العقار الوحيد المهدىء للإحتراق الذاتى للإنسان .

ثم سألها مداعبا :

ـ أتعرفين لماذا أحبك ؟!

ـ لأنى جميلة .

ـ أنت فعلا جميلة ، بل أنت أجمل مارأيت فى حياتى .

ـ هل تعرف أن الفتاة الجميلة مهرها فى وجهها ؟!

ضحك لذكائها ولمعت عيناها حين سألها :

ـ اطمئنى .. دفعت لك كل ماأملك .. دفعت لك تحويشة العمر ..ولولم يعجبك المهر اسألى خالتك أن تزيدك ، ربما مازالت تخفى شيئا تحت البلاطة .

ضحكت وقالت مبتهجة :

ـ لايهمنى شيئا من حطام الدنيا ، وطالما أن زوجى وحبيبى وفيا مخلصا عطوفا رقيقا فإن حبه سيظهر فى وجهى دائما ، ويزيدنى جمالا واشراقا لأسعده أكثر .. سأكون لك ياابن خالتى شمسا فى نهارك ، وقمرا فى ليلك حتى لاتمل من النهار ولاتسأم من الليل .

ـ آه يافاطمة .. ليست الحياة الحسية بالحب رجسا من عمل الشيطان والعكس هو الصحيح .

تلك زينة الحياة الدنيا ، وهى نعمة من الله ، تشبه النسائم المنعشة الندية التى تهب فى الربيع والصيف ، فلنستمتع بها بضمير مطمئن ، ولنقبل عليها فى غبطة وبهجة ، ولنتمناها لكل فتى عرف قلبه الحب ، ولكل فتاة مسها العشق ماداما يرغبان فى ترجمة الحب العذرى إلى حياة كاملة !

صاحت باندهاش :

ـ وكيف ترانى ؟!

ـ أنت أنشودة من أناشيد السماء.. إن الفتاة هى العمل الوحيد غير الكامل الذى ترك الله أمر اتمامه للرجل الذى يحبها .

شهقت وهتفت :

ـ الله .. الله ..ماأجمل كلامك .. من أين لك بهذا اللسان الحلو المعسول ياابن خالتى ؟! أخبرنى يابعلى .

ضحكا سويا وأصوات الدفوف تدق ، والمزمار البلدى يعزف ، والزغاريد تطوف كل الشوارع والحوارى .

واسترسل قائلا :

ـ دور المحب أسير من دور الزوج ، فمن واجب الزوج اظهار الذكاء كل يوم ، وهو أمر أصعب بكثير من مجرد النطق بالكلمات المعسولة .

انتهت أيام العزوبية ، وبدأ شهر العسل .. يرتشفان من مذاقه اللذيذ ، وانطلق الزوجان يندفعان بهوس من ملاعبات الحب ومداعباته اندفاعا يمثل أرفع ألوان النشاط الإنسانى لصالح النفس والبدن ، ويتبادلان كئووس المتعة المقدسة ، وإن تمنعت فى أول الليل ، وتوسلت إليه أن ينتظر بينما الحياء يصبغ وجهها بحمرة الورد حتى كاد الشوق بحرارته أن يبعث الدفء فى بلاد الإسكيمو الباردة .

لم يكن فجا ولافظا ولاغليظا ، لأن الورود لاتتفتح عنوة .. بل تتفتح على مهل ، وتفوح بعطرها مع الصبر ، ولكل وردة طريقة فى التمنع قبل التفتح ، وهى طرق أكثر ابهاجا وامتاعا من أى شىء آخر فى بساتين الحياة .

ولاينسى أبدا نصيحة أمه التى همست بها فى أذنه قبل لحظات من الاختلاء بعروسه فى ليلتهما الأولى وثالثهما الحب .. حين قالت له بحكمة السنين وخبرة السن :

ـ ياولدى لاتسرع الخطى مهما دفعتك العاطفة الجياشة والأشواق الجارفة الحارقة ، فربما كانت شريكتك التى تحبها متأخرة عنك بعض الخطى ، وإذا شئتما الطيران فحلقا معا ، ولتمتزجا لحما وعقلا وروحا فى لحظة توهج واحدة ، وحينها سترى أن الحب فى الزواج يجعلك تسكن الفردوس الأعلى .. أقول لك لاتخطف الوردة من عودها غصبا عنها ، ولاتقطف زهرها الفواح قسرا ، واصبر عليها حتى تتهيأ لك ،وتملأ مسامك بعطرها وتنثره فى خبايا روحك ودهاليز نفسك .. لاتغتصب الورد من بساتينه يابنى حتى لايجرحك شوكه ، رفقا بالورد .. تعامل معه برفق ورقة تفوز بالحب كله ،وتذوق العسل كله ،وتقطف الورد كله .

اندفعا يشهقان ويكتمان الصرخات ، وأمواج متداخلة من اللهفة ، والروح تهفو لتودع الحرمان من أيام عجاف طويلة ، ويحرصان مع ذلك ألايصدرا أى صوت للحب ،فالجدران تسمع والحيطان لها أذان ، لكن الأصوات الملتاعة ، والصيحات المستحقة المكتومة تزيد من توترهما ، واندفاعهما مشدودين ليغوص كل منهما فى نهر الآخر ، ويبحر مع شريكه منسجما ومتضادا فى مد وجذر ، وأمواج متلاطمة ، وكل منهما ينشد الخلاص ، ويتطلع للنعيم ، ويغوصا فى بحر الرمال الناعم سويا .. لاغالب ولامغلوب .. بداية مذهلة لابأس بها .

جرى النهر فى مجراه الطبيعى كما أراد له رب العالمين ،واستيقظت فاطمة مبكرا مع أول ضوء للنهار ، وقبل أن تكشف الشمس القناع عن وجهها الذهبى ، بينما ظل رضوان راقدا فى فراشه كأنه يلتمس مذاق النوم الحقيقى لأول مرة فى حياته .

كانت تتحرك كالفراشة بملابس النوم الشفافة المخملية ، وأعدت الإفطار لهذا الأسد الرابض فى عرينها ، والتى تظنه سيأكلها لونهض من غيبوبته المؤقته ولم يجد مايأكله !

تتوقع العروس فاطمة أن تأتى أمها وخالتها وبنات العزبة ونسائها ليشاطرنها فرحتها ، ويقدمن لها التهانى والهدايا والقرابين عسى أن يلحقن بها فى قطار الزواج السعيد .

وتتساءل البنات فى عمر الزهور عن أشياء سرية تبدو غامضة عنهن فى مثل هذه الأمور ، وتتساءل النسوة المجربات عن أمور تبدو لهن عادية ومألوفة ومعروفة لابد أن تحدث فى مثل تلك الحالات فى الليلة الأولى ومابعدها .

خرجت من الحمام وقد اغتسلت من آثار كل شىء ، تركت الماء المندفع بقوة من فم الدش يجرى بحرية مع الشامبو ذو الرائحة الطيبة النفاذة كما لوكانت تطفىء النار بالماء ، وقلبها مازال يضرب فى صدرها بقوة لم تعهدها من قبل ،لما رأته وسمعته ولكل ماينتظرها فى هذه الدار .

بدا فارسها الذى ترجل عن حصانه فى ليلة زفافهما أنيقا بهيا حليق الرأس مثل جنود المارينز ، ناعم الوجه يرتدى جلبابا فاخرا ، ثم تحرك نحوها بوقار ، وانحنى أمامها باحترام ،ومد يده يلتقط يدها ثم طبع عليها قبلة صادقة حانية ، وجلس بجوارها رافعا رأسه ينظر أمامه نظرة النبلاء ، والناس تحيط بهما بحب وتصفيق وإعجاب وغناء حتى حانت اللحظة الأخيرة فتوقف الغناء والرقص فى الساحة الخارجية أمام الدار ، وحل فجأة صمت كثيف حين دخلا مقرهما وعشهما الجديد ، ولم يكن مسموحا لأحد بالولوج إلى الحرم الخاص بهما فى تلك الليلة .

عندئذ هبت من الداخل سحابة معطرة من بخور نفاذ الرائحة ، لم يتنسم المدعوون وهم يغادرون مثل شذاه ، بينما الجموع الهادرة تنسحب مغادرة .. يغمغمون ويتهامسون ويتبادلون الأمنيات الطيبة لهم ولذويهم حتى أغلق أهل العرس باب الدار ، وأم رضوان تحلق فى السماء من الهناء ،وتلهج لابنها وعروسه بأطيب الدعاء .

ولاتتوقف الأم عن الضحك والبكاء معا غير مصدقة أنها عاشت لتشهد هذه اللحظة الفارقة.تضحك لابنها ثم تبكى حين تتذكر زوجها الراحل ، وبداخلها امتنان وعرفان لكل من شاركها فرحتها بولدها تلك الليلة .. ومن حين لآخر تعانق أختها ، لاشىء اليوم يفوق ماسكن قلبها .

وبعد إيفاء مراسم الإحتفال بدأت مراسم بث الأشواق التى يعلمها السميع العليم سبحانه وتعالى فى مكان - مخصص لذلك - خفى عن العيون .

مرت أيام الشهد والعسل سريعا ، وكان شهر أكتوبر قد بدأ ومعه موسم حصاد البلح أقدم أنواع الفاكهة على وجه الأرض ، وأقدم شجرة عرفها الإنسان ، وعمرها يزيد عن 6 ألاف سنة .. شجرة النخيل تلك التى كرمها الله فى كتاب مقدس يتلى إلى يوم الدين (*وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ*) وموسم تسلق النخل يبدأ من مطلع أكتوبر ويستمر حتى نهاية شهر ديسمبر من كل عام .

قالت فاطمة مازحة :

- يارضوان .. ألم تشبع من عسل الحب ؟!

ضحك قائلا :

- يافاطمة .. أظن أنك الجنة التى وعدنى الله إياها بكل مافيها .

أسعدها كلامه المعسول وقالت لائمة برفق ودلال :

- ياابن خالتى .. أنا أشتاق إلى عسل البلح .. متى ستأتينى به ؟! أم أنك مازلت تستمرىء الراحة فى الدار ، والبقاء فى الفراش حتى نجوع ؟!

- لا والله يافاطمة .. طلباتك أوامر .

- الناس يسألون عنك كى تجمع لهم ثمار أشجارهم .. بعضهم يشعر بالحرج ، ويستفسر على استحياء متى ينتهى شهرالعسل ؟! فلماذا لاتشمرعن ساعديك يازوجى العزيز ، وتعود لعملك فى مصنع الطوب أوعلى الأقل تلحق بموسم حصاد البلح ؟!

- من الغد بإذن الله .. بشرط ألاتنسينى من دعواتك .

- يارب يوسع رزقك ، ويجعله نهرا يجرى مثل النيل المار بالعزبة يارضوان ياحبيبى .

احتضنها وطبع قبلة حانية على جبينها ، وربت برفق على ظهرها ..ابتسمت بين ذراعيه كقطة يحنوعليها صاحبها ، ويحتويها ويحميها من شىء ما تخافه وتحذره خارج أحضانه .. ثم غادرته وانهمكت تماما فى أعمال الدار تتحرك كفراشة حتى هبط الليل ، وبدت متعبة تلك الليلة ، تناولت العشاء مع رضوان ، ودخلت الفراش بسرعة لكن النوم استعصى عليها ، لم تكن تفكر فى أى شىء ، بل بقيت مفتوحة العينين تشعر أن النوم لن يزورها ، ويأتى من الخارج صوت البرق والرعد ، وتتأهب السماء لشىء غريب ، ربما تمطر فقط ، وربما تهب عاصفة .. سبحان الله فى ملكوته ، وبجوارها يسترخى رضوان بجسده المشدود .

ويحل به سلام غريب ، واسترخاء مريح واستسلام نهائى ، بدا راضيا تماما بنعمة الله ، هاهو قدره إلى جواره .. من الضرورى أن يسعد بحظه فى بنات حواء ، فالله كان سخيا فى عطائه ، أحبها ولم يعرف سواها بعد أمه .. هى أول الأمر ومنتهاه ، هى رغبة القلب وشغف الروح .. بعد فترة وهما فى حالة بين النوم واللانوم .. أحست بالضيق والملل فنهضت من فراشها ، غيرت ثيابها دون أن تحدث أى صوت حتى لاينزعج شريك فراشها ،

تخففت من روب ثقيل بعض الشىء ، وارتدت قميص نوم حريرى هفهاف شفاف ثم تسللت إلى الفراش من جديد ، تقلبت فى مكانها وأحست به مازال بين النوم واليقظة فسألته همسا :

ـ هل أيقظتك ؟!

ـ لا .. لم أكن نائما أصلا .

قالت بصوت خفيض ناعم ينم عن انفعال لاتستطيع كتمانه :

ـ أشعر بالخوف .

ـ من أى شىء ياحبيبتى ؟!

ـ لاأدرى يارضوان .. قلبى منقبض على غير العادة وكأن مصيبة ستحدث .

ـ استغفرى .. ونامى .

ـ أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .

قالتها بخشوع وتبتل ، وهى تسحب الغطاء ـ بأصابع مضطربة ـ تتصاعد منه نفحة من العطر ، يهب على وجهها الخلاسى فيمنحها شعورا بالإثارة ، تتحسس ثياب النوم الحريرية والدانتيلا الشفافة فيتسرب إلى داخلها إحساس الدفء الناعم ، عندئذ يقشعر بدنها ، ويستبدل الخوف بمتعة خفية فلاخوف وهى الآن فى عرين الأسد الذى قهر الرصاص ، وأفلت بأعجوبة من ضرب النار .

قال كأنه واعظ قديم يلقن بلطف تلميذته أبجدية التعاليم المقدسة :

ـ رددى ورائى .. اللهم إنى أسلمت لك نفسى ، وفوضت إليك أمرى ، وألجأت إليك ظهرى .. اللهم لاملجأ منك إلا إليك .

بالفعل رددت وراءه مايقول بهمس وخشوع ، وقبل أن تكمل .. دوى انفجار رهيب هز جدران الدار ومعظم ديار العزبة كأنه زلزال جبار يتنكر فى صوت انفجار .. يثير الفزع والهلع كما لوكان عابرا لأزمنة سحيقة .

شهقت فاطمة ، ونهضت فزعة مرتجفة ، وارتسم الذهول الممزوج بالإستغراب على وجهها ، وارتمت فى أحضان رضوان تلتمس الأمان .. القطة الخائفة عادت تطل من عينيها ، وتحس بخطر داهم لاأحد يدرى ما كنهه ، والليل قد جاوز منتصفه ، وغطى الظلام الدامس كل مكان ، فتح رضوان النافذة فى الجدار الغربى من الدار عساه يستطلع ماحدث ، لكنه لم ير سوى العتمة .. لاشىء سوى رائحة دخان أوشىء مايخترق فى مكان ما .

ومع ذلك فإن حدسه يكمل القصة بنهاية منطقية ومعقولة..مصيبة كبرى حلت بالعزبة وأهلها .. كارثة لامثيل لها ، ولن تكشفها سوى عيون النهار .

الآن لايهمه سوى أن تعود القطة المذعورة بين أحضانه إلى سكينتها وهدوئها المفقود ، لاشىء يعادل الإحساس بالأمان ، كانت تظن أن دارها هى المقصودة بالكارثة ، ربما شخص ما أراد أن ينسف الدار بمن فيها بقنبلة .. لعل أحد الأشرار أوكبيرهم أراد أن يهدم فرحتهما وينسف سعادتهما فى أيام زواجهما الأولى ، لكن الإنفجار المروع سكت فجأة كما صرخ فجأة .

إن دارها بخير ولم تصب بضر ، ولم يلحق بها ضرر ، وهى وشريك أحلامها فى أمان تام .. الله وحده يعلم ماجرى ، وساورها شك بأن فراج أبودومة ربما أرادهما بشر من نوع غامض مجهول .. لكن لاشىء يبقى سرا فى عزبة تشبه غرفة من زجاج شفاف ! كل من خارجها يرى كل من بداخلها ، وكل من فيها يرى كل من فيها بلاستار ولاحجاب ولاعازل .

وإن كان فراج قد غادر العزبة قبل زفافها ولم يعد حتى اليوم .

توسلت فاطمة إليه ألايخرج من الدار ، ومنعته بكل السبل ، ولماذا يخرج طالما أنه لاضرر طال الدار وساكنيها ، بينما تبدو العزبة جثة هامدة كأنها ماتت، وإن كانت هناك بعض أصوات متناثرة للشباب من الساهرين المنزعجين فى الشوارع والحوارى والحقول .. لم تكن تريد أكثر من أن يحتضنها ليبعد الوحشة عن خلايا جسدها المرهف .. ثم قالت :

ـ الصباح رباح يارضوان .. والليل مظلم ظالم ترتكب فيه كل الخطايا ،وتتوارى خلف ستائره السوداء ، نحاول أن ننام ، وكلها ساعات قليلة وينكشف المستور ، ونعرف ماذا حدث ؟! ومن أين جاء هذا الإنفجار المروع ، وكأن الحرب العالمية الثالثة ألقت بقنابلها على رأس عزبتنا .

لم يقتنع رضوان بفكرتها ولكنه استسلم لإلحاحها ، ربما لأن الخروج فى هذا الوقت المتأخر من الليل خطر ، ودائما يكمن الخطر خارج غرفة النوم ، والشر يسكن خارج جدران الدار .. هذا ظنها .. لذلك ألحت ألايفارق مخدعها .. لعل المخدع يعصمهما من شر ما .

****

(19)

استيقظت فاطمة مبكرا كعادتها ، لها وجه جميل لوحته الشمس بعناية وأعطته من ضوئها ،وجه من تحب السير مسافات طويلة لاتثنيها عنها حر ولابرد ..إعتادت على ذلك منذ كانت طفلة صغيرة تمشى مسافات ممتدة ذهابا وإيابا إلى المدرسة فى قرية بعيدة نائية تبعد عن عزبتها أكثر من ساعة زمن سيرا على القدمين الصغيرين كأقدام بنات القصر الإمبراطورى فى اليابان .

تكاد لاتستعمل المساحيق رغم أنها مازالت عروسا فى زهوة أيامها الأولى ، فيماعدا شيئا بسيطا من الكحل الأسود الذى يزيد وجهها سحرا ، ويعطى عينيها بريقا واتساعا ، ولديها شعر ناعم مسترسل طويل يحبه رضوان كثيرا ، ولاتتردد صاحبته فى تصفيفه كل يوم على طريقتها الخاصة .

لقد وجد فيها فتاها أكثر ممايتمنى وأكثر ممايتوقع بشرتها الخلاسية الملوحة بصبغة الشمس ، وصوتها الناعم الناعس الهامس ،وجسمها الرياضى المشدود باستقامة كالوتر ..وفى ليال طويلة كان يعزف عليه ، ويسمع أنشودته الصامتة الصارخة من سيمفونية الحب !

تهادت أصوات عديدة متداخلة لرجال ونساء وأطفال .. لغط متزاحم ،وغمغمات مندهشة مفزوعة على غير العادة فى هذا الوقت المبكر من النهار .. هذا النهار ليس مثل كل نهار .. فتحت النافذة لتطل منها فلفحتها موجة هواء بارد ، ورأت أهل العزبة يتدافعون فى الإتجاه الشمالى ،وكأنهم فى ماراثون ناحية الحقول الخضراء ،ولمحت خضرة زوجة عبدالشافى أبوريا فنادت عليها وسألتها :

ـ ياخضرة .. ماذا حدث ؟!

ـ والله يافاطمة لاأحد يدرى ماالحكاية حتى الآن .. لكنهم يقولون إن القمر سقط فى حقل سعدون أبوالعلا وانفجر والنار أحرقت الزرع كله !

استغربت فاطمة هذا الكلام العجيب ، وحدقت فى خضرة بذهول :

ـ القمر سقط .. هل هذا معقول ؟!

ـ آه والله يافاطمة .. هذا ماقاله سعدون أبوالعلا .

ـ ياخضرة .. القمر ثابت فى السماء فكيف يسقط فى حقل سعدون .. ماذا دهاك ؟!

تبسمت وقالت بحياد :

ـ شىء غريب .. الله أعلم .

ـ وماشكل هذا القمر ياخضرة ؟!

ـ سمعت أنه مثل طائرة ضخمة وانفجرت .. والعزبة كلها هناك .. لكن الخفراء والعمدة أقاموا الحواجز ومنعوا الناس من الإقتراب حتى لايمسوا هذا الشىء العجيب المخيف الضخم ، وقالوا لهم إن الحكومة مهتمة بالموضوع وسترسل عساكر وضباط لإستطلاع الأمر .

تنهدت فاطمة قائلة بحسرة ممزوجة بسخرية :

ـ ياحظك النحس ياسعدون .. اسم على غير مسمى !

ـ الله أعلم يافاطمة .. إذا كان حظه السعد أوالنحس .

ـ ألم تقولى ياخضرة إن القمر سقط فى حقله وأحرق زرعه ، وخرب محصوله ؟!

ـ هذا صحيح يافاطمة لكن مازال الأمر غامضا وملتبسا .

ابتعدت خضرة ، وجرفها موج البشر المندفع كالسيل بشهوة الفضول ، واستطلاع هذا الحدث النادر الحدوث فى عزبة الحنكاتى على مر تاريخها .

أغلقت فاطمة النافذة ، وهزت رضوان برفق ففتح عينيه بصعوبة ،وهو يزوم بشىء من الضجر :

ـ ماذا حدث ياحبيبتى ؟!

ـ مصيبة يارضوان وحلت بالعزبة !

ـ أعوذ بالله .. مصيبة .

ثم نهض من فراشه متثاقلا ، وفرك عينيه بيديه فبادرته قائلة :

ـ أنسيت الإنفجار الذى هز جدران الدار والسرير أيضا منذ ساعات قليلة يارضوان ؟!

ـ آه .. آه صحيح يافاطمة .

هرش رأسه ونظر إلى المرآة المواجهة للفراش ورأى شعرها الطويل منكوشا منفوشا بعشوائية فزادها جمالا وإثارة ، مد يده يحاول أن يسويه ويحرره من الفوضى ،ويعيده إلى صوابه واستسلامه .. فتبسسمت وتملكها خجل العذارى .

قال :

ـ أعطنى الجلباب يافاطمة بسرعة .. سأذهب لإستطلاع الأمر .

دخل الحمام مسرعا واغتسل بالماء الفاتر المنعش ثم خرج والفوطة حول رأسه وكتفيه يجفف بها ماتبقى من ماء ، ووقف أمام المرآة يصفف شعره ثم دخل فى جلبابه ، ودس قدميه فى حذاء جلدى أسود طرى ، وقبل أن يخرج سألها :

ـ إلى أين أذهب ؟!

ـ القمر سقط.. مسرح المصيبة حقل سعدون أبوالعلا .

ـ آه .. حقل سعدون فى زمام ساحة النخيل على أطراف العزبة .

ـ تمام ياحبيبى .. ولاتتأخر لأننى سأعد الإفطار .

ذهل رضوان مما رأى .. زحام شديد .. سيارات كبيرة غريبة فاخرة ، وأفندية يضعون على عيونهم نظارات طبية ، وأزرار مذهبة فى أطراف قمصانهم الجديدة ، وأحذية لامعة غير متسخة لاتليق بتراب العزبة ولاتناسب شوارعها وحقولها أبدا .

بعضهم يمسك حقائب جلدية سوداء ، وضباط بملابس أنيقة لامعة ،وعلى وجوههم نظارات سوداء تحميهم من الشمس والغبار ، وعساكر بالعشرات مدججون بالسلاح نزلوا من بطن سيارات مدرعة تشبه الصناديق الحديدية الكبيرة ، وأقاموا كردونا بإتساع الفدان اليتيم الذى يمتلكه سعدون أبوالعلا وورثه عن أمه التى ورثته هى عن أبيها وجدها ، بينما يتهافت الفلاحون وزوجاتهم وأولادهم على مراقبة مايدور ، ومعرفة سر هذا الجسم الضخم الذى يشبه الطائرة ،وتحيط به من عدة جهات أشياء دائرية وحلزونية تشبه المراوح الكبيرة ، والعساكر يحاولون منع الصحفيين وكاميرات التصوير .. يسود المكان لغط وضجيج يشبه لغط الدجاج الجائع المتزاحم فى حظيرة ضيقة !

أما سعدون أبوالعلا فقد تم القبض عليه بأوامر من العمدة عوض أبودومة الذى جاءته الأوامر من المديرية ، والناس يتساءلون فى حيرة ودهشة :

ـ ماذنب سعدون إذا كان هذا القمر الإصطناعى اللعين قد سقط فى أرضه ؟!

بينما سعدون فى مصيبة ويجيب على أسئلة الضباط الذين يستجوبونه والدموع تطفر من عينيه ، ومعهم رجل أبيض البشرة أصفر الشعر، عيناه زرقاوتان لامعتان يتكلم العربية بطريقة متكسرة ، ولاأحد يعرف إذا كان هذا الرجل فرنسيا أوإنجليزيا فملامحه الأوربية تشى به .

وعندما سأل المحقق سعدون أبوالعلا :

ـ أنت أول من وصل هنا عندما سقط القمر ..هل فتحت باب القمر ودخلت الكابينة الرئيسية حين سقط فى حقلك ؟!

ارتجف قليلا وتلعثم كثيرا لكنه لم يكذب لأنه يعرف أن الكذب يهدى إلى الضلال والضلال يهدى إلى النار وقال :

ـ كنت خائفا فزعا ولاأدرى ماذا أفعل ، وحاولت أن أستطلع هذا الشىء العجيب المهيب المريب الذى هبط على أرضى ، وأتلف زرعى وأهدر جهدى لموسم كامل .

نهره المحقق بعصبية بالغة :

ـ دخلت القمر ؟!

ـ آه .. آه دخلته !

ـ وماذا فعلت ؟!

ـ أبدا .. فتحت الباب ودخلت بحذر شديد والفضول يكاد يقتلنى ، وياليتنى مادخلت .

قاطعه الضابط الكبير الذى تلمع النجوم بجوار النسر على كتفيه :

ـ لماذا دخلت ، وماذا فعلت ؟!

ـ كنت أحاول معرفة حقيقة هذا الشىء الغامض الذى اقتحم أرضى وأهلك زرعى .. فلاهو سيارة ولاجرار ولاحتى أتوبيس .. وقد حركت المقابض والمفاتيح .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟!

ـ والله لم يحدث أى شىء .

ـ هل أنت متأكد ياسعدون ؟!

أطرق قليلا ثم هرش رأسه كأنه يتذكر :

ـ آه تذكرت .. فيه لمبة صغيرة أضاءت فجأة ثم تبعها صافرة تشبه جرس المدرسة .

هز الضابط رأسه بينما الرجل ذو الملامح الأوربية يراقب بانتباه شديد ، ويدون كل مايسمع فى مجموعة أوراق صغيرة بين يديه ،ثم تساءل بنبرة جادة غاضبة :

ـ ولماذا فعلت ذلك أيها الأحمق ؟! ألاتدرى أن مافعلته جريمة يعاقب عليها القانون ؟!

قطب سعدون مابين حاجبيه وامتقع لونه خوفا وقال :

ـ والله ماكنت أقصد أى شىء ..هذا الشىء الغريب إحتل أرضى ودمر زرعى وأيضا تلوموننى على أننى حاولت أن أعرف ماهذا الذى خرب حقلى ؟!

بنبرة ساخرة :

ـ وهل عرفت ؟!

ـ لا والله ياباشا ، وعندما دخلته وعبثت فى المقابض والمفاتيح ازددت حيرة على حيرتى ، وازداد هذا الشىء المجهول غموضا بالنسبة لى .. بالله عيك ماهذا ..ومن أين جاء .. ولماذا لم يهبط إلا فى أرضى أنا دون خلق الله جميعا ؟!

بدا الضابط ضجرا من الزحام ،وحرارة الشمس التى بدأت تلسع الوجوه الناعمة التى لم تألف لهيب الحر مثل الفلاحين فى عزبة الحنكاتى ، وقال بحزم :

ـ اسأل العمدة وأنت تعرف ياسعدون ؟!

تنهد سعدون ومصمص شفتيه وهتف بأسى :

ـ أين كانت تختبىء لك تلك الواقعة السوداء ياسعدون ؟! وماذنبى ياناس حتى تخرب أرضى بهذا الشكل ، ومالم يدمره هذا الشىء الحديدى الضخم دمرته أقدام جحافل الناس المتهافتين لمعرفة الأمر ، وفك شفرة هذا الشىء .

توافد على العزبة رجال من الشرطة السرية بملابس مدنية ، وأشكال من البشر بملابس راقية يطوفون بالعزبة التى امتلأت فجأة بالغرباء ـ سبحان الله ـ وكأن عزبة الحنكاتى المنسية سنوات طويلة ، ولامكان لها على خريطة مصر المحروسة ، صارت بقدرة قادر مركز الكون ، وبؤرة الإهتمام ، وقبلة العيون وكعبة الغرباء !

والمدهش اهتمام المسئولين من الأجهزة الرسمية المختلفة فى المديرية والمحافظة بماحدث فى حقل سعدون أبوالعلا بعزبة الحنكاتى ، ومعظمهم يسمع عن اسم العزبة لأول مرة فى حياته ، والبعض يزورها لأول مرة مضطرا .

اللعنة على هذا القمر الذى سقط من مكان مجهول إلى مكان معلوم .. سقط من حيث لايدرى سعدون واستقر فى حقله ، وقد صار المنكوب سعدون رهين الحبس بصفته المتهم الأول والأخير فى هذه المصيبة ، ولايدرى لماذا ؟! وهو المتضرر الأول والأخير .. لقد كان كل أمله أن يرى العمدة عوض أبودومة ليسأله كما نصحه الضابط الكبير أن يفعل ،لكنهم لم يتركوا له فرصة ،وأخذوه أمام أهل العزبة كلها مكبل اليدين بأساور من حديد وكأنه مجرم عتيد ، وساقوه فى سيارة مصفحة كأنها سجن متحرك حتى توقفت به فى سجن المديرية شديد الحراسة !

ماتهمته ؟! الله وحده أعلم .

لكن أحد أمناء الشرطة المكلف بإيداعه الزنزانة تعاطف معه حين رآه يبكى متسائلا باستغاثة ولهفة :

ـ ياعالم ياناس ..ماتهمتى ؟! والله برىء ومتضرر من هذا القمر الملعون ، وطول عمرى لم أرتكب أى مخالفة .. فلماذا يكون مصيرى السجن وأنا المجنى عليه لا الجانى ؟!

رد عليه الأمين بشفقة :

ـ ياسعدون تهمتك كبيرة .. ومصيبتك ليس لها مثيل !

ـ ياساتر يارب .. ماذا تقصد ؟!

ـ أنت فى ورطة .. الله يكون فى عونك .

ـ كيف وأنا المتضرر فى أرضى وزرعى .. وأنا المقبوض عليه ظلما ؟!

ـ أنت متهم بالعبث فى قمر إصطناعى لدولة جارة سقط فى أرضك .

ـ دولة جارة .. ياللمصيبة .. لكنك قلت بلسانك أن القمر سقط فى أرضى .. كيف ياعالم .. أليس من حقى أن أعرف ماهذا الشىء الجبار الذى هجم على حقلى ودمر زرعى .. موت وخراب ديار ؟!

هز الأمين رأسه ولم يعلق ، وإن ارتسمت على ملامحه علامات التعاطف مع سعدون ..

ـ وماهى عقوبتى ياسيادة الأمين فى هذه التهمة الباطلة ؟!

ـ الله أعلم .. ربما مؤبد ويمكن إعدام .. أنت وحظك .

شهق سعدون وصاح :

ـ يانهار بلاملامح .. لماذا ياربى .. وهل أنا الذى خرمت ثقب الأوزون ؟!

ضحك الأمين وقهقه ولم ينطق فعاد سعدون أبوالعلا يسأل :

ـ ومصيبة القمر التى سقطت على رأسى .. من أين جاء هذا القمر ؟!

ـ قلت لك دولة مجاورة !

ـ ربما جاء من السودان ليخرب أرضى .. إن المصائب لاتأتى إلا من أفريقيا وخاصة دول الجنوب ، وأنا أسمع كل يوم فى نشرة الأخبار بالراديو أن أفريقيا فيها حروب وأوبئة وإيدز وبلاوى زرقاء ومصائب سوداء !

عاد الأمين يضحك ويعلق :

ـ ياليتها كانت السودان لكنت أنت الآن فى أمان .

ثم لاذ بالصمت وأخفى الأمين حذرا وريبة فى صدره .. ثم عاد سعدون يلح :

ـ الله يكرمك ياسيادة الأمين .. بالله عليك أن تفهمنى .

ـ ماذا تريد أن تفهم ياسعدون ؟!

ـ ماهى مهمة هذا الكائن الحديدى الضخم الذى سقط فى حقلى ومن أى دولة جاء .. بالله عليك أخبرنى ؟!

ـ اسمع ياسعدون .. هذا كلام خطير جدا ، ويكفى ماحدث لك .. كما أن باقى التفاصيل التى تسأل عنها لن تفيدك على الإطلاق وربما تضرك .

ـ ليس هناك ضرر أكثر مما أنا فيه ، وهل بعد المؤبد أو الإعدام وهلاك الزرع ضرر ؟!

ليس لمصر جارة بعد السودان غير ليبيا .. أليس كذلك ياسيادة الأمين ؟!

لم ينطق الأمين ولزم الصمت فاسترسل سعدون قائلا :

ـ ليبيا .. أكيد ليبيا .. أعرف أنها جارتنا ، ودولة عظيمة مثل السودان تماما ، وابن عمى سافر ليبيا عدة سنوات ، وعاد منها محملا بالخير كله ، واشترى فدان أرض وشيد دارا جديدة بالطوب الأحمر .

تنهد الأمين وأخرج زفيرا حارا :

ـ ياليتها كانت ليبيا ياسعدون .. ليتها كانت ليبيا يامسكين .

ـ حيرتنى ياسيادة الأمين ،وهل لبلدنا جيران غير السودان وليبيا ؟!

ـ طبعا أيها الساذج .. لنا جارة مفروضة علينا .

ـ جارة مفروضة علينا .. تقصد الدولة إياها ؟!

هز رأسه بإيماءة ثم قال :

ـ هى الدولة إياها ؟!

ـ تقصد الدولة اليهودية ياسيادة الأمين ؟!

ـ هى ذاتها ياسعدون .

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله .. وهذا القمر الملعون ماذا يفعل فى حقلى ؟! وكيف وصل إلى سماء بلدى ؟! وكيف اخترق الأجواء حتى وصل إلى عزبتنا المنسية من على الخريطة العمومية ؟!

ـ أمر الله ياسعدون .

ـ لاوالله .. هذا ليس أمر الله .. أنه أمر المتآمرين على حقلى وزرعى.

ـ حظك السىء ياسعدون .

ـ قل لى بالله عليك ياسيادة الأمين .. وماذا يفعل هذا القمر اللعين ؟!

أنا دائما أسمع أن مثل القمر الإصطناعى هذا هو الذى ينقل قنوات التليفزيون .

ـ هذا القمر كان له مهمة أخرى !

ـ مهمة أخرى ..

ـ آه مهمة أخرى ..

ـ ماهى إن شاء الله .

ـ متابعة .. مراقبة .. تلصص ..تجسس .

ـ هل تقصد أن هذا القمر الملعون كان يراقب الناس فى عزبة الحنكاتى ، ويتلصص على بنات الفلاحين ،وحريمهم ياسيادة الأمين ؟!

ضحك الأمين من قلبه قائلا :

ـ الموضوع ليس هكذا كما تظن ..الأمر أكبر وأخطر من التلصص على البنات والنساء .

ـ حيرتنى معك والله .. ماذا يراقب إذا ؟!

ـ أليس عندكم شىء مهم فى العزبة تخافون عليه غيرالبنات والنساء ياسعدون ؟!

على طريقة الفلاح الفصيح قال :

ـ فى بلدنا الناس ليس عندها أغلى من بناتها ونسائها كى تخبئه عن العيون ، ودائما الناس تخاف على الأشياء الغالية ذات القيمة العالية ، وتخفيها فى مكان أمين أوحصن حصين ، ولأنهم لايملكون الذهب والفضة فإن بناتهم

ونسائهم هن ذهبهم وفضتهم وكل كنوزهم .. ليس لدينا مايثير الطمع ، ويدفع الأعداء للتلصص علينا سوى هذا الأمر .

تبسم رجل الشرطة لسذاجة سعدون أبوالعلا وبساطته وسلامة نيته وقال :

ـ ياسعدون .. هؤلاء الناس الذين أطلقوا القمر عندهم البنات الجميلات والنساء الفاتنات أرخص شىء ، كما أنهم لايخبئوهن فى مكان أمين مثلكم ، وإنما يعرضونهن للبيع ، ويتبادلونهن فى المخادع .. الأمر أخطر وأكبر من مجرد التلصص على النساء .

ـ الله أكبر .. ماذا يريدون غير ذلك ؟!

تلفت حوله وسمع أصوات متداخلة لضباط فى طريقهم نحوهما فقال ، وهو يشير لسعدون بالصمت :

ـ نسأل الله السلامة للبلاد والعباد ..

من وقت هذه الحادثة تسلل الخوف والشك إلى نفوس الناس فى العزبة ، فبعضهم يشعر أنه متورط فى جريمة مبهمة ، وأن هناك من يراقبه ويتتبعه ، ويحصى عليه أنفاسه وهمساته ، وأن ثمة أقمار صناعية تتجسس عليه حتى فى غرفة نومه أوفى خلوته مع امرأته أوفى الحمام !

لاشىء مستور والأقمار عيونها مفتوحة .. الكل مكشوف وتحت المراقبة ، ودائما هناك من يراقب ، ويتنصت على مكالمات الآخرين ويسجل أحاديثهم ، ولذلك ينبغى ألايعطوا ثقتهم لأحد مهما كان ، وعلى كل شخص من أهل العزبة أن يتأكد من إغلاق الأبواب عليه أكثر من مرة ، ويحكم إغلاق النوافذ ، واسدال الستائر ، ويسهر ليحرس نفسه أويحرس امرأته حتى يباغته النوم بسلطانه الجائر ، وهو مقرفص ينتظر لحظة اقتحام داره وإلقاء القبض عليه .

وفى نومه تأتيه التهم المناسبة له .. (تهديد الأمن العام .. تكدير السلام الإجتماعى وازعاج العالم) ويتأهب بالأجوبة والحجج الدامغة للرد على المحققين والقضاة .

وفى النهاية ينطق القاضى العادل بالبراءة من كل التهم العظمى المنسوبة إلي شخصه الصعلوك ، وربما يفرح قليلا ، ويكمل نومه حتى مطلع الشمس .

وعند سطوع الشمس لايغادر القلق العام قلوب العوام من الناس فى العزبة ، قلق دائم من مجهول قادم من سماء بعيدة يتلصص عليهم رغم أن بلدهم ليست على الخريطة ، ويتذكرون ماكان يقوله الأجداد من أن الجدران لها آذان مصغية ! ربما قالوا ذلك على سبيل التحذير بسخرية من التلصص ، لكن اليوم وبعد ماحدث تأكد للجميع أن الجدران والسماء والنهر والزرع كل له آذان وعيون مفتوحة ليل نهار تسمع وترى وتراقب وتسجل ، وتجهز ملف الإتهام لكل مواطن يشعر بالأمان ، ويظن نفسه يعيش فى قوقعة بعيدا عن حواس الآخرين .. لكن الجميع تحت المراقبة .. دائما هناك من يراقب .. احترسوا .

****

(20)

حين استدعوه على عجل ليعود إلى العزبة ، ويتولى زمام العمدية بعد أن نزل الموت فجر ذات يوم ليحرر جسد والده العمدة عوض أبودومة من الحياة ومتاعبها ، أحس فراج أبودومة أن المصائب لاتأتى فرادى ، وكأن

الإنسان البدائى الذى كان يعيش فى الكهف ، ويتعيش من القنص فى البرارى أكثر منه حظا ، كل يوم لديه اختيار صعب ولابد منه ، مجابهة للخطر ومحاربة لنيل حقه المهضوم ، وهو دائما على شفا الهاوية ، ومابقاءه إلانصرا يتجدد يوميا .. وأحيانا يبقى الإنسان على قيد الحياة رغما عن أنفه لأن لكل أجل كتاب معلوم ، ومحسوب بعدد صفحاته وأيامه ، أنه بقاء سالب منفعل اعتاد أن يرضى به ، وأحيانا يكرهه ولايقبله .. لكن مابالبيد حيلة .

لايملك انتصارات مدهشة فى الحياة على الإطلاق لكنه قادر على أن يدهش من حوله بهزائم نجا منها بأعجوبة !

إن الحياة تمضى فى طريقها رغم كل هذه الفوضى الظاهرة ،ومن رحم تلك الفوضى خرج النظام ليرتب أوراق الجميع ،بحيث يصبح المرء قادرا على العيش بطريقة آلية .. وماعليه سوى أن يتحرك للأمام أوحتى للخلف .. المهم أن يتحرك ، وكل إنسان ليس لديه خيار إلاسكة الأقدار ! وهو مسير بالطبع .. يأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويدخن ، ويحب النساء من كل نوع ولون ، ويسعى بالأمر والرأس قبل القدم إلى المصير الحتمى إلى الحفرة المنتظرة التى حفرها بيده أوحفرها له غيره .. حيث النهاية !

هذا هو التقدم الذى يشبه تقدم المريض الميئوس من شفائه ، ولامانع لديه من الحياة البدائية فهو يهواها فى كثير من الأحيان ، ويحب المغامرة كما يحب بنات حواء .

يبكى بعض الليالى ، ويضحك كثيرا فى بعض الليالى ، هاهى أمه ذهبت فى متاهة الرجال ولم تعد منها بعد ، وكأنها أقسمت أن تصفهم فى طابور طويل ،وتتزوجهم جميعا الواحد تلو الآخر ، ولوأسعفها العمر فربما تفعل وتواصل مشوار صيد الذكور إلى مالانهاية .

وهاهوالأب يمضى إلى الحفرة الأخيرة .. نام ولم ينهض من نومه مثل كل يوم .. سبحان الله .. سبحان من له الدوام .. سبحان من لايغفل ولاينام .. الحى الذى لايموت أبدا .

يبكى فراج والده ، ويشفق على نفسه لأنه تركه يتعثر فى ثروته ، ومسئولياته وأرضه وعموديته .. وللثروة همومها الكبيرة ، ولها أيضا فوضى مزعجة ،كان عوض أبودومة مثل لاعب السيرك يفعل كل شىء بلاخسائر أوبأقل الخسائر ، وينال تصفيق الجماهير فى النهاية كبطل شعبى .. يرفض فراج البقاء السالب المنفعل .

ارتضى بالأمر الواقع ، وقبل المهمة شبه المستحيلة فى أن يحل محل أبيه ، ويتولى زمام العمدية فى العزبة برغم احساسه أنه لاطاقة له على التكيف مع تلك المهمة التى تحتاج مواصفات خاصة وكاريزما استثنائية .

يتخيل نفسه وقلبه يقفز مع (أرسين لوبين) إذ يهاجم خصومه شاهرا سلاحه ، يأخذ من الأغنياء ويعطى الفقراء ، يتوهج خياله بمغامرات اللص الشريف العفيف ،ويرى نفسه مرتديا حلة سوداء ، وقناعا غامضا .. يدس يده فى جيبه يأخذ الحلى والمجوهرات ويعطيها لامرأة ما .

تبدو هذه الأيام حبلى بالأمانى حين يكون الآمر الناهى فى عزبة الحنكاتى ، يمكن له أن يخفى ضعفه ، ويطوى حزنه وانكساره ، ولاشك أن خوف الناس منه سوف يتضاعف ، كما أنه سيطلع على كثير من أسرارهم ، والكثير من شئونهم ستكون بيده ، تحريات الأجهزة الأمنية عن أبنائهم والتقارير السرية التى يرفعها عن كل شخص فى العزبة ، وموقفهم من الخدمة العسكرية ، وانتماءاتهم السياسية والفكرية .

أشياء كثيرة ستجعل رقابهم تحت سيفه طوال الوقت ، وعليهم أن يلتمسوا وده ويطلبوا رضاه ، وقد ينافقونه خوفا وطمعا .. الخوف من سيف المعز والطمع فى ذهبه !

ولم لا .. ؟! إن العمدية ليست رحلة ترفيهية ، والعمدة ليس مجرد خيال مآته مثل الذى يضعه الفلاحون السذج فى حقولهم عساه يمنع العصافير من إلتقاط الحبوب من سنابل القمح الشاردة ، يسأل فراج نفسه :

ـ هل يستطيع أن ينجح فى مهمته .. أم يغرق فى الرمال المتحركة ؟!وكيف يستحضر روح العمدة عوض أبودومة ذلك الرجل الحكيم الذى صارع الحياة وخبر ألاعيبها ومكرها ، وفهم الناس وكشف معادنهم ؟!

ماذا عساه أن يفعل ؟!هل مهمته أن يصلح الكون ؟! وهل سيجعل عزبة الحنكاتى العزبة الفاضلة ؟! وإذا حاول أن يرسى العدالة فى عالم بلاعدالة فماذا بمقدوره أن يفعل ؟! ولوكان ملاكا هبط من السماء سيسعى إلى تغيير الطبيعة البشرية بواسطة إحداث صدمة تمهيدا لخلق عالم خال من الظلم ،والصراعات فى هذه العزبة البائسة !

ليس صحيحا أن الجميع فيها واحد ، فيها من الميسورين كما فيها من المعوزين ، ليسوا سواسية كأسنان المشط بل فيها الأبيض والأسود ، الإنسان ضد الإنسان فى هذه البقعة التى ليس لها مكان على خريطة المحروسة ، ولوتقمص فراج أبودومة شخصية النبيل ..هل يمحو كل هذه الفوارق بين النفوس البشرية ؟! وهل يستطيع أن يجعل الإنسان للإنسان ؟! وكيف السبيل إلى أن يجعل الإنسانية فى وضع واحد ؟! كيف يوقظها من سباتها ثم يفرض عليها مايريد ؟! وكأن هذه العزبة هى الدنيا كلها ،وليس هناك سواها ، وكأن لابلاد أخرى وراء حدودها من النخل وخلف النهر ؟!

فى تلك الليلة التى نصبوه فيها عمدة ،وجلس على كرسى أبيه فى غرفته الكبيرة ، وقد غمرته مشاعر مختلطة من الزهو والحزن ، كما أحس بشىء من الوحدة ، وحوله حزمة من الخفراء ثم صرفهم صرفا حسنا ، وظل يبكى وحده كطفل ضاع من أمه فى السوق ، ولايعرف سبيلا إلى الخروج من الزحام وتحت الأقدام .

ياترى مايعيشه حقيقة أم وهم ؟!وهل هو وسيلة أم غاية ؟! ياترى أهو علة أم معلول ؟!

أشياء كثيرة تزحم عقله الضيق ، وتضرب أمواجها رأسه ، غضب مفاجىء يملأ قلبه ، تملكته حالة من الفتور ممزوجة بالغرور ، ولم يعد يبدى اهتماما بشىء .. لاشىء يهم .. وصوته صار زاعقا ، وتصرفاته صبيانية جنونية كأنما تنتابه نوبات صرع مفاجىء ، يسب الخفر ويلعن الخدم لأتفه سبب ، وإن كان يبدى إهتماما بالغا بالغرباء مثل المأمور أورئيس المباحث أومدير المديرية .. ويبدو رزينا عاقلا راسخا ، وحينما يغادرون سرعان ماينتفض هائجا .

رفاق الليل وشلة الأنس هجروه ـ إلاقليلا ـ منذ شيوع هياجه وسبابه للجميع بلا استثناء ، واليوم أصبح بيده أمر العزبة ورقاب أهلها ، ويستطيع بمكالمة هاتفية لاتزيد مدتها عن دقيقة واحدة لرئيس المباحث فى المركز أن يطيح بمستقبل أى شخص ، ويخفيه وراء الشمس ، وأحيانا يعكف على الشيشة الملعونة ينفث دخانها بشراهة ، ويصدر أوامره لكل من حوله ، ويخيل للناظر إليه أنه إمبراطور لكنه فى الحقيقة يشعر بجراح مفتوحة بداخله لايراها أحد ولايحس بها سواه .

وحين يمسك السفيه بالشاكوش سيرى كل ماحوله مسامير تستحق الطرق على رؤوسها .. وأحيانا ينتابه الصمت حتى يظن كل من حوله أنه فقد الرغبة تماما فى الكلام إن لم يصبه الخرس !

كان الناس فى عهد والده عوض أبودومة يخافونه كولد متهور أرعن أهوج .. أما الآن وقد استقر سيف العمدية فى يده فقد زاد رعب أهالى العزبة منه ، ومعهم حق .. معهم كل الحق .

أنه يستطيع أن يشى بأى مواطن ، ويتهمه بأنه يعمل ضد الدولة ، وأنه ينتمى لجماعة محظورة ، وحينئذ يقرأ هذا المواطن الفاتحة على روحه !

فى أحد الأيام الشتوية استفاق من حزنه وخرج من همه ،وجمع من كل عائلة شخصا ثم أصدر التعليمات بأنه غير أبيه ، وليس لديه الصبر على حماقة الحمقى ، وطالبهم بضرورة حل خلافاتهم قبل ظهورها للعلن وإلاسيلقى المخالف جزاء مفزعا ، ودعاهم لحل مشاكلهم بأيديهم لابيده ولابيد الحكومة ، فليس لديه صبر ولاطاقة على

المناهدة والمهاترة مع أشخاص عقولهم فى أحذيتهم ، وعليهم جميعا أن يكونوا كموج النهر يدفع بعضه بعضا إلى الأمام ، كل موجة تسند الأخرى وتساعدها على التقدم ، وهاهو النهر ليس ببعيد عنكم لماذا لاتتعلمون منه أريدكم أن تكونوا بشرا لابهائم فى حظائر الماشية ؟!

فى مندرة والده الواسعة - التى كان يفضل الجلوس فيها لحل مشاكل الناس - وتقع فى الناحية الجنوبية من الدوار لوحة كبيرة معلقة على الحائط تتوسط الجدار المواجه للباب الخشبى العتيق ، وهى فى مرمى بصر الداخل ، وفى ظهر الخارج بينما يجلس العمدة على أريكة خشبية عتيقة فوقها سجادة أسفنجية مريحة .. مكتوب فى اللوحة بخط كوفى جميل مزخرف بعناية :

- أربعة لا أمان لهم فى هذا الزمان .. احذر منهم واحترس .. المال لوكثر ..والسيف لوكان بيدك ..والمرأة لوطالت عشرتها .. والدهرلوصفا لك !

تأملها بإمعان وبات واضحا أن عزبة الحنكاتى وأهلها على موعد مع أيام سوداء .. ولم لا والسيف والسلطان والعمدية والصولجان تحت يد فراج أبودومة الحاكم الجديد للعزبة خليفة أبيه على كرسى العمدية .

جمع الخفر والمخبرين وكانوا وقوفا أمامه فى وضع انتباه حذر ، وهو جالس يتصدر المكان منفوش الريش مثل الديك الرومى فى عز مجده ، يحاول أن يملأ مقعده الجديد الكبير ، ويفرض سطوته على الجميع ، فهو العمدة وحاكم العزبة وولى أمرها .. ثم اعتدل فى جلسته قائلا :

- اسمعوا منى وإلتزموا بكل حرف أنطق به .. إن زمن الرجل الطيب عوض أبودومة انتهى ولن يعود .. الله يرحمه رحمة واسعة بقدر تحمله لكم ، ولهذه العزبة البائسة التى ابتلانى الله بها وبكم .. اليوم ليس كالأمس ، وأنا لست كأبى .. هذه العزبة لن أتركها تسرح وتمرح على حل شعرها .. أريدكم أن تكونوا عيونا مفتوحة ليل نهار .. أريدكم آذانا أكبر من أطباق الدش على الأسطح تسمع دبة النملة .. أريدكم فى حركة دائمة كالنحل .. مهمتكم مراقبة البلد كلها صغيرها قبل كبيرها ، وليس مهمتكم حراسة البلد لأن البلد يحرسها ربها ،للعزبة رب يحميها ، وبالليل كل واحد منكم يأخذ مكانه فى حراسة مكتب البريد أوالمدرسة أوالوحدة الصحية وغيرها من الأماكن .. الناس فى عزبة الحنكاتى أمكر من الثعالب اللئيمة ، وأخبرونى بكل شاردة وواردة ، أريد أن أعرف كل شىء عن كل شخص فى هذه العزبة .

وأخيرا أشار لهم أن يجلسوا ، وجلس بعضهم على الأرض وبجواره بندقيته القديمة الطويلة التى تشبه المدفع ، وبعد ذلك أمرهم بالإنصراف ، وهو يؤكد لهم انتظاره لتقارير شفوية وأخبار ساعة بساعة عن حركة الحياة على أرض العزبة ، وكل دابة تمشى فى أرجائها سواء كانت من ذوات القدمين أومن ذوات الأربع !

عاد فراج أبودومة - بعد أن سقطت التفاحة فى حجره ، البلد كلها صارت ملك يمينه ورهن إشارته - يفكر فى فاطمة ، وكيف ينتزعها من رضوان ابن خالتها الذى فضلته عليه ، ولن يعدم حضرة العمدة الوسيلة ، ولن يستعصى عليه عاص أوعاصية ، والأيام كاشفة .

وقد عاد أيضا إلى شلته القديمة وسهراته المتجددة فى الليالى الطويلة ، وهذه المرة بدا لطيفا ودودا مثل طفل يلهو ويمرح مع رفاقه الصبيان ، ، يأكل فيأكلون لحم طير شهى ممايحب ويحبون ، يدخن فيدخنون حتى عبأوا المكان كله بسحب من دخان ، فيما راح حضرة العمدة يدير مؤشر الراديو من محطة إلى محطة ، وكلما أصاب محطة عربية جاءه صوت كوكب الشرق تشدو فإذا إنتصف ليل العزبة ملأه صوت الست أم كلثوم ،وهى تصدح فى الكون كله ، وهم فى غمرة يأكلون ويدخنون ويتسامرون كأنهم فى آخر ليلة من أعمارهم .. ينهض حجاج ليرقص بحركات بهلوانية كاريكاتورية ، يهز بطنه يمينا وشمالا ، ويعلو صوت التصفيق ، وتعلو القهقهات ثم تخيم النشوة وتسرى الغيبوبة بخدرها فى أوصالهم ، لاشك أن الكل قد فرحوا واستمتعوا بالليل ومالذ وطاب ،

وفجأت دوت طلقة رصاصة بالقرب من البوابة الرئيسية للدوار ، فكتمت كل الأصوات ، وكأن الراديو قد سكت ، وتوقفت الست كوكب الشرق عن الغناء لتستطلع الأمر معهم .. فتح العمدة فراج النافذة فتسرب الدخان الدافىء إلى الخارج ، وتسرب الهواء البارد إلى الداخل ، وصرخ من النافذة :

ـ من الذى أطلق النار ؟!

جاءه صوت الخفير هنداوى المكلف بحراسة الدوار فى هذه الليلة قائلا :

ـ رأيت شبحا يطوف حول الدوار فأطلقت عليه النار .

ضحك العمدة قائلا :

ـ لاتنم وتحلم بالأشباح ، وأنت واقف مثل الخيل ياخفير هنداوى ثم تفيق فجأة وتطلق النار وأنت مغمض العينين فتصور لنا قتيلا فى نهاية الأمر !

****

(21)

تحت شمس الخريف الطازجة ، ينطلق رضوان ونشوة الحب تسرى فى شرايينه ، وطعم العسل لايفارق شفتيه من آثار فاطمة ، يصعد إلى النخيل العالى الذى يرفع هامته كأنه يود أن يطبع قبلة على جبين السماء .

فاطمة لاتشبه أحدا على الإطلاق .. تملك البراءة الكاملة ، نصف الطيبة مزروعة فى قلبها ، والنصف الآخر تكحل به عينيها ، يراه واضحا حين تضحك وتتسع عيناها دهشة ، يتعافى بقدر قربه منها كأنها مزيج من أدوية مستوردة ، مالامست شيئا بيدها إلا ومنحته شعور الحب وحنان الأمومة ، هو وليد اللحظة معها إن تمايلت أوتدللت .. فتاة ليس لها مثيل ، وليس من نسختها سواها ، مكتوب على من يريد قربها المعافرة بكل جهده ، لأن لذة الوصول إليها تمحو ماقبلها من مشقة مثل التوبة تماما تمحو كل الخطايا وتغفر ماقبلها !

قوة فولاذية تدب فى أوصال الفتى فيصعد بثقة واقتدار بأقل جهد وأسرع عزم ، بيده منجل حاد وباليد الأخرى حبل من التيل المتين رمادى اللون يلفه حول وسطه بعناية حتى يتمكن منه ، ومن النخلة التى يمتطيها بيسر ورشاقة ، وبخطى متتابعة يرتقى لأعلى جسد الشجرة المثمرة التى لايقل إنتصابها عن خمسين مترا فوق الأرض ، والتى تجود على أصحابها بحوالى 300 كيلو بلح فى الموسم ، وهى ترفع رأسها لتباهى الزمن بأنها أقدم شجرة مثمرة عرفها الإنسان منذ خلق الله آدم وحواء .

من بين السماء والأرض يهبط البلح بألوانه المختلفة وأطواره المتعددة الأخضر والأصفر والأحمر والأسود فيه غذاء وشفاء .

إن النخل مثل الإنسان يحس ويغضب ويفرح ، ويشيب ويمرض ويموت واقفا .. أحب حضرة النبى الكريم تلك الشجرة المباركة وعاش على ثمرها ، وكان له فى الأسودين حياة (التمر والماء) كما روت السيدة عائشة أم المؤمنين .

كان رضوان يشعر أنه فى مهمة مقدسة ـ ليس كمثله أحد ـ ويشعر بالامتنان الكبير لعبد المنعم شعيشع ذلك الفلاح الطيب الذى علمه الصيد من هامات النخل ، علمه صيد الفاكهة من الأعالى ، ولم يعطه ثمرة وكفى بل علمه كيف يصطاد البلح من عنان السماء !

لايدرى الفتى لماذا يحس بالزهو العظيم ؟! يصعد فى الفضاء بين الأرض والسماء ، ويمتطى شجرة مستقيمة لها أظافر ومخالب وعمرها يزيد عن 6 آلاف عام ، ومنذ قديم الأزل اتخذ الإنسان ـ فى الصحارى والبرارى والوديان ـ من ثمرها غذاء .. ومن جذوعها وأغصانها كساء وسكنا وفرشا ، كما قامت صناعات كثيرة على ثمرة البلح ، وأصبحت مصدرا للثروة للعرب وبلاد العرب .

ويعود إلى داره وفى يده حبات الياقوت مدلاة من سباطة خضراء تسر الناظرين ، وتسعد قلب فاطمة ، ولاتشبع منه وفى جيبه حفنة جنيهات فتلقاه فاطمة بالابتسامات العذبة كماء النهر ، تأخذ البلح وتغسله بعناية وحرص ، وتضعه أمامها فى طبق فضى كى يشاركها تذوقه والتلذذ بعسله ، ولايشبع من مغازلتها ،ويهمس لها مرارا وتكرارا دون أن تشبع أوتمل من معسول كلماته .. بأنها أجمل هدية له من السماء ، وأنها أحلى نخلة فى حياته كلها ، فتحتضنه بسعادة ، ويحس بحرارة جسمها الطرى الرقيق المياس ثم يهمس :

ـ أحبك يافاطمة .. أحبك .

تضحك بدلال ، وهى بين ذراعيه وثالثهما الحب ، ويملأ عطرها أنفه وصدره ورأسه ، وفمه يندس بين خصلات شعرها الناعم الطويل المسترسل ، يطوف حول عنقها المشدود كفرس عربى أصيل ، وهى تتلوى بين يديه كأنها لاتصدق كل هذا الحب .

ولاتصدق أنها تفعل ماتفعل مع ابن خالتها وحبيبها ورجلها ، يرتويان كثيرا من نهر الحب بعد عطش طويل ممتد ، ثم تتملص من بين ذراعيه تملصا ناعما مثيرا ، وتهرول ناحية المطبخ قائلة :

ـ الأكل على النار سيحترق .

يلاحقها رضوان ويمسك يدها ، وينسى كل ارهاقه كما نسى كل شىء حوله ، ولايريد سواها فى قبضة يده كما هى فى قبضة قلبه ،ويخشى عليها أن تطير من بين يديه كطائر حر يحاول الفرار وقدماه فى الفخ .. ولكنها تهمس له بدلال :

ـ اتركنى يامجنون .. النار ستحرق الطعام .. توقف عن الغرام .

يأخذها بين ذراعيه بقوة من جديد ،ويمطرها بوابل من القبلات بينما تمد يدها لمؤشرالنار فتخفض الحرارة ، ورائحة البامية باللحم الضانى تفوح فى الدار وتثير شهيته ،وتلك وجبته المفضلة ..ويهتف بفرحة طفولية :

ـ بامية .. الله .. بامية أحمدك يارب .

عاشا سويا وكل منهما يسكن الآخر ، وجعل بينهما مودة ورحمة .. وملائكة الحب ترفرف على عشهما الهادىء الحالم ، يطارحان بعضهما الغرام ، وينهلان من لذة الحياة ، والأنس والألفة والحكايات اللطيفة تقربهما أكثر وأكثر ،وفور اكتمال تمام الأشهر الثلاثة الأولى لزواجهما هلت البشرى وجاءت البشارة ، وبلغت الفرحة ذروتها :

ـ فاطمة حامل .

عندئذ وفور سماعه الخبر السار كاد يطير من فوق الأرض ، ويحلق فوق أعناق النخيل الذى يطوف حول العزبة ويطوقها كأن هذا النخل أجناد ساهرة تحرس الجميع فى عزبة الحنكاتى .

أسرع إليها يضمها برفق ، وقد أقبلت عليه بعينيها الكحيلتين الصريحتين العاشقتين ، ومدت يديها إليه تضعهما فى يده ، وقد انحنى مقبلا يديها ورأسها ثم جثا على ركبتيه ، وقبل بطنها التى تحمل ثمرة حبهما .

طفرت من عينيها قطرات من دموع حارة ، واختلط عليها الفرح بالأسى ، وهى لاتصدق أنها أصبحت على وشك أن تكون أما .. وهو كذلك لايصدق أنه على وشك أن يصبح أبا .

مد يده لوجهها يجفف دمعها ثم قال :

ـ لاتبكى ياحبيبة العمر .. تلك أسعد لحظة فى حياتنا ..اليوم نسعد ونضحك ونصلى ونشكر ربنا .. إن البكاء حزن ورفض وسخط .. وعلينا أن نعلن القبول والرضا بنعمة الله .

دست وجهها فى صدره ، ودفنت رأسها بالقرب من قلبه ،ومد يده فسحب رأسها ، ووضع كفيه على خديها حتى صار وجهها فى مواجهة وجهه تماما ثم نظر فى عينيها وهمس قائلا :

ـ مبروك ياحبيبى ..هذا أسعد يوم فى حياة حبنا .

عادت وأطلت فى عينيه ، حدقت فيهما بعينيها الواسعتين وقالت:

ـ ماذا ترى فى عينى يارضوان ؟!

ـ أرى فيهما كل شىء ..أرى لهفة وشوق .. وقريبا نرى حبنا يدب على الأرض بقدمين صغيرتين .. قريبا نرى حبنا زهورا تلعب حولنا !

همست قائلة فى أذنه وكأنها تخشى أن تسمعها جدران الدار :

ـ أحس أننى أحلم يارضوان .

ـ الحلم تحقق يافاطمة .. ستصبحين أجمل أم فى الدنيا كلها .

ضحكت قائلة :

ـ لاتبالغ يازوجى الحبيب .. هناك أمهات أجمل منى ..

ـ لا .. أنت يافاطمة أجمل وأصغر أم .. أنت جوهرة غالية وهدية لى من رب العالمين .

انتشت لكلماته المعسولة :

ـ قل لى يارضوان .. ماذا تريد ؟!

ـ كل مايرزقنا به الله خير ..كله خير .

ـ ولد أم بنت ؟!

ـ كله نعمة .. وهل هناك أجمل من بنت تشبه أمها ، وتكون أم أبيها وسره وسبب رزقه ؟! وهل هناك أجمل من ولد نعمة من الله يكون هو السند لأبيه ، والحامى له من غدر الزمن ومكر الأيام ؟!

ـ آه يارضوان .. يعجبنى فيك قبولك بالقليل ورضاك بالمقسوم مهما كان .

ـ وهل هناك ياحبيبتى أفضل من قبول هدية الله برضا وامتنان سواء كانت تلك الهدية ولد أم بنت ؟!

ظل مؤرقا من نشوة المفاجأة السارة ، يشعرأنه فى أول الربيع ،وقريبا يكون فى حوزته أول البراعم ، هبة الطبيعة البكر ، وإن أدرك أن الحب نعمة كبيرة من الإله .. الحب هو الحقيقة الوحيدة التى تعلو على حقائق كل علم وكل سياسة ،ودعا ربه فى سره أن يديم عليه الحب وفاطمة ومافى بطنها .

تنهدت وهى تحملق فيه بإعجاب وقالت :

ـ من أين يأتيك هذا الرضا بالمقدر لك من ربك ؟!

ـ يافاطمة .. إن الإيمان هو الذى يمنح المرء كل الرضا والقناعة والسكينة ، والأمر لايحتاج إلى تعليل ولاتفسير لأنه من الله وإلى الله ، إيمانى ببعض الأشياء وهى قليلة حيث يراها غيرى كذلك ، وإن كنت أراها أنا عظيمة وأكبر مما أستحق .. ليس هذا فحسب بل أننى لاأرهق نفسى بإثبات ذلك بالبرهان .. الإيمان دون حجة فضيلة عظمى ، وإن جاء الإيمان نتيجة الحجة زالت عنه الفضيلة .

مرت الشهور الستة الأولى بردا وسلاما على فاطمة ، تحوطها أمها بأجنحة الرعاية ، وتخدمها حماتها التى هى خالتها بعين العناية ، وحين ذهب بها رضوان إلى الوحدة الصحية نصحها الطبيب بالراحة التامة ، والإلتزام بالأغذية الصحية الملائمة لظروفها ، وكتب لها روشتة بمجموعة من المقويات والفيتامينات ، ثم وضعها على جهاز الأشعة التليفزيونية ليطمئن على حالة الجنين فكانت المفاجأة .. عندئذ تبسم الطبيب ـ بعد أن رأى مارأى ـ فسأله رضوان بشىء من القلق :

ـ كيف الحال يادكتور ؟!

ـ اطمئن .. كل شىء على مايرام .

تمتم بكلمات فيها حالة من الإطمئنان والأمان وردد :

ـ الحمد لله رب العالمين .

وبفضول أنثوى لطيف تساءلت فاطمة :

ـ مانوع الجنين يادكتور ؟!

ـ لاياست فاطمة .. نود أن تكون مفاجأة .. مبروك لكما بماهو قادم .

ـ ماذا تقصد يادكتور ؟!

ـ لاتسألينى عن نوع المولود .. ولكن يمكن أن تسألينى عن العدد !

هتف رضوان مندهشا :

ـ العدد .. ماذا تعنى يادكتور ؟!

ـ أقصد عدد الضيوف الذين يتأهبون ليشرفوا الدنيا خلال أسابيع قليلة.

نظرت فاطمة إلى زوجها بإستغراب ثم عادت تحدق فى الطبيب ، وصوبت نظرها إلى لوحة بديعة على الحائط وراءه لسيدة يظهر فى بطنها ثلاثة أطفال ، فشعرت بإمتزاج السرور بالفزع من أن يكون مصيرها مثل تلك السيدة

التى تبتسم على الحائط ، وتضع يدها على بطنها ، وتنظر للثلاثة بداخلها ، وعلى تقاسيم وجهها دهشة عجيبة وسعادة غريبة .

ساد الصمت ، وخيم على المكان سكون ، وأدرك الطبيب أن فاطمة عينها على اللوحة فإستدار قليلا وأشار للوحة قائلا :

ـ آه .. اللوحة كلها أمومة .. لكنك لن تصلى إلى هذه الدرجة .. العدد الذى ذكرته لكما أقل .. فى بطنك يافاطمة ولدين توأم فقط .

انفرجت أساريرها ولولا ثقل وزنها وحملها المزدوج لطفلين لقفزت كعصفور يطير ،وينتقل بسعادة بين الأغصان لكنها لم تتحرك ، وإن تحركت فيها كل المشاعر الطيبة ، ونظرت لرضوان الذى ظهرت على وجهه آيات العرفان والإمتنان لله ، والحب لزوجته ثم همس وعينه لاتفارق وجهها :

ـ الله أكبر .. الله شكرا .. شكرا لك يادكتور .

مد يده يمسك بيد فاطمة ، وأخذ الروشته من الطبيب وانصرفا من الوحدة الصحية تحفهما البهجة ، ويأملان أن يتم الله عليهما الأمر بسلام ، وكلمات الطبيب ترن فى أذنيهما وهما يغادران غرفته :

ـ أراك بعد أسبوعين ..أرجو الإلتزام بالتعليمات .

ـ إن شاء الله يادكتور .

وفور أن غادرا أبواب الوحدة أومأ لها أن تنتظر ، وأشار لتوك توك أن يتوقف ..

تبسمت لاهتمامه وخوفه عليها وقالت :

ـ المسافة ليست بعيدة يارضوان، والدكتور قال إن المشى مفيد لى .

ـ يافاطمة أنت الآن لست شخصا واحدا ياحبيبتى ..أنت باسم الله ماشاء ثلاثة فى واحد !

ضحكت وقالت :

ـ معك حق .

ثم اتكأت عليه حتى رفعت قدميها عن الأرض ، وألقت بنفسها داخل التوك توك ، وسبقته فى الجلوس ولحقها بالدخول والجلوس بجوارها وقال لرجب سائق التوك توك :

ـ وصلنا للدار لوتكرمت .

هز رجب رأسه وقال بأدب :

ـ أمرك يارضوان .. ألف سلامه .

ـ الله يسلمك ..

وانطلق رجب بالتوك توك فى شوارع العزبة متجها يمينا ويسارا بسرعة ، وخشى رضوان على فاطمة من الحفر والمطبات وأرضية الشوارع الرديئة فقال محذرا :

ـ يارجب لسنا فى عجلة من أمرنا .. أرجو أن تسير بهدوء لأن فاطمة حامل .

استجاب رجب وقال :

ـ حاضر .. حاضر .

وبالفعل خفض من سرعته ، وبدأ يسير بشىء من الهدوء ، ومدت فاطمة يدها تمسك بيد رضوان ، وعلى وجهها امتنان دون أن تنطق بكلمة ،ومالت برأسها على كتفه ، ويغمرها احساس بالحماية والأمان ، وفى سرها تحمد ربها ،وتشكره على أن وهبها هذا الفتى ـ ابن خالتها وزوجها وحبيب عمرها ـ منذ فتحت عينيها على هذه الدنيا ، ورأته ولعبت معه فى طفولتها ، وذهبت معه إلى المدرسة حتى آن الأوان ،وعاشت معه فى كنفه تشاركه داره تقتسم معه رغيف الحلم وخبز الحب .

عند عتبة الدار يتوقف ، يبادلهما التحية ، فيدس رضوان فى يده ورقة مالية فئة متوسطة ثم يدخلان إلى أمه بالخبر السار ، ولم تصدق المفاجأة ، ومن فرط فرحتها أطلقت زغرودة ثم أتبعتها ببكاء حار ، وسألها ابنها وهو يحتضنها ويهدىء من إنفعالها :

ـ يأماه .. ما الذى يبكيك الآن وأحفادك على الأبواب ؟!

جففت دموعها ونهنهت قائلة :

ـ كنت أتمنى أن يكون أبيك معنا الآن ، كنت أود أن يعيش حتى يرى أولادك ، أظنه ساعتها سيكون أسعد الناس فرحا بك وبأولادك .

ـ الله يرحمه ويحسن إليه .

ـ آه ياولدى .. أين الزمن الذى كان وكنا نعيش فيه وهو معنا ؟!

ـ هذا أمر الله ياأمى .

ظلت تهذى ، وتسترجع ذكريات قديمة ، وكيف كان الحال فى سابق الأوان .. تنعق كالبومة الحزينة ، ويغالبها الحنين للماضى المستحيل ، ولزوجها الغائب الحاضر ، وتكاد تحول الحدث السعيد إلى مرثية سوداء .

انفصلت عن دنيا فاطمة وفراج ، وغرقت فى بحر من الذكريات .. استدعت الأهل والأحباب بشخوصهم ومواقفهم وسماتهم وصفاتهم من بطون السنين وبطون القبور !

لم تعد تحس بولدها أوتسمعه ، وكانت فاطمة قد نفضت يدها من أمر حماتها وذكرياتها وأمواتها ، وصعدت إلى الطابق الثانى من الدار حيث الراحة فى غرفة نومها .. وبعد دقائق صعد رضوان خلفها ، فوجدها صامتة شاخصة مسترخية فى الفراش تفكر ..اقترب منها مستغربا ثم قبل رأسها وربت عليها بحنان قائلا :

ـ ماذا بك ياحبيبة العمر ؟!

ـ خائفة .

ـ من أى شىء ؟!

ـ من لحظة الولادة ..هى لحظة فارقة بين الحياة والموت .. ولونجوت منها ..كيف أرعى التوأم ؟!

ضحك مستبشرا وقال :

ـ لاتخافى ياحبيبتى ..الله يفعل كل شىء ..ألاف النساء تلد كل لحظة ، فالأمر أسهل كثيرا مما تظنين بأمر الله .. أما عن رعاية الطفلين ، وتربيتهما فلاتنسى أن أمى معنا فى الدار ، وستعطيك كل خبرتها .. من حقك الآن أن تلقى بالخوف فى قلب النهر وتنسى الأمر ، وتستحضرى الفرح الذى تستحقينه ، وأنا أشاطرك هذه اللحظة السعيدة من حياتنا .

ـ لاأصدق أننى بعد أسابيع قليلة سأكون أما .

ـ كل أنثى خلقها الله أعدها لتلك الرسالة وحببها إلى الأمومة ، وحبب الأمومة إليها .. تلك هى الفطرة الطبيعية لكل امرأة .. وعندما تحرم أى امرأة من هذه النعمة الكبرى تكاد تحس أنها شجرة عجفاء لاتثمر على الإطلاق .

هزت رأسها واحتضنته وأحست بإرتياح شديد ، وهو بجانبها يدعمها ويشد من أذرها حتى يكرمها ربها ،وتحظى بحلم كل امرأة ، إنهما متفقان بالفعل ، وإن حاذر ألاتتسرب دموعه من فرط حبه لها ،وخوفه عليها ولأسباب أخرى أهمها أنه سيدخل دنيا أخرى .. دنيا جديدة حين يصبح أبا يتحمل مسئولية طفلين .. لابأس تلك هى الحياة كالنهر المتجدد دوما .. الحياة التى لاتخلو من الإثارة !

لاشك أنها لحظة مربكة لاتخلو من التشويق ، فقد طار الخبر كما تطير العصافير فوق النهر ساعة العصارى إلى الحاج عبدالعاطى عبر الهاتف المحمول فجاء على جناح السرعة والسرور ،وبصحبته أم فاطمة تحمل فوق رأسها مالذ وطاب من البط والدجاج والحمام والجبن والزبد والألبان الطازجة لترمم بنيان ابنتها ،وتغذيها كى تهب الكون ولدين وسيمين قسيمين مثلها ، جاءت بقفة كبيرة فوق رأسها عامرة بكل مااستطاعت جمله من خير الأرض والطير .

إنها اللحظة الخارقة الفارقة للأم ،ولكل أم حين ترى ابنتها على وشك الإلتحاق بطابور الأمهات ..وكان الحاج عبدالعاطى معجبا بامرأته الجميلة التى أنجبت له ابنة جميلة أيضا ، وهاهى على وشك أن تنجب له أحفادا ، لكن ثمة خاطر عجيب يطارده ويلح عليه الآن .. كيف ستلد ابنته الرقيقة الهشة الشفافة كلوح زجاج رقراق ولدين دفعة واحدة ؟!

يفكر فى أن يوجه سؤالا بهذا المعنى إلى زوجته .. لكنه تراجع عن هذا السخف ،وإن ظل السؤال يدق رأسه فيلقى به إلى أم فاطمة ، وهما فى طريقهما إلى دارها .. كان كمن يفكر فى أن يلقى قنبلة ثم يهرب خوفا من حرائقها ، فجاءت النتيجة عكس ماتوقع ، وقالت زوجته بحكمة الزمن وخبرة السنين :

ـ ماذا أصابك ياحاج عبدالعاطى .. ألاتدرى أن الله يسخر الملائكة لتساعد المرأة التى تلد ؟! ابنتنا ليست أول ولاآخر امرأة تلد ..وإن كنت تستكثر عليها أن ترزق بتوأم فهذا فضل الله ، ولاتنسى أن سبيلة زوجة عواد أبوسويلم ولدت خمسة توائم دفعة واحدة العام الماضى ، وزهرة بنت الشافعى ولدت أربعة توائم العام قبل الماضى ، علينا ألاننظر إلى رزق الله لفاطمة بعين الريبة .

ـ لاأقصد يأم فاطمة أى شىء ،وإنما أخاف عليها فحسب .

ـ ياحاج عبدالعاطى قوة المرأة فى لحظة ضعفها ، وضعفها قوة وهذا اعجاز إلهى ، وأمر الإنجاب لاحول للرجل أوالمرأة فيه بل الحول والقوة لله دون سواه .. هل أنا التى تقول لك هذا الكلام يارجل يامؤمن ؟! أنت رجل قارىء لكتاب الله ، وتعرف إعجازه وقدرته .. سبحان من يقول للشىء كن فيكون .

دق الباب وأشار لها أن تغلق فمها وتكف عن الثرثرة ، ودخلا الدار تحفهما زهوة الفخر ونشوة النصر ، وأم رضوان تزغرد وترد عليها أختها أم فاطمة بزغرودة أطول منها !.. وفور أن دخلت على ابنتها احتضنتها بشوق وهمست فى أذنها :

- مبرووك .. مبرووك ياقلب أمك ..ربنا يتم فرحتك على خير .

ثم غمرتها بالقبلات ، وتنحت بها جانبا تصب فى أذنيها نصائح ترتبط بالراحة والغذاء وممارسة الحياة ،وأعمال الدار برفق ، وتؤكد لها أن الحال قبل الحمل غير الحال بعد الحمل ، وعليها ألاتجهد نفسها فى أى شىء حتى الحب !

تبسمت فاطمة بمكر وفهمت ماترمى إليه أمها .. ثم سكتت ولم تعلق ، وإن اكتست ملامحها بحمرة الخجل ، وتورد خداها ، ولمعت عيناها ببريق أخاذ بينما ارتكن الحاج عبدالعاطى على كنبة مريحة فى صحن الدار يداعب رضوان ويهنئه ، وبسرعة جاءت أم رضوان بعصير الليمون الطازج ، وسحب من السعادة ترفرف على الدار وأهلها ، ويحدوهم الأمل فى أن يأتى التوأم فى الموعد المعلوم كى تمتلىء الدار بهما بهجة ،وحركة وضجيجا مفرحا .

لم تطل زيارتهما وسرعان ماغادرا الدار بكل سرور وحبور بالتحيات الطيبات ،والأمنيات الآجلة والعاجلة ، وعلى الله قصد السبيل .

نظر رضوان إلى زوجته فخيل إليه أن على وجهها سحابة من التجهم .. ضاقت عيناها رغم اتساعهما ، وزمت شفتيها ، كان يتطلع إلى ليلة هادئة هانئة يتعاطيان فيها الحب ، ويتمنى أن يضمها بين ذراعيه مثل عاشقين قديمين جديدين لكنها أطفأت مصباح أمله وفاجأته قائلة :

- أمى أخبرتنى أن فراج أبودومة بدأ يضايق أبى ، ويحول بينه وبين دوره فى رى أرضه .

قال رضوان :

- ربنا يهديه .. لكن ماالعمل الآن ؟!

- لاأدرى .. لكن لاتظهر أنت فى الصورة ، ولاتتدخل لأنك تعرف أنه يكن لك حقدا دفينا فى صدره ، ولديه كراهية لك لووزعت على أهل العزبة جميعا فلسوف تكفيهم ، ولوألقيت تلك الكراهية فى النيل للوثته على الفور ، وأخشى أن يرتكب حماقة أخرى أكبر ،وأخطر من مسألة سقاية الأرض ..- سأذهب إليه وأتحدث أنا معه لعله يستجيب ويسمع لى .

استغرب الأمر :

- وهل تظنين ذلك ؟!

- ربما .. لن نخسر شيئا .

بعد تفكير سريع قال :

- لامانع يافاطمة لكن بشرط ..

- وماهو هذا الشرط ؟!

- أن أكون معك وإلى جوارك ياحبيبتى .

كان قريبا منها على حافة الفراش ، يتنشق عطرها ويداعب خصلات شعرها الطويل الأسود المسترسل ، وأملها فى ليلة حب يقص شريطها بعد قليل ، لكنها كانت مشغولة البال مشدودة الأعصاب لاتعزف معه على نفس الأوتار .. فكرت لحظات ثم قالت ، وهى تبعد يده عن شعرها بلطف ورقة ، وتتراجع قليلا حتى توقف تيار الملامسة :

- لايارضوان أرجوك .. أنت تعرف أنه يغار منك .

- ربما أستطيع مساندتك .

- وجودك يارضوان سيزيد المشكلة تعقيدا .. فراج أبودومة صعب المراس أحمق الرأس ولايقدر الناس ، ويريدهم تحت قدميه مجرد مداس !

- وهل لوذهبت إليه وحدك يافاطمة تأمنين حماقته ؟!

- لاتخف يارضوان سأحدثه فى عقر داره ودواره بشجاعة ،وأمام الناس والخفر والحراس ، فلاتقلق وأظنه لن يكسر بخاطرى ولن يردنى خائبة الرجاء .

هز رأسه وسرت الغيرة فى نفسه ثم تنهد قائلا :

- ومن أين لك بهذا الاحساس وتلك الثقة فى مثل هذا الشخص الأهوج ؟!

- لاأدرى ..

- أنت تعرفين أنه يحبك يافاطمة ؟!

- أعرف .. لكن لايهمنى فى الدنيا سوى شخص واحد اسمه رضوان.

- أواثقة ؟!

- مثلما أراك الآن .. لكن لايهمنى إن كان يحبنى أويكرهك .

تلاشى الضيق وذهبت الغيرة أدراج الرياح ،ولم ينطق بل رسم ابتسامه على محياه .. فاسترسلت قائلة :

- أنا أرى العمدة فراج أبودومة مريض نفسيا لايستحق سوى الشفقة منى ومنك ومن الجميع، وليس على المريض حرج !

- ألاتسمعين عن أفعاله السفيهة ، ومصائبه المتهورة التى يرتكبها كل يوم فى حق عزبة الحنكاتى وأهلها .. والآن تصرين على أن تذهبين إليه فى داره لتتحدثى معه بالعقل والحكمة ؟!

قالت بنبرة ثقة :

- سأحدثه بالعقل وأظن أنه سيستجيب .. غروره سيجعله يستجيب ليظهر أمامى كأنه بطل شهم .

- ألهذه الدرجة تدركين تركيبته النفسية والعقلية ؟!

- يارضوان ياحبيبى .. لايهمنى أمره ، ولاأنظر إليه نظرة السليم إلى المريض ، ولانظرة السعيد إلى التعيس ..معاذ الله .

ثم تبسمت ومدت يديها تمسك يده وعلى وجهه شىء من الغضب ثم قالت بدلال :

ـ أتغار منه ؟!

ـ يافاطمة أنا لاأعرف الغيرة ، وليس لى فى هذه الدنيا سواك .. أحبك فقط .. لاأغار من أحد وهولايدخل فى حساباتى .. ولكن أود أن أسألك .. هل تحبيننى ؟!

ضحكت وأدركت بدهاء الأنثى مايعتمل فى قلبه من الغيرة عليها ، ونظرت إليه نظرة ذات مغزى ثم ألقت أصابعها الناعمة الرفيعة على وجهه ،وضغطت أظافرها برفق فى جلده ولم تقل شيئا ، بل استمرت تدغدغ حواسه كأنها تدق مسامير العشق فى جسده ثم ألصقت شفتيها بخده الأيمن ،وطبعت قبلة على وجهه المستسلم ، ثم نزلت بشفتيها حتى استقرتا فى مكانهما المفضل فوق شفتيه ، والمسامير تخترق كل مسامه وهو فى حالة من الخدر والسكون والسكينة كأنه على أعتاب الجنة يشم ريحها ،ويكاد يمس ثمارها ويرى أنهارها ، وقطوفها دانية منه إلا قليلا !

****

(22)

مع بزوغ أول ضوء للفجر ، وانحسار عتمة الليل عثر الحاج عبدالعاطى ـ وهو فى طريقه للمسجد مارا بدوار العمدة ـ على شخص ملثم ملقى على وجهه ، والدماء تسيل منه ، ويبدو أن النزيف قد بلغ منه مداه فأغمى عليه ، وصار أقرب إلى الأموات !

صاح الحاج عبدالعاطى مناديا على الخفر فهرول الخفير السباعى ، وتبعه الخفير هنداوى حيث مصدر الصوت ، فأشار لهما نحو الشخص المسجى على الأرض .. عندئذ صرخ السباعى :

ـ من هذا ؟! ومن الذى أطلق عليه النار.. إنه مصاب بطلق نارى فى فخذه الأيمن ؟!

شهق هنداوى وأدرك فعلته المشئومة ، وأن الطلق الملعونة التى خرجت من فوهة بندقيته لم تذهب أدراج الرياح .. هاهى قد أصابت هدفها وفعلت فعلها ونالت مرادها .. وهاهو الصيد الثمين طريحا على الأرض بجوار الدوار .

كان الرجل ملثما يلف وجهه بإحكام بقناع كبير أسود كالليل الحالك ، ولايظهر منه سوى العينين ، وعندما كشف قناعه عرفه الثلاثة ، وتنهد الحاج عبدالعاطى قبل أن يتركهما ، وينصرف ليلحق بصلاة الفجر ثم همس فى سره :

ـ ياالله .. أهذا أنت .. يبدو أنها عدالة السماء .. حاولت أن تقتل رضوان فقاتلك الله وأنجاه !

أما هندواى والسباعى فقد حملاه .. أحدهما حمله من نصفه الأعلى ، والآخر حمله من نصفه الأسفل ، ودخلا به إلى الدوار ثم وضعاه على كنبة خشبية عتيقة فى غرفة صغيرة بالقرب من مدخل الدوار ، وهرول السباعى للداخل ، وناداه هنداوى مستنكرا لائما :

ـ ماذا ستفعل يامجنون ؟!

تملص من يده بعصبية وقال :

ـ ماذا جرى لك ياهنداوى ؟! سأخبر حضرة العمدة .

تلعثم هنداوى وارتبك خوفا من رد فعل العمدة وقال بهدوء :

ـ طول بالك ياسباعى .. لعل حضرة العمدة نائم .

ـ آه نائم .. حتى لوكان نائما لابد من إيقاظه .

ـ الصبر ياسباعى .. الصبر .

ـ لاياهنداوى .. الصبر فى هذه الحالة مصيبة كبرى .. من يدرى ماذا تكون النتيجة لوتأخرنا فى إبلاغه ؟!

طرق السباعى غرفة العمدة بشىء من العنف ، وكان فراج مضجعا فى فراشه يحاول أن يسترضى سلطان النوم ويستدعيه فنهض ضجرا مضطربا من خشونة الطرق على الباب وصاح :

ـ خير ياحمار خير .. ماذا حدث ؟!

ـ انهض ياعمدة .. افتح الباب .. مصيبة حدثت .

نهض متثاقلا يسب ويلعن الخفر والعمدية والعزبة والناس كلها ، وفتح باب غرفة النوم بسروال قطنى أبيض ، وصديرى من نفس اللون والخامة وقال :

ـ تكلم .. إنطق .. البلد إحترقت .. أم أن النهر جف ؟!

ـ عثرنا على قتيل ياعمدة !

ـ قتيل .. أين ؟!

ـ وجدناه بجوار الدوار ، وأدخلناه فى غرفة التليفون العمومى ياحضرة العمدة .

ـ آه .. أنتم بهائم بشرية .. لقد فعلها الجاموس هنداوى .

هذه طلقته الحمقاء التى أطلقها فى أول الليل ، وعندما سألته قال أنه رأى شبحا يحوم حول القصر .. وهل عرفتم من هو هذا القتيل ؟!

قال السباعى بخجل ، وهو يضع وجهه فى الأرض كمن يخفى سرا :

ـ عويس ..

ـ عويس ..عويس من ؟!

ـ عويس ياعمدة .

هز رأسه وغمغم مستنكرا :

ـ عويس .. آه .. وما الذى جاء به إلى هنا فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟!

قال السباعى بخبث :

ـ الله أعلم ياعمدة .. ربما جاء بحثا عن شىء ما أوشخص ما كى يصفى حسابه ، فهذا الشخص لايتواجد فى مكان إلا وكان الشيطان موجودا فيه ، وطالما أن الشيطان حضر لابد أن تحل مصيبة .

خرج من غرفته يتعثر فى سجادة إيرانية فاخرة على الأرض ، وسبق السباعى حافيا إلى غرفة التليفون ليرى بنفسه ، وعندما وصل ورأى الدم يسيل من فخذ عويس ويغرق جانبه الأيمن ، اقترب منه وتقلصت ملامحه ثم وضع رأسه على صدره وقال :

ـ الدكتور .. بسرعة اجرى ياسباعى إلى استراحة طبيب الوحدة ، ولاترجع بدونه .. فمازال عويس يتنفس وقلبه ينبض .

على الفور انطلق السباعى إلى استراحة الدكتور مسعد فى آخر حدود العزبة حيث ينام فى الطابق الثانى .

وعندما تلفت العمدة فراج حوله ، وهو يفكر فى سر مجىء عويس لدواره فى عتمة الليل ، وأنه جاء ينوى شرا .. ثم تنبه إلى وقوف الخفير هنداوى متسمرا فى مكانه كتمثال فرعونى ، وعلى وجهه علامات الخزى والخجل ، وعلى الفور جثا على ركبتيه ، وفتش فى صديرى عويس النائم كالميت تماما ، وأخرج المسدس الذى كان يخفيه بالقرب من قلبه ، وعندئذ أدرك بمالايقبل مجالا للشك أنه ماجاء إلى هنا ليلا إلا وهو يعلم أنه قاتل أومقتول !

ثم نظر إلى هنداوى وتبسم بينما هنداوى يقف مرتبكا خائفا مذعورا لايدرى ماذا سيفعل العمدة فراج معه بعد هذه المصيبة ؟! وبعد لحظات اقترب منه العمدة قائلا بإبتسامة عريضة :

ـ أحسنت ياهنداوى .. سأصرف لك مكافأة كبيرة من جيبى تعادل شهرين لراتبك .

لم يصدق هنداوى مايسمع ، وظن أن العمدة يسخر منه فقال متسائلا :

ـ صحيح والله ياحضرة العمدة ؟!

ـ آه .. صحيح ياهنداوى .

ـ راتب شهرين مكافأة ؟!

ـ مكافأة مناسبة لشجاعتك وبطولتك ياهنداوى .

ـ ربنا يحميك ياحضرة العمدة .. أنا خادمك الأمين وحارسك المطيع .. صحيح أنك لست غاضبا منى ؟!

ـ والله لست غاضبا منك بل العكس أنا فخور بك ، ولاأدرى لولم تفعل ذلك ماذا كان سيحدث ؟!

ومالذى كان ينوى فعله عويس الملعون ؟!

ـ ربنا يحرسك ياعمدتنا وتاج رأسنا .

جاء السباعى وبصحبته الدكتور مسعد يبدو منكوش الشعر مهوشه ، وفى يده حقيبة جلدية سوداء بها مستلزمات العلاج ، وبسرعة وضع السماعة على صدر عويس ، ورفع الجلباب والسروال ورأى موضع الجرح النازف ، وقال بنبرة استغراب :

ـ هذا الرجل مضروب بطلق نارى .

رد فراج بشىء من الإحباط :

ـ نعرف يادكتور نعرف .. لكن مالعمل الآن ؟!

ـ لابد من نقله إلى الوحدة الصحية فورا كى أجرى له عملية صغيرة لإستخراج الرصاصة التى سكنت فخذه .

أشار العمدة لهنداوى والسباعى أن يفعلا ويساعدا الدكتور حتى ينهى مهمته ، ثم قال آمرا :

ـ بعد العملية تحفظا عليه تحت الحراسة .. لابد من استجوابه والتحقيق معه بنفسى كى أعرف بحره من بره !

ـ أوامر ياعمدة .

قالها هنداوى وهو يضرب برجله اليمنى فى الأرض ،ويرفع يده اليمنى عند رأسه مؤديا التحية .

وأعطاهم العمدة فراج مفتاح سيارته المرسيدس قائلا :

ـ يادكتور مسعد هذا مفتاح سيارتى انقله بها إلى الوحدة .. ربنا يوفقك .

شكره الدكتور مسعد وبسرعة أدار السيارة بينما السباعى وهنداوى حملا عويس ، ووضعاه فى الكرسى الخلفى للسيارة وجلسا بجواره ، وتحركت السيارة نحو الوحدة ، والمسافة لاتستغرق أكثر من عشر دقائق .

عاد فراج إلى مخدعه .. أشعل سيجارة وحملق فى سقف الغرفة ،وعقله مزدحم مرتبك كأنه ملىء بالكراكيب من الأفكار وبقايا الأفكار .. لايدرى ماذا يفعل ؟!

إن الأفكار التى تمر بذهنه فى تلك اللحظات تظل مجهولة ، وتختلط عليه الأفكار.. ويسأل نفسه :

ـ ماذا كان يريد عويس هذا القاتل الذى يتكسب رزقه من إعدام الناس وإزهاق أرواحهم ؟! وما الذى جاء به إلى هنا ؟! وهل وصلت به الجرأة أن يفكر فى قتله، وهو من هو وفى عقر داره ودواره وبين حراسه وخفره وأهل بلده ؟!

يشرد لحظات ، ويمتص بشراهة أنفاسا من سيجارته الرخيصة ثم يقول لذاته :

ـ ليس من المعقول أن يفكر فى ذلك .. ومماالذى يمنعه وقد فعلها من قبل ، وقتل مدير الجمعية الزراعية فى مكتبه ، ولم يتوصل رجال الشرطة إلى دليل ضده ؟! لماذا إذا جاء متسلا لدواره تحت جنح الليل الدامس فى هذا البرد الشديد ؟! ربما جاء بدافع السرقة .. الله أعلم .. ربما .. لكن لماذا يسرق ؟! وإذا أراد السرقة فهل يسرق عمدة حول داره ودواره كتيبة من الحراسة المشددة ليلا ونهارا ؟!

أحس بشىء من الصداع فى رأسه ، الدخان والفكر يقتلان الرأس ، ولايصيبانها بالصداع والوجع فقط ، جاءه أخيرا سلطان النوم على بساط الإرهاق ، فراح فى نوبة عميقة ولذيذة ،زاره فيها والده العمدة الراحل عوض أبودومة حاملا فى يده اليمنى سيفا مسنونا لامعا براقا يرفعه لأعلى بزهو ، وفى يده اليسرى حفنة جنيهات ، وحين سأله فراج عما يريد تبسم الرجل ، وترك السيف والجنيهات واختفى كأنه شبح جاء من العدم وعاد إلى العدم !

حاول أن يستعيده عساه يستنطقه ويفهم مايرغبه .. لكن لاشىء .. تلاشى الرجل ، وظلت الصورة باهتة مشوشة مثل شاشة تليفزيونية انقطع عنها الإرسال فجأة .

لايهم .. لاشىء يهم ..فمازال العصفور فى القفص ، ولن يفلت منه أبدا ، هاهو هناك تحت يد الجراح ومشرطه ، وتحت أعين الخفر وأسلحتهم العامرة بطلقات عمياء .

نهض العمدة من نومه الذى طال حتى بلغ غروب الشمس ، وجهه مكسو بالكآبة ، يسعل قليلا ، ويصيح مناديا الخفر ،وينعتهم بالكلاب الضالة ،فيسيطر عليه الإضطراب .. فكر فى أشياء كثيرة من بينها الموت .. ماذا لومات اليوم ؟! الموت فكرة رومانسية سهلة حين ينال من الأعداء ، أما لوطال الأحباب فتلك مأساة كبرى ، لكن الموت أصبح جزءا من تجربته اللعينة فى تلك الحياة التى تورط فيها بغير ارادته !

حين كان يعيش فى المدينة الكبيرة الصاخبة القاهرة ، ويموت الناس ولا أحد يتألم ، كأن كل الناس فى المدينة غرباء .. تعساء .. قهرتهم المدينة طويلا ، وما أسهل قهر الغرباء !

عكس الحال فى العزبة ، وحين كان يعيش فى المدينة القاهرة عاصمة المحروسة كان يمشى على الرصيف ، ينساب بين الناس انسيابا سريعا نحو هدف مجهول لايعرفه ، ولايهمه أن يعرفه ، بينما رأسه يهدر بألف فكرة وألف هاجس .. إنه بارع فى اجترار الماضى وخلطه بالحاضر.

جاءه الخفير السباعى بالإفطار كالمعتاد يوميا ، وبينما هو منهمك فى تجرع كوب لبن مستهلا وجبته الأولى فى آخر النهار وأول الليل ، ولاأحد يعرف إن كان هذا هو الإفطار أم العشاء ؟!

إن خريطة حياته كلها غريبة وسيريالية .. تساءل عن عويس فقال له الخفير أنه يتحسن رويدا رويدا ، وهناك هنداوى يراقبه ويحرسه ، ويقوم بكل شئونه ويلبى احتياجاته .. عندئذ ضحك العمدة فراج قائلا :

ـ طبعا يهتم به ويرعى شئونه .. أليس صيده وقنص بندقيته ؟!

ـ ولماذا أطلق هنداوى النار عليه ياجناب العمدة ؟!

ـ ليس هذا هو السؤال فى هذا الحال أيها الأبله .. السؤال هولماذا ترك عويس عزبته البعيدة ، وجاء هنا فى عزبة الحنكاتى يتخفى تحت ظلام الليل ملثم الوجه ؟!

ـ آه .. والله .. معك حق ياحضرة العمدة .. لكن ماذا نفعل لومات ؟!

ضحك فراج وقال :

ـ لن يموت .. مثل هذا الشخص سيعيش طويلا ليعانى الناس من جرائمه .. فالموت يختار رفاقه دائما من الصالحين والأبرار ، أما أمثال عويس من الطالحين هم لعنة تبقى للنهاية .

ـ وماذا ستفعل معه ياحضرة العمدة ؟!

ـ لن أسمح لنفسى أن أقع فى هذا الفخ .. إذا أخطا غيرى دفعت أنا الثمن ، وغيرى دائما مايخطئون .

ـ لم أفهم شيئا ياحضرة العمدة .. ماذا ستفعل ؟!

والطعام يملأ شدقيه قال متلعثما :

ـ حتى الآن مازلت أفكر ، وماذا تتوقع منى نحو هذا الزائر غير المرغوب فيه ، ولا المرحب به فى عزبتنا ودارنا ودوارنا ، وحتى اللحظة لاأدرى إن كنت قد ضللت السبيل بين الخطأ والصواب .. بين الخير والشر حين عرفت هذا الملعون وتعاملت معه ، الأحمق حجاج عليه اللعنة فى كل كتاب وعلى كل باب هو الذى عرفنى عليه ، ودفعنى إليه ، كان لابد أن أفكر .. فما الذى يمكن أن يأتى من حجاج سوى هذه الحثالة ؟! إن الأمر يحتاج لبعض الوقت من الإنتظار والتأمل ، ولن أتهور هذه المرة وكفى ماجرى من قبل .

قفزت الأيام عدة قفزات إلى الأمام ، وذات مساء نهض فراج من نومه الطويل الذى يشبه الموت القصير ، ثم جلس على كرسى مريح يشبه كرسى الرئاسة فى القصور الكبرى ،وعلى غير العادة لم يكن يسب ويلعن مستخدما أسماء الحيوانات الأليفة للخفراء الذين يحرسونه ويخدمونه !.. بل ظل ساكنا لايحرك ساكنا ، ولايصفق لأحدهم ولايصدر أى صوت ، فقط يتأمل ويحدق فى الفراغ لبعض الوقت حتى يستفيق ، وكانت عيناه مظللتين بسواد كثيف ، وحين جاءوه بعويس ، ويداه مكلبشتان بأساور من حديد ، ويعرج قليلا من أثر الإصابة ، كان يرى فى عينيه نارا تتقد كأنها تنبع من أعماق رأسه ، وفمه مفتوحا عن آخره فتحة الدهشة والهلع والغضب .

وجاء آخرون من الخفر فى تلك الأثناء يتابعون ماذا يحدث ؟! وكيف سيتصرف العمدة مع عويس ؟!

تململ الدكتور ثم قال بصوت نصف مسموع :

ـ مطلوب راحة للمريض .. لايمشى على ساقه المصابة إلا بعد أسبوعين على الأقل .

بدا على وجه فراج شىء من الغضب الممتزج بالحرج ، وأشار للخفير هنداوى أن يفك أساوره الحديدية ، ويأخذه إلى أقرب مقعد كى يستريح .

عندئذ رفع الطبيب يده نحو رأسه فى اشارة احترام قائلا :

ـ متشكر جدا ياعمدة .. بارك الله فيك .. طبعا تقدر حرصى واهتمامى بصحة المريض وسلامته ، ولايهمنى اسمه ولاعنوانه ولاحالته الإجتماعية ، ولاتركيبته النفسية سواء كان طيبا أومجرما !

تفهم العمدة موقف الطبيب ، وأومأ له برأسه بأنه لابأس ، عندئذ استأذن وعاد إلى وحدته الصحية .. وإنتهت علاقته بالأمر .

حدق فراج فى عويس قائلا بنبرة تحد :

ـ ماالذى جاء بك إلى هنا بعد منتصف الليل وأنت ملثم ياعويس ؟!

أخفض رأسه ونظر بإنكسار نحو الأرض ولم ينطق ، فعاد فراج يسأله بصيغة أخرى :

ـ هل كنت تريد قتلى ياعويس ؟!

ـ لا ياعمدة .. أريد حقى .

ـ أى حق لك عندى ؟!

ـ ألم تطلب منى أن أقتل رضوان وفعلت ؟!

ـ لكنك فشلت وهاهو حى يرزق ويتزوج أيضا وينعم فى بحر من العسل !

ـ أصبته ولكن العناية الإلهية أنقذته .. ورغم ذلك أكلت حقى ياعمدة (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)..

ـ أعطيتك عشرة ألاف جنيه .

ـ هذا صحيح لكنهم ذهبوا فى النهاية كتعويض لرضوان ، وأنا خرجت من المولد بلاحمص !

أطرق فراج وظل يفكر فى الأمر ثم سأله :

ـ وماذا تريد الآن ؟!

ـ عشرون ألف جنيه .

ـ ولورفضت ذلك ياعويس .

ـ أظنك أذكى من أن ترفض ، ولن تعرض حياتك للخطر من أجل هذا المبلغ التافه بالنسبة لك .

ـ هذا تهديد صريح لى ياعويس .. أليس كذلك ؟!

ـ هذا دفاع عن حقى ياعمدة .. أعطنى حقى ويادار مادخلك شر !

هرش فراج فى رأسه ، وقرر أن يدبر له أمرا لأنه لن يسلم أبدا من شره ، فمن يربى أفعى فى حضنه لابد لها أن تلدغه فى نهاية الأمر لدغة قاتلة .. لدغة ليس بعدها سوى القبر !

****

(23)

حين لاتشتهى أى شىء ، ولاتخاف من أى شىء تستطيع أن تتربع على قمة العالم ، وتشعر بالسعادة التى كنت تظنها سرابا زائفا أومستحيلا صعب المنال !

هذا هوحال الدكتور عبدالله حبيش الذى بدأ جرحه يلتئم وقلبه يطمئن ، وذكرى الماضى القريب الأليم تتوارى فى عقله الباطن ، لاشىء يؤلم الرجل أكثر من غدر امرأة !

عكف الرجل على نفسه ، واعتكف فى قصره ومزرعته مثل راهب فى صومعته .. اعتزل الناس ، ولم يعد راغبا فى رؤيتهم أوالتعامل معهم.. اللهم إلا حراس قصره وعمال مزرعته ، ومزارعى أرضه وإن كان مضطرا إلى التعامل معهم .

وحين يفرغ من مشاغله الزراعية ـ حبه للأرض والزرع لايعادله حب ـ يهجع إلى رب الأرض وخالق الزرع وفاطر كل شىء ليس كمثله شىء .. يصلى ويتعبد بصدق واخلاص ، ويقتطع مالايقل عن ساعة يوميا لقراءة القرآن ، وتدبر أياته المحكمات ، وتمعن معانيه الطيبات ، ومأروعها وأعظمها وأحكمها .

أدرك الرجل الذى عشق العلم ، وتخصص فى أبحاث المحاصيل الزراعية ، ونال فيها درجة الدكتوراة أن هذه الحياة الدنيا هى الدابة التى يمتطيها ليصل إلى الآخرة بأمان وسلام .. ووسيلته إلى بلوغ هذا الهدف تكمن فى الإقتراب من الإله الأعظم ، والعيش تحت ظلاله ، وفى كنف رحمته وطاعته .

أحس المثقف المنفتح على الدنيا ذو العقل الموسوعى ، والقلب الكبير أنه أجهل من دابة لاتفقه شيئا سوى الذهاب إلى الحقل أول النهار ،والعودة إلى الحظيرة آخر النهار تحت سطوة عصا صاحبها !

لقد تأكد أنه أهدر الكثير من الوقت والجهد فى أشياء لاجدوى من ورائها ، أضاع سنوات كثيرة من عمره غريبا فى بلاد غريبة تسمى ألمانيا ، وهى كلمة مشتقة من الألم ، وحروفها تذكره بجراحه التى تهدأ شيئا فشيئا كلما مر الزمن ، ودارت عجلة الأيام وقفزت إلى الأمام .

وعندما دار حديث بينه وبين خادمه عبدالصبور ، وكان يحبه بالفعل ويخاف عليه لأنه خدم والده الراحل من قبله ، وقد أوصاه الأب فى أيامه الأخيرة بابنه عبدالله .. وكان يحس بسيده وولى نعمته ، ويتابع بتوتر وقلق الإنقلاب الذى حدث فى حياة صاحب القصر جراء امرأة .. سأله بود :

- يادكتور عبدالله .. لماذا تحسن الظن بالجميع ، وتظن أنهم ملائكة مسومين بلاأجنحة ؟!

- ديننا يأمرنا أن نحسن الظن بالناس ياعبدالصبور .. أليس كذلك ؟!

- لكن المؤمن كيس فطن حذر يادكتور .. وأنا أعرفك منذ سنوات بعيدة ، وكنت أوصلك للمدرسة وأنت عود أخضر صغير حتى أكرمك الله ، ونلت أعلى الدرجات العلمية ، وتعلمت اللغات وصرت تنطق بلسان الألمان ، ولم تتغير ولم تأخذ من مكر الدنيا ، ولاتنسجم مع مراوغاتها وتلونها .. أنت كما أنت صفحة بيضاء ..بينما الدنيا كالحرباء تتلون بألف لون ولون ، ولن تتمكن من أن تعيشها بحذر، وأنت تطلى نفسك بلون واحد هو اللون الأبيض .. عليك ياولدى أن تتلون بألوان أخرى لتتماهى معها ولاتصطدم بها !

شرد قليلا يفكر ولزم الصمت لحظات ثم قال :

- ماذا تقصد ياعبدالصبور .. هل ترى أننى غشيم ، ولاأستطيع أن أروض الحياة بألاعيبها المختلفة ؟!

- يابنى الشهادات العليا شىء عظيم لكن الكتب وحدها لاتكفى ، ولن تعطيك الخبرة اللازمة كى تفك طلاسم الحياة ، وتحل شفرتها .. أنا عشت كثيرا فى هذه الدنيا ، وخبرتها جيدا برغم أننى لم أدخل المدارس ، ولم أسلك طريقا إليها فى يوم من الأيام إلا لأطمئن عليك ، وأتأكد من وصولك بالسلامة لفصلك الدراسى ، ولم أكن محظوظا مثلك بالذهاب إلى الجامعة .. يابنى اعلم أن والدك رحمة الله عليه أوصانى عليك قبل رحيله لذلك ألتمس لنفسى حق الخوف عليك واسداء النصيحة إليك .

حدق الدكتور عبدالله فى خادمه وحارس قصره عبدالصبور كأنه يراه لأول مرة ، وأحس بأن هذا الرجل هو حارسه الأمين ، وساهم بدور كبير فى تربيته ، ولمس منه وفاء ومحبة على مدى سنوات طويلة مضت ، وعندئذ سكت ، وسكت أيضا عبدالصبور ، ولم ينطق عساه ينتظر مايبديه عبدالله من رد فعل ، وإن قرأ على ملامح وجهه الألفة والمودة وإبتسامة خفيفة باهتة ثم قال :

- تكلم ياعبدالصبور .. أنت على حق .. انصح كما تشاء ، ولاتعر اهتماما لشهادات أوكتب أودرجات علمية ، ولاتنسى أننى عبدالله التلميذ الصغير الذى كنت تحمل حقيبته على ظهرك ، وأحيانا تحمله على كتفك فى الشتاء لتذهب به إلى المدرسة حتى لايغوض ابن الأكابر فى وحل الشوارع وطينها .

ارتاح عبدالصبور لتواضع الدكتور عبدالله واحترامه له ولدوره فى مشوار حياته وتشجع قائلا :

- سأقول لك مالم تقرأه فى الكتب ، ولن تجده فى المراجع أوالمدارس والجامعات .. أقول لك ياعبدالله أن السنين علمتنى أن الحياة ياولدى ماهى إلاحفلة تنكرية طويلة وكبيرة عليك أن ألاتعيشها بوجهك الحقيقى ، سيكون ذلك خطأ جسيما سوف تندم عليه بقية حياتك .

دهش عبدالله حبيش وتساءل مستغربا :

- حفلة تنكرية .. وجهى الحقيقى .. أندم ؟!

- بالطبع ياسيدى .. إن الجميع متنكرون فى تلك الحفلة التنكرية التى اسمها الحياة ، وأنت الوحيد ذو الوجه المكشوف ،وتلك هى المصيبة ؟!

- لماذا ياعبدالصبور ؟!

- لأنك ستكون دائما أنت صاحب الوجه الحقيقى الوحيد بينما الجميع من حولك بوجوه مزيفة .. صدقنى وجوه من بلاستيك خادع أومطاط ملون .. زيف .. كذب .. تضليل .. فكيف تعايش هؤلاء بوجهك الحقيقى هذا ؟! أنا ياولدى أحس بك وأتألم من أجلك ، وأصلى لله أن يردك إلى أصلك ردا جميلا .

- تدعو الله أن يردنى إلى أصلى ، وهل أنا انتزعت من جذورى ياعبدالصبور ؟!

- سامحنى يابنى .. واسمح لى أن أقول لك بصراحة .. لوكان والدك عليه رحمة الله بيننا اليوم لرأى فى كل ماحدث لك مع تلك المرأة الألمانية عقابا تستحقه !

تقلصت ملامحه وقال منزعجا :

- لماذا ياعبدالصبور ؟!

- ماكان والدك عليه رحمة الله ليوافق أبدا على تلك الزيجة لوكان على قيد الحياة وقت تزوجتها .. وهو الرجل التقى الورع حافظ كتاب الله ، فالشرق شرق والغرب غرب ، ولايمكن أن يتلاقيا على الإطلاق ياعبدالله .. تلك إرادة الله على كل حال ،وحدوده للأماكن والبشر والحجر ، ويجب أن تتذكر أن تلك المرأة أجنبية مسيحية كاثوليكية ، ولن تكون أبدا غير ذلك .. فسيبقى الشرق شرقا والغرب غربا !

أطبق الصمت على المكان حين سكت عبدالصبور ، وإن كان يخشى غضبه .. لكن لاشىء يهم عنده سوى أن يصارحه بحقيقة الأمر كله ، وقال بالفعل مايقتضيه الواجب ، وتستلزمه الوصية المعلقة فى عنقه .

لم يغضب عبدالله ،وظل وجهه الملائكى البشوش مرتاحا ، وحديثه الهامس ناعما هادئا كعادته كما عرفه عبدالصبور .. يشبه أباه تماما فى اشراقه وحلمه وصبره .. ومن شابه أباه فما ظلم !

ثم نهض واحتضن خادمه الذى رباه ، ومازال يعلمه ويحرسه وينصحه ، وبكى بين ذراعيه كطفل يبكى خطيئته الأولى بين أحضان والده الحنون عساه يغفر له !

انتهز عبدالصبور هذه الفرصة ،وطلب منه إعادة النسوة اللواتى كن يعملن فى القصر .. الطاهية والخادمة وعاملة النظافة .. قالها بنبرة استعطاف وحجته أنهن فى حاجة ملحة إلى مايحصلن عليه شهريا من راتب يعينهن على تربية أولادهن اليتامى بعد رحيل الأزواج .. هن أرامل .. والرسول يقول (إتقوا الله فى الضعيفين .. الأرملة واليتيم) .

فور أن سمع من عبدالصبور هذا الرجاء انقلب غاضبا وزمجر، وتجهم كأنه شخص آخر ..وصاح بصوت حاد :

- هذا الأمر انتهى للأبد ياعبدالصبور ، ولوفتحت هذا الموضوع مرة أخرى سيكون مصيرك مثلهن .

- أهكذا يكون رد الجميل ياولدى لهؤلاء النسوة بعد طول الخدمة .. أرجوك يادكتور أن تنظر لهن بعين العطف والرحمة .. أين قلبك الطيب ؟!

غاب لحظات يفكر كأنه فى غيبوبة مؤقتة ثم قال بنبرة خديوى يصدر فرمانا :

- كل امرأة خدمت فى القصر ، وقررنا الإستغناء عن خدماتها يتم صرف راتبها الشهرى بإنتظام فى موعده كما كان من قبل ، وكأنها فى الخدمة تماما .

تهلل وجه عبدالصبور وطغى الانشراح على محياه وهتف :

ـ الله أكبر .. الله أكبر .. هذا هو الكلام .. الله يكرمك كما أكرمتهن .

وقبل أن يسترسل فى سيل الدعاء له قاطعه قائلا :

ـ لكن بشرط واحد ياعبدالصبور .. بشرط ألا أرى واحدة منهن مرة أخرى .

حاول أن يقاوم على استحياء بدهاء الفلاحين ومكر المحنكين :

ـ ومن يقوم بأعمال القصر يادكتور عبدالله ؟!

ـ العفريت الأزرق .. ياعبدالصبور استخدم الرجال بدلا من النساء .. ولولم تجد الرجال عليك بالعفاريت ، ولولم تجد العفاريت عليك أنت أن تقوم بكل أعمال القصر !

ضحك الرجل السبعينى ذو الشعر الأبيض وقال :

ـ ياولدى لقد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا .

ـ لولم تسمع كلامى وتدبر أمر القصر بدون أن أرى امرأة سأتدبر أمرى .. أعد طعامى وأغسل ثيابى ، ولن أكون رهينة لامرأة ما بعد اليوم .. لن أكون رهينة لطاهية أوغسالة أوكناسة .. اللعنة عليهن جميعا .. يكفرن العشير وأنت تعرف ذلك جيدا ياعبدالصبور .

تأكد لهذا الرجل ذو الشعر الأبيض أن الحالة فيها استحالة ، ولاجدوى من المحاولة مع صاحب القصر ، فقد استغلقت كل الطرق بشأنهن إلى قلب عبدالله ، فاستسلم للأمر الواقع قائلا باحباط :

ـ حاضر يادكتور ..لابأس من الإستعانة بالرجال .

ـ الدنيا بدون النساء أفضل ياعبدالصبور .. ستكون الحياة أقل جنونا وأقل تناقضا وأقل ارتباكا مما هى عليه .. ليس هذا فحسب يارجل ، بل عليك أن تعلم أن كل المهن التى من المفترض أن تبدع فيها المرأة ،وتتفوق على الرجل مثل الطهى ستجد الرجل أفضل ، كما أن مهنة مثل تصميم وتفصيل الأزياء ستجد الرجل أفضل حتى فيما يتعلق بالنساء مثل طب النساء والتوليد الرجل أفضل ، ولاعزاء للنساء !

لقد جربنا الحياة بالمرأة وعشنا مرارتها ، وتجرعنا علقمها المر ، وعلينا الآن أن نجرب الحياة بدون المرأة كى نستريح ! هل نسيت مافعلت أمنا حواء فى أبينا آدم .. ألم تكن سبب هبوطه إلى الأرض ومعاناته ومعاناتنا من بعده حتى اليوم ؟! ومازلنا نعانى من خطيئة الخروج من الجنة ، وسنظل نعانى إلى قيام الساعة طالما أننا نسكن الأرض ، ونعايش بنات حواء .. إن الخطيئة تلاحق الرجل كما تلاحقه المرأة تماما ، وإذا أراد الرجل العاقل أن يهرب بجلده من الخطيئة عليه أن يهرب من المرأة .. عليه أن يهرب من الخطيئة، ويستغفر الله من المرأة !

ضحك عبدالله وقهقه مثل مجنون ، وانتابه احساس بالثأر من بنات حواء بهذه الإجراءات بينما كادت الدموع تفر من عينى عبدالصبور الذى كان يتفهم حالته ، ويقدر ظروفه ويلتمس له الأعذار ، ويدرك أنه محق فى كثير مما قاله ، وليس كل ماقاله ،ولكن ماالعمل ؟!

أنها إرادة الله فى أن تمضى الحياة كطائر بجناحين .. الجناح الأول امرأة .. والجناح الثانى رجل .. وبدون الجناحين ستكون الحياة عاجزة مشلولة لن تحلق فى الأفق البعيد ، بينما هذا المسكين المكلوم عبدالله حبيش يريدها أن تطير بجناح واحد حتى تصل إلى السماء السابعة .. فهل تستطيع وإلى أين ستصل ؟!

تركه وانصرف إلى صومعته حين سمع نداء صلاة العصر يتهادى قادما من مئذنة المسجد الرابض على أطراف العزبة ، وهو المسجد الذى تكفل جده حبيش الأكبر ببنائه منذ أكثر من نصف قرن .

انصرف عبدالصبور ، وفى صدره شىء من الهم والقلق ، وإن كان لايزعجه كثيرا ولكنه يحيك فى صدره .. صلى عبدالصبور فى بستان القصر فى ركن قصى بالقرب من البوابة داخل غرفة صغيرة يعتبرها عالمه الكبير ، ودعا فى صلاته لعبدالله بحياة هادئة مريحة بلامنغصات ، وتوسل إلى الله ساجدا وهو أقرب مايكون إليه سبحانه أن يجيب الدعاء ويلبى النداء ، وهو موقن أن الله لن يرد له رجاء .

فكر فى تنفيذ أوامر صاحب القصر ، ولن يعدم الوسيلة ، والنسوة سيرضيهن تماما أن تصلهن رواتبهن مطلع كل شهر ، وعليهن أن يقرن فى بيوتهن معززات مكرمات فحسب .

وقد اعتبر الرجل هذا الأمر صدقة جارية ، والمال عنده أكثر من الأرز فى الشونة التى يخزن فيها الفلاحون محصولهم السنوى .

مرت الأسابيع الأولى صعبة وقاسية ، ومرت الأيام تنسج الأسابيع والشهور بمرارة فى حلق صاحب القصر لكن الزمن كفيل بأن يداوى الجراح ، ولايترك شيئا على حاله ، لايترك الفرح يسعد قلوب أهله طويلا ، ولايترك الحزن يستوطن قلوب أهله طويلا .. الزمن لايرحم أحدا .. لأنه يأتى للجميع شاهرا فى يده سيف التقلبات الدائمة !

ذات مساء ربيعى صافى كان عبدالله يجلس فى شرفة القصر يتنسم نفحات من النهر ، ويرتل القرآن بصوت جميل هامس خاشع خفيض فإذا بعبد الصبور يخدش عليه خلوته فى الهواء ، ويهمهم بصوت متحشرج عساه ينتبه لوجوده ، وإن ظل يقرأ بصوت عذب منغم أيات الذكر الحكيم من سورة الطلاق حتى وصل إلى قول الله تعالى (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرا) صدق الله العظيم .

ثم سكت وطوى حافة الصفحة التى توقف عندها وأغلق المصحف ،ثم نظر إلى عبدالصبور نظرة تساؤل ، وقبل أن ينطق بادره الرجل قائلا :

ـ سامحنى يادكتور عبدالله أن قطعت عليك خلوتك .

ـ ما الأمر ياعبدالصبور ؟!

تلعثم قليلا وتردد فشجعه قائلا :

ـ تكلم يارجل .. ماالأمر ؟!

ـ أبدا يادكتور .. أصل حورية موجودة تحت فى مدخل القصر .

ذهل وتغير لونه وقال منزعجا :

ـ حورية .. من تكون حورية .. وماذا تريد ؟!

ـ حورية .. الخادمة المعنية بشئون النظافة فى القصر .

ـ ألم أقل لك أننى لاأريد أن أرى أنثى هنا .. هل جننت ياعبدالصبور ..

إن دخول المرأة إلى القصر يعادل دخول الشيطان إلى المسجد .. ألاتفهم يارجل ؟!

تهته عبدالصبور وقال بخجل :

ـ لم تدخل بعد ياسيدى .. جعلتها تنتظر هناك حتى لاتراها .

ـ قلت لك هذا المكان محرم على النساء .. فلماذا لاتسمع الكلام وتنفذ التعليمات ؟!

ـ معذرة يادكتور .. حلمك على رجل مسن مثلى .. الحلم سيد الأخلاق .

تنهد الرجل قائلا :

ـ إنها تقترح أن يعمل إبنها عندنا بدلا منها حتى لاتأخذ راتبا شهريا بدون وجه حق .

ـ وابنها هذا كم عمره ؟!

ـ فى الإعدادية حاليا .. أظن أن عمره لايزيد عن 15 عاما .

ـ وماذا يمكن لطفل مثله أن يعمله عندنا ؟!

ـ هى تقول أى عمل سواء فى القصر أوفى المزرعة أوفى الحقول الواسعة .

تبسم عبدالله وقال :

ـ والمدرسة وتعليم الولد ؟!

ـ سألتها هذا السؤال فكان ردها يادكتور أن ماحصله من التعليم يكفى للقراءة والكتابة والحساب وهذا مايحتاجه فى الحياة .

ـ لا ياعبدالصبور .. حرام علينا أن نحرم صبيا كهذا من نعمة التعليم مثل باقى أقرانه ، وليس ذنبه أنه يتيم فقير الحال .. أخبرها أن تساعد ابنها ، وتشجعه على مواصلة رحلة التعليم ، وأنا سأتكفل بكل شىء ، وعندما ينتهى الولد من تعليمه سأدبر له عملا مناسبا .. أما الآن فسوف يصلها راتبها وأكثر فى موعده كما كان يحدث طوال فترة عملها فى القصر .

فى هدوء واستسلام هزعبدالصبور رأسه وقال وهو يستدير عائدا إليها :

ـ أمرك يادكتور عبدالله .. عين العقل ، ونعم الرأى .. أنا قلت لها أنك سترفض فكرتها لكنها أصرت أن أبلغك .

تنهد وقال بنبل :

ـ أخبرها أننا لاننسى خدماتها هنا ، وعليها أن تعتبر الراتب الشهرى معاشا لها عن سنين عملها معنا .. لكننى لن أسمح لأنفاس أى امرأة أن تتردد فى المكان الذى أعيش فيه !

****

(24)

كان قلب عويس يحدثه بأن صمت العمدة فراج وراءه مكيدة عظمى تحاك له فى الخفاء ، فمازال جسده يئن وجرحه يؤلمه .. أما فراج فلم تأخذه به رحمة ،ولاشفقة لأسباب شتى فى رأسه لعل أهمها أن يأمن شره ، ويتقى غدره ، ومن يدريه إذا أعطاه المبلغ الذى يريده ألايظل يطارده بين الحين والحين أملا فى المزيد ؟!

ومن يضمن له ألايبتزه على اعتبار أنه يعرف سره ، ويراهن على أن العمدة فى كل مرة سيشترى صمته عن البوح بالسر !

لقد نضجت الخطة فى عقل العمدة ،وماعليه إلا أن يحسن التدبير ، وفى يده كل الخيوط التى تلقى بعويس فيما وراء الشمس !

أمر الخفر أن يسوقوه إلى غرفة الحبس الحصينة تحت الأرض أسفل غرفة التليفون بالدوار لحين الإتصال بالمأمور فى المركز ،وإبلاغه بأمر هذا العنصر الإجرامى الخطير على أمن البلاد والعباد .

دهش عويس مما سمع ودمدم عابسا ،وقد أدرك أن الأمور ستزداد تعقيدا :

ـ ياحضرة العمدة .. أهكذا تتعامل معى ؟!

نظر إليه فراج بغطرسة واستعلاء متسائلا :

ـ جئت إلى هنا قاتلا أومقتولا ياعويس .. أليس كذلك ؟!

ـ أين عفوك وكرمك ياعمدة ؟!

ـ العفو .. أى عفو وأنت غادر كالسهم المارق ، خائن كامرأة لعوب !

وضع الخفر أيديهم عليه بحرص وساقوه إلى غرفة الحبس كما تساق الشاة رغما عنها إلى الذبح ، وظل يهذى ويشتم ويهدد ويتوعد بالثبور وعظائم الأمور ، وأنه قاتل أومقتول.. إن لم يكن اليوم غدا أوبعد غد.

هز العمدة فراج رأسه يمنة ويسرة وقال :

ـ إن شاء الله لاقاتل ولامقتول أيها الملعون.. بل مسجون ياسبع الليل .

وأطلق ضحكة مدوية جلجلت فى الأرجاء كأنه مهووس ثم تلاشت الضحكات فجأة ، وارتدى قناع الجهامة والغضب حين خطر له خاطر أن يظل عويس حرا أويفلت من جدران الزنزانة فى يوم من الأيام ، لذلك دبر له تهمة تكون عدد سنوات سجنها كثيرة ، وربما تكفى لأن ينقضى عمره كله فيها ، ولايخرج إلا محمولا على الأعناق إلى مقبرة منسية وسط الحقول .. تهمة تليق بالوجهاء أمثاله فى عالم الإجرام .. ولم لا ؟!

ظل صدره يغلى من الغل بفعل الكلمات السم التى أطلقها عويس على مسامعه محذرا بلؤم ومهددا بوقاحة ، والخفراء يجرونه إلى الحبس المؤقت قبل الإنتقال إلى الحبس الدائم .

وعندما عاد الخفير هنداوى بعد أن اطمأن أن الأسد الجريح مكبل فى القفص الخرسانى وبابه من حديد قال :

ـ ياحضرة العمدة .. أنا خائف لوأفلت هذا الشقى من بين أيدينا لربما يقدم على عمل متهور ضدنا .

ضحك فراج وقد فهم مايدور فى رأس هنداوى :

ـ آه منك ياخفير الشؤم .. تخشى على نفسك لأنه عرف أنك أنت الذى أطلقت عليه النار .. أليس كذلك ؟!

دمدم وزمجر وغمغم قائلا :

ـ أنا فعلت ذلك فى سبيلك ياعمدة .. المفروض تشكرنى لاتلومنى .

ـ شكرتك ياهنداوى ، وصرفت لك مكافأة ..أنسيت أم أنك تأكل وتنكر مثل الكلاب المسعورة ؟!

ـ طيب ياعمدة .. بالله عليك لوأفلت ، وتنفس هواء الحرية ألاتخاف منه ؟!

ـ أنا لاأخاف الموت .. أظن والله أعلم أن الموت هو الذى يخاف منى !

ـ ياحضرة العمدة .. لاأحد يعلم الغيب إلا الله ، والموت كأس يدور على الجميع بلااستثناء .

وضع فراج يده على كتف هنداوى ،وقال بنبرة حكيم جربته السنوات واختبرته المحن :

ـ الشياطين وحدها هى التى تتلصص على الغيب ، والحمد لله أيها الخفير أننى لست من الشياطين ، ولكن لماذا قلت أمام كل الخفر فى ساحة الدوار أنك كنت فى دورية الليل ، وأطلقت النار على الشبح الذى كان يحوم فى المكان ؟!

همهم وتمتم وبدا عليه الأسى والأسف :

ـ هذا ماحدث ياعمدة ، وكما تعرف لاسر يبقى سرا ، ولم أكن أعرف أن المصيبة ستكون مع هذا المتعوس النحس عويس الكلب !

ـ عموما لاتقلق ياهنداوى .. أكثر مايعجبنى فيك جرأتك ، وحرصك على الدوار ومن فيه ، وأنت فعلت مافعلت بشجاعة تحسد عليها ، ولم تحسب حسابا لأى خطر ، وأنا لاأقرأ الغيب ـ الذى لايعلمه سوى الله سبحانه ـ لكنى أقرأ ماتفعله وماتقوله ، وأقرأ أيضا ماحاول أن يفعله عويس ، وماسيحاول فعله فى المستقبل لاقدر الله لوأفلت من أيدينا .

ـ وما العمل ياعمدة الآن .. هل سنتركه حبيسا فى الغرفة إياها ، ونتكبد عناء حراسته واطعامه وتسمينه كالعجل الهولندى ؟!

ضحك العمدة فراج حتى ظهرت أسنانه المصفرة من أثر الدخان ثم قال :

ـ أريدك أن تستدعى المخبر الخاص بأمن الدولة صبحى الديسطى .

ارتسمت الدهشة على وجه هنداوى :

ـ أمرك ياعمدة .. لكن لماذا ؟!

بضيق صدر ونفاذ صبر :

ـ ياسلام عليك ياهنداوى .. تريد أن تعرف كل شىء .. لاتسأل كثيرا ، ودعنى أرتب لعويس قضية لايرى الشارع بعدها أبدا .

ـ الله عليك ياعمدة وعلى عقلك الكبير .. لكن ماهذه القضية التى لايرى الشارع بعدها أبدا ؟!

ـ قضية أمن دولة .. عويس كان يأتى إلى عزبة الحنكاتى ليشكل تنظيما سريا لقلب نظام الحكم فى مصر وقبضنا عليه !

ضحك هنداوى وصاح :

ـ قلب نظام الحكم مرة واحدة .. عويس .. يانهار أسود .

زجره العمدة بحدة :

ـ اخرس ياخفير .. واخفض صوتك الذى يشبه صوت الحمار ستفضحنا .. أم تريد أن أتركه حرا فيأتى لينتقم منك ، ويقتلك وييتم أولادك وتترمل امرأتك ؟!

ـ لا .. لاأرجوك ياعمدة افعل به مايحلو لك .. أنت رجل عاقل وحكيم وتحسن التدبير ورأسك أغلى من الذهب .. الآن ياحضرة العمدة يكون المخبر صبحى الديسطى بين يديك .

تبسم فراج وبدا عليه الإرتياح وقال وهو يطل من النافذة نحو النهر :

ـ لن أسمح لأى مارق أومتهور أن يزعج السمك فى النهر !

عندئذ هرول هنداوى منصرفا يبحث عن صبحى الديسطى ليستدعيه ليمثل أمام حضرة العمدة .

عثر عليه وجاء به إلى العمدة ،وكان صبحى الديسطى مضطربا لاهث الأنفاس ، يخشى من أى تهور قد يرتكبه فراج فهو أدرى الناس بجنونه ، وتصرفاته الهوجاء غير المتوقعة على الإطلاق .. إتكأ فراج فى مقعده كملك متوج على عرشه ، وأومأ لصبحى أن يجلس أمامه وكأنه سيعطيه درسا ثم سأله :

ـ أين أنت ياصبحى لم أرك منذ فترة طويلة ؟!

بتهافت وحماس مشوب بقلق :

ـ أنا رهن إشارتك ياحضرة العمدة .

أحس فراج أنه يقترب من تحقيق مبتغاه فقال بمكر:

ـ أعرف أنك تقوم بعمل عظيم ، ومهمتك حساسة وسرية وخطيرة ، ولسوف أذكرك بالخير فى المركز أمام مدير المباحث ، وأنت تعرف علاقتى بالمأمور أيضا ، وربما أطلب لك ترقية .

تهلل وجه صبحى وإن ظل شىء من القلق يساوره :

ـ ربنا يكرمك ياحضرة العمدة .. أول مرة يقدرنى أحد على عملى .

ـ لاياصبحى .. أنت الجندى المجهول وراء كل عمل عظيم يتم فى إدارة البحث والتحرى .

أحس المخبر بنشوة ، وهو يسمع الإطراء غير المسبوق من العمدة ورد بحماس :

ـ أنا خادمك ياعمدة .

ـ كم راتبك الآن ياصبحى ؟!

ـ ملاليم والله ياحضرة العمدة ..

قاطعه قبل أن يكمل :

ـ وكم عدد أولادك ياصبحى ؟!

ـ أربعة ياعمدة وكلهم فى المدارس ، والمصاريف نار كما تعلم .

ـ أعلم أعلم .. لذلك أردت تقديرك بألف جنيه مكافأة منى على جهدك المتميز فى حفظ الأمن فى البلد .

لم يصدق المخبر صبحى الديسطى أذنيه وهتف بشجن :

ـ ألف جنيه .. ألف جنيه .. أحمدك يارب .. ربنا مايحرمنا من كرمك ياعمدة .. لكن هذا كثير .

ـ لا ياصبحى .. أنت تستحق كل الخير ، وأنا أحب أن أشجع رجالى وأقدرهم من حين لآخر .. اسمع ياصبحى عندى مجرم خطير أريدك أن تكتب عنه تقريرا بأنه منخرط فى الحديث عن السياسة ضد البلد والحكومة ، وينتمى لجماعة سياسية تسعى لقلب نظام الحكم !

على الفور فهم صبحى المطلوب منه فقال :

ـ أوامر ياعمدة .. لكن من هو ؟!

ـ موجود عندنا فى الحبس ، اسمه عويس .. والخفير هنداوى سيخبرك بكل المعلومات عنه التى يستلزمها التقرير السرى الذى ستكتبه ، وترفعه لقسم الأمن السياسى .

ـ تمام ياعمدة.. سأفعل ولكن أى تنظيم سياسى أوجماعة يمكن أن أقول أن المدعو عويس ينتمى إليها ؟!

بشىء من الضجر قال فراج :

ـ تصرف ياصبحى .. أنت أدرى بعملك ، وأنا أقول عنك أنك مخبر بارع وسوف أسعى لترقيتك .

انتفخت أوداج صبحى وراودته أحلام الترقية ثم قال بثقة :

- لاتقلق ياعمدة سأكتب تقريرا يجعل هذا الشخص لايرى الشمس بعد اليوم .

انفرجت أسارير فراج ، وسره ماسمع ثم قال :

ـ هذا ماأريده منك بالضبط لاأكثر ولاأقل .. هذا الشخص خطير جدا على الأمن وعلى البلد كلها ، ولوتركناه حرا سيرتكب مصائب لاتعد ولاتحصى .

عندئذ زادت حماسته وقال :

ـ أقسم بالله ياعمدة .. لن ترى وجهه مرة أخرى ، وستتم إحالته إلى سجن العقرب مع كبار المجرمين العتاة ، سواء كانوا سياسيين أوجنائيين .. لن يخرج إلا على القبر .

وأراد المخبر صبحى التجويد أكثر فانبرى قائلا :

ـ يريد هذا الصعلوك أن يكون زعيما ، ويعقد إجتماعات سرية مع أعداء الوطن .. أمه دعت عليه ياعمدة ، وسيلعن اليوم الذى ولدته فيه ، وهو فى زنزانة انفرادية متر فى متر وأضيق من القبر لاتدخلها الشمس ولايعرفها الهواء ، والشيطان نفسه لايطيق أن يسكنها لحظة واحدة .

هز فراج رأسه ممتنا لتجويد المخبر وحماسته ثم قال :

ـ سنرى عملك، ومايسفر عنه من نتيجة .. الآن تستطيع أن تنصرف كى تصرف المكافأة من عبدالحكيم الصراف .

واليوم تكون قد كتبت التقرير وسلمته لرؤسائك ، وأنا سأقوم باللازم .. وأنتظر منك أن تعطينى التمام .

ـ حاضر ياعمدة .. ربنا يكرمك .

وهرول مسرعا إلى عبدالحكيم الصراف الخاص بالدوار ليحصد مقدما ثمن فعلته ، ولم يصدق نفسه ولاالعمدة حتى أمسك الألف جنيه بين أصابعه ..عشر ورقات جديدة كل ورقة فئة مئة جنيه .

أحس أنه حصل على ثروة ، ولولا التقرير المطلوب منه لطار إلى امرأته نعيمة يزف لها البشرى ،ويحصى الألف جنيه أمامها ، ويظن أنها سيغمى عليها من فرط الفرحة .

سارت الأمور على مايرام ،وحسب السيناريو المحكم الذى رسمه ، وتأكد له المؤكد من أن الجنيه ساحر لايمكن مقاومته ، والمال يفعل المستحيل ، وأن الإنسان الذى هو خليفة الله فى الأرض لاقيمة له إذا كان فقيرا مفلسا بائسا ! ولم لا والعوز باب من أبواب جهنم الحمراء .. والمال خادم رائع جدا .. لكنه سيد سيىء جدا !

هرش فراج رأسه وحك جبهته معجبا بعقله الجهنمى ، واثق من أنه لايملك انتصارات مدهشة .. لكنه عاش هزائم أدهشه الخروج منها بسلام .

فى الليلة التالية جاءه اتصال هاتفى من شخصية كبيرة فى جهة أمنية يسأل عن عويس ، وعما إذا كان بحوزته ، وتحت قبضته .. عندئذ أدرك العمدة أن المخبر صبحى الديسطى قام بدوره على الوجه الأكمل ، فقد أظهر كرامات وبانت له بركات ، وأكد للمسئول الأمنى الكبير أن عويس تحت يده لحين اتخاذ قرار بشأنه ، وطلب المسئول تسليمه لمقر أمن الدولة تحت حراسة مشددة فأبدى العمدة ترحيبا ، وبالفعل حدث له مأأراد وهو يبدو بعيدا عن الأمر برمته ، برغم أن كل ماحدث من بنات أفكاره ، وأنه صاحب هذا السيناريو ..الآن قضى أمر هذا الشخص الذى يمثل تهديدا له على المستوى الشخصى كما أنه يعرف سره بشأن محاولة إغتيال رضوان .

لقد إرتاح صدره وانشرح قلبه وهو يرى سيارة مصفحة تأتى من المركز وفيها ضابط ومجموعة من الجنود المسلحين يأخدون عويس إلى مصيره المجهول المعلوم !

فى تلك الليلة عاد فراج إلى سهراته مع شلته يتناقشون يدخنون يشربون ويأكلون كالعادة .. ويتبادلون النكات والضحكات ، يفشى بعضهم مافى جعبته من أسرار أهل العزبة ، وأخبارها وهم يتندرون على هذا المخبول الذى كان يحوم حول الدوار واصطاده الخفير هنداوى فى العتمة كما لوكان يصطاد عصفورا فى وسط النهار من فوق شجرة صفصاف مائلة على النهر .

وفى آخر الليل نام فراج آمنا مطمئنا بعد أن زال الخطر ، واختفى عويس بفعل فاعل ربما إلى الأبد ، وفى نومه زاره أغرب حلم يمكن أن يراه ، رأى نفسه نسرا ناصع البياض يحلق فى السماء بأجنحة ذهبية لامعة تمتد وتكبر حتى تنشر ظلها على العزبة كلها ، ويصبح هو النور والظل والشمس والقمر .

وحين نهض من نومه كان مرهقا مؤرقا ، ولم يكن بوسعه أن يحل مارآه من ألغاز فى منامه ، واكتفى بالإستغراب من هذه الصور الملونة التى تزوره بالليل .. وسأل نفسه :

ـ ياالله من أكون أنا ؟! وما المطلوب منى فى هذه الحياة الدنيا .

هل ارتكب فراج أبودومة خطيئة كبرى عندما تورط مع رجل باع نفسه للشيطان ؟! أم أنه تجاوز تلك الخطيئة بخطيئة عظمى حين تمادى فى تدبير سيناريو تسليم الشيطان إلى الجحيم بخطة محكمة تمام الإحكام ؟!

لم يكن أمامه أى حل آخر حين فعل بعويس مافعل ، وهو واثق أنه جاء للهلاك بقدميه .. فماالذى ساقه إلى دوارالعمدة عند منتصف الليل ؟! لذلك كان لابد أن يدفع الثمن .. ماذا يظن نفسه ؟! وماذا يظن فراج أبودومة ؟! هل نسى أنه العمدة ؟! هل نسى أنه الحكومة فى العزبة ؟!

كانت نظرة أهل البلد له قد تحسنت بعض الشىء بعد دوره الوهمى فى انقاذ العزبة وأهلها من السفاح عويس الذى تسلل إلى عزبتهم بالليل ، وربما مثل خطرا على بناتهم وممتلكاتهم وديارهم .

لكنه قرأ فى عينى هنداوى والسباعى شيئا من الخوف يطل على استحياء من جديد ، ربما الخوف من بطش القوة الغاشمة ، والتوجس من وشاية صاحب النفوذ .

لكن لابأس .. شىء من الخوف لايضر أبدا بل ربما ينفع فى كثير من الأحيان ، وهو يفضل أن يكون مهاب الجانب لامهان الجانب !

انتهت مهلة الغفران ، وذهب المعتدى إلى الهلاك .. فى هذا الصباح الباكر لم يكن فراج على مايرام .. لاتنقصه الآن الهموم كى يفكر فى شرير استأجره مرة ثم عاد ليصوب سهام الشر نحوه هو شخصيا .. هذا جنون وعبث .

فى تلك الأيام كان يسأل بخبث عن أحوال بعض الناس فى العزبة ، ويعرج فى حديثه على رضوان وزوجته فاطمة ، يستفسر عن أخبارهما بطرق ماكرة غير مباشرة ، كى لايشعر أحد من رفاقه أوخفرائه أنه متيم بها ، ويتلصص على أخبارها ، ويتحسس أحوالها ، وعندئذ يدركون أن تلك الفتاة الخلاسية التى استمدت لون بشرتها الناعمة الرائقة من النيل أيام الفيضان ، لم يعرف وصفا لهذا اللون الفريد وتلك الملامح الجذابة ، ولم ير مثلها فى حياته ، وإن زارته أثناء الليل فى أحلامه على غير عادتها ، وغمرته زيارتها بالنشوة ، وإن لم يذكر من الحلم الكثير سوى وجهها الجميل الذى رده إلى البراءة الوردية .

نادرا ماتزوره فى نومه .. لكن هذه الليلة رأى وجهها الفتان يظهر من تحت غلالة رقيقة شفافة من الحرير الأبيض ، يحاول أن يرفعها بيده كى ينظر فى عينيها الساحرتين الواسعتين السوداوين فلايستطيع ، ويجد صعوبة بالغة وكأن الغلالة الحريرية الشفافة الهفهافة قد صارت قناعا من فولاذ ، ويرجوها أن ترفع الغلالة بنفسها فتفعل وتبتسم وتظهر فتنتها ، وتزيدها الإبتسامة سحرا ودلالا وفى عينيها ألف معنى وألف رسالة ، يفهم بعضها ويستعصى عليه فهم معظمها ..ويسقط فى غيبوبة مغشيا عليه .

وعندما ينهض من نومه يشكر الأحلام الوردية ، ويلعنها فى ذات الوقت .. وهو يتساءل .. من أين تأتى الأحلام ، ولماذا دائما تأتى منقوصة عاجزة عن تحقيق أى شىء ، وكأن يدها مشلولة عن إتمام مايسر القلب !

إن الأحلام تحمل نصف الحقيقة .. تأتى بها خلسة لمن لايستحقها ، وتأتى بالليل وفى يدها نصف السعادة المسروقة لتعطيها للمحروم .. لعلها عدالة الليل وقسمة الأحلام .. وعليه أن يرضى بنصيبه أويسخط .. فلاشىء يهم ، ولاأحد يهتم !

****

(25)

والشمس تتوارى خجلا عند قدوم الغروب ،تنسحب ساعة العصارى لتترك مكانها للغروب أن يتربع على الدنيا ، والنهر يسير إلى قدره المحتوم منذ ألاف السنين ، والماء العذب يجرى مطمئنا إلى مستقره ، والناس يشربون

منه ويأكلون ، والأسماك تلهو تحت غلالة من الماء الشفاف الرقراق ، يكاد يراها من كان بصره اليوم حديد أوأقل كثيرا من الحديد !

كانت عائدة من زيارة عادية لحقل والدها عساها تسرى عن نفسها ، وتروح عن روحها .. إن الأخضر والنهر والنخل العالى مهدىء طبيعى لحالة العقل والقلب .

رأته يسير على حافة النهر واثق الخطى فوق حصانه المرفوع الهامة بكبرياء ، وواثق الخطى يمشى ملكا ، ينظر للناس والأشياء والأشجار باستعلاء .. ولم لا وهو عمدة ابن عمدة حاكم ابن حاكم لعزبة الحنكاتى ؟!

يتبختر فوق حصانه بجلبابه الصوف الأنيق ، ووجهه الناعم الحليق ، نرجسى بامتياز عاشق لذاته مزهوا بها ، يظن نفسه قادرا على أن يحبس السماء فى قارورة فى حجم كف اليد ، ويظن نفسه قادرا على أن يربط الشمس فى ذيل حصانه الأشهب وإن بعض الظن إثم !

يرى نفسه ذئبا وكل الناس أغنام ، هو صاحب الدار وكل الناس أغراب ، وبصفته عمدة العزبة وحاكمها ، وحامى حماها قرر أن يقطع النخل ليزرع مكانه غابات من البيوت الحجرية كبيوت عاصمة المحروسة !

يكره فراج النخل كثيرا ولايطيقه ويراه متكبرا بلاجدوى ، ولاأحد يعلم سر تلك الكراهية لأقدم شجرة عرفها الإنسان ، فى حين أن أهالى العزبة يعشقون تلك الشجرة ، ويكادون يقدسونها لدرجة أنهم يطلقون عليها (العمة النخلة) ويقولون لأولادهم (عمتكم النخلة) .. أكرموا عمتكم النخلة لأنها أكرمت الأجداد والأباء وستكرمكم .. فى أفراحهم يرقصون بسعف النخل ، ويثقون أنها بلونها الأخضر الزاهى فألا حسنا على العروسين ، وأهل العرس جميعا .

وعندما رأى فاطمة تهلل وجهه ،وقال بنبرة هادئة فيها لهفة :

ـ عاش من رآك يافاطمة .. حرام أن يغيب القمر عنا طويلا .

بصوت هامس ـ وقد احمر وجهها خجلا من ثنائه المباغت ـ قالت :

ـ شكرا ياعمدة .

ـ فرصة طيبة أن أراك صدفة ،وماأجملها من صدفة يافاطمة ..ومنذ توليت العمدية لم أرك ، وكنت أتمنى أن أسمع منك تهنئة .

ـ مبروك ..ربنا يوفقك لما فيه الخير للناس ولنفسك،وأسأل الله أن يرد عنك شر نفسك والشيطان وحاشية السوء .

احتقن وجهه بغضب مفاجىء وقال :

ـ هذا دعاء لى .. أم دعاء ضدى يابنت عبدالعاطى ؟!

ـ سامحك الله يافراج .. ألاتستطيع أن تفرق بين الأبيض والأسود؟! سبحان الله على طبعك ياعمدة بلدنا !

سكت فجأة، وبدا لها أنه يفكر أوربما يغربل كلامها عساه يفرزه ويفهمه ، وكان يبذل جهدا للسيطرة على غضبه وقد غمرت وجهه سحابة من الأسى ثم قال بعد صمت :

ـ اسمعى يافاطمة ..افهمينى جيدا أرجوك ..أحيانا أجد وسط الزرع فى أرضى الواسعة زهرة أونبته جميلة لاأكون قد غرست بذرتها أورأيت مثلها ،ولكنى أرعاها وأزيح عنها الأعشاب الضارة والنباتات الأخرى الأليفة أو الطفيلية

، وأحرص على أن أسقيها بعناية أكثر من غيرها ،ولكنها تذوى بعد حين ، وتغرب شمسها وربما لاأنجح فى أن أهبها الحياة من جديد ، ولافى أن أستزرع مثلها مرة أخرى !

قالت بمكر وقد فهمت مايرمى إليه :

ـ ماذا تقصد بكلامك هذا ؟!

ـ الصبر طيب يابنت عبدالعاطى .. وحين تكون الدجاجة خارج الحظيرة ، ولاأستطيع اعادتها للحظيرة كى تبيض لى فربما أرمى طوبتها ، وأرجمها بالحجارة كما يرجمون الشيطان فى الأراضى المقدسة خلال موسم الحج !

ـ كل شىء بالإكراه يمكن تحمله وربما قبوله إلا الحب !

نطقت بماكان يدور فى رأسها طوال الوقت ، وكانت تتمنى أن تقوله فى وجهه لتثأر لنفسها ولغيرها من أشياء كثيرة إرتكبها بحماقة .

سكت وفى حلقه غصة ثم عاود الكلام :

لولا أنى تعلمت مؤخرا أن أتحاشى الدماء والقتل لقتلتك يابنت عبدالعاطى ، وبرغم أننى لم أتعلم السيطرة على غضبى منذ صغرى إلا أننى أحاول أن أقهره الآن .. لقد تعلمت إن غضبت أوأخطأت أن ألزم الصمت ، وقد أندم ثم أتوب .. فلابأس .. باب التوبة مفتوح طوال الوقت مثل باب الدوار !

ظل مثبتا نظراته على وجهها الخلاسى الجذاب يراقب عنادها وصلابتها حتى قالت :

ـ إن الندم وحده لايكفى ياعمدة للتكفيرعن الخطايا .. ربما تنفع التوبة .. لكن كيف تكون التوبة وماجدواها وقد حدث ماحدث لصباح ورضوان وغيرهما من أصحاب المظالم عندك ؟!

تبسم ساخرا وقال :

ـ لكننى سامحت نفسى .. وأظن أن هذا يكفى .

ـ تستطيع ياعمدة أن تسامح نفسك ، وتعطى ضميرك أجازة من العمل لكنك لن تستطيع أن تحصل على صك التسامح من الناس الذين ظلمتهم ، ومنهم أبى .

تجمدت ملامحه وتملكته الدهشة وقال مستغربا :

ـ الحاج عبدالعاطى .. مستحيل أن يناله منى أذى .

ـ ألاتضيق عليه فى رى قطعة الأرض الصغيرة التى نعيش من طرحها ؟! وفكرت كثيرا فى أن أسألك أن تتيح له رى الأرض بشكل منتظم لفترات كافية حتى لاتعطش الأرض ويموت الزرع .

ـ وما الذى منعك يافاطمة ؟!

ـ منعنى قلبك الظالم ، وطغيانك على القاصى والدانى ، وأظن أنه لايرجى منك خير .

ـ ألهذه الدرجة تتصورين أننى قاسى وفظ ؟!

ـ لانرميك بالباطل بل أعمالك هى التى تتحدث عنك ، وأصغر طفل فى العزبة يعرف جبروتك .. أم تظن أنك ملاك بأجنحة بيضاء ؟!

قال وهو يحملق فيها كأنه سيفترسها بعد لحظات :

ـ أمرك غريب ولماذا لا يعرض الحاج عبدالعاطى هذا الأمر بنفسه ؟!

ـ ربما لأنه لايتوقع منك خيرا .

ـ وهل المطلوب منى أن أذهب إلى كل شخص لأعرف مسألته ، وألبى رغبته ؟!

ـ ولم لاتفعل ياعمدة .. ألست أنت كبير البلد وسيدها ، وسيد القوم خادمهم ؟!

ـ غلبنى قولك هذا ، ولوطلبت منى أن أذهب إليه الآن لفعلت .. ولوظلمت الناس كلها فلن أظلمكم يافاطمة .. وتعرفين السبب .. كما أننى لاأعرف اليأس من الهدف الذى أسعى نحوه .

ضحكت قائلة :

ـ هذه المرة عليك أن تيأس تماما لأننى زوجة وأحب زوجى ،ولن أفكر فى رجل غيره أبدا .. والقبرعندى أفضل لوحالت الأقدار بينى وبينه .

ـ الأيام يافاطمة لاتترك شيئا على حاله ، وأنا أراهن على الأيام ، وسبيلى إليك هو الصبر .. أنا مثل الصياد الذى يجلس على شاطىء النهر ساعات طويلة ممتدة لايعرف اليأس ولايتسلل إليه الملل ، ولايدب القنوط فى نفسه حتى تكون السمكة التى أرادها بين يديه فى نهاية مشوار الصبر .

استدارت منصرفة وقالت بدلال :

ـ بالإذن ياعمدة .. الوقت سرقنا .

ناداها مستوقفا إياها :

ـ أنا رهن اشارة الحاج عبدالعاطى وأرضه ، وستنال زراعته كل ماتحتاجه من الماء اللازم .. كل ذلك من أجل أجمل عيون فى عزبة الحنكاتى كلها .

شكرته على استحياء وانصرفت ، وهو يتابعها بنظراته بعين الشوق ، وقلبه يكاد يحترق لكن ماباليد حيلة .. العين بصيرة بجمالها ، واليد قصيرة عن أن تنالها .

وقد انتوى فى نفسه ألايترك السمكة تفر أبدا من سنارته ،سيكون مثل الصياد الصبورغير اليئوس .. إلى أين تفر منه ،ولابد من يوم معلوم تكون له وحده ؟!

لايدرى ماذا فعلت فى هذا اللقاء السريع العابر ؟! ولماذا أججت النار وأشعلت الحرائق وأيقظت الفتنة التى كانت نائمة بداخله نوما عميقا ؟!

ماهذه الأنثى وماتركيبتها ؟!إن براءتها لاتمنعها من أن تتفهم أنه وقع فى غرامها ، وهذا ليس سوءا ، فهو أعلن ذلك مرارا وتكرارا لدرجة أنه طلبها للزواج ،ولكنهم رفضوه وتعللوا بأنها مرتبطة بابن خالتها منذ الطفولة .

عندما يراها يشعر بأن الفرح يصارع اليأس فى رأسه وهو يقول :

ـ فلينتظر .. الصبر مفتاح كل عسير .. مفتاح الفرج وبلوغ الهدف .

وإن كان فى كثير من الأحيان يشفق على نفسه كما يشفق عليها ،وهو يتقلب فى الفراش مؤرقا فى الليل ثم تطارده بعدها الكوابيس التى يصحو منها فزعا ، ويلعن الخفراء وقد ضاق بهم زرعا ، ويصرخ فيهم ويسبهم كأنهم سر تعاسته !

لايدرى سبب غضبها حين قال لها :

ـ الأرض كروية ، وكل الطرق دائرية ، والحياة حلزونية ، ولامفر لك منى يافاطمة .. وفى يوم من الأيام ستكونين رهن اشارتى وطوع أمرى .

امتعضت فاطمة وامتقع وجهها الجذاب بسحابة من غضب ملبد ثم قالت بعناد وكبرياء :

ـ هذا مستحيل يافراج .. السماء أقرب إليك منى .

ـ لامستحيل فى هذه الحياة يابنت عبدالعاطى .. وقالها القائد الفرنسى نابليون منذ سنوات بعيدة .

ـ يمكن أن تحقق ماتريد ياعمدة فى حالة واحدة فقط .

ـ وماهى تلك الحالة ياحبيبتى ؟!

نهرته بغضب وصاحت :

ـ لاتقل حبيبتى أبدا .. أنا لست حبيبتك .. لاتقلها مرة أخرى .

ابتلع خزيه وتعنيفه وكسر خاطره وقال بصوت نادم :

ـ حاضر ياست فاطمة .. لن أقولها اليوم .. ومن يدرى ربما تطلبينها منى غدا وتتمنين أن أقولها لك .

ـ والله العظيم لن يحدث هذا أبدا .. الموت عندى أهون يافراج .

ـ لابأس .. لكن كنت تقولين أنه يمكن لى أن أنالك فى حالة واحدة.. ماهى ؟!

ـ حالة الموت ..حين تصعد الروح لبارئها .

ـ لاأتمنى لك الموت أبدا .. أكره أن يموت الجمال ويحيا القبح .

غابت رويدا رويدا وتلاشت وتركته شاردا يصارع مشاعره المضطربة كالنهر الهائج الهادر ، ضرب حصانه بكعب حذائه وغادر مكانه ، لم يتوقف عند حافة النيل حيث التقاها، وأخذ الطريق إلى الناحية الغربية من العزبة ركضا بحصانه وسط المزارع والحقول الخضراء ، وأشجار النخيل السامقة الشاهقة فى ضوء النهار الشحيح المتأخر الذى ينزوى فى تجاويف الليل الزاحف ببطء بظلاله وظلامه !

أحس بشىء من الكآبة يغطى ذاته ويكاد يكتم أنفاسه ، رأى كالعادة بعض الفلاحين والصبية يتأهبون لمغادرة الحقول عائدين إلى الديار بعد يوم طويل من الكد والعرق ، ظل يفكر فى كل مادار بينه وبينها ويسأل نفسه :

ـ هل لو مات رضوان أوقتل ستكون فاطمة لى ؟!

ثم أجاب بنفسه على نفسه :

ـ بكل تأكيد .. ستكون لى وحدى .. لوذهب رجلها ليسكن القبر فمن يسكن قلبها غيرك ياعمدة ؟!

وأى دار تسكنها حسناء العزبة وفاتنتها غير دارك يافراج ؟!

لاتصدق ماسمعته منها فهكذا المرأة دائما تتمنع وهى راغبة ، وتحلف وهى كاذبة ، ولسوف تستبدل رجلها بآخر حين تواتيها الفرصة ، فالمكر والمراوغة من طبائع هذا الكائن الذى خلقه الله من ضلع أعوج ، وهل تستطيع المرأة مهما كانت مكانتها وسحرها وسطوتها أن تستغنى عن الرجل ؟!

لم يتوقف شيطانه عن وسوساته ، وصور له الطريق سهلا ميسورا مفروشا بالورود ،وكل مافى الأمر أن ينزاح السور العازل بينهما والذى تعلقت به منذ طفولتها ، ولوعاش فراج طفولته فى العزبة لربما تعلقت به وكانت الآن من نصيبه ..ولكن كيف ينزاح هذا السور ويتهاوى هذا الجدار ـ الذى اسمه رضوان ـ لتصفو له فاطمة وتخلو؟!

يهمس له الشيطان فى أذنه :

ـ عزرائيل ملك الموت موجود .. وقريب من الرقاب فهل نسيته ؟!

يقاوم وسوسة الشيطان الرجيم ويقول :

ـ أعوذ بالله ..

يتنبه فجأة إلى نهيق حمير يركبها الفلاحون ، أوتجر عربات خشبية يركبها الفلاحون أيضا مع زوجاتهم وأولادهم ويتصايحون حين يروه جماعات وفرادى :

ـ السلام عليكم ياعمدة .. نورت الدنيا ياعمدة .

ينتصب الحصان فجأة ، ويرتفع لأعلى بساقيه ثم يتوقف ويصهل ، ويدق الأرض بحوافره القوية بكل عصبية ، يغمغم العمدة فراج وهو يرد عليهم كأنه يكلم الأشباح ، وكانوا شاخصين يحدقون فيه ، وعيونهم مصوبة نحوه فى صمت حذر يترقبون مايصدر عنه من فعل أوقول ، وبعضهم يهزون سيقانهم المدلاة فى سراويل بيضاء بحركات رتيبة متوترة ، مد يده على رقبة الحصان ثم ضربه برفق فى اشارة منه ليغير اتجاهه ، ويمضى بعيدا عن هؤلاء الأوغاد الذين يحملقون فيه بعيون وقحة كما لوكانوا يرونه كائنا غريبا هبط عليهم من الفضاء فجأة !

كانوا ينتظرون منه شيئا لكنه أعرض عنهم جميعا ، واستدار فى اتجام معاكس لهم وتمتم فى نفسه :

ـ عليكم اللعنة .. عكرتم مزاجى ، وغيرتم الصورة فى عينى وخيالى ،وجوهكم الكالحة تثير اشمئزازى وضجرى ، وكنت أود ألا أفيق من رؤية القمر، انتظرتكم دهرا فلم تفعلوا شيئا.. فلماذا تعطلوننى هذه الساعة ، وتخرجوننى من نشوة اللقاء مع أجمل زهرة نبتت فى أرض عزبة الحنكاتى البائسة التى لامكان لها على خريطة مصر المحروسة ؟!

ثم لكز حصانه بشىء من العنف قائلا :

ـ هيا ياصديقى انطلق .

يركض الحضان مسرعا ثم يستدير فى عدة اتجاهات حول نفسه بينما هم فى أماكنهم يترقبون العمدة .. ثم بحركة بهلوانية هرول الحصان نحوهم كالمجنون فانتاب الفلاحون ونسوتهم وأولادهم ذعر مباغت ، وذهول مفاجىء ، وبعضهم قفز على الأرض ، وراحت حميرهم تتخبط وتنهق بخوف ، وهى تفسح الطريق لحصان العمدة الأهوج المتهور الذى مرق وسطهم ،وشق صفهم كما تشق السكين قالب الزبدة ، واحتك على الجانبين بالحمير المذعورة

التى انطلقت تجرى متفرقة فى إتجاهات متباعدة بينما أصحابها وراكبيها يطلقون الصيحات علنا ، ويطلقون اللعنات على العمدة وحصانه سرا !

وقد انحرف فراج بحصانه فى طريق ضيق يأخذه مباشرة نحو مقابر العزبة ، لايدرى لماذا تذكر صباح الله يرحمها فى تلك اللحظة ؟! ويغشاه حزن دفين وشجن ممزوج بالأنين .

كانت كرة الشمس قد دخلت مخبأ الخلود حيث تنام هناك إلى موعد معلوم ، وحل ظلام أبدى محتوم لايتأخر أبدا عن القدوم ، وثب من فوق حصانه ، ونزل يتلمس فى العتمة ديار الموتى ، تعرف أقدامه قبر أبيه كما تعرف تماما قبر صباح ! إن الأقدام لاتتوه عن مبتغاها حتى لوتاهت العقول وتعثرت الأفئدة .

أشباح كثيرة وأرواح هائمة هنا حول الموتى ومساكنهم الأبدية يحس بها ولايراها ، صور الموتى وأطيافهم تحوم حوله .. أشباح النخل وأشباح القتلة تمتزج بالموتى وتحاصره الآن .. يهتف فى أعماقه بخوف فظيع :

ـ ياالله من أرسلهم ورائى إلى هنا ليقتفوا أثرى ؟!

وماذا يريدون منى الآن ؟!

فليقرأ الفاتحة عساهم ينصرفون ويتركونه لحال سبيله ، قرأها بتلعثم ، وهو لايحفظ من القرآن سواها ، وبعض قصار السور التى طارت من رأسه فى تلك الأثناء ، لاشىء فى رأسه الآن سوى همهمات تتردد ، ودمدمات تملأ أذنيه ، نهيق حمير غاضبة ، وحوافر خيول جامحة ، وأصوات كلاب نابحة .. غناء وأهازيج ، وقرع طبول ثم صراخ وعويل ونحيب ، كل الأصوات هنا ، كل العالم المزعج المتناقض هنا .. عقله يطيش منه ، أمسك برقبة حصانه بعد أن قفز بحركة بهلوانية سريعة ، وحول رأسه نحو ديار العزبة عائدا ،وفجأة أحس أن الحصان توقف كأنه مات ،هزه فلم يستجب ، لكزه بقبضة يده فلم يتحرك ، عنفه فلم يعنف .. تحول فجأة إلى صنم أصم كأن قوة قاهرة تكبله ، وأن شيئا جبارا يمنعه من الحركة والإنطلاق مع الريح كعادته !

حاول فراج أن ينزل من فوقه ، ويجرى منطلقا ويترك ساقيه تسابقان الريح هربا من الظلام والأشباح ومساكن الموتى لكنه لم يستطع كأنه مشلول مثل حصانه ، وسمع صوت صباح يأتى من مكان قريب وصدى الصوت يتردد فى الأفاق :

ـ لماذا قتلتنى يافراج ؟! لماذا حرمتنى من الحياة التى وهبنى الله إياها ؟!

ارتعد وارتجف وارتعشت أطرافه وقال :

ـ سامحينى ياصباح .. لقد حررتك من قيود الطين ، وأغلال الجسد وأنت الآن روح حرة هائمة !

ـ أنا روح معذبة حول رقبتك حتى أحرر روحك مثلما فعلت بى .. لماذا أنت هنا الآن ؟!

ـ اتركينى .. اتركينى وشأنى .. جئت لأساعدك وأترحم على روحك .. لكنك الآن تفزعيننى .

ـ وماذا تريد منى يافراج بعد أن قتلتنى ورميتنى لتماسيح النهرالمفترسة وأسماكه الجائعة ؟!

ـ لاأريد منك شيئا ياصباح سوى العفو والسماح .. اغفرى لى واتركينى أعيش .

فجأة انطلق الحصان يجرى بجنون كأن قيوده قد فكت ،وأغلاله قد حلت عائدا إلى العزبة ، وعادت إليه الروح بعد أن ظن أن الأشباح والأرواح الهائمة لن تتركه يغادر ديار الموتى !

****

(26)

إن لحظة الولادة لحظة مروعة فى حياة المرأة فى كل زمان ومكان ، وحين اكتمل نضج التوأم فى بطن فاطمة ، أحست بأشياء غريبة تنتابها لأول مرة ، وألام عجيبة ممتعة أحيانا ولاتطاق أحيانا أخرى ،عندئذ أدركت أن ساعة الخلاص قد أوشكت.. صرخت وتأوهت وتوجعت ثم استغاثت برضوان الذى جاءها مهرولا ، ونقلها إلى المستشفى العام فى سمنود .

وبدا جزعا فزعا عليها ويخشى أن يصيبها مكروه لاقدر الله ، ويأتيه الخوف من أنها التجربة الأولى لها ، والتجربة الأولى لكل امرأة فى الولادة تكون فظيعة ، لابأس تحصن بالصبر ، وشد على يدها ودعاها إلى التمسك بالأمل والتعلق بالحياة ، لأنها لحظة فارقة ، وكلها عدة ساعات وتصبح أما .

وضعوها فى عنبر الولادة وفى غرفة مجهزة ، وقد اضجعت فى فراش أبيض ناصع نظيف معقم وله رائحة نفاذة معطرة ، وعندما حانت اللحظة الحاسمة ،وأصابها مايصيب بنات حواء فى تلك الحالة ، وجاءها المخاض مؤلما يهز كيانها ويزلزل وجدانها .. يتذبذب الألم ذهابا وإيابا كموج البحر فيه مد وجزر ،وتشعر بنفسها على حافة الألم تأهبا للحظة الخارقة الفارقة ، وفى نفس الوقت يبدو رحمها فى حالة من الاسترخاء والإنغلاق كأنه يرفض أن يمنحها شرف الأمومة بسهولة .

ماذا تفعل فاطمة ؟! وكيف لها أن تنتصر على جسدها الذى لايطاوعها ولايأتمر بأمرها ، ولايهبها مافى بطنها بسرعة عساها تستريح من الألم ..ولماذا يبدو رحمها عاجزا كسولا فى الدفع بمافيه إلى الدنيا الواسعة .

كانت هناك ممرضة سمراء بدينة قليلا اسمها أمال تتولى الإشراف على حالتها .. من حين لآخر تدخل على فاطمة فتبتسم وهى فى فراشها وتنظر إليها ،وكأنها لاتراها ثم تخرج بحركة بطيئة تهتز يمينا ويسارا مثل طائر البطريق الذى لايطيرأبدا !

تبتعد وتغيب ساعات ثم تتذكر فاطمة فتعود لتطل عليها بنفس الطريقة والإبتسامة لاتفارق وجهها .. تلك الإبتسامة الغريبة التى لاتوحى بشىء سوى اللامبالاة أوربما أنها واثقة من خبرتها ودرايتها بمهنتها بمايكفى .. ولم لا أليست تحمل لقب ملاك الرحمة ؟!

فى هذه اللحظات اشتد الألم على فاطمة ، وشعرت بسكاكين تمزق أحشائها ، استغاثت بالممرضة أمال التى حدقت فيها ، ووضعت الإبتسامة غير المفهومة على تقاطيع وجهها الأسمر المكتنز ، عندئذ بكت فاطمة من الوجع فى بطنها وكل أوصالها ، وبهدوء تام أجابتها بكلمات قصيرة موجزة :

ـ مازال موعد ولادتك لم يحن بعد .. كل شىء بأوان .

يزداد نخر السكاكين ، وتتصاعد موجات الألم الموجة تلو الموجة ، ودموعها لاتتوقف وقلب الممرضة السمراء لايرق ولايلين ، وكأنها تعلم موعد الولادة بالدقيقة والثانية حتى لوأحست فاطمة بقمة الألم ، وعندما يئست من أمال راحت تتحصن بالصبر حتى يحين الموعد ، وتذهب مع الوجع فى غيبوبة لاتدرى كيف ستنجو منها ، وترى سحابة ضبابية وهى بين الوعى واللاوعى ، وترى فيما يرى النائم عاملة نظافة بيضاء البشرة ،وجهها صبوح مشرق كالشمس الساطعة فى نهار أغسطس ..عشرينية العمر لاهى بالطويلة ولاهى بالقصيرة ، مهندمة المظهر ، ترتدى زيا لملابس عاملات النظافة أزرق اللون ،رأتها من فوق فراشها الأبيض تنظف الغرفة وتمسح البلاط برفق .

رفعت فاطمة رأسها الثقيل ثم نادتها قائلة بوهن :

ـ أرجوك ساعدينى .. أرجوك استدعى الممرضة أوطبيب النساء فورا .

توقفت عاملة النظافة عن مهمتها فى تنظيف الغرفة ، ووضعت مافى يدها جانبا دون أن تحدث صوتا حرصا منها على عدم ازعاجها .. وقد اقتربت من فراشها حتى صارت ملاصقة لها تماما ، فعادت فاطمة تكرر ماطلبته منها لكن عاملة النظافة ظلت شاخصة فى مكانها كأنها من خشب لاترى ولاتسمع ، ثم نطقت بكلمات هامسة غير مفهومة ، وتمتمت بدعوات غريبة مثل الألغاز ، وبرفق مدت يدها نحو فاطمة ووضعتها فوق بطنها بحنو بالغ وحنان دافق ، وبدأت تمررها من تحت الصدر حتى أسفل البطن ، تمسدها وتفركها وتحكها بهدوء صعودا وهبوطا بطريقة مدهشة .

بدت لفاطمة كأنها ساحرة فى مهمة مقدسة ، عندئذ شعرت أن ألام الطلق ووجع المخاض فى أحشائها تتلاشى شيئا فشيئا ، وأحست براحة عجيبة تسكنها على أنقاض وجع فظيع ..ثم سألتها بارتياح :

ـ ماذا تفعلين بى وأنت عاملة نظافة ؟!

صوبت نحوها نظرات حانية ورأت فاطمة فيهما طيبة لامثيل لها ثم همست لها :

ـ اطمئنى يافاطمة ..سيكون كل شىء على مايرام.. ستكونين بخير بمشيئة الله .

غابت فاطمة عن الوعى لحظات ، ولاتدرى ماذا حدث لها ثم استيقظت على صيحات أمال الممرضة السمراء وهى فى حالة فزع تنادى زميلاتها ، وقد اندفعت إحداهن نحوها وتبعتها أخرى .. تملك فاطمة الرعب حين رأت رأس الطفل الأول بارزا منها على وشك السقوط على بلاط الأرض ، فالفراش ضيق والأم فى سكرة اللحظة الرهيبة .. عندئذ تلقفت الممرضة الطفل الأول ، وزميلتيها يجهزان لاستقباله ثم اندفعت رأس الطفل الثانى تخرج هى الأخرى للحياة ، والممرضات فى حالة ذهول يقمن بعملهن باحترافية ويفعلن مايلزم فعله .

بينما كانت فاطمة نائمة وآخر كلمات سمعتها همست لها عاملة النظافة قبل أن تختفى :

ـ ادفعى بهدوء كى ينزل طفلك الثانى بأمر الله .. ادفعى ولاتخافى .

وبالفعل نفذت كلامها ، ولم تشعر بأى وجع ، وتنبهت من غفوتها بينما توأمها بين يدى الممرضات يصرخان صرخة الحياة الدنيا !

لم تصدق أنها نجت من الهلاك ورزقها الله أيضا بقمرين صغيرين ، حمدت ربها كثيرا على نعمة الولادة ونعمة السلامة ، وأخبرت الممرضات بأنه لولا عاملة النظافة لحدث لها مكروه .

تعجبت الممرضة أمال ، وبدت مستغربة مما تهذى به فاطمة ،واستغربت أيضا ولادتها السريعة المباغتة قبل الأوان ، والرحم فى حالة من الكسل ، وكل المؤشرات التى تعرفها وتعلمتها تشى بأن موعد الولادة مازال مبكرا .

سرت الهمهمات بين الممرضات حين قصت فاطمة عليهن مافعلته معها عاملة النظافة تلك الفتاة الحانية ذات الرداء الأزرق .

ثم سألت فاطمة عنها ، وطلبت استدعائها لتشكرها وتكافئها .. فقالت الممرضة أمال بدهشة :

ـ ليس فى المستشفى عاملة نظافة بهذه المواصفات .

حددت فاطمة ملامحها وملابسها الزرقاء .. فكانت المفاجأة أن الممرضات هتفن :

ـ ملابس زرقاء .. عاملة نظافة بيضاء مشرقة كالشمس .. إن عاملات النظافة فى المستشفى يرتدين الزى البرتقالى ..اللون الأزرق ليس موجودا هنا على الإطلاق ، ولايرتديه أحد من العاملين فى المستشفى .

أصرت فاطمة على أقوالها ، وأقسمت أنها رأتها وتحدثت معها ، وأنها ساعدتها فى الولادة وخففت آلامها ، وكأن فى يدها البلسم الشافى من الوجع .

ألجمتهن جميعا كلمات فاطمة ، ولم يصدقن أن هذا حدث فى تلك الغرفة بالمستشفى .. ومن تكون تلك الفتاة عاملة النظافة التى ترتدى ملابس زرقاء ،وكيف دخلت إلى هنا ؟!

امتزجت مشاعرهن بين الدهشة والخوف ، وظلت نظراتهن لفاطمة على أنها امرأة مبروكة وفيها شىء لله ، وربما لها كرامات علوية ، وإن قالت أمال الممرضة أنها تشك فى ماقالته فاطمة ، وربما تخاريف الألم وهلاوس وكوابيس الرعب فى لحظات الولادة للمرة الأولى .

طرق الأسماع ـ مع الصباح ـ خبر ولادة فاطمة لتوأم ، فكان خبرا مدهشا لأن الجميع اعتبروها محظوظة ، وكان أسعد الناس فى هذا اليوم هو رضوان بلاشك ، وطار الخبر إلى عزبة الحنكاتى أسرع من البرق فسعد به من سعد لهما ، وتعس به من تعس غيرة وحسدا .

غير أن الزوجين كانا بنفسيهما وتوأمهما فى غنى عن الجميع ، أصابتهما حمى السعادة غير المسبوقة ، ولايشعران بأحد كأن الدنيا فى نظر كل منهما تجمعت فى شخص صاحبه ورفيق حياته والتوأم .

وقررا سويا تسمية الطفلين (عزالدين وشرف الدين).. أما فاطمة فقد بلغت ذروة سعادتها والتوأم إلى جوارها تحس بهما ، وهى غير موقنة بالسعادة كمن استيقظ من نومه فوجد نفسه متربعا على عرش .. عرش الأمومة بالطبع ، من أجل ذلك تركت نفسها تنعم بلحظات هذا اليوم .. أما الغد فهو غيوب يخفى أكثر مما يظهر ، وفيه أسرار وأقدار لايعلمها إلاالله .

نظرت لزوجها وابتسمت ، وجرى الرضا على محياها مع ماء الشباب .. سبحان الله ذهب رضوان ومعه فاطمة إلى مستشفى المركز مجرد شخصين وعادوا أربعة إلى العزبة !

وحين سمع رضوان ماحدث مع زوجته وتوأم روحه أدرك مدى ضعف الإنسان وقدرة الله ، قالوا له إن عملية خروج طفلين من بطن فاطمة تمت بطريقة عبقرية سهلة منظمة تستدعى أن تنحنى الحياة خشوعا للإله الواحد الأحد واهب الحياة والموت .

وهكذا خرج ولديه من بطن أمهما إلى الحياة الدنيا يبكيان .. ، وكأنهما يعلمان مدى الشقاء والعناء فى هذه الدار .. وصدق الإمام الشافعى حين قال :

ـ ولدتك أمك ياابن آدم باكيا ... والناس حولك يضحكون سرورا .

فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا ... فى يوم موتك ضاحكا مسرورا .

وقال له طبيب النساء والولادة الذى أشرف على وضعها للتوأم :

ـ إن عملية الولادة ذاتها لادخل لأى إنسان فيها ..

ذهل رضوان وسأله متعجبا :

ـ كيف يادكتور .. بالله عليك أخبرنى ؟!

ضحك الطبيب وربت على كتفه قائلا :

ـ عملية الولادة فيها معجزة إلهية ، وهى عملية لاإرادية لأى مخلوق ، فعندما يصل حمل المرأة إلى منتهاه ، ويستوفى عدد أيامه ، ويحين موعده الذى لايعلمه إلاالله تجلت قدرته ، يشاء للحامل أن تضع حملها فينقبض الرحم على الجنين ،ويتقلص ليطرده من عتمته إلى نور الدنيا .. بلا حول ولاقوة من أحد حتى المرأة الحامل نفسها ، ولم يعرف الطب الحديث شيئا عن سر عملية الإنقباض والطرد ، ولاعن الأجهزة التى تشرف عليها ، ولعل ماتوصل إليه الطب إلى الآن فى تخصص النساء والتوليد كلها نظريات لم تصل بعد إلى درجة اليقين العلمى .. سبحان القادر .

فغر رضوان فاهه ببلاهة ، وقطب مابين حاجبيه وسأله :

ـ ومادوركم أيها الأطباء ؟!

ـ دور الطبيب أوالقابلة أيام زمان يتركز فقط فى مساعدة الحامل على استقبال مولودها ،وتجهيزه فقط لاستقبال الحياة .

ـ وماذا لوتعثرت الولادة يادكتور ؟!

ضحك الطبيب الشاب قائلا :

ـ الحمد لله أن زوجتك أكرمها الله بولادة طبيعية رغم أنها المرة الأولى ، وسارت الأمور على مايرام ، أما لوتعثرت الولادة فليس أمام الطبيب سوى أن يلجأ إلى عملية قيصرية .

ـ قيصرية .. ماذا تعنى يادكتور ؟!

انبرى الطبيب يشرح بود :

ـ عملية الولادة القيصرية تنسب إلى يوليوس قيصر لأنه أول طفل فى الدنيا ولد بهذه الطريقة ، إذ ماتت أمه أثناء المخاض ، وقبل ولادتها له بدقائق فاضطر الطبيب عندئذ أن يشق بطنها ،ويخرجه منها حتى لايموت بداخلها ،وعاش الطفل يوليوس قيصر حتى أصبح امبراطور روما رغم أنه ولد وتربى وعاش يتيم الأم !

ذهل رضوان وقال :

ـ الله أكبر .. والآن يادكتور العملية القيصرية خطيرة ؟!

ـ القيصرية اليوم أسهل من شرب الماء ، وهذه العملية يجريها الأطباء مئات المرات يوميا ، وربما الألاف بيسر ومهارة فائقة ـ إذا دعت الحاجة إليها ـ حفاظا على حياة المرأة الحامل وماتحمله فى بطنها .

فى تلك الليلة كان القمر يرسل أشعة فضية على عزبة الحنكاتى بمزارعها الخضراء ، والنيل نائم على صدرها ، ويسير متبخترا بهدوء فى شرايينها يمنحها قبلة الحياة .. ونور القمر فى الليل ينعش السمار والساهرين ، والعائدين من مستشفى المركز حين استقبلت أم فاطمة والمهنئين من الأهل والأحباب والجيران السيارة التى تحمل رضوان وفاطمة والتوأم .

كانت السعادة تغمر الجميع ، وتطغى على الوجوه ، وقد ألقى الريف المخملى الهادىء فى قلب الزوجين الحبيبين راحة غير محدودة ، وسكينة لانهائية ، وتراقصت أضواء القمر على كف النهر الطيب ، وانعكست على وجهيهما ، وسرى السكون فى كل الأرجاء ، وأصوات ضفادع وكلاب ضالة ، وذئب يعوى تأتى من مكان بعيد مجهول !

تبدو العزبة جاثمة بين المزارع والنهر لايقلقها شىء ، والنخل مرفوع الهامات يكاد يصل إلى عنق السماء ، ويلامس وجه القمر .. نهضوا جميعا للعشاء فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، ديك رومى كبير مطهى على نار هادئة تأكل منه فاطمة ، ومن تحب بعد معاناتها.. كانت أمها مسرورة ، وهى تناولها منه قطعة من لحم الصدر الشهى الذى تحبه ابنتها ، والجميع يلتفون حولها ، ويطوفون بالقرب من عزالدين وشرف الدين كأن هذا التوأم كنز ثمين هبط من السماء إلى هذه الدار .

وآوت فاطمة بعد ذلك إلى مخدع منفرد مع طفليها ، بينما نام رضوان فى فراش آخر بغرفة مجاورة حتى لايزعجه بكاء الوافدين الجديدين ، ثم هجعت الأسرة كلها حتى الصباح ، وظل نوم فاطمة مؤرقا حتى استيقظت على شقشقة العصافير المتزاحمة على أغصان شجرة الكافور الكبيرة القريبة من نافذة حجرة نومها ، فتحت النافذة وألقت على الدنيا نظرة مستفهمة ، وعلى شفتيها ابتسامة ، وهى تهز رأسها ، وتستقبل يومها الأول بجوار ولديها .. ياله من يوم رائع مختلف عن سابقه من الأيام ..وتهمس لنفسها :

- أنا الآن الأم لهذين القمرين .. لاأصدق .. لك الحمد ياربى .

ثم نظرت إليهما نظرة حنان وامتنان ، وفجأة انتبهت حين نقرت بابها يد خفيفة حساسة مثل منقارعصفور صغير ، وسمعت زوجها يهمس بصوت واهن عذب :

- فاطمة .. ألم تنهضى من نومك بعد ؟!

وصلها احساس الرضا فى نبراته فأجابته بارتياح وهى فى الفراش مسترخية كملكة بين حارسين :

- ادخل يارضوان .. لقد سبقت الشمس واستيقظت قبلها .

حين رأته لاحظت أن وجهه فرحا نضرا متوردا ، وقسماته مفعمة بالبشر والتفاؤل ، ووميض عينيه يشى بحالته المزاجية ، ثم جلس على كرسى قريب من فراشها ، وألقى نظرة فاحصة على التوأم وتهلل وجهه وقال :

- ماأجملهما يافاطمة .. يشبهانك تماما ياحبيبتى .

تبسمت ونهضت من فراشها ، وغادرت مخدعها ، وتلقت من أفراد الدار تحيات طيبات ، وزادت الحفاوة بها عما قبل ، فهى اليوم غير الأمس ، وإن أيقنت أنها اليوم ملكة متوجة باحساس الأمومة ، وأمسكت بيديها مفتاح الفردوس لتنعم فيه بالنعيم المقيم ، وهى تشعر بأن الكون كله يحتفل بها ، والنخل يرقص والنهر يغنى لها ومن أجلها وحدها .

سألها رضوان :

- أسعيدة أنت يافاطمة بعزالدين وشرف الدين ؟!

- طبعا يارضوان .. لكن أشعر أن سعادتى منقوصة !

- منقوصة .. كل هذا الكرم الإلهى ، وتشعرين أن سعادتك غير مكتملة ؟!

قالت بحكمة ونطقت بصدق :

ـ يارضوان ..أنا سعيدة والحمد لله .. لكن سعادة الإنسان دائما مشوهة ربما لأنها نفحة من الخلود بينما هو ليس له الخلود ، إن السعادة صورة من نعيم الجنة ،ولاتدوم لأننا مازلنا على الأرض ولم نبلغ الجنة بعد ، ولوكنا لانذكر حين نسعد أن لسعادتنا نهاية ماشعرنا بالتعاسة !

ـ لاأفهمك اليوم يافاطمة .. أحس أنك غامضة إلى حد ما .

ـ لاتقلق ياحبيبى .. فلست راغبة فى أن أعكر عليك صفوك ، وإن كنت أتمنى ألاتخطفنى من الأحلام لطمة مفاجئة ، أو يسلبنى سعادتى سهم مارق أوحادث مباغت .

شرد قليلا واحتضنها برفق ثم همس فى أذنها :

ـ إن الله لايأتى للإنسان إلا بكل خير .

وقطع عناقهما الدافىء نوبة بكاء اندلعت من حنجرتى التوأم فجأة ، وكأنهما اتفقا على كل شىء حتى صيحة البكاء .

****

(27)

هنا فى عزبة الحنكاتى تسير الأمورعلى غير مايرام ،وقد كشر العمدة الشاب فراج أبودومة عن أنيابه ، وأعلنها صريحة أنه لن يتسامح مع من يخطىء بعد الآن ، وقد شجعه على ذلك ماقاله له الخفير هنداوى حين همس له بخبث :

ـ الناس فى بلدنا ياعمدة لايقيمون وزنا لأحد ، ولايحترمون أحدا إلا إذا رفع فى وجوههم سيف الخوف .. صدقنى أنا أعرفهم أكثر مما أعرف نفسى ، فلاسلطان عليهم سوى سلطان الخوف ، ولايحسبون حسابا إلا لشيئين أولهما ..الكرباج أوالعصا أوالبندقية .. أعنى بذلك السلاح الذى يكون فى يدك ، ويمكن أن يرهبهم ..أما ثانيهما .. الجنيه ياعمدة .. هو الذى يحركهم ويجعلهم كالخاتم فى إصبعك .. اسألنى عنهم لقد عجنتهم وخبزتهم ياحضرة العمدة !

تنبه فراج ثم قال :

ـ اسمع ياهنداوى .. عليك أن تأمرهم أن يسددوا ماعليهم من ديون ، ومن يمتنع فلن أصبر عليه بعد اليوم ..الأستاذ بسيونى المحامى موجود ، وسوف يتولى أمرهم .. وليس أمامهم سوى الدفع أوالحبس !

ضحك الخفير هنداوى بطريقة هستيرية ، وكشفت ضحكته عن أسنان صفراء نال منها السوس ثم قال :

ـ آه طبعا ياحضرة العمدة .. والله العظيم لقد تعبت من مطاردة هؤلاء الناس ، بل وكنت أرجوهم أحيانا وأتوسل إليهم دون جدوى ، ولاأجد فى هذه العزبة ـ التى سقطت سهوا أوعمدا من على خريطة المحروسة ـ جادا ومخلصا فى سداد ديونه ، هم مستهترون ولايأبهون بواجبهم ، فهم كالدار التى لايصلحها إلا الهدم ، ولاينفع ولايجدى معها الترميم .

قال العمدة بعصبية :

ـ انتهى هذا الزمن ياهنداوى ..

ـ أمرك ياعمدة ..

فرك يديه وتبسم بنشوة ، وشهوة للثأر .. بينما فى حالة تأهب دائم لإنجاز المطلوب منه الأستاذ بسيونى المحامى ابن قرية (بهبيت الحجارة) المجاورة لعزبة الحنكاتى ،والذى استعان به العمدة ليكون مستشاره القانونى ، ويحل له المشاكل المستعصية ، والأعمال غير المشروعة التى تحتاج إلى ثغرة قانونية كى تجعلها بألاعيبه قانونية ومشروعة !

قال الخفير هنداوى بخبث :

ـ الله يرحمه والدك العمدة الكبيرعوض أبودومة كان طيبا ومتساهلا وأجود من الريح المرسلة مع هؤلاء الأوغاد الذين لايتورعون أن يعضوا اليد التى تمتد لهم بالخير .. إنهم يأكلون مال النبى عليه الصلاة والسلام ، وينهبون مال الصحابة الكرام عليهم جميعا رضوان الله !

طأطأ العمدة فراج رأسه بينما بسيونى المحامى يراقب مايدور حوله بعينى ثعلب ماكر ثم قال بنبرة الواثق :

ـ كل شىء بالقانون .. البلد فيها قانون وفيها حكومة تنفذ القانون بالقوة الجبرية القاهرة ، والدنيا ليست فوضى على الإطلاق ، وكل جنيه سيعود إلى صاحبه ، وكل حق سيعود إلى مستحقه .

جلس فراج القرفصاء فى موقعه المفضل بالمندرة الرئيسية فى مدخل الدوار ، وأمامه صندوق خشبى كبير عثر عليه فى دهاليز خبيئة والده الله يرحمه ، وعندما نبش في هذا الصندوق العجيب عرف أنه الخزينة الحصينة لوالده الراحل ، وفيه كل الأوراق الرسمية والمستندات المالية ، شيكات وكمبيالات وإيصالات أمانة للدائنين ، وعقود بيع وشراء وايجار الأراضى الزراعية .

اكتشف أن معظم أهل العزبة عليهم ديون لوالده المرحوم ، فهذا مستأجر لم يدفع الإيجار المستحق عليه ، وذاك حصل منه على قرض وتعثر فى السداد ، وآخر شيد له العمدة الكبيرالراحل داره على نفقته على أن يسدد صاحب الدار بنظام التقسيط ، لكنه لم يسدد لابالتقسيط ولابغير التقسيط ، وغير ذلك من ديون شتى تبدو شبه معدومة ، والأمل فى استردادها شبه مستحيل ، لكن العمدة الكبير كان حريصا ويلتزم بقول الله تعالى فى سورة البقرة ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) صدق الله العظيم .

كل جنيه يخرج من جيبه ، وكل قرض يذهب للغير يسجله بحرص على ورقة ، وجعل المستدين يوقع أويبصم كى يضمن العمدة الكبير حقه ، وتلك عبقرية كبيرة من هذا الرجل الطيب الذى كان مغرما بمساعدة الآخرين ، ولديه حصافة من حكمة الزمن ، بعد أن دهسته التجارب وصهرته نار الخبرة !

بدا لفراج صندوق والده الخشبى القديم العجيب ـ بعد أن فض قفله ، ونزع عنه الإحكام المغلق ـ أنه الصندوق السحرى الأسود لأسرار والده المالية ، إن صندوق الحظ هذا يشبه البنك تماما !

وضع الصندوق على يساره ويده لاتفارقه ،وبسيونى المحامى إلى يمينه ـ وهو رجل قصير بدين أصلع أربعينى العمر يشبه الشيطان فى شبابه ـ ميال إلى الشر ، يهوى المشاكل ـ ومن حين لأخر يهمس فى أذنه بنصيحة مفادها أن عليه ألا تأخذه رحمة ولارأفة بهم ، على اعتبار أن هؤلاء الدائنين مثل القوارض لولم يكن حازما صارما معهم لقرضوا بأسنانهم ماستدانوه من والده العمدة الراحل !

ووسوس له أيضا بأنه لابد أن يظهر لهم العين الحمراء حتى لايستهينوا به لصغر سنه ، وقلة حيلته .. عندئذ يفلت زمام السيطرة عليهم من بين يديه إلى الأبد ، وربما يدفع الثمن ،ويخسر منصبه كعمدة للعزبة ، وتفقد عائلة أبودومة العمدية التى ظلت متوارثة أبا عن جد منذ حوالى مئة عام .

هنداوى والسباعى وباقى الخفراء جاءوا بعدد من الفلاحين والصيادين والنساء والأرامل والصبيان اليتامى ليقفوا أمام العمدة فراج بعيون كسيرة ونفوس ذليلة ، فالعوز مر والديون ذل مابعده ذل ..ثم سألهم بنبرة محايدة :

ـ لماذا لم تسددوا ماعليكم ؟! أتحبون أن تأكلوا أموال العمدة الراحل بالباطل ؟! لا والله لن يحدث هذا طالما أننى حى أرزق وأحكم هذا البلد ..

تململ بعضهم ، وطلب البعض الآخر مهلة للسداد ، وبعضهم ماطل وراوغ وتعلل بضيق الرزق !

والغريب فى الأمر أن الحاج عبدالعاطى والد فاطمة كان من بين كثيرين اسمه مدون فى ورق الصندوق ، وعليه إيصال أمانة بخمسين ألف جنيه ، وقف الرجل صامتا أمام فراج بجلبابه الأبيض الناصع ، وعلى رأسه عمامة بيضاء تزيده وقارا .. وتكلم العمدة قائلا بعنجهية :

ـ ياحاج عبدالعاطى .. لماذا اقترضت هذا المبلغ ؟!

ـ الدار كانت آيلة للسقوط يافراج ، وعندما عرضت الأمر على والدك الله يرحمه ، أظهر شهامة ونبلا وأعطانى هذا المبلغ كى أرمم الدار التى تأوينا ، ونعيد تحصين السقف والحوائط .

ـ ولماذا لم تسدد ديونك ؟!

ـ يافراج أنا لن أهرب ، وإن شاء الله أسدد .

بعصبية قال :

ـ ومتى تسدد ؟!

ـ حين ميسرة يافراج ياولدى ، فأنا لاأنكر وهذا المبلغ أمانة فى رقبتى ،وعندك ورقة تثبت حقك .

بنفاذ صبر وضيق صدر :

ـ لاتقل لى ياولدى .

ـ وماذا أقول لك ؟!

ـ حضرة العمدة .. قل حضرة العمدة .. مثلما ينادينى كل الناس فى العزبة .

ـ حاضر ياعمدة .. أوامرك ياحضرة العمدة .

ـ هل نسيت ياعبدالعاطى أنك رفضت أن تزوجنى ابنتك فاطمة ؟!

ـ ياحضرة العمدة أنا لم أرفضك بل رفضتك فاطمة .

ـ وأنت ياحاج عبدالعاطى ليس لك كلمة فى دارك .. ليس لك كلمة على ابنتك ؟!ألست رجل الدار ..ولماذا لم تجبرها وهل كنت ستجد أفضل منى زوجا لابنتك ؟!

ـ ياعمدة .. خير خلق الله يقول (لاتكرهوا البنات فإنهن الغاليات المؤنسات) صدق رسول الله .

تغيرت ملامح فراج واكتسى وجهه بسحابة غائمة وقال :

ـ رجل طرى بلاشخصية .. أوهن من خيوط العنكبوت !

أطرق الحاج عبدالعاطى وابتلع الإهانة ثم قال بهدوء :

ـ لاحول ولاقوة إلابالله .. هذا شرع الله .

ـ شرع الله أن تترك ابنتك تخرج عن طوعك ؟!

ـ ياحضرة العمدة .. الشرع يلزمنى أن ألتزم برغبتها ولاأخالف إرادتها ، وهى لم تكن تريدك .

بنبرة سخرية وغيظ مكتوم قال فراج أبودومة :

ـ آه طبعا .. لأنها تريد الجربوع ابن خالتها الذى لايملك من حطام الدنيا شيئا سوى جلبابه المتهالك .

ـ الفقراء عيال الله ياعمدة .. والغنى هو الله وكل الناس فقراء إليه ..ولاتنسى أن رضوان ابن خالتها ورفيق صباها وطفولتها وحب عمرها .

نال منه الغيظ منتهاه وقال بلهجة آمرة متغطرسة مهددا :

ـ اسمع ياعبدالعاطى أمامك أسبوع واحد لولم تسدد ديونك سأسجنك .

هز رأسه وبهدوء وطول بال تبسم قائلا :

ـ لاحول ولاقوة إلابالله ..الله غالب .. حقك ياعمدة .. الله يرحمه والدك كان رحيما بالناس ، طيب القلب لين البأس ، يلتمس لكل منهم ألف عذر وعذر .

سكت ونظر فراج إلى المحامى بجواره والذى همس فى أذنه بشىء ما عندئذ رفع فراج صوته قائلا :

ـ أسبوع واحد أمامك ياعبدالعاطى ، وهذه المهلة كرم أخلاق منى ، وبعد انتهاء المهلة لاتلومن إلانفسك وابنتك فاطمة !

لاذ عبدالعاطى بالصمت وعلى وجهه ابتسامة غامضة مثل ابتسامة الموناليزا ، فعاد فراج يصيح كالديك الفصيح :

ـ تكلم ياعبدالعاطى .. انطق يارجل .

ـ إن شاء الله ياعمدة أتدبر أمرى وأرد لك الأمانة .

ـ الأستاذ بسيونى المحامى سيتخذ الإجراءات القانونية ضدك لوتأخرت دقيقة واحدة بعد الموعد المحدد ، وأنا واثق أنك لن تستطيع أن تسدد شيئا ..

ـ الله كريم ياعمدة .

ـ ومن أين ستدفع ؟!

ـ ربنا عنده الكثير ، وخزائنه عامرة ، وكنوزه لاتحصى .

بتهكم قال:

ـ عليك أن تسأل رضوان سبع الليل زوج ابنتك أن يسدد عنك !

ـ رضوان ليس له علاقة بهذا الأمر ياعمدة .

ـ عندى إقتراح مريح لى ولك ياعبدالعاطى .

ـ هات ماعندك ياعمدة .

ـ يمكن أن أمد لك مهلة السداد لمدة عام كامل بشرط واحد .

تهلل وجه الحاج عبدالعاطى ، وأحس أن هناك انفراجة فى الأمر فسأله بلهفة :

ـ شرط واحد .. وماهو ؟!

ـ أن يأتى رضوان إلى هنا كى أنقل إيصال الأمانة باسمه بدلا منك ، ويكون هو المسئول أمامى على الورق فقط ، ويكون أمامك أنت مهلة سنة كاملة كى تدبر المبلغ المستحق عليك .

كانت تلك فكرة خبيثة شيطانية من مستشاره المحامى بسيونى ، كى تكون تلك الفكرة مسمار يثقب به قارب زواج فاطمة باعتبار زوجها رضوان غريمه اللدود الذى خطف منه الفتاة التى يهواها .. فقد كان المحامى يعرف كل التفاصيل والتى حكاها له فراج بنفسه ، وأسر له بأنه يتمنى أن يغمض عينيه ،ويفتحهما فلايجد رضوان على قيد الحياة أوعلى الأقل يفرق بينه وبين فاطمة الفتاة التى ملكت قلب العمدة وعقله فى هذه العزبة المنسية .

تجهم وجه الحاج عبدالعاطى ، وظل يفكر فى هذا العرض المثير للدهشة والإستغراب فى ذات الوقت ،ولكن لووافق سيكون أمامه سنة كاملة ، يحيا فيها ناس ويموت فيها ناس غيرهم ، ولاأحد يدرى ماذا تخبىء الأيام فى سراديبها المجهولة ، وبعقل كبير وخبرة العمر الطويل لم يحسم الرجل أمره مع العمدة بل أمسك بالعصا من المنتصف حين قال :

ـ والله هذا كرم منك فعلا ياعمدة ، ولكن أمهلنى يوما أوبعض يوم لأعرض الأمر على رضوان وفاطمة .

ـ ومادخل فاطمة فى الموضوع ياحاج عبدالعاطى ؟!

ـ فاطمة زوجته وابنتى ، ومن حقها أن تعرف وتدلى برأيها ، وأظن أنها لن تمانع وكذلك رضوان طالما أن نقل الدين من اسمى إلى اسمه مجرد إجراء شكلى على الورق ، ويمنحنا فرصة أطول فى السداد .

تبسم فراج وهمس فى أذن بسيونى المحامى يسأله فأشار عليه بأنه لابأس ، فالصياد لابد أن يتحلى بالصبر .. عندئذ انصاع العمدة وأحس أنه رمى بشباكه على صيده الثمين وأنها مسألة وقت فقط !

وقد فهم الحاج عبدالعاطى جيدا الفخ الذى نصبه له فراج باحكام ودهاء ، ولكنه لم يشأ أن يرفض فكرته أويسفهها مباشرة فينبهه إلى أنه يفهم خطته وعندئذ يستفزه ، وربما تأخذه العزة بالإثم ، ويدفع بإيصال الأمانة إلى النيابة ويكون مصير الحبس ،وهو فى هذا العمر وقد بلغ من الكبر عتيا واشتعل رأسه شيبا .

كل منهما أدرك أنه انتصر إلى حين ، ووجه ضربة للطرف الآخر ، وبالفعل ذهب الحاج عبدالعاطى إلى ابنته فاطمة يشاورها فى الأمر ، فأدركت على الفور خبث نية فراج ، وأنه يريد أن يزج برضوان فى السجن انتقاما منه ومنها لأنها اختارته وفضلته عليه .

وبدون أن تحكى لرضوان شيئا حسمت أمرها بذكائها ، ودعت والدها أن يبعد زوجها عن طريق فراج الملىء بالأشواك ، ولم تكتف بذلك بل وصفت العمدة فراج ـ الأصغر سنا بين كل أقرانه العمد فى بر مصر ـ بالطائش المتعجرف !

طغى الاحساس بالإنكسار على الحاج عبدالعاطى ، وهو يسمع أسماء الناس من الفلاحين البسطاء المساكين الذين ألقى بهم فراج فى غياهب السجون لحين الدفع ، وكلها مبالغ تافهة ،وعاونه فى ذلك واعظه الشيطان بسيونى المحامى !

فكر عبدالعاطى فى هواجسه لوتهور فراج .. فهل يتحمل أن يكون رهين زنزانة ضيقة خانقة معتمة أضيق من القبر ؟!

وهل يتحمل أن ينام على البلاط بلافرش ولاغطاء فى عز البرد ؟! لن يستطيع أن يتحمل ساعة واحدة فى زنزانة حتى يموت بعدها ، ويكون سجنه هو قبره ..واقع الحال أن العين بصيرة واليد قصيرة ، وليس أمامه سوى البحث عن شخص يرهن له فدان الأرض اليتيم الذى يملكه مقابل خمسين ألف جنيه ، وربما لايجد من يفرج كربه من أهل العزبة .

إن الجميع حالتهم ضنك ، وأغلبهم يكملون عشاءهم نوما .

صلى الحاج عبدالعاطى صلاة قضاء الحاجة ،وابتهل إلى ربه مستغيثا بقدرته لإنتشاله من محنته ، وانقاذه من هذا الأهوج المتهور الذى يشبه المسطول حين تكون فى يده قنبلة !

هناك لحظة يلهج فيها الإنسان لله من أجل أن تسير أموره على مايرام ، وتدور عجلة حياته بشكل طبيعى خالية من الإنحرافات الحادة ، والتعرجات الخطرة .. يريدها عادية بلامرض ولاسجن ولاديون لاقيود من حديد ، عسى الحياة أن تمضى كما اعتاد عليها بسخفها وسخمها .

كالعادة تحركت فاطمة لتزيح سطوة فراج عن أبيها ، ربما عرفت بقول سقراط .. (إذا أردت أن تحرك العالم ..عليك أن تحرك نفسك أولا) فليس من اللائق أن يبتزه أويساومه ، أويهدده بهذه الطريقة الفجة .

كانت فى أعماقها تدرك أنها نقطة ضعف فراج أبودومة ، وأن لديها سطوة خفية عليه لايراها أحد ، ولكنها تحسها ، فالعمدة الشاب الذى يتقمص شخصية الفرعون الذى يتحسس سكة الديكتاتورية ، وهو يتعامل مع أهل العزبة .. كل أهل العزبة سوى فاطمة فيبدو أمامها هينا لينا مثل قط أليف يتمنى رضاها لكنها أبدا لاترضى ، ولن ترضى لأنه فى نظرها قاتل مجرم هارب من يد العدالة ، وتراه أيضا بلاأخلاق ولاشرف ولامروءة لأنه يزج بأهل عزبته فى السجن من أجل حفنة جنيهات ، ويطغى ويظلم هؤلاء الذين جارت عليهم الدنيا وظلمتهم ، ودهسهم البؤس والعوز !

أثبتت الأيام والأحداث أن قلبه من حجر صوان ،ولايعرف الرحمة تجاه أحد باستثناء فاطمة التى تراه بوجهه البشع ، ولاتراه بالألوان مهما كذب أوتجمل أولاحقها بكلام معسول ، وحنين مكبوت وأنين مكتوم ، إلا أن هذا لايخطر لها على بال لأن قلبها عامر برضوان .. قلب الأنثى غير قلب الرجل .

إن قلب الأنثى غرفة واحدة لاتتسع إلالرجل واحد ،أما قلب الرجل فهو فندق واسع فسيح يمتلىء بالغرف ويتسع لأكثر من امرأة !

فى مضيفة الدوار دخلت عليه غاضبة مستنكرة تدبيره اللئيم لوالدها وزوجها ، نهرته بضيق ووبخته بجرأة ، وهو شاخص كصنم بين رجاله والخفراء من حوله ، وبجواره شيطانه الواعظ بسيونى المحامى الذى يعرف القانون ،ويعرف ثغراته كما يعرف كف يده ، ويستطيع التلاعب بهذا القانون والفرار من ثغراته مثل فرار الشعرة من قبضة العجين ، ويسخر كل قدراته فى هذا التلاعب لحساب ولى نعمته فراج العمدة !

حملق فيها غير مصدق والكلمات تخرج من بين شفتيها كطلقات النار ، ويتأمل ملامحها كما لوكان يهيم فى عالم آخر !

حذرته من أن يمس والدها بسوء ،وأنها فى خلال مهلة الأسبوع سترد له دينه حتى لواضطرها الأمر أن تبيع ذهبها الذى تتزين به ، ثم انطلقت مسرعة كالسهم ناحية باب الدوار للخروج دون أن تنتظر منه ردا ، وعلى الفور نهض مهرولا ليلحق بها عساه يسترضيها ، وحين حاول أن يمسك يدها ليمنع اندفاعها نحو الباب دفعت يده بغضب وعصبية ، فتراجع مأخوذا باصرارها وحدتها ، وتسمر مكانه ثم التفتت إليه وقد ظهرت دموعها لامعة كحبات اللؤلؤ تنساب على وجهها الخلاسى الجذاب ،وقالت من بين دموعها وقد تخلت قليلا عن حدتها منذ وطأت قدمها عتبة الدوار :

- هذا يكفى .. لقد سيطرت فأسأت .. وحكمت فتحكمت بمالايرضى الله والناس .. اتق الله فى أهل بلدك ياعمدة .

ظل صامتا كثمثال من ورق ، وبدا أمام رجاله وحرسه وخفره هشا ، وفهم أن صراعا نفسيا هائلا يحتدم داخلها ، وإن استغلق عليه فهم قولها .. اتق الله .. وهى تقفز بنفسها بعيدا عنه متعجلة كأن المكان موبوءا ، وعليها الانطلاق خارجة بأسرع مايمكن عساها تتنفس هواء نقيا !

****

(28)

عندما بدأت معه مشوار الزواج اكتشفت فاطمة حنانه الغزير المتدفق كالنهر المار بعزبة الحنكاتى وقت الفيضان ،لم يكن حنونا معها فقط ، بل كان حنونا مع كل شىء حوله إنسان كان أوحيوان أوجماد ..وحتى عندما يفتح الأبواب والنوافذ يفتحها برفق ،ويغلقها برفق كأنه يستأذنها أن تنفتح وتنغلق برغبتها لارغما عنها !

أحبته أكثر مماكانت تحبه قبل الزواج ،كما اكتشفت أيضا كرمه الفياض إذا كان معه مايشى بكرمه .. كرمه يفوق أشهر مشهور فى تاريخ الكرم والعرب .. حاتم الطائى ليس سواه ، مع مراعاة فروق الإمكانيات والممتلكات والتوقيتات .

لذلك كانت سعادتها تحلق بها فوق السحاب ، وتمشى بها بجوار النجوم ، وتستطيع أن تلمس القمر بأناملها الرقيقة .

فى الليلة الأخيرة التى سبقت الحدث الرهيب ، والحادث المفجع العجيب طارحها الغرام ، وكان يلمسها بحذر كما لوكانت من زجاج شفاف يخشى عليه أن ينكسر بين يديه ،ويتعامل معها برقى مثلما يتعامل الخادم مع أميرته ، وهو يحسب نفسه كذلك فعلا .. خادمها وعبدها .

أما سمو الأميرة فاطمة بنت عبدالعاطى فتشعر أنه يقدم لها خدمة جليلة ،خدمة يتفانى فى تأديتها بصدق واخلاص وغرام وانسجام.. بينما الأميرة مشغولة فى إعادة اكتشاف أنوثتها ، كما لوكانت تتعرف على تفاصيلها لأول مرة !

أحست فاطمة فى تلك اللحظات الدافئة أن ممارسة الحب مع رضوان لحظة خارقة للعادة .. لحظة يحلق فيها جسدان معا خارج مدار العالم المحدود إلى نعيم مبهر بلاحدود ، تحل لذة استثنائية فى هذه المرة كأنها أول مرة ، ميلاد جديد .. ميلاد سعيد .

تدرك الأميرة وعبدها أن تلك الشهقة الأخيرة هى بداية بعث جديد .. شىء رهيب عجيب يتمرد على كل القيود .. متمرد على سجن الجسد ، وسجن المكان ، وأسوار الزمان وجغرافيا النفس البشرية !

يسيل العسل ويمتزج بالعرق ،فيتحرر الجسد من الأسر ، وينكسر طوق التوتر ، فترتاح الروح وتطير إلى الأعالى تشدو وتغرد كطائر هرب توا من القفص والسجان بعد حبس طويل .

وفى لحظة صافية رائقة على هامش العسل تسأله مازحة :

ـ قل لى ياابن خالتى .. لماذا تزوجتنى ؟!

رد عليها بنبرة مازحة أيضا :

ـ تزوجتك لكى أعذب نفسى يافاطمة يابنت خالتى .

ـ وهل أنا العذاب ؟!

ـ أنت العذاب الحلو .. أنت النار التى تحرق الذهب لتطهره من الشوائب فيبدو بلهيبها لامعا براقا يخطف الأبصار .

مالت عليه بذراعيها ثم ضمته لصدرها قائلة بتدلل :

ـ كن صادقا معى وأخبرنى بالحقيقة .

ـ لايمكن لرجل مثلى يحب فاتنة مثلك إلا ويتعذب فى هواها .

ـ وهل وجدتنى كما كنت تظن وتتوقع ؟!

ـ فى الحقيقة لا .. لقد وجدتك أجمل وأرق وأذكى مما كنت آمل وأتوقع ..لقد علمتنى الحياة يافاطمة أن الإنسان لايستطيع أن يكتشف معدن إنسان آخر إلا فى حالتين فقط لاثالث لهما .

بشغف ولهفة قالت :

ـ وماهما ؟!

ـ الحالة الأولى .. أن يعيش مع هذا الشخص الآخر تحت سقف واحد ..أما الحالة الثانية ..أن يتعامل معه ماليا سواء بالأخذ أوالعطاء .. العشرة كاشفة .. والفلوس فضاحة للنفوس !

هزت رأسها مثل تلميذة تتعلم من أستاذها ، ولم تنطق بكلمة فاسترسل يسألها :

ـ هل تحبيننى يافاطمة ؟!

قالت ضاحكة :

ـ موت ياابن خالتى .. أحبك موت !

ـ موت .. وعندما أموت هل ستذكريننى ؟!

ـ لن تموت يارضوان !

ـ كيف يافاطمة .. والموت علينا حق وقدر مقدور ، ونصيب مكتوب على كل كائن حى .. لافرار منه أبدا ؟!

ـ ماقصدت ماتفكر فيه يارضوان .. إنما أقصد أنك لن تعيش معى الحياة اليومية بتفاصيلها العادية فقط ، بل ستعيش خالدا مخلدا فى شرايينى ، وتجرى فى عروقى مجرى الدم ، وتسكن عقلى وقلبى وروحى .. أنت تعيش فى كما أعيش أنا فيك !ـ

ـ وعندما أموت .. ماذا ستفعلين من بعدى ؟!

ـ أرجوك لاتذكر الموت ودعنا فى الحياة .

ـ أتعرفين يافاطمة أننى حتى الآن لاأفهم أى معنى للموت ، لكن مادام الموت قادم ليأخذنا لاحيلة لنا فلنفعل شيئا يبرر وجودنا فى هذه الحياة .

ـ وماذا نفعل يارضوان ؟!

ـ نترك بصمة على هذه الأرض قبل أن نغادرها .

تبسمت فاطمة وقالت :

ـ وهل هناك بصمة أفضل من بصمتنا أنا وأنت فى التوأم الذى رزقنا الله به ؟!

ـ آه .. معك حق .. كم أحب هذين الولدين .. فيهما الكثير من صفاتك وسحرك .

ـ يشبهانك أنت كثيرا يارضوان .

ـ ربما .. الحمد لله على كل حال .. من شابه أباه فما ظلم .

أحسا بالارتواء والارتياح والشبع وناما نوما عميقا ، وفى الصباح كانا على موعد مع النخيل الذى يهواه ويعشق تسلقه ، ويمارس تلك المهنة كهواية محببة إلى قلبه .

لاشك أن احساسه وهو فوق النخلة بين السماء والأرض لايختلف كثيرا عن احساس طيار بارع يقود طائرة رئاسية فخمة يتجول بها فى عواصم العالم .

ويبدو دائما فى أعماقه ممتنا وشاكرا للرجل الذى علمه فى البداية صعود النخل ، ويذكره بكل الخير .. أنه الحاج عبدالمنعم شعيشع الله يرحمه ، وقد كان الرجل أفضل طالع نخل فى البلد كلها ، ومازال يذكر نصائحه كأنها تعليمات مقدسة ، ولعل آخرها قبل وفاته بأيام قليلة حين قال :

ـ ياولدى احترس .. إن النخل غيور عنيد مثل امرأة عاشقة ، ويحس كطفل مرهف بكل شىء ، فإذا هبت الريح فلاتركب النخل أبدا ..اعلم يابنى أن النخلة لاتطيق من يمتطيها والرياح هائجة عاصفة ، ولولم تقذف به الريح من فوق النخلة ، سترميه النخلة بنفسها من فوقها وتطرحه أرضا !

فى هذا اليوم من نوفمبر كان الوقت بين الظهر والعصر ، والريح عاصفة حبلى بالرمال .. تسكت لتهدأ وتسكن ثم تعود فجأة لتهب وتصرخ ، وتلطم وتلاطم كل شىء يعترض طريقها !

فى مثل هذا الوقت من كل عام تكون الريح نائمة فسبحان من أيقظها فى غير أوانها ، لكنه بقلب جسور شد الحبل حول وسطه ، وقبض بمنجله فى يده .. إن الحبل والمنجل هما أدوات الجندى فى معركته مع رزقه ، والنصر حليفه بأمر الله حين يهبط ويجد البلح تحت قدميه مثل عناقيد الياقوت الأحمر ، وحفنة جنيهات فى انتظاره أجره عن عمله الشاق نظير كفاحه بين الأرض والسماء !

أدواته البسيطة لاتفارقه مثل السيف والدرع لأى محارب قديم فى معركة حاسمة ، لكن القلب الجسور لن يمنع المكتوب ، ولن يصد يدر القدر عن أن تفعل ماتؤتمر .

لأول مرة يشعر بأن اتزانه ليس فى محله ، وأن قوة خارقة ـ لامجرد ريح عاتية ـ تدفعه ليهوى من أعلى النخلة السامقة عند صدر السماء السابعة ثم يسقط فى لمح البصر إلى الهاوية .

كان يظن أن المسافة كبيرة وهائلة لكنه فى رحلة السقوط طار مسرعا ،واكتشف أن المسافة بين الأرض والسماء لاتزيد عن عقلة الأصبع هكذا أحسها حين سقط ، وكان السقوط مروعا مفزعا مهلكا ارتطمت رأسه بحجر فى حجم كرة القدم من سوء حظه ، بينما جسده ارتطم بالأرض الصلبة من ارتفاع يزيد عن خمسين مترا ، وأحدث سقوطه وارتطامه صوتا مكتوما ، وصرخة واحدة ممزوجة بشهقة الخلاص من الدنيا ،والتحرر من عذاباتها والفكاك من قيودها .

هرول الفلاحون والنساء والصبية الذين كانوا فى الحقول القريبة ، يقودهم نداء واحد يتردد على ألسنتهم :

- رضوان سقط من فوق النخلة .. رضوان سقط من فوق النخلة !

حالة من الهلع تكسو كل الوجوه ، الناس لايصدقون أن هذا الفتى البارع فى ركوب النخل دون أن يرمش له جفن أوتهتز فيه شعرة يمكن أن يسقط هكذا صريعا فى لحظة جنونية عاصفة .

ياليت الحاج عبدالمنعم شعيشع كان حيا اليوم ليرى ماجرى لفتاه الذى لقنه سر المهنة ، وعمده بطقوس الصعود بأمان والهبوط بسلام .. اليوم لاأمان ولاسلام حدث ماحدث ..أراد الرجل شيئا وأراد الله شيئا آخر ، والفرق بينهما كالفرق بين السماء السابعة والأرض السابعة !

إن إرادة شعيشع أوغير شعيشع لاتساوى فسيلة من نخلة أمام إرادة الله .. وإرادة الله نافذة فى التو واللحظة .. سبحان من له الخلود وله الأمر كله .

تزاحموا كالنمل وتداخلت أصواتهم ، تساؤلات وهمهمات وغمغمات وبسملات وحوقلات ، وحسرة تطغى على الوجوه الشاخصة المذهولة ، وحين رأوا الدم ينزف من فمه ورأسه حملوه على وجه السرعة ،وهرولوا به إلى الوحدة الصحية الرابضة على أطراف العزبة بلاجدوى ، فقد صعدت الروح إلى أعلى بكثير من كل النخل العالى ، وانطلقت إلى الأعالى عند بارئها ، وعاد التراب ليدفن فى التراب ولاحول ولاقوة إلابالله .

ماذا يفعل الطبيب المسكين فى الوحدة الصحية ، وقد فعل الطبيب الأعظم الخالق البارىء المصور المحى المميت كل شىء ؟!

انتهى الأمر ودون طبيب الوحدة الصحية شهادة وفاة رضوان .. هذا أقصى مافى وسعه .

طار الخبر المفجع كالبرق فى السماء ، وتحرك سريعا مضطربا كالسمك فى الماء إلى الزوجة والحبيبة فاطمة التى أخذتها الدهشة كزلزال فى بدايته ثم ضربتها صاعقة ماحقة على رأسها ، وحين رأته جثة هامدة بلاروح سقطت مغشيا عليها ،وعندما أفاقت بمفعول النشادر النفاذ كأنها نهضت من العالم الآخر لترى أحلامها قد ماتت بغتة ، وترى حبها قد انتحر من فوق نخلة عالية تآمرت مع ريح لئيمة ماكرة .

احتضنته بلوعة وأحست به حيا وأنفاسه تتلاحق على صدرها ، لكنها صرخت حين هزته بعنف ولم يحرك ساكنا ، وألم فظيع ينتابها وقلبها يحترق ثم راحت فى غيبوبة أخرى ، وضربها الخدر الطبيعى الذى يضرب الناس فى المصائب الكبرى !

ازدحمت الدار والشارع بجحافل من الناس ، العزبة كلها هاهنا تحيط بها وبدارها وبزوجها المسجى فى فراشه كأنه ينام قليلا ، أمه الملتاعة فقدت عقلها من هول الصدمة ، وظلت تلطم خديها وتضرب صدرها ،وتنادى عليه لعله يسمعها :

- ولدى .. رضوان ياولدى .. انهض ياحبيبى .. أنا أمك لاتفارقنا هكذا .. طول عمرك ابن بار لاتكسر كلامى ولاترد لى مطلبا .. أقول لك يابنى انهض من أجلى .. انهض من أجل أحبابك .. لأول مرة ياولدى لاتلبى ندائى !

وأخذتها هى الأخرى نوبة هستيرية ، وغفوة ذات مذاق نادر تشبه توقف تيار الحياة بالموت المؤقت بعد أن استهلك العذاب ماتبقى لها من قوة على التحمل .

كانت تظن أن ابنها ـ هذا الفتى النبيل ـ الذى لايكره أحدا ، ولايؤذى كائنا على وجه الأرض لا تستطيع الحياة أن تأخذ منه شيئا ، ولاتقدر هذه الدنيا بكل جبروتها وسطوتها وخبثها أن تسلبه شيئا لأنه كان يواجه كل شىء بقلب طيب وابتسامة هادئة راضية دائما .. ساخطة أحيانا أخرى .

وكانت تلك الابتسامة تسرى عنه كل هموم الدنيا وطغيانها .. لكن هاهى الحياة تسلبه كل شىء فى لحظة واحدة .. تلك هى عبثية الحياة الدنيا وغدرها .. لقد سلبته نفسه ، الحياة سلبته حياته ذاتها ،ولم يعد له شىء !

أه ياولدى .. تكاد صرختها تشق الكون وتحطم السكون ، وتهز القبور .. كل القبور من أيام آدم حتى اليوم .. لالوم عليها .. أم لها قلب يحترق بنار الفقد وما أقسى الفقد !

لم يكن ابنها فحسب بل كان سندها وعامود الخيمة التى تستظل بظلها ، وتعيش تحت سقفها هى وأخوته منذ رحل والده عن الدنيا .

كانت تراهن عليه لأنه الجواد المخلص الأمين .. أهكذا تكون نهاية جوادها الرابح فى سباق الحياة .!

رأت بعين الخيال أن فى هذا المكان روحا شريرة تسطو على أحبابها .. مات الزوج .. ومات الابن.. ماهكذا يموت الفرسان غدرا ..وكلما واتتها الفرصة لتصرخ ، وطاوعتها حنجرتها بلهفة تنادى :

ـ ماهكذا يموت الفارس ياولدى .. هذه الميتة لاتليق بمثلك يانورعينى لمن تتركنا يارضوان ؟! لمن تترك زوجتك الجميلة وولديك الصغيرين ؟! اللعنة على النخل والبلح والصعود والسقوط .. اللعنة على كل شىء .. اللعنة على حياة خالية من فلذة كبدى !

لم تهدأ المرأة التى فقدت صوابها بفقد ولدها إلابالقرآن وأهل القرآن .. سكن روعها ، وسكت نواحها وهدأت فى الظاهر وإن ظلت النار مشتعلة فى الباطن .

إن الصبر عملة نادرة فى مثل هذه المصائب العظمى ، وخاصة عند سقوط الأحباب من قطار الحياة ، ويخطىء من يظن أن الحياة توزع الهدايا طوال الوقت على أهلها .. ومن يحسن الظن بها فهو واهم ،وماتعطى الحياة إلا لتأخذ هذا هونهجها مع الجميع بلااستثناء .

وحين تعطى الحياة وتوزع الهدايا تكرما منها .. سوف تسلب منك شيئا غاليا رغما عنك فى أقرب فرصة .

أعطت لهذه الدار وأهلها هدية غالية هى التوأم عز الدين وشرف الدين ،واختطفت من نفس الدار رضوان .. الحياة تراها قسمة عادلة .. تأخذ بقدر ماتعطى ، بينما أهل الدار يرونها قسمة أكثر من ظالمة !

لاذت فاطمة بالصبر بعد أن اختفى حبيب العمر خلف جدران مقبرة معتمة على أطراف العزبة ، تنظر للناس والدنيا والأشياء والأحداث نظرات زائغة فيها كثير من الشك والريبة ، لم تعد ترى سوى السواد ومن خلفه الأشباح ، وكلما اشتاقت لتوأم روحها ووالد طفليها التوأم تلوذ إليهما لتأخذهما فى حضنها عساها تعوض شيئا من خسارتها التى لاتعوض أبدا .

أدركت أن الزوج الحنون لايعوضه ولد ولاأب ولامال ، وتمر الأيام مكللة بالأحزان ، وسحابة من الألم تكسو الوجوه ، ووجع عميق استقر فى القلوب ، وآيات من كتاب الله تمنح أهل الدار بعضا من السكينة والطمأنينة .. ألابذكر الله تطمئن القلوب .

ياالله تحس فاطمة أن رضوان مازال موجودا معها فى كل ركن وكل زاوية ، يشاركها كل فكرة وكل ظن وكل حلم ، تحس بأنفاسه قريبة من وجهها ، وتكاد تشعر بيده الحانية الخشنة تلامس كل خلاياها ، وصوته الهامس الهادىء الرزين يتردد فى وجدانها ، وعلى مسامعها ليدخل قلبها ويبقى فى مكانه لايبرحه .

إن الشىء الوحيد الذى صدقت فيه نبوءات كهنة الفراعنة القدماء هى نبوءاتهم عما بعد الموت ، عرفت منهم أن الروح تظل حائرة ، وتحوم حول المكان الذى عاشت فيه بعد الرحيل أربعين يوما ، لذلك يظل الحزن والسواد مع أهل الدار أبعين يوما وفاء للروح التى تأبى أن تغادر كما غادر الجسد ، وترى كل ماكانت تراه ،وتحس بكل ماكانت تحسه به قبل أن تفارق صاحبها .

وبالفعل كان هناك رضوان فى الدار ، مازال موجودا بروحه قريبا من فاطمة ، وقريبا من أمه وقريبا من ولديه التوأم ، وهى تشعر به يزفر زفرة طويلة كتنهيدة ارتياح من زوال تعب لايطاق ، وتراه يرتقى لأعلى ويرتفع بخفة تفوق خفته ورشاقته وبراعته وهو يصعد النخل فى كل الأيام باستثناء اليوم المشئوم !

يتسامى ويعلو مثل ريشة حرة فى الفضاء لايحدها حد ، ولايردها قيد ليرقب أهله وداره وولديه ، ويطمئن عليهم جميعا قبل أن يستقر فى مكان مجهول الله وحده يعلمه ، وإن تبقى للأهل المكان الوحيد المعلوم لهم هو المكان المسجى فيه جسمه على أطراف العزبة !

ياليت الناس يتعلمون من كهنة آمون فن التحنيط ، هذا مادار فى نفسها ، وإن أرادت لروحها التى تسكن زوجها أن تبقى معها ،وحتى لاتحس كما تحس الآن بنار لاتنطفىء ،وبأنه ذهب بعيدا جدا إلى عالم آخر ليس وحده بل أخذ معه روحها ، وتركها هاهنا تتحرك ،وتتنفس كأنها من الأحياء وهى ليست كذلك ، تسعى بين الناس بلاروح !

مأأقساه من احساس حين يغيب عنك أعز الناس ، ويسلب روحك معه ،ويتركك تقاسى الويل وحدك فى غياهب الحياة .

سيطرت الوحشة ، وعتمة الفراق على أهل الدار ، وليس الأصل فى النفس البشرية أن تكون موحشة أوخالية من الإنسان لأنه كالدار لاتبنى إلا لتسكن ، وإذا خلت خربت ، وإذا خربت إنهدمت ، والنفس المنعزلة المكلومة فطرت على الإتصال والتواصل ثم لأمر مامؤلم تضيق بالصلات والإتصالات فتنعزل وتعتزل الناس ، وتتوقف عن الأخذ والعطاء كمثل ساكنى الديار !

لقد كانوا قبل تلك المحنة التى دفعتهم للعزلة أكثر مايكونوا إتصالا بالحياة وانسجاما معها واستمتاعا بمباهجها القليلة ثم لعلها تركتهم فتركوها أو قاطعتهم فقاطعوها ..

أما أن تخلق النفس البشرية موحشة خالية فذلك قليل ، ومع هذا فإنها تبقى صالحة للإتصال تحيا به وله مثلها مثل الكهف يخلق فى الجبل ماجوفه أحد لكنه يقبل السكن فيه ، وظلمته يمكن ازالتها بشىء من الضوء .

فى الليالى الأولى التى مرت عليها بعد أن صارت أرملة ، وفقدت أليفها ، وشريك لياليها ..ظل النوم يجافيها ، وليس لها شريك فى تلك الليالى الموحشة سوى الخيال ، ويكون فيها الخيال خصبا يرمح بها فى كل اتجاه كحصان جامح .

لأول مرة تواجه فاطمة قسوة الوحدة فى غرفة نومها ،وتطل من نافذتها على النهر القريب والمزارع والحقول البعيدة ثم تمد بصرها فى الليالى الشتوية الطويلة ،وترى الأحداث كلها ببصيرة نافذة ، وتستعيد كل الذكريات مع رفيق دربها فى الحياة .

وتمد بصرها نهارا إلى النهر الخالد بسره وسحره وصمته وهديره ، وتشرد بحصان خيالها الجامح فى أرض مجهولة مأهولة وغير مأهولة !

وفى الليل تطير بروحها فوق بساط الفكر فى الماضى والحاضر والمستقبل الغامض ، وإذا كان القمر حاضرا فى صدر السماء يرسل أشعته الفضية إلى الكون فيغمره بالمزيد من الغموض فلابأس من أن تشاركه ليله وغموضه .

لاتفارق صورته خيالها .. تبكى وتتألم وتهمس له بالدعاء عساه يفوز بالجنة ،وتكون معه فى يوم ما .. تكون له حورية أبدية من حوريات الجنة كما كانت له فى الدنيا ..لكنه تريد أن تكون معه هناك حيث لافراق .

إن من حق الميت على الحى أن يدعو له بالرحمة دائما ، أما هى الآن ففى عسرة من أمرها ، وتحتاج لمن يدعو لها أن تتخطى عسرتها ، وتنجو من محنتها الكبرى .

أما وأن زوجها حبيبها وتوأم روحها قد مات فإن الله حى لايموت ، ولن يتركها تكابد كل هذه الألام دون أن يمدها بمدد من عنده .

لابد أنه اختبار من الإله ، وسيجزيها عنه خير الجزاء ، ويمنحها الصبر والسلوان ، ولها فى ثمرة حبهما التوأم

عز الدين وشرف الدين خير العزاء .

ارتاحت فاطمة إلى تلك الخواطر الطيبة ، ورضيت نفسا بعض الرضا ، وتلاشى الكثير من حزنها فنامت بجوار صغيريها بعد ليلة طويلة السهاد ليوم طويل حافل بالمشاق والمتاعب.

فى عتمة الليل وقبل الفجر بقليل يصرخ ذئب من بعيد ، يشق بعوائه صمت السكون ، ويدوى مستغيثا فى الأفاق كأنه جائع أومحروم ، وتلتقط مسامعها استغاثة كلاب ضالة تطوف حول ديار العزبة طوال الليل ،وتنبح ثم تنبح ولاأحد يدرى إن كانت تلك الكلاب تحرس العزبة أم تخيفها فى ذلك الوقت المخيف ؟!

لم يسكت عواء الذئب ، ولم يتوقف نباح الكلاب إلاحين علا فى السماء صوت خاشع معلنا من مئذنة وحيدة صلاة الفجر ..الله أكبر الله أكبر .. الصلاة خير من النوم .

****

(29)

فى هذا اليوم الربيعى من شهر أبريل صلى الدكتور عبدالله حبيش الظهر فى قصره الكبير ، واعتكف فى غرفته المطلة على النهر يرتل القرآن بصوت ملائكى جميل ثم أمسك بمسبحته الفضية يسبح ربه ويستغفره ويتوب إليه .

وجاءه فى تلك الأثناء عبدالصبور خادمه الأمين بالشاى بالنعناع الذى يفضله ، وخرج إلى البلكونة المطلة مباشرة على النيل ثم جلس يحتسى الشاى على مهل ، ويتأمل النهر وحديقة القصر الخضراء المزهرة بأشجار وورود شتى ، ورأى على الكون فى هذا اليوم دلائل من رضا وهدوء ،واسترخاء حتى أن كل ظاهرة من ظواهره قد انسجمت مع أختها ففاض من الانسجام سحر ودلال ، والنسيم يهادن النهر الهادىء الذى يسير فى حاله لحال سبيله ، والنخل العالى مرفوع الهامات يطل من أعلى يراقب مثله كل شىء من فوق .

والطيور فى السماء تحلق وتدور فى كل اتجاه ثم تعود لتحط الرحال فوق صفحة النهر ، والعصافير تغرد على أغصان الشجر من غير جلبة ولاضوضاء ، والشمس ترسل أشعتها الذهبية الحانية على أهل عزبة حبيش البسطاء الطيبين لاوهج فيها ولاحرارة .

يتبسم الرجل ويواصل احتساء الشاى بتلذذ وعلى مهل فهو مغرم بمذاق النعناع مع الشاى الساخن .

يتأمل مسبحته الفضية اللامعة ،وهى بين أصابعه تؤدى رسالتها فى ذكر الله واستغفاره وتسبيحه .. يالها من مهمة عظيمة .

يشعر بارتياح وعينه تبتهج بزرقة الأفق ،وهى منسجمة مع زرقة الماء المار تحت أقدام القصر ، وقوارب صيد خشبية صغيرة تسعى بحثا عن رزق الله.. صيادون بسطاء نحفاء يلقون بشباكهم بحثا عن قوت يومهم ورزق أولادهم فى جوف النهر .. وتهوى الشباك الماكرة على السمك الساذج فتحدد اقامته وتجبره على أن يدخل القفص حيث لايريد ، وكأن بينهما عداء قديم ، تحاول الأسماك الفرار لكن بعد فوات الأوان ، فلامفر من القدر ، بينما كل شىء فى عزبة حبيش ساكن وديع وكأن الكون كله قد تهيأ لإستقبال عيد .

ثم سأله :

- قل لى ياعبدالصبور .. هل اليوم عيد ؟!

ضحك الرجل فظهرت أسنانه وقال :

- ربنا يجعل كل أيامك أعياد يادكتور .. اليوم يوم عادى وليس عيدا .

ارتبك عبدالله حبيش قليلا ثم قال :

- لكن الجو يوحى بأنه عيد .

قال عبدالصبور بود وبصوت خفيض مفعم بالأدب الجم :

- لأنك حساس مرهف يادكتور ..كان يجب أن تكون شاعرا ، قلبك مثل قلوب الشعراء ، وهو واسع كريم معطاء ، وأحيانا القلوب الواسعة الكريمة تضيق بشىء ولاتسعه ، وتبغضه ولاتطيقه .. وليس على هذه القلوب من حرج فيما تفعل وتشعر لأن القلب لايعرف دستورا ولاقانونا ، فالقلب متقلب .. دستوره منه وإليه !

فهم الدكتور عبدالله مايرمى إليه خادمه العجوز ، وأبدى لامبالاة متسائلا بحذر :

- وماذا عساه أن يكون ذلك الشىء الذى يضيق به قلبى مهما اتسع ياعبدالصبور ؟!

رد على الفور بدون تفكير ولاتردد :

- بنات حواء .. آه بنات حواء .

قاطعه بشىء من الحدة :

- ياعبدالصبور لاتشاكسنى ولاتناورنى ، ولاتخوض فى هذا الأمر مرة أخرى .

- يابنى لن أتوقف عن الحديث فى هذا الأمر لسبب بسيط جدا ألا وهو أننى أخاف عليك وعلى حياتك ، ولاأريدك أن تبقى وحيدا منعزلا عن الناس هكذا .

- اتركنى وشأنى ياعبدالصبور .

- لا ..لن أتركك حتى أعرف من أى شىء تخاف يادكتور .. وماذا فى نفسك تخفيه عنى ؟!

- لولا أنك توليت تربيتى صغيرا ماسمحت لك أن تدس أنفك فى حياتى الشخصية بهذه الطريقة .

- ياعبدالله ياولدى .. حسبى أن قلبك الصغير قد نبض أمامى وأنا أحملك رضيعا بين يدى ذات يوم .

كادت دمعة تفر من عينه ، بينما تطوف بعقله مشاهد كثيرة من بينها مشهد رأى فيه امراته مع رجل آخر فصار لايطيق كل النساء .. وقال بشجن :

- ألاتحب لى الخير ياعبدالصبور ؟!

- ياولدى .. لايوجد فى هذا الكون كله من يحب لك الخير أكثر منى .

هز عبدالله حبيش رأسه وأحس بشىء من العرفان ثم قال :

- الخير لى ياعبدالصبور أن أعيش بعيدا عن الآخرين - يقصد النساء - فلست أنا من الآخرين ولا الآخرين منى ، وقد عشت معهم مايكفى ، ومن ابتعد عن الناس سلم من أذاهم ، وأنا ماعدت قادرا على تحمل أذى ذبابة !

لاذ الخادم العجوز بالصمت ولم ينطق بحرف ، وأطلق عبدالله العنان لبصره إلى أبعد مدى فى السماء العلا كأنه يفتش عن كوكب مجهول ثم ارتد بصره مرة أخرى إلى النهر ، وتنهد بعمق كما لوكان يلتمس فى صفحته الواسعة حلا لمشكلته المستعصية ،والتى ضاق بها عدد لايحصى من الرجال على مر الزمن ، بينما الأمواج تتهادى فى تتابع أليف لطيف .

وأخيرا تكلم قائلا :

- اسمع ياعبدالصبور .. أريدك أن تأتينى بقائمة التلاميذ اليتامى فى مدرسة العزبة .

مستفسرا ومستغربا :

- التلاميذ اليتامى .. لماذا يادكتور عبدالله ؟!

- كى أخصص لهم مساعدات مالية شهرية تعينهم على مواصلة مشوار التعليم .. ويكفيهم اليتم أما العوز فأنا بعون الله كفيل به .. لكن أرجوك لاتخبر أحدا فى الوقت الحالى .. عليك فقط أن تأتينى بالأعداد والأسماء ..

ابتهل الرجل وانفرجت أساريره ثم قال :

- ربنا يكرمك يادكتور .. كافل اليتيم فى الجنة مع الرسول بأمر الله .

تبسم عبدالله وسكت لحظات :

- لاتتأخر فى هذا الأمر ..هذا أمر عاجل .

- كيف أتأخر يادكتور ؟! خير البر عاجله.. أمهلنى يوم أويومين فقط .

هز رأسه وهو يحملق فى الفراغ الممتد ، ثم عاد إلى شروده وصمته بينما استأذن عبدالصبور فى الانصراف لعمله ، بدا هائما فى ملكوت الله لم يعد يسمع عبدالصبورعلى الإطلاق ، ولم يرد عليه ، فمضى الرجل إلى حال سبيله على استحياء .

ظل صاحب القصر جالسا فى مكانه ، نظراته فى الفضاء وأصابعه تقفز فوق حبات مسبحته الفضية اللامعة تحصى الاستغفار والتسبيح وتحصد الحسنات ، وقلبه ينبض بذكر الله مثل درويش صوفى عابد فى صومعته لايأبه بأحد

ولايغنيه أحد سوى خالقه .. وإن اعتبر اعتزال الناس أفضل شىء له ، وهو مع الله أفضل كثيرا ، لأن الله يغنيه عن كل البشر ، فى حين أن كل البشر لايمكن أن يغنوه عن الواحد الأحد .

كان يفكر دائما فى أن يهب ماتبقى من حياته لوجه الله - مع أنه فى ريعان شبابه وفتوته - ويهب جزءا من ثروته الطائلة لوجه الله أيضا ، وقد اكتشف أخيرا أن السعادة ليست فى المال ولا النساء ، إنما السعادة الحقيقية فى القرب من الله ، والسعى نحوه سبحانه وتعالى بصدق وإخلاص ، وكلما تقرب من ربه سكنته الطمأنينة واستوطنته الراحة التى لم يشعر بها من قبل .

حين كان يطارد أحلاما أخرى ، ويسعى وراء حطام الدنيا أدرك أنه مهما ارتقى ، وحقق خطوات كبيرة على طريق المجد فإنها لاتساوى شيئا فى نهاية الأمر .. كله عدم فى عدم .. تراب فى تراب .. لم يعد يعنيه رصيده المتضخم فى البنوك لأنه تأكد أن بنك الآخرة أعظم أجرا وأكثر فائدة من بنوك الدنيا ، وإذا رضى الله عنه دانت له الدنيا كلها بكل مافيها ، وأصبح يحس بالخجل من نفسه على سعيه القديم للوصول إلى الشهرة الخادة والمجد الزائف !

تغيرت حياته تماما بعد أن كان مثل الكلب المسعور يهرول وراء الدنيا وزخرفها الزائف ، ويتهافت على الجميلات ، واختار لنفسه حورية ألمانية من أجمل الجميلات حين كان هناك فى بعثة علمية ،انساق وراء تلك الفتاة الألمانية وجموحها حتى حدث ماحدث ، وتغيرت الظروف فجعلته أكثر استغنائية بعد أن كان أكثر استحواذية !.. فسبحان من يغير ولايتغير ، ولايمكن بعد حفنة سنوات من الزواج أن يظن أنهما عاشا قصة حب ملتهبة ، لم يجرب عبدالله حبيش ماأحسته امرأة العزيز حين شغفها فتاها يوسف الصديق حبا ، يبدو أن الشغف شىء ، والحب شىء آخر .

إن الحب الشغوف هو أقصى تعبيرات الله دلالة على الذوبان عشقا ، لاشىء من هذا فى حياة عبد الله ، ولايظن أن أنجيلا كانت تهيم به حبا وشغفا كامرأة العزيز .

وعندما تزوجها وعاشا تحت سقف واحد ، وفى فراش واحد هل كان بينهما مودة ورحمة خلال تلك الفترة ؟!

بالطبع كان هناك كل شىء ، وعندما تحدث رب العالمين فى كتابه الحكيم عن ثلاثية الحياة الزوجية (المودة والسكن والرحمة) قال عز من قائل :

(ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) صدق الله العظيم .

إنه يقر ويعترف بضرورة توفر عناصر لايمكن أن تنشأ زيجة ناجحة بدونها ، ولايمكن أن تستمر تلك الزيجة بغيرها ، لكن درجات المودة والسكن والرحمة مختلفة ومتباينة ومتعددة ، والدرجات تذهب وتجىء .. تصعد وتهبط .. تسخن وتبرد .

عوامل كثيرة معقدة ومتشابكة تبدأ مع أيام الزواج الأولى ثم مع تأخر الحمل وتعثر الإنجاب ، والتردد على الأطباء ، والمعامل والتحاليل والأشعات مع مزيج من القلق والترقب والضعف والشعور بالنقص ، وتحمل اللمز والغمز ، وسخافة الأسئلة المكررة من الأقارب والأصدقاء والمعارف ، ونصائح الصبر المملة ، والإحباط الجارح عند مجىء الخبر اليقين بأنه عقيم ولاأمل فيه إلى يوم الدين !

عندئذ أحس أنه سقط من فوق برج القاهرة ،وتحطم معه حلمه مثل كل رجل يحلم بالأبوة ، هذه الظروف الصعبة جعلتهما أكثر التصاقا - أوهكذا ظن - وعاشا سويا بعد ضياع الحلم ثم كان رافد الرحمة الضلع الثالث فى المثلث الإلهى للزواج مسيطرا ومهيمنا على رافدى المودة والسكن .

والحق أحق أن يتبع .. إن السكن درجة أقل من المودة ، والمودة درجة أقل من الرحمة فى حين أن الرحمة هى المظلة الكبيرة التى تحمى الشراكة الزوجية ،وتضمن استمرارها فى وجه كل العواصف !

إنه لايدرى حتى الآن تفسيرا لماحدث منها ، ومنذ عرفها لم تكن كذلك ، ولايعرف لماذا فعلت مافعلت ؟! لم يكن ينقصها شيء لكنها سقطت فى الوحل ، وبرغم ذلك لايشعر بالندم على أنه تزوجها فى يوم ضبابى معتم من أيام ألمانيا الباردة .. لكن مايثير جنونه أنها لم تقل شيئا ، ولم تطلب شيئا ، لم تتذمر من شيء ولم تتمرد على شيء ، كانت الأمور تبدو على مايرام ، ولم تطلب سوى السفر لبلدها فقط لأنها تشعر بالحنين الجارف لأسرتها ، وهناك ارتكبت الخطيئة الكبرى !

طعنته فى ظهره بخنجر مسموم ، وإن كان هو قد أخطأ لأنه نسى أوتناسى أنها عقلية أوروبية وامرأة غربية حتى استفاق على هول مافعلت .. وإن كان ينازعه احساس مر بالندم لأنه لم يقتلها بيده .

عاد للإقامة وحده فى قصره الكبير الذى يحلم كل أهالى عزبة حبيش بدخوله ، سبحان الله وكأنه الجنة الموعودة بالنسبة لهم ، زخرفه النادر وطرازه الأوربى الفذ ، والرخام الثمين والأعمدة المصنوعة من الجرانيت الطبيعى ، تضفى على هذا الصرح الشاهق بهاء ووقارا .. إنه تحفة معمارية حقا كأنه قلعة أحد النبلاء فى العصور الوسطى جاء به إلى تلك العزبة المعزولة عن العالم .. لاشيء فيها سوى الأرض والنهر والنخل ، والبسطاء الذين يعيشون على حصاد الحقول وصيد النهر .

كان عبدالله يخاف كثيرا من الوحدة ، ويموت فى جلده من العزلة المريرة رغم أن حوله الخدم والعمال والمزارعين فى حقوله وبساتينه الشاسعة التى لاتتوقف عن طرح الفاكهة صيفا وشتاء .

عرف السأم كما عرف الوحدة والصمت ، وهم شركاء للملل فى نفس الطريق المؤدى للألم . وكى لايعصف به الأرق ،ويلفه الخوف بعد الفشل المريع الذى عاشه فى أكبر شركة يمكن للإنسان أن يدخلها على يد مأذون .. لكنه ارتضى بالواقع ، وعاش الاحساس الفظيع ، فلاسبيل أمامه سوى اللجوء لله هو وحده القادر على أن ينقذه من كل هذا ، وهو ماحدث بالفعل .

كان يتوهم أنه يسمع دبيب خطواته بحجرة نومه أثناء الليل ، عندئذ يختبيء من الظلام فى الظلام حتى يأتيه نور الصباح حاملا له صك الأمان ، وأحيانا يظل مسهدا الليل كله لايدرى لذلك سببا .

احترقت أعصابه وكاد ينهار من الظنون والشكوك والهواجس ، ويصرخ مناديا عبدالصبور ورفاقه ممن يحرسون القصر ،ويسهرون عند أبوابه أمام النار فى برد الشتاء ،ويتسامرون تحت ضوء القمر فى ليالى الصيف كما لوكانوا جنودا على الحدود يحرسون وطنا كاملا لاشخصا واحدا يسكن قصرا يتسع لأهل العزبة جميعا .

ظل هكذا عدة أشهر لولا أن جاءته هداية الله فانتشلته فى اللحظات الأخيرة ، قبل أن يصيبه الجنون أويهيم على وجهه فى المزارع والحقول كالمجاذيب !

لم تكن قدرته على الإختيار فى هذا الوقت العصيب مثالية بإرادة حرة ، ففى مثل هذه المواقف تكون الظروف والدوافع التى تبرر الإختيار غير محايدة ، وتكون هناك قوة قاهرة تحكمها ظروف الاضطرار لأن الذى يوشك على الغرق لايفكر فى اختيار وسيلة النجاة ، ليس لديه هذا الترف ، بل عليه أن يتعلق بأى شيء حتى ولوقشة واهية واهنة يمكن أن تحمله إلى شاطيء الأمان وليكن بعد ذلك مايكون .

استجار بالله من كل هم وحزن فأجاره الله .. اختار أن يكون فى صحبة ربه ، واستمتع بتلك الصحبة ولم يعد يعرف الوحدة والملل ، ومأسهلها فكل ماعليه أن يلوذ بثلاثة .. الصلاة أناء الليل وأطراف النهار ويكثر منها ماستطاع إلى ذلك سبيلا ، والقرآن يرتله سرا وجهرا ثم المسبحة التى لاتفارقه ولايفارقها حتى صارت جزءا من أصابعه ، يسبح عليها ويستغفر ، ويذكر ماشاء الله له من أسماء الله وصفاته الحسنى .

صارت المسبحة قطعة منه لونسيها فى مكان ما كى يتوضأ مثلا يحس أن شيئا من جسده قد إقتطع ، وعلى الفور يبحث عنها ليعيد ماإقتطع منه ، ويعود هو إلى مانقص منه .

يظل فترات طويلة حبيسا فى القصر معتكفا عن الدنيا وضجيجها ، وصراعاتها التافهة لفترات قد تصل إلى ثلاثة أشهر ، ولايحس بأن شيئا ما ينقصه على الإطلاق ، فالخادم العجوز عبدالصبور الذى يعتبر نفسه الأب الروحى له يرعى شئونه بإخلاص ، ويتفانى فى خدمته خدمة خمس نجوم وأكثر !

لم يكن عبدالصبور وحده الذى يتفانى فى خدمته بل كان معه حفنة من الخدم على مدار الساعة لايكلون ولايملون .. منهم أصحاب الأيدى الناعمة لكن بعد فرمان صاحب القصر إستبدلهم بالأيدى الخشنة ! لابأس .. ليس عليه سوى السمع والطاعة لولى نعمته وآمره وولى أمره .

فى كثير من الأحيان كان عبدالصبور بقلب الأب الحنون يخاف عليه من تلك العزلة ، ويسأله الخروج إلى الدنيا الواسعة إلى مزارعه وبساتينه العامرة يستمتع بالشمس الذهبية ، ونسمات الهواء الصافى ، ومنظر النهر الجارى ، لكنه لم يجد إلا الصد والعزوف والهجر الجميل لكل ماهوجميل فى الريف .

لم يعد عبدالله حبيش يحتاج شيئا مما تتهافت عليه نفوس الناس وأيديهم ، فعنده كل شىء - أوهكذا يظن - وكان يحس أنه فى الجنة بنعيمها بينما عبدالصبور يشفق عليه وهويراه يدفن نفسه بالحياة فى محبسه الطويل الإختيارى لدرجة أنه ترك لحيته فاسترسلت على صدره ن وأطلق شعر رأسه حتى إنسدل على كتفيه ، وربما لوأراد أن يجدله ضفائر كضفائر الجميلات من فلاحات العزبة لفعل ! وحين يدعوه أن يحلق لحيته أويقصر شعره يصده بلطف هامسا بأنه يشعر بالراحة وهو على هذا الحال !

يبدو كراهب عابد فى صومعته لايبغى شيئا سوى الهروب من الأثام والتطهر من الخطايا ، ولكن إلى أين يهرب والخطايا ملازمة للإنسان فى كل زمان ومكان ؟! لامفر أمامه سوى الفرار من دنس الخطايا ورجس الذنوب .. فالدنس من الطين والذنوب من التراب ، والإنسان خلق من تراب وطين ومعجون فيهما إلى يوم الدين .

أحيانا يتلصص من شرفة قصره العالى على الناس فى العزبة فلايرى سوى فلاحين لوحتهم الشمس ، ونال منهم البؤس ، وتلاميذ المدارس الصغار بملابسهم البدائية ، وكذلك نسوة العزبة بجلابيبهن الفاقعة الألوان ، ورؤسهن المعصوبة بالمناديل الملونة أحيانا ، والطرح السوداء أحيانا أخرى ،هن هكذا دائما لايتبدل حالهن بسهولة ، وكأنهن لم يغيرن ملابسهن منذ شهور أوسنوات !

كان دائما يراهن على التغيير ، فلاشىء يبقى فى الدنيا على حاله ، وقد ظن أن الزمن كفيل بكل شىء ، وقبل سفره لألمانيا وهى فى مازال فى مطلع شبابه كان يتوقع عند العودةأن يرى التغيير وقد نال من الجميع ، لكنه ذهب وعاد وكأن الجميع هنا يتحدى التغيير ، فلاشىء يتغير سوى صغار يولدون وكبار يموتون ، وكأن نساء العزبة مسافرات على الثبات إلى الأبد ولايصلن إلى محطة التغيير أبدا .. سبحان الذى يغير ولايتغير .

إن الزمن هنا ساكن ولافعل له ، والجمود هنا هو سيد الموقف المسيطر على الناس ، ولاذنب لهم فيما هم فيه ، وأمرهم ليس بيدهم ، ومع ذلك فهم راضون فى أعماقهم ، يضحكون مستبشرين من قلوبهم ، ولايأملون أن يأتيهم الغد بالشهد والعسل ، فليأتى أولايأتى .. لايهمهم كثيرا .. هم يعيشون كما تعيش الأنعام والسلام ، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويزرعون ويحصدون ويصطادون ، ولايظنون أن الحياة فيها أفضل مما هم فيه أوأكثر مما بين أيديهم .

ومازال النيل يجرى ، والنساء تحيض ، والناس يتناسلون ثم يموتون ، والأرض تنبت من كل الثمار كما أراد لها الله ،ومازالت الشمس تشرق وتغيب ، ويتعاقب الليل والنهار ، وساقية الحياة تدور بلاتوقف ورب الموت والحياة فعال لمايريد .

****

(30)

آه يافاطمة .. ماذا أصابك ؟! وماذنبك كى تكونى أصغر أرملة فى العزبة كلها ؟! وكلما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء اشتد حر حنينها إلى زوجها وحبيبها ووالد توأمها حتى يكاد يحرقها بشواظ من نار مستعرة ، وتأكدت تماما أن عذاب الفقد والفراق أشد هولا من كل عذاب استشعرته من قبل ، ومازالت تكتوى بلهيب الحنين الممزوج بالأنين حتى أسدل الليل ستائره المعتمة ،عندئذ دعت ربها أن يلهمها الصبر فى مصيبتها ، وأن يغفر لها جزعها وهلعها حتى تسكن جوارحها ، وعاهدت نفسها أمام نفسها ،وأمام ربها أن تظل وفية لروح رضوان حتى تلقاه فى جنة الرضوان مهما طال الزمن أوقصر ، ولن تخون ذكرى حبها العظيم لزوجها الذى غادر دنياها منذ أكثر من سبعة أشهر ، وهو فى نظرها أفضل رجل وأعظم زوج فى الكون .

لكن عليها أن تتماسك لتشعر أنها مازالت قادرة على مواصلة الحياة بكل تقلباتها العنيفة وعواصفها الغادرة ، وأنها ليست امرأة ضعيفة كونها زوجة المرحوم وأم التوأم اليتيم ، ولاحتى الأرملة الفاتنة كما سرى هذا اللقب على ألسن الجميع فى عزبة الحنكاتى !

لم يعد الناس هنا يذكرونها باسمها بل يقولون (الأرملة) فقط ، وكأنها أول وآخر امرأة يرحل زوجها عن الدنيا، ياسبحان الله ربما لأنها صغيرة السن ، جميلة فوق الوصف ، لكن المؤكد أنه حين يقال الأرملة يعرف الجميع أنها فاطمة بنت عبدالعاطى.. دون ذكر اسمها !

تركها رضوان أرملة شابة فى عز توهجها وجمالها وفورانها ، وهى فى منتصف العقد الثالث من عمرها ، عاشت كل لحظات الأسى والحزن على فقد الحبيب المخلص الطيب ، الزوج الصديق الحنون ابن الخالة رفيق العمر ، وقررت أن لاتنكشف أبدا على رجل غيره مهما كانت الظروف ، وقاومت بصبر وقوة كل الضغوط عليها كى تفكر فى الزواج من جديد ..

إن مهر المرأة الجميلة فى وجهها .. تلك حقيقة مؤكدة ، وسحر فاطمة وجمالها الفتان يفتح لها قلوب وعيون كل الرجال ، لكن هل ترضى برضوان بديلا ؟! أبدا لن ترضى .. صدت كل العروض وردت كل الإغراءات وقالت بجرأة تحسد عليها لكل من طلب يدها وحام حول جمالها يلتمس القرب منها .. لا !

قاومت بعزيمة صلبة كل محاولات الكائن الخشن التعرض لها أوالتحرش بها ، وتعلمت رغم خبرتها القليلة فى هذه الحياة كيف تمنع أيدى الرجال الطامعين من أن تمتد إلى حدودها الجغرافية ؟! وكيف تتحاشى عيونهم الجريئة التى تطلق سهاما مسمومة لرغبة مكبوتة بين أضلعهم ؟!

اكتفت بأن تعيش كراهبة ليس لها هدف فى الحياة سوى تربية التوأم والحرص على تعليمهما أحسن تعليم ، تحبهما كثيرا وتخاف عليهما كثيرا ، وتحوطهما برعاية كبرى كأنهما عينيها .

اعتزمت أن تحارب الدنيا كلها من أجلهما ، ولن تدخر جهدا كى تعوضهما عن فقد الأب ، وستدفع حياتها ثمنا لتكون حياتهما أفضل .

الأمر ليس سهلا أبدا على فاطمة ..فهل ستقدر أن تؤدى دور الأب والأم فى آن واحد ؟! لكن الذهب لايظهر بريقه إلا بالنار ، تزول منه الشوائب وتتلاشى ، ويبدو جليا لامعا يخطف الأبصار بعد أن يكتوى وينصهر باللهب ، وهاهى تحترق وتكتوى بالنار فى اليوم والليلة ألف مرة ومرة .

الأرملة تطوى أحزانها وتعيش معاناتها سرا وجهرا ، تتألم ليالى طويلة بلون الكحل القاتم وهى وحيدة شريدة تجتر أحزانها وذكرياتها مع الحبيب الحاضر الغائب ، تحمل محنتها فوق ظهرها وتتعذب بها ، وتواجه بمرارة وقهر احتياجاتها العاطفية والإنسانية ، وإن ظلت راضية بهذا العذاب صابرة محتسبة مادامت تتنسم عطر ذكرياتها مع حبها الضائع وحبيبها المفقود ، وطالما ولديها فى حضنها وتحت جناحيها ، وهما امتداد للحبيب الغائب ونسخة منه .

أدركت الأرملة الشابة أن احتمالها للتغيير صعب للغاية فى البداية ، فوضى فى منتصف الطريق لكنه رائع فى النهاية .. لاشىء يبقى فى مكانه لأن منطق الحياة هو التغيير دون سواه .. الشىء الوحيد الثابت هو التغيير !

مرت الشهور يتبعها شهور أخرى لتنسج سنوات الأرملة خيوطها ، وقد تجاوزت فاطمة إلى حد ما صدمتها المروعة ،وتركزت كل مشاعرها فى ولديها ، ولم تسمح لأحد من أسرتها أن يتدخل فى تربيتهما ، وبالفعل قامت بدور مزدوج .. الأب والأم معا فى شخصها لعل هذا نصيبها وقدرها ، وأكثر ماكان يؤلمها أسئلة صغيريها التوأم من عينة :

- يأماه .. أبى لماذا تأخر علينا ؟! ولماذا لم تطلبى منه أن يعود إلينا ؟! وهل هوغاضب منا فى شىء ؟!

وكلما كبر التوأم عزالدين وشرف الدين زادت التساؤلات ، وتعددت الإستفسارات ..وقال عزالدين - ذات مرة - بحروف متكسرة متعثرة :

- يأمى لماذا أعطيتى ملابس أبى للناس الفقراء ؟!

وقال شرف الدين بنفس الحسرة والحيرة :

- هو صحيح أنه ذهب عند ربنا ولن يعود ؟! أنا أريد أن أذهب عند ربنا لأرى أبى !

قال عز الدين مستنكرا :

- يأماه لقد كذبتما على أنت وجدتى وقلتما إن أبى مسافر .. لماذا يأماه ؟!

طأطأت فاطمة رأسها خجلا ولم ترد ..

ثم انبرى شرف الدين قائلا كرجل حكيم :

- زملائى فى الحضانة يأتون مع أبائهم كل يوم أما أنا وأخى فليس لنا أب دون الآخرين وهذا ظلم عظيم يأماه !

تلزم الأرملة الصمت ،وتتألم فى سكون كما تتألم لتدخل الأهل والأقارب فى شئونها ، وأقارب زوجها على وجه الخصوص ، وتتألم للمحاذير التى وضعوها حولها مثل قيود حديدية يطوقون بها عنقها ، ليس هذا فحسب بل تتألم أيضا لابتعاد قريناتها وصديقاتها عنها خوفا على أزواجهن من سحرها وجمالها ، وتألمت أكثر وأكثر عندما سمعتهن يتهامسن عنها سرا ويصفنها بالأرملة الفاتنة ، كما تتألم لاضطرارها مواجهة المجتمع الرجالى المتوحش بلاغطاء من زوج يحميها ! الألم بلاحدود كالأمل بلاحدود .. كلاهما معاناة مستمرة .

تألمت كثيرا وهى تتسلم شهادة وفاة حب العمر ، وقد كتب اسم زوجها لأول مرة مسبوقا بكلمة المرحوم .. ليس هذا فحسب بل تألمت أيضا ،وهى ترى نظرات الشفقة فى أعين الصديقات والأقارب والأزواج والزوجات حين حضروا لعزائها ، وتتألم فى كل لحظة مع كل شاردة وواردة تذكرها برضوان عليه رحمة الله ، وكل شىء حولها يذكرها به .

لاتدرى لماذا أصبحت تميل للصمت ، وتجلس أغلب الوقت وحيدة مهمومة ، ويتحرك بداخلها شوق يكبر شيئا فشيئا يكابدها وتكابده ، ولكنها تحاول تجاهله، وانكاره واستنكاره وطرده نهائيا من وجدانها ماستطاعت إلى ذلك سبيلا ،وإن كان الشوق يعاودها أكثر قسوة وأشد الحاحا .

إنها فى حاجة ملحة لمن يؤنس وحدتها ويبدد وحشتها ،ولكنها تخشى الزمن والناس والظروف ، وبرغم قوتها وصلابة عودها وعزيمتها الفولاذية إلا أنها تخاف من الانهيار .. تخاف على نفسها الأمارة بالسوء ألاتنجح فى معركة الصبر والصمود والمقاومة !

وحتى لوصمدت فإلى متى ؟! وكم من الوقت تستطيع تحمل هذا العبء الرهيب الذى يفوق طاقة أى امرأة فى مثل ظروفها ؟!

حسمت أمرها وقررت أن تبقى للمرحوم إلى الأبد .. تبقى له إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ، ولن تخونه أبدا ، ولن تخون أجمل أيام عمرها التى عاشتها تحت ظله ، وبرغم أنها لم تكمل معه خمس سنوات إلا أنها مدة كافية كى تعيش على ذكراه خمسين سنة قادمة !

تطولها سهام الغمز واللمز والتساؤلات المريبة .. لماذا لاتترك التوأم لأمها أولحماتها وتتزوج فهى مازالت فى مقتبل العمر ، وتنعم بريعان الشباب ، وحرام أن تدفن زهرة جمالها بالترمل المؤبد ؟!

آه لوفكرت فاطمة فيما يلحون به عليها وعلى أنفسهم ، ولوفكرت فى رجل آخر .. هل سيرضى رضوان بهذا وهو نائم فى قبره أم أنه سيلعنها أبشع اللعنات ؟!

يقولون لها .. يافاطمة .. الحى أبقى من الميت .. وحتى لوكان هذا صحيحا فماذا تقول لولديها عندما يكبران ؟! وماذا ستقول لرضوان حين تلقاه فى الدار الآخرة ؟!

تساؤلات مزعجة تطاردها ليل نهار وترجمها بحجارة مؤلمة فى حلها وترحالها فى يقظتها ومنامها :

- لوسمعت كلام الناس وإرتبطت بشخص آخر فمع من أكون فى الجنة إذا قدر لى أن أدخلها .. مع زوجى رضوان وولدينا التوأم .. أم مع زوجى الآخر وأبنائى منه ؟! وكيف لى أن أسمح لنفسى بأن تعطى نفسى لرجل آخر ؟!

تذكرت شيئا لطيفا وتبسمت ، هاهى تبتسم أخيرا بعد أن ظنت أنها نسيت الإبتسام ، ولن يعود وجهها قادرا على البشاشة من جديد ، تذكرت أنها وجدت الخجل يقف حائلا بينها وبين رضوان فى أيام زواجهما الأولى ، كانت تشعر بكارثة لوفكرت أن تخلع ثيابها أمامه حتى لوكان رجلها وزوجها وحبيبها وابن خالتها ، وظلت على هذا الحال عدة أيام حتى اعتادت عليه وتلاشى الخجل وحل محله الحب والتآلف !

تضاربت مشاعرها وتصارعت أفكارها ورماها الحنين للشجن والأنين ثم ألقى بها بين أنياب القلق والتوتر حتى صارت تمشى على الأشواك بين الشوق والألم ! وكلاهما مر لايحتمل .

كانت أمها تحس بمعاناتها ، وتدرك بحس الأنثى المجربة ماتكابده ابنتها من أهوال وحرمان ونار مستعرة بين الضلوع تأكلها فى غياب رجلها ،وفاجأتها برغبتها الملحة فى الزواج على أن تترك التوأم بحوزتها ، ولوأرادت أن تأخذهما بعد ذلك لبيت الزوجية فلابأس إذا تقبل زوجها الجديد وجودهما معه .

بدأت أمها تناقشها فى الصعوبات المحتملة ، والمشاكل المنتظرة وكيفية مواجهتها ، وكانت الأم مدعومة برأى الأب الحاج رضوان

الذى يؤيد فكرتها من وقت لآخر بنصوص من السنة النبوية تبين أهمية الزواج بإعتباره الحصن الحصين للمرأة والرجل معا ، وأن الزواج حصانة ضد الفتنة ، واستشهد الحاج عبدالعاطى بماحدث فى مثل هذه الأمور فى عهد النبى الأمين والصحابة الأكرمين حيث كانت هناك مرونة ،وتيسيرات لتزويج الأبكار والأرامل والمطلقات ، ولم تكن هناك تعقيدات تمنع المرأة من نيل حظها فى رجل آخر غير زوجها السابق ، ولم يعرفوا المحاذير والعراقيل التى يضعها البعض الآن أمام المطلقة أو الأرملة .

فى تلك الأثناء زارتها نوال وهى صديقتها المقربة واحدى قريباتها ، وتكبر فاطمة بعشر سنوات ، وكان زوجها قد مات بداء تليف الكبد ، وظلت أرملة لمدة عامين فقط ثم تزوجت بعد تردد وتفكير عميق وظن الجميع ، ومن بينهم فاطمة أن نوال ارتاحت من معاناة الترمل ، وتعيش فى سعادة دائمة لكن المدهش أن نوال باحت لها بمفاجأة مذهلة حين قالت :

- صدقينى يافاطمة .. لقد تخلصت من الحرمان والوحدة وعذاب الترمل لكنى أعانى معاناة شديدة من نوع جديد !

دهشت فاطمة وسألتها :

- كيف يانوال ؟!

تقلصت تقاطيعها وغطت سحابة رمادية وجهها ثم نطقت بصوت هادىء هامس أشبه بخجل العذارى كأنها تفشى سرا خطيرا :

- أرى المرحوم زوجى الأول فى أحلامى كثيرا ، وهذا ماجعلنى أزورك اليوم عسى أن تتعلمى من تجربتى ، ولاتسقطى فى الحفرة التى سقطت أنا فيها !

- حفرة يانوال .. أعوذ بالله .

- صدقينى يافاطمة الناس فى عزبة الحنكاتى يظنون أننى أعيش فى نعيم لأننى تزوجت بعد رحيل زوجى لكن الحقيقة تجافى ذلك تماما .. أنا أتعذب كثيرا .

- ياالله .. لماذا يانوال ؟!

- يافاطمة .. زوجى الراحل لايفارقنى .. صوته صورته كأنه حى معى ، أحيانا أراه راضيا مطمئنا ، وأحيانا أراه غاضبا ثائرا ناقما يلومنى بشدة ، وأحيانا أرى عليه علامات الغيرة التى عرفتها عليه وهو على قيد الحياة . .

- أهذا معقول يانوال ؟!

- صدقينى يافاطمة .. لقد حول زوجى المرحوم حياتى إلى جحيم ، لدرجة أننى رأيته فى منامى ذات ليلة شتوية باردة يتصارع مع زوجى الحالى محاولا قتله ، وبالفعل قتله ثم استدار نحوى ،وحاول قتلى بعده فى فراش الزوجية دون رحمة أوشفقة رغم استغاثاتى .

- وماذا عن الأولاد الصغار يانوال ؟!

- يعيشون مع أمى لأن زوجى الحالى لايريدهم فى داره !

وكان هذا شرطه الوحيد قبل زواجنا ، وذات مرة جاءنى زوجى الراحل فى منامى ليأخذ منى أولادى ويحرمنى منهم .. كل هذا مؤلم للغاية يافاطمة ..أنا أعيش فى كابوس مستمر ، ولكنه محتمل إلى حد ما ، أما مالاأستطيع احتماله حقا هو ذلك الشعور الفظيع الذى يملأ نفسى بالخيانة !

ـ الخيانة .. أتشعرين بالخيانة يانوال ؟!

ـ أشعر أننى أخون ذكرى المرحوم حين أكون مع زوجى الحالى ، وإذا رأيت زوجى الراحل فى منامى فى أوضاع غرامية من دفترأحوال الزوجية القديم أشعرأننى أخون زوجى الحالى .

ـ غريب أمرك يانوال ..أتشعرين بالخيانة تجاه الزوج الأول أم الزوج الثانى ؟!

ـ والله يافاطمة أشعر بالذنب تجاه الإثنين معا ، وهذا يعكر صفو حياتى .

ـ وماذا ستفعلين فى هذه الورطة يانوال ؟!

ـ لقد فعلت وكان ماكان .. ذهبت إلى الشيخ يعقوب إمام وخطيب مسجد العزبة لأستشيره فى ما فعلته .

ـ قصدك الزواج للمرة الثانية ؟!

ـ آه يافاطمة ..

ـ وماذا قال لك الشيخ يعقوب ؟!

ـ والله رجل طيب .. بارك فعلتى وطمأننى ، وأكد لى أننى اتبعت شرع الله وحلاله وسنة رسولنا الكريم حين تزوجت بعد وفاة زوجى الأول .

ـ وماذا عن أحلامك المزعجة التى تجمعين فيها بين رجلين فى آن واحد ، وفى فراش واحد أحدهما سابق والآخر لاحق .. أحدهما ميت والآخر حى يرزق ؟!

بدت فاطمة متلهفة لتعرف رأى الشيخ يعقوب إمام المسجد .. عندئذ تبسمت نوال وقالت :

ـ عندما صارحته بصراع الرجلين فى حياتى قال .. إن الأحلام ليس للإنسان عليها سلطان ، ولايكلف الله نفسا إلا وسعها ، وأكد لى أننى بريئة من الخيانة تماما .. بريئة من خيانة زوجى الأول بزواجى الثانى .. وبريئة من خيانة زوجى الثانى بأحلامى مع زوجى الأول .

ساد الذهول وجه فاطمة ، وحطت الدهشة بصماتها على ملامحها الجميلة الجذابة وسألتها :

ـ وهل اطمأن قلبك وارتاح يانوال بماقاله لك الشيخ يعقوب ؟!

ـ والله يافاطمة لاأخفيك سرا وأنت مثل أختى تماما ، ولك مكانة كبيرة فى قلبى .. إن كل ماقاله الشيخ طمأننى قليلا وهدأ من روعى مؤقتا إلا أن الشكوك والظنون والمخاوف مازالت تطاردنى وتنغص على عيشتى !

ـ زيدينى يانوال .. وماذا قال لك أيضا الشيخ يعقوب ؟!

ـ قال إن الزواج الثانى ليس خيانة للمرحوم الأول بل هو استجابة لنداء الحياة وشرع الإله .

لزمت نوال الصمت ووضعت يدها على رأسه تفكر كأنها فى حيرة كبيرة ثم سألتها فاطمة بتهافت :

ـ عظيم جدا يانوال .. ماالمشكلة بعد ذلك ؟!

تنهدت نوال وكأنها تحمل كابوسا فوق صدرها ثم قالت :

ـ الشيخ يعقوب قال لى .. لاتلومى نفسك على أحلامك ، وكونى ألتقى المرحوم بأى شكل من الأشكال ليس خيانة على الإطلاق لزوجى الثانى بل هو إخلاص لاشعورى لزوجى الأول ، ومايحدث معى لايعد بالضرورة رسائل حقيقية من العالم الآخر ، وإنما هى أفكارى ومشاعرى الداخلية المتناقضة والمتصارعة تظهر لى فى الأحلام ، وهذا سبب تعاستى وحيرتى بين الرجلين !

ضحكت فاطمة وقالت ساخرة بمكر :

ـ ربما المرحوم لايريد لك السعادة من بعده مع رجل غيره !

ـ ربما ولكنى أتعذب بكل هذا ، وزياراته لى فى أحلامى لاتتوقف .

ـ وبماذا نصحك الشيخ يعقوب أكرمه الله ؟!

تنهدت بحرقة وقالت بأسى :

ـ آه يافاطمة .. آه لوتعرفين مأأنا فيه ..نصحنى الشيخ بأن أفضفض وأبوح بمكنون صدرى لأطرد الصراع المحتدم فى عقلى الباطن ،وخيالى الجامح بين زوجى المرحوم وزوجى الحالى !

أراد الشيخ يعقوب العارف بالله ألا أكتم الأمر فى صدرى حتى لاتتحول أحلامى وصراع الرجلين فيها إلى كوابيس تهدم حياتى فوق رأسى !

وبنصيحة الشيخ تلك سوف أبلغ بأمر الله مرحلة ترسيم الحدود بين الزوج الأول والزوج الثانى برغم أن كل واحد منها يعيش فى عالم مختلف وبعيد عن الآخرتماما ، ولايمكن أن يتلاقيا أبدا إلا فى الخيال أوفى الآخرة .

بنبرة استغراب هتفت فاطمة :

ـ أفهم من كلامك أنك مازلت تحبين زوجك المرحوم ؟!

تنهدت نوال بحسرة وقالت بحزن :

ـ احساس رهيب يتنازعنى ويكاد يمزقنى ، لقد كانت رحلة طويلة وشاقة اكتشفت فيها أن لزوجى الراحل ـ وهو الآن بين يدى ربه ـ مساحة هائلة فى نفسى ، وله أماكن يحتلها فى قلبى ، ويسكن مناطق مجهولة من ذاكرتى ، لايمكن لى أولغيرى أن يحررتلك المناطق من وجوده الطاغى أويخرجه منها ، ولايمكن محو آثاره عليها !

بدت فاطمة مشدودة مشدوهة كأنها تشاهد فيلما مشوقا ثم همست :

ـ كنت أظن أن الرجل الثانى يمحو أثار الرجل الأول فى المرأة بسهولة .. يا لسذاجتى .. وماذا بعد يانوال ؟!

شردت نوال قليلا وحطت إبتسامة مريحة على شفتيها قائلة :

ـ كان المرحوم أول حب فى حياتى .. وأول رجل أفتح له قلبى ، وأمنحه نفسى حبا وكرامة ، وكنت قد رتبت حياتى بطولها وعرضها على أنه الرجل الوحيد للعمر كله ، وفارس الأحلام ليس فقط لهذه الدنيا الفانية القصيرة ، وإنما أيضا للدار الأخرى الخالدة خلود الأبدية ، وكثيرا ماكنا نتحدث سويا فى هذا الأمر خلال لحظات الصفاء بيننا وما أكثرها وأجملها .

ـ ألهذه الدرجة يانوال ؟!

ـ أتذكر أيضا أننى كنت أغار عليه كثيرا لدرجة أننى كنت أغار من فكرة الحور العين فى الجنة .. كيف تأخذه منى حورية هناك ، لأننى اعتدت أنه لى وحدى وأنا له وحده ، وهناك ذكريات هائلة بينى وبينه لاتمحوها الأيام ، ففى كل مكان أذهب إليه أتذكر لحظات ومواقف وأحداث عشناها سويا بحلوها ومرها ، ومازلت أسمع كلماته يتردد صداها فى وجدانى ، وعلى أسماعى وهويصف أمرا ما ، أويعلق على شىء ما .

ومازلت أتذكر المواقف الصعبة التى عشناها سويا بكل تفاصيلها والخلافات والمشاجرات ،وأتذكر أيضا لحظات الصلح الجميل بعدها.. لقد كان حقا رجلا بمعنى الكلمة يملأ عقلى وقلبى، وصحوى ونومى بفيض كريم من الحب .

تسلل هذا الرجل إلى مسامى ،وعاش تحت جلدى وسكن خلايا جسمى بسماح كامل منى وانسجام تام ثم اختفى وتبخر فجأة من حياتى ،وترك كل أثاره وبصماته فى أماكنها من ذاتى !

أخبرونى أن طائر الموت نزل فجأة فأخذه ،وذهب به إلى حيث لاعودة .

بتعجب صاحت فاطمة مستفسرة :

ـ الله يسامحك يانوال .. ويعفوعنك .. هل تقارنين بين زوجك الأول وزوجك الثانى ؟!

ضحكت نوال وقالت :

ـ الرجال لايتشابهون على الإطلاق .. فكل رجل له بصمة خاصة لايمكن أن تتكرر ، وبرغم محاولاتى المستميتة لتجنب المقارنة بين الرجلين إلا أن شيئا ما يحدث تلقائيا بداخلى يجلعنى أقارن بينهما رغما عنى ، فى كل موقف وكل كلمة وكل رأى وكل فعل ، وهذا يعكر صفو أيامى ، وسواء مالت الكفة للأول أوللثانى فأنا الخاسر الوحيد فى هذه المعادلة التى يحكمها الميزان الذاتى لذاتى !

ـ كان الله فى عونك .. وكيف تعيشين فى هذه الدوامة الحلزونية يانوال ؟!

ـ الأمر صعب ومعقد ومتشابك .. بداخلى رجلان يتصارعان ، وأنا أحبهما ربما بنفس الدرجة ، ولاأدرى لأيهما أكون فى هذا الصراع العجيب .

ـ وماذا عن زوجك الحالى ؟!

ـ رجل فاضل دمث الخلق .. طيب القلب يحبنى ويحترمنى لأبعد حد ، وإن كان يحس بشىء من وفائى لزوجى المرحوم ، ويقدر هذا الأمر ، وإن كنا أنا وهو نتجنب الخوض فيه ، ولأنه رجل عاقل يعرف أننى لن أرمى بسنوات عمرى الماضية ،وذكرياتى فى جوف النهر وأنساها بهذه البساطة !

ـ وماذا يفعل معك فى هذه الحالة ؟!

ـ أبدا .. يحترم أدق خصوصياتى ولاينبش فى صندوق الماضى ، ولايقلب فى أوراق ذكرياتى مع غيره ، ينأى بنفسه عن الدخول فى صراع علنى على قلبى مع سلفه الذى هو الآن إلى جوار ربه ، وترك لنا الدنيا بمافيها .. وليس من المعقول أن رجل طيب مثله يسكن دار الباطل وأنا زوجته الآن يتصارع مع غريمه ـ زوجى المرحوم ـ الذى هو فى دار الحق على امرأة كانت للمرحوم زوجة ذات يوم ، وصارت له اليوم وبين يديه بأمر الله وشرعه .

****

ترقب فاطمة بحذر وحرص كل ماتتفوه به نوال ،عساها تتعلم من تجربتها فى الترمل ،وإن ودعت الترمل سريعا ، وخلعت عن نفسها عباءته السوداء ، وارتدت ثوب العرس الأبيض للمرة الثانية ، هجرت نوال القبر ولم تهجر ذكرى رجلها الأول ، واستقرت مجددا فى المخدع المخملى مع رجلها الثانى ، وبشوق شغوف تساءلت فاطمة بلهفة عن كل ماقاله الشيخ يعقوب لنوال بشأن انشغالها ذهنيا ووجدانيا برجلين فى آن واحد .

هتفت نوال وهى تلهج بالدعاء للشيخ :

- ربنا ينور بصيرته ويزيده علما فوق علمه .. فعلا العلماء ورثة الأنبياء .

- ماذا قال يانوال بالتفصيل ؟!

- قال لى كلاما غريبا عجيبا لم أسمع بمثله من قبل فى حياتى ..

- أنت جاهلة يانوال ولم تكملى تعليمك ... المهم أكملى ولاتنسى شيئا مما قاله الشيخ لك .

- ياسلام يافاطمة .. قال الشيخ .. إن السيدة أسماء بنت عميس ترملت أربع مرات ، وتزوجت خمس زيجات .. زوجها الأول هو حمزة بن عبدالمطلب ومأأدراك ماحمزة ، وحين مات لم تنتظر كثيرا فودعت الترمل ،وتزوجت شداد بن الهاد لكنه مات أيضا ، ولم تتوقف حياتها على ذكرياتها معهما ، بل تزوجت للمرة الثالثة من جعفر بن أبى طالب ، وللأسف الشديد لم تستمر حياتهما الزوجية طويلا ومات أيضا وتركها أرملة ، فعاشت حياتها بشكل طبيعى ، وخرجت من أحزانها بسرعة وتزوجت للمرة الرابعة من أبوبكر الصديق ، ولسوء حظها مات عنها وتركها أرملة .. فماذا فعلت تلك المرأة المنحوسة مع هؤلاء الرجال العظماء النبلاء صحابة رسول الله المقربين رضى الله عنهم أجمعين ؟!

كتمت فاطمة أنفاسها ونظراتها مصوبة على وجه نوال التى سكتت فجأة ، فحثتها على الكلام قائلة :

- ماذا فعلت هذه المرأة .. تكلمى يانوال ؟!

- قال لى الشيخ يعقوب أنها قررت أن تواصل حياتها بشكل طبيعى - كما أرادها الله للمرأة - وتزوجت للمرة الخامسة من على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ، وبذلك أعطت أسماء بنت عميس مثلا يحتذى به للأرملة التى يحق لها أن تتزوج ولاتستسلم للترمل ،ولاتترك نفسها لدوامات الحزن واليأس حتى لوتكرر الأمر عدة مرات ،وحتى لوكان الزوج المتوفى عن المرأة الأرملة فى عظمة ومكانة حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وسيد الشهداء ، وحتى لوكان الزوج المتوفى فى قيمة وقامة جعفر بن أبى طالب قائد وشهيد غزوة مؤته وابن عم النبى صلى الله عليه وسلم .

إن من حق الأرملة أن تتزوج حتى لوكانت أرملة الصديق أبوبكر خليفة رسول الله وثانى إثنين ، وتعكس حياة هذه السيدة حالة من المرونة واليسر والقبول الإجتماعى والإنسانى للأرملة وظروفها ، وكذلك تعكس حالة من الحيوية والحركية فى الوسط الذى تعيش فيه ، فالمرأة كائن حى ، وليس مطلوبا من الأرملة أن تكفن نفسها أويكفنها من حولها ، وتقبر وهى على قيد الحياة !

هاهى الأرملة الجليلة التقية النقية أسماء بنت عميس تتزوج بخيرة رجال عصرها دون أن تجد فى ذلك حرجا أوخجلا ، لأن هذا حقها الشرعى ، ولم يقل لها أحد تبتلى أوترهبنى أوانقطعى لأولادك ، ولم يقل أحد وهم صحابة رسول الله احرمى نفسك من احتياجاتك الإنسانية الفطرية ،وعيشى أرملة للأبد على ذكرى المرحوم .

هذه الصحابية الجليلة الطاهرة العفيفة لم يلومها أحد ، ويقول لها .. كيف تخونين ذكرى حمزة أوشداد أوجعفر أوأبوبكر الصديق وكلهم من الأفذاذ ونجوم المجتمع الإسلامى ، ومن الرجال البارزين الذين يكفى ذكرى أحدهم أى امرأة فخرا وعزا بقية عمرها !

إنها الاستجابة للطبيعة الأنثوية ، والفطرة العاطفية واحتياجات المرأة منذ خلق الله حواء من ضلع آدم حتى قيام الساعة ، ولاشك أن مشاكل زواج الأرملة النفسية والإجتماعية أقل كثيرا من مشاكل اغلاق قلبها ووحشة روحها وظنون مجتمعها وتعنت أهلها ، ومن الظلم إجبارها على أن تعيش فى جلباب الأرملة مدى الحياة ، ومن الظلم أن تسكن قبر المرحوم بقية عمرها وهى على قيد الحياة .. إلا إذا كان لها ـ بحريتها وكامل إرادتها ـ رأى آخر .

سكتت نوال بعد أن ظنت فاطمة أنها جاءت لتخفف عنها مصيبتها ،وتعطيها النصيحة الصحيحة لكنها زادتها هما بحكايتها الغريبة ، وحيرتها العجيبة بين رجلين أحدهما سابق والآخر لاحق ، وألقت الكرة فى ملعبها ، وفى النهاية ارتبكت فاطمة ولم تمنحها تلك الحكاية سوى المزيد من الحيرة والحسرة والخوف من المجهول القادم .. ثم سألتها :

ـ آه يانوال على الموت ومايفعله بنا من أهوال .. هل نزلت مع المرحوم فى قبره فى لحظة الوداع الأخيرة ؟!

بهتت نوال وقالت بضيق واشمئزاز :

ـ أعوذ بالله .. أنزل معه القبر .. ولماذا يافاطمة .. هذا جنون .. القبر للميت فقط ؟!

غمغمت فاطمة وعلى وجهها ابتسامة وهى تتذكر تلك اللحظة قائلة :

ـ أنا نزلت مع رضوان قبره .. وهو أمر لوتعلمين عظيم .

ـ أنت مجنونة يافاطمة ؟!

ـ ولم لا أفعل يانوال ،وهى النظرة الأخيرة فى المقر الأخير لزوجى الحبيب ؟!

ـ تهتكين ستر حبك له وتفضحين سر نفسك يافاطمة ؟!

ـ أليس زوجى وحبيبى ووالد توأمى .. ألا أودعه وداعا يليق به .. ألا ألقى عليه نظرة أخيرة ؟!

ـ ماكنت أظن أن جنون الحب يأخذك يافاطمة للنزول معه إلى قبره !

تغيرت ملامح فاطمة وقالت :

ـ فى بلدنا نحرم الحب ، نهمس به سرا ونتعاطاه خلسة كأنه وحش ديناصورى كاسر يبتلع المحبين ، بينما نغنى له ليل نهار ، وفى ذات الوقت نحرمه ونجرمه على أنفسنا حتى بين الأزواج ، ونتوجس منه خيفة كأنه شيطان رجيم أوشر مستطير !

ـ يافاطمة ألاتعرفين طقوس بلدنا ؟! النساء عليها أن تكتم الحب وتخفيه وتعتبره سرها الدفين كما تكتم الحزن وتخفيه وتعتبره حظها اللئيم !

بنبرة شجن قالت فاطمة :

ـ مالم أكن أعرفه ولاأفهمه حتى الآن أن الناس فى بلدنا يحرمون على النساء الحب والحزن ، يريدون حرمانى من البكاء والعويل حين أفقد ضلعى الأول الذى انسلخت منه ،وجئت إلى الدنيا به وله .. أى عادات باغية تلك ، وأى طقوس طاغية تلك ؟! ولماذا يتعاملون مع الأرملة كأنها رجس من عمل الشيطان ؟!

توقفت فاطمة لحظات ثم أجهشت بالبكاء الحار ، وسالت دموعها على وجهها الخلاسى الآسر الأخاذ فاحتضنتها نوال برفق حميمي ناعم ، ومدت فاطمة يدها تجفف دموعها ،وتهمس بصوت مبحوح مجروح :

ـ منذ متى نبتت فى وادينا الطيب كل هذه القسوة على خلق الله ؟! منذ متى وهم يقطفون الورد بمناجل من حديد مسنون ؟! منذ متى وهم يلقون بأرق خلق الله فى النهر تحت مزاعم شتى ؟! ألف محظور ومحظور على المرأة .. افعلى ولاتفعلى .. ألف أمر وألف نهى فى اليوم الواحد !.. حب النساء .. حزن النساء .. ألم النساء .. شىء لايطاق .. هن لسن فى حاجة إلى أوصياء.. يقهرون المرأة تارة بحجة يجوز ولايجوز .. يقهرون المرأة تارة أخرى بحجة العيب والمحظور ، وتتوالى مناهج القهر طوال مراحل العمر من المهد إلى اللحد !

لاذت فاطمة بصمت هادىء ثم قالت :

ـ حاولوا منعى من وداع زوجى إلى منتهاه الأخير .. كان يستحق وداعا يليق به ، وقد فعلت وطبت نفسا بمافعلت ، ولولم أفعل فقد كان ضميرى سيظل يؤنبنى بقية عمرى ..كانوا يريدون ألايزعجوا أنفسهم أويجرحوا مشاعرهم بنحيب أرملة كسرها رحيل رجلها ،ومكلومة فى أعز الناس على قلبها ! فى بلدنا زمان كانت النسوة يعبرن عن الحزن العظيم والحب العظيم بصرخة فصيحة ، وقد تعلمت فى طفولتى من جدتى معنى الحزن النبيل حين مات جدى ،وظل حبها له خالدا لايموت حتى لحقت به .

قاطعتها نوال بصبر قليل :

ـ هذا زمن ولى .. ومانحن فيه الآن زمن آخر مختلف يافاطمة .. لاشىء يبقى على حاله .

عادت فاطمة تسترسل بأسى :

ـ أغلب النساء مغلوبات على أمرهن .. مقهورات فى حياتهن وبعد رحيل أزواجهن إلا أنا .

ـ إلا أنت يافاطمة .. ومالسبب ؟!

ـ لأننى لم ولن أسمح لأحد مهما كان أن يفرض وصايته على حزنى وحبى وحياتى ، ولن أسمح لمخلوق أن يضع حاجزا بينى وبين رضوان حتى لوكان هو فى دنيا وأنا فى دنيا أخرى !

ـ ماذا تقصدين .. لاأفهمك يافاطمة ؟!

تغيرت نبرة صوتها وصارت مفعمة بالشجن :

ـ عندما ارتدى رضوان ثوب الملائكة ليدخل الجنة نزلت معه قبره ثم قبلت رأسه بحنان بالغ .. بينما أنا معه فى القبر رأيت عجبا ، شعرت بالأمان معه فى ذاك المكان ، ورأيته يبتسم لى ، وأظنه فتح عينيه ورأنى وسره ذلك ، وربما أراد أن يكلمنى ويقول شيئا لكن لم يستطع أن يتكلم لاأدرى لماذا ؟! ثم وضعت رأسى على صدره كما كنت أفعل كل ليلة فى فراشنا ، وكان هادئا ساكنا دافىء الجسد فيه حرارة الحياة ،وأظن أن قلبه كان ينبض بإسمى آخر دقاته ، لقد استأمنته على قلبى وهو نائم فى قبره كما استأمننى هوعلى قلبه وفلذة كبده عز الدين وشرف الدين حتى يحين اللقاء فى دار البقاء .

احتج بعضهم على وجودى ـ دائما هناك أوصياء ـ مع حبيبى وتوأم روحى فى نومته الأخيرة ،فقلت لهم .. دعونى وشأنى .. لن أتركه حتى أعرف كيف نام آخر مرة .. وأين وضع رأسه وفى أى اتجاه ، وحين فعلت ورأيته مسجى فى قبره آمنا مطمئنا باسما هادئا مستريحا كأنه فى سريره ، شعرت براحة كبيرة لم أشعر بها من قبل فى حياتى .

ـ يا لجرأتك يافاطمة .. كيف تفعلين هذا فى موقف رهيب كهذا ؟!

ـ آه ياعزيزتى ..آه لويعلم الناس أن نزول القبر مع المحبين لأمرعظيم ، ومنذ تلك الحظة أصبح قبره وطنى ، ودارى وسريرى ، وفى كل مرة أذهب لزيارته تنتابنى أحاسيس غريبة ، أجلس إلى جواره أراه وأكلمه وأحسبه يرانى مثلما أراه ويسمع كلامى ، ويسألنى عن أحوالى وأحوال توأمه .

ضمتها نوال إلى صدرها وربتت عليها بأمومة ثم قالت مواسية :

ـ لاتحزنى ياحبيبتى .. أقدر مشاعرك ، ولست غريبة عنها لقد عشتها قبلك ،وأسأل الله أن يعوضك خيرا .

تملصت من بين يديها برفق وقالت :

ـ أخشى يانوال أن تدفعنى هذه الظروف إلى نوبة من الكآبة والإنعزال عن الناس لتفادى الألسن التى لاترحم والعيون الوقحة ، وغير مقاومة الأحزان أجد عسرة فى الحصول على المال الذى يسد حاجتى أنا والتوأم ، ولذلك سأضطر للخروج للعمل وآمل ألا تطاردنى المشاكل أوتحاصرنى الفتن أوترصدنى العيون فى مشوارى بحثا عن لقمة عيش لى ولأولادى .

ـ وماهو العمل الذى تقصدين ؟!

ـ مايجب أن أفعله قبل أى شىء هو أن ألتقى بالشيخ يعقوب وأسأله فى بعض الأمور التى تشغل بالى كى يطمئن قلبى وأحدد طريقى .

ـ ستجدينه فى المسجد عند كل صلاة ، ودائما الشيخ يعقوب يظل موجودا بين صلاتى المغرب والعشاء .

تركتها نوال وودعتها بالأحضان ، وانصرفت لحال سبيلها وهى تدعو لها بالصبر والأجر والعوض من الله .. وهمست لنفسها :

ـ امرأة ليس لها حد فى الحنان .. تداوى جرح إصبعك ويداها مجروحتان ! كم هى عظيمة تلك الأرملة .

بعد أن فرغ المصلون من صلاة العشاء تسللت فاطمة من الباب الخلفى ، ودخلت المسجد على استحياء ، وقد غطت وجهها ورأسها بحجاب فهى فى بيت الله ، ولم يكن فى المسجد الصغير سوى عدد قليل من أهل العزبة يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وعامل المسجد الذى كان منهمكا فى اغلاق النوافذ تأهبا لاغلاق الأبواب بعد أن ينصرف الشيخ يعقوب وينفض من حوله .

كان الشيخ الضرير يسبح ربه بصوت بين الجهر والخفوت ، وبجواره ابنه الصغير الذى لايتجاوز العاشرة من عمره ، وهو الذى يصحبه للمسجد ويعود به إلى الدار عند كل صلاة .

يرى الشيخ يعقوب الدنيا والناس وكل شىء بعينى ولده صلاح الدين ، وبينما يتأهبون للمغادرة فوجىء عامل المسجد بالأرملة أمامه فى صحن المسجد فدهش وسألها بانزعاج :

ـ ماالذى جاء بك إلى هنا .. الصلاة انتهت .. كما أن مصلى النساء فى الطابق الثانى .

ـ أريد الشيخ يعقوب .. أين الشيخ يعقوب ؟!

نهرها عامل المسجد بغلظة وفظاظة :

ـ اذهبى لحال سبيلك لأن الشيخ لايقابل النساء اليوم ، وعليك أن تحضرى درس النساء يوم الخميس القادم .

بتوسل واستجداء :

ـ أرجوك .. أريد الشيخ لأمر مهم .. حياة أوموت .

ارتفع صوت عامل المسجد وزجرها وطردها بجفاء فسمع الشيخ يعقوب صوت العامل النشاز ،والمسجد فارغ من المصلين ، والصوت يتردد صداه فى الأرجاء فسأل ولده صلاح الدين عما يرى .. فقال له إن امرأة تتشاجر مع العامل فنادى الشيخ على العامل قائلا :

ـ اتركها وشأنها ياعبده .. لعلها جاءت تطلب فتوى فنفتيها ونفوز بالأجرإن شاء الله .

التفت العامل إليه ضجرا ملولا وقال مجبرا :

ـ حاضر يامولانا .. اتفضلى ياست .

اندفعت بلهفة وسرور نحو الشيخ الجالس بجوار المنبر الخشبى ، ومسبحته فى يده ، كان رجلا مهيبا له وجه أبيض ناصع كطبق الحليب الطازج ، وفوق رأسه عمامة بيضاء ، ويرتدى عباءة سوداء فوق جلباب أبيض ، لكنه مغلق العينين .. سبحان الله .. الرجل وسيم قسيم مهيب لكنه أعمى .

لمست فيه فاطمة أنه رجل ذو بصيرة ثاقبة تغنيه عن العمى ،ويرى بقلبه مالايراه المبصرون بأعينهم،وقلبه عامر بكلام الله وكتابه الكريم ، له ضحكة مجلجلة عالية إذا ضحك ، وعنده روح مرحة وخفة ظل نادرة ،وعندما اقتربت منه وهو جالس مكانه ،وأحس بوقع أقدامها قال مرحبا :

ـ يا أهلا وسهلا ..يا أهلا وسهلا ..

قالت بهدوء :

ـ السلام عليكم يامولانا ..

ـ وعليكم السلام ورحمة الله .. أنا فى خدمتك يابنيتى .

ـ أنا يامولانا فاطمة .. أرملة المرحوم بإذن ربه رضوان .

بدا التركيز شاخصا على وجه الشيخ الأبيض الناصع ، وأذنه وحواسه متأهبة لتلتقط كل شاردة وواردة ، بينما الشيخ يستنبط من صوتها كل مايعتمل فى صدرها من لوعة وألم وقلق ،وكأن بداخله فلتر سبع مراحل ، يعرف به سر حيرتها وتساؤلاتها الغامضة التى استغلقت عليه لكنه سيضىء لها شمعة تنير لها طريقها ، وحين لزمت الصمت تنتظر رد فعله .. قال بعطف :

ـ آه فاطمة .. اسم غالى يافاطمة .. أنت بنت الحاج عبدالعاطى ؟!

ـ صحيح يامولانا ..أنا فاطمة عبدالعاطى .

ـ بارك الله فيك يافاطمة ، وبارك فى والدك أنه رجل طيب .. منذ فترة لم أره أوأسمع صوته فى المسجد .

ـ صحته ليست على مايرام يامولانا ..ومنذ مدة وهو يصلى فى الدار .

ـ أبلغيه تحياتى .. ودعواتى له بالشفاء العاجل بإذن الله .

ـ أكرمك الله وأعزك يامولانا .

ـ تكلمى يافاطمة أسمعك .. ماذا تريدين يابنيتى ؟!

ـ أنا يامولانا .. أرملة ..أنا الآن فقدت نصفى الآخر .. أنا الآن أرملة إذا أنا أتألم .. أتألم وحدى وألمى بلاحدود .. أنا امرأة أبكى من جرح شوكة تمس جلدى الشفيف .. أنا أقف فى وجه إعصار عنيف، وقد يعصف بقلبى الضعيف ! تألمت حين رأيت الشفقة فى أعين الذين جاءوا لعزائى ..تألمت حين تسلمت شهادة وفاة شريك أيامى ..وأتالم حين يسألنى صغارى عن سر غياب درعنا الواقى .. أتألم حين أرى نظرات وقحة فى عيون ذكورية مفترسة ! أتألم لإبتعاد الجارات والصديقات والقريبات عنى خوفا على أزواجهن .. أتألم حين أفكر فى أن يكون مصيرى مثل الهندوسيات نفيا إلى مستعمرات الأرامل ، أوحرقا بنار حامية حتى لاتفارق ذرات رمادى فى الدار الآخرة رماد فارس أحلامى !

تنهد الشيخ يعقوب ثم نطق بنبرة شجية هادئة :

ـ يافاطمة .. لاتحزنى واحمدى ربك على كل شىء ..الأرملة فى ديننا تنال كل تكريم وكل رعاية واهتمام بل أكثر من تزوجهن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأرامل ،فقد جعل الإسلام للمرأة الأرملة منزلة كريمة فى الدنيا والآخرة ، وجعل رعايتها من أفضل القربات إلى الله ، كما أن مساعدتها على قضاء حوائجها له فضل عظيم عنده سبحانه وتعالى مصداقا لقول نبينا الكريم (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أوالقائم الليل الصائم النهار) رواه البخارى .

ثم هز الشيخ يعقوب رأسه واعتدل فى جلسته وواصل حديثه لها :

ـ إن الأرملة يأأيتها الأرملة من القوارير التى أوصى بهن رسولنا الكريم ، بل إن معظم أمهات المؤمنين كن من الأرامل إلاعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها فهى الوحيدة التى تزوجها الرسول بكرا ولم تكن أرملة .

ـ ولكنى يامولانا أعانى من أمور كثيرة .. فكيف السبيل إلى حياة طبيعية آمنة مطمئنة ؟!

ـ يافاطمة .. إذا كانت الأرملة قدر الله لها أن تفقد زوجها فليس معنى ذلك أن تمنع نفسها أويمنعها أحد من ممارسة حقها فى الحياة الطبيعية لأن موت الزوج ليس معناه أبدا نهاية الحياة لأرملته ، وليس معناه أن تعيش بقة عمرها فى أغلال وقيود رهينة لقب الأرملة !

وللأسف يابنيتى عندما تفكر الأرملة فى الزواج مرة أخرى تنهال عليها سيول الإتهامات الجارحة والنظرات المسيئة ، والإسلام بشريعته السمحة يدعم تلك الأرملة ، ويساعدها على الخروج من هول صدمتها ، ويأخذ بيدها لتعود سريعا للتفاعل مع الحياة والمجتمع والناس ، وعندما تجد تلك الأرملة أن من حولها يخشون الإقتراب منها ، وأن كل امرأة تخاف على زوجها منها ،ويسود الحرص والحذر والتوجس من التعامل معها ماذا تفعل تلك الأرملة ؟! تحبس نفسها وحيدة تتألم وهى تكتوى بنار الحرمان ،ولهيب الذكريات وبشاعة الفقد ، وتصبح فريسة سهلة لوساوس الشيطان .. أعوذ بالله .

توقف الشيخ لحظات يلتقط أنفاسه ، وأصابعه تنتقل على حبات مسبحته بطريقة آلية ، ومن حين لآخر يمد يده يتحسس وجود ولده صلاح الدين إلى جواره ..لأنه ذات مرة تسلل يلعب خارج المسجد ،وتركه حائرا لايدرى كيف يعود للدار ؟!

ثم سألته فاطمة بنبرة هامسة :

- قل لى يامولانا بالله عليك .. هل الإسلام يميز بين الأرملة التى تتزوج ، والأرملة التى تظل وفية لروح زوجها ، وتوقف حياتها على حبه ورعاية أولاده ؟!

تبسم الشيخ وانبسطت تقاطيع وجهه الوضاء وقال :

- لقد اعتبر الإسلام أن الزواج حق مشروع للأرملة ، أجازه لها الشرع بعد إنتهاء فترة العدة ، وهى أربعة أشهر وعشرة أيام ، أووضع الحمل لوكانت حاملا حين مات زوجها ،وللأرملة الحق فى أن تتزوج لتكمل حياتها فى ظل أسرة متماسكة ، وتحت ظل رجل يصونها ويحميها ،وقد تلجأ الأرملة للزواج حين تشعر أنها بحاجة لرجل يقوم بدور الأب لأبنائها ، ويدعمها ماديا ويكفيها سؤال الناس .. أما من الناحية النفسية والعاطفية فإن الأرملة تلجأ للزواج لتبدد مايحيط بها من ألام ومخاطر ، وتنظر للزواج كبداية للحياة واعادة ترتيب أوراقها من جديد مع رجل جديد يمنحها كل شىء .

وعلى الجانب الآخر من معادلة الأرملة فإنها تنال كل التقدير والاحترام والعرفان لوأوقفت حياتها على تربية أولادها ، وأفنت شبابها وعمرها من أجلهم فقط ،وتمسكت بحياة الترمل ولفظت فكرة الزواج برجل آخر من رأسها ، وعاشت مخلصة لفقيدها وحبيبها ووالد أطفالها إلى يوم الدين عساها تلقاه فى الجنة .

سكت الشيخ بينما تساءلت فاطمة بشىء من التردد :

- يامولانا .. بماذا تنصح أرملة فى مثل ظروفى ، ولايخفى عليك حالى فالعزبة كلها كأنها أسرة واحدة ؟!

تنهد الشيخ يعقوب وأثنى على رسول الله ثم قال :

- ليس على الأرملة - التى هى فى اختبار إلهى صعب - إلا أن تعود إلى خالقها وتعلم أنه سبحانه وتعالى يدبر رزق النملة فى جحرها المظلم فى باطن الأرض أوفى جوف الصخر ، وعلى الأرملة ألاتيأس من رحمة الله ، بل تحسن الظن بالله ، فإنه سبحانه يعلم مقدار احتياجاتها ، ويحس بها ويراها ،وهو أقرب إليها من حبل الوريد .. إليه وحده تلجأ وإليه تفوض أمرها ،وله الدعاء والرجاء لأنه أكرم الأكرمين لايرد من يسأله ، ولايخيب أبدا من اتقاه

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) صدق الله العظيم .

****

(32)

ضاق عبده عامل المسجد ذرعا بتلك المرأة ، وبدأ يتحرك ذهابا وإيابا بالقرب من جلسة الشيخ يعقوب مع فاطمة بجوار المنبر الخشبى ،ويتعمد أن يصدر أصواتا منبهة ومزعجة عسى ينفض هذا الإجتماع ،يغلق النوافذ بقوة كى ترتطم بالحائط ، ويهمهم بأنه يريد إغلاق المسجد كى ينام ساعتين ثم يأتى ليفتحه من أجل صلاة الفجر ، لأن الليل فيه عفريت كما يقول ، بينما الشيخ منهمك لايعيره انتباها ، ينصت لفاطمة بإمعان ، ثم يعرض عليها موقف الإسلام من الأرملة ، ويستعرض رؤية الدين لأخطر محنة ،وأشد أزمة يمكن أن تتعرض لها امرأة فى حياتها .

قال الشيخ غير عابىء بعامل المسجد وأصواته :

ـ يافاطمة .. إذا أنهكتك الأعباء ، ونالت منك الهموم ، وتمكنت منك الأحزان فليس عليك يابنيتى إلا العودة لله سبحانه وتعالى ، وكونى كثيرة الإستغفار لربك مصداقا لقوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) .. وعليك أيضا الأمل فيما عند الله تعالى ،والتعلق به والمحافظة على الصلاة ،والبعد عن كل مايغضبه سبحانه .. يافاطمة عليك أن تغرسى فى قلبك الثقة والثبات والصبر والإيمان لتتخطى كل المخاطر التى تعترض طريقك ، وعليك أن تخافى الله فى السر والعلن ، وتستشعرى مراقبة الله فى كل وقت وحين ، يابنتى إن من يخاف الله يخجل أن يعصيه ، واعلمى أن الله يراك فى كل أحوالك ، ولوضاقت بك الأمور وراودتك النفس الأمارة بالسوء على ارتكاب المعصية ، عودى لربك على وجه السرعة !

وإن الله قد شرع لك الحق فى الزواج بعد المرحوم .. لكن إن أرادت الأرملة ـ أى أرملة ـ أن تعيش لأولادها وتحبس نفسها عليهم ولهم فلابأس عليها ، وليس عليك عندئذ إلا الصبر والإكثار من الطاعات ، والسعى بكل طاقة ممكنة لتدبير مايلزمهم ، وحسن تربيتهم ، ولتكونى أكثر حبا وعطفا وحنانا ومعايشة لأحوالهم ، ولتكونى فى عيونهم قدوة لتثبتى جدارتك وتتجاوزى محنتك ، وعلى الأرملة أن تعلم أن الدنيا فانية بحلوها ومرها ، ولم يكتب الله الخلود فيها لمخلوق ، ولايبقى لنا سوى أعمالنا التى نلقى بها ربنا .

سادت لحظة صمت قطعها صوت عبده عامل المسجد بضيق :

ـ يامولانا .. الوقت تأخر .. أريد أن أنام مبكرا حتى أستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر .

نهض الشيخ متكئا على كتف ولده صلاح الدين ، وبجوارهما فاطمة واتجهوا نحو الباب :

ـ لقد بدت الأمور واضحة أمامك كالشمس .. لكنك لم تخبرينى ماذا ستفعلين، وماتريدين يافاطمة ؟!

تنهدت وكأن جبلا قد انزاح من فوق صدرها ثم همست بارتياح :

ـ أريد أن أكون أرملة للأبد .. أريد أن أكون لزوجى فى الجنة .. وأريد أن أعكف على تربية أولادى .. بالأمس القريب يامولانا كنت فى رعاية زوج طيب حنون شهم مخلص .. تجسدت فيه كل معانى الرجولة والإنسانية ، كنت آمنة مطمئنة لأقصى درجة ، ولاألقى للدنيا بالا ولاأتوقع منها وبالا .. ولكن حدث ماحدث .. أمر الله .. اليوم وقد أصبحت أرملة فجأة ،وفقدت الرجل الأعز والأغلى فى حياتى ، ذهبت رغما عنى وغيرت وصفى وصفتى فى البطاقة الشخصية من متزوجة إلى أرملة !

قال الشيخ يعقوب بصوت شجى :

ـ اعلمى يافاطمة أن الأرملة حين تصبر على محنتها تدخل الجنة مباشرة ، ليس هذا فحسب بل وتسابق النبى فى أن تدخل قبله .. يقول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام (أنا أول من يفتح له باب الجنة يوم القيامة إلا أنه تأتى امرأة سعفاء الخدين فتزاحمنى ، وتحاول أن تسبقنى إلى دخول الجنة فأقول لها .. من أنت أيتها المرأة ؟! فتقول أنا أرملة حبست نفسى على تربية أولادى اليتامى .. فأقول لها إدخلى الجنة) صدق رسول الله .

ـ ومامعنى امرأة سعفاء الخدين يامولانا ؟!

ـ امرأة جريئة هزيلة ضعيفة من الكد والشقاء فى العمل ووجهها بلازينة أوتجميل .

سكتت فاطمة لحظات مذهولة لاتصدق ماتسمع ثم فجأة انهمرت دموعها كالمطر ، واستيقظت من غفلتها حين لطمتها الأيام بتقلباتها المباغتة ، ووجدت نفسها تحمل مسئولية خطيرة ، تخشى أن تكون فوق طاقتها .. فكيف لها وهى الضعيفة الرقيقة الناعمة الهشة أن تواجه الحياة القاسية ،وهى متقمصة دورين للأب والأم معا ؟!

ماذا ستفعل بعد أن سقط السور الذى كان يحميها ؟! ماالعمل وقد انهارت فجأة المؤسسة التى ترعاها فى صورة رجل ؟! صارت مقبلة على مرحلة من إنعدام الوزن ، سوف تتحامل على نفسها ، وتقف ثابتة كصخرة فى وجه ريح عاتية .. ولاتدرى ماذا تخبىء لها الأيام واسمها مسبوق بالأرملة .

والأرامل من حولها أحوالهم غريبة عجيبة ، فكثيرا مايقوم أهل زوج الأرملة بعد رحيل ابنهم باللجوء إلى الحيل والألاعيب من أجل حرمان تلك الأرملة من أولادها لوفكرت فى أن تخلع ثوب الترمل وتقدم على الزواج ، وأحيانا يسعون لحرمانها هى وأولادها من الميراث ، فى حالة لوكان للزوج مايورث من مال أوعقار أوأرض ، ولاتنتهى متاعب الأرملة فى كل الأحوال سواء فكرت فى اللحاق بقطار الدرجة الثانية من الأزواج أوهجرت الرجال واكتفت بماكان لها من المرحوم ،ستظل عيون الطامعين من الرجال تلاحقها ،وياويلها وسواد ليلها لوكانت جميلة فاتنة مثل فاطمة !

والأرامل أنواع مثل الطيور ..هناك أرملة حديدية تستطيع الصمود لتصل بأولادها إلى شاطىء الأمان .. وهناك أرملة تقف فى وسط الطريق حائرة منكسرة مكبلة الأيدى تعلن عن ضعفها واستسلامها ، وتجد فى الحياة بلارجل مسئولية عظمى فوق طاقتها ، وتجد تدبير متطلبات أولادها أشد بأسا مما تحتمل فتشعر بالإنهيار ، وتجد نفسها أرملة آيلة للسقوط فى كل لحظة !

أحست فاطمة أنها تعلمت الكثير من خفايا الحياة وخباياها فى دقائق معدودة أنصتت فيها لحكمة هذا الشيخ وخلاصة علمه وارتباطه بكتاب الله وسنة رسوله الكريم .

هذا الشيخ الضرير الذى يعيش فى ظلام دامس أضاء لها بنورعقله الطريق الوعر ، هذا الشيخ الأعمى الذى يحمل القرآن فى قلبه ، ويحمل الشمس فى وجهه ، ويشع فؤاده بنور العلم والإيمان فيهدى من حوله إلى سواء السبيل ، كم هو بشوش حكيم متفائل بالحياة دون أن يرى منها وجهها الجميل ، لم ير منها سوى السواد الحالك ، وربما يراها أفضل من المبصرين اليائسين الذين تتوسط وجوههم عيون الصقور !

الله وحده يعلم سر هذا الشيخ العلامة ، ولايعلم سواه من أين يأتيه التفاؤل بالحياة والرضا بكل مافيها ، وأيقنت أنها عثرت على كنز ولابد لها أن تراجعه من حين لآخر فى شئون دينها ودنياها ، خاصة وأنها حزمت أمرها ، واختارت الطريق الصعب الملىء بالأشواك !

اختارت الوفاء للمرحوم الغائب كما اختارت الولاء للأبناء الحاضرين .. اختارت الموت قرينا للحياة ، وأكثر ما تكره مايردده الجهلاء من أن الحى أبقى من الميت !

وإذا كان منطق هؤلاء الناس صحيحا .. فلماذا يظل الميت أبقى وأخلد وأطول عمرا لألاف السنين من الحى فى المتاحف والمعابد والمقابر الفرعونية ؟! ولماذا إخترع المصرى القديم التحنيط ؟! فعل ذلك ليعيش وهو ميت أطول مما عاش وهو حى !

عادت لغرفة نومها التى يفوح منها عطر رضوان ورائحته المحببة إلى نفسها ، وتحس به تماما كأنه لم يغادر تلك الدار ،ولم يفارق تلك الغرفة .. هو هاهنا يلاعبها ويلاطفها ويمزح معها ،ويظل يحكى ويحكى حتى تنام كما كان يفعل من قبل ، فيغالبها الحزن ، ويكاد يهدم جدران صلابتها فوق رأسها ، تنهمر دموعها وتراقب طفليها النائمين كملاكين بريئين ثم تنهض ، وتكفكف دموعها ، وتفتح دولاب ملابسها.. ماذا ستفعل هذه الأرملة الجميلة الحزينة ؟! وماذا فعل الحب الضائع معها ؟! وما الذى يمكن أن يصنعه مع المرأة فى دولة الحب العظمى ؟!

إن المرأة فى دولة الحب ثلاثة أنواع :

- النوع الأول : امرأة أحبت بعقلها ، فلاهى أحبت ولاهى عرفت معنى الحب !

ـ النوع الثانى : امرأة أحبت بقلبها، فهى امرأة عرفت معنى الحب ، ويسعدها القرب ويشقيها البعاد !

ـ النوع الثالث :امرأة أحبت بجسدها فسرعان ماتنطفىء نار حبها وتتحول إلى رماد !

لكن أين فاطمة من تلك الأنواع الثلاثة ؟! هى كل الأنواع لأنها أحبت بقلبها وعقلها وجسدها وروحها ، وإذا أحبت المرأة بكل حواسها فإن الحب سيكون هو كل حياتها .. تلك هى الحقيقة .

جاء الليل وسكن الناس ونامت العيون ، وهجعت الطيور فى مضاجعها ، ولاصوت فى هدأة الليل الصامت سوى ذئب يعوى من بعيد بعويل حزين .. ياترى هل فقد هو الآخر رفيقه ومؤنسه ووليفه فى تلك الليالى مثل فاطمة ؟!

يصمت الذئب ليرتفع دعاء الكروان وتسبيحه بعزف شجى خشوع لخالق الأكوان ومصور الإنسان ، هذا الهدوء يثير الشجون ، ويوقظ مشاعر الأنين ، ويستنفر نداء الحنين .. لابأس .

تهمس لنفسها وهى ترتدى أجمل قميص نوم عندها (اللانجيرى) وكان المرحوم رضوان يحبه جدا ويطلب منها أن ترتديه ، قميص أحمر حريرى الملمس ناعم قصير مفتوح من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، كل الإتجاهات تؤدى إلى مفاتنها المستيقظة والناس نيام .. نيام كالأموات ، ولاشىء يوقظها سوى ذكريات حب قديم جديد ورجل حى ميت ، والليل شاهد عيان لكنه أخرس لايعرف البيان !

وقفت أمام المرآة تراقب نفسها ،وتتأمل جسمها مفتونة بإبداع الخالق ثم تهمس لذاتها :

ـ إن كنت آنسة أو متزوجة أوأرملة سأظل امرأة .. لم يزدنى الزواج كرامة ، ولن ينقصنى الترمل أنوثة ، ولن أخجل إن اخترت الحياة كمن أصابتها العنوسة .. فأنا امرأة بداخلى بحار هائجة بأمواج متلاطمة من حنان وأحلام قرمزية ، وكنت ومازلت بماء الحب أحيا ضعيفة ورومانسية ، سأبقى أرملة ضد الحرمان ، سأبقى بعون الله جبلا من صبر وقلعة من صمود .. سأبقى امرأة فولاذية لايكسرها الحب أبدا ، وإن كنت امرأة هشة أبكى من جرح شوكة صغيرة إن مست جلدى الشفيف ، وأقف فى وجه أى إعصار قد يعصف بقلبى الضعيف ، ولوتجرأ الزمن وطعننى غدرا فلسوف أتحدى النزيف !

غلبها الشوق فبكت ، وأدركت مرارة غياب الحب ، واختفاء المحب ، وتلك خسارة لاتعوض ، ونار تشوى القلب ، ولايعلم لهيبها إلا من ذاق جحيمها .

خلعت اللانجيرى الأحمر النارى الحارق ،وألقت به فى دولاب ملابسها ثم ارتدت قميص نوم آخر للمرأة النمر عساها تستمد منه قوة ذلك الحيوان .. آه من هذا الدولاب اللعين ،ومافيه من قمصان نوم مخملية على كل شكل وكل لون ، وكأن أمها وضعت كل مهرها فى هذه القمصان باعتبارها كلمة السر للسعادة الزوجية !

لاشىء ينفع الآن .. لم تعد بحاجة إلى اللانجيرى ورفاقه .. لم تكن تعرف اللانجيرى عند زواجها حتى جاءت نوال وأعطتها واحدا هدية وعندما وجدتها تجهل قصة هذا القميص الأسطورة الذى يخطف النوم من عيون الرجال كما يخطف العقل من رؤوسهم فى الليالى الطوال .. قالت لها بخبرة السنين والحب :

ـ اللانجيرى أوقميص النوم تحديدا هو قطعة الملابس الأهم فى دولاب كل امرأة فى كل مكان ..وتلك القطعة تعنى مدى علاقتها بجمالها وبشريك حياتها ، وتحددهما بشكل واضح ، ويمكن معرفة طبيعة العلاقة بين الشريكين بشكل عام من مجرد إلقاء نظرة على دولاب ملابسها ، واحصاء عدد قطع اللانجيرى الموجودة ، ومدى تنوعها .. وفى كثير من الأحيان تلجأ المرأة لمايناسبها ، ويوافق تصوراتها عن نفسها ، وتستمد الأنثى من هذا اللانجيرى قدرا كبيرا من الثقة بفتنتها حين تقف أمام مرآتها ، وترتدى مايبرز جمالها وينال اعجابها ، ويضعها فى برواز جذاب .

فى بر مصر المحروسة على وجه الخصوص لاتخلو دواليب النساء من (اللانجيرى التنكرى) أوملابس القوة كأنها تتحدى بها منظومة القهر التى يمارسها عليها المجتمع الذكورى الديكتاتورى !

وتبدو ملابس القوة (اللانجيرى التنكرى) حاضرة دائما فى دولاب ملابس المرأة ، أوعلى الأقل قطعة أوقطعتين مثل ملابس الشرطة أوالجيش أوالمرأة القطة أوالمرأة النمر أوالمرأة الأسد وغيرها من الأنواع التى لاتخلو منها فتارين محلات الملابس النسائية الراقية منها أوالبدائية ، وعلى عربات الباعة الجائلين فى المناطق الشعبية والأسواق العشوائية .. لكن ماهى فكرة اللانجيرى الأصلية .. وكيف بدأت حكاية ارتداء اللانجيرى ، وتنوعت موديلاته بتصميمات مبهرة احتفاء بالعشق والعشاق ؟!

واقع الحال أنه ليس لدى العرب سيرة عن ملابس الحب للنساء عدا ماتم ذكره هنا أوهناك عن السراويل الطويلة الفضفاضة الحريرية ، والتى عرفناها من حكايات ألف ليلة وليلة ،أما عند الأوربيين فكانت صناعة اللانجيرى تجرى على قدم وساق بداية من القرن الثامن عشر ، وبدأوا باستخدام أقمشة (الساتان والحرير) بعد ماكان قميص النوم مقتصرا على الكتان .

فى مطلع القرن التاسع عشر بدأ اللانجيرى يصبح مفتوحا بلاأكمام ،ثم توالت الاختصارات عليه ، وزادت فيه الشرفات والطرقات والنوافذ والأبواب .. كله باسم الحب ولأجل الحب .

ومن عجائب الأمور أن هذا القميص القصير الذى يخجل الجميع من التصريح به فى أيام الزواج الأولى لم يكن معنيا به فى بداية الأمر أى شىء عن الحب ، وإنما تعود قصة هذا اللانجيرى القصير الخطير حين حدث النقص الكبير فى الأقمشة الموجودة فى السوق الأمريكى ، وعندئذ قامت (سيلفيا بدلر) مصممة الأزياء الأمريكية المتخصصة فى صناعة اللانجيرى بتصميم قمصان نوم قصيرة جدا من خلال شركتها الخاصة المعروفة (إيرس لانجيرى) ولاقت منتجاتها وتصميماتها استحسان ،وإقبال النساء فى أوروبا وأمريكا ، وحققت مبيعات مذهلة .

إن المرأة عامة والأرملة خاصة لها علاقة ذات وجهين مع اللانجيرى (وجه مع الحب ووجه مع الحرمان) ولن تكون فاطمة أبدا هى الأرملة الأخيرة كما أنها ليست الأرملة الأولى التى تسقط فى هذا الفخ ، وتقبض بيدها على هذا الجمر !

كما أن المرأة الزوجة التى لم تدخل قائمة الأرامل بعد ، ومازال زوجها يشاركها الحب والحياة فلها وجه واحد مع اللانجيرى !

ويظل الحب هو حياة المرأة .. ويظل قلبها هو كنزها الغالى الذى لايقدر بثمن ..قلبها وردة لاتتفتح إلا حين تسقى بماء الحب ، وتزهر من أجل الحب .

تدرك المرأة كما يدرك الرجل أن أزمة الترمل أشد قسوة وعبئا على المرأة الأرملة مقارنة بالرجل الأرمل !

ولأن الزوج عادة مايموت أولا فتقوم الزوجة الأرملة بدوره فى الحياة مما يضفى على الترمل صفة الأنوثة ،وبعد فقد الأرملة لرجلها وعائلها تواجه - منفردة فى غالب الأحيان - مسئولية كبرى ، وتواصل كفاحها من أجل أولادها ، بجانب معاناتها مع نظرة الناس لها كونها بلازوج ، فتحس بهم يحصون أنفاسها ، ويحسبون عليها حركاتها وسكناتها .

المرأة مسكينة فى بلاد العرب لأن حياتها سلسلة لاتنتهى من الإنتظار ، فهى تنتظر الحب ، ثم تنتظر الزواج ، وتنتظر الحمل ، وتنتظر الولادة ، وبعد ذلك تظل تنتظر أن يكبر الأبناء ، وتنتظر حتى ينهوا تعليمهم ، وبعد ذلك تنتظر زواجهم ، وهكذا تتوالى فصول رواية الإنتظار الطويلة المرهقة بحجم العمر كله .

وتعلق حواء فى بلاد العرب كثيرا من الآمال على زواجها ، وتشعر أنه كل حياتها ، بل وتنتظر من الزوج ـ العائل والسند ـ أن يهديها كل أسباب سعادتها غير منقوصة فى تلك الحياة ،وتعتبره مبررا من مبررات وجودها ، وبالمقابل فإن المجتمع ينظر لها حين تصبح أرملة نظرة شفقة .

وحين تنفض مؤسسة زواجها بالترمل الاضطرارى ، يولد لديها معاناة تنطوى على ألام نفسية وعاطفية وإجتماعية أكبر بكثير ،وأعمق مما قد يلحق بالرجل الأرمل !

لأن الأرمل الشاب قد لايستطيع التكيف مع ذاته ورغباته وحياته فيصاب بالجنون لولم يتزوج بسرعة .. أما الأرمل المسن فقد يواجه مشاكل أخرى تختلف كثيرا عما تواجهه الأرملة ، مثل هذا الأرمل يجد مشقة فيما لم يعتد عليه من قبل مثل إدارة شئونه المنزلية ، ويضطر أن يلجأ للزواج مرة أخرى ويودع حياة الترمل المزعجة .

أما الأرملة فقد تصاب بعدم الإتزان والإنعزالية ، وليس أمامها سوى التماسك لتنهض من جديد ، وتتحمل أعباء ذاتها وأولادها .. وليس لها فى هذه المعركة من سبيل للنصر سوى الصبر والتسلح بذخيرة لاتنفذ من الإرادة والعزيمة والمثابرة ، ومصارعة الصدمات ، وتقمص دور الأب والأم معا .. ولولم تفعل ستنهار استسلاما أوتنهزم للأبد .

تتألم فاطمة مثل كل أرملة فى مثل ظروفها .. ولاتعثر على أجوبة لأسئلة صغيريها التوأم :

ـ لماذا تأخر أبى يا أماه إذا كان عند الله ؟!

ولماذا لانكلمه فى التليفون ، ونسأله أن يعود سريعا ؟!

تظل الأم الشابة الجميلة مذهولة عاجزة عن الإجابة على براءة الصغار ، وتساؤلاتهم العجيبة المستحيلة .. ويظل نهر الأسئلة يجرى متدفقا على ألسنتهما :

ـ هل هو غاضب منا ياأماه ؟! وإذا كان غاضبا منا أويخاصمنا فلنصالحه ؟!

تهمس بتأوهات من بين دموعها وتقول :

ـ أنه مات .. ومن يموت يذهب عن الله ولايعود أبدا .

ثم يسود الصمت ولاتنطق بل تظل شاردة ويقول أحدهما :

ـ أخبريه ياأمى أن يعود من أجلنا .

ـ لن يعود .. ليس الأمر بيده .. الأمر بيد الله .

ـ أخبرى الله أن يتركه يرجع إلينا .. لقد أخذه منذ فترة طويلة .

ويقول الولد الآخر :

ـ لماذا هو الذى مات بينما كل أصدقائنا فى المدرسة لم يمت لأحدهم أب ؟!

تلزم الصمت فيحنو عليها عز الدين بلمسة حانية بيده الصغيرة :

ـ تكلمى ياأمى .. هل سيكون أبى معنا فى العيد مثل كل الأباء ؟!

يخرسها الحزن العظيم فيسألها شرف الدين :

- يأمى .. لماذا أعطيت ملابسه للناس الفقراء فى العزبة ؟!

- لأنه لم يعد فى حاجة إليها يابنى ، هوعند الله فى الجنة ويرتدى ثياب الجنة ولاينقصه أى شىء .

- ولماذا لانذهب له فى الجنة ؟!

- سنفعل ياولدى فى يوم من الأيام ..

ببراءة وسذاجة طفولية يتساءل عز الدين :

- ومتى سنلحق به فى الجنة ؟!

- حين يشاء الله .

صار الألم كالماء والهواء لايفارقها ولاتحيا بدونه ،فى كل لحظة يغشاها الألم ،وكأنها عارية تواجه المحتمع بلاغطاء .. بلازوج .. تتألم خوفا من كلام الناس ..لاتريد أن تجرحها الألسنة الحداد بكلمة ،جمالها يعذبها ، وربما لوكانت قبيحة ما طاردتها الأعين الوقحة .

تتألم مع أى شىء وكل شىء يذكرها برضوان ، ورضوان لاينسى بفعل الزمن ، وكأنه رجل عصى على النسيان ، كل مافى الكون من حولها وبداخلها يذكرها به صباح مساء ،وكأنه هنا معها لم يغادرها بعد.

تعانى صراعا رهيبا ، بين ماتشعر به من بتسونامى يحتاج نفسها ، ويحرق عواطفها ، وتحتاج لرجل يشاركها ليلها ونهارها ، ويسد ذلك الفراغ الجهنمى فى حياتها ، وبين خوفها على توأمها ومصيرهما ومستقبلهما لوانهارت فجأة أمام الضغوط الهائلة التى تكاد تخلعها من جذورها ، وتطيح بها فى الهواء كريشة فى مهب ريح عاتية .

لعل مايخفف عنها بعض الشىء احتضان والديها لها وحنوهما عليها وعلى ولديها .

وتصر فاطمة على أن زواج الأرملة مرة ثانية يعد نكرانا وجحودا لزوجها الراحل ، ولن تحيد عن طريقها ولن تتراجع عن قرارها مهما كابدت من أهوال .

لن تتراجع مهما حدث ، ولن تستسلم ولن تسلم حتى لوتطورت صراعاتها مع ذاتها، وظروفها إلى قلق واحباط وانعزال واكتئاب ، وانعكس ذلك على ولديها والمحيطين بها .. لن تجرح رضوان فى قبره ، ولن تجرح ولديها فى حياتهما .. أبد لن تفعل .

احساس فظيع مريع ينتابها ، تحس أنها حمامة تعشق التحليق فى الأفاق .. تفقد ريشة من جناحيها كل لحظة فى غياب وليفها وطائرها المفضل ، وإن استقرت فى نفسها قناعة بعدم الرغبة فى الإختلاط بالآخرين .

وممنوع عليها بأوامرعليا من روحها الاقتراب من الرجال ، لأنها تظن أنها فقدت بفقدها رضوان مهاراتها كعاشقة سابقة !

آن الأوان للعاشقة أن تعتزل العشق ، وإن شعرت بأنها تحتضن بقايا ألم مضن وحنين جارف لايهدأ ، وشوق حارق لاينطفىء ، لايهم .. لاشىء يهم ولوكان لديها احساس بأن أشياء ضرورية فى الحياة كانت جزءا من حياتها كامرأة لكنها الآن لم تعد فى حاجة إليها ..تستطيع أن تستغنى عن كل شىء فى سبيل قرارها ، ومع تسارع

عجلة الزمن ، وقفزات الأيام نحو الأمام تسكن دائرة الألم ، ويهدأ طوفان الحرمان ، ويسرى الخدر الطبيعى فى شرايينها ، وتمضى فى ثباتها إلى مرافىء الأمان .

سكت التوأم عن السؤال ، وسكت الحزن وامتزج بالأمل البعيد على وجهيهما بلقاء فى الجنة ، ثم انصرفا يلهوان بعيدا عنها ، ولم تفارقها مرارة الفراق عن رضوان ، فلم يتفارقا يوما بلوم أوعتاب حتى فى اليوم الأخير قبل أن يصعد فى العالى فوق النخلة ثم يهبط إلى الأرض ، وتصعد روحه لأعلى الأعالى .

فى كل لحظة كانا شريكين وحبيبين وصديقين ،وفى هذا اليوم المر تفارقا ودمعة واحدة بعينيه ، وأنهار من الدموع تجرى من عينيها ،تفارقا وحشرجة لعينة تمنع آخر كلمات بحلقه ، ماذا لونطق قبل أن يغادرها إلى ربه ؟! لعله كان يريد أن يقول لها كلمة واحدة لطالما قالها لها ،ورددها على أسماعها كأنها صلاة للحب :

ـ أحبك يافاطمة .

ثم يرحل إلى بعيد ولايعود .

رحل مطمئنا وإن تلعثمت كلماته الأخيرة ،وتقطعت حروفها وتبعثرت أشلائها ..لكن فاطمة لم تكن تحتاج لكلمات أخيرة .. لم تكن تحتاج شهادة مصدقة ببصمة قلبه .. كانت تعرف مايود قوله .. حينها دق قلبه دقته الأخيرة التى بعدها لاشىء ثم سكت للأبد ، ودق قلبها مرتجفا بارتعاشات خوف لامثيل لها .

صرخت مرة واحدة .. آه من الموت وقسوته ..غابت عن الوعى ثم استفاقت على أصوات النحيب .. ألبسوه ثوب الجنة .. ثوب أبيض ناصع يليق به حين يقابل خالقه ، وزفوه به إلى هناك .. إلى الملاذ الأخير .

ذهب رضوان راضيا مرضيا بأمر ربه ، وتركها وحدها تمشى مشوارها بلاحصانة ،وعيون الناس سهام جارحة ،بعضهم اعتبرها إرث زوجها ، والبعض اعتبرها شبهة ، والبعض اعتبرها خطرا داهما ، وكل الظنون تلاحقها ،أما هى فدائما شاردة غارقة مابين ذكرياتها مع فقيدها ،ومع مستجدات حياتها بدون حبيبها ،وكيف لها أن تحمل العبء الثقيل الذى سقط فجأة فوق رأسها ؟!

أصحاب القلوب ـ غير الرحيمة ـ علموها مالم تكن تعلم .. علموها أن تلبس ثوب الند للند .. نزعت عن نفسها ثوب الضعف ، ولبست ثوب القنفد ، تركت أنوثتها فى دولاب ملابسها بغرفة نومها ، وخرجت للدنيا امرأة أخرى بصرامة رجل تتحدى الكون كله .

وبعد أن دارت عجلة الزمن ، وتعلمت مايكفى من دروس وعبر فى مدرسة الحياة والناس ،أصبحت لاتبالى ولاتهتم ، وأدركت بمالايدع مجالا للشك أن الترمل ليس عارا ، وإنما العار أن تسلم وتستسلم للهزيمة بالضربة القاضية الغادرة من الأيام ، تلبستها روح جسورة ، ولن تبقى بعد اليوم بائسة معدمة معوزة .. ستكون امرأة خشنة بألف رجل تتخفى تحت عباءة أنثى رقيقة بدرجة أرملة .. ستكون رجلا وليكن مايكون !

****

(33)

لايمشى على الأرض ملائكة ولاشياطين بل آدميين .. تلك حقيقة المنصفين .. !

فى هذا المساء الخريفى من يوم الجمعة دقت يد خشنة غليظة الباب الخشبى القديم لدار الحاج عبدالعاطى ، وكانت فاطمة تعد وجبة العشاء مع أمها فى المطبخ بينما التوأم الصغير يلهوان فى ردهة الدار ، والحاج

عبدالعاطى معتكف فى غرفته يقرأ القرآن ،عندئذ تركت فاطمة مافى يدها ، وتلفتت إلى أمها بنظرة متسائلة عن الطارق بهذه الطريقة الفظة ثم قالت :

ـ سأفتح الباب ..

وعندما فتحت الباب فوجئت بما لم يكن أبدا فى الحسبان ، شهقت ودهشت ، وبنبرة استغراب واستنكار حين رأته بشحمه ولحمه وسحنته وبجواره شيطانه بسيونى المحامى الذى يلازمه كظله :

ـ سلام قولا من رب رحيم .. فراج العمدة .. خير ما الذى جاء بك إلى دارنا ؟!

ارتسمت على قسماته ابتسامة بلاهة دون أن ينطق ثم تكلم بسيونى قائلا بمكر ناعم :

ـ أهكذا تستقبلون ضيوفكم يافاطمة ؟! إن إكرام الضيف واجب .

سمع الحاج عبدالعاطى الجدل الدائر على الباب ، ومن غرفته وصلها صوته الأجش الوقور :

ـ من بالباب يافاطمة ؟!

ـ العمدة ياحاج عبدالعاطى .

تمتم الرجل غير مصدق وردد وراءها :

ـ العمدة .. العمدة ..

وانتفض واقفا ، وترك المصحف مفتوحا حيث كان يقرأ فى سورة (الأنبياء) ، وخرج مرتبكا لاستقبال الوافد لداره بلاسابق إنذار ، وظلت فاطمة واقفة مكانها متسمرة تحملق فى الضيفين الثقيلين دون أن تفهم سبب هذه الزيارة ، ولم تستطع أن تخمن ، وإن كانت لديها قناعة بأن فراج أبودومة لايسير إلا وفى ركابه الشيطان وثالثهما الشر ، وعدد لابأس به من أهل عزبة الحنكاتى يقبع الآن فى السجن بسبب الديون التى لم تسدد .

رحب بهما الحاج عبدالعاطى بكلمات طيبات قائلا :

ـ ياأهلا وسهلا .. الدار دارك ياعمدة ..تفضلا ..

دخلا الدار بشىء من الحذر ، وسبقهما الحاج عبدالعاطى بخطوات معدودة إلى غرفة الضيوف ، ولسانه لايكف عن الترحاب ثم قال :

ـ الشاى يافاطمة ..

سمعت النداء ولم ترد ، وظلت مستغربة مستغرقة فى أفكارها ، ثم ذهبت إلى المطبخ ، وهى تطرح الأسئلة على أمها التى لاتملك إجابات شافية ، فلا الأم تعرف شيئا ولاتعلم الغيب .

أعدت فاطمة الشاى ودخلت به عليهم ، فرأت وسمعت عجبا لم تتوقعه رأت الشيكات والإيصالات وقد وضعها فراج أمام والدها الحاج عبدالعاطى ثم قال :

ـ من اليوم لم تعد مديونا لى بشىء .. وهذه أوراقك ياحاج عبدالعاطى .

تهلل وجه الرجل ، ولم يصدق مافعله فراج ، وعندئذ هتف الحاج باحساس فياض بالعرفان والامتنان :

ـ أعزك الله وأكرمك ياعمدة .. لكن هذا كثير وكرم جزيل .

صوب فراج نظراته نحو فاطمة ففهمت مغزاها ثم قال :

ـ من يملك جوهرة اسمها فاطمة لايجب أن يكون مديونا لمخلوق على وجه الإطلاق .. كيف يكون مديونا وهو مثل مهراجا هندى ثريا بجوهرته تلك ؟!

أحس الحاج عبدالعاطى بالرضا والإرتياح فى حين سيطر العجب العجاب على فاطمة ، وسادت لحظات صمت رانت على الأجواء حتى تكلم بسيونى المحامى ليملأ الفراغ وكأنه الشيطان يعظ :

ـ نود ياحاج عبدالعاطى أن نطوى صفحة الماضى ، ونفتح صفحة جديدة نكون فيها أسرة واحدة ، وهاهو العمدة جاءك إلى دارك يمد لك يده بالخير .

ثم إلتفت نحو فاطمة قائلا بنفس النبرة الناعمة المستجدية :

ـ وهذا الكلام لك أيضا ياست فاطمة .. والله العظيم حضرة العمدة لايريد لك إلاالخير .. كل الخير .

قالت فاطمة بشىء من الشك :

ـ على كل حال .. شكرا ياعمدة .. وندعوا الله أن يظل العمدة يسعى فى الخير بدون مآرب أخرى .

رد عليها بسيونى مراوغا كعادته :

ـ نحن أهل وعائلة واحدة .. والعمدة يريد أن يكون خيره خيركم ، وماعنده عندكم ، ومايملكه تملكونه .

فهمت فاطمة مغزى كلامه المراوغ ،وأدركت مايرمى إليه هذا الثعلب الماكر الذى ينطق بلسان ولى نعمته .. لكنها لاذت بالصمت .. فالصمت خير من الكلام فى مثل هذه الأمور ..أما الحاج عبدالعاطى فقد هرش رأسه وعصف ذهنه عساه يفهم شيئا دون جدوى ثم قال بنبرة دبلوماسية :

ـ مافعلته اليوم ياعمدة ليس بغريب على آل أبودومة الكرام .. بيت أصيل وابن أصول ..والدك الله يرحمه له أفضال كثيرة على كل الناس فى بلدنا .

عندئذ تشجع فراج وقال بعد تردد :

ـ والله ياحاج عبدالعاطى أتمنى فعلا أن نكون عائلة واحدة لنا مالكم ولكم مالنا ، وأنت تعلم أننى حتى الآن لم أكمل نصف دينى ، وأحتاج إلى من تكون بجوارى فى رحلة الحياة ، والخير كثير والمال بدون حساب والأرض يرمح فيها الخيل بالساعات لايصل إلى منتهاها .. لمن يكون كل هذا ؟!

همت فاطمة أن تندفع كعادتها بعصبية وترتكب حماقة ، وربما تثور وتطرده فتكون العواقب على عكس مايشتهى والدها ، عندئذ أحس الحاج عبدالعاطى بمايدور فى نفس ابنته فقال بحكمة :

ـ يافاطمة .. اتركينا وحدنا من فضلك يابنيتى ..

خرجت غاضبة وملامحها تشى بالنار المكتومة فى أعماقها ، وقد أيقنت أن فراج وثعلبه الماكر يحاولان مساومة والدها ، وإن كان لايخفى الأمر عليه بخبرة السنين وحنكة الزمن ، وعمق التجارب أن ابنته قد نزعت صفحة الرجال من كتاب حياتها للأبد ، واكتفت من الجنس الخشن بواحد فقط ، ستعيش على ذكراه وفى رحاب ولديه حتى تلقى ربها ، وأبدا لن تستبدل المرحوم برجل آخر .

لن يتصرف معه بفظاظة ، ولن يصده بقسوة ،يخشى لوفعل ربما يمد فراج يده ويأخذ الشيكات والإيصالات ، ويخرج وتلك فرصة نادرة ولحظة تجلى لن تتكرر ، لذلك لن يتركها الحاج عبدالعاطى تهرب من بين يديه ليتحرر من عبء الديون !

دأب الرجل الحصيف أن يجارى فراج وشيطانه المحامى الداهية الذى يفكر له بعقل إبليس ، ويعتبره العمدة مستشاره الذى يثق فيه ثقة عمياء .

لابأس من الصبر وقليل من المراوغة حتى ينتهى اللقاء على خير ، وعندئذ ارتضى الحاج عبدالعاطى بالتلميحات الخفية والعلنية برغبته فى الزواج من فاطمة ، لم يقطع الرجل خيوط الأمل التى نسجها فراج لنفسه ، ولم ينطق بالكثير ..تماهى معه بكلام دبلوماسى .. لاأبدى موافقة ولاأبدى رفضا .

ولعل الكلمة إذا نطقها الرجل تكون قيدا حديديا حول رقبته ، ووعدا عليه تنفيذه ، فلم يقدم وعودا ولاعهودا ، بل كان لينا سهلا منبسطا ، وظل ينصت لهما ويجاريهما فحسب .. واكتفى بالقول :

ـ إن فاطمة أرملة الآن وظروفها صعبة وسأعرض عليها الأمر.

وبالفعل نجحت خطته ،وخرجا من الدار بسلام وصارت الإيصالات بحوزته وانتهى أمر الديون للأبد ، وأغلق وراءهما الباب بنفسه ،ثم تنهد بعمق كمن نجا من الهلاك ، وعلى الفور خرجت فاطمة منفعلة :

ـ ماذا يريد فراج مقابل التنازل عن ديونه ؟!

بوجه بشوش وصدر رحب وهدوء يفوق الوصف قال وهو يمزق الإيصالات :

ـ جاء من أجل هذه الأوراق .

ـ لايأبى .. ليس هذا غرضه الأساسى ..

قاطعها قائلا :

ـ يابنيتى .. أعرف كل مايدور فى رأسك .. لن أجبرك على شىء .. حياتك وأنت حرة عيشيها كما تشاءين .. الرسول الكريم يقول (لاتكرهوا البنات فإنهن الغاليات المؤنسات) وإنما كان لابد أن أتخلص من كابوس الديون ، والرجل جاء بقدميه إلى دارنا وانتهى الأمر .

ـ إياك ياأبى أن تظنه ملاكا بأجنحة .

ضحك الحاج عبدالعاطى قائلا :

ـ يافاطمة ليس على الأرض ملائكة ولاشياطين .. الأرض يسكنها البشر فقط .. والبشر فيهم الخير والشر .

ـ ومنذ متى عرف فراج أبودومة الخير أوسعى إليه أوحتى دعا إلى فعله ؟! هل نسيت مافعله مع صباح ومع رضوان عليهما رحمة من الله ، ومع الكثير غيرهما من أهل العزبة الذين اكتوا بنار طمعه وجشعه وشره ؟! اليوم جاء ليفعل الخير ويتنازل عن خمسين ألف جنيه .. لماذا ؟!

ـ لاحول ولاقوة إلابالله .. المؤمن لايخلو من الخير يابنتى ، ومافعله معنا منذ قليل أفضل دليل ..

قاطعته بحدة :

ـ يأأبى هذا فخ من تدبير وتخطيط شيطانه ومستشار السوء بسيونى .

ـ أعرف يافاطمة كل مايدور فى صدره ، وأعرف كل مايوسوس به شيطانه .. لكنى أخذت منه مأأريد ،ولم أعطه شيئا حتى الآن ،وخرج من دارنا راضيا ونحن أيضا .

ـ يأأبى .. هذه الزيارة الخبيثة سيكون لها مابعدها لأن فراج يخطط أن يلقى لنا الطعم ثم يتعامل معنا بمنطق الصياد بعد ذلك .

ـ اطمئنى فلن أفعل شيئا يغضب الله أويغضبك ،وأنا أعلم أنك قررت أن تكونى لرضوان فى الدنيا والآخرة ، وتكونى لولديك فقط فى هذه الحياة الدنيا .

ـ وفراج .. ماذا ستفعل معه ،وهو يظن أن اشترانا الآن بتنازله عن الخمسين ألف جنيه ؟!

بنبرة الواثق الحكيم قال :

ـ يافاطمة ..أنا أحاول أن أنزع سمه ، وأروضه كما يروضون الوحوش الضارية فى الغابات ، ثم يقبضون عليها ويضعونها فى أقفاص حديدية بحدائق الحيوانات ليتفرج عليها خلق الله أجمعين .

ـ لاتنسى يأأبى أنه العمدة ، والأذى طبع أصيل فى نفسه .

ـ أعرف أنه العمدة ياابنتى وله نفوذ وصولجان وكلمة مسموعة فى المركز والمديرية ، وأعرف أيضا أن وشاية منه للجهات الأمنية يمكن أن تزج بأى شخص وراء الشمس !

قفزت الأيام قفزات سريعة وكبيرة ، ورأت الأرملة توأمها يكبر أمام عينيها فألحقتهما بالمدرسة ، وتلك لحظة فارقة .. عندها أطلت الفرحة من عينيها ، وتراقصت على تقاسيم وجهها الخلاسى الجذاب ، وارتدى عز الدين وشرف الدين ثوب التعليم فى أول يوم ،احتضنتهما برفق حنون ، وسالت دمعة على خدها بعد أن طغى فرحها على حزنها ، وضج صبرها بالشكوى من الحبس الدائم فى صدرها ، طال الصبر وهى راسخة كالجبل ، تزأر فى صمت كالأسد الجسور .

يدها الناعمة لم تعد كذلك ، صارت أكثر خشونة من أيدى الرجال ، تغيرت فاطمة كثيرا ..عرفت العرق فى الحقول ، وتعلمت غرس الزروع وحصد الثمار ،وكل يوم فى حقل مختلف ، عاملة زراعة بالأجر ،وفى نهاية العمل أونهاية النهار تنال أجرها حفنة قليلة من الجنيهات تحميها من العوز ، وتقيها شر السؤال ، وترضى صغيريها وتلبى مطالبهما البسيطة لكنها أساسية !

أحيانا تعود لدارها مرهقة منهكة فى منتصف النهار ، وأحيانا أخرى تعود مهدودة مكدودة فى نهاية النهار ، لكنها تواصل العناية بتوأمها على خير مايرام ..تتولى أمرهما بمساعدة من أمها فى تدبير شئونهما من مأكل وملبس وقراءة فى كتب المدرسة ، وكتابة فى كراسات الواجب .. لكن لأن الحياة خطوط متعرجة ، وليست بريئة مستقيمة ، وفيها دوائر مغلقة ماكرة ، وفيها مصاعد ومهابط حلزونية فإن الإنسان يشعر فيها بالحيرة الدائمة ،ويظل فى أرق وكبد ولايهنأ بها كثيرا .

أحيانا تلاحقه المشاكل وتحاصره من كل صوب وحدب ، ويظل يدور فى الدوائر الماكرة المغلقة المستحكمة بلؤم ، أويركب مضطرا المصاعد والمهابط الحلزونية دون أن يستريح لا فى الصعود ولا فى الهبوط ، وأحيانا تجرى الأرملة مهرولة فى أكثر من اتجاه ، وقلقها على صغيريها بقلب أم لايقل عن قلق هاجر أم اسماعيل عليهما السلام فى صحراء الجزيرة العربية عند جبلى الصفا والمروة .

لم تكن تدرى الأرملة الحسناء أنها على موعد مع الشقاء ، وليس أمامها سوى المزارع الفسيحة والحقول الواسعة .. تلك بيئتها وعليها أن تنسجم معها .. أليس الإنسان ابن البيئة كما قال ابن خلدون ؟!

لم تكن تتوقع أن تضطرها الظروف ، وتلقى بها فى خضم بحر هائج مضطرب فى سبيل لقمة عيش لها ولولديها .. بل كانت تتمنى اعتزال الناس ، وانعزال الحزن والاعتكاف فى دارها تطوى أجنحتها على ذكرياتها ، وتبقى وحدها مع طيف حبيبها الذى لايفارقها وبجوارها صغيريها .. لاتريد من الدنيا والآخرة سوى هؤلاء الثلاثة .

وصدق الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حين قال :

- من اعتزل الناس سلم من أذاهم .

ورغم وجع القلب والخوف من المستقبل الغامض المجهول ، وفرار العمر من بين يديها بلاقلب حنون يحتويها إلا أنها تبدو صلبة العود ، وإن كانت لديها طاقة هائلة للحب لكنها مهدرة ، وليست فاطمة ذاتها فقط ، بل المرأة بصفة عامة كائن عاطفى يذوب عشقا من لمسة تقدير أو ايماءة حب أوهمسة عطف !

وإذا ظهرت المرأة على غير هذه الهيئة فإنها تعانى لاريب فى هذا ، ومع أن الجفاف العاطفى مكتسب وليس أصيلا فى خلاياها كما أنها لاتفضل أبدا العلاقة السرية - حتى ولوكانت زواجا - وتعتبرها اهانة علنية ، وتستهويها الكلمة الحلوة ، واللمسة الحانية ، والمشاعر الدافئة ، والقرب من الرجل الذى اختاره قلبها ، كل هذه الأمور الصغيرة تملأ ذاتها بالسعادة ،وتغمرها بنشوة تفوق كل شىء فى الحب ،كما أن الأرملة امرأة قدر لها أن تخسر رجلها فى مشوار الحياة ، والحياة كطائر لابد لها من جناحين كى تستمر وتستقيم .. هما الرجل والمرأة .. وبجناح واحد تتعثر وربما تسقط فى النهاية !

وموت الرجل ليس نهاية الحياة لأرملته ،وإنما بداية رحلة تحليق فى سماء الدنيا بجناح واحد !

ماأقسى حياة الأرملة بجناح واحد ، وماأضعفها فى مواجهة الرياح ، والرماح التى تنطلق من العيون الجارحة !

دائما هناك من يراقب ،وعيون الناس أكثر دقة من كاميرات المراقبة الحديثة ، ودائما الأرملة تحت المراقبة ، وكأنها شاة ضالة بلاصاحب ، ومن يستأثر بها يحظى بلبنها ولحمها وصوفها ! وتبقى الأرملة شفافة خائفة مرهفة ترتعد كلما سمعت أن هناك مشكلة .

انخرطت فى الزحام بين الفلاحين ، واندمجت فى مجتمع الرجال قبل النساء ، وتفاعلت معهم مضطرة لتطارد رزقها ، أويطاردها رزقها .. لأن الرزق نوعان .. (نوع تطارده ونوع يطاردك) كما قال الشيخ الشعراوى .

إن اشتباك فاطمة عبدالعاطى مع الحياة والحقول والفلاحين والفلاحات يبدد وحدتها ، ويكسرعزلتها ، ويمنعها من أن تكون مرتعا لوسوسة الشيطان .

ولعل الكدح اليومى مع أقرانها وقريناتها من الفقراء المعوزين يعد إسعافات أولية تضمد جرحها ، وتضمن سلامتها من أظافر الأيام وسهامها المارقة ، وتعينها على الصمود فى دهاليز الحياة بطرقها المتعرجة والحلزونية والدائرية .

فى الحقول كل شىء متاح مباح .. حرث الأرض وغرسها وزرعها وسقيها وحصاد ثمرها ، والمرأة كالأرض تماما وخلقت مثلها .. ولاينفصل عقل الرجل وتفكيره عن المرأة ، كما لاينفصل الزرع عن الأرض المغروس في طينها !

فى عزبة الحنكاتى أرملة عجوز اسمها وصيفة ، يطلقون عليها (أم الأرامل) وقارا واحتراما .. سمراء قصيرة طيبة القلب ، اشتعل رأسها شيبا منذ زمن ، وتجاوزت عقدها السابع بمراحل ، ولاأحد يدرى كم عمرها على وجه التحديد ، ترملت قبل أكثر من نصف قرن ، وعرفت طريقها حينها للعرق ،والكد فى الحقول والمزارع ، وكأنه طريق مقدس للأرامل ، وظلت هكذا سنوات وسنوات حتى كبر أولادها الخمسة ،وصاروا يسدون عين الشمس الحامية فى أغسطس ثم تحولت الست وصيفة بخبرة السنين من عاملة زراعية إلى مقاول ! .. كل مهمتها إرسال النسوة لأصحاب المزارع والحقول فى كل القرى والعزب المحيطة للعمل باليومية ، مقابل أن تحصل هى من صاحب الحقل على مبلغ زهيد مقابل كل امرأة .

أحبت فاطمة تلك المرأة كثيرا وارتاحت لها واعتبرتها أمها الثانية ، فقد كانت وصيفة لها قلب حنون يسع الدنيا كلها ، ونبرة صوت دافئة هامسة تدفع فاطمة لترتمى فى حضنها وتبكى .

ولم تكن الست وصيفة تختلف كثيرا عن فاطمة ، فالقلوب جنود مجندة ، وسرعان ماتآلفت معها لأنها تذكرها بمأساتها فى رحلة حياتها ، وترى وصيفة فى فاطمة شبابها الذى ولى ! ولايخفى على وصيفة بتجربتها الطويلة أن فاطمة ليست مثل غيرها من الأرامل ، ولاتشبه أحدا منهن على الإطلاق .

تراها شابة فتية يافعة فاتنة ،لها سر آسر لكل من يراها أويقترب منها من الرجال والنساء على حد سواء .. سبحان من صورها وأبدع صورتها وزينها بخلق قويم .

وأدركت الأرملة العجوز الشمطاء بحنكة السنين التى قضتها عاملة فى الحقول محنية الظهر تزرع وتحصد أن فاطمة بهذا الجمال والدلال لن تسلم من أصحاب الحقول ،لأنها ثمرة شهية نضجت على غصنها ،وحان وقت قطافها .. لكنها تأبى القطاف ، فهل هذا الجمال البرىء الجرىء سيجد من هو أجرأ منه ليمد يده متطاولا عليه عساه يقطف منه شيئا ؟!

همست لها المرأة العجوز ، وهى تجلس إلى جوارها تستريح ذات نهار حار تستظل تحت شجرة توت عالية على رأس مزرعة خضراء شاسعة :

ـ يافاطمة .. أخشى عليك من ذئاب الحقول وثعالبها !

ببراءة وسذاجة سألتها الأرملة الشابة :

ـ ماذا تقصدين ياخالة وصيفة ؟!

ـ يافاطمة .. والله ماكنت فى جمالك أبدا حين كنت فى شبابى ، ولم أسلم من مطاردة الذئاب البشرية فى كل الحقول والمزارع ، وحين كنت أصد أحدهم وأكشر له عن أنيابى ، يغير خطته ويلجأ إلى الإغراء والإغواء .. وإذا تمنعت وتحصنت يطلب عدم الإستعانة بى للعمل عنده مرة أخرى ويقطع رزقى ! فالرجال لورغبوا فيك وتمنعت عنهم لسدوا فى وجهك كل أبواب الدنيا ، ولواستسلمت لهم لنالوا مايريدون منك وفروا كاللصوص !

ـ ومالعمل ياخالة ؟!

ـ الرجال يابنتى ليسوا رجالا كما ترينهم .. فهذه الصور خادعة .. هم ذئاب متنكرة فى صور رجال ، ويخفون أنيابهم تحت لسانهم الذى يقطر كلاما معسولا لكل امرأة يفكرون فى افتراسها ! فاحذرى يابنيتى .

ـ ياخالة وصيفة .. لم أفهم شيئا مما تقولين عن الذئاب الرجال أوالرجال الذئاب ؟!

- أنت جميلة يافاطمة ..وجمالك هذا ربما يجلب لك المتاعب .. سامحك الله يارضوان .. رحلت قبل الأوان وتركت الربيع بورده يذبل على الأغصان ، وأظنه رحل دون أن يشبع من نهر العسل الذى وهبه الله إياه ..اعلمى ياابنتى أن فتنتك التى هى نعمة ربما تكون لعنة !

شهقت وسألتها بدهشة :

- ماهذا الكلام الغريب ياخالة وصيفة ؟!

- آه يافاطمة .. لوكان فى هذه الدنيا عدل لكان جمالك هذا منعما فى مخدع أمير أوفى قصر وزير .. لكن أين العدل على الأرض ؟! إن الزمان يجرى بغير قياس ، والأقدار تسيرعلى غير مايهوى الأحرار .. آه يافاطمة لوتعلمين ماذا يمكن أن يفعله سحر عينيك الواسعتين السوداوين فى الرجال ؟! آه من الضوء حين يخالطهما ، ويتسلل إلى عمقهما اللانهائى ، ولسوف تتسرب منهما الفتنة لتنتشر فى كل الحقول وكل القلوب ، عندئذ يسجد لك الرجال المغرمين بجمالك ، ويركع لك ملاك المال والأرض ، يتعبدون فى حسنك ويلتمسون نظرة عطف ، ومن شفتيك المحمرتين بلون البلح حين يحين قطافه ، ويكاد النحل يقبلهما من فرط العسل !

يافاطمة احذرى من شعرك الناعم الطويل الحريرى الغجرى أن يلمحه رجل فيحلم بأن يدس أصابعه بين خصلاته ، ويسبح بين أمواجه .

عادت العجوز المجربة التى خبرت الحياة والناس تبتسم وهى تحملق فى فاطمة ، ورأتها واثقة من نفسها .. طاهرة بريئة عفيفة نظيفة كأنها تغتسل بماء العطر كل صباح ، لاتخشى شيئا ولاتخاف ماتخافه الخالة وصيفة ، تبدو هادئة وديعة كأنها مازالت طفلة فى حضن أمها ثم قالت بعفوية :

- برحيل رضوان ودعت كل الرجال ، واعتزلت ملاعبهم تماما ياخالة وصيفة ! ولم يعد لى سوى عزالدين وشرف الدين هما كل حياتى .

تنهدت العجوز وغمغت بصوت طيب حنون وقلب عطوف :

- لقد اخترت لنفسك طريق الأشواك يافاطمة .. طريق الألغام يابنيتى .. أنا عشت كل الحياة بطولها وعرضها ، ورأيت كل مافيها ، وفهمت مكرها ، وأدركت كل ألاعيبها ، ولذلك أقول لك وأنا امرأة مثلك وأرملة أكبر منك سنا ، سبقتك بالسير فى نفس الطريق الذى قررت أنت السير فيه .. إن المرأة فى الحب تخلص لحبها دون سواه ،والأرملة تكون أقوى من الزمن حين تتمسك بحبها ، وتكافح من أجل صغارها .. أما الرجل إذا أحب وتمكن الحب من قلبه فيخلص لحبه لأنه سأم من الخيانة ! هذا قدرنا نحن القوارير .. وتبقى الدنيا قلب الرجل .. بينما يبقى القلب دنيا المرأة !

****

(34)

طوبى للفقراء ،ولاعزاء لهم فى هذه الدنيا ،ولوكان الفقر رجلا لاستحق القتل مع سبق الإصرار والترصد ..ولاشك أن ضيق الحال ، وقصر اليد دفعها لخوض غمار الكفاح مثل الرجال ،ولم لا وغياب رجل الدار ترك وراءه مالايحمد عقباه عاطفيا ونفسيا وماديا ! تلك هى قضية الأرملة وكل أرملة منذ خلق الله حواء .

ترك رضوان أهوالا خلفه ورحل آمنا مطمئنا إلى أن الله لن يضيعهم .

تسعى الأرملة الشابة لاستنهاض همتها واستجماع قوتها لأداء واجبها المقدس تجاه توأمها ، وسلاحها عزيمتها بعد صدمة الفراق ،والتعافى رويدا رويدا من الإنكسار .

لأحد فى عائلتها يقدر على إعالتها هى وطفليها لأنهم بالكاد يعيشون على حد الكفاف ، ويدبرون قوت يومهم بصعوبة ،فكيف لهم بأفواه ثلاثة أخرى ؟! وهكذا حال عائلة زوجها المرحوم رضوان .

لم تنس فاطمة عهدها لنفسها ولولديها ولروح زوجها أن تمضى فى طريقها لإنقاذ قارب أسرتها الصغيرة من الهلاك ، وسط أمواج الحياة العاتية ،ستمضى فى هذه الظروف رغم كل شىء ، وستمشى على الأشواك كراهبة مخلصة لقلبها ولفلذات كبدها .

لن تستسلم للضعف الأنثوى ، ولن تستسلم لسطوة العوز ، وبرغم أن لاشىء يؤنس وحدتها ، ويخفف صدمتها سوى كلمات من هنا أوهناك لاتغنى عن مرارة الواقع شيئا .

تجاوزت الأرملة الحسناء مع الأيام نوبات البكاء والاكتئاب والأرق الليلى والعزلة والانطواء ،تخطت حاجز النكران لماحدث .. وتقبلت الأمر وارتضت بالمكتوب ، وليس أمامها سوى الاشتباك مع الواقع ،والتعاطى مع الحياة بخيرها وشرها ، شمرت عن ساعديها ، وشحنت بطارية همتها ، وخلعت ثوب الترمل ، وارتدت ثوب النضال .

نزلت الميدان بإرادة من فولاذ ، وعليها أن تظل متمسكة بحب الحياة مهما فعلت الحياة معها ، من أجل ولديها على الأقل ، فالحب يسرى كالعدوى فى النفوس ، كما تسرى عدوى الكراهية .. النفس البشرية قطعة اسفنجية تمتص كل شىء .

وهى لاتريد لتوأمها أن يشعرا بشىء من ألام الأم ..وليس أمامها سوى أن تتعالى على جراحها ،ولاتفقد إيمانها بأن السماء ماتأخذ شيئا إلا لتعطى أفضل منه ، وأن الله لوأغلق فى وجهها بابا من فضة سيفتح لها عوضا عنه بابا من ذهب .. أيقنت ذلك ، ولم تطلب من الله سوى أن يلهمها الصبر ويمنحها الستر .

لم يكن طريقها سهلا ولامفروشا بالورد ،وإن انطلقت فى رحلة الكفاح تعمل فى قطاف العنب والبرتقال وغيرها من الفواكه فى البساتين ، وجمع القطن فى موسم حصاده وغيره من المحاصيل ، ووضعت نصب عينيها ولديها ،وكيف تمضى بهما فى مشوار التعليم إلى الجامعة ؟!

فلاشىء يرفع قدر الفقراء سوى العلم ، والشهادة سلاح ينتصران به على هذا العدو الذى ينهش البؤساء ، ويحولهم إلى كائنات تعيسة !

تستيقظ من فراشها كل نهارعند بزوغ الفجر لتدبر شئون دارها ، وتعد إفطار ولديها قبل الذهاب إلى المدرسة ، وعندما تطمئن عليهما تنطلق إلى الغيطان والمزارع حيث حددت لها الخالة وصيفة قبلتها ، وكل يوم فى حقل مختلف ، هكذا الرزق ليس له باب واحد ثابت ، بل أبواب متعددة متغيرة .

تبدو راضية إلى حد بعيد .. ليست ناقمة ولاغاضبة .. فكل شىء يولد صغيرا ثم يكبر إلا الحزن يولد عملاقا ثم يصير قزما مع الأيام .

بدت مستعدة للتضحية من أجل يصبح توأمها شيئا مذكورا له قيمة فى هذه الحياة .

فى كل ليلة تمرعليها الخالة وصيفة فتعطيها الوصف الدقيق بخريطة شفوية للحقل المراد العمل فيه صباح اليوم التالى ، تتوه أحيانا بين الحقول ،وتضل الطريق أحيانا أخرى لكن يصل إلى مبتغاه من لم يعدم السؤال .

ولايفوت الخالة وصيفة أن تزيدها وتزودها بالمعلومات عن صاحب الحقل وظروفه وإمكانياته وأخلاقه ، وتشرح لها طبيعة عملها والمحصول الذى ينتظر أناملها - التى كانت ناعمة - لتقطفه من أغصانه ،بعد أن طرحته الأرض السوداء من بطنها بأمر ربها .

إن صوم الأرملة عن الحب شىء صعب أقرب مايكون إلى الموت ! محنة حقيقية ، ويمثل هذا الصوم الإجبارى اختبارا قاسيا من الشغف والحرمان ، وتشعر فاطمة فى كثير من الأحيان بأن بركانا من لهب فوار يشتعل بين ضلوعها نهارا ولاينطفىء ليلا .

تهاجمها الأحلام الوردية ، وخيالات الحب الرومانسية .. ترى حبيبها الغائب الحاضر ولاتراه ..تحاول أن تلمسه بيديها أوتأخذه فى حضنها فيتلاشى كسراب من عدم .

لابأس عليها فقد صارت لديها قناعة بأن كل الرجال ماتوا بموت رضوان ، ولم يعد فى الحياة أى رجل ، وماتراهم فى الحقول والمزارع والشوارع ماهم إلا مجرد صور كارتونية وأشباح هلامية ، وخيالات ليست حقيقية من دم ولحم !

تخطت بالصبر والإيمان حاجز الحرمان الأكبر، ولم يعد لها سوى القليل ،لكن كل يوم يمر عليها هو يوم أكثر مرارة من سلفه لأنها ببساطة تحس أنها تفقد ريشة من جناحيها ، ومع ذلك تكسب أرضا جديدة ،وتطير لحقول بعيدة ومزارع عديدة لم تكن تعرفها من قبل .

وبدأت تكتشف ذاتها وتعرف مناطق قوتها المجهولة ، فما أعجب النفس البشرية ، وسبحان من ألهمها فجورها وتقواها .. أدركت أن اللاوعى فى نفسها يقيها ضراوة الحرمان ، كما أن الجسد يتماهى مع النفس ،ولايعمل بمعزل عنها بل يشاركها كل شىء بانسجام تام ..يخدر الجسد نفسه ويتحصن ضد لحظات ضعفه ،وينغلق على ذاته ، ثم يسترسل فى ثباته ببطء وصبر .

تدرك الأرملة الصغيرة الفاتنة الشابة مواطن ضعفها ،وتدفع ثمن حنينها للذى كان ، وتنسى وتتناسى للأبد مذاق الحب اللهم إلا إذا زارها رضوان فى حلم عابر ، عندئذ فلابأس من استعادة شىء من غرام الماضى .

لكنها أبدا لن تتراجع عن قرارها مهما كانت الظروف قاهرة ،فالحب اختيار والوفاء اختيار .. والغدر هو العار .

تؤمن بأنها خلقت من تراب ،وليست قديسة خلقت من نور كالملائكة ..هذا قدر البشر أن يكونوا من تراب وإلى تراب ، لكنها نذرت نفسها لحبها الراقد فى قبر ليس ببعيد عنها على أطراف العزبة ، وتحس به يراها ، وروحه تحوم حولها فى كل وقت وحين .

ولم تكتف بالحداد على حبها المدة الشرعية للأرملة ، بل هى فى حداد طويل مستمر عليه إلى يوم تلقاه ..ليس الحداد على رضوان فقط ، بل الحداد على قلبها وروحها وجمالها وشبابها .. لابأس من الحداد .. حداد حداد إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا !

تراودها الذكريات ، وتكاد تقتلها الخيالات .. وتسيل دموعها فى كثير من الليالى بعد أن ينام التوأم ، وذات ليلة رأت نفسها فى فستان زفاف أبيض ،وحولها ورود كثيرة والأهل والأقارب وكل بنات العزبة فى حالة فرح وتهليل لها ، وعندما نظرت إلى جوارها رأت عريسا آخر غير رضوان .. لم تتعرف على ملامحه كان باهتا مطموس الوجه وربما بلا وجه من الأصل .

استغربت مارأت واستنكرت ماحدث ، وخجلت من نفسها ، ولامت روحها على حلم راودها بغير إرادتها ، عانت كثيرا لكنها أبدا لن تحل ضفائرها لرجل آخر بعد رضوان .

تكتم أنينها بين ضلوعها ،وتخفى أحلامها الغريبة المدهشة أحيانا.. والمخجلة أحيانا أخرى ، ولاتفشى سرها لمخلوق ، ولاتبوح بأحوالها وأحلامها إلا لربها .. هو وحده المطلع على سرها وسريرتها ، إليه وحده تشكو وترفع أمرها ، وتفضى بمافى صدرها ، وتظل تذكره كثيرا حتى يطمئن قلبها ، وتهدأ روحها وتنام جوارحها .

إن المرأة كالقمر تعكس ضوء الرجل الذى تحب ،والأرملة العاشقة كالبدر فى تمام ليله تضىء الشموع والنجوم من حولها تخليدا لذكرى زوجها ، كما تضىء الدنيا كلها لمن تبقى على قيد الحياة من نسله وأثره !

ذات نهار خريفى مشمس مشرق ، هبت ريح حانية حارة قليلا، وفى حقل العنب الأخضر المفعم بعناقيد اللذة كانت فاطمة منهمكة منذ الصباح الباكر مع قريناتها فى الحصاد ، وعلى وجوههن البائسة ابتسامة هائمة ، حالهن لايختلف عن حالها ، هن جميعا بائسات معدمات يلاحقن العوز مثل معظم النسوة فى القرى والعزب والنجوع .. نفر قليل متخم بالمال هادىء البال ، والكثير فى أتعس حال .

ليست عزبة الحنكاتى وحدها .. بل هكذا حال الأرياف كلها فى برالمحروسة من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها ولاينكر ذلك إلا أعور !

كان حقل العنب الذى لايقل عن عشرين فدانا فى (عزبة زكى) التى تبعد عشرة كيلومترات عن عزبة الحنكاتى مملوكا لرجل أعمال من أكابر المديرية يدعى زكى المغربى ، وفى هذا اليوم الخريفى المتقلب جاء ابنه مروان وهو شاب عشرينى العمر طويل الشعر مسترسله ليغطى أذنيه ، ويرتدى البنطلون الجينز والحذاء الكوتش الخفيف ، ويبدو مستدير الوجه متورد الخدين يشى بالعز والثراء وحسن الاهتمام بنوع الغذاء .

حين نزل الفتى الوسيم من سيارته المرسيدس السوداء الفارهة ، ودخل مسرعا إلى الاستراحة المريحة المطلة على حقل العنب ،وقف فى الشرفة يتطلع فى الفضاء الواسع الأخضر المحمل بعناقيد من النبيذ .

ويبدو أن النظر محدود مهما بلغت قدرته ، والأرض بأشجارها ممتدة إلى أبعد مدى ،والعين صغيرة قصيرة الخطوة فكيف لها أن تقطع كل المسافات ، وتبلغ كل الغايات ؟!

أمسك مروان منظارا للرؤية كأنه قائد عسكرى يتابع جنوده ،ويستطلع أرض المعركة ، فرأى النسوة العاملات فى حقوله وبساتينه ، وهن يحملن الأقفاص المملوءة بالعناقيد ، ويتراقصن فى سيرهن ذهابا وإيابا كأنهن عارضات أزياء ، أوراقصات فى فرقة رضا للفنون الشعبية .

لم يخبره المنظار الخبيث الذى يكبر الأشياء ، ويقرب الأجسام بشىء لافت للنظر ،وفجأة لم يستطع المنظار الجبار أن يكتم السر ، ووشى بالأرملة الحسناء وأفشى له سرها ،رصدها ورأى رشاقة عودها الملفوف ، وتأمل غصنها الممشوق فرآها ملكة مرفوعة الرأس مثل ملكة فرعونية فى جلباب فلاحة .

أعاد النظر والتدقيق من منظاره فرأى امرأة جميلة كاملة الأنوثة فى جلباب بلدى باهت اللون مزركش بالورود ، وفوق رأسها إيشارب فيها ألوان متعددة متداخلة كموج البحر ، وخصلات من شعرها الحريرى تتسلل ـ سهوا أوعمدا ـ من تحت قبضة الإيشارب لتزيدها فتنة وبهاء .

استدعى أبوالعزم حارس حقل العنب وسأله عنها فقال الرجل :

ـ إنها فاطمة عبدالعاطى .. من عزبة الحنكاتى .

ـ وماذا عن ظروفها ياأبوالعزم ؟!

ـ أرملة شابة رحل زوجها فجأة حين سقط من فوق نخلة ، ولديها ولدين توأم ، وظروفها بؤس وحالتها كرب .

- تبدو لى مثل جوهرة نادرة يغطيها قليل من الغبار !

أحس أبوالعزم بمافى نفس الفتى الأرعن ولى نعمته ، ورأى فى نظراته الإعجاب الجنونى بها فقال :

- والله يامروان باشا هى أجمل امرأة وضعت قدمها فى حقل العنب منذ أكثر من 30 سنة .

ضحك مروان وقال :

- يارجل ياعجوز .. والله معك حق .. بالفعل هى أجمل عنقود عنب يمكن للمرء أن يقطفه فى حياته .

تنهد الرجل العجوز ،وكأنه يتحسر على شبابه الذى غرب ، ويتذكر أيام عنفوانه ومطاردته للنساء مثل هذا الفتى المتهور المهووس بالفاتنات حتى لوكانت خادمة فى حظيرة ماشية !

ثم استأذن منصرفا ليتابع عمله .. بينما مروان مد يده يصفف شعره فى مرآة أمامه ،ويتأمل ملامحه اعجابا بذاته وقسماته ثم قال قبل أن يغادر أبوالعزم عتبة الإستراحة :

- اسمع ياأبوالعزم .. الإستراحة كما ترى كلها تراب وغبار ، وتحتاج للنظافة .. عندما تنتهى تلك الأرملة من قطف العنب ،ويحين موعد مغادرتها أريدها هنا كى تنظف الإستراحة وسأعطيها أكثر مما تريد .. لاتنسى ياأبوالعزم .. أخبرها أن المسألة كلها تستغرق نصف ساعة فقط بأجر كبير جدا .

هز الرجل العجوز رأسه وقد فهم مايرمى إليه هذا الطائش رهين نزواته ،وأسير غزواته ثم قال بخنوع :

- أمرك ياسيدى .. مفهوم مفهوم .

واستدار إلى الوراء منصرفا إلى الحقل لكى يتابع سير العمل ، وفى رأسه يدور السيناريو الذى رسمه مروان ويعلم ماتوسوس به نفسه ، وكأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، فالأمر ليس فيه جديد ، وقد فعلها أكثر من مرة مع أكثر من امرأة ، وبمجرد أن تقضى معه نصف ساعة فقط فى الإستراحة تخرج محملة بمبلغ كبير لم تكن تحلم به ، مبلغ يعادل عملها لمدة سنة فى الحقول أوأكثر ، وكل أنثى وذكائها مع هذا الفتى المدلل .

حان وقت الأصيل .. خيوط الشمس الذهبية الطويلة اللامعة تضفى على الأشياء أشكالا غير أشكالها ، وملامح غير ملامحها ، بينما يجلس مروان زكى فى شرفته المطلة على الحقول من الناحية الشرقية .. بعيون ذئب قليل الصبر يرصد فريسته حتى يحين موعده معها ،لابأس فالصبر نصف الأحلام ،وتحقيقها النصف الآخر ، ولاشىء مستحيل مع الصبر والإرادة .

يراقب ويراقب ..لايكل ولايمل فالهدف كبير والصيد ثمين ، وتسرح نظراته وتمرح وتستريح فى خضرة الحقول وروعة البساتين ، ومازالت عناقيد العنب على صدور الشجر مثل نهود العذارى ، نافرة مستنفرة تنتظر اليد القاطفة لقناص بارع قبل أن يتحول العنب إلى خمر يسر الشفاه ويسكر العقول ، ويذهب بالعقلاء إلى أبعد مدى من الجنون !

تسرح نظراته ، وتغزو عيناه المساحات البكر اللانهائية من الأخضر الزاهى المترامى ، وفى البعيد تعانق خضرة الأخضر زرقة السماء !

نبتت فى ذهنه تلك الفكرة الهوجاء ، وتأهب للحظات سعيدة من المتعة التى تسكر أكثر من النبيذ المعتق آلاف السنين ، ستأتيه المتعة بلاحدود ، وسيدخل الجنة العذراء على يد هذه الأرملة الحسناء ، سيحدث هذا بعد وقت قليل حين تأتيه تلك الحورية المتنكرة فى جلباب فلاحة تدعى فاطمة .. كما قال له حارس المزرعة العجوز أبوالعزم ، حتما ستأتيه إلى استراحته التى يطلق عليها وكر الغرام .. وكثيرا ماجاء بحوريات من المدينة إلى

هذا المكان الهادىء الساحر المنعزل عن العيون والبعيد عن ضجيج المدينة ، وفى كل مرة يأتى بحورية تختلف عن الأخرى فى الشكل واللون والسمات ، كلهن جميلات وكل شىء مباح ومتاح أمام سلطان جبار اسمه المال !

ويؤمن مروان ـ الفتى المدلل والوريث الموعود بثروة والده المليونير زكى المغربى ـ أن المال واللسان المعسول وقليل من الصبر والدأب يبلغ به مايريد ، لاشىء مستحيل .. كل الرقاب تنحنى أمام الجنيه ، وكل النفوس تعبد المال .

وأثبتت له التجارب أن الأنثى مثل قطعة الشيكولاته لن تصمد أمام حرارة الحب وحلو الكلام ، والوعود البراقة بدخول جنة الغرام !.. عندئذ تستجيب وعلى الفور تذوب بين يديه ، وعشقه للشيكولاته بلاحدود سواء كانت صلبة أوسائلة !

ينهض من مكانه الخطير ، ويترك شرفته مؤقتا ، ثم يضع منظاره على منضدة أمامه ، ويمد يده يغلق الراديو الذى تنبعث منه موسيقى هادئة تتلوها أغانى ناعمة .

يدخل الحمام يغتسل تمام الاغتسال حين يلقى بجسده فى البانيو ، وينفض بالماء الفاتر كل ماعلق به ، يغمر نفسه فى الماء حتى يشعر بالإنتعاش ، ثم ينهض وصورة فاطمة لاتفارق خياله ، يجفف جسده ويلف نفسه بفوطة قطنية كبيرة صناعة محلية بالمحلة الكبرى !

ارتدى ملابس أخرى جديدة ، ترك ملابس المدينة ، ووضع نفسه فى جلباب فلاحى فضفاض مثل جلباب العمدة .. إذا كنت فى روما فإفعل كما يفعل أهل روما ، جلباب رمادى نظيف مكوى بعناية ،مفتوح الصدر واسع الأكمام ، ومن تحته صديرى أبيض ناصع ، ثم عاد إلى المرآة يصفف شعره الطويل المسترسل على كتفيه مثل البنات ، ويتعطر بعطر فرنسى له رائحة نفاذة خلابة .

يجلس فى استرخاء تام على كنبة أنتريه مريح مادا قدميه على آخرهما بأريحية ، وعقله يعمل كطواحين الهواء ، يفكر فى عنقود العنب الذى ينتظره بلهفة المحروم ، ويتطلع بشغف الجائع أن يلتهمه اليوم ، ويمتص نبيذه الطبيعى عن آخره .

تنهد قائلا بكلمات ذات مغزى :

ـ آه من العنب البناتى فى الأرياف ما ألذه من مذاق .

جاء بحبات كثيرة من العنب فصيلة بنات المدينة .. القاهرة .. المنصورة .. المحلة الكبرى ..مأأجملهن .. لكن هذه المرة .. سيكون عنقود العنب طازجا من الشجر إلى الشفاه .. ينتابه هذه المرة احساس مبهم كما لوكان سينزل النهر لأول مرة .. لقد مل من المتشبهات بالأوربيات الأنيقات المتعطرات وسأم من المتبرجات بالألوان والأصباغ .

هذه المرة يريد عنقود العنب طازجا من فوق الشجرة رأسا ، قبل أن تلتهمه المصانع والألات وتحوله الأصباغ والألوان والمواد الحافظة إلى مسكرات !

لايبغاه مصنعا وإنما يريده طبيعيا كما خلقه الله بدون مواد حافظة أوإضافات سكرية أوكيماوية .

هاهو يسمع وقع خطوات بطيئة خجلى على درج الإستراحة ، لابد أنها جاءت بقدميها إلى وكره المفضل ، تأهب لترقب وصولها ، فإذا بأبوالعزم يدخل عليه الإستراحة قبلها بخطوات ، ثم ينادى عليه ، ويخبره بأن فاطمة معه ، ومستعدة لتنظيف الإستراحة على أكمل وجه يتمناه ، حملق الفتى فيها كأنه يرى امرأة جميلة لأول مرة فى حياته ،ورأى كل جمال النساء قد تلاقى فى وجهها بأمرالإله ، ثم قال مبتهلا وهو يتأملها من أقدامها حتى رأسها ، وعطره الفواح يملأ المكان ويعبء خياشيمها :

- ماشاء الله .. فاطمة .. اسم جميل .. وشكل أجمل .. سبحان من صور .

استقرت على وجهها ابتسامة خجل كالعذارى ، وخبأت نصف وجهها أويزيد بفائض من إيشارب رأسها ، بينما تدور فى ذهنه الثعلبى أمور يحاول أن يرتبها .. وبعد لحظات قالت مضطربة بصوت خفيض ونظراته لاتفارقها :

- ربنا يكرمك ياسعادة الباشا .. أنا فى الخدمة .

مد مروان يده وأعطى أبوالعزم ورقة مالية كبيرة ، وأشار له أن ينصرف لعمله ، ويغلق الباب خلفه ، فعل الرجل ونفذ الأوامر مستسلما ،وهو يدرى ماذا سيحدث بعد دقائق من خروجه واغلاقه للباب ؟!

بدت فاطمة متأهبة للمهمة التى استدعاها من أجلها، لكنها لاتعلم الغيب ولاتكشف ماتخفى الصدور ، وقبل أن تبدأ عملها فوجئت به يطلب منها الجلوس إلى جواره على كنبة الأنتريه المريح للحديث معها قليلا .. فقالت بشىء من الشك :

- أريد أن أبدأ لأنتهى من تنظيف الإستراحة بسرعة قبل أن يسرقنى الوقت ، ويداهمنى الليل ،وبلدنا بعيدة عن هنا .. أريد أن ألحق بزميلاتى فى الطريق قبل العتمة .

- لاتتعجلى يافاطمة .. اجلسى الوقت مازال مبكرا ، وأنا سأوصلك بسيارتى حتى باب دارك ..لاتقلقى .

- ربنا يكرمك يامروان باشا .. لكن أنا هنا عاملة ولست ضيفة .

نظر إليها نظرة فهمت مافيها ، وأدركت مافى صدره بحس الأنثى ، وفى أعماقها جهاز حساس قادر على كشف خبث نية أى رجل .

وفجأة وقف منتصبا من مكانه واتجه نحو الباب ثم أغلقه بالمفتاح ، ووضع المفتاح فى جيبه ودخل المطبخ وعاد حاملا فى يده زجاجة معبأة بمشروب أحمر اللون ، وظل يتجرع منه على دفعات ، وألح عليها أن ترتاح قليلا فاستجابت له على مضض ،وأدركت أنه نصب لها فخا محكما ، وعليها أن تحسن التصرف حتى تنجو بنفسها.

عندئذ جلست وفى عينيها وميض غريب متيقظ مثل قطة شرسة على وشك أن تخوض معركة مع ذئب أكثر شراسة ، كانت تتأمله بحرص وحذر خشية أن ينقض عليها ويباغتها بماتكره ،ثم نظرت خلفها نحو الباب ولاأحد يغيثها من هذا الذئب ، وبالطبع ذهب أبوالعزم ،ولن يعود فرحا بالورقة المالية الكبيرة ، لقد باعها هذا العجوز اللعين الديوس .. لاأحد هنا سوى هى وهذا الفتى المدلل وثالثهما الشيطان !

ولوأرادت أن تفلت من هنا دون أن يمسها بسوء عليها أن تهزم مروان والشيطان دفعة واحدة .

وفور أن انتهى من تجرع زجاجته ،وضعها بلامبالاة فى ركن قصى من الإستراحة ، وبدا محمر العينين زائغ البصر يقترب منها كالمجنون ثم قال :

- أريدك يافاطمة .. أريدك الآن .

تراجعت عدة خطوات للوراء .. وهتفت باستجداء :

- لا .. يامروان ياباشا .. لا أنا أرملة ولن يمسنى رجل آخر بعد المرحوم زوجى .. هذا عهد بينى وبين الله .

اقترب منها أكثر وحاول أن يضمها فتراجعت عدة خطوات أخرى ، وقال متوسلا هامسا :

- حرام عليك أن تحرمى جمالك هذا من الحياة يافاطمة .. الحى أبقى من الميت .. لاتدفنى نفسك مع شخص مات .. أنت فاتنة وأريدك لى ، وسأعطيك مالا يكفيك أن تعيشى فى نعيم إلى يوم الدين .

أحست بالرعب ونظرت نحو الباب ولعنت أبوالعزم فى سرها وقالت باستعطاف :

- اتركنى فى حالى يامروان باشا .. أنا أرملة مسكينة أسعى على توأم يتيم ،ولن أفعل شيئا يغضب الله ولودفعت لى مال قارون .

- لن تخرجى من هنا كما دخلت ..أتفهمين يافاطمة ؟!

تغيرت ملامحها وكسا الغضب وجهها وقالت بتحد وعناد :

- يبدو أنك أخطأت العنوان هذه المرة .. فلست أنا المرأة التى تبيع نفسها بمال الدنيا كله .

هجم عيها كوحش جائع يحاول أن يحتضنها ويقبلها ، دفعته بقوة واتجهت نحو الباب ، فمد يده وجذبها بعنف من جلبابها القديم المهترىء فتمزق الجلباب من الخلف ، وظهر من تحته قميص نومها الوردى فهاج الفتى ، وأصبح كالكلب المسعور ، وعاود احتضانها من الخلف رغما عنها فحاولت الفرار منه فى أركان الإستراحة ، وطاردها باصرار وجرى وراءها فى كل ركن وزاوية حتى سقطت على الأرض أمامه ، وفى عيونها فزع لامثيل له ، وقد استنفرت كل قواها لأنها أدركت أنها أمام مسألة حياة بشرف أوموت بشرف لاثالث لهما !

دفعته بقدميها ويديها وهو يحاول أن ينهش لحمها بأنيابه ، وعندما أمسك بها ،وتمكن منها طاف بقبلاته على وجهها وعنقها لكنها سرعان ما دفعته بقوة وتخلصت منه ، وصفعته على وجهه بأناملها الرفيعة الرقيقة بقوة رهيبة لم تكن تدرى أنها موجودة فيها .. وصرخت بأعلى صوتها لعل أحدا يسمعها فينقذها :

- اتركنى ياسافل .. لن تمسنى حتى ولوقتلتنى .. سأعيش وأموت بشرفى حتى ألقى زوجى عند ربى .

بدت ممزقة الثياب وصدرها عار ، وأجزاء من ظهرها ، وتحاول أن تستر نفسها قدر المستطاع ، وقد تمزق جلبابها .

وفجأة نهض من على الأرض كى ينقض عليها مجددا بعد أن أفاق من لطمته ، وأدرك أنها قطة شرسة قوية لن تسلم له نفسها بسهولة كما كان يظن ، ولن ترضخ لنداء الإغراء بالمال .

عندئذ تحفزت من جديد لجولة أخرى من هذه المصارعة الحرة ، وتلفتت حولها تبحث عن شىء تدافع به عن نفسها ، فلم تجد سوى الزجاجة التى تجرعها منذ قليل ، مدت يدها التقطتها ، وضربتها فى الحائط فتهشم نصفها العلوى ، وظل النصف الآخر فى يدها له أسنان حادة مثل رؤوس السكاكين المدببة ، ووضعتها بكل جرأة وجسارة على رقبته وصاحت :

- سأقتلك الآن ..

فزع الفتى وجزع وأحس أنه أمام امرأة مجنونة وربما تتهور وتقتله ،وكادت أسنان الزجاجة المهشمة أن تدخل فى رقبته ، وتنغرس فى عروقه النافرة من الخوف والهلع ، وحاول أن يبتعد عن مرمى سلاحها فلم تتركه ينجو من سيطرتها وقالت بنبرة آمرة مستنكرة :

- أعطنى المفتاح .. أين المفتاح ؟!

مد يده المرتجفة وناولها المفتاح ، عندئذ ابتعدت عنه وتوجهت نحو الباب ، بينما جلس هو على الأنتريه يلهث وشعره منكوش مهووش ، وأنفاسه متقطعة لاهثة، لايصدق مافعلته هذه المرأة التى تبدو هشة رقيقة ناعمة لكن الحقيقة غير ذلك تماما .. بدت حادة صلبة كشفرة سكين .

وقفت عند الباب ، ويدها لاتفارق سلاحها، والمفتاح فى يدها الأخرى، وكأنها ترفع له علامة النصر ، بينما ظل هو مضجعا على الكنبة المريحة بغير راحة يحملق فيها مذهولا ، ويشعر أنه مخصى !

الآن اكتشف حقيقة ذاته وأنه ليس رجلا على الإطلاق ، برغم أنه جرب نفسه قبل ذلك مرات عدة ،وكان على خير مايرام ، أما الآن فيبدو أنه فقد رجولته على يد تلك الأرملة البائسة ذات الملابس البالية المتسخة ،وإن كان يتحسر على ضياع هذا الوجه الجميل والجسد الطرى الغض من بين يديه ، أفلت منه الغزال البشرى الشارد الضال فى الحقول ،ولم تنفعه اليوم خبرته فى صيد الغزلان أمثالها !

خرجت وصفعت الباب خلفها بعنف وغضب ، وقالت قبل أن تغادر الفخ :

ـ ليس كل الطير يامروان باشا.. هناك طيور لحمها مر .

سأل نفسه بمرارة :

ـ ماذا يمكن أن يفعل الآن ؟!

وبدا له أن أى شىء يقوم به فى هذا المكان النائى لاقيمة له ، وينتابه شعور بأنه يتألم ولايدرى موضع الألم ، لقد هزمته أرملة تعيسة لاتملك قوت يومها ، عندئذ سيطر عليه اليأس والإحباط ، ومرارة الهزيمة لاتفارق حلقه ، لاجدوى من الحسرة ، واحساس فظيع ينام تحت أضراسه كمذاق حبات الملح الذائبة .

وحينئذ دخل عليه أبوالعزم متسائلا بشىء من الشماتة بعد أن رآها تشق طريقها وسط الحقول ممزقة الجلباب عائدة لعزبتها :

ـ أخبارك يامروان باشا ..هل تحتاج شيئا ؟!

نظر إليه بذهول وضيق ولم يرد .. فعاد أبوالعزم يتساءل وهو يدرك أن هذه المرة ليست كالمرات السابقة :

ـ رأيت فاطمة منذ لحظات .. لم تنظف الإستراحة وخرجت مسرعة .. ماالذى حدث ؟!

صرخ فى وجهه :

ـ اللعنة عليك وعلى كل الأرامل .. اللعنة على الفلاحات ..إنها ليست أرملة أنها شيطانة !

****

(35)

لا تدرى فاطمة ماهذا الجنون الذى أصاب الرجال من حولها ؟!ولماذا تراهم جميعا كلاب فى حالة سعار ؟!

امرأة ناضجة رغم أنها شابة صغيرة لكن الأيام صهرتها بكثير من نار التجربة ، وقليل من النار يكفى ، ولعل التجربة ـ كعصا موسى ـ تنقذها من الغرق والهلاك فى بحر الحياة !

تتأمل نفسها فى المرآة فترى سحر أنوثتها ، وتضاريس جسدها البض ، وفتنة عودها الأخضر الغض ، لاشىء يخفى المرأة الجميلة أبدا مهما فعلت .. الجمال الطاغى لاأحد يكتم صراخه العالى ،واضح كالشمس منير كالقمر .. صداح فضاح كضوء النهار فى أغسطس .

لاتبحث عن أشياء كثيرة فى هذه الدنيا الحلزونية المراوغة .. مطالبها قليلة محدودة ، تسعى من أجل أشياء بسيطة ، ليس أكثر من لقمة تسد رمقها هى وولديها ، وكسوة واحدة كل عام ، وكحل للعينين الواسعتين ، وصابونة رخيصة للبشرة الخلاسية والجسد الرخامى ..لاشىء أكثر من هذا .

لاتعرف سببا واحدا لما يصيب الرجال عندما يرونها ؟! إذا مشت فى الشارع تحس بالعيون تحرقها بالنظرات وتكاد تعريها من ملابسها ، وإذا ذهبت لتعمل فى أى حقل أوبستان يراودها صاحب الحقل عن نفسها ،ولايفوت الحارس أن يلامسها ، ويحاول رئيس العمال أن يناوشها ! يبدو أن الخالة وصيفة كانت محقة فى كل ماقالته .

عادت قبل أن يحل الظلام على العزبة ،منهكة القوى رثة الثياب ممزقة الجلباب ،متوترة الأعصاب ، تسرع الخطى بينما البعض يتسكع فى حواريها وشوارعها ، ولوكانت فى حالة طبيعية لتوقفت أمام دكان البقالة لتراجع حسابها وتسأل عن ديونها وتشترى شيئا للتوأم .. لكن للضرورة أحكام .. كان الليل قد أرخى جفونه على الدنيا ، وحط رحاله فى العزبة ، وتلك لحظات فى خيالها موشاة بكثير من الذكريات .

كانت خجلى ولاتنظر فى عيون الناس ، تشكر ظلام الليل الذى سترها حين انحسرت عنها ملابسها الممزقة ،لاتنظر إلاتحت قدميها المنهكتين من طول ماقطعت من أميال فى هذا اليوم العصيب ، كان قد هدها الشقاء فى حقل العنب ، وجاء ذئب مارق لينهش ماتبقى منها ، لاشىء يستدعى النظر ، وكل شىء رابض فى مكانه ، قائم نائم فى موضعه .

الديار الطينية الواطئة ، بجوار الديار الأسمنتية الحديثة ، وشجرة الجميز العتيقة ، وأشجار النخيل العالية التى لم يستطع أحد ـ سوى رضوان الله يرحمه ـ أن يروضها ،ويتآلف معها نخلة نخلة كـأن هذا النخيل المرفوع الرأس نحو السماء عائلته الأصلية ، التى غدرت به فى النهاية ،وألقته من أعلى لتصعد روحه إلى الرفيق الأعلى .

خيل إليها أن كل هذه الأشياء والأشجار حزينة فسرت فى أوصالها رجفة حزن عابرة ، والأسى يذوب فى داخلها ، وتشعر بشبح ما يطاردها حتى وهى فى غرفة نومها .

صارت مقتنعة تماما أنه لاأمان للإنسان فى هذا الزمان ، تظن أنها تسمع وقع قطرات دمع تنهال كشلال من مقلتيها ،وبينما هى فى الطريق الذى طال السير فيه أكثر من أى يوم مضى ، ترى ستائر الظلام الرمادية التى تشبه حياتها تلف الحقول من حولها ، وعواء ذئب مخيف يأتى من حقل بعيد ، وربما قريب منها ، لاتدرى ماذا يريد هذا الذئب ولماذا يعوى دائما ؟! لعله ينشد الموال الحزين ، وربما رحل أليفه ووليفه مثلها .. الله وحده أعلم بحاله كما هو أعلم بحالها .

حين عادت لدارها ضمت ولديها بشوق ولهفة كأنها كانت فى سفر طويل ، وإن بدا الفزع على وجهها الخلاسى الجميل ورآه أحد توأمها ولاحظ تمزق جلبابها فقال عز الدين :

ـ مابك ياأماه ؟! هل هاجمك ذئب مسعور فى الحقول ؟!

لاذت بصمت عميق ثم قالت تطمئنه :

ـ لاشىء ياحبيبى .. ارهاق العمل طول اليوم ليس أكثر .

ـ لكن ياأماه ملابسك ممزقة ومهترئة كأنك كنت فى مشاجرة ، ووجهك محتقن وفيه خدوش ، وهناك آثار لأظافر أوحوافر على رقبتك ، وكأن كلبا مسعورا أوذئبا محموما حاول أن ينهشك !

نظرت لولديها بعينين زائغتين ، ولزمت الصمت المهيب ، وشردت قليلا تفكر ثم همست لنفسها دون أن يسمعها أحد سوى ضميرها :

ـ مابى لاأقدر أن أحكيه لكما اليوم ..لاأستطيع البوح بماجرى .. وماذا أقول لكما ؟! ولوقلت هل ستفهمان شيئا وأنتما فى هذا السن الصغير ؟! ولوفهمتما مأأقوله لهكا .. هل ستتفهمانه ؟! تلك هى القضية ..لاأستطيع أن أحكى لكما حكاية العمل والألم والعبث والجنون ومكابدة الهموم كل يوم من أجلكما ..لابد لى أن أكفن حكايتى ـ ياتوأمى ـ فى أكفان بيضاء شمعية ، وأدفنها فى سراديب قلبى حتى تنجلى الغمة ، ويذهب الكرب ، وأظن أن ذلك لن يحدث إلاعندما تكبران وتشبان عن الطوق ، وتفهمان الحياة وألاعيبها الحلزونية المراوغة ، حينئذ تستطيعان الصمود فى وجهها ، والقفز فوق ألاعيبها والانتصار عليها .

أقسمت لنفسها أن كل ليل له آخر .. وهى صادقة .. وتلك حقيقة بديهية .. بالفعل كل ليل معتم له آخر مشرق من نهار .

وكل ظلام يبدده نور ، وإن كان الظلام ممتدا كالمتاهة ، إلا أن الفجر آت لاريب فى هذا ،وكل ماعليها أن تتمسك بأطراف الأمل ، وتقبض على الفجر حين يحين .

اقتربت من توأمها وجلست بجوارهما والتصقت بهما ،وكأنها تحميهما أوتحتمى بهما من أشياء كثيرة مرعبة فى هذه الحياة ، وتخشى أن تنهار قوتها على المقاومة ، صوبت إلى وجهيهما عينين وضاحتين مترعتين بالنضارة والصبا ، ومكحولتين بمسحة حزن وانكسار كسحابة صيف عابر !

حين نام التوأم واطمأنت عليهما فى فراشهما ، عاندها سلطان النوم واستعصى عليها كعادته كل ليلة رغم الإجهاد الشديد الذى يضرب كل جزء فيها .. انتصف الليل وأرقها السهاد فخرجت من غرفة نومها ، وجلست فى الشرفة تراقب الدنيا فى هذا الوقت المتأخر من الليل الطويل .

تتنهد وتملأ صدرها بهواء طازج عابر من فوق النهر ، والنجوم متراصة بعناية ربانية فائقة .. مصابيح تزين السماء ، وتهدى الضالين من السابحين فى ملكوت الله بين الأرض والسماء ،وطائرة تمر من فوق ديار العزبة المنسية من على خرائط الدنيا كلها ، وفى كل ليلة تعبر أجوائها طائرة أوأكثر .. من يسهر الليل يستطيع أن يحصيها بنفسه ، لاتدرى إلى أين تتجه هذه الطائرة أوغيرها ، لكنها تدرى تماما أن هذه الطائرة ماضلت طريقها ولاغوت ، وإنما تعرف مسارها ، وتسير على هدى النجوم فى السماوات العلا ، فالطائرات لاتضل ولاتحتار مثلها ، ومن المؤكد أن بداخل تلك الطائرة حياة كاملة مثل الحياة على الأرض تماما .. رجال ونساء وأطفال مسافرون من بلاد بعيدة إلى بلاد بعيدة ، ربما لاتعرف مكان هذه البلاد على الخريطة ولا فى الحقيقة ، ولم تسمع عنها من قبل .

إن السماء فوق عزبة الحنكاتى بحر بلاشطآن ، متاهة كبيرة عجيبة ، والليل هائم فى السماء ، ويلقى على الأرض وأهلها من رفاقه المسهدين المتعبين بالذكريات وبقايا الحكايات .. الليل يحيى أشياء كثيرة ماتت ، ويميت أشياء كثيرة مازالت تنبض بالحياة !

فى ليال ليست أقل سحرا وغموضا من هذه الليلة ، تصافح صفحة وجهها دوما نسمات هواء مفعمة برائحة النهر ،ويستعصى عليها النوم ، وينهض من سباته الحنين إلى الحب وأفعاله وذكرياته ،تظل فاطمة تراقب بحذر الطائرة العابرة لأجواء العزبة ، وهى تشق عتمة السماء ،وينتابها احساس غامض بأن هذه الطائرة لاتختلف عنها كثيرا ،

الطائرة والأرملة سواء بسواء .. التشابه بينهما عظيم ، تمر الطائرة الليلة وكل ليلة من هنا ، وخط السير يبدو ثابتا لايتبدل لكنها لاتلقى عليها السلام ، بل تمر بردا وسلاما مرور الكرام .. لاسلام ولاكلام .

لاتشعر الطائرة بأهل العزبة سواء كانوا نياما أوأيقاظا ساهرين يناجون النجوم ، ويطلقون العنان لطيور الهموم تخرج من صدورهم إلى الفضاء الرحب .

تناجى الأرملة تلك الطائرة المعلقة بين السماء والأرض مثلها تماما ،تهمس لها همس العاشقين المشتاقين الملهوفين ،وللسماء التى تظللها والليل الذى يسترها ، وللنجوم التى تنير طريقها ،تقول لها كل شىء ، وتبوح بمافى قلبها ، تفضفض للطائرة وتثرثر معها كما تفعل مع السماء والليل والنجوم ،هم رفقة ليلها وأنس وحشتها .

تحكى كل شىء .. تتكلم لترتاح .. تصرخ لتبوح .. تقول إن زوجها قد ذهب إلى مكان مجهول ، وأخذ حياتها معه ، وأنها وردة ذابلة ، ويتفجر من أعماقها ينبوع حزن لايتوقف ،تقول أنها ودعت شبابها ، وأهملت جمالها وأنها صارت عجوزا أهلكت الأيام أمالها ، وعادت مهجورة مثل دوار العمدة القديم ..لاتسكنه سوى الأشباح .

إن المرأة كما تبدو .. والرجل كما يحس ! تلك خلاصة الشباب والكهولة .. القوة والضعف .. الجمال والقبح .

تفكر فاطمة فى كل شىء فى هذه الليلة وكل ليلة ، تجتر الماضى والحاضر ، لايفوتها شىء حتى هؤلاء الغرباء فى الطائرة الغريبة فوق دارها تفكر فيهم ، وتسأل نفسها من هم ؟! ومن أى دولة جاءوا وإلى أى مكان يذهبون ويستقرون ؟!

تتلاشى الطائرة بأهلها وتختفى وراء الحجب ، ويطل القمر من مكان ما مخبوء فيه ، يظهر وجهه القرمزى بنوره الوضاء فيضفى مهابة على الأشياء ، ويشاكس الظلام ولايتركه فى حاله ، بل ينزع عنه ثوبه القمىء القاتم .. لكن الظلام ديناصورى الوجود يبسط هيمنته بتوحش على الكون كله .

ويتحداه نور القمر الذى يرسل أضواء هنا وهناك تغسل الأشياء ، وتزيل كآبتها ، وتمنحها شيئا من روحه وقبسا من نوره .

ينحسر الظلام ببطء ، ويتحول إلى ضوء أغبش بزرقه خفيفة باهتة ، ملامح الأشياء تصبح مبصرة بعد العمى الليلى المؤقت ، ووجه الكون تنكشف عنه الستائر الرمادية ،وسرعان ماتنزوى الزرقة بعيدا فى مكان لايعلمه سوى خالق الليل والنهار ، تذوب فى بحر رمادى واسع بلانهاية .

عندئذ تحس بالإرهاق ، وينال منها الإجهاد ، وتدرك أن جسمها كله مثقل بالإعياء ،ويضرب رأسها صداع خفيف .. لم تعد قادرة على فتح عينيها ، الرموش ثقيلة لاتستطيع أن ترفعها ، وسرعان ماتنغلق رغما عنها .

تدخل فراشها بجوار ولديها الصغيرين ، وتضع جسدها الثقيل المثقل بالهم والألم .. الألم الذى صار مثل وخز الإبر .. إبر لها وخزمؤلم مخدر .

يغشاها النوم أخيرا ،وبسرعة ترتفع أنفاسها وتهبط ، والنوم العميق يمتص الألم كما يمتص القطن الماء فترتاح ، ويلفظ البدن مابه من الإرهاق .

بينما يوم جديد يولد من رحم الزمن فيكسو الدنيا بعباءة مضيئة ، ويعطى الحياة لكل شىء ، وإن أعطاها الكسل والفتور والعجز عن الإنطلاق مبكرا كالعادة إلى حقل جديد ،وكفاح متجدد مثل سالف الأيام ، لابأس من الراحة ليوم أويومين ،لابأس من الكسل فللجسد حق كما للنفس حق ، كما أن النضال فى الغيطان والحقول هذا اليوم لن يغنيها شيئا ، ولاالنوم والفتور سيزيدها فقرا وعوزا أكثر مما هى عليه .

أثبتت الحياة أن كل شيء يموت من تلقاء نفسه ،يموت عن طريق السأم والملل واللامبالاة ،أوحتى عن طريق العادة التى هى نوع من الملل المنظم ،الأرملة لاتحب أن ترى الأشياء تموت والروح فيها .. احساس صعب على النفس .

هاهى الشمس تموت كل يوم عند الغروب ،والقمر يموت عند الأفول ،والليل يموت بطلوع الفجر ، والنهار يموت بهبوط الليل ، لاشيء يبقى حيا .. كل الأشياء تموت .. كل الأشياء والمخلوقات والكائنات تموت بأمر ربها لتخلى مكانها لغيرها ، ورغم كل التغيرات التى تطرأ على الأشياء كلها فإن فاطمة لم تعد ترى فى الحياة تغيرات تذكر !

تناجى ربها فى ليلها مثل كل المقهورين فى هذا الكون ، وفى لحظات وربما ساعات وأحيانا أيام تتقلص حياتها كلها ،وتتحول إلى نقطة واحدة من الوجع الهائل الذى لايطاق .

كل من يموت له عزيز عليه من حقه أن يحزن ، ويعلن الحداد ثلاثة أيام إلا الأرملة حين يموت عزيزها يصبح حزنها طويلا ، وحدادها ممتدا وربما يبلغ مداه حتى منتهى عمرها .

أما فاطمة الأرملة الفاتنة فقد أعياها الفكر ،وخافت على نفسها من الحقول البعيدة والمزارع الممتدة ، والذئاب البشرية التى تعوى فى كل حقل على رأسه إستراحة أوبلاإستراحة فالغريزة ثابتة والشهوة قائمة لايصدها شيء ، ولايهمها المكان ، خافت على روحها من أن تعود لسابق عهدها - قبل واقعة مروان - تسرح وتمرح فى الحقول الواسعة كفراشة تعمل ،وتكسب رزقها بالحلال .

لم يعد الأمر سهلا ، وكأن الخالة وصيفة كانت ترى بعين المستقبل وبخبرة الماضى ماسيحدث لها ، وأخبرتها وحذرتها وأنذرتها .. لكن البريئة فاطمة كانت تظن كل الناس أبرار أطهار ملائكة بلاأجنحة !

لكن الملائكة لاتسكن الحقول ، ولاتضجع فى الإستراحات ، الملائكة تسبح ربها بالليل والنهار ولاتفعل إلا الخير .

ليس لها مكان فى الحقول الممتدة والمزارع المفتوحة الواسعة المليئة بالذئاب الجائعة، والثعالب الماكرة ، ومن يضمن لها ألاتكون لقمة سائغة لذئب هنا أوثعلب هناك .. من يضمن لها النجاة فى كل مرة ؟!

إن جمالها الصارخ غواية للرجال لاجدال ، وهى تدرك ذلك تماما ، وليس الأمر بيدها ، فهى لم تخلق نفسها ..وأنوثتها البارزة النافرة المستنفرة تحرك الصخر من حولها ، وتحيى الأرض بعد موتها ، وتهز الأشجار الصماء العجفاء الشاخصة فى الحقول .

ماذا تفعل .. وكيف تحمى حدودها الجغرافية ، وتضاريسها الجسدية من مخالب الرجال ؟!

تفاحة شهية تثير الأفواه فى كل حقل ..فكيف تصد كل من كان فى قلبه مرض ؟! والقلوب لايعلم سرها إلاالله .

جاءها الحل السحرى الذى لم يخطر لها على بال ،فالغزال الشارد لن يظل شاردا فى الحقول يطارد حفنة جنيهات تسد رمقه وتوأمه ، بينما سهام الصيادين والقناصين والمغامرين تتربص به وتطارده !

جاءها رسول من صاحب مصنع الطوب الذى كان يعمل فيه المرحوم رضوان يخبرها بأن لها فرصة عمل مناسبة فى المصنع اكراما لإخلاص زوجها الله يرحمه طوال فترة عمله فى المصنع .

وأثنى هذا الرسول على صاحب المصنع ، ووصفه بأنه رجل كريم معطاء فيه أخلاق الفرسان ونبل الأمراء ،ثم أعطاها قبل أن ينصرف مظروفا فيه مبلغا من المال لايقل عن ثلاثة ألاف جنيه ، لم تصدق أن مع العسر يسرا حتى رأت بعينيها ، وأدركت أن الله ماأغلق فى وجهها بابا من فضة إلا وفتح لها بدلا منه بابا من ذهب .

تمتمت بكلمات شكر وعرفان للرزاق الذى لايغفل ولاينام ، ولم تفكر فى أن تحصى مافى المظروف ، وإنما اكتفت بأن تتحسس حجمه فقط ، لايهم عدد أوراق البنكنوت فى المظروف ، ولكن المهم أن الدنيا مازالت بخير ، وفيها قلوب خضراء تحسن إلى الضعيفين (الأرملة واليتيم) كما قال رسولنا الكريم (اتقوا الله فى الضعيفين .. قالوا وماالضعيفين يارسول الله ؟! قال .. الأرملة واليتيم) .. صدق سيدنا محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام .

وحتى يعفيها مرسال صاحب المصنع من الإحساس بالحرج ، ويزيح عنها الخجل أخبرها بأن صاحب المصنع يقول لك يافاطمة إن المبلغ من حقك أنت وولديك عن المدة التى عمل فيها زوجك بالمصنع .

فى تلك الليلة غمرتها السعادة عكس الليلة السابقة ،رأت الدنيا غيرالدنيا والسماء غير السماء ، والليل يكاد يضحك لها ، والقمر يمد يده ليهديها وردة كأنه يغازلها ،والنجوم من علاها تنحنى لها ثم ترقص حولها لتسرى عنها وتشاركها سعادتها .

بالفعل قبلت الدعوة ،ووجدتها فرصة للإفلات من مروان وكل مروان مثله ، وكلهم فى نظرها مروان ، ذهبت لصاحب المصنع تشكره ، وتعرف ماذا تخبىء لها الأقدار هناك ؟! ومن يكون هذا الرجل ؟! وهل هو مروان آخر ؟! ولكن ماالعمل الذى يناسبها فى مصنع للطوب ؟!

إنها امرأة بلاخبرة فى أى شىء سوى الحقول والمزارع ، وشهادتها دبلوم المدارس التجارية ، وحين التقت بصاحب المصنع انبهر الرجل بجمالها ، ولم يصدق أن هذه الحورية هى زوجة رضوان عليه رحمة ربه ، وقال لها هامسا ،ومسبحته بين أصابعه وعلامات التقوى على وجهه وصوت القرآن ينبعث من راديو فى مكتبه :

ـ تبارك الله فيما خلق .. والله لوكنت زوجك لحاربت الموت كى لاأفارقك أبدا !

تبسمت وقال بحياء عذارى المدارس :

ـ الموت قدر لايحاربه أحد .. الموت قادر لايرده إنسان مهما كان .

تنهد الرجل طويلا بأسى ، وهتف بكلمات لها أكثر من معنى :

ـ آه للأسف معك حق يافاطمة .. الله يرحم زوجك ياابنتى .. والله يرحمنى أنا أيضا .

ـ ضحكت وقالت :

ـ الله يرحمك .. لماذا تقول ذلك هل أنت ميت الآن ؟!

ـ الرحمة تجوز على الأحياء والأموات .

ثم تنهد بعد لحظات من النظرات الصامتة ، وسألها بود عن ولديها ، فطمأنته على أحوالهما ، وشكرته على اهتمامه بهما .. فقال الرجل بتواضع :

ـ هذا واجبى ..ربنا يقدرنى على الوقوف بجانبك فى محنتك تلك .

وعندما أخبرته بأنها حاصلة على دبلوم التجارة انشرح صدره وتهلل وجهه وقال :

ـ ياسلام .. أنا فعلا فى حاجة لهذا التخصص فى أقسام المصنع المختلفة ، ولكنى أخيرك بين قسم الحسابات أوقسم المبيعات .

ـ ماتراه مناسبا سأعمل فيه ..

ـ لقد اخترت لك قسم المبيعات ؟!

ـ ولماذا لاتلحقنى بالحسابات وهى أقرب لشهادتى ؟!

ـ بصراحة قسم المبيعات يحصلون على نسبة من قيمة البيع بجانب الراتب الشهرى .

ـ طيب .. لعله خير .. شكرا .

ـ قسم المبيعات يتشرف بك .

ثم استدعى موظفة من مكتبه ، وطلب منها أن تذهب بفاطمة إلى قسم المبيعات لتتسلم عملها ، وبالفعل خصصوا لها مكتبا مريحا ، ولم تصدق نفسها أنها بعد أن رأت الأهوال فى الحقول فى الحر والبرد والأمطار والتراب ستجلس على مكتب وتستريح، ويكون لها راتبا شهريا ونسبة عمولة من المبيعات ..سبحان العاطى الوهاب .. ليس هذا فحسب بل إن صاحب المصنع أعطى أوامره بأن سيارة من المصنع تأتى بها كل يوم صباحا ، وتعود بها إلى دارها بعد انتهاء العمل .

أحست أخيرا أن الدنيا ابتسمت لها ، وفتحت لها ذراعيها بعد طول عبوس ،وأدركت أن الليل الطويل لابد له من آخر ،وأن الفجر آت لامحالة ، وليس على المرء سوى التمسك بالصبر ، والثقة فى أن الله لايضيع مخلوقاته ولاينسى عباده .

قفزت الأيام عدة قفزات إلى الأمام ، ودارت عجلة الزمن ، وتحسنت أحوال الأرملة الشابة ، وعادت إليها نضارتها ، وأزهرت ثمارها وتلاشى شحوبها ، وأشرقت شمس مفاتنها حين بدأت تهتم بنفسها ، وترعى جمالها وتزينه ،وجرت الأوراق المالية بين يديها فإشترت لولديها ملابس جديدة وهدايا وألعاب مسلية ،وعرفت لأول مرة الإنتعاش المادى والراحة النفسية ، ولاشك أن الفلوس تقوى القلب ، وتهدىء الروح ، وتسعد النفوس ، لعنت الفقر فى سرها وجهرها ، وكرهت ذل العوز كما كرهت طائر الموت !

كان صاحب المصنع يدعوها من حين لآخر لمكتبه ليطلع منها على تفاصيل الفواتير ونسبة البيع ، والكميات المطلوبة للعملاء ، والأسعار المعروضة ، وكانت تعلم أنه يعرف كل التفاصيل من خلال شبكة المعلومات المتصلة بمكتبه ، ولكنها تؤدى واجبها ، وتفعل مايطلبه منها بكل أمانة ، وبمنتهى الجدية والتلقائية ،وتتلذذ بمراقبة خشوعه عندما تشرح له كأنه يصلى فى محرابها ، ويتعبد فى ملامحها بصمته الرهيب ، ونظراته اللامعة ببريق لاتخطىء مغراه ولامعناه أى امرأة لها عقل وحواس .

بدت متأكدة أنه لاينصت لصوتها ، ولايستمع لشرحها عن الطوب، ومبيعاته وفواتيره وأسعاره ، بل كان ينصت لموسيقى روحها ، ويتأمل إبداع الخالق فى رسم ملامحها ، ويدقق النظر فى قوامها الممشوق ، ووجهها الخلاسى الجذاب وحيويتها المذهلة ، وربما يعانقها فى خياله ، وربما يجعلها رقما جديدا فى حياته .

وحين تبدأ الكلام وتسترسل فى الشرح يصمت الرجل ،ويطول صمته أمامها حتى بعد أن تنتهى من كلامها كأنه تمثال من رخام صموت أصم .. عندئذ تفاجئه متسائلة :

ـ هل تريد إضافة ما أواستفسار آخر عن شىء ما ؟!

يفيق من غفوته ، ويستيقظ من غيبوته ويرد :

ـ شكرا جزيلا يافاطمة .. والله لاأدرى ماذا كنت سأفعل بدونك .. لقد أصبحت أعتمد عليك فى كل شىء ، وبسرعة ظهرت قدراتك وتعاونك مع الزملاء فى إدارة المبيعات ،وكل من يتعامل معنا يحسدنى عليك ، ويسألنى من أين جئت بهذه الجوهرة ؟! وكيف عثرت عليها ؟!

تومىء برأسها خجلا وتتمتم بكلمات شكر على استحياء .

فيعود الرجل يسترسل قائلا :

ـ ماشاء الله .. بارعة وذكية وكأنك خلقت لهذا العمل ، كما أنك جميلة وتشعين إلهاما وطاقة إيجابية لمن حولك .

ثم سكت وسادت لحظات صمت بينهما ،وأطرق الرجل يفكر كأنه يريد أن يقول شيئا وهناك مايمنعه ،ولولاجديتها ووقارها واحترامها لذاتها لتجرأ عليها أكثر وتمادى متغزلا فى جمالها .

لكنها كانت تتلاشى الرد على تلميحاته من هذا النوع ، وقد أشار لها بشكل غير مباشر أنه سيعيد النظر فى حياته ومستقبله ومصيره ، وأن نجاحه فى عمله وحياته سيظل منقوصا بدونها .

تفهمه جيدا وتعرف مايدور فى رأسه كما تعرف كف يدها ،وترسل إليه إشارات أنها لاتفهمه ولاتهتم به ،وإذا كان قلب الرجل ألعوبة لايتحمل نظرة ولايقاوم إبتسامة ، ويذوب من لمسة أوهمسة مثل قطعة الشيكولاته فإن قلب المرأة فلتر سبع مراحل من يعبر إليه فلابد له أن يجتاز شروط المرور وخطوات العبور ،ويتخطى كشف الهيئة !

إن رغبة الرجل فى المرأة حاضرة دائما ، وتحركه نحوها ألاف الدوافع وتلح عليه ،وتصنع منه مفاوضا بارعا حتى يتمكن من أن يحتويها بين ذراعيه ،إن تلك الرغبة التى ترتبط بسمعة سيئة تعلمه الحيل ، وتجعله ينتقى كلمات معسولة يصطاد بها من يهوى ،تلك الرغبة التى تراها المرأة صورة صعبة فتسعى لتهذب الرجل وتروض رغبته المتوحشة ، وتنزعه من غابات الإنسان الأول ، وتعلمه كيف ينحنى حين يراها ، ويفسح لها الطريق حين تمر ، ويقبل يدها حين يصافحها ،تلك هى الرغبة المتوحشة التى تستثمرها المرأة بذكاء ، وتجعل من هذا الرجل عبدا وتجعل من نفسها أميرة !

إن المرأة بعقلها مثل الجبل فإن استطاع الرجل أن يصل إلى قمم الجبال العالية، ربما يصل إلى عقلها وقلبها بسهولة .

تنهض واقفة أمامه بقوامها الممشوق مثل عارضات الأزياء ،لتستفسر عن شىء ما ، ربما تعرفه أفضل منه ، فيجيبها شاخصا ثم تشكره بابتسامة تخطف بها فؤاده ،وكأنها تقول له بعينيها ووجهها المشع كنجم ليلى :

ـ هاأنا ملكة متوجة ، أعرف مكامن سحرى ، وأعرف مواطن فتنتى .. أنا ملكة والملكة لاتباع ولاتشترى ،الجارية فقط هى التى تباع فى سوق الرجال ،أما أنا فلست للبيع بأى ثمن ، لابدهاء رجل ولاباغراء مال ولاوظيفة ،لاذهب المعز ولامال قارون يزحزحنى عن موقفى .. أنا مملوكة لرجل واحد والد توأمى.. لاقبله ولابعده .. ألاتفهمون أيها الحمقى ؟!

مرت الأيام والحال على ماهو عليه .. وذات نهار استدعاها بجرأة ، وقد استجمع شجاعته ، وبدت لهجته آمرة :

ـ فاطمة .. أريدك لأمر عاجل وشخصى .. اغلقى باب المكتب خلفك .

فعلت بهدوء حذر ، ثم جلست أمامه بأناقتها وابتسامتها الغامضة كالموناليزا ، وبعد لحظات سألها :

ـ هل تشعرين بالراحة فى عملك معنا فى المصنع ؟!

ـ بالطبع .. لقد عادت لى كرامتى ، ولم أعد أخاف على نفسى أوعلى توأمى من غدر اللئام ، وسوء عاقبة الأيام .. صرت حرة ولم أعد رهينة صاحب حقل أوحفنة جنيهات بائسة .

تنهد الرجل ولملم شتات نفسه وقال :

ـ اعذرينى يافاطمة على صراحتى .. وتحملينى أرجوك .

بشىء من القلق :

ـ تفضل .. أسمعك .. هل هناك مشكلة ما ؟!

ابتلع ريقه وقال :

ـ أنا لم ألتق طيلة حياتى بامرأة فى مثل جمالك وتوهجك ورجاحة عقلك ، وأعترف لك أننى لن أستطيع الحياة بدونك بعد اليوم .

تورد وجهها وتبسمت بشىء من الخجل وقالت :

ـ كلامك هذا يسعدنى ، ويرضى غرورى حين أسمعه من رجل أقدره وأحترمه .. وأشهد له بنجاحه فى عمله .

عندئذ انحرف صاحب المصنع بالحوار إلى منزلق آخر كانت تتوقعه لكن ليس بهذه السرعة :

ـ أنا يافاطمة .. أتعس إنسان على وجه الأرض !

ـ أنت رجل أعمال ناجح وثرى ولامشاكل فى حياتك .

ـ بالعكس.. أنت لاترين من حياتى إلا زاوية واحدة فقط يافاطمة ..أنا أعيش فى جحيم مقيم مع زوجتى أم أولادى .

ـ ياسبحان الله .. كيف هذا ؟!

ـ أنا رجل فى أواخر العقد الخامس من عمرى يافاطمة، وأنت أصغر منى بأكثر من عقدين لكن فكرى جيدا ولاتغضبى منى أوتتعجلى .. واعلمى أن قرارك مهما كان لن يكون له علاقة بعملك فى المصنع .

ـ لاأفهم شيئا .. ماالأمر ؟!

ـ أريد أن أتزوجك يافاطمة..أنا أحبك .. هل تقبلين ؟!

تلعثمت قليلا وتغيرت ملامحها ثم قالت :

ـ ولكنى أرملة.. وكرمنى الله بالأمومة ..وجعل قلبى ملجأ للحنان ..أنا من أوصى رسول الله بالرفق بى وصورنى فى أجمل صورة ، لن أضحى بكل هذا من أجل رجل يتزوجنى مهما كان .

ـ لابأس .. هذا لايمنع زواجنا ..

ـ هناك ألف سبب وسبب يمنع زواجنا .

ـ يافاطمة .. أنت امرأة رائعة .. والأرملة من حقها أن تتزوج وتحب ،وتعيش حياة كاملة وطبيعية مثل كل امرأة .. والترمل ليس عقوبة ، واعلمى أننى سأكون أسعد إنسان إذا قبلتى أن تكونى زوجتى ، وسأبذل قصارى جهدى لأسعدك أنت وولديك ، وعندى من المال والأسباب مايسعدك .. أنا أحبك كما أحب الحياة .

طاطأت رأسها بشعور غامض يجتاحها ،واختارت كلماتها بدقة وعناية ، ودمعة تترقرق فى عينيها ، وتنمو فى نفسها سرعة الإنفعال والتأثر ثم قالت :

ـ المرأة التى ترفضك تكون بلاعقل ولاقلب ..أنت إنسان نبيل وتستحق كل الخير ..

ـ أنت موافقة إذا ؟!

ـ لا ..لأننى فقدت عقلى وقلبى حين رحل زوجى .. وأنت الآن أخطأت فى العنوان !

لم يكن يدرك أن المرأة تتدرج فى مشاعرها مابين الإعجاب إلى الحب على عدة مراحل .. بينما الرجل يغرم مرة واحدة ، ويجيد الوقوع فى فخ العاطفة ، جهاز المشاعر لدى الرجل غير مزود بخاصية الإنتظار ، يؤمن بأن مهمة القلب هى ضخ المشاعر وليس الصبر والتفكير ، على العكس تماما من جهاز المشاعرعند المرأة .

****

(36)

السر هو ماتبوح به المرأة لكل الناس ،وتطلب منهم كتمانه ، وتتمناه أن يبقى سرا بينما الجميع يعرفه ويذيعه بلاحساب ، وتلوكه كل الألسن وتحكى فيه .. هذا ماحدث بالفعل مغ فاطمة أرملة عزبة الحنكاتى وأجمل نسائها على الإطلاق حين راودها صاحب المصنع عن نفسها ، وألح عليها أن ترضى به زوجا ، وتنهى ترملها وحدادها ، لكنها ظلت ثابتة على المبدأ .. قابضة على الجمر ، راسخة كالجبل ، شامخة كالنخلة العالية اللعينة التى قتلت حبها فى يوم عاصف !

فى المصنع مع فاطمة فتاة تدعى إعتماد دميمة فاتها قطار الزواج ، ونالت منها العنوسة وامتلأ قلبها غيرة وحقدا على كل فتاة جميلة ، وبالطبع فاطمة فى المقدمة ، وكانت ترمى بشرر من حقد وحسد على أقرب المقربات منها فى المصنع .

استطاعت بمكر ومن خلال متابعة أحوال فاطمة كلما استدعاها صاحب المصنع لمكتبه أن تترصد أخبارها وأقوالها وأفعالها بتربص عجيب ، وكأنها تدبر لها مكيدة لتطيح بها من المصنع .

راقبتها طويلا ولاحظت عليها تغيرا تشى به ملامحها فى كل مرة تذهب لمكتب صاحب المصنع ، وظلت تستدرجها بمكر ودهاء ، وتتقرب منها وتحاورها وتسألها أن تفتح لها قلبها وتعتبرها أختها ،وبالفعل رق قلب فاطمة لها ،وابتلعت الطعم وبدأت تبوح لها وتفضفض بكل شىء ،وتحكى لها بحسن نية عمايدور بينها وبين صاحب المصنع حتى وصل الرجل معها إلى محطة الزواج !

عندئذ نبتت فى عقل إعتماد فكرة شيطانية تضرب بها عصفورين بوشاية واحدة ، ولم لا وقد أكلت الغيرة قلبها من فاطمة وسحرها واهتمام صاحب المصنع بها ؟! بينما هى أمامه منذ سنوات ولم يحرك نحوها ساكنا ، وحين يراها أوتحاول استدراجه لفخ أنوثتها يبدو الرجل زاهدا فيها متعففا عنها كأنه قديس !

سألت إعتماد نفسها بغيرة وغل :

ـ لماذا يسيل لعاب الرجل على فاطمة ، ويتجاهلنى كأننى هواء لايراه ؟!

سكن الشيطان رأسها وزين لها فكرتها ووسوس لها أن تنفذها .. وعلى الفور استجابت لنداء الشيطان والنفس الأمارة بالسوء ،وأدركت أن هناك عدة نتائج ستكون فى صالحها لونجحت فى السير على سيناريو الشيطان للنيل من الأرملة الحسناء التى خطفت قلب وعقل صاحب المصنع .

أدركت أنها لواستطاعت إزاحة فاطمة ستعود هى إلى رئاسة قسم المبيعات ، وتحصد العمولة الكبرى التى تأخذها فاطمة رغم أنها أحدث موظفة فى هذا القسم ، لكن الأنوثة سلطة طاغية ونفوذ جبار ، وماعند فاطمة ليس عند إعتماد أوغيرها من بنات قسم المبيعات .

آه لونجحت إعتماد سيرتاح قلبها ، وربما تطفىء نار الغيرة فى صدرها .. لابد من الإطاحة بهذه الأرملة التى ما إن هبطت على المصنع حتى سحرت عينى صاحبه ، كما سحرت أعين العملاء أجمعين !

كل عملاء المصنع وزبائنه معجبون بفاطمة ، ولايتحدثون إلا معها .. شىء غريب وكأن المصنع خلا من الجميع ولم يعد فيه سواها ..لابد من إبعادها بكل الطرق ، وطردها شر طرده من هذا المصنع .

تعرف إعتماد أن المرأة الجميلة كل شىء ..أما المرأة القبيحة فإنها تغفر للرب كل شىء إلا أنه خلقها قبيحة ، وتظل على هذا الحال غاضبة ناقمة حتى تلقى خالقها الذى صورها .

أدركت إعتماد بخبثها أن نتائج خطتها ستكون مذهلة ، ساحقة ماحقة ..لن تصمد أمامها فاطمة دقيقة واحدة .. الحصاد سيكون عاجلا والجائزة ستكون ثمينة .. ماأبرع كيد الشيطان حين يتحالف مع كيد المرأة !

عليها أن تبدأ بحرص وحذر شديدين حتى لاينقلب السحرعلى الساحر ، وربما لوأخطأت التنفيذ بإحكام فقد تخسر وظيفتها ويفتضح أمرها ، وتنكشف وشايتها ، فكرت كثيرا وظلت الهواجس تلاحقها ، والأفكار الشاردة تؤرقها .. هل تذهب بنفسها لزوجة صاحب المصنع وأم أولاده وتحكى لها الحكاية ، وتبوح لها بسر فاطمة واصرار صاحب المصنع على الزواج منها ؟!

لوفعلت ذلك فإن زوجة صاحب المصنع ستكون عاصفة هوجاء ونار مستعرة لاتبقى ولاتذر ، ولكن هذه الطريقة غير مأمونة ، ولامضمونة العواقب ، وربما تخبر زوجة صاحب المصنع زوجها عن مصدر معلوماتها ، ساعتها تنكشف إعتماد ،وتنال عقابها حين يغضب عليها صاحب المصنع ، ويصب عليها لعناته ويطردها من العمل ، وفى النهاية تكون هى الخاسر الأكبر .

الأمل كل الأمل فى نفس إعتماد أن تتهور الزوجة وتطرد فاطمة من المصنع ، وهذا أمر بديهى جدا .. والخوف كل الخوف فى نفسها أيضا أن يتهور الزوج فيطرد إعتماد ، وتكون تلك قسمة العدل للواشية وتفسد خطتها الشيطانية ، فماجدوى مكيدتها لوأصبحت فاطمة خارج المصنع ومعها إعتماد ؟!

الرجل لن يطيق فراق فاطمة ،وخروجها من مصنعه ، لأن هذا يعنى ببساطة أن الفريسة لم تعد فى مرمى نيران الصياد ،ولن تكون فاطمة وحدها هى الضحية .

سألت نفسها :

- لماذا لاتذهب بنفسها لزوجة صاحب المصنع وتحكى لها الحكاية كلها ، وتستحلفها ألاتخبر زوجها بتلك الزيارة ، ولاتبوح له بشىء عمن أخبرها ؟!

استهجنت تلك الفكرة ورأت أنها حمقاء .. فليس من المعقول أن تهتم زوجة صاحب المصنع بأمرها.. فلاأحد يهتم بأحوال الضحايا وقت المعارك .

الأمر شائك ومعقد ، ويلزمه حكمة الترتيب ، ودهاء التنفيذ بحيث لاتظهر إعتماد فى الصورة على الإطلاق ، لن تخبر زوجة صاحب المصنع وجها لوجه .. تلك حماقة كبرى ضررها أكبر من نفعها .

لذلك عليها أن تغير السيناريو بالتعاون مع الشيطان ، وبالفعل هداها إلى طريقة أخرى مضمونة النتائج ومأمونة العواقب .

أعادت إعتماد تدوير الأمر فى رأسها عدة مرات حتى توصلت للحل الفعال ..سوف تبلغ زوجة صاحب المصنع بغرام زوجها ، واستعداده للزواج من فاطمة بمكالمة هاتفية من مجهول ، تحكى فيها الحكاية ، وتسرد الوشاية ، وتشعل الحريق الذى يلتهم فاطمة ثم صاحب المصنع وتنجو هى بفعلتها ، بل وتنال مكافأتها فى قسم المبيعات !

لكن واجهتها مشكلة واحدة .. من أين لها برقم هاتف زوجة صاحب المصنع ؟!

عليها أن تعثر على هذا الرقم بأى وسيلة ، ثم هداها تفكيرها إلى أنها تستطيع أن تحصل على الرقم بسهولة من هاتف صاحب المصنع نفسه ! تلك هى الهندسة العكسية التى تصنع الجريمة وتفلت من العقاب .. وهذا مايعتمده المنحرفون والوشاة الذين يدبرون المكائد ، وينسجون المصائب للآخرين فى الخفاء !

الأمر سهل وميسور .. فالرجل المعتز بذاته المنفوش كالديك الرومى فى عز أوانه يترك هاتفه المحمول على مكتبه دائما ، ويخرج لأداء مهام عديدة منها الصلاة ، وتفقد أحوال العمال وخطوط الإنتاج .. عندئذ تكون قد واتتها الفرصة الذهبية للبحث عن رقم زوجته المسجل على هاتفه ، وحين جاء وقت صلاة العصر وضعت عينها على مكتبه حتى خرج بالفعل ، وبسرعة البرق التقطت الهاتف من فوق مكتبه ، وبحثت بسرعة عن آخر أرقام تواصل معها فعثرت على رقم زوجته مسجل بإسم (أم العيال) وعلى الفور سجلته على هاتفها ، وغادرت المكتب بسلام وأمان قبل أن يتم الرجل الصلاة .

نالت ماأرادت قبل الإنتهاء من أربع ركعات فى صلاة الجماعة مع زمرة من العمال والموظفين ،وظلت تترقب الظروف المناسبة لتضرب ضربتها ، وترمى بكرة النار فى ملعب فاطمة وصاحب المصنع ، وتنزوى بعيدا لتراقب أثار الحريق الذى أشعلت فتيله بيدها .

كان اليوم يوم جمعة من شهر فبراير ،وعرفت بالصدفة أن صاحب المصنع سيذهب إلى الإسكندرية لإستلام بعض المعدات الخاصة بخط الإنتاج الجديد ، تلك المعدات التى وصلت إلى الميناء قادمة من إيطاليا ، فى تلك الحالة تأكدت إعتماد أن الرجل ليس فى داره ولا إلى جوار زوجته ، وتلك اللحظة المناسبة لإجراء المكالمة التى ستقلب الدنيا رأسا على عقب ، وتطيح بفاطمة من المصنع إلى الأبد .

بدأت المكالمة لطيفة هادئة ودودة قالت لها إعتماد بصوت مرتجف بعد السلام والتحية :

ـ عندى لك أمر خطير يتعلق بزوجك ..هل تودين أن تعرفينه ؟!

ـ بالطبع يهمنى أن أعرف كل شىء يخص زوجى .. لكن من أنت ؟!

ـ اعتبرينى فاعلة خير ياست هانم ..

ـ طيب خير .. ماذا لديك يافاعلة الخير ؟! وما مصلحتك ؟!

ـ مصلحتى ألايخرب بيتك ، ويضيع مستقبل أولادك .

كادت الدهشة تعقد لسان الزوجة وبأنفاس لاهثة متلاحقة وقالت :

ـ ماالأمر .. تكلمى ؟!

ـ زوجك قرر أن يتزوج امرأة أخرى غيرك ؟!

شهقت بحسرة ثم تداركت وصرخت :

ـ مستحيل .. أنت تكذبين .

ضحكت إعتماد وقالت بثقة :

ـ زوجك سيتزوج عليك ، وستصبحين زوجة ثانية ..

ـ من أين لك بهذا الكلام ؟!

ـ هل تحتاجين لدليل على صدق ماأقول ؟!

ـ أتمنى ذلك .

ـ زوجك اليوم فى الإسكندرية .. أليس كذلك ؟!

ـ وماعلاقة هذا بزواجه ؟!

ـ لاعلاقة ولكنى أؤكد لك أن عروسه الجديدة تخبرنى بكل تحركاته .

ـ عروسه الجديدة .. ومن تكون وأنا أشرب من دمها ؟!

ـ هل تريدين اسمها وعنوانها ؟!

بتوسل واستجداء :

ـ أرجوك .. أرجوك .

ـ اسمها فاطمة عبدالعاطى ..وعنوانها مصنع زوجك ، ومكتبها قريب جدا من مكتب زوجك ، ومن قلبه أيضا .

ثم ضحكت بطريقة هستيرية مستفزة ، وكأنها تقتلها بالبطىء ، وتشويها على نار هادئة .

صاحت الزوجة :

ـ ومن تكون فاطمة عبدالعاطى تلك ؟!

ـ أرملة صغيرة السن وجميلة ألقت بشباكها حول زوجك المحترم ، وجعلته مثل مجنون ليلى .. لم يعد يرى فى المصنع سواها، وصارت هى نور عينيه ،وحبه الجديد ، ولواستمر نومك فى العسل سيتزوجها قريبا ياأم العيال ! آه أم العيال ..هكذا هو سجل اسمك على هاتفه.. أما فاطمة فهو مسجل رقمها باسم الحب الجديد !

هتفت بغضب محموم والغيظ يتطاير من نبرات صوتها :

ـ أرملة .. يانهار أسود .. يتزوج على أرملة !

كانت إعتماد فى قمة النشوة والسعادة والشماتة فى الأطراف الثلاثة ، وشغوفة بمعرفة ماالذى سيحدث فى الساعات القادمة وقالت :

ـ وماذا ستفعلين يأم العيال لإنقاذ قارب حياتك ،وحياة أولادك الذى يوشك على الغرق ؟!

بثورة عارمة وغضب محموم :

ـ اليوم سيكون آخر يوم لها فى المصنع سأكسر رجلها وأطردها .. أما المحروس زوجى فسيكون حسابه معى عسيرا ومؤلما .

بمكر قالت إعتماد :

ـ لكنى أخشى أن يتمسك بها ، ويضحى بك وبأولادك ، وربما يطلقك .. بصراحة لاأخفيك سرا هى جميلة فوق الوصف !

باندفاع وتهور قالت الزوجة :

ـ فليذهب إلى الجحيم ..لوفكر فى ذلك سأطرده إلى الشارع كى يجوع هذا الجربوع الذى لايملك شيئا ..هو يعمل عندى ..المصنع ملكى ومسجل باسمى .. أنت لاتعرفين من أكون ولامن تكون عائلتى ؟!

تبسمت إعتماد وأحست بنشوة النصر ثم قالت بتعاطف مكذوب :

ـ هذا حظنا مع الرجال عليهم لعنة الله .. يعشقون الخيانة ..ماذا نفعل نحن الضعفاء ؟!

وفجأة أغلقت الزوجة الخط دون أن تقول لها مع السلامة .

تنهدت إعتماد وكادت تطير فرحا .. لم تصدق ماحدث .. لم تصدق أنها أفلحت فى اشعال الفتيل بكل سهولة ،وما عليها إلا أن تنتظر حتى ترى بعينى رأسها النار والدمار .. المسألة مسألة وقت ليس أكثر .

وتأكدت إعتماد أن الأرملة الحسناء انتهت ، ولن يكون لها موضع قدم فى المصنع بعد اليوم ،ولوتمسك بها صاحب المصنع روميو زمانه ودونجوان أوانه لن يكون صاحب المصنع !

شعرت بلذة الشماتة وقالت لنفسها :

ـ أمرك غريب .. طالما أن المصنع ملك الست ، وأنت مجرد زوج الست .. فلماذا تتعامل مع العمال والموظفين بغطرسة وغرور ؟!

ولماذا ترتدى ثوب الطاووس المليونير ،وأنت مجرد أجير عند الست أم العيال .. خيبك الله ؟! لك يوم ياظالم .. ظالم وأعمى .. تلك مصيبة .. ألم أكن أمامك منذ سنوات ، ولم تفكر حتى فى كلمة حلوة تقولها لى ؟! الآن سترى النور والنار ، وستلعب شياطين الإنس والجن بمصيرك ، والست زوجتك صاحبة المصنع ستشعل الدنيا نارا لتحرقك فيها .

ثم استرسلت بنبرة ساخرة كأنها تكلمه :

ـ كنت تتعامل معى كما لوكنت كلبة جرباء ، أوكرسى خشب فى المصنع ، عميت عينك عنى ، وعندما جاءت فاطمة صرت مبصرا ، وبصرك حديد ، تحدق فيها وتتغزل فى سحرها وجمالها ، وفوق هذا تطلبها للزواج ؟!

ظلت الغيرة من فاطمة تنهش قلبها وتقول لنفسها :

ـ والمصيبة أنها تتلاعب بك ياصاحب المصنع ،وتذلك وتتمنع عليك وأنت ولى نعمتها .. أما أنا .. أين أنا منك ؟! هاأنذا قد هدمت المعبد على رأسك أيها الأعمى .. ألم تكن ترانى ؟! سأجعلك ترى الجحيم ، ولن ترى الأرملة الجميلة بعد الآن .. لن تذوق قطعة الحلوى التى تشتهيها .. وعليك الآن أن تظهر شجاعتك ، وتتعامل برجولة وتتمسك بها كى تلقى مصيرك .. فى كل الأحوال أنت هالك لامحالة ، وستنال الجزاء الذى تستحقه على يد زوجتك (أم العيال) .!

لم تكتف إعتماد بمافعلت بل كانت تتابع بشغف ولهفة تفاعلات خطتها ، وينتابها احساس المرأة وكل امرأة تكون فى مكانها بأنه على قدر حب المرأة للرجل تكون غيرتها عليه ،ويكون إنتقامها منه أيضا .

وهى تعرف أن المرأة إذا أحبت الرجل أعطته الدنيا ، وإذا كرهته أحرقت به تلك الدنيا !

فى اليوم التالى ذهبت زوجة صاحب المصنع لتسأل عن فاطمة التى ظنتها فى البداية واحدة من العملاء الجدد فقابلتها بترحاب ، وعندما قدمت لها نفسها قائلة بعد أن تأملتها من أخمص قدمها حتى رأسها :

ـ أنا صاحبة هذا المصنع ولاأريدك هنا.. لن أسمح للأفعى أن تسكن دارى وتعيش فى جرابى .. هيا إذهبى إلى الحسابات كى تستلمى باقى مستحقاتك ، ولاأريد أن أرى وجههك مرة أخرى فى مصنعى .

ذهلت فاطمة ولم تصدق ماتسمع ، وحط الضيق رحاله على ملامحها ، وطغى الغضب الممزوج بالإستغراب عليها ، وعندما سألتها فاطمة إذا كان صاحب المصنع يعرف بهذا .. صرخت فيها :

ـ قلت لك أنا صاحبة المصنع وهو يعمل عندى .. وهو يجلس الآن فى مكتبه كالفأر المذعور خوفا على نفسه حتى لا أطرده معك إلى الشارع .

أحست فاطمة بالقهر والغدر فسالت دموعها بغزارة على خديها وانصرفت منهارة مكسورة مثل جندى لحقت بجيشه هزيمة نكراء ..

فى تلك الأثناء كانت إعتماد تراقب كل شىء فى المصنع ، وتترصد المواجهة الحاسمة بين الزوجة أم العيال ، والأرملة ذات الحسن والدلال ،لايفوتها كلمة أوهمسة أوإشارة، اللعبة لعبتها والمعركة معركتها ، والخطة خطتها .

منذ وصلت الزوجة إلى بوابة المصنع طار الخبر أولا إلى إعتماد ، فتحولت بقدر قادر إلى حواس مستنفرة ، وعيون مستبصرة .. وهرولت لتتابع الموقف الرهيب .. ومن قريب تابعت ماجرى ، وتمنت هى وأم العيال دون إتفاق أن تكون عيونهما جمرا ملتهبا يحرق فاطمة ، ويحول أنوثتها إلى رماد وأطلال ، فلايرى فيها الرجال شيئا يدير رؤوسهم ويسلب عقولهم .

حدث ماحدث وقضى الأمر ..وحانت لحظة الخروج بالدموع من المصنع مكللة بالإهانة ، وعندئذ اتجهت صوب مكتب صاحب المصنع ، وألقت عليه نظرة أخيرة كأنها الوداع والاستغاثة ، بينما زوجته تراقب من وراء فاطمة كى تردعه لوحاول أن يطيب حتى خاطرها بكلمة ،لكن الرجل لم ينطق ، ونظرات فاطمة باكية عاتبة تلومه ، وتستجديه أن يفعل شيئا ، لكنه لم يفعل شيئا ، واكتفى بنظرة حسرة بينها وبين زوجته التى كانت ترجمه بنظرات حادة من نار وشرار مثل فم التنين !

وأخيرا لزم الصمت كالأموات ،وطاطأ رأسه نحو سطح المكتب أمامه ،وأدرك أن أصعب شىء فى الحياة هو أن يحاول الرجل أن يوفق بين امرأتين متصارعتين ! وياويله وسواد ليله لوكانت احداهما زوجته والأخرى حبيبته !

مرت اللحظات ثقيلة كالدهر ، طويلة قاسية كسنوات عجاف ثم قالت فاطمة عساها تستفز رجولته وتوقظ نخوته :

- أنا خارجة ولن أعود .. الست زوجتك صاحبة المصنع طردتنى .. كنت أظن أن هذا المصنع يملكه رجل .. وأيضا الست صاحبة المصنع تسىء الظن بى وبك وتظن أن بيننا علاقة أعوذ بالله .. مسكينة ربما وصلتها وشاية من هنا أوهناك ، لكن الله موجود ومطلع على كل الخفايا والنفوس .

ثم استدارت ونظرت نحو الزوجة بكبرياء وشموخ قائلة :

- يبدو أن الست زوجتك لاتعرف أننى أرملة .. ولاتفهم معنى الأرملة حين ترهن عمرها وروحها وحياتها وفاء لزوجها .. يبدو أنها لاتعرف أننى حبست نفسى على توأمى (عز الدين وشرف الدين) إلى يوم الدين ، ولامكان لأى رجل مهما كان فى حياتى .

ثم انطلقت كالسهم نحو بوابة المصنع تغادره للأبد ، ويدها تجفف دموعها المتساقطة على خديها ، والعيون شاخصة تشيعها بنظرات متباينة ..عيون فيها شفقة وعيون فيها غيرة ،وعيون فيها شماتة .. كثير من زملائها وزميلاتها شهدوا تلك اللحظة ، وكأنهم أصنام لاروح فيها !

****

(37)

بات الدكتور عبدالله حبيش أكثر قربا من الله عن أى وقت مضى ، وأكثر قربا من الناس عن ذى قبل برغم تباعده الإجتماعى عنهم ، وإن كان بيد الخير الممدودة إليهم هو أقرب مايكون منهم .. لذلك أحبه الناس فى عزبة حبيش كما لم يحبوا إنسانا نبيلا معطاء من قبل .

طرحوا عليه عبر وسطاء أن يرشح نفسه لعضوية البرلمان ، لكنه تعفف وزهد فى كل شىء ،ولم يعد يعنيه أن ينال من حطام الدنيا الفانى ، وزخرفها الزائل غنيمة ما ، وضع قلبه فى ثلاجة ، وأدرك أنه مع الله يشعر بسعادة لامثيل لها ، وبالله يستطيع أن يستغنى عن الجميع ، يصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع ، ويصلى كثيرا ويرتل القرآن ترتلا ،ويعاود حقوله وبساتينه العامرة بالخير الوفير كمزارع قديم ، يحب الأرض ويعرف فضلها ، فمنها تخرج بأمر الله الأقوات والثمار وماتشتهى الأنفس .

يرتبط بزرعه وأرضه بميثاق غليظ قديم قدم أجداده ، فيها اختلط عرقهم بترابها ، وامتزحت دموعهم بطينها ، ومن أفراحهم وأتراحهم مازالت الأرض تطرح بسخاء ، ولاتكف عن الكرم والزهور تتفتح وتفوح بعطرها والثمار تسر الناظرين !

كمزارع قديم سافر أوروبا ونال أرقى الدرجات العلمية لابأس من أن يعود إلى أصله فلاحا من نسل الفلاحين .. وكما بدأ الإنسان يعود سيرته الأولى .

لابأس أن تطارده الشمس أينما حل أوارتحل فى حقوله الواسعة المترامية الأطراف .. المهم عنده ألاتبور خصوبة روحه ، لذلك ينتقى الرجل أفعاله بعناية ، ويبذرها فى مواضعها ولايتعجل الحصاد .. ومن يزرع لابد أن يحصد من نفس النوع الذى زرع .. علموه إياها فى الإبتدائى ، أما وقد صار الآن عالما مرموقا يشار إليه بالبنان ، فلامانع من أن يرتد إلى الأرض - منها وإليها - وما الإنسان إلاحفنة من تراب الأرض !

كمزارع قديم ، تسرى فى عروقه دماء الفلاحين ..تعلم من الغرس والزرع فضيلة الصبر على كل شىء حتى الأذى يصبر عليه ويحتمله لكن أبدا لاينساه ..ولايطلب من الله حقه فى القصاص العاجل العادل ، وإن كان إيمانه لايتزعزع بأن لهذا الكون الكبير ملك عادل يدير شئونه بحكمة واحكام .

يثق فى النهر الذى يجرى تحت قصره البهى ، ويدرك أنه آت مهما تأخر ، ينقص أويزيد لايهم .. لكنه لايخلف وعده أبدا ، ولايكف عن الجريان منذ ألاف السنين ، النهر معطاء بلامن ولاأذى ، يمشى آمنا مطمئنا ويترك أمره لعناية الإله الذى شق له مجراه !

لايعرف النهر الخيانة أوالغدر ، وليس النهر كالبشر ، لكنه ملاك من ماء وطمى وشطآن .

كمزارع قديم يبكى موتاه على أعتاب القبور ، ويعشق الأخضر واليابس ، ويستمتع كثيرا حين ينصت إلى فلاح حزين ينفخ أحزانه فى الناى فتصير لحنا شجيا ، فلاح بسيط برىء ابن الأرض البكر يهوى النوح والبوح فى أعياد الحصاد ، ومواسم الأحزان .

كمزارع قديم يحمل درجة الدكتوراه ، وعاش فى بلاد الألمان ، وتسكع فى حوارى وميادين برلين ، يقدس المدرسين ويعتبرهم رسل غير معصومين ،ويكره الأطباء ولايزورهم إلا مضطرا تحت وطأة الأنين ،يبتعد دائما عن المحامين لأنه يبغض المشاكل ، ويخاف من المحاكم ، ويعتبر نفسه مناضلا من نوع خاص ،كما أنه لايقبل صداقة ضابط مهما كانت رتبته .. تلك طبيعته التى خلقه الله عليها .

لاتستهوى عبدالله حبيش الذى عاش بين الألمان عدة سنوات وأكل من طعامهم ،أى مقبلات تسبق طعامه سوى الجرجير والسريس ، نباتات خضراء تخرج طازجة من أرض سمراء ، أما قطعة الجبنة القديمة المعتقة فلاينساها ولاتفارق طعامه إلا حين كان مهاجرا وراء كنوز العلم فى بلاد بعيدة .

كمزارع قديم مهما أقام فى قصور عالية،وفنادق فاخرة لايرضيه إلاسطح مفتوح على السماء مباشرة ليرى الله فى علاه ، إن الأرض فراشه والسماء غطاءه ، يتعامل مع الحياة بمنطق الطير ،روحه فى الحرية ، والحرية فى روحه .

كمزارع قديم مالرتضى يوما أن يكون تابعا خانعا زوجا للست فى وطن هتلر ، وفضل أن يعود لحقله القديم ، وعزبة أهله وأجداده ، وساقيته الخشبية العتيقة التى كان يلهو حولها طفلا ،وأشجار التوت الضخمة ، وأشجار الجميز العالية ، وثمارها المحببة إليه ، ويعتبرها فاكهته المفضلة ،ومازال مذاق التوت والجميز بطعمه المعسول لايفارق فمه منذ سنوات .

كمزارع قديم عشق حورية النهر التى سمع حكايتها صغيرا من جدته ، ولم يرها أبدا فى الواقع ، ولايدرى إن كانت حورية من الجنة أم جنية من النهر رغم أنه يسكن النهر والنهر يسكنه !

ومازال بقلبه الأخضر يتذكر كيف كان يقرأ قصائده لحبيبات الطفولة والصبا ومطلع شبابه الأول .

يكتم فى صدره سرهن ، ولايبوح لأحد بأسمائهن ، ولايفصح عن ملامحهن وصورهن فى خياله ، ويظل وفيا لهن من أيام الصبا وأحلام المراهقة الحالمة .. ليتها ماولت تلك الأيام وظلت وفية له .. ليته ماكبر وشق عباب الحياة ، وسافر وغامر قبل أن يعود إلى مسقط رأسه بعد أن عرف الدنيا والناس ،وعرف الصدمات والأزمات والمحن من حيث لايحتسب !

إن مافعلته أنجيلا رهيب مفجع ترك فى قلبه طعنة قاتلة ، تركت تلك الطعنة عقدة هائلة فى نفسه لن تنمحى أبدا ، طعنة قتلت رجولته ، ودنست شرفه ! وما الرجل فى هذه الحياة إلا شرف ورجولة .

عاش للخير وكرس له حياته الجديدة محاولا أن ينسى ماحدث من تلك المرأة الألمانية التى زرعت الألم فى وجدانه .. لكن هناك العزاء الذى يأتيه من البسطاء البؤساء الضعفاء فى كلمات ثناء ودعاء ترفع من روحه المعنوية ، وترفع شيئا من ذكرى الخداع .. وتكفيه كلمات إمتنان من هؤلاء الفقراء حين يمد يده إليهم بإحسان ، ويحسبهم أهله وعشيرته فى عزبة حبيش ، فيحلق فى الأفاق كما الطائر الملائكى المبتهج بالحرية ، تنتزعه كلماء الإطراء مهما كانت قليلة وعفوية من براثن الإنكسار ، واحباط هزيمته النكراء من امرأة بيضاء كلوح الثلج فى ديار برلين .

ترفعه الكلمات الطيبات من أفواه البسطاء إلى عنان السماء ، وتحتضنه برقة الأم الحنون ، ووداعة الأب الروحى ، فيواصل الحياة ويقينه بأن الخير ليس سواه هو أصل الدنيا ومنتهاها .

يفضل البقاء بجوار الأرض والنهر ،ولم تعد اغراءات الدنيا تغويه ، يرتاح هنا بعيدا عن صخب الحياة ومكر الأيام وصراعات البشر التى لاتنتهى .

هنا فى عزبة حبيش كل شىء هادىء ، لايعكر صفوه شىء ، النهر يتمدد على الحقول ،ويلامس الديار بود وألفة ، والزرع الأخضر يلون الدنيا بأجمل الألوان ، هنا فى عزبة حبيش النساء بلاغدر ، تموت المرأة ولاتخون .. قاموس الحياة هنا ليس فيه لفظ الخيانة ، ولافعل الخيانة .

لاينسى آخر كلماتها بعد فعلتها الشنيعة :

- وقتك انتهى معى .. دورك سيقوم به غيرك أفضل منك !

قتلته بفعلتها البشعة ، وأجهزت عليه بكلماتها المسمومة ، وضعت الملح على الجرح بلارحمة ،فتألم كثيرا وسيظلل يتألم لأن الله أعطاه قلبا أرق من أوراق الورد .

أين الدواء وماهو السبيل للشفاء ؟! والجرح ينزف فى صمت داخل ثنايا الروح المعذبة ، وأصحاب القلوب الفظة الغليظة يطلقون الكلمات كالرصاصات ، ولايدركون ماذا تفعل فى الآخرين ؟!

إن الكلمة قادرة أن تهدم حلما ، وتحرق بيتا .. إن الكلمة تحيى وتميت .. أفلايعلمون أن الكلمة أمر عظيم فيتحسبون لما يتفوهون ؟!

كان عبدالله حبيش قد جاوز عقده الخامس بربيعين ،وفى تلك المرحلة الخطيرة من عمره أدرك أنه يتغير ، كل شىء فيه يتغير ، ولم تعد الدنيا والناس والأهل أحب إليه من نفسه ، بل صارت نفسه أحب إليه من الكل .

يشعر بالتغير التام فى كل أحواله دون أن يدرى من أين يأتيه هذا التغير ؟! لعله الزمن الذى لايرحم ، ولايترك شيئا على حاله دون أن يبدله ويغير أحواله .

أدرك للتو أنه ليس مثل أطلس فى أساطير اليونان ،كما أن العالم لايقف على رأسه ! وأدرك أيضا أن التغير هو الثابت الوحيد فى الحياة الدنيا ، كما تعلم من قوانين التغير ألاينتقد الآخرين أويجرح أحاسيسهم حتى عندما يرتكبون أخطاء جسيمة وخطايا كبيرة !

هذه طبيعة البشر ، فهم ليسوا معصومين .. لذلك لم يعد يهمه اصلاح أحوال الناس ، فلاهم سينصلحون ولاهوسيرتاح .. لم يعد ينشد المثالية لافى نفسه ولافى نفوس الآخرين ، لسبب بسيط للغاية لأنه توصل إلى خلاصة الحكمة ، وهى أن السلام مع الجميع بأخطائهم وخطاياهم أفضل كثيرا من الكمال الوهمى ، كما أن السلام مع الذات أكثر راحة من الصراع مع الآخر ، فلاشىء يستحق المعاناة فى الحياة سوى السعى إلى الله .

لابأس فقد تغير الرجل كثيرا أكثر مما ينبغى ، وأكثر مما كان يتوقع ،ويدرك ذلك جيدا حين صار يمارس العطاء بسخاء بلارياء ..وأحس بخبرة السنين أن ذلك يحسن المزاج ويريح القلب .. ليس فقط لمن يتلقى العطاء ويلقى الثناء بل له هو أيضا .

تعلم من منطق التغير أن الصبر أعظم الفضائل على الإطلاق ، وعليه ألاينزعج من أى شىء ، ويتحصن بالصبر ، فلايغضب إذا فاض النهر أوجف ،ولاينزعج إذا إتسخ جلبابه أوابيضت لحيته وغزا الشيب رأسه !

تعلم صاحب القصر حامل الدكتوراه فى الزراعة ومحاصيلها وسرها الدفين فى الأرض السمراء أن البساطة تفوق أثرا من خداع المظاهر ، وأن الشمس المشرقة أفضل وأبقى من الألوان المزيفة ، والخداع أقصر عمرا من عمر الزهور ، ومهما كان المخادع بارعا مراوغا فلن يطول خداعه ، وستنجلى أكاذيبه بكل ألوانها .

سار على المبدأ الذى اعتمده الإمام على رضى الله عنه حين قال (من إعتزل الناس سلم من أذاهم) .. وحين وصل الدكتور عبدالله حبيش إلى خريف العمر آمن بالعزلة أسلوب حياة ،وصدق بالوحدة منهج راحة .. أليست الوحدة عبادة ؟! أليست العبادة طاعة .. والطاعة تهدى إلى الجنة ؟! وماذا تعنى الجنة للإنسان ؟!

إن الجنة تعنى الراحة الأبدية .

بدا الرجل مثل ناسك ميالا للسكينة والهدوء ،لايفارق صومعته ولايكف عن التأمل والتفكير عساه يصل إلى مبتغاه ، ويدرك سر الإله فى خلق هذه الحياة ،وأكثر ماتعلمه من حكمة الزمن .. البعد عن الناس الذين لايقدرون الناس ، وبالتالى لايعرفون قيمته ،لكنه يعرف قدر نفسه ، ولايهتم بمن خذله يوما ما .

يتأمل ملامحه فى المرآة ، ويسأل نفسه .. ماالذى حدث له فى خريف العمر ؟! لقد تغيرت فيه أشياء كثيرة ، صار وكأن شخصا آخر تلبس روحه وجسمه ، ماكان هكذا قبل أن يتجاوز الخمسين ربيعا .

صار باردا برودة الثلج فى الشتاء ، ولم يعد ينشغل بصغائر الأمور، وماكان يزعجه فى الماضى لم يعد كذلك اليوم ، ماالسر فى هذه المرحلة من العمر ؟!..هو لايدرى مافى نفسه .. الله وحده يعلم .

يستعيد من خزانة الذكريات أشياء قديمة منها رحلته إلى ألمانيا ، وأيام الجامعة هناك وماحدث فيها ، ويتذكر تصرفاته الهوجاء فى تلك الأثناء ، ويبتسم ساخرا من جنونه ومجونه ، ويحسبها أيام جاهلية ، ويحمد الله أنه نجا منها بأقل الخيبات ، والنذر اليسير من الخسائر !

الآن يستمتع بأيامه على طريقة الصوفيين عشاق الله ، ويشعر بسعادة غامرة فى الصلاة والصيام وترتيل القرآن وذكرالله والتدبر فى مخلوقات الخالق مبدع الكون فاطر السماء والأرض .

عجلة الزمان لاتتوقف أبدا عن الدوران ، وعليه أن يتذوق متعة القرب من ربه ، لأن العمر قصير مهما طال ، وحين يغادر وجه الأرض ويستقر فى بطنها ..كم من الناس سيذكره ؟! ولوذكره أحد إلى متى ؟!

أدرك بعد مرور خمسة عقود من الزمن أنه المسئول الأول والأخير عن سعادته فى الدنيا والآخرة .

حين تحين ساعة الشفق ، والشمس تحنى رأسها للسماء ، وترخى ستائرها بوقار ، يطل من شرفة قصره العالى ، البديع فى طرازه وزخرفته النائم على كف النهر ، وبرد الشتاء يلامس جلده - بلااستئذان - كوخز الإبر ، يرى العزبة صامتة تغوص فى السكون ، وتزداد غموضا وصمتا فى الليل الممطر ، وإن كان يرى المطر ينهمر فيغسل وجهها بدموع السماء ، وتفترش دروبها وشوارعها بأنهار صغيرة من ماء عذب ، يتذكر حينئذ ليلة الخذلان والعار العظيم .

يتذكر حين عاد مكسورا من بلاد الألمان يطل على بلدته المنفية قسرا عن كل بلاد الدنيا ، والمنسية ـ سهوا أوعمدا لايدرى ـ من فوق خرائط الجغرافيا ، والمنسية أيضا من حكاوى التاريخ التى تخلد الطغاة واللصوص وسارقى أقوات الشعوب وسفاكى الدماء .

مازال يتذكر حين عاد من رحلة الألام ملبدا بالكآبة وبعد أن رأى الكابوس فى الفراش ! كيف ينسى رحلة الحب والوهم والأحلام التى انتحرت على يد امرأة بيضاء شمعية البنيان ، طويلة فارعة جريئة فيها كل وقاحة الألمان .

فى تلك الأثناء كان يرى كل الرجال أوغاد ، ويرى كل النساء ساقطات .. وسرعان مااستعاذ بربه من كل الشياطين فهدأت نفسه ، وارتاح حين ألقى ببصره على الأرض ،ورأى إلتماع حبات المطر المتساقطة فى الظلام تبرق كأنها حبات الماس ، وصوت ارتطامها بالطين تكسر صمت السكوت ، فتثير فى النفس المزيد من الشجون .

عكست برك المياه بريق النجوم المتلألئة فى صدر السماء ،ومساحات من الضوء الزاهى الهادىء تتحداها مساحات أخرى مسطحة من العتمة ، والدموع الدافئة تسح فى أعماقه ،وكأنه لايريد للسماء أن تبكى وحدها فى ليلة جميلة كهذه الليلة .

رفع عينيه المثقلتين باليأس إلاقليلا ، حملق فى الجزء الساطع من السماء المزينة بمصابيح الله ، وفجأة ضرب البرق والرعد الأجواء ، وغامت السحاب ، وأظلمت السماء كأنها أطفأت أنوارها .

لكنه فكر طويلا وعميقا فى مثل هذا الوقت من ليالى الصيف المقمرة ،وعند منتصف الليل تماما يأتى الكروان بصوته الملائكى من الناحية الغربية للنهر يغرد ويناجى ربه ، يدعوه ويسبح بحمده ، والناس نيام نيام كالأموات .

تبتهج روحه ويطرب لكن الكروان يكف عن الدعاء ،فيهمس معاتبا إياه أن يعود لماكان عليه ، ويحس أنه سمع العتاب فسرعان مايستجيب هذا الطائر النبيل ، ويغرد من جديد بصوت نقى تقى شجى يهز الوجدان ، ويلوم الغافلين عن ذكر الإله .

فى هذه اللحظات لايؤنس وحشته سوى هذا الطائر الذى يهفو لصوته العذب ولايراه ، كأنه ملاك لايظهر للبشر ، وصوته يملأ الوجدان ، ويسمعه العابدون المتيقظون فى كل مكان .

لاشىء سوى الليل والمطر والكروان ،والخوف يسكن الحقول والنهر والقلوب ،ولاشىء يمنحه الأمان سوى أن يقلد الكروان ، ويذكر ربه ويسبحه ، فلادنيا لمن لم يحيى دينا .

يفكر فى حياته دائما كما يفكر فى حياة الآخرين أحيانا، ويفكر كيف لعبت يد القدر لعبتها ،وجمعته بأنجيلا فى قاعات البحث ، ومدرجات المحاضرات هناك على نهر الراين ، وكيف زين لهما الحب بألوانه السبعة كل شىء ؟!

الصدفة وحدها جمعت بين الشرق والغرب .. بين عبدالله وأنجيلا ، وكثيرا ماتجمع الصدف بين البعيد والبعيد ..تجمع بين العقل والجنون ، بين الأبيض والأسود ، بين المؤمن والملحد .. لاشىء يستعصى على الصدفة كأنها ساحرة شريرة لانظير لها .

الحياة ذاتها أكبر صدفة ،ووجود الإنسان فيها صدفة .. صدفة الحياة يخطط لها الحالمون ، ويبكى عليها السذج ، ويقدسها المبدعون المرهفون ، وفى النهاية لايعيشها سوى المجانين .

الدنيا عنده ليست فصلا واحدا .. ليست ربيعا دائما ، ولاخريفا دائما إنما هى فصول أربعة .

ذات صباح شتوى والأرض مبللة بأثار السماء ، والشمس تطل برأسها على استحياء ، صافحت عيناه الأخضر الزاهى ، والربيع يتسلل قادما من وراء الشجر العارى ، يأتى الربيع وهو يخبىء خلف ظهره ثوبا جديدا لكل شجرة اهترأ ثوبها ،فتبدو الدنيا بعد الخمسين ربيعا مثل الحلم الوردى الذى لايستطيع أن يمسكه بيده ، ويسال نفسه :

ـ هل عاشها حتى الآن كما يجب ؟!

لايدرى .. يتأمل الطيور تسبح فى الفضاء فوق الحقول الواسعة ، ويتوقف بالقرب من النهر على رأس قطعة أرض يملكها ، ولم يزرها منذ زمن بعيد ، ثم توقف عند الساقية العتيقة التى كانت دوما تسقيها حتى ترتوى ، الآن يحن إلى صوتها الذى مازال يرن فى أذنيه منذ سنوات الصبا لايختلف شجنها كثيراعن سيمفونيات بيتهوفن ذلك الرجل العبقرى بلديات أنجيلا ، وتحت شجرة الصفصاف التى تفرد أجنحتها على الساقية جلس يتأمل كل شىء من حوله .

ظل يفكر فى ماضيه ويستعيد صورا من ذكرياته ثم قال لنفسه :

ـ فى حياة الإنسان ثلاثة أحداث مهمة لاتتكرر إلانادرا ، ولوحدث وتكررت تكون استثناء وليست أمرا عاديا ..

الحدث الأول : الميلاد ..

يولد الإنسان ويعيش مرة واحدة فقط .

عندما يولد الإنسان لايكون بيده أى شىء ، ولايدرى شيئا ، ويسير فى الحياة ينمو مثل شجرة ، وفى الموعد المعلوم لابد لهذه الشجرة أن تحافظ على نوعها ، وتحرص على استمرار نسلها.. فيلجأ إلى الحدث الثانى الأهم فى حياته .

أما الحدث الثانى : الزواج .

ـ يتزوج الإنسان مرة واحدة فقط ،ويحرص أن يكون يوما غيرعاديا والإستثناء هو أن يتزوج أكثر من مرة !

أما الحدث الثالث : الموت .

ـ حين يحين موعد الرحيل لايملك الإنسان من أمر نفسه شيئا ، كما ولد بغير إرادة منه ، يموت أيضا بغير إرادة منه !

هاهم أهل العزبة كما تركهم منذ سنين ، لكن قانون التغير لايرحم أحدا ، وكأن على وجوههم ماكياج بفعل الزمن ، شعر أبيض ، تجاعيد فى الوجه ، بطء فى الحركة ، وأحيانا انحناء فى الظهر ،هذا حال معظم من كان يعرفهم ، ومازالوا على قيد الحياة ،وإن خرجت من أصلابهم أجيال جديدة لايعرفهم ، وإن كان يستطيع بشىء من الفراسة أن يدقق النظر وينسب الأبناء بالشبه لأبائهم ، أحيانا تصدق فراسته ، وأحيانا تخدعه ..لابأس .. فليسأل عنهم .. إن السؤال ليس محرما .

لم يشعر بالراحة كما ينبغى فى أى مكان فى العالم كما يشعر بها فى تلك العزبة المعزولة عن العالم ، وكأن الله خلقها نائية لتكون واحة للباحثين عن الراحة والسكينة أمثاله .

هى مسقط الرأس ومرتع الطفولة والصبا والشباب ، واستراحة الكبر والشيخوخة .. غادرها بحثا عن الحلم والعلم ،حقق العلم وعاد باللقب ،وإن كان أهل العزبة قد أصابهم الإحباط ،وهم ينادونه يادكتور ويسألونه أن يعالج أمراضهم المزمنة والمستعصية والطارئة فيضحك ويقول لهم أنه ليس طبيبا كما يظنون !

أما الحلم فقد أخفق فيه وطار فى الهواء كما تطير العصافير التى تغرد فى السماء ، ويسأل نفسه بشىء من الدهشة والحسرة كأنه فوجىء بأنه فوق الخمسين :

- ياالله .. هل جرى العمر بهذه السرعة ؟! وكيف تسربت أيامه وشهوره وسنواته من بين يديه دون أن يقبض عليها ؟!

تذكر المرأة البيضاء التى كسرته ، وسأل نفسه :

- لماذا يعقب الصعود السقوط ؟! ولماذا يتبع زهو الانتصار خذلان الانكسار ؟!

حاول أن يطرد تلك الأفكار المزعجة من رأسه ، وينحى تلك الخواطر من قلبه ،وهويدرك يقينا أن الإنسان كلما إزداد علما كلما إزداد شكا فى الأحداث والأشياء والأشخاص ، وربما ضاع يقينه فى أبسط الحقائق والبديهيات من حوله .

****

(38)

فى حضرة الليل الذى يكسو الحقول والديار بمهابة الصمت ، وخلف ستائر العتمة كانت هناك عينان جميلتان تذرفان الدمع على سوء الحظ ،تبكى فاطمة حلمها الذى تبخر فى أجر ثابت لعمل دائم مريح، انكسر الأمل وضاع العمل ،والرزق انقطع .. لاعدل على الأرض ..لكن ثقتها فى عدل السماء بلاحدود .

فى تلك الأثناء بدا لها الليل مفعما بالأسى ، مترعا بالحزن والجنون ،لم تفعل شيئا ليكون الطرد هو الجزاء .. نور القمر الفضى ينسكب على أغصان الشجر ،ويتمدد على المزارع والحقول كأنه وشاح من رب القمر يهديه لمن يشاء ، تستعيد ما أصابها فى هذا اليوم العصيب فيقشعر بدنها ، ولاتدرى كيف احتملت كل هذا الإفتراء ؟!

تسرى فى جسدها برودة كبرودة الموت ،ويبعث الخوف من الليل الموحش رعشة فى أطرافها، كما يهز الخوف من النهار القادم أعماقها .. لاتدرى لماذا أصبحت تخاف من الناس وتتحسب من شرورهم ، ولن يمنعها حذرها من مكرهم !

وحين أوشك الليل بسواده ، كان القمر يتأهب لينشر نوره على العزبة كلها بنخلها ، ونهرها وأرضها وديارها وأهلها الذين ينامون كثيرا مثل أهل الكهف . . ينامون أكثر من نصف أعمارهم وكأن للنوم متعة لايعرف سرها سوى الناس فى عزبة الحنكاتى !

تظل ساهرة مؤرقة تحكى حكايتها همسا وسرا للأرواح الليلية المسافرة نحو السماء ،لكن لاأحد يرد عليها .. كل فى فلك يسبحون ، احمرت الجفون وانتفخت العيون ،وأطلت الهالات السوداء حول الجوهرتين الساحرتين فى وجهها .. كانت قانعة بالقليل ، ولاتريد شيئا سوى الستر ، لكن غيرة النساء استكثرت عليها القليل ، قاتل الله الغيرة التى تنمو دائما فى حقولها الخصبة داخل صدور النواعم بنات حواء !

استدعت الحب والحنان والإنسانية من العالم الآخر ، فى هذا الليل الهادىء الطويل جاءها رضوان باسما صامتا يسمع منها ولايتكلم .

وحين سألته العون .. أشار بيده نحو السماء بخشوع ، يقصد لاتسألينى يافاطمة بل اسألى الله .

ظلت تحكى له وتشكى وتبكى ،لم ينطق بكلمة بل مد يده يربت عليها بحنان ، فمدت ذراعيها لتحتضنه لكنها لم تعثر عليه ، كان سرابا لطيفا وربما طيفا خفيفا لكنه اختفى مسرعا وعاد من حيث أتى .

لم يطل به المقام طويلا فى حضرتها مع الليل الطويل الذى يهيج الأحزان ، ويستدعى كل الألام من صندوق الذكريات .

ظنت أنه جاء يخفف عنها ماجرى لها فى المصنع لكنه سرعان ماغادرها مثل عابر سبيل أوضيف خفيف .

تبدو ليالى الشتاء فى العزبة معتمة ، والسماء تتناثر على صفحتها كتل السحاب الداكنة حين ينتصف الشهر العربى ،فى تلك الأثناء يرى الساهرون القمر مشطورا نصفين ، يبدو نصف واحد ويختفى النصف الآخر ..

لاأحد يدرى إن كان القمر ينشطر حزنا أم فرحا !

وحين تبكى السماء ، وتنهمر قطرات عينيها بحبات المطر يسطع جزءا من القمر ،ويخبىء نصف وجهه ربما خجلا من الدموع !

وتبدو بعد ذلك الحقول والشوارع والديار مغسولة لامعة ، وقطرات المطر لاتتوقف وتبلل كل شىء ،والمطر فى عرف الناس فى عزبة الحنكاتى خير لاينقطع ، وتطير من أثره رائحة شتوية محببة إلى النفوس التى تدرك معنى المطر .

فى تلك الليالى تهيج الذكريات ، وينهض الراقدون من وراء الحجب ، ويطل بعضهم من وراء الغيب البعيد ،ويأتيها رضوان حاملا مشاعل الذكريات دفعة واحدة ، ويشتد البرد وتتوالى زخات السماء بسيول من الخير ،وترتجف الأطراف وتظهر فائدة الأغطية الثقيلة .

عندئذ تحرص فاطمة عبدالعاطى على أن تضمن لتوأمها مايكفى من الدفء ، ما إن تغيب الشمس ، ويتوارى نصف قرصها الأحمر تحت السحاب الداكن حتى تصعد إلى سطح المنزل تحمل عيدان الحطب ثم ترميها وسط الدار لتكون مدفأة الصغار حين يهجم البرد ، ولايكتفى بالحطب بل تستعين بالقوالح أحيانا ، والطعام الساخن وبعده الشاى ،ولاتكف الأرملة الجميلة عن سرد الحكايات المسلية لطفليها حتى يأخذهما سلطان النوم من الدفء والشبع والسهر والسمر ! يلهون ويلعبون ويتسامرون كأنهم أطفال ثلاثة .

وإن كانت الأرملة المهزومة من داخلها ، يبدو مظهرها صلبا شامخا كالجبل الأشم ، وتحس بأن الليالى التى تمر عليها بدون عامود خيمتها طويلة غامضة ، ولكنها كلما مرت ليلة تخط بإصبعها خطا طوليا قصيرا على سطح الفرن المثقل بالسواد ، وكأنها تحصى الليالى الموحشة التى تعيشها بدون شريك حياتها .

تحاول أن تعوض صغيريها عن الأب المفقود ، لكن من يعوضها عن الزوج المخطوف ؟! من يرد إليها حبها المسلوب ؟! وكأن رضوان لم يرحل وحده بل رحل وأخذ نصفها معه ! وربما أخذها كلها ولم يترك منها شيئا لهذه الحيا ة ! تحكى لهما حكايات معادة عن الأيام الماضية ،لاتمل ولاتكل من الحديث عن شخص عظيم عاش معها سنوات معدودة لكن أثره خالد إلى الأبد .. هما أثره .. هما ثمرة حبه لها .. تحكى لهما عن فرحته بمولدهما حين رآهما لأول مرة كاد يصرخ من الفرحة ، وقبلهما طويلا .. وقال عنهما إنهما أجمل هدية من ربنا ، وأنهما أخذا جمال أمهما .

تحكى وتحكى كأنها خرجت من كتاب (ألف ليلة وليلة) بحكاياته الأسطورية ،وإن كانت تحرص قبل السهر والحكى أن تسد المناور الضيقة فى أعالى الجدران ، وتغلق النوافذ والأبواب بإحكام ، وتقطع الطريق على الفراغات من أن يتسلل منها وخز البرد فيصيب الصغيرين .

ثم تبدأ فى السهر والحكى .. تلك متعة الولدين فى ليالى الشتاء الطويلة ، وتستمتع هى أيضا بصحبتهما والحديث معهما فى كل شىء وكأنهما رجلين يحرسانها فى الدار .. وتترنم بأغنية حب قديمة للعندليب الأسمر عبدالحليم حافظ كان رضوان يحبها ويرددها دائما على مسامعها .. (أهواك وأتمنى لوأنساك وأنسى روحى وياك ..) ..
أحيانا تبدو فى قمة السعادة ، وأحيانا أخرى تبدو لولديها مهمومة أومريضة بداء غامض فيرق صوتها وتهذى بحشرجة ، ويهتز جسدها برعشة خفيفة غير مألوفة .

إن الحزن يستخرج منها حنانا نادرا وحبا جارفا ، ويظل توأمها مشدودا لحكايات الأم الأرملة ، يراقبان ملامحها كما لوكانا يراقبان كائنا متحورا .. وحين تشرق شمس النهار ، تشعر الأرملة أن انكسارها الداخلى بدأ يتلاشى كما تلاشت عتمة الليل ، لن تنظر خلفها أبدا ، ولن تتوقف طويلا فى محطات الإنكسار ، اتجهت صوب دار وصيفة تلك المرأة العجوز التى يسمونها أم الأرامل لأنها أكبرهن سنا وتتولى تدبير فرص العمل لهن فى الحقول والمزارع .

ليس لفاطمة من سند سواها بعد الله سبحانه وتعالى ، إليها تلجأ وإليها تشكو ،وليس لغيرها تبوح بالمسموح من البوح ، ودائما يحدوها الأمل فى تلك المرأة العجوز ،تنتظر فاطمة منها طاقة نور ،بارقة أمل بفكرة أومشورة أوفرصة عمل تفتح لها الأبواب المغلقة .

أخذتها الخالة وصيفة فى حضنها ، كما لوكانت ابنتها التى لم تلدها ،ولم لا أليست أرملة مثلها ؟! ولم لا وقد عانت من ويلات الترمل حتى أتمت رسالتها بعد نضال مرير مع البؤس والحياة ووصلت بسفينتها إلى بر الأمان ثم تقاعدت ؟! والآن تؤدى رسالة أخرى لاتقل نبلا عن رسالتها الأولى .. الآن تساعد الأرامل الجدد ، وكل أرملة حالة خاصة متفردة عن الأخرى ، فهناك من تعول أطفالها اليتامى ،وهناك من تعول زوجها المريض العاجز عن العمل ، وهناك من تساند زوجها فى حقله أوحقول الآخرين بأجر يومى حين يكون الرزق شحيحا .

حكت لها وشكت وبكت ماحدث لها فى أماكن شتى .. حكت لها مافعله مروان ذلك الفتى المراهق الأرعن المختال بثروة أبيه ، والمغرور كالطاوس بشبابه وشعره الطويل ! وقصت عليها ماحدث فى المصنع ، وغيرة المرأة الأخرى منها ، وخذلان صاحب المصنع لها خوفا من المواجهة مع زوجته .

تبسمت العجوز المجربة التى فهمت الحياة ، وخبرت بالضعف البشرى ، وأدركت نزوات الإنسان ، وتقلبات أحواله ، وهوس الرجال بالجميلات من بنات حواء ، وربتت على ظهرها بحنان وأمومة قائلة :

- لاتحزنى يابنيتى .. ولاتجزعى ..كل هذه أمور طبيعية فى دنيا الناس ، نحن لانعيش فى مجتمع الملائكة ،قدرك هذا هو قدر كل امرأة جميلة ، يافاطمة الرجال هم الرجال ، وسيبقون كذلك إلى يوم الدين ، هم يعشقون المرأة الفاتنة ، ويتهافتن عليها بشدة ، ولاتفزعى حين ترين الرجال وقد فقدوا عقولهم ، وتحولوا إلى كلاب مسعورة يعقرون كل جميلة خاصة لوكانت بلارجل يحميها !

الترمل يافاطمة أمر الله وقدره ، كتبه على البعض منا .. واعلمى ياحبيبتى أن فقد شريك العمر أعظم ابتلاء تصاب به المرأة ،لكن هذا ليس معناه نهاية حياتها ، وتعطل قطار عمرها .

للأسف الشديد مازال المجتمع الأعور ينظر للأرملة نظرة ظالمة ،لاترحم ضعفها ولاتحمى حقوقها ، ولكن علينا أن نحمد الله على كل حال .. ففى بعض بقاع الأرض يسجنون الأرملة وأحيانا يحرقونها بعد رحيل زوجها بزعم أن الأرواح الشريرة تسكنها .

شردت فاطمة وأطرقت تفكر .. ثم قالت :

ـ وشاية ظالمة ـ ياخالة وصيفة ـ أعادتنى لنقطة الصفر .. امرأة مجنونة طردتنى من العمل .. دبرينى ياخالة بالله عليك ماذا أفعل ؟! وكيف أدبر قوت توأمى ، والحياة لاترحم .. واحتياجات التوأم تكبر معهما ونفقاتهما تزداد يوما بعد يوم ؟!

بثقة امرأة مرت بكل المحن ، وجربت كل الفتن قالت :

ـ الله لم يخلقك ليضيعك يافاطمة أنت وتوأمك ..أنت الآن فى اختبار صعب ليس إلا ..فلاتجزعى .. واتركى الأمر كله لله .. ولاتنسى أن الشرع أباح للأرملة ثلاثة أمور أولها :

ـ إذا خرجت لقضاء احتياجاتها أوللقيام بزيارة أوغيرها من الأمور الضرورية وجب عليها ألاتبيت خارج دارها درءا للشبهات !

ثانيا :

ـ ألاتتعطر بالروائح النفاذة فتلفت نظر الرجال وتثير أنوفهم .

ثالثا :

ـ ألاتتجمل بالذهب والفضة والحرير والخلخال وغيرها من أدوات الزينة فيطمع فيها الذى فى قلبه مرض !

بدهشة تساءلت فاطمة :

ـ وكيف أخرج للحياة والعمل ياخالة وصيفة ؟!

ـ من حق الأرملة أن تخرج للحياة والعمل وقضاء كل مصالحها اليومية بشرط واحد .

ـ شرط واحد .. ماهو ياخالة ؟!

ـ أن تأمن على نفسها وشرفها .

تنهدت فاطمة وقالت :

ـ آه .. معك حق ياخالة وصيفة .. ولكن هل أهمل نفسى ومظهرى ؟!

ـ من حق الأرملة أن تمشط شعرها ، وتعتنى بطهارة جسمها ، وألاتلزم نفسها بالسواد أكثر مما ينبغى ،ولامانع شرعا من أن تكلم الرجال الغرباء للضرورة ، وأن تمارس حياتها الطبيعية كبقية خلق الله .

تنهدت فاطمة بحرقة :

ـ آه ياخالة ..كم أبغض جمالى هذا ..كان نعمة ثم صار نقمة ..ليتنى كنت قبيحة كى أكون فى مأمن من سعار الرجال ، وعيونهم الجارحة ، وأيديهم التى تشبه السيوف والخناجر !

وكيف لى ياخالة أن أخرج وحدى للحقول لأعمل عند رجل ؟! كيف أحمى نفسى وجمالى يسيل له لعاب الرجال فى كل مكان أذهب إليه ؟!

ضحكت الأرملة العجوز ، وتأملت فاطمة بإعجاب ، ثم حكت جبهتها بأناملها الخشنة الضامرة كأنها تستدعى عفريت الأفكار من قمقم فى رأسها ليسعفها بالحل ، وتقلصت ملامحها وقطبت مابين حاجبيها ثم قالت :

ـ حل واحد يافاطمة ينقذك من معاناتك تلك ..

ـ ماهو ياخالة .. أخبرينى به ؟!

ـ إذا كنت تخافين على نفسك من الرجال يافاطمة فكونى منهم ولاتبتعدى عنهم .

ذهلت فاطمة وسألتها باستغراب مريب :

ـ كيف ياخالة .. أقول لك أخاف منهم تقولين لى كونى منهم ؟!

ـ هذا أفضل حل يابنتى .. تنكرى فى ملابس رجل واعملى معهم فى كل مكان أمام أعينهم ، وبذلك تأمنين على نفسك منهم .. وطالما أنت رجل فلن يضايقك رجل أويفكر فى النيل منك .

ظلت مدهوشة لاتصدق ماتسمع ، وتمتمت فى نفسها :

ـ ملابس رجل .. أتنكر فى ملابس رجل ؟! وهل زى الرجل يكفى ويضمن لى الأمان ياخالة ؟!

ـ بالطبع يافاطمة ..إن نظرة الرجل للرجل سم .. أما نظرة الرجل للمرأة عسل .

ـ وماذا أفعل ياخالة بالله عليك ؟!

ـ عليك يافاطمة بقص شعرك مثل الرجال تماما أوأقل قليلا ،وتغطية رأسك بعمامة أوطاقية لاتفارقك أبدا طالما أنك خارج عتبة دارك ،وارتداء جلباب واسع فضفاض يخفى معالم أنوثتك ، وتضاريس فتنتك التى تخطف عقول الرجال ، وتجعلهم فى حالة جنون ،ويمكن لك أن ترتدى من تحت الجلباب ملابس قطنية بشرط أن تكون رجالى أيضا خاصة الصديرى والسروال ، رجل بمعنى رجل .. كونى رجلا يافاطمة تسلمى وتعملى وتكسبى وتمضى حياتك على مايرام !

ـ وهل هذا يكفى ياخالة وصيفة ..أشعر بالخوف من افتضاح أمرى وسط الرجال ؟!

ـ هذا هو الحصن الوحيد الذى يصد عنك الرجال ، ويمنعك من هؤلاء الأوغاد ، ولوكنت مكانك وفى جمالك لفعلت ذلك على الفور .. أنت من الآن يافاطمة ممنوعة من ملابس النساء ، ممنوعة من كل مايحرك غرائز الحيوانات الآدمية !

ـ وهل هذا معقول ياخالة ؟! وكيف لى أن أغير نوعى وأخرج من جلدى أمام الناس ؟!

ـ تستطيعين يابنيتى أن تفعلى المستحيل من أجل ولديك .. الأمر ليس صعبا كما أنه ليس سهلا .. كل مافى الأمر أن تعتادى على ملبس الرجال وخشونة الرجال ، وستجدين كل شىء على مايرام ..

ـ هل أنا رجل ياخالة وصيفة ؟!

ـ أنت منذ اللحظة أعظم رجل فى الدنيا كلها يافاطمة ..وعليك أن تنسى عالم النساء إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا !

ـ والعمل .. ماذا أعمل ياخالة لأكسب رزقى ورزق عيالى ؟!

ـ عملك عندى يافاطمة ..عملك عندى دائم وثابت بشرط ألاتكونى فاطمة ، ولاتعيشى بعد الآن فى جلباب الأرملة فاطمة عبدالعاطى .. إن الرجل يمكن له أن يعمل بين أقرانه الرجال فى الحقول والمزارع والمصانع ، ويمكن له أن يعمل بين النساء أيضا .. حين تكونين يافاطمة رجلا ستكون الدنيا كلها مفتوحة أمامك .. إن الرجال محظوظون بلاشك .

هزت فاطمة رأسها ، وأحست كأن خلية نحل تتصارع فى رأسها .. تفكر وتفكر فيما قالته لها تلك المرأة التى قهرت الترمل ،وصمدت فى وجه الريح حتى وصلت بأولادها إلى شاطىء الأمان ، وعبرت بأيتامها كل العواصف والأمواج ،وحين ارتاحت بلغت قمة الحكمة بفعل التجارب والمحن ، وصارت طاعنة فى السن لكنها تملك البصيرة الثاقبة والمشورة الناجحة لكل أرملة فى عزبة الحنكاتى تتلمس خطاها ،وتقتفى أثرها فى سكة الترمل !

اختمرت الفكرة فى رأسها ، وإن استغربتها فى البداية ، ونظرت لنفسها فى المرآة وتحسست مفاتنها بدهشة وذهول ، فكيف لها أن تخفى كل هذا ، وأين تخفيه ؟! ولوحاولت اخفاء كنوزها هل تستطيع ذلك ؟!

فى نهاية المطاف استحسنت الفكرة ،وأعجبت بها كثيرا بعد تفكير عميق وشىء من الحيرة والحذر خوفا من الفشل ،لكنها ضحكت مع نفسها على نفسها ، وهى تتخيل أنها صارت رجلا وظهر لها شارب ، وعضلات وخشونة فى الصوت ،ولكنها تقبلت كل شىء وتأهبت لتنفذ تلك الفكرة العجيبة ، وتظهر للدنيا بمظهر الرجل ، وإن بقيت مشكلة واحدة تؤرقها ،تبدو المشكلة صغيرة جدا كما تبدو كبيرة جدا ..

ماذا سيكون اسمها حتى تصبح رجلا ؟!وكيف ستقدم نفسها للناس وهى رجل ؟! وحين جاءت بالملابس وارتدها أمام المرآة ، وقصت شعرها وخشنت صوتها أحست بأنها تولد من جديد فى تلك اللحظة .. وكأن شخصا آخر تلبسها .. لم تعد فاطمة منذ اللحظة .. ربما يكون اسمها عنتر أوحسب الله أوبيومى .. المهم اسم ذكورى والسلام ، وكأن الحياة خلقت لتفتح أحضانها للرجال ، وتضيق على النساء كل مجال ! لم تحسم أمرها بعد ، ولم تستقر على اسمها حتى الآن ..

فى تلك الليلة سهرت كعادتها مع ذكرياتها تراقب السماء ،والسكون يخيم على الأجواء ، وكروان له صوت عذب كماء النهر يطوف بالأسماع ذاكرا خالق الأكوان .. الملك لك .. الملك لك .

وقد طابت نفسها وارتاحت روحها بما أشارت عليها به وصيفة (أم الأرامل) أكبرهن سنا وأطولهن عمرا وأكثرهن حنكة .

فى تلك الليلة من أمشير العاصف الغاضب المتقلب لايطير الكروان ولايتنقل كثيرا من مكان إلى مكان آخر ، وتغريده يحمل إلى النفوس الحائرة أملا ناعما بأن الحبيب الغائب الحاضر بروحه الهائمة حولها لايغيب عنها أبدا ، تحس به ويحس بها .

لم تر شيئا فى عتمة الليلة سوى مئذنة المسجد ، ليست مجرد مئذنة تشق الفراغ بأضواء عادية متناثرة فوقها ،بل هى دليل الحائرين ،وقبلة التائهين وقت الشدة وحين العسرة ، إليها يهفو القلب ويتجه البصر .. والكروان ينادى على النائمين يسبح ربه ، ويؤكد أن الذكر والدعاء خير من النوم .

بريق عينيها لايفارق بريق المئذنة ،تشعر برهبة كبيرة ورعشة كرعشة الدرويش الصوفى حين يطوف حول مقام مقدس ،تهمهم بكلمات غير مفهومة ، وتتمتم بدعوات غيرمسموعة تسأل الله أن يلهمها الصبر والقوة ، وأن يهبها الصمود والتحمل ،وتجاوز كل الحفر والمطبات كأنثى تخفى سحرها تحت جلباب رجالى خشن ، وتبتهل إلى الله أن يحفظ ولديها ويسدد خطاهما على طريق الفلاح والنجاح ، وييسر أمرهما فى رحلة كفاحهما من المدارس حتى باب الجامعة .

تسللت إلى غرفة نومها على أطراف أصابعها حتى لاتزعج فرخيها الصغيرين فى مرقدهما المخملى ، وعندما وضعت رأسها على الوسادة فإذا بالسكون يسمح للريح أن تحمل صوت الشيخ محمد رفعت يقرأ القرآن بصوت بهى جلى مهيب من فوق المئذنة .

إن الفجر قد حان ، ونامت العيون وعين الله لم تنم ..

تصل الأيات واضحة أحيانا ، وتبعثرها الرياح فى كل الأنحاء .. نامت بسرعة وأخذها سلطان النوم فى عالم آخر ، وخدر لذيذ من نوع عجيب حتى مرت الساعات القليلة ،واستيقظت الشمس من مهدها البعيد ،وجاءت تفرد ضفائرها على النهر ، ثم تغسل وجهها بمائه المعطر برائحة الطمى ، وترتدى ثوب الزرع الزاهى ، ويحرسها النخيل العالى كأنها عروس من السماء هدية لكل الناس فى عزبة الحنكاتى .

****

(39)

تلمع فى عينيها فرحة لايعرف سرها أحد ،ولفرحتها تلك ثلاثة أسباب ..

السبب الأول :

- أن رضوان زارها فى المنام بوجه ضحوك بشوش باسم القسمات ، وسألها أن تزوره فى قبره ، وتقرأ له ماتيسر من القرآن .

أما السبب الثانى :

- نجاح ولديها (عزالدين وشرف الدين) فى دراستهما وتفوقهما بشكل أسعد قلبها .

السبب الثالث :

- أنها ارتاحت كثيرا لفكرة الخالة وصيفة بأن تتنكر فى زى الرجال كى تتحاشى أطماعهم ، وتأهبهم لإفتراسها إذا حانت لأحدهم الفرصة على طريقة كلاب السكك المسعورة .

جاء يوم الخميس فإتجهت إلى المقابر التى تبعد قليلا عن ديار العزبة ، هناك فى الحقول ينام كل الذين طالتهم يد الموت ، وله يد طويلة لم ولن يسلم منها مخلوق .. لكن لكل منهم موعده، سارت مع السائرات بجلابيبهن السوداء ، المتشحات بالسواد من أخمص القدم حتى الرأس ، تفوح منهن رائحة خفية على استحياء لعطر رخيص الثمن ، لكنه يرضى الغريزة الأنثوية !

فى الطريق الترابى خلف الديار ، وبمحازاة النهر من الناحية الجنوبية قطعن الطريق ثرثرة فى كل الأمور وأدق التفاصيل ،همسا وغمزا ولمزا ، ويسود بينهن لغط مثل لغط الدجاجات فى الحظائر ، ولنعالهن القديمة البالية أصواتا خافتة فوق التراب ، وقد استقمن على الطريق طالما الطريق مستقيم ،ثم انحرفن مع الإنحناءة المتعرجة المفاجئة للترعة التى تشرب من النهر ، وتسقى الزرع فى الحقول المجاورة ،ثم تترك العزبة عند مدخلها لتلتف حولها من بعيد أحيانا ، ومن قريب أحيانا أخرى بشكل ملتوى ،بينما حركة الحياة تدور مثل طاحونة لاتهدأ ولاتكف عن الدوران .

هذا فلاح مقوس الظهر يحرث حقله ، وآخر منهمك يزرع ،وثالث يحصد بإخلاص وخشوع وكأنهم جميعا يؤدون صلاة للأرض الخصبة .

وهناك ـ غير بعيدعن المقابر ـ امرأة تركب حمارا ، وتدلى ساقيها بكل ارتياح بلاخجل ،وقد تعريا بلامبالاة منها وكأنها رجل .

وتحت شجرة جميز ضخمة تجلس امرأة أخرى عجوز بدينة مثل فيل أفريقى تستريح من عناء السنين ، ووهن العظم وطول الطريق وألام المفاصل ، ووزنها الثقيل .

وعدد لابأس به من البنات ينزوين فى خجل كى يتفادين تجمعات النسوة ، وعند مدخل المقابر وشواهدها يجلس بعضهن تحت شجرة صفصاف خضراء وارفة الظلال .

يجمعهن جميعا الإنتحاب بالدموع على الرجال النائمين فى القبور ..سلام عليهم جميعا من الزوجات المترملات والأمهات الثكلى ، والبنات المتيتمات .
بدت الأرض لفاطمة مرشوشة بماء خفيف من أول مقبرة إلى آخر مقبرة ، وحتى السبيل المطلى بالجير الأبيض ، جلست النسوة على الأرض فى منتصف الطريق بين مقبرتين ، وبينهن الخالة وصيفة الأرملة الأقدم والأكبر سنا بينهن جميعا .. تبدو جادة صارمة متجعدة الملامح لاأثر يظهر للحزن على وجهها لكن خطوط الزمن تركت بصمات واضحة لاتخطئها عين ،وربما يمحو الزمن كل شىء من الوجوه والقلوب ،ورأت أرملة من الجالسات بالقرب منها تبرق أساورها الذهبية ،وتلمع تحت أشعة الشمس الساطعة ،تأملتها وصيفة بتمعن طويلا ثم تحدثت إلى امرأة أخرى بجوارها همسا دون أن يسمع أحد من النسوة مادار بينهما ، وقد أسندت ظهرها إلى حائط المقبرة من خلفها والمكتوب عليها فوق قطعة من رخام بخط كوفى مزخرف اسم زوجها المرحوم منذ سنوات بعيدة ، ماعادت تحصيها !

جلل الحزن وجه فاطمة ، وخطف لونها الخلاسى الساحر فصارت شاحبة كالأموات بجوارها فى المقابر ،وهبط الدمع الساخن من عينيها الواسعتين السوداوين الخلابتين ، بينما بريق الأساور الذهبية يسرق عيون البنات ، ويثير حسدهن ، وأثار الضيق تبدو على الخالة وصيفة ، بينما الأنوف تلتقط رائحة العطر الرخيص الذى عم بين ردهات المقابر الرجالية ، وكأن النسوة يخبرن الرجال بأنهن حاضرات الآن عساهم ينهضوا من رقادهم الذى طال وأحرق أعصاب النساء طول الإنتظار !

وفجأة صرخت الأرملة الأم ، وهى تلف طرحتها فوق رأسها بطريقة آلية وعصبية وقالت :

ـ مابال بعض النسوة الأرامل يتباهين بالذهب والعطر ، بينما المقابر للعظة والإعتبار ، وليست للتباهى والتبرج .

ردت عليها أرملة أخرى تملكتها الغيرة من صاحبة الذهب اللامع :

ـ تراب .. كله تراب .. أين رجالنا الأشداء ياست وصيفة ؟! أين الشباب والفتوة ؟! تراب .. كله تراب .. هنا .

انفض جمعهن بين الخجل والحيرة والحسرة ، وتفرقن بأسى وأسف يمصمصن الشفاة .. بينما فاطمة تضع يدها على قبر زوجها رضوان وبصوت هامس متقطع من أثر البكاء تقرأ له الفاتحة ، وهى فى حالة قهر وذهول كأنه مات الآن !

مجموعة منهن سرن ،وهن يلملمن ذيول جلابيبهن السوداء ، ويتجولن بين المقابر كل يبكى على موتاه !

بينما بعض الأرامل منهن وقفن يحاولن أن يكتمن ما اهتاج فى قلوبهن من شوق وحنين ممزوج بالأنين ، والدموع فى العيون .. وقفن ضارعات خاشعات رافعات الأكف عند الرؤوس ، يقرأن قصار السور من القرآن الكريم .

وتنبهت فاطمة إلى أن مقبرة رضوان يغلبها الإهمال ،وتنتشر فى جدرانها شروخ وتصدعات تتسع للفئران تدخل وتخرج ،ولاحظت أن دهان الحوائط قد تساقط ، وظهرت الحجارة القديمة عارية مثل الأشجار فى الخريف ، كما تنبهت إلى أن قطعة الرخام المكتوب اسمه عليها بخط ساذج تكاد تنزلق من اطارها المتشقق .. شىء غريب .

تحسرت فاطمة على حال المقبرة التى لاتختلف كثيرا عن حالها ، وضرب التشقق جدران مقبرة رضوان كما ضرب التشقق جدران قلب فاطمة ، وراحت تزيح بكف يدها أوراق الشجر الجافة المتراكمة فوق المصطبة المجاورة للمقبرة مباشرة ، وانهمكت تكنس بغصن جاف تلك الأوراق المتناثرة أمام عينيها .. وسمعت فى تلك الأثناء أرملة أخرى تهمس لغيرها بحسرة :

ـ لم يهتم أحد من أقارب المرحوم بتجديد مقبرته !

ردت عليها الأخرى باستنكار :

ـ يتسابقون ويتصارعون على حطام الدنيا من الميراث فقط .

قالت وصيفة بصوت مرتفع ليسمعها الجميع :

ـ الله يرحم الرجال ..البقية فى حياتكن جميعا .

وكأنها تعلن لهن أن الزيارة انتهت .

ظلت فاطمة جالسة على المصطبة بجوار رضوان فى مرقده ،تخالجها أحاسيس غريبة مختلطة ، اغتراب ممزوج بشجن ،وشوق معجون بألم ،وفوق كل ذلك تبدو روحها مسحوبة منها ، بينما الأخريات جالسات غير بعيد منها ، يمصمصن الشفاة حسرة وندما .. وسحابة حزن تخيم على المكان ، فيلزمن الصمت الرهيب .. الصمت خشوع .. الصمت خضوع .. الصمت عبادة من نوع خاص .

يضعن أيديهن على وجوههن ، وعيونهن ترنو إلى المقابر ومن فيها ، ثم نهضت الخالة وصيفة باعتبارها الأرملة الأم واقفة ، وعروقها نافرة من رقبتها ويديها ،وجلبابها الأسود الكالح يسترها ، وبنظرات زائغة وسيقان جافة نحيلة معروقة ضامرة كأنها خرجت توا من احدى المقابر ، وفجأة هتفت :

ـ لا إله إلا الله .. استغفرن لأمواتكن يانساء عزبة الحنكاتى .. عليكن بالدعاء للغاليين الذين سبقونا إلى هذه الديار .

ثم سارت المرأة العجوز بضع خطوات حتى وصلت إلى جدار احدى المقابر ، وطبعت قبلة على الحائط وتأوهت بأنين :

ـ زوجى لا أنساه أبدا حتى لوعشت ألف عام ، ولاأهمله على الإطلاق ، وأدعو له ليل نهار حتى ألقاه فى جنة الله .. أيتها الأرامل .. هل نعوض نحن الأرامل مثل هؤلاء الرجال ؟! رحلوا عنا وتركونا نعانى الويلات ، انقضى زمانهم ، ونحن لنا الله وعليه أجرنا .

سكتت لحظات كأنها تفكر أوتتذكرشيئا منسيا ثم صاحت مبتسمة :

ـ أين الرجال من بعدهم ؟! لم تعد العين ترى رجالا .. كلهم أشباه رجال .. هناك أشباح رجال .. هناك عيدان من القصب لها شوارب مثل شوارب الرجال .. لكن أين الرجال ؟! ناموا فى المقابر آمنين مطمئنين !

أقول لكل أرملة .. اجعلى الصبر دستورك ..وذكرى زوجك نبراسا لك ولأودك .. وتمسكى بالأمل والحياة حتى يحين دورك وترقدى بجوار زوجك كما كنت ترقدين بجواره فى حياته !

ثم لاذت لحظات بالصمت ، ونظرت نحو فاطمة ،وصرخت صرخة شقت الفضاء ، وبلغت عنان السماء قائلة :

ـ المجد للأرملة .. المجد للأرملة .

فجأة ارتفع عويل النساء ، وصدعن بالبكاء.. عندئذ انصرفت الخالة وصيفة كبيرة الأرامل ، تتهادى هزيلة عجفاء تتحرك برعشة يمينا وويسارا مثل عقارب الساعة ، لاتدرى إن كانت ضعيفة أم عفية ؟!

وإن ظن بعضهم ، أن تلك الأرملة العجوز ربما تدخل مقبرة ولاتخرج منها حتى قيام الساعة ،لكنها ذهبت حيث وجدت صفيحة قديمة صدئة ملقاة على الطريق ،فمدت يدها إلتقطتها ثم ملأتها بالماء من الترعة ، ومالت بها على حوض الصبار بجوار مقبرة زوجها لتسقيه .. وبعد ذلك استدارت برقبتها ، ونظرت إلى النسوة الواقفات خلفها فى ترقب وهمست باسمة :

ـ لن أنساه .. حبيبى وقرة عينى .. مهما طال فى الغياب لن أنساه .. كيف أنسى نفسى ، وكيف أنسى قلبى النابض بين ضلوعى ؟! كيف أنساه وصورته تطالعنى كل لحظة فى وجوه أولادى ؟! فى يوم ما وأحسبه قريبا سأكون هنا معه .. وأنتن كذلك مصيركن هنا مع أزواجكن .

سادت لحظة خشوع ومهابة ، ولاصوت مسموع سوى صوت كبيرة الأرامل ، وهن يترقبن انطلاق المقرئين ، وعندما انتهى وقت تلاوة آيات الذكر الحكيم على أرواح الراحلين ، تحررن من أغطية الرؤوس ، وتجرأن على فتح الصدور عسى أن يستقبلن هبات النسيم الطرى الندى القادم من مكمنه الطبيعى فى الحقول الخضراء .

وحينما نزلت غمامة على الدنيا ، وزالت حرارة الشمس ، وانسحبت إلى صدر السماء الملامسة لجريد النخل العالى مرفوع الرأس المتناثر بكثافة حول العزبة ،نظرت الأرملة الشابة نظرة أخيرة ثم مدت يدها إلى شجرة صفصاف قصيرة متفرعة تمد أذرعها فى كل اتجاه ، ونزعت منها غصا زاهى الخضرة ، ووضعته بحنو ورفق فوق مصطبة مقبرة زوجها .

وهاهى عائدة إلى دارها مع غيرها من النسوة الأخريات ، وظل صدى القرآن الكريم يتردد بصوت أحد المقرئين على مسامعهن من مكان ما ، وبدا الصوت لفاطمة كأنه وسادة ناعمة يستريح عليها القلب المنهك من كثرة الإرهاق ، وعلى الوجوه والنهر والزرع والحقول هبت نسمة هواء رطبة فيها رائحة الأرض الطيبة ، ورغم حزنها العميق الذى هاج وماج واستيقظ من مكمنه ، وانتفض داخلها كمارد عملاق ، عندئذ أحست أن روحها تستيقظ ، ودقت الأسئلة الصعبة رأسها ..

ـ لماذا يموت الرجال دائما قبل النساء ؟! ولماذا يموت الشباب الخضر فى ربيع العمر ؟!

لماذا تركها رضوان وهى فى ريعان الريعان ؟!

ثم هتفت من أعماقها بمرارة :

ـ ياالله غفرانك .. لماذا ابتليت البشرية أصلا بالموت ؟! ولماذا كتب الله علينا الفناء ؟! الحياة ياربى بلارجل صحراء بلاماء ! لامعننى لها ولاتطاق ..ياربى خلقت المرأة نصف كائن ،وأكملت هذا الكائن بكائن آخر ألا وهو الرجل .. هى منه وهو منها .. سبحانك فى حكمتك مانعلم منها ومالانعلم .. لك الأمر ياإلهى من قبل ومن بعد .

كعادتها فى الليل تهاجمها الذكريات ويعذبها الحنين ، ولايتركها الشجن ، وقد زحفت صور الحبيب على جدران غرفة نومها ، عندئذ أضاءت ابتسامتها ظلام الغرفة ، وتوأمها يغط فى سبات عميق ، وحين جاءها طيفه لطيفا باسم الثغر استيقظت كل حواسها ، واستنفرت أنوثتها التى ظنتها ماتت ،وشبعت موتا من بعده لكنها اكتشفت أنها مخطئة ، وأن الحواس كلها تظل على قيد الحياة مادام القلب حيا نابضا .

فى بعض الليالى الشتوية الطويلة تشتهيه وتناجيه ، عساها تعيد اكتشاف شبابها كامرأة ، فهى مازالت كالبدر فى تمامه ، وترى ذلك جليا واضحا فى المرآة وفى عيون الناس أيضا ..كل شىء يمكن اخفاؤه عن العيون إلا الجمال فهو يفصح عن نفسه ، ويصرخ ليفضح نفسه ،ويعبر عن مواطنه ويعترف بأماكن خبيئته !

مازالت كما هى لها جسد يافع فائر ممشوق مشدود كوتر ينتظر الأصابع ليبدأ بالعزف ،لها نضارة واستقامة ورشاقة شجرة لبلاب !

فى أعماقها الجرداء يستوطن الحرمان ، وتسح الدموع ، وينام الناس ولاتنام جوارحها .

كانت تتمنى أن تطول رحلة عمره ليبقى معها مدى الحياة ،ولايموت قبلها أبدا ،وإن كانت تحاول قدر طاقتها أن تستعيده بكل الطرق وتستبقيه لأطول فترة ممكنة .. دائما تفتش عنه حولها وفى ذاتها وبين طيات ذكرياتها ، وماهى إلاهو .. وذكرياتهما وحياتهما واحدة .

ويمضى الليل بطيئا مملا إلى منتهاه ومستقره حتى آخر رمق فى ظلامه ، تفتش فاطمة فى أشيائه المنسية ، تفتح صندوق ملابسه الخشبى القديم ، فينبعث منه صوت نشاز لأنه لم يفتح منذ وقت طويل ، منذ رحل ربما .. تنفض تراب الأيام والشهور والسنوات من فوق ماتبقى من ملابسه بعد أن تصدقت بمعظمها ،برجفة ورهبة تمسك بيدها جلبابه الصوفى الذى كان يفضله ، ويرتديه لصلاة الجمعة ، ثم تخرج الصديرى الأبيض الزاهى ،والحذاء اللامع ذو اللونين الأبيض والأسود .. نوع قديم كلاسيكى من الأحذية لم يعد له وجود فيما بعد ،وربما يكون موجودا لكنها تتذكر أن رضوان اشتراه من سمنود خلال زيارة لهذه المدينة التاريخية الصغيرة بعد زواجهما بقليل ،وعثرت أيضا فى صندوقه على جوربه الأبيض القطنى ، والطاقية التى غزلتها له بيدها من صوف خروف ذبحوه فى عيد الأضحى .

وسلسلة مفاتيحه ومحفظته الجلدية ، دبت الحياة فى روحها من جديد ، وهى تمسك أشياءه ، وتشم رائحته رغم الغبار والعطن فى الصندوق من طول الإغلاق ، صارت حياتها مثل هذا الصندوق ومافيه ،كل شىء فيها توقف ، هى ذاتها صارت وقفا لرضوان الذى رحل وتركها .

ضربت بيدها على الجلباب والصديرى والطاقة ،نفضت الغبار فتناثر أشلاء فى الغرفة ،ثم وقفت أمام المرآة تخلع ملابسها ، وترتدى ملابسه ،وقد أمسكت بالمقص ، وقصت شعرها بنفسها حتى قصرته تماما مثل رجل ، ورأت نفسها بملابس زوجها فانتابتها فرحة كبيرة كأنها استعادته من بعيد ، كل شىء يناسبها تماما وعلى مقاسها باستثناء الحذاء واسع بعض الشىء ، قدمها الصغيرة تمرح بداخله كما لوكانت فى قارب !

لابأس الآن رأت نفسها مثل الرجال تماما ، طولها واستقامة عودها يوحى بأنها رجل مكتمل الرجولة ، والجلباب الواسع يخفى مع الصديرى مايشى بأنوثتها ،رأت نفسها رجلا ولاكل الرجال ..لكنها حتى الآن لاتعرفه.. من يكون وماسمه ؟! وحين يخرج هذا الرجل للناس فى الحقول البعيدة والمزارع الشاسعة بأى اسم يلقاهم ، ويقدم لهم نفسه ؟!

أه .. أخيرا وجدت حلا .. حفظ الله الخالة وصيفة ورأسها الكبيرة ،هى الآن تحتاج إلى الاسم فقط ، ولماذا لاتسمى نفسها رضوان طالما دخلت فى ملابسه ؟! وهل هناك أفضل من اسمه .. أعجبها الاسم كما أعجبتها الفكرة .. ومنذ

اللحظة ستكون هى رضوان .. طالما أنها ستعيش فى جلباب زوجها فلامانع من أن تحمل اسمه أيضا حبا فيه وامعانا فى التخفى .

وحين يناديها أحد ويقول .. يارضوان ..لن تشعر بالاستغراب ،ولن تنسى أنها هى رضوان ،ورضوان هى ، وحين تسمع اسمه الذى هو اسمها الجديد ترتاح نفسيا ، فهاهى أعادته إلى الحياة ، وأعادت الحياة إلى نفسها أيضا ، فالذكر حياة تتحدى النسيان ! وربما تنسى اسمها للأبد ،، وتعيش فى جلباب زوجها ، لكنها ستكافح فى الحياة وبين الرجال تحت عباءته ورعايته واسمه !

لطالما حيرها الإسم الذى تواجه به الناس فى الحقول والمزارع .. لكن الله هداها .. ولم لا .. أليس الأقربون أولى بالأسماء ؟!

أليس هو من تحمل اسمه إلى يوم تلقاه فى الجنة ؟! كانت له فى الدنيا طوال حياته ، وستبقى له طوال غيابه ، وستكون له بعد رحيلها إليه .. ماأسعدها باسمه وملابسه ..لاخوف عليها اليوم .. وعلى الذئاب البشرية أن تعوى بعيدا عنها .

رغم سعادتها الخفية لم يتركها شيطانها تهنأ باللحظة ،ولم يتركها فى حالها بل وسوس لها بأن ماتفعله ربما يكون حراما ، وضد شرع الله فهى تريد أن تكسب رزقها بالحلال ، وتكون فى مأمن من نهش الكلاب الضالة .. عندئذ أحست بالحيرة ،ولابد لها أن تسأل فى الأمر ، ولكن من تسأل ياترى .. هل تسأل الخالة وصيفة ؟! بالطبع لا .. فالمسالة شرعية ، وليس أمامها سوى أن تسأل أهل الذكر .. وأهل الذكر هنا هو إمام المسجد ..آه .. الشيخ يعقوب .. الرجل التقى الطيب .. الكفيف حامل مشاعل النور من كتاب الله فى صدره ، طويل البال ، الذى يفتى بما أمر الله ورسوله ،هو وحده الذى يدلها عما إذا كان تنكرها فى زى زوجها ، وخداعها للجميع من أجل رزقها وقوت ولديها حلال أم حرام ؟!

وهل تنكرها هذا يعد نوعا من الغش والتدليس على خلق الله ؟!

ولوكان غشا فهذا يغضب الله ورسوله بكل تأكيد لأن رسولنا الكريم يقول (من غشنا فليس منا) .. حينئذ عليها أن تذهب إلى الشيخ يعقوب ، والشيخ يظل موجودا بالمسجد منذ صلاة المغرب حتى إلى مابعد صلاة العشاء ، فالوقت قصير جدا بين المغرب والعشاء ،ترقبت أن ينتهى الرجل من صلاة العشاء بالناس ، وظلت تحوم حول المسجد تتنظر حتى فرغ المصلون من صلاتهم ، وخرجوا من المسجد فرادى وجماعات ، بعضهم يلزم الصمت ، والبعض الآخر يلزم الاستغفار والتسبيح وذكر الله ..وعندما خلا المسجد من رواده ، وبدأ عبده عامل المسجد يتأهب لإغلاق النوافذ ، واطفاء الأنوار ،انتهزت الفرصة ودخلت بيت الله على استحياء ثم اقتربت من الشيخ الضرير فى غفلة من العامل الفظ وقالت :

ـ السلام عليكم يامولانا ..أنا فاطمة عبدالعاطى .

تبسم الرجل وقال ببشاشة ولين قلب .. ولاشىء يعادل لين القلب ، وكأنه يفكر ويتذكر هذا الصوت من خلال فلتر داخله ، وقبل أن يقول شيئا استرسلت تذكره بنفسها قائلة :

ـ أنا فاطمة عبدالعاطى .. أرملة المرحوم رضوان يامولانا .

بنبرة ترحيب وقور قال الشيخ :

ـ بارك الله فيك يابنيتى .. أنت التى ستسابقين رسولنا الكريم على دخول الجنة .. كيف حالك وحال أولادك وحال والدك يافاطمة ؟!

ـ الحمد لله يامولانا .. كلنا بخير .. جئتك لأسألك فى أمر يهمنى .. أمر قررت أن أفعله وأخشى أن يغضب الله ورسوله .

تمتم الشيخ واستغاذ بالله من غضب الله ، وأصابعه تنتقل على حبات مسبحته بعفوية ،وولده صلاح الدين جاء وجلس صامتا إلى جواره ثم مد يده الصغيرة فى يد والده كى يخبره أنه موجود ..

عندئذ تكلمت فاطمة بطلاقة ، وطرحت عليه خطتها للعيش فى جلباب رجل .. رجل ليس بغريب عنها وسألته :

ـ هل هذا غش يامولانا ؟!

تبسم الشيخ يعقوب وقال :

ـ يالك من امرأة ذكية .. هل أنت مضطرة لذلك يافاطمة ؟!

ـ لولم أكن مضطرة مافكرت فى هذا الأمر يامولانا.. والله وحده يعلم .

ـ وما وجه الاضطرار ياابنتى ؟!

ـ الرجال يطاردوننى بعيونهم ،وأقوالهم وأفعالهم يامولانا فى كل مكان أذهب للعمل يلاحقوننى طمعا فى حسنى وجمالى .. فماذا أفعل وأنا مضطرة للخروج من دارى من أجل لقمة عيشى ونفقات توأمى ؟!

هز الرجل رأسه وقال بعد لحظات من التفكير العميق :

ـ يابنيتى ماتفكرين فيه هوعين العقل ..ولايغضب الله ورسوله على الإطلاق بل العكس هو الصحيح ..وربنا يقول فى كتابه الحكيم (فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلاإثم عليه) صدق الله العظيم ..

ـ أريد أن أسألك يامولانا عن الزوج فى الآخرة .. هل هو نفسه الزوج فى الدنيا ؟! لقد أحببت زوجى حبا جما فى الدنيا ،ولاأريد الزواج من بعده .. فهل أكون زوجته فى الدار الآخرة ؟!

ـ يافاطمة .. إذا دخل الزوج الجنة ، وكانت زوجته صالحة فإنها ستكون زوجته فى الجنة بإذن الله ، وذلك مصداقا لقول الله تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من أبائهم وأزواجهم وذرياتهم) صدق الله العظيم .

كما يقول الحق سبحانه وتعالى أيضا (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) صدق الله العظيم .

أما إذا تزوجت المرأة أكثر من زوج ودخل جميعهم الجنة فالمرجح أنها ستكون فى الجنة لآخر أزواجها فى الدنيا ..والدليل ماقاله أبوحذيفة لزوجته ..

(إن شئت أن تكونى زوجتى فى الجنة فلاتتزوجى بعدى ، فإن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها فى الدنيا) لذلك حرم الله على أزواج النبى أن يتزوجن بعده لأنهن أزواجه فى الجنة ، وهن أمهات المؤمنين .. واعلمى يافاطمة أن عدم زواجك بعد زوجك الراحل طمعا فى أن تكونى له فى الجنة.. هذا حقك وهذا صحيح ومباح بإذن الله .

شكرته وقد سرها ماقاله واطمأن قلبها بماسمعته منه ،وخرجت من المسجد راضية مرضية ،بينما الشيخ الضرير يمسك بيد ولده بحرص شديد ليتغلب على الظلام ،ويصل إلى داره بأمان وسلام .. ثم فكر قليلا وسأل ولده :

ـ قل لى ياصلاح الدين .. مارأيك فى فاطمة بنت عبدالعاطى ؟!

ـ من أى ناحية ياأبى ؟!

ـ ألم ترها ياولدى ؟!

ـ بلى ياأبى .. لقد رأيتها وتأملتها جيدا .

ـ هيا تكلم ..كيف وجدتها ؟! جميلة .. قبيحة .. قل لى ياصلاح الدين .

ـ أتريد الحقيقة ياأبى ؟!

ـ لاأريد سوى الحقيقة ياولدى .

ـ والله مارأيت أجمل منها فى حياتى ولافى خيالى ..هى خليط من جمال فاتن حمامة وهندرستم ومارلين مونرو !

تعجب الشيخ وقال بدهشة ضاحكا :

ـ آه منك ياصلاح الدين .. أنت عفريت صغير ..عرفنا وسمعنا عن فاتن حمامة وهندرستم .. لكن من تكون مارلين مونرو ؟!

****

(40)

جاء شهر مارس كما يجيء كل عام بما له وماعليه ،تبدأ الحياة تغير جلدها وتبدل ثوبها ،مثلما فعلت الأرملة فاطمة ،وتبدو أوراق خضراء غضة صغيرة زاهية ، تستسلم للندى وهى عارية فوق أغصان الشجر فتغتسل وتتوضأ لصلاة جديدة فى موسم الربيع .

أما النهر العابر لعزبة الحنكاتى كضيف كريم ، لايضن بخيره وعسله الصافى على أحد ،ويصب من عصبه إلى شرايينه فتمتلىء الترع والقنوات الصغيرة الرفيعة الممتدة بين الحقول ،تجرى فيها مجرى الدم فى العروق ،عندئذ تفتح الحقول مسامها فتخرج منها براعم القطن والأرز والفول والبرسيم والبطاطس والذرة ،يمتزج لونها الأخضر بسمرة الأرض الخصبة العفية .

فى حين أن فاطمة عبدالعاطى الأرملة الفاتنة مثلها مثل الطبيعة والأرض والسماء والمزارع تتغير من الداخل ومن الخارج ،فكل ملابسها ملابس رجل باستثناء حمالة الصدر السميكة المشدودة حول أضلعها الناعمة عساها تخفى نهديها البارزين كأنهما يتحديان العالم ، فلاينكشف أمرها ، ولاتظهر أنوثتها ولايشك أحد في أنها أنثى ،(وليس الذكر كالأنثى) كما يقول خالق الذكر والأنثى .

تتخفى الأرملة فى صورة رجل ، وتنطلق إلى أى حقل بعيد تحدده لها الخالة وصيفة .. تتوكل على ربها فى ساعة الفجر الرمادية حيث تتداخل الأشياء بغموض رهيب بفعل الغبشة وبقايا الليل ، والسكون يصل إلى منتهاه ، وصياح الديوك فوق أسطح ديار العزبة يعلن عن قدوم الفجر ، والصبح يصحو ويتنفس !

تتقمص شخصية رجل ،وليس أى رجل .. رضوان الذى تحمل اسمه بمجرد أن تدخل فى ملابسه ،سواء القديمة التى كانت مكمورة فى الصندوق الخشبى العتيق ، أوالجلباب الجديد الذى اشترته هى مؤخرا .. تمشى كرجل وتتكلم كرجل ،وتعامل الآخرين كرجل .

وتبدأ بالتوكل على الله رحلة نضالها مع أول ضوء للنهار .. فى مارس من كل عام تحط الشمس رحالها فى العزب والنجوع والكفور ، والحقول القريبة والبعيدة ،تبث الشمس دفئها وخيوط ذهبها اللامع كى توقظ الأشياء والكائنات والأشجار التى بث فيها الشتاء روح البرودة !

فى تلك الأجواء من نسمات واشراقات مارس تستيقظ الزروع وتظهر الثمار ، وتخضر الدنيا كما تخضر القلوب ، وتنهض عواطف الناس من سباتها الطويل ،وتلمع الحياة وتبرق فى عيونهم بالأمل الوضاء .

فى مارس يحلو للفلاحين وحريمهم وأولادهم أن يخرجوا منذ الصباح الباكر لحقولهم ومزارعهم ، أولحقول غيرهم يبحثون عن أرزاقهم وأرزاق عيالهم .

الفلاحون فى الغيطان وزوجاتهم معهم يعملون فى الأرض بدأب كالنمل ، يزرعون ويحصدون طرح الحقول ،والنخل مرفوع الهامات يشهد عليهم ويحرسهم ،وبأشعة الشمس الدافئة يذيبون البيات الشتوى النائم فى الأعماق ، فيتنحى البرد من المشاعر جانبا ،وتتفتح القلوب للحياة ،تماما كما تفعل الأشجار فى الربيع .. يتنفسون هواء نقيا صافيا ، ويرسلون عيونهم نحو قرص الشمس ،وينزعون اليأس والبؤس من الصدور .

تحمل فاطمة عبدالعاطى حقيبة من قماش متين تعلقها على كتفها فيها الزاد والزواد من طعام وشراب ،وتسرح فى دنيا الله ،ولاتدرى متى تعود إلى الدار ،فربما لاتعود إلى حين يهبط الظلام ، وينادى منادى المغرب إلى الصلاة .

ومن كثرة الاختباء تحت جلباب الرجل ، وتحت جلد الرجل ، أحست بخشونة الطبع الرجالى ، وصار صوتها أجشا خشنا خشبيا ، وأحيانا تتحسس فوق شفتها العليا خوفا من أن ينبت لها شارب كشوارب الرجال !

وكذلك ذقنها تتلمسها بحرص خشية أن تنبت فيها لحية كلحى الرجال ،وتخشى أن تنفرد بنفسها فى كثير من الأحيان فى غرفة نومها ، وحين تبدل ملابسها فتجد أن أنوثتها قد تلاشت وذهبت مع الريح !

تخاف على تضاريسها وأنهارها وهضابها وجبالها من أن تمحوها الصفة الجديدة ، فتهتف من أعماقها .. ياللمصيبة ! تخاف أن تحل معالم الرجولة مكان تضاريس الأنوثة ، عندئذ تدرك أن لعنة الرجال بلانهاية

للمرأة فى كل الأحوال .

ومن شدة خوفها تطمئن فى غرفة نومها بعيدا عن كل العيون حتى صغيريها ،وتقف أمام المرآة عارية تماما وتبتسم وتحمد ربها أن كل شىء فى مكانه الطبيعى كما خلقه الله .. ولاتبديل لخلق الله .

تتخلص من هواجسها، وتنفض عنها غبارالخوف والقلق ،وتحمد الله على أنوثتها ، وإن كانت تكره تحول الكائنات ، فقد كانت تسمع حكايات كثيرة وهى طفلة صغيرة من جدتها تؤكد لها أن العفاريت كائنات تتحول إلى قطط ، وأن الشيطان يظهر للإنسان فى صورة كلب .

لكن أكثر ماتكره فى تحول الكائنات هو تحول الذكر إلى أنثى ، وتحول الأنثى إلى ذكر .. إنها تبغض المتحولين أنفسهم وتبغض تحولهم ، لأنهم يتمردون على إرادة الله ، ويحاولون الخروج من القالب الذى صنعه الله لهم .

لايذهب الجميع إلى الحقول مبكرا ،فهناك من يذهبون عند الضحى ، وحين ترتفع الشمس لأعلى السماء ، يتمايلون وهم كسالى ،وكأنهم يسيرون نياما .

كل منهم يتمطى من أثر الخمول ، يتمنون ألاتشرق الشمس كى لايفارقوا مخادعهم ،ومعظم هؤلاء من الملاك الصغار للحقول ، وليسوا أجراء عند الآخرين ،وهم يشعرون بأن قوتهم مضمون ، أليست الأرض أرضهم حتى ولوكانت صغيرة المساحة ولاتزيد عن فدان واحد ؟!

لايختلف الأمر كثيرا بين النساء والرجال ، وكأن الأرض تنادى خدمها .. يذهب الرجال والنسوة إلى الغيطان ، ولايعودون إلا مع زوال قرص الشمس وانسحاب النهار ..فى الحقول يتناولون طعام الغذاء ، ورائحة الزرع الأخضر تملأ خياشيمهم ، ومشقة العمل تترك أثرها على الأيدى الناعمة أكثر وضوحا من أيادى الرجال الخشبية !

تظهر التشققات على الأيدى الناعمة ،والجلد الأملس يصيبه التقشف ، ويضربه الجفاف والتيبس .. هذا ماحدث بالفعل مع فاطمة عبدالعاطى ملكة جمال الأرامل فى عزبة الحنكاتى ،والتى تحرص على أن تقدم نفسها لكل من يتعامل معها أوتعمل فى حقله بأنها رضوان .. رضوان عبدالعاطى .. وتحب أن تسمع اسمها الجديد من أفواه الآخرين .

ياالله .. أى حياة قاسية تلك التى تحياها ، ولم تكن تخطر لها على بال فى يوم من الأيام .

فى اليوم الواحد تغير الشمس ثوبها أكثر من مرة ، وتغير الدنيا وجهها ، وتمل السحاب من طول الوقوف فتذهب وتأتى بألوان مختلفة ، تسعى الأرملة الشابة مع البائسات المكافحات مثلها سواء كن أرامل أوفقيرات يساعدن أزواجهن على المعيشة .

كلهن فى الهم سواء ،ويمر الوقت عليها بين الضحى والظهيرة ثم العصارى وحتى تحين لحظة الشفق ،ثم الغروب الآفل ، كل أحوال النهار وتقلباته .

تسمع طنين النحل ، وتحس بأنين النخل الذى لايغادر شموخه ، ورأسه المرفوع فى العالى ، يطير النحل فوق الأزهارهنا وهناك ،وتأكل البهائم من البرسيم الأخضر كى تحوله بقدرة قادر إلى لبن أبيض كامل الدسم ،فيه لذة وصحة للشاربين ، وحين تتعامد الشمس فوق الرؤوس ،وتصوب سهام حرارتها تخرج فاطمة لتكون بين الرجال الغرباء متشبهة بهم إن لم تكن مثلهم تماما ، وتعمل مع النساء وهى منهن دون أن يدركن لولا ثوبها الرجالى لظهر الحق وزهق التنكر .. وعندما يحين وقت الراحة يجلسوا جميعا تحت شجرة جميز عتيقة عجوز كأنها أرملة هى الأخرى لكن جذورها عميقة ضاربة فى أعماق الزمن والطين .

يأكلون معا ويتناقشون معا ويضحكون ولايتوقفون عن الحكى حتى يمر النهار ،ويتناسون ساعات الشقاء الطويلة ،كأنهم يخدرون أنفسهم ، ومنذ خبأت فاطمة نفسها فى جلباب رضوان تناست أنوثتها ، وقد أمنت على ثروتها تحت هذا الجلباب الخشن ، ومن تحته سروال طويل ،وصديرى رجالى أبيض محكم الإغلاق فوق حمالة الصدر التى تضع النهدين تحت الإقامة الجبرية ،وإذا رمق أحد الرجال صدرها بنظرة عابرة شعرت بالخجل ،ثم سرعان ماتذكرت أنها رجل مثله أوعلى الأقل شبه رجل !

صارت فاطمة أكثر جرأة ، ولاتخشى الإقتراب من الرجال أوالتلامس رغم أن جلدها محرم لمسه على الآخرين ، وهم يظنون - وليس كل الظن إثم - أنها من نفس صنفهم ومن ذات جنسهم .. ماأحمق الرجال وماأكثر سذاجتهم !

امرأة فاتنة وأرملة وحيدة بين أيديهم وهم لايدرون .. عميان بعيون مفتوحة على كامل إتساعها وهى لم تعد تخاف أن يضعف الرجال أمام سحرها ، لأن مظهرها الرجالى الخشن تحت الجلباب الواسع الفضفاض يدارى كل المنحنيات والنتوءات ومفاتن القوام الممشوق .

وحين تعود إلى دارها مرهقة آخر النهار ، وتتحرر من ثوبها الرجالى الثقيل كأنه قيد حديدى ، ترتاح وتشعر بأنها منطلقة بلاحدود ولاقيود ،فتستحم فى الحوض ثم تقف أمام المرآة نظيفة لامعة ترى جسدها يضوى تحت الضوء فى غرفة نومها ،وجلدها الشاحب صار مفعما بالتوهج ،تستيقظ روحها من غفوتها ، وتفيق من سكرتها ، وتستدعى شبابها المهدور فى بئر الحرمان ، فتلعن الترمل فى سرها ، وتود أن تلعنه فى مئذنة المسجد ليعلم القاصى والدانى مأساة الأرملة .. كل أرملة !

وإن كانت تخشى أن يسمعها أحد خاصة رضوان الغائب الحاضر ، لأنها تحس به ، وتشعر بروحه تحوم حولها ، هو معها فى الدار يراها ويسمعها لكنه لايكلمها ، ربما لايستطيع ..ومنذ متى جاء أحد من الدار الآخرة وكلم أحدا فى الدار الأولى ؟!

لن تسمح للحرمان أن يجهض عزمها ، ولن تسمح للعتمة أن تطفىء نور أملها ،ولن تسمح للضعف الإنسانى أن يمزق خيوط صبرها .

هذا قدرها ..وعليها أن ترضى به ، وسيكون أجرها عظيما عند ربها ولاشك فى هذا ، وستكون الجنة مقر إقامتها الدائم مع رضوان كما قال لها الشيخ يعقوب .

تجفف قوامها الرخامى بفوطة قطنية ،وبفرح ومرح تحرر من دولاب ملابسها قميص نوم وردى كان يحبه رضوان كثيرا ، ويحب أن يراها تتألق داخله ، قميص من حرير .. قصير يكشف عن ساقين من مرمر ، مفتوح من أعلى الركبتين ، ويسمح للساقين أن تلهوان بكل ارتياح كأنها راقصة مصر الأولى إذا رقصت أمامه ، وكثيرا مافعلت ،مازالت تتذكر دهشته ولهفته وتهافته عليها حين ترتديه ! يكشف القميص عن رقبة مشدودة مثل رقبة نفرتيتى ،وصدر نافر مستنفر كأنه يعلن عن معركة وشيكة مع رجل ما ..سبحان من صور وأبدع .

ودائما تشعر برغم جمالها الذى لاتخطئه عين العدو أوالحبيب أن شيئا ما ينقص جمالها هذا ..وأنه فيه عيب ما ، ربما تتمنى أن يكون لها صدر أعرض أوأكبر .. لابأس فكل النساء فى العزبة وفى غير العزبة يحسدنها على ماوهبها الله .

ولكن شيطانها وسوس لها بأن الكمال ليس للنساء ..عندئذ تمد يدها فتعقص شعرها القصير للخلف مثل الرجال ،وتضع فيه وردة حمراء كالنساء ، وتعاود النظر فى المرآة لتراقب ملامحها ،ثم تضع على شفتيها اللون الأحمر البراق فتزداد أنوثة وسحرا ،تحدد الشفاة بالأحمر ، وتحدد العيون الواسعة بالكحل الأسود ، تفعل ذلك بعناية وسعادة كأنها عروس حان وقت زفافها لفارس أحلامها وأميرغرامها .

فى المرآة ترى شفتيها مكتنزتين شهيتين جذابتين ، وفمها مرسوم بدقة ، وإن كان واسعا بعض الشىء ، لكن لابأس ، فهى تحس أنها جميلة كالعادة أوأكثر فيشع وجهها بالرغبة التى تضطرم بداخلها مثل نار لاتنطفىء

هنا فى محرابها وقدس أقداسها غرفة نومها لااختفاء ولااخفاء لنعمة الله .. الأنوثة نعمة كبيرة ..هنا فى غرفة نومها وأمام مرآتها تفعل ماتشاء ،تعود لأصلها فى حصنها الحصين وقرارها المكين .

لاتخفى عواطفها فى هذا المكان ،ولاتنكر مشاعرها ولاتخجل من جاذبيتها ،ولطالما كان جمالها يثير غيرة النساء كما يحرك مطامع الرجال .

هنا فى حصنها لن تخفى شيئا .. سترى نفسها كما أراد الله لها أن تكون ،ولن يراها أحد سوى الله وربما رضوان لأنها تظنه مازال موجودا فى غرفة نومهما لم يبرحها .

تتنهد وتهمس لذاتها وهى تتأمل ذاتها بإعجاب :

ـ آه يافاطمة .. آه من سحرك وسرك الآسر .. من أين لك كل هذا يابنت عبدالعاطى ؟!

تضحك وتعطر وجهها وصدرها وجيدها من زجاجة صغيرة لها فم رفيع جدا كلما ضغطت عليه انطلقت منه خيوط لرائحة مبهجة نفاذة أخاذة .. وتقول لمرآتها :

ـ مأأجملك يافاطمة .. أنت أميرة وتستحقين أكثر .. بل أنت نادرة الحسن لكنك سيئة الحظ .. على كل الرجال أن يركعوا تحت قدميك ..ويقبلوا يديك .. ولوفعلوا فلن تكونى لأحد غير المرحوم !

آه من الليل والصمت والفكر والخيالات والذكريات ، تشعر بأشياء غريبة ، ولكن عليها ألا تبقى ساهرة طوال الليل .. عليها أن تنسحب من الليل لتدخل فراشها وتنام .. وبعد ساعات قليلة يأتى الصباح ،وعليها أن تخوض مع كل نهار جديد معركة فى حقل جديد ، وشقاء متجدد بحثا عن الرزق .

تحس أن كل خلية من خلاياها متعبة متأهبة متحفزة لشىء ما .. هل يأتى إليها رضوان كما كان يأتيها فى سابق الليالى ؟!

ترهف السمع وتترقب كل صوت عساها تسمع وقع أقدامه .. تسمع كل الأصوات إلاوقع خطواته ، ربما يأتيها بلاخطوات وبلاأقدام وبلاأصوات !

تسمع كل الأصوات وتأتيها واضحة جلية هاهى الرياح تجرى فى الحقول وتزأر ، وهاهى الذئاب على أطراف العزبة تعوى ، وهاهو الكروان يصدح بالنداء والدعاء والذكر لربه من فوق شجرة عالية تطل على النهر ، ورضوان لايعود ليشاركها الحلم والفراش والذكريات .. وربما لن يعود أبدا .. وتلك مصيبتها .. لاأحد يتردد على غرفتها سوى أنفاس توأمها النائمين فى سبات عميق .

عندئذ تدخل فراشها ، وتهجر مؤقتا مرآتها ، تغمض عينيها ولاأحد تراه ، لاأطياف الليلة فتذوب كما تذوب الشمعة وهى تحترق بالنار ببطء واستسلام .

تنتظره أن يأتى بفارغ الصبر ، مأأحوجها إليه الآن ، لكنه لم يفعل ، ولم يفاجئها كما تمنت .

مع أول ضوء للفجر عليها أن تنزع ثوب الكسل عن نفسها ،وتواصل الكدح مبكرا ،وإن بدت غاضبة حين نهضت ، وتلفتت حولها ثم تحسست حدودها الجغرافية ولاأثر له .. عندئذ سألت نفسها بحسرة :

ـ لماذا لم يحضر رضوان .. لماذا يخذلنى ؟! يالله أسألك الصبر وأستعين بك فأنت المعين .

صلت ركعتى الفجر وظلت دقائق تناجى روحها وتناجيه :

ـ زوجى الحبيب .. على العهد اتفقنا بألانفترق يوما ما فى هذه الحياة .. صليت وتضرعت إلى ربى أن يحرسك من كل شر ، لكن يد القدر سبقت كل شىء ، وغبت عنى غيابا بلاانتهاء .. إن غيابك يارفيق العمر ، وشريك الحب قد أشبعنى ظلما وآلمنى ظمأ .

فجأة تذكرت كلمات كانت قد قالتها لها نوال صديقتها ، وهى أرملة سابقة كرهت الترمل ،وتزوجت بآخر واكتفت بأن تحلم بزوجها المرحوم .. قالت لها نوال :

ـ مر على ترملك يافاطمة عدة سنوات ، وأنت تواجهين الحياة وحدك ، ولارجل فى الدنيا بجوارك يظلل عليك أيامك ، الرجل يافاطمة أهم شىء فى الوجود بالنسبة للمرأة ،وبدونه تشعر المرأة بالنقض والضيق وربما ينتهى بها الحال إلى الجنون.. الرجل عندى مثل الخف ـ أقصد الحذاء ـ للمرأة ترتديه وقتما تشاء حتى لاتمشى حافية القدمين ..وعليها أن تخلع هذا الخف من قدميها ، وتلبس خفا آخر لوهلك هذا الخف أوضايقها وملت منه ، ولولم تشعر بالراحة وهى تلبسه فلابد من البحث عن بديل لراحتها !

عندئذ ضحكت فاطمة وقال مستنكرة :

ـ هل تعتبرين الرجل مجرد خف أوحذاء لراحة القدمين ؟!

ضحكت نوال بخلاعة وإثارة وقالت :

- ولماذا خلق الله الرجل يافاطمة ؟! أقول لك .. خلقه ليكون للمرأة خفا وأشياء أخرى .

- أمرك غريب يانوال ..

- هذا رأيى يافاطمة فى الرجل فمارأيك أنت ؟! وهل ستبقين طوال حياتك تمشين حافية القدمين بدون خف ؟!

شردت قليلا واكتسى وجهها بسحابة معتمة وتنهدت قائلة :

- من بين كل الرجال لم أجد رجلا يشبه رضوان الذى رحل قبل الأوان .. وتركنى وحدى للأحزان .. لن أكون لغيره أبدا .. أنا له دون سواه فى الدنيا وفى الآخرة .

هتفت نوال بامتعاض :

- حمقاء يافاطمة .. أنت حمقاء ..آه والله أنت أحمق النساء ..

- لماذا يانوال ؟!

- لأنك ستعانين بدون الخف ، وستسيرين حافية القدمين فوق الأشواك ،والحصى وجمر النار ولن يندفعك أحد حين تؤلمك قدماك من كثرة الندوب والجروح .. يافاطمة ياحبيبتى .. الخف هو الرجل ، والرجل هو الخف أيتها الساذجة !

عادت فاطمة إلى شرودها ثم قالت :

- لن يكون لى خف أبدا بعد المرحوم .

- اذكرى لى سببا واحدا يافاطمة يمنعك .

- عندى ألف سبب وسبب يانوال .

- يافاطمة .. الرجل أقل وفاء للمرأة من الكلب .. الرجل أقل حنانا على المرأة من القط .. الرجل أقل تسلية للمرأة من القرد !

بهتت فاطمة مما سمعت وقالت بضيق وانزعاج :

- ماهذا الكلام الغريب يانوال ؟!

بنبرة ملل ويأس منها قالت نوال :

- أنت حرة يافاطمة .. لوكان زوجك مكانك فى الدنيا الآن ، وأنت فى الآخرة مكانه لتزوج فورا ..افعلى ماتشائين لقد نصحتك وأمرى إلى الله .. أنت حرة .. انزعى أشواكك بنفسك فلن ينزعها عنك غيرك .

وحين تسيل دموعك فى الليالى الباردة ، ويعذبك الأنين والحنين والحرمان لن يحس بلوعتك أحد .

- أتدرين مامعنى الأرملة يانوال ؟!

ـ عرفت وجربت واكتويت بالنار قبلك يافاطمة .. الحمد لله أننى تجاوزت تلك الأيام السوداء .. لاشىء فى الدنيا أكثر قسوة من ترمل امرأة .

ـ يانوال .. معك حق فى كثير مما تقولين لكن الأرملة هى أضعف مخلوقات الله ..وقد سمعت الشيخ الشعراوى عليه رحمة الله يقول :

إن رسول الله قال (اتقوا الله فى الضعيفين .. قالوا ومن الضعيفين يارسول الله .. قال .. الأرملة واليتيم) صدق رسول الله .

ـ إذا ستكون حياتك كربا ممتدا وبلاء دائما يافاطمة .

ـ لابأس يانوال .. سوف أصبر وأحتسب وماعند الله خير وأبقى ..وقد قال لى الشيخ يعقوب أكرمه الله وأنار له بصيرته ..(إن الأرملة الصابرة ليس لها من جزاء عند الله إلا الجنة) .. وذكر لى حديث أبى هريرة الذى قال فيه بأن الرسول الكريم قال (أنا أول من يفتح له باب الجنة يوم القيامة إلا أنه تأتى امرأة سعفاء الخدين تحاول أن تسبقنى إلى الدخول .. فأقول لها ..من أنت أيتها المرأة ؟! فتقول أنا أرملة حبست نفسى لتربية أيتام لى ، فيشير لها أن تدخل الجنة) صدق رسول الله .

ـ وكيف ستعيشن يافاطمة .. هل ستكونين راهبة ؟!

ـ الله يعصمنى ويحمينى من أجل أولادى ، وكل أمهات المؤمنين لم يتزوجن بعد رسولنا الكريم بأمر من الله ولسوف أقتدى بهن جميعا .

ـ هل تعرفين يافاطمةأنهم يحرقون أرامل الهندوس فى الهند ، فقد سمعت أنهم يحرقون المرأة الأرملة حية مع جثة زوجها ، وذلك لإعتقاد الهندوس أن بقاء الأرملة على قيد الحياة بعد موت زوجها فأل سىء وشؤم ولعنة على الجميع .

تنهدت فاطمة وتبسمت قائلة :

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بنعمة الإسلام فى الدنيا ، وكتب لنا الجنة فى الآخرة .. ولاحول ولاقوة إلابالله .

****

(41)

فى يوم الجمعة نهضت من نومها ، أدت فرضها لربها ثم وضعت نفسها فى جلباب حريمى أسود واسع مريح ،ووضعت فوق رأسها طرحة سوداء طويلة تخفى شعرها القصير الحليق ،صارت تهوى التخفى وترتاح إليه ،لم يظهر منها سوى عينيها فقط تطل منهما على الدنيا كنسر كسير ، مهيض الجناح ! يراقب الجميع من وراء ستار ، ويخشى أن يكون هو الأسير لطائر أوحيوان أومخلوق آخر حقير .

النسر العظيم الذى اعتاد التحليق فى السماوات العلا يخاف من الهوام والحشرات الضئيلة الضالة فى هذا الكوكب الذى لايعرف العدل .

اتجهت فاطمة عندئذ صوب المسجد الوحيد فى عزبة الحنكاتى ،وكأن قوة جبرية قاهرة تأخذها إلى هناك لتصلى الجمعة فى المكان الصغير المحاط بستائر فى مؤخرة المسجد حيث مصلى النساء .

كان الجو باردا والشتاء قد حط رحاله ،وهناك فتحة صغيرة من بين فرجات الستائر التى تصنع الحاجز بين الرجال والنساء فى بيت الله .

وقف الرجل الضرير الشيخ يعقوب يعظ الناس من فوق منبره الخشبى اللامع ، وبصوت جهورى حماسى ، ومسبحته فى كفه لاتفارقه ،عندئذ هبت على صحن المسجد موجة هواء شتوية باردة ،فأحس الشيخ بأن البرد يفوق قدرته على الإحتمال ،وكان يود أن يتحدث كثيرا ويعظ الناس الذين يتجمهرون من فلاحين وعمال وصيادين وطلاب مدارس فى هذا اليوم ،لكن لفحات البرد لم ترحمه ، فقصر فى خطبته وسعى لانهائها على وجه السرعة .

كانوا جميعا ينصتون للشيخ بانتباه شديد كأن على رؤوسهم الطير الجارح ،بينما النسوة يسمعن قليلا ويثرثن قليلا ويتهامسن قليلا ، وعبده عامل المسجد يمسك بصندوق خشبى صغير فيه فرجة صغيرة من أعلى ويمر به على المصلين ليضعوا فى هذا الصندوق نذورهم من جنيهات قليلة .

يضعون فى الصندوق النذر اليسير مما يملكون ،نذور نذرها بعضهم فى أيام كرب وضيق ثم جاء الفرج ، مثل شفاء عليل أونجاة محتضر أونجاح صغير فى مدرسة .. لابد عندهم من الوفاء بالنذور ..هذا أمر مقدس .

فى تلك الخطبة كان الشيخ مهموما بقضية الأرملة منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، وكان الرجل صادقا فى وعظه فمس الوعظ قلب فاطمة وهى الأرملة الصغرى فى العزبة كلها .

تظن فاطمة ـ وليس كل الظن إثم ـ أن الشيخ يعرف عنها كل شىء ، وأن هذا المسجد اليتيم ـ فى هذه العزبة البائسة المنسية من فوق خريطة العالم كله ـ ليس مجرد مئذنة تشق الفراغ بين الأرض والسماء فحسب بل تحسبه مكانا قدسيا يلجأ إليه الناس وقت المحن .

وهل هناك محنة أكبر من محنة أرملة مكلومة ؟!

تكلم الشيخ يعقوب بصوت أجش يزلزل كيان الجميع ، والرجال فى صمت تام عيونهم شاخصة حيث المنبر، أما النساء فهن فى همس ممزوج بلغط مريب وقلق عجيب ،لكن الجميع اتفقوا دون اتفاق على الإنصات الحذر للأمر الخطر .. قال الرجل ولافض فوه :

ـ أيها الناس .. اعلموا أن وضع الأرامل وضع خفى وخطير ، إذ تغيبهن الإحصاءات ، ويغفلهن المسئولون والباحثون إلاقليلا ..وتتغاضى عن معظمهن منظمات المجتمع والجمعيات الأهلية والخيرية ، ومن هنا تأتى اساءة معاملة الأرملة وأطفالها .. وهذا يعد انتهاكا من أخطر مايكون لتعاليم الإسلام العظيم دين الرحمة والمودة والتكافل بين الناس .

أيها الناس .. اتقوا الله واعلموا أن فى دول العالم الثالث أمثال بلادنا هناك ملايين النساء ترملن ، ولاذنب لهن فى تلك المصيبة ، سوى أن أزواجهن رحلوا ، وتعانى الأرملة من فقر مدقع ونبذ مجحف ،وعنف مفرط وظلم على كل المستويات إلامن رحم ربى .

أيها الناس .. إتقوا الله .. واعلموا أن المرأة حين تترمل فإنها تواجه مصائب عديدة منها الحرمان من الميراث إن كان هناك مايورث ، كما تعانى من طقوس حداد طويلة وربما بلانهاية ،وأشكال أخرى كثيرة من الاساءة والبشاعة والقهر ، وفى بعض الأحيان تطرد الأرملة من دارها بعد موت زوجها باعتبار أن صاحب الدار مات ، ولم يعد لها مكانا فى داره ،وربما تتعرض للإيذاء البدنى والنفسى أويجبرها أهل زوجها المرحوم على الزواج بأخيه أوأى شخص من تلك العائلة !

أيها الناس ..اتقوا الله .. واعلموا أن فى بعض البلدان يجبرون الأرملة على شرب المياه التى غسلوا بها جثة زوجها ،الحمد لله الذى عافانا من هذا .. إن الشرع أنصف المرأة المسلمة وكرم الأرملة أيما تكريم ، واعلموا أن

موت الزوج أمر طارىء ،وليس معناه نهاية الحياة بالنسبة للزوجة ،وليس معناه أن تعيش تلك المرأة التى قدر لها أن تكون أرملة فى تعاسة أبدية ، وترزح تحت أغلال وقيود حديدية لهذا اللقب المفزع الذى لاتحبه أى امرأة ، وتبغضه أشد البغض وتكره أن تبتلى به !

استغفر الشيخ وذكر الله كثيرا وأثنى على ذاته وصفاته ،ثم توقف لحظات يلتقط أنفاسه ، واستراح قليلا وواصل بعد ذلك قائلا :

- أيها الأحباب .. ألم تسألوا أنفسكم .. كيف أنصف الإسلام الأرملة ؟! وكيف أظلها بمظلة العطف والرحمة والكفالة ؟! وهل تدرون ماهى المشاكل الكبرى التى تواجه الأرملة ؟!

أقول لكم ..إن أول مشكلة هى النفقة ..فمن ذا الذى ينفق عليها ،وعلى صغارها عندما يرحل زوجها ؟! إن معظم الأرامل يلجأن إلى الحقول والمزارع والمصانع للبحث عن سبل الرزق الحلال .

إن الإسلام يوجب على أهل الأرملة أن يساعدوها على أعباء الحياة المادية ، وتكاليفها المعيشية ، ولولم تكن أسرتها قادرة على اعالتها هى وأولادها يكون الأمر واجبا على ولى الأمر ..وعلى سبيل المثال يمكن لبيت مال المسلمين أولجان الزكاة أومعاشات الدولة أن تدفع للأرملة كى تحيا حياة كريمة ، وفى حال عدم قدرة أسرتها على اعالتها وأطفالها ، وتخلت عنها مؤسسات الدولة ، فليكن المجتمع هو ظهيرها ونصيرها فى تلك المحنة ، ويقول رسولنا الكريم (من كفل يتيما أوأرملة أظله الله فى ظله يوم القيامة) صدق رسول الله .

ظل الشيخ يعقوب يتحدث ويتوقف لحظات ثم يسترسل طالما الناس تنصت فى صمت مهيب ، وكلهم أذان مصغية .. يبدو أنه نسى البرد ولسعاته وأخذته الجلالة فى الوعظ :

- رسولنا الكريم يقول (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أوكالذى يصوم النهار ويقوم الليل) صدق رسول الله .

فهاهو خير خلق الله الذى لاينطق عن الهوى يقرن الساعى على الأرملة بعملين جليلين أحدهما الجهاد فى سبيل الله ،والآخر العبادة بأشق أنواعها .. الصيام نهارا والقيام ليلا .

ومن شدة حرص رسولنا الكريم على الأرملة وصفها بالضعيفة حتى يستدر عطف المسلمين على حالها ، ويلفت انتباههم إلى ظروفها ، ويقول (اتقوا الله فى الضعيفين.. الأرملة واليتيم) ..وهكذا نرى أن تعاليم الإسلام تحض على رعاية الأرامل واليتامى ،ويحكى عن أحد الصالحين قوله .. رأيت فى منامى أحد أصدقائى بعد موته مسرورا فسألته عن ذلك .. فقال .. إن الله قد غفر لى لأننى تصدقت بحبات من التمر على أرملة .

ثم واصل الشيخ يعقوب بنبرة هادئة :

- لوطبقنا تعاليم الإسلام ، ماكان للأرملة أن تعانى على الإطلاق ،ولم ولن يكون الترمل أوالطلاق مشكلة للمرأة ، وعندما تكثر الأرامل كما يحدث فى حالات الحروب والجهاد ، يسارع الرجال بالزواج منهن حال رغبت الأرملة فى الزواج .

وهذا الأمر هو الذى فعله الصحابة الكرام والتابعون من بعدهم رضوان الله عليهم جميعا ،بحيث أصبح الزواج من الأرامل عرفا طيبا .

أما اليوم وفى ظل غياب التطبيق الكامل لتعاليم الإسلام ، انقلبت الأمور رأسا على عقب ، وأصبحت الأرملة تعانى ، والمطلقة تعانى ،والعانس تعانى ، والعذراء تعانى .. الكل يعانى من هموم شتى كما نرى ونسمع ونحس بمايحدث فى عموم بلاد الإسلام .

إن تعاليم السماء رحمة للعالمين ،وفى غياب هذا التطبيق والحياة الطبيعية فى ظله نشأت عادات غريبة ، وظهرت تقاليد مستهجنة فى مجتمعنا الإسلامى - نسأل الله أن يخلصنا منها - مثل انكار واستنكار الزواج من الأرملة ،ومنع الأرملة من الزواج مرة أخرى ،واعتبارها ملكية خاصة لأهل المرحوم يتحكمون فيها كما يشاءون ! فيتدخل والد المرحوم أوأمه أوأخوته فى شئونها الخاصة تحت حجج وذرائع لايقرها ديننا الحنيف ، ولايرضاها العقل السليم ، وذلك بهدف عرقلتها عن مواصلة رحلة حياتها فى كنف زوج آخر يمنحها المودة والرحمة والحب والرعاية والكفالة المادية والعاطفية .

سكت الشيخ لحظات يلتقط أنفاسه ثم قال :

- أحيانا تسألنى أرملة وتقول لى .. ياشيخ يعقوب .. هل الأفضل للمرأة أن تتزوج بعد رحيل زوجها أم تمتنع ،وتبقى أرملة حتى نهاية العمر ؟! وتعيش فقط على ذكرى المرحوم وتتفرغ لأولادها ؟!

أقول لهذه الأرملة وكل أرملة .. إن المرأة إذا مات عنها زوجها يقال لها أرملة مادامت لم تتزوج بعد ، والترمل فترة عصيبة على المرأة ، بل وعلى أهلها وأولادها أيضا ..وبفقد الزوج تفقد الأرملة بهجة الحياة وربما تستمر على هذا الحال طويلا ، ولاأحد يرغب فى الزواج منها ، وخاصة لوكان لها أولاد من زوجها الراحل !

عندئذ يحس أهلها بالألم لمصيرها التعس ، لأنها لم يقدر لها أن تكتمل سعادتها فى ظل رجل اختاره قلبها ، ولهذا الوضع المؤلم على الأرملة مظاهر متعددة تختلف باختلاف الشعوب والأديان ، وقد ذكرها الرحالة محمد ثابت فى كتبه منها ما رآه بنفسه ، ومنها مانقله عن غيره ..

انتبهت فاطمة وكانت فى قمة تركيزها ، وتدرك أن مايقوله الشيخ يعقوب موجها لها قبل غيرها .. أنصتت بكل حواسها المتيقظة ..وقد هتف الشيخ قائلا :

- فى بعض قبائل الهند كانت المرأة حين يموت زوجها تحرق نفسها معه حتى لاتصيبها لعنة الترمل .. أعوذ بالله ..ويحدث مثل هذا أيضا فى طائفة الأنكا فى بيرو ، وفى عدة مناطق أخرى من الصين .

وهناك تظن الأرملة التى لم تدفن نفسها مع زوجها أنها ستظل بائسة منبوذة تطاردها لعنة مجهولة ، وتحاول التنحى والإبتعاد عن الناس لأنها تظن أنها نذير شؤم على الآخرين فتلجأ إلى المعابد والرهبنة ، وفى المعبد يحلقون شعرها تماما ، وترتدى السواد على الدوام ، وتظل فى خدمة المعبد حتى تموت .

أما الهندوس فيعتبرون ترمل المرأة كفارة لما ارتكبته من خطايا وأثام فى حياتها ، ولذلك لايحل لها الزواج مرة أخرى ، وقد حارب غاندى هذه الظاهرة خاصة لدى الأرامل صغيرات السن .

أما الإسلام وماأعظمه فقد كان حريصا على الأرملة ، فلم يفرض عليها سوى الحداد وتجنب الزينة لفترة محدودة تسمى العدة ، والتى تنتهى بوضع الحمل أوانقضاء أربعة أشهر وعشرة أيام لغير الحامل ، وبعد هذه الفترة يحل للأرملة أن تعيش حياتها بشكل طبيعى .

سادت لحظات صمت مطبق كان الشيخ خلالها يتحسس بأذنيه وحواسه رد فعل الجالسين فى المسجد يرهفون السمع ثم استرسل :

- غير أن بعض الأرامل لايرغبن فى الزواج مجددا ، وذلك لعدة أسباب أولا ..امتداد النظرة القديمة التى كانت عند عرب الجاهلية فى معايرة الولد بأمه لوتزوجت بعد وفاة أبيه ،باعتباره يعيش من مهر أمه من الزوج الجديد ،كما أنه يكره أن يرى رجلا آخر غير أبيه فى حياة أمه !

ثانيا .. وجود أيتام صغار تعكف الأرملة على تربيتهم خشية أن يضيعوا إن هى تزوجت ،وانشغلت بنفسها مع رجل آخر .

ثالثا .. شدة حبها لزوجها الراحل فلاترضى بغيره بديلا .

رابعا .. وجود عهد بينها وبين زوجها ألاتتزوج بعده .

ومن أمثلة ذلك السيدة (الرباب بنت إمرىء القيس) زوجة سيدنا الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ قالت بعد موت زوجها ..والله ماكنت لأتخذ حما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما السيدة (نائلة بنت الفرافصة) زوجة سيدنا عثمان بن عفان ـ رضى الله عنهما ـ تقدم لخطبتها معاوية بن أبى سفيان بعد مقتل زوجها عثمان ، فرفضت بشدة وأنشدت قائلة ..

(إنى رأيت الحب يبلى كما يبلى الثوب .. وقد خشيت أن يبلى حب عثمان فى قلبى) ..وعندئذ كسرت بعض أسنانها بحجر حتى يزول جمالها ويزهد فيهاالرجال .. وقالت.. والله لن يحل رجل آخر محل عثمان فى قلبى أبدا .

وهناك أيضا أرملة عظيمة هى (أم هانىء بنت أبى طالب) تقدم لخطبتها النبى الكريم فاعتذرت له بأن لها أيتاما ترعاهم فإن هى قامت بحق النبى عليها كزوجة خافت أن تضيع حق أولادها ، وإن هى قامت بحق أولادها خافت التقصير فى حق النبى .

وعندما تقدم معاوية بن أبى سفيان لخطبة أم الدرداء بعد موت زوجها رفضت ،وقالت سمعت أبوالدرداء يقول أن الرسول قال (المرأة فى الجنة لآخر أزواجها فى الدنيا) صدق رسول الله .

وهذا معناه أن الأرملة التى لا تتزوج بعد زوجها ستكون زوجته فى الجنة ، وهذا ماقالته وفعلته أم الدرداء رضى الله عنها .. لكن امتناع الأرملة عن الزواج لشدة حبها لزوجها قد يكون مستساغا إذا كانت كبيرة فى السن آمنة على نفسها من الفتنة.. لكن لوكانت شابة فى مقتبل العمر ،وجميلة فخير لها أن تتزوج بعد أن تخمد حرارة الحب ، وتنطفىء نار الفراق ، وهى لابد ستخمد وتنطفىء بمرور الأيام .

وكان أبوسلمة رجلا حكيما حين أوصى زوجته أم سلمة أن تتزوج من بعده ، وكانت المرأة لاتريد الزواج من بعده ظنا منها أنه لايوجد مثل أبى سلمة لكنها وجدت من هو أفضل منه وتزوجته وهو النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

أيها الأخوة المؤمنون .. إن الإسلام يساير الطبيعة البشرية فى إباحة زواج الأرملة ، ويوفق بين المصلحة الشخصية للمرأة ، والمصلحة العامة للمجتمع الذى تعيش فيه ، وهو ما لجأت إليه الأمم الحديثة بعد أن أدركت أن منهج الإسلام دستور صالح لكل البشرية على مر الأزمان .

وإذا كان هناك عهدا بين الأرملة وزوجها ألاتتزوج بعده فيجوز لها أن تمتنع عن الزواج لولم تخف الفتنة على نفسها ، بل يستحب إذا كان هناك مبررا ،وإذا خافت الفتنة فلايجب عليها أن تلتزم بالعهد مع زوجها ،وقد حدث ذلك عندما تقدم رجل لخطبة السيدة (أم مبشر) فقالت يارسول الله .. لقد اشترطت لزوجى ألا أتزوج بعده .. فقال لها النبى .. هذا لايصلح ياأم مبشر لأنه شرط ليس فى كتاب الله وفيه تعطيل للنسل .

والطريف أن عمر بن عبدالعزيز تزوج من أم هشام بنت عبدالله التى أقسمت لزوجها السابق عبدالرحمن بن سهيل ألاتتزوج بعده كما أوصاها بذلك وكان يحبها كثيرا .

أما الأرملة إذا كان لديها أيتام ، وخافت ضياعهم لوتزوجت يكون لها أن تمتنع عن الزواج ، وتعيش من أجل صغارها ، وهذا أمر مستحب فى الإسلام ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أنا والأرملة كهاتين فى الجنة) وأشاربأصبعيه السبابة والوسطى .

وقد يحدث امتناع بعض الأرامل عن الزواج بعد وفاة أزواجهن ذوى المراكز المرموقة تشبها بنساء النبى ، وهو تشبيه باطل وفى غير محله .

وواصل الشيخ يعقوب قائلا :

- ورغم كل شىء لايحق لأحد أن يعيب على الأرملة زواجها مرة أخرى ، بل عليها أن تتزوج وتجتهد فى عفة نفسها ، وغض بصرها وتحصيل الذرية الصالحة ،أما الزواج مرة أخرى فهوأمرمحرم تماما على زوجات النبى فقط عليه الصلاة والسلام ، وقد حرم الله ذلك من فوق سبع سماوات فى كتاب يتلى إلى يوم الدين .

ولامانع من أن تخبر الأرملة أهل زوجها المرحوم أنها ستتزوج ،أما إذا كانت المرأة مطلقة فلايلزم أن تخبرهم أوحتى تستأذنهم فى هذا الأمر .

إن الإسلام دائما فى كل أطوار حياتها يدعمها ،ويشد عضدها نفسيا وعاطفيا وإجتماعيا وإقتصاديا ،ومهما يكن من شىء فإن لكل أرملة ظروفها الخاصة ، وتمسك المرأة بدينها أوتهاونها فيه لابد أن يؤخذ فى الإعتبار ، ولكن المهم هو الحفاظ على شرف الأرملة ، وكل واحدة من النساء ربما يكون لها حكم يغاير الأخرى ،فلايجوز أن يتخذ ذلك عرفا أوتقليدا عاما ، لأن الطبيعة قوية والشرع حكيم ، والخير كله فى اتباع هدى الله ، وكما قال عز وجل فى سورة طه :

(فمن اتبع هداى فلايضل ولايشقى) صدق الله العظيم .

ومع مرور الزمن تتغير الظروف ،وتستجد أوضاع لم تكن معروفة من قبل ،ومنها المعاشات الشهرية التى تقررها الدولة للأرملة ، وتشترط عليها عدم الزواج ، ولحرص الأرملة على الإحتفاظ بالمعاش تضطر لشىء آخر ، وربما تنحرف خارج أسوار الزواج ، وفى ذلك إثم عظيم لايقره دين ولاشرع ،وقد تلجأ إلى الزواج العرفى ، ولو لم يكن مستوفيا لأركان الزواج وشروطه الصحيحة فهو الانحراف بعينه !، وإن استوفى الأركان شفويا دون تسجيل رسمى كانت المعاشرة مشروعة ،وعدم التسجيل يضمن لها استمرار المعاش حسب القوانين الوضعية ،لكن ذلك يترتب عليه الكثير من الأضرار ، وكل هذه الأضرار ممنوعة شرعا، كما أن الزواج العرفى الذى يؤدى إلى الممنوع فهو ممنوع .

ظلت فاطمة تنصت بشغف وحذر شديدين للشيخ الضرير الذى وضع يده على الجرح ، وكأنه طبيب بارع يشخص الداء ويحدد الدواء ، ويكتب روشتة من كتاب الله وسنة رسوله لا يشق لها غبار .

لقد أجاب الشيخ على أى سؤال يخطر على قلب كل أرملة ، وكأن عظة الجمعة لم تكن سوى رسائل من الله ورسوله لفاطمة ،ولكل امرأة مفجوعة فى شريك أحلامها ورفيق دربها فى رحلة حياتها .

فرغ الرجل من عظة الجمعة ،وأقام صوت خشن متحشرج الصلاة ،عندئذ لمحت من فرجات الستائر بعض الرجال بجلابيبهم المختلفة الألوان ، وإن كانت الغلبة للجلباب الأبيض ،رغم أن الوقت شتاء والجو بارد .. ودليل فقر الرجل لبسه الأبيض فى الشتاء !

لابأس على كل حال .. اصطفوا جميعا فى مشهد بديع كله خشوع ونظام كالبنيان المرصوص ، وبدأ الشيخ الإمام بعد التكبير يقرأ الفاتحة ثم أتبعها بأيات محكمات من سورة النساء .

ومن بين النسوة وقفت فاطمة صلبة صامتة تنصت، وتصلى خلف الستائر بعيدا عن العيون ،وعندئذ أحست بالدموع تسيل من عينيها دافئة بمشاعر مختلطة ، ولم تستطع أن تتبين إذا كانت تلك الدموع من خشية الله أومن الخشوع فى الصلاة.. وربما من كرم الله ،وتكريمه للأرملة فى كل مرحلة من مراحل حياتها .

وحين انتهت الصلاة جلست تسبح وتحمد وتستغفرربها على أصابعها ، وتنتظر حتى يغادر هذا الحشد من المصلين الرجال رحاب المسجد كى تخرج مع النساء ، وحينئذ تلفتت خلفها فإذا بيد حانية تلمسها برفق نظرت نحو صاحبة تلك اليد فرأت نوال بحجابها الوقور بجوار أخريات من أرامل ومطلقات ومتزوجات .. كلهن لم يجدن ملاذا آمنا من كل ألم وقلق وهم ينغص عليهن الحياة سوى الله ، وهاهم فى بيته .

****

(42)

قبل أن ترتدى الشمس ثوبها الذهبى الزاهى وتطل على الدنيا ،ترتدى فاطمة ملابس الرجال ، وتخفى كل أنوثتها تماما ، وتلف رأسها بغطاء محكم ، ثم تنطلق بصندوق خشبى يحمل الورنيش ومايلزم لتلميع الأحذية ،إلى سمنود تلك القرية الكبيرة أوالمدينة الصغيرة ذات الطابع الريفى ، ولها بعد تاريخى حيث كانت ذات شأن فى عهد الفراعنة ، ولاتبعد سمنود كثيرا عن عزبة الحنكاتى .

تطارد الأرملة الفاتنة رزقها أويطاردها رزقها الله وحده أعلم بها وبرزقها .. ولاتدرى فاطمة لماذا تشعر بالألفة والطمأنينة فى سمنود على العكس من المحلة الكبرى رغم أنها أقرب إليها من سمنود ؟!

ربما لأن سمنود لها ملامح من التاريخ القديم ، وتحيطها الحقول وتتمسك بطابعها الريفى الأصيل ،ومعظم أهلها من الفلاحين البسطاء ، والبعض الآخر ممن لايحترفون الفلاحة والزراعة ،يعملون فى مصانع الغزل والنسيج أوأفران الفخار .

وتأتى أهمية سمنود فى زمن الفراعنة الأقدمين من أنها كانت عاصمة لمصر كلها فى عهد الأسرة الثلاثين حين أسس هذه الأسرة (نخت نبف) الأول ،وموطنه سمنود التى تتبع حاليا محافظة الغربية بإقليم وسط الدلتا ، وكان المعبود الرئيسى لسمنود آنذاك الإله أنوريس ،وكان له معبدا بتلك المدينة مازالت آثاره باقية متمثلة فى بعض الأحجار الجرانيتية المتناثرة خلف مستشفى سمنود المركزى .

تتجول فاطمة وصندوقها الخشبى بورنيشه ،ومستلزماته معلق بحزام جلدى حول كتفها ووسطها .. تطوف المدينة الريفية التاريخية الصغيرة المطلة على فرع من النيل تبحث عن الناس والأحذية فى المقاهى وأمام مصنع الملابس ، وفى محطة القطار وموقف سيارات الأجرة ،تنادى بصوت رجالى مصطنع :

- ورنيش .. ورنيش .. تلميع أحذية ..تلميع !

يناديها البعض راغبا فى تلميع حذائه على المقهى :

- يامعلم .. يامعلم ..

تلفت نظره وتقترب منه قائلة :

- رضوان .. اسمى رضوان .. أنا فى الخدمة .

يمد الرجل ساقيه ويرفع جلبابه قليلا ، ويضع فردة الحذاء اليمنى فوق صندوقها الخشبى لتبدأ مهمتها فى التلميع بالأسود بينما هو منشغل بالتدخين واحتساء الشاى بمزاج وهدوء .

حين يضيق بها الرزق ،وتستعصى عليها أبوابه الموصدة تمضى إلى المحلة الكبرى، ولم لا والرزق يحب السعى إليه ؟! تتنقل بين سمنود والمحلة .. لابأس .. بابان للرزق أفضل من باب واحد .. تحسب نفسها مثل جندى على الجبهة بيده سلاحه ، تستعين بالله وفى يدها صندوقها وورنيشها ، وفى قلبها عزيمتها .. أحيانا تجلس فى مكان هادىء تحت شجرة ترتاح وتستظل وتفكر فيما تفعله ، وهل هى على صواب أم على خطأ ؟!

تتأمل صندوقها الخشبى وفتحاته الجانبية المخصصة لقوارير الورنيش ، فيها سوائل بألوان مختلفة تناسب تلميع الأحذية بألوانها المختلفة ،وإن كان اللون الأسود هو سيد الألوان ومالك زمام الصندوق والغالب على أمره ، وقد صار الصندوق ملتصقا بفاطمة ملاصقا لها تحمله على قلبها أينما حلت أوارتحلت !

بعين نسر يقظ تراقب حركة العمال فى المحلة الكبرى ودخولهم صباحا وخروجهم مساء من مصانع الغزل والنسيج وحياكة الملابس وصناعتها ، وصار الصندوق له زبائنه .. سبحان من يرزق الطير فى السماء ،والنمل فى الجحور، والحوت فى جوف الماء .. يناديها البعض وقد عرفها من مرات سابقة :

- يارضوان .. لمع .. لمع .

ويجلس الرجل أمامها على الرصيف ،وقد أسلم لها حذاءه وساقيه ، وبسرعة تنهمك فى أداء مهمتها بحماس وحيوية حتى تنتهى ،وتنال القليل من الجنيهات ، فتحمد ربها وتشكره على أنه رزقها وصان سرها ،ثم تدس جنيهاتها فى جيب جلبابها أوفى محفظة بالصديرى الرجالى ،والقليل يجمع الكثير فى نهاية اليوم .

وينطلق صاحب الحذاء إلى عمله مسرورا شاكرا لرضوان العناية بتلميع الحذاء .

وعندما تجوع وتناديها معدتها تفتح حقيبتها القماشية الخشنة المتينة التى تشبه الجراب ، وتمد يدها تلتقط أرغفة خبز طرية وقطعة جبن أبيض تأكل حتى تشبع، وتسكت معدتها عن الإستغاثة ، وعندما تعطش لابأس زمزمية الماء حاضرة هى الأخرى فى الجراب !

وماذا تفعل لواحتاجت للحمام ، وهى تتجول أكثر من عشر ساعات فى الشوارع وأمام المصانع ؟!

لامشكلة عندها على الإطلاق طالما أنها بملابس الرجال عليها أن تتصرف مثل الرجال ، وتدخل أقرب مسجد ثم تدخل الحمام الرجالى ،وبعد ذلك تتوضأ على استحياء ولاتنسى أنها (امرأة رجل) فى آن واحد .

ثم تصلى مع الرجال فى آخر صف أوفى ركن قصى ، وعندما تستريح نفسيا وجسديا بالصلاة تعاود رحلة الشقاء من جديد ، والتنقل على قدميها فى أماكن تجمعات العمال وتحركاتهم ، وما أكثر المصانع الكبيرة والصغيرة فى تلك المدينة التى يسمونها قلعة صناعة النسيج فى بر مصر المحروسة .

وحين تحس بألام فى أقدامها من كثرة المشى والوقوف ساعات طويلة ، يتلاشى ضوء النهار ، وينال منها الإعياء تعود إلى دارها فى العزبة ، تتنهد وكأنها عادت منتصرة من معركة حربية مع أعداء لاتراهم ولايرونها .

فى الدار تنشغل من جديد بالمطبخ ،وطعام ولديها ثم تطمئن منهما على أحوالهما ، وماحدث لهما فى يومهما الدراسى فى المدرسة ، تسألهما عن المذاكرة والواجبات المدرسة ، وتشدد عليهما ألايقصرا فى أى شىء .. كل التفاصيل الصغيرة تشغلها .. وما الحياة إلا تفاصيل صغيرة !

آمنت بمبدأ العدالة بين المدينتين .. فوزعت أيامها بين سمنود والمحلة الكبرى .. أسبوع هنا وأسبوع هناك .

أخلصت لعملها وأحبت صندوقها ، وأبدعت فى تلميع وورنشة أحذية الآخرين حتى حظيت بالكثير من الأحذية التى تبحث دائما عن صندوقها وقوارير ألوانها .

بعض الأحذية يدفع أصحابها بسخاء ، والبعض الآخر يدفع بحساب بلاشح ولاسخاء ،لم يكن الأمر يعنيها كثيرا ، ولم تكن تحدد تسعيرة لأن المسألة لاتستحق ،وتترك الأمر لصاحب الحذاء أن يدفع مايرضيه ، ويقدر جهدها وألوانها كمايشاء .

فى بداية الأمر استغرب العمال وجود الصندوق وصاحبه ، والبعض تساءل عن سره وسبب تواجده الدائم حول المصانع .. لكنهم لم يعرفوا شيئا واكتفوا بما يظهر أمامهم .. كانوا يتعاملون مع صاحب الصندوق على أنه شخص ودود لطيف يحب أحذية الآخرين ، وهذا مايهمهم .

يحرص على لمعان ونظافة أحذيتهم ، ويؤدى عمله أمامهم بصدق واخلاص ، ولايطلب شيئا أويحدد سعرا .

ومع مرور الأيام اعتاد الناس فى المصانع والشركات على وجه صاحب الصندوق ، ويذهبون بأقدامهم إليه ، يسلمون له الأحذية متربة متسخة ،ويأخذونها بعد دقائق نظيفة لامعة براقة .

الأيدى الناعمة تمسك بالحذاء كأنها تمسك باقة ورد ،وبفرشاة خشنة تزيل ماعلق به من غبار الشارع ، وبعد ذلك تعطيه لونه الأصلى من قارورة فى صندوقها فيلمع ويبرق كأنه جديد لم تمسه الأرض بترابها .. عندئذ يبتسم صاحب الحذاء ويضع قدمه بداخله ويدفع مايروق له .

المدهش أن لاأحد من أصحاب الأحذية شك للحظة واحدة أن هذه الأيدى لامرأة مكتملة الأنوثة تتخفى وراء المرحوم رضوان اسما ولبسا .

وحدث ذات مرة عند تلميع حذاء أحد العمال .. تأملها الرجل بإمعان وقال :

ـ اسمع يارضوان .. أنت رجل طيب وواضح أنك ابن أصول لكن الزمن ظلمك وجار عليك ! هل أنت متزوج ؟!

تبسمت فاطمة وعدلت غطاء رأسها ، وتأكدت من احكامه ثم قالت :

ـ ولماذا هذا السؤال ؟!

مد الرجل يده مداعبا ملاطفا ولكز فاطمة فى جنبها قائلا :

ـ يارضوان .. أظن أنك بلاامرأة حتى الآن .. وحياة الرجل بلاامرأة جافة صعبة .. صحراء بلاماء ولاهواء !

هزت رأسها وتلعثمت قائلة :

ـ صحيح .. معك حق .. ليس عندى امرأة .

صاح الرجل وفاطمة منهمكة فى تلميع الحذاء :

ـ أيها الساذج ..المرأة نعمة كبيرة من ربنا ، ومتعة بلاحدود ..كيف تعيش من غيرها ؟!

قالت فاطمة بحسرة مفتعلة :

ـ أمر الله .. مابأليد حيلة .

ـ عندى لك يارضوان امرأة ليس لها حل .. مال وجمال .. ورثت ثروة كبيرة من زوجها ، وستعيش معها فى النعيم ..مارأيك ؟!

تلعثمت فاطمة وقالت بنبرة رجل زاهد فى النساء :

ـ أنا مرتاح هكذا ..المرأة لايأتى من ورائها سوى المشاكل .

ـ صدقنى يارضوان .. لن تكلفك جنيها واحدا ، لقد ورثت عمارة عشرة طوابق ، ومصنعا كبيرا .. كل هذا سيكون ملك يديك لوتزوجتها .

ـ وما الذى جرى لزوجها ؟!

ـ الله يرحمه .. مات فى حادث انفجار طائرة سقطت به فى البحر خلال سفره إلى فرنسا للإتفاق على شحنة تصدير ملابس جاهزة من إنتاج مصنعه .. وصارت فجأة أرملة .

ـ الله يرحم الجميع ، ويصبر كل الأرامل على ماهن فيه .. ولكن هل هذه السيدة الأرملة صاحبة المصنع والعمارة سترضى بماسح أحذية مثلى يكون زوجا لها ؟!

ـ لايعيب الرجل سوى رجولته .. وأنا أرى رجولتك يارضوان مكتملة تماما !

قالت فاطمة بتردد :

ـ آه .. رجولتى .. رجولتى تمام .

ـ لاتقلق يارضوان هى تحتاج لرجل فقط .. أنت رجل مثلى وتفهمنى ، وتفهم ماذا تريد أرملة غنية مثلها لاينقصها سوى رجل مثلك .

ـ ولكن أخبرنى مامصلحتك فى أن أتزوج هذه المرأة الأرملة صاحبة المصنع والعمارة ؟!

ـ أنت ابن حلال يارضوان ..وأنا ارتحت لك وأشعر أنك ابن ناس طيبين ، وأريد لك الخير ، كما أنها فى حاجة لشبابك ورجولتك .. ووجودك بجوارها يصد عنها الطامعين فى ثروتها خاصة أنها تخوض معركة مع أقارب المرحوم زوجها الذين ينازعونها فى الميراث .. كما أننى أعمل فى إدارة المصنع الذى آل إليها بعد موت زوجها ، وأريدك أن تكون معى .

هزت فاطمة رأسها وتقمصت شخصية الرجل حين يختار امرأة وقالت :

ـ هل هى جميلة ؟!

قال الرجل :

ـ تمام .. لابأس .. وعموما كلهن فى الظلام سواء يارضوان .. كما أن ثروتها ستجعلها فى نظرك ملكة جمال الكون .

تظاهرت فاطمة بالتفكير فى هذا العرض ثم سرعان ماتذكرت أنها أنثى وليس الذكر كالأنثى ، وكيف لأنثى أن تتزوج بأنثى مثلها ؟! حينئذ حاولت التملص من الرجل وصفقته العجيبة المريبة فقالت :

ـ أرجوك ابحث لها عن زوج آخر غيرى لأننى غير مناسب لها ولن أنفعها .

ـ لماذا يارضوان ..ماشاء الله عليك طول بعرض برجولة بوسامة .. لاينقصك شىء يارجل لتتزوج وتدخل دنيا .

ضحكت فاطمة وقالت :

ـ أنا كرجل ينقصنى شىء واحد ..

قاطعها قائلا :

ـ أعرف أعرف .. كل التكاليف والمصاريف علينا .. لن تدفع شيئا يارضوان .. الست تريد رجلا فقط .. والفلوس عندها بلاعدد ولاحساب .

بنبرة ساخرة همست فاطمة لنفسها :

ـ وأين هذا الرجل يامغفل ؟! الأنوثة كلها تختبىء تحت جلبابى الفضفاض .

ثم قالت بصوت رجالى خشن مستعار:

ـ لكن هذه الزيجة كلها مشاكل وصراعات ونزاع على الميراث ، وأنا رجل أحب الحياة الهادئة .

ـ يارضوان اطمئن لن أتركك وحدك .. سأكون إلى جوارك .

لاذت فاطمة بالصمت .. لاتدرى ماذا تفعل فى هذه الورطة ،وكيف تفلت من اصرار هذا الرجل ، وتريد أن تصرفه عنها صرفا حسنا ، ولكنه قطع صمتها قائلا :

ـ اسمع يارضوان ياأخى سأرتب لك معها لقاء كى تتعرف عليها ، وربما تألفها وتألفك ، وتأنس بها وتأنس بك ،لعل الله يوفق بينكما ، وتكون من نصيبك ، وبصراحة لاأرى أفضل لك من هذه الأرملة الثرية .. يارجل دعك من هذا الصندوق الخشبى والورنيش والسير طوال النهار بحثا عن حذاء تلمعه ، اسمع كلامى الجنة فى انتظارك ، والله أحس أنك ابن أصول ولجأت مضطرا لمهنة مسح الأحذية .. أنا بخبرة السنين أستطيع معرفة البشر .. أنا أعرفك على حقيقتك !

دهشت فاطمة وساورها الشك من كلام هذا الرجل ،ثم افترقا على وعد بترتيب لقاء فى قادم الأيام ، وفاطمة تمنى نفسها أن ينساها ، وينسى تلك الفكرة ، والأيام كفيلة بكل شىء !

عندئذ أحست بالخطر يحدق بها ،وربما يراقبها هذا الرجل ويتتبع خطواتها حتى عزبة الحنكاتى ويعرف دارها ويسأل عنها ، وينكشف المستور .

قررت أن تهجر المحلة الكبرى ومصانعها وعمالها بأحذيتهم ، وأفكارهم وصفقاتهم ، وتختفى عن الأنظار إلى أجل غير مسمى كى تنجو بنفسها من هذا الفخ ،ولم يكن أمامها سوى سمنود عاصمة الفراعنة القدماء .. ولم لا والدنيا أمان فى هذه القرية الكبيرة الهادئة كعادتها دائما المسالمة والمستسلمة للتاريخ القديم والنهر العظيم وحياة الفلاحين وعمال مصانعها وحقولها وفواخيرها ؟!

يستهويها الجو الريفى والحقول تحيط بالديار ، والنيل يعانقها صباح مساء ، وحين تتجول فيها تكحل عينيها بوجوه الفلاحين الطيبة فى رحلة ذهاب وإياب بمواشيهم إلى الحقول يوميا .. يزرعون ويحصدون وعلى وجوههم السمراء التى تشبه طين الأرض الخصبة ابتسامة غامضة !

تلك المدينة على النقيض من المحلة الكبرى ..سمنود تزرع كثيرا وتصنع قليلا .. بينما المحلة تصنع كثيرا وتزرع قليلا .

لم تكن فاطمة تتخيل أن تأتيها المشاكل - فى يوم من الأيام - من تحت جلباب رضوان ، بل كانت تظن أن الإختباء فى جلباب الرجل يضمن لها السلامة من كل حوادث الحياة اليومية ومطباتها الماكرة !.. لكن لاسبيل أمامها سوى الإختباء ومزيد من الإختباء ،وهذا هو طوق النجاة مهما جلب لها الجلباب الرجالى من متاعب إلا أنها تبقى صغيرة وتحت السيطرة ،ويكفى أن هذا الجلباب يحميها من الشر الأعظم الذى تراه فى عيون الرجال الطامعين فى كنوز أنوثتها ، ولاتنسى فضل الجلباب الرجالى الواسع عليها فهو دون سواه يخفى ثروتها الحقيقية !

كما أنها تستطيع أن تتحمل مشاكل الرجل ، ولاتستتطيع تحمل مشاكل المرأة .. الحمد لله أنها الآن صارت رجلا .

إن الحياة قاسية على الجميع لكن قسوتها على المرأة ، وخاصة الأرملة أشد وطأة ،تفوق قسوتها على الرجل أضعافا مضاعفة !

تلك هى سنة الحياة فى خلقه ،وترتيبه لهذ الكون الكبير بكل مخلوقاته ، وعليها أن ترضى بالأقدار خيرها وشرها ، وتحمد ربها على ماهى فيه ،وتبتعد عن المحلة الكبرى ومصانعها وعمالها حتى ينساها هذا الرجل اللحوح بعرضه المغرى المريب عن الزواج من أرملة .. فكيف لأرملة أن تتزوج بأرملة مثلها ؟!

آه يافاطمة .. الناس لايرحمون ،والعوز شر محدق بها .. هو باب من أبواب جهنم الحمراء ، وعليها أن تغلقه دائما .. تشرد قليلا حين يناديها شخص ما باسم رضوان ، فتهمس لنفسها بحسرة وحنين لاينام ولايستكين :

- يراه قلبى وإن غيبه الموت عن البصر .. وناظر القلب لايخلو من متعة النظر .

دارت بها الأيام وهى على ماهى عليه ،رجل بالنهار .. امرأة بالليل ..فى النهار تسعى تطارد الرزق من تحت الأقدام ومن فوق الأحذية ،وفى الليل تتلظى فى الفراش من مرارة وقسوة الحنين ، ولاتفارقها الأحلام ، ولاتفوتها الكوابيس .

صارت واثقة من أن الرجل حين يموت ، ويترك أرملته وحيدة يأخذ روحها معه ،ويتركها جسدا فقط ، ويترك لها لقب كئيب لعين يظل ملاصقا لها مدى الحياة إن هى بقيت على العهد والوعد دون أن تدخل فى عباءة رجل آخرغير المرحوم .

تبدو الحياة فارغة فى عينيها .. لاشىء فيهما سوى ولديها ، وأشياء أخرى فى الذاكرة لمن نثر بذور التوأم فى أرضها الخصبة ، ورحل حين سقط من أعلى النخلة الملعونة فى يوم أغبر لم تسطع له شمس .

تنهدت بآهات حارقات محرقات ، ولاأحد يحس بنارها .. تلك النار التى تكوى كبدها ،وتشوى قلبها ثم استفاقت على عملها ورزقها فهتفت بصوت مبحوح يغالب الإجهاش بالبكاء :

- ألمع .. ورنيش ألمع .

فى سمنود استقر بها المطاف فى مقهى أمام مجلس المدينة ،وبالقرب من مجمع المدارس ،هناك الرزق لابأس به على الإطلاق ،والأقدام كثيرة ولا أقدام بلاأحذية ، والأحذية تحتاج بالطبع إلى تلميع .

فى المقهى المواجه لمجلس مدينة سمنود لاتنقطع الزبائن ،ولاتهدأ الحركة والأحذية من مختلف الأنواع والألوان والمقاسات ، والمقهى يعج بالرواد من موظفين وعمال ومدرسين وفلاحين ، يبدو المقهى استراحة للمتعبين ،وواحة للمرهقين ، ومزاج للمدخنين وملتقى للرفاق والأصدقاء .. نادى البسطاء والمهمشين .

صاحبة المقهى الست فريال هى امرأة أربعينية العمر سمراء البشرة ملفوفة القوام ملامحها دقيقة مليحة ، صوتها ملاوع مراوغ فيه دلال واغواء ، كما أن فيها أنوثة طاغية تختبىء تحت عباءتها السوداء المطرزة على الصدر بقصب فضى لامع ، وتزين معصمها بغوايش ذهبية براقة ، وعلى صدرها تتدلى ماشاء الله من ذهب خالص مكتوب عليها (الله أكبر) ،والكحل الأسود الخلاب يسكن عينيها فيزيدهما اتساعا وعمقا وغواية !

امرأة تشبه فى عنفوانها تحية كاريوكا راقصة مصر الأولى فى عصرها الذهبى ، وهى تجسد دور البطولة فى فيلم (شباب امرأة) .. كل الرجال فى سمنود يعرفونها ويكنون لها ودا وألفة ، وهى تتعامل معهم جميعا بشهامة ومروءة منقطعة النظير ، تجامل الجميع وأحيانا تقف بجوار من كان من زبائنها فى محنة حتى تزول تلك المحنة .

وحين رأت فريال صاحبة المقهى فاطمة ـ رضوان حاليا ـ بجلبابه الواسع الفضفاض حائرا يتجول ويحوم حول المقهى لعل أحدا يسأله تلميع حذاءه ،أرسلت صبى المقهى يناديه ، فجاء ووقف أمامها على استحياء فسألته عن اسمه وبلده وحكايته ، تكلم رضوان بخجل وايجاز ، والجواب فى كلمات معدودة أقل من السؤال حتى لايزل اللسان ويخطىء وربما يقع فى المحظور !

لأن فريال تحملق فيه بنظرة فاحصة كما لوكانت تفتش فى ضميره وتحت جلبابه لتكشف حقيقته .

عندئذ أحست فاطمة وهى فى ملابس رجل بنظرات غريبة من فريال التى تضع صورة كبيرة فى مدخل المقهى لزوجها الراحل ومن خلفه فى الصورة الكعبة المشرفة ، وحين عرفت بحكاية رضوان المكذوبة تلفتت لصورة زوجها وأشارت إليه بحسرة قائلة :

ـ الله يسامحه سافر للآخرة ،وتركنى فى الدنيا أرملة من بعده !

من ساعة ماالمرحوم توكل على الله ، وأنا أكافح هنا فى المقهى ، الحياة لامعنى لها بدون الكفاح يارضوان ، ونحن خلقنا للشقاء والحمد لله ، ولاتستحى أبدا من عملك مهما كان بسيطا ، والرسول أشرف الخلق وأعظم البشر كان يرعى الغنم ، وليست أغنامه بل كان أجيرا عليها ..اللهم صلى وسلم وبارك علي نبينا وشفيعنا يوم الدين .

تمتم رضوان على استحياء ثم قال :

ـ الحمد لله على كل حال .

ـ من اليوم يارضوان هذا المقهى مكانك ، وكل مشروباتك على حسابى .

ـ متشكر ياست فريال .. هذا كثير .. اسمحى لى أن أدفع مثل غيرى ولاتحرجينى .

ـ لا يارضوان .. أقول لك هذا لسببين .. الأول .. أنك غريب عن البلد ، والسبب الثانى ..لأنك ستلمع أحذية الزبائن فى المقهى بدلا من أن يبحثوا عنك فى مكان آخر ، ويخسر المقهى زبائنه .

ضحك رضوان وأطرق بوجهه نحو الأرض ثم قال :

ـ الله يكرمك ياست فريال لاأستحق هذا الكرم كله منك .

ـ أنت تستحق كل الخير يارضوان.. أنا ارتحت لك من أول نظرة ونادرا ماأرتاح للغرباء .

ثم رمقته بنظرة ذات مغزى من عيونها الواسعة المتكحلة .. نظرة فهمتها فاطمة جيدا .. فالأنثى أكثر من تفهم الأنثى وتحس بها .

****

(43)

فى ليل عزبة الحنكاتى يطل القمر على أهلها وزرعها ونهرها بعيون مفتوحة ساهرة .. القمر يصدح فى الليلة العاشرة من الشهر العربى .. والسماء مشبعة بغيوم ،وخطوط وألوان وظلال رمادية ممزوجة بحمرة قانية شاخصة فى الأفق البعيد على صفحة السماء ،والنهر الخالد يسبح بخطى بطيئة إلى حال سبيله حيث أراد له رب الكون ، وأمواج من الهواء البارد تصنع دوامات فى فضاء العزبة وشوارعها وحقولها .. والأشجار تتمايل وأغصانها تتراقص بفعل هبات الريح ، ورائحة الدفء تنبعث من الديار الصغيرة ، والناس الذين يلتفون حول النار يقاومون البرد اللاسع فى ذاك الوقت .

يظهر فى تلك الأثناء مجموعة من هواة السهر .. أصدقاء ورفاق الليل يخرجون من شوارع مختلفة ، جاءوا من الظلام ثم يطولهم الضوء فتتضح ملامحهم .. الأعمدة منتصبة إلى أعلى تحمل لمبات ساهرة مسهدة شاحبة مرهقة من طول الإضاءة ، عيونهم مفتوحة وحدقاتهم متسعة ، يحملقون فى الطريق ،ثم يمضون كسهام صائبة تعرف هدفها نحو دوار العمدة .

يعود الظلام يفتح فمه ليبتلعهم مرة أخرى ، فليست كل الأعمدة مضاءة ، وليست كل الحوارى والدروب ساطعة ،والأعمدة تحمل لمبات ميتة منتهية الصلاحية لكن لاأحد يهتم باستبدال الميت منها بالحى .

الدوار مزدحم بالرجال خاصة ليلة الجمعة ، وكل الرجال يودون أن يسهروا حتى يتنفس الصبح ، يلتفون حول العمدة الشاب فراج أبودومة .. يأكلون مالذ وطاب من اللحم والأرز ، ويشربون الشاى الثقيل بلون الحبر الأسود ، ويدخنون الشيشة ، ويتصاعد الدخان فوق الرؤوس فيشعرون بدوار ممتع ، ويحلقون فوق السحاب ، ويطوفون بعوالم أخرى مبهجة ،يضحكون كالمجانين ، ويثرثرون فى أمور شتى ، ويبحلقون فى وجوه بعضهم البعض كما لوكانوا غرباء يتعرفون على بعض لأول مرة ، ويحدقون فى كل شىء حولهم ،عندئذ تطير أفكارهم وتتبخر مع الدخان الأزرق الغامق ،وأمامهم النار تتوهج وتهدأ بانتظام .

أما الخفير السباعى فيتحرك بينهم كالنحلة فى عش الدبابير يخدمهم على أكمل وجه ، ويلبى طلباتهم بإيماءة من العمدة فى أسرع وقت ،وبعد أن تدور الشيشة بين الأفواه ، وتتغلغل موجات الدخان فى الخياشيم ، وتسرى فى الشرايين تصاب أجسادهم بالخمول والخمود ، خدر لذيذ يشبه مسكنات الألم ، ترتخى الأعصاب وتتفكك الأوصال ، وتتلعثم الألسن وتتعثر فى الكلام ،لكن بسيونى المحامى كان متيقظا كثعلب ماكر لايغيب عن الوعى بسهولة .. عقله يعمل مثل طاحونة فرحات التى تحول القمح إلى دقيق فى لحظات ، قبل أن يدخل الفرن ويكون خبزا شهيا طازجا يسر الناظرين ويشبع الجائعين .

يتكلمون فى كل شىء يخطر على بالهم ، لامحظورات عندهم ولاخطوط حمراء ،يتطرقون إلى حوادث ومواقف وأحداث تخص أهل العزبة ، فلاشىء ثابت وكل شىء متغير ، والحياة لاتخلو من الإثارة والمفارقات كل لحظة .

ألسنتهم تلوك الجميع ،وتطال كل شىء حتى بنات العزبة ونسائها لايسلمن من ألسنتهم الحداد ،وإن كانوا يفهمون بعضهم البعض ،وحين تأتى سيرة الأرملة الفاتنة فاطمة عبدالعاطى تستيقظ كل حواس العمدة فراج ،وينفض عن بنيانه المسترخى كل استرخاء ، وينصت بإمعان حين قال أحدهم :

- رأيت فاطمة الأرملة فى المسجد تصلى الجمعة .

رد آخر ضاحكا :

ـ والأغرب أن الشيخ يعقوب الكفيف خصص عظة الجمعة عن الأرملة ، وكأنه كان يراها ويحس بها .

لم يتكلم فراج وأخرج الدخان من فمه وأنفه ورفع رأسه لأعلى ، وقد تقلصت ملامحه ثم نظر إلى بسيونى مستغربا متسائلا عن السبب دون كلام ..تتقارب الأشياء وتتباعد وتتسلل إليهم من إحدى النوافذ المنفرجة خيوط باردة كحد السيف تندفع من جوف الليل عبر مساحات العتمة ، وتلفح الأنوف والوجوه بلطمات باردة .

يجلس بسيونى المحامى الغريب بينهم ، وعندما يتحدث بصوته الرفيع ولهجته المميزة فإن الكل يدرك أن لحديثه هو بالذات وقعا خاصا وتدبيرا مشاكسا محفوفا بالمخاطر ، وممزوجا بالقانون ، لقد خالطهم منذ أكثر من عامين وهو ليس من أبناء عزبة الحنكاتى ، وأصبح جزءا من حياة العمدة ، ومن الدوار والديار وأهل البلد ومشاكلهم وحكاياتهم .

لاتغيب عنه شاردة أوواردة ، وكل مايطفو على سطح الحياة اليومية للعزبة وأهلها .. يتناول معهم كل الأمور بلاحرج ، وكأنه من أصحاب الدار ، يعرف كل كبير وصغير فى العزبة ، يعرف حواريها وشوارعها وأدق أسرارها وهمومها وأحلام أهلها البسطاء كما يعرف كف يده .

وصار الجلوس بالساعات والأيام والليالى فى دوار العمدة عادة محببة إليه ،يعامله الجميع باحترام لأن القانون محفور فى رأسه ، وينادونه بالأستاذ ،ولم لا والجميع تحت طائلة القانون الذى يشبه خيوط العنكبوت ؟!

ولايمر يوم دون أن يكون له حضور فى حياة العمدة والعزبة والناس .

وفجأة قال بسيونى المحامى بجرأة ووجهه محمرا منتفخا من الدخان الخانق :

ـ الأرملة فاطمة ..امرأة من ذهب عيار 21 شخصيتها قوية واثقة من نفسها ،تدرك قيمتها وتقدر جمالها ،هى جوهرة تمشى بين الناس ،وتتحرك فى كل مكان كأنها أميرة محصنة لايهمها شىء على الإطلاق ..تبدو مثل الحصان الجامح .. أليس فى هذا البلد من فارس يحكمها ويلجمها ويدخلها حظيرته .. حظيرة الرجال ؟!

استفزت تلك الكلمات العمدة فراج فتنهد متسائلا :

ـ ألاترى أن اللين يفعل مالاتفعله الشدة ؟! اللين باللين والود بالود والبادىء باللطف تألفه الروح وتهواه .

ضحك ساخرا وهتف مستغربا :

ـ جربنا معها اللين واللطف والود دون جدوى ..ياحضرة العمدة لقد كنت معهم أكرم من الريح المرسلة حين تنازلت عن ديون عبدالعاطى والدها ، وكان يمكن أن تسجنه أوتأخذ قطعة الأرض التى يملكها رهينة حتى يسدد ماعليه .. لكنك قدمت الخير ،وفعلت لهم كل شىء حتى ترضى وتكون لك زوجة .. وأنت من أنت .. فكيف ترفضك وتتمنع عليك ، وكل بنات العزبة والعزب المجاورة فى الناحية كلها يتمنين الزواج من العمدة فراج أبودومة !

تضايق فراج وظهرت على تقاسيمه علامات الغضب وقال بضجر :

ـ وماذا أفعل معها يابسيونى إذا كان الزواج قبول وشهود وهى تأبى أن تعطينى القبول ؟!

بدا ماكرا لئيما يميل إلى تدبير المؤامرات ورسم الخطط ، ثم تقمص شخصية الشيطان حين يعظ :

ـ ياحضرة العمدة .. أنت عمدة العزبة وكبيرها ،والآمر الناهى فيها ولابد أن يطيعك الجميع ولايعص أحد لك أمرا .. أنت لست شخصا عاديا كى تنتظر الحلول العادية مثل الشهود والقبول ،وانتظار فاطمة حتى ترضى بالزواج منك .. وربما لاترضى وتظل هكذا مثل البهيمة المتمردة العاصية مدى الحياة .

قاطعه فراج بشىء من الغضب والسأم :

ـ هل تريدنى أن أذهب وأجذبها من شعرها وأجرها حتى باب الدوار ثم أعقد قرانى عليها رغما عنها ؟!

أنا أحبها ياغشيم والحب لايؤخذ غلابا .

ـ والله ماقصدت أبدا أن ترغمها بهذه الطريقة ياعمدة .

قال العمدة فراج بنبرة ساخرة :

ـ إذا أرسل أحد الخفراء يلقى القبض عليها ويضع الأساور الحديدية فى يديها ، ويجبرها تحت تهديد البندقية أن تكون امرأتى وتدخل فى عصمتى .

ـ لا والله ياعمدة ماقصدت هذا أيضا .. أنا ياعمدة محامى أى رجل قانون ، وأريد كل شىء أن يسير بالقانون ، لاأميل للعنف كما تعرفنى وإنما أميل إلى التخطيط والتدبير ، وكل أمر صعب أومستعصى يلزمه تخطيط وتدبير .

ـ تخطيط ياأستاذ بسيونى .. تكلم يارجل وهات ماعندك ..وسيكون لك مكافأة كبيرة عندى لونجحت خطتك ، وصارت فاطمة عبدالعاطى من نصيبى وفى حوزتى !

عندئذ فتح بسيونى عينيه الضيقتين على كامل اتساعهما ، وظهر منهما بريق غريب يلمع ثم قال بنبرة الواثق :

ـ اختطاف .. الاختطاف هو الحل .. تلك هى الخطة ياعمدة .

ـ هل نخطف فاطمة ؟! أهذا معقول يابسيونى ،وتقول أنك رجل قانون ولاتهوى العنف ؟!

ـ اطمئن ياعمدة لن نختطف فاطمة .. ألهذه الدرجة تحبها وتخاف عليها يارجل ؟!

نزل عليه السؤال كالماء البارد فى الشتاء ولمعت عيناه ببريق الشوق ثم تنهد قائلا :

ـ آه يابسيونى لوتعلمون كم أحبها .. الحب هو أقل شىء أصف به مشاعرى نحوها ، أحس أنها نجمة فى السماء السابعة ، وأحاول جاهدا أن أصل إليها من مكانى هنا على الأرض فلا أستطيع ! وأمد يدى إليها عسى أن ألمسها فلاأقدر ، إنها بعيدة جدا بعد السماء عن الأرض .

ـ لاتقلق ياعمدة .. إذا كانت هذه الأرملة الشابة الفاتنة نجمة بعيدة المنال فلاشك أن القمر سيدور فى فلكها ، ويأخذها فى مداره فى لحظة توهج قادمة لامحالة .

ـ ومتى ستحين هذه اللحظة ياعبقرى المحاكم ،وفيلسوف الجنح والجنايات ؟!

ضحك بسيونى المحامى واسترسل :

ـ عليك أن تعرف خطتى ..

ـ أرجو أن تكون مازلت فى وعيك حتى لاتأخذنا بأفكارك الخطيرة إلى الوقوع تحت طائلة القانون .

ـ لاياعمدة .. القانون لعبتى .. أحفظه عن ظهر قلب ، وأعرف خطوطه وتعرجاته وثغراته كما أعرف كف يدى وأحفظ خطوطها .

ـ أريدك أن تنصرنا على أنفسنا ياحضرة المحامى ، ولاتنصر الشيطان علينا .. بالله عليك .

ـ اترك لى نفسك ياعمدة وسترى النتائج .

ـ تكلم يارجل القانون .. تكلم ياجهبز العدالة .

ـ أرجو أن تستوعب ياعمدة ماسأقوله لك .. ولامصلحة لى إلامساعدتك للوصول إلى غايتك .. وفاطمة هى منتهى غايتك .. أليس كذلك ؟!

بنفاذ صبر قال بلهجة آمرة غاضبة :

ـ تكلم يابسيونى بسرعة وإلاسحبت سلاحى وأفرغت مافيه من طلقات رصاص فى رأسك المستدير مثل بطيخة سخيفة لاطعم لها ولالون لها .

مد يده والتقط تفاحة من طبق فاكهة أمامه عامر بأنواع مختلفة ، وقضمها كحمار جائع ثم قال وفمه مملوء وكلامه متلعثم :

ـ ومالسر الذى يجعل الأرملة الحسناء تمتنع عن الزواج ياعمدة ؟!

ـ الله أعلم يابسيونى .. ربما حزنها على زوجها .

ـ لا .. لا يافراج باشا ..الحكاية ومافيها أن زوجها مات وشبع موتا وصار رمادا فى قبره ..أما سر امتناعها حقا عن الزواج ،والدخول تحت جناح رجل آخر هو خوفها على ولديها التوأم .

ـ وما العمل يامتعلم يامحامى ياعبقرى ؟!

ـ الحل هو أن نخطف ولديها التوأم ياعمدة .

ذهل فراج واستغرب متسائلا :

ـ انهض يابسيونى واغسل وجهك بالماء البارد .. يبدو أنك مسطول أومخبول !

ـ ياسلام ياعمدة .. هل سبق لى أن سببت لك مشكلة ؟! العكس هو الصحيح أنا دائما أحل لك الكثير من المشاكل وأنجيك من الحفر والمطبات والعراقيل .

فكر فراج قليلا ثم قال :

ـ الحق أقول أنك فعلا حلال المشاكل .. أشهد لك بذلك .. منذ عرفتك ، ولديك براعة تفوق براعة الأبالسة والشياطين فى نزع فتيل أى مشكلة موقوتة قبل أن تنفجر فى وجهى .

ضحك بسيونى معجبا بذاته وسعيدا بكلماته :

ـ الحمد لله أنك شهدت لى بنفسك ، لكن أؤكد لك أن من ينزع فتيل المشاكل ،ويفكك المصائب هم الملائكة وليس الشياطين والأبالسة ياعمدة .

ـ لكنك هذه المرة تهذى وتخرف يابسيونى .. وأنت محامى وتعرف القانون أكثر من أى شخص آخر فى العزبة كلها ، وتعرف أيضا أن الخطف جريمة كبرى ،ومصيبة عظمى عقوبتها السجن المشدد .

ـ ليس خطفا بالمعنى السىء ياحضرة العمدة ، كل مافى الأمر أننا سوف نستضيف التوأم فى مكان أمين ، ونساوم فاطمة عليهما .. إما الزواج منك أو حرمانها من ولديها ، ولابد أنها ستسلم لك فى نهاية الأمر ، وتدرك أنك قادر على أن تمد يد الود ، كما تستطيع أن تمد يد الغدر أيضا .

سكت فراج وهرش رأسه ، وتقلصت ملامحه ، بينما الفكرة تدور فى رأسه ، ويقلبها على كل الوجوه ثم سأله :

ـ وأين سنخفى التوأم يابسيونى ؟!

ـ فى أى مكان ياعمدة .. الدنيا واسعة .. فى المزرعة أوفى غرفة الحجز أوفى أى مكان آخر .. عندك أماكن كثيرة ، وعندى أنا أيضا أماكن أكثر ..وليكن فى مكتبى فى بهبيت الحجارة .. وهذا المكان آمن وبعيد عن العزبة وعن العيون كلها .

ـ وماذا نفعل يارجل القانون لورفضت فاطمة المساومة وصرخت ،وفضحتنا فى العزبة كلها أوتهورت وأبلغت الشرطة ؟!

ضحك بسيونى بثقة وقال :

ـ هل نسيت يارجل أنك عمدة البلد كلها ؟! الشرطة والمأمور لن يصدقوها لأنك أنت الشرطة والقانون وعين الحكومة على المواطنين.. أنت هنا الحكومة.. كلمتك مسموعة وغيرك لاصوت له ولامستمع .

أعجب فراج بالخطة الجهنمية بشرط أن تؤدى للنتيجة المرجوة ..لكنه لايأمن العواقب ،ولايدرى كيف سيكون رد فعل فاطمة ، وهل ستقبل التفاوض والضغط والمساومة أم تقلب الطاولة فوق رؤوسهم ، وتنفجر فى وجوههم كلغم منزوع صمام الأمان ؟!

كل شىء وارد فتلك الأرملة قوية جريئة مجنونة ولم يعد لها فى الدنيا سوى ولديها التوأم .. سرت فى نفسه شكوك وهواجس لكنه تماسك ، وقال لنفسه .. أنت العمدة يافراج .. لاتخف المركز كله معك بشرطته بمأموره بخفره بمخبريه .. الكل معك .

باح للمحامى بمخاوفه تلك ، وهمس له بالهواجس التى تراوده من سوء العاقبة فأقسم له بأغلظ الأيمان أنه سيكون فى أمان ..صحيح هى مغامرة خطيرة لكنها محسوبة ..وأنه سيكون إلى جواره خطوة بخطوة حتى ترضخ الفريسة العنيدة ، وترفع الراية البيضاء ، وتقبل بفراج زوجا وفارسا لها مدى الحياة .

ظل فراج قلقا يفكر بحذر مشوب بتوتر ، وهو يعرف جيدا أن الهمس فى عزبة الحنكاتى له صوت جهورى فى العزبة الصغيرة البعيدة المنسية من على خريطة الجمهورية .

ربما يتسرب خبر خطف الطفلين ، وتقترب شفتان هامستان من أذن مصغية ،ويطير الخبر فى كل الأنحاء بالسر الكبير ،وتلوك الألسن سيرته بالسوء .

إن العمدة هو المسئول الأول والأخير عن أمن البلاد والعباد فكيف يختطف أطفالهم ،ويهددهم ويبتزهم ؟! وهو يعلم تماما أن لاسر يبقى سرا للأبد فى هذا البلد الذى يشبه غرفة من زجاج شفاف !

ظل هادئا رابط الجأش ، يقلب الأمر فى رأسه ذات اليمين وذات الشمال ،ويتخيل فاطمة واقفة أمامه تتوسل له أن ترى ولديها ، وتركع تحت قدميه تتمنى له أن يرضى ، وترجوه بكل غال عنده أن يرد إليها توأمها ، وهو يعرف

وهى تعرف أكثر منه أن فلذات الأكباد نقطة ضعف كل أم فى هذا العالم المتوحش ، ومهما كانت تلك الأم قوية فلاتفكر لحظة فى أن تضحى بكل شىء من أجل سلامة أولادها .. تلك هى غريزة الأمومة .. ربانية لاإرادية .

أخيرا أدرك باطمئنان أن خطة بسيونى ربما تمنحه الجائزة الكبرى ، وتجعل أجمل مخلوقات الله من حظه ونصيبه ،وكلما رآها تسير على شاطىء النهر أوعلى الطريق الرئيسى بين الحقول ينتفض قلبه ،ويكاد يقفز من بين أضلعه كطائر مذبوح ، ويحس برجفة تسرى فى أوصاله ،ورعشة تزلزل كيانه .. نادرا ماينتابه هذا الاحساس إلافى المصائب الكبرى .

أفاق من شروده واستفاق من غفوته ، وخرج من دائرة أفكاره المخيفة على صوت بسيونى متسائلا ومشجعا :

- مارأيك ياعمدة ؟!هذه آخر فرصة لك ، الشاعر يقول (ومانيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا).. ياعمدة يفوز باللذات كل مغامر ، ويمنى بالحسرات كل خائف !

ثم قهقه ضاحكا وقد أدرك أن فراج ارتضى الفكرة وأعجبته الخطة وإن كان يخشى شيئا ما .

بنبرة تردد قال :

- طيب موافق لكن بشرط ..

- وماهو شرطك ياعمدة ؟!

- ألانخبىء الولدين هنا فى العزبة ..الأفضل أن يكونا عندك فى بهبيت الحجارة .. أظن أن المكان عندك أكثر أمنا .

- لابأس ياعمدة .. عين العقل لكن كل المصاريف عليك ، وتكاليف إقامة هذين الملعونين الصغيرين ستكون كبيرة .

- بالطبع يابسيونى ..هذا أمر مفروغ منه .

- وأحتاج لشىء آخر ياعمدة ..

- سأدفع لك أكثر مما تتوقع يابسيونى .

- لاياعمدة لا أقصد ذلك .. بل أريد خفيرا من عندك تثق فيه كى يتولى حراسة الولدين ، ويتولى شئونهما لحين التفاوض مع النحلة أمهما .

- لك هذا يابسيونى .. الخفير هنداوى معك ورهن اشارتك ، وإن كنت أحسب حساب لسع النحلة !

ضحك بسيونى وقال :

- وربما تنال عسلها ياعمدة .

- والله أخشى جنونها فأنت لاتعرفها بمايكفى .

- مجرد أرملة مكسورة الجناح لاحول لها ولاقوة ياعمدة ..والأمر فى غاية البساطة ، سنأخذ الولدين أثناء عودتهما من المدرسة فى العزبة المجاورة بحجة أن أمهما تنتظرهما ونحن سنوصلهما إليها ،وندخلهما القفص حتى نرى ماذا يكون من أمر النحلة ، وهل ستفرز العسل أم تحاول اللسع ؟!

تنهد فراج على مضض وقال :

ـ فاطمة ليست أرملة مكسورة الجناح كما تظن ، بل إنها شرسة ومشاكسة وعنيدة ، وربما تفعل شيئا جنونيا لايخطر لنا على بال .

ـ دعك منها ياعمدة فنحن الأقوى .. متى سننفذ المهمة ؟!

ـ كما ترى يابسيونى .

ضحك ضحكة إبليس وقال :

ـ خير الخطف عاجله !.. غدا نفعلها .

طأطأ رأسه ومازال فى صدره شىء ما يقض مضجعه ، ثم سأله بسيونى أن يعطى أوامره للخفير هنداوى بأن لديه مأمورية سرية فى بهبيت الحجارة .. وأهم شىء ألايتكلم هذا الخفير ياعمدة .

هز رأسه قائلا :

ـ بالطبع .. اطمئن .. هنداوى سيكون مثل الخاتم فى إصبعك ،، ولن يفتح فمه لمخلوق .. هو لايرى .. لايسمع .. لاينطق .. ولونطق ستكون نهايته !

****

(44)

قفزت الأيام والشهورعدة قفزات إلى الأمام حتى حانت لحظة الإفراج عن عويس القاتل المحترف بأجر الفاشل فى تنفيذ مهمة العمدة ،والذى زج به فى السجن ، وقضى عدة سنوات ثم خرج أخيرا .. وهذا طبيعى فلابد لكل حى أن يموت ، ولكل سجين أن يرى النور !

وبعد طول غياب وحرمان من كل شىء فيه لذة الحياة ومتعة الذات ، بدت له بلدته الصغيرة تغرق فى ليل الشتاء الطويل ، شوارعها تبدو مغسولة بالشهد والدموع والصبر ، والأرض مفروشة بعصارة السحب والهواء .

يدخل عليها بوجه عبوس مهموم عائد من رحلة العذاب والألم والندم ،رحلة الوهم والخيال ، ولايصدق أنه خرج من القبر الذى يسمونه زنزانة ضيقة قاتمة فى سجن كبير ملعون فى كل كتاب !

همس لنفسه .. لتكن هذه الليلة غير كل الليالى .. لتكن ليلة الحرية والسعادة بعد البؤس والحرمان الذى لايطاق لفترة طويلة .

تسلل تحت جنح الليل ، وظلال الأشياء تتوه معالمها بين الحفر والبرك والطين المعجون بالماء المتساقط من عيون السماء .. مازال يعرف الطريق إلى دارها رغم كل شىء .

إن الرجل لايتوه أبدا ولايخطىء طريق المرأة التى أحبها يوما ما .. دخل حارة ضيقة متوازية على أطراف البلدة ثم توقف قليلا أمام الباب الخشبى القديم المتآكل من الحواف ثم التقط أنفاسه ، وهدأ من دقات قلبه العنيفة المتسارعة .

كانت تعرف موعده تماما ، زارته فى السجن منذ شهر ، وأبلغها بموعد خروجه للدنيا ،وأنه سيزورها فى أول ليلة كى يغتسل عندها ،وتحت يديها من هموم وكآبة تفوق احتمال البشر .

دق الباب أربع دقات رتيبة متتابعة كعادته القديمة ، انفتح الباب بسرعة فأحدث صريرا نشازا ، وظهر وجه هداية باسما متهللا ، وعلى الفور أفسحت له الطريق ليدخل من البرد والمطر ، وقبل أن يفتح ذراعيه ليأخذها فى دوامة من الأشواق الحارة الحارقة فى تلك الليلة الباردة ، ألقت بنفسها فى حضنه ثم استسلمت كقطة شاردة عادت لدارها الدافئة بعد أن ضلت الطريق ، وهمس فى أذنها :

ـ اشتقت إليك كثيرا ياهداية .

ارتاحت واسترخت فى حضنه وردت عليه همسا بهمس :

ـ وأنت أيضا ياسيد الرجال !

جلست فى مواجهته فى الصالة الضيقة تحت الإضاءة الخفيفة الباهتة ،صوب عينيه بنظرات جريئة إليها فاقتحم مكامن فتنتها ، وحملق فى بنيانها الأنثوى الطرى النافر ،عندئذ أحست بشىء من الخجل الممزوج بالسعادة ، وأسبلت جفونها تصنعا فى الدلال والغواية ،ثم قالت لتنفض عنها سهام صائبة من عينيه برغبة لاتخطئها امرأة فى عينى رجل :

ـ نورت الدار ياعويس .

ـ آه ياهداية لوتعرفين ماعانيته فى البعد عنك وعن دارك !

ـ الحمد لله .. محنة وانتهت ياسيد الرجال .

ـ لاأبدا ياهداية .. لم تنته بعد .. لابد من الإنتقام من الذى رمانى فى عتمة الزنزانة عدة سنوات .

شهقت وهتفت محذرة وهى تضرب صدرها بيدها :

ـ ياربى .. هل ستعود للقتل مرة أخرى ياعويس ؟! وتعود للسجن من جديد وتغيب عنى مرة أخرى ؟! حرام عليك يارجل .. أين عقلك ؟!هل تريد أن تهدرعمرك كله فى الضياع ؟!

لاذ بالصمت المؤقت ثم تنحنح بصوت خافت ، وبدت الدنيا فى عينيها حزينة معتمة ممطرة كتلك الليلة الشاتية .. مد عويس يده الخشنة ،وبرم شاربه للمرة الثالثة منذ دخل الدار ،وعينه لاتفارق صفحة وجهها المتوهج من نار الانتظار وجمر الرغبة ،وطول الحرمان .

يحدق فيها كذئب قريب من فريسته ،ولايتعجل التهامها لأن الأمر مضمون بالنسبة له ،يتأمل كل حدودها الجغرافية ، يعاين تضاريسها وتفاصيلها المثيرة المدهشة كأنه يراها لأول مرة ،وبينهما أشواق مازالت مشتعلة لم تنطفىء بعد ، ولابد من اطفائها فى هذه الليلة الباردة ، وبينهما أيضا بوتاجاز صغير وأدوات الشاى ، والشيشة القديمة التى يسميها عويس الجوزة .. كل شىء فى مكانه كما تركه ، حتى هداية كل شىء فيها كما تركه ..أسند جسمه الهزيل للحائط على مسند من القطن المريح لأضلعه ،وصار جسمه فى مستوى جسمها تماما ،وليس بينهما سوى خطوات قليلة .

الأمطار تضرب الأرض خارج الدار، وصوت هطولها يتهادى إلى أسماعهما فى مكمنهما الدافىء الهادىء المخملى ،استراح جسده المنهك واسترخت عضلاته ، وسكنت أعصابه ، وسرى الدفء فى أوصاله سريان الماء فى النهر ،بينما كانت هداية تقف وتنثنى وتنحنى لتعد له وجبة ساخنة شهية من اللحم الضانى مع البامية الخضراء وتتبعها بالشاى بالنعناع الذى يحبه ، وظلها يتماوج فى مرونة وليونة على الحائط المقابل بفعل الضوء الخافت المراوغ .

انفعلت الريح خارج الدار وخرجت عن المألوف ، وهو كذلك هاج الطوفان بداخله ،وقد تطاير البخار ساخنا برائحة العشاء الشهى المثير للعاب ،يعشق اللحم الضانى بالبامية ، وهداية تعرف تماما مايحب أن يأكله عويس ،وضعت الطعام أمامه فأكل مثل الوحش الجائع فى البرية ،وتناول طعامه بسرعة كالمحروم ، وبين الحين والآخر يهمس لها بأن الأكل لذيذ وشهى ،ثم تجشأ بوقاحة فتبسمت ،وناولته بارتياح الشاى بالنعناع ، شربه بهدوء وعلى مهل وأتبعه بأنفاس ضبابية حين دس الشيشة فى فمه كطفل اعتاد الرضاعة من الدخان !

صوب نحوها بعينيه العميقتين نظرات جائعة ، وهى تقترب منه بعطرها الفواح لتعطيه الشيشة كى يملأ خياشيمه ويعبىء صدره ،نفث الدخان فى وجهها مداعبا ، ورآها جمرة مشتعلة فى تلك الليلة تتأوه أمامه ، وتكاد تصرخ من فرط اللهفة والشوق لولا شىء من الخجل يلجمها !

وهاهومعها بين أربعة جدران ، والباب مغلق عليهما تمام الإغلاق .. هما وحدهما وثالثهما الشيطان الرجيم الملعون من رب العالمين إلى يوم الدين .

تنهدت وقالت همسا :

ـ أراك مهموما ولست على مايرام .

ـ صدقت ياهداية ، وصدق حدسك واحساسك ،فأنا لست أنا .. أنا شخص آخرغريب عنى ، ولست عويس الذى تعرفينه .

ضربت صدرها بيدها ضربة خفيفة وهتفت بدهشة :

ـ ياللمصيبة..ماذا أصابك هل فقدت رجولتك فى زنزانة السجن ياسيد الرجال ؟!

ضحك قائلا بمرارة :

ـ آه منكن يابنات حواء .. لاتفكرن إلا فى شىء واحد من الرجل !

ـ وهل فى الرجل شىء آخر يستحق التفكير سواه ؟! ماذا أصابك ياأسد .. يامن كنت أسدا أخبرنى بالله عليك ؟!

ـ ياامرأة ماذا أصابك أنت ؟! أنا كنت ومازلت كما أنا الرجل الأسد .

ـ تكلم ياعويس ولاتخفى عنى شيئا .

ـ حدثت لى أشياء غريبة لن تصدقيها ياهداية !

ارتسمت الدهشة على ملامحها ، وتنهدت بحرقة ثم قالت :

ـ ياحسرة على الرجال ، ومايحدث لهم خلف الأسوار .

ـ لاتكونى سيئة الظن بى .

ـ ياسبع الليل وأسد الرجال تكلم ولاتستحى منى ، وهل تظن أن مايحدث للرجال فى السجون يخفى على أحد ؟!

ـ ماذا تقصدين ياامرأة ؟!

ـ أنا أعرف وأنت تعرف وكل الناس تعرف أن لاشىء يبقى على حاله .. وإذا شاءت أقدار أى شخص أن يكون مصيره السجن .. اللهم إحفظنا ..

قاطعها وهو يضمها إلى صدره :

ـ ياهداية ستعرفين الليلة .. ستعرفين بعد قليل أننى كما أنا ولم يأخذ منى السجن شيئا له قيمة .. لكن ..

ـ لكن .. ماذا ياعويس ؟!

ـ المشكلة أنك دائما تتعجلين الأمور .

ـ كيف لاأكون متعجلة بعد مايقرب من سبع سنوات عجاف من الحرمان ،وأنت وراء القضبان ؟! ياللرجال .. كائنات حمقى وسذج أحيانا ..ذئاب مفترسة أحيانا وقطط بلامخالب أحيانا أخرى !

خرجت من صدره آهة طويلة تعنى كل الضيق ، وخرج الدخان معها بطيئا ، وأنفاسه تمنحها فرصة لاستعادة روحها المسلوبة .

الليلة ستنتهى فترة صيامها عن الرجال ،وستودع الحرمان من رجلها الذى أحبته بكل كيانها ، ضحكت بمكر وهى تدرك أنه الآن فى المصيدة بين قبضتها ،ولافكاك له منها ومما فى رأسها من تدبير وترتيب ، وأحست أنها أقرب ماتكون الآن إلى اللحظة التى تتوق إليها وتتحرق شوقا منذ أخذوه قسرا وألقوه قهرا فى العتمة وراء الأسوار العالية !

جذبها فجأة بقوة والتهمها كما التهم البامية باللحم الضانى منذ قليل ،وتبددت كل أحزانه ، وانزاحت حالة إنعدام الوزن التى كان يعانيها منذ مدة طويلة ، وانفرجت أساريرها .. وتحولت الشجرة اليابسة إلى زهرة متفتحة تغرد بعد طول صمت عبوس !

بدت عطشى كالأرض البور التى أنهكها الجفاف والتشقق ،وحين تشرب وترتوى تعود لصوابها ،وتتلاشى قسوة جفافها ، ويتبخر تشققها .. فسبحان من جعل النور يبدد الظلام ، والليل يبدد النهار ، والماء الحانى يمحو اليابس القاسى .

فرغ منها وفرغت منه إلى حين ،وبحاستها الأنثوية السادسة ،وكل حواسها الأخرى شعرت أنه معها بجسده فقط بينما عقله شارد شريد فى مكان آخر بعيد !

مدت هداية قدميها فوق بطنه ، نظر إليها فى كسل وخمول فمازالت وجبة اللحم الضانى بالبامية تكتم أنفاسه وتملأ معدته ،لايدرى مابه من حالة تحليق بين السماء والأرض ، نهض من اضجاعه فى فراشها ، وقد قرأ الدهشة والبهجة فى عينيها ، ونور المصباح الشاحب اغتالته سحب الدخان القاتمة ، مد أصابعه الخشنة وفتح النافذة الصغيرة فشهقت بفزع مصطنع ، واندفعت للداخل موجة باردة امتزجت بحبات العرق اللامعة فوق صدره وجبينه .. سألته :

ـ ماالذى حدث ياسيد الرجال ؟!

تبسم بفخر وقال بنبرة الواثق :

ـ الآن عرفت أننى سيد الرجال ياهداية ؟!

ضحكت بمجون وخلاعة وقد فهمت مغزى سؤاله :

ـ الملعب دائما مفتوح لتثبت أنك لاعب هداف لم تعتزل اللعب بعد .

ـ آه منك ياهداية .. وأنت مازلت الساحرة المستديرة التى تستوطن قلبى ، وسأظل هدافك المفضل !

سكت عويس ولم ينطق بحرف ،طابت نفسه وهدأت سريرته ،وشعر بالإرتياح التام عندما رأى الرضا التام على وجهها المحمر المستدير ،ورأى لمبات النيون تضىء شرايينها ، وتنعكس تلك الإضاءة وتسطع فى عينيها .

أحس الرجل برجولته وهى تمد يدها بإمتنان وسرور تمسح حبات عرقه اللامعة المتساقطة على وجهه وصدره بعد موقعة قوية فيها مد وجزر بين قوتين متكافئتين ،وانتهت الموقعة بلاغالب ولامغلوب ..انتهت بإنتصار للطرفين ، وحصد كل منهما قسطا من السعادة وارتياحا وحبورا كمن كان يحمل فوق صدره حجرا ثقيلا ويسير به مثقلا فى عز الحر فى صحراء لانهائية ..ألقى بالحجر بعيدا ، وتجرع كأسا من ماء مثلج منعش يروى وينعش !

أما هداية فقد همهمت راضية مرضية ، وتبسمت فى ضراعة كأنها تؤدى صلاة من نوع خاص ، ثم طبعت قبلة حانية على شفتيه الغليظتين ، وعادت تمسح بيدها الحانية العرق المتجمع على صدره هامسة :

ـ كان لابد لنا أن نلتقى من جديد ياعويس لأننا متشابهان .. بل أنا وأنت شخص واحد ..وإن ظل الفراش باردا وأنا وحيدة سنوات طويلة فى غيابك القسرى .. اللعنة على السجون ،ومن يصنع السجون ويحبس الأسود فى أقفاص من حديد !

أغمضت عينيها كأنها فى حلم جميل بعد كابوس فظيع ،وغاصت فى عتمة دافئة ، ولذة سرمدية .. وأدركت بأنها ستحظى بنوم عميق بلاكوابيس للمرة الأولى منذ سنوات .

الكوابيس فقط مؤجلة إلى الصباح حتى تخترق أشعة الشمس النافذة الوحيدة ، وتغرى كل شىء ، وتجفف ماتبقى من عرق النشوة ، وتتبخر مياه الشهوة .

آه من السماء ،وهى ترسل موجات انسجام إلى الأرض ، كانت حبلى بالنجوم ، ومرصعة بمصابيح ربانية ، والرياح عاتية باردة لايهمها شىء ،تزمجر وتتراقص بعنف ، وبرك الماء فى حفر الطين تلمع تحت الأضواء المنبعثة من بعيد .. لاشىء سوى دموع هداية تسيل على خديها ، وهى تحتضنه وتتمسح فيه مثل قطة هجرها أليفها قسرا وقهرا ثم عاد إليها فجأة ليطفىء أشواقها ، ويده تتحسس ظهرها برفق وحنان دافق .. عندئذ أحست أن دموعه الدافئة تسح فى أعماقه أيضا رغم مظهره الصلب وملامحه المتماسكة .

إن الحزن يسرى على الجميع كما يسرى الشوق والحرمان ،والحزن والشوق وجهان لعملة واحدة لايخلو منهما إنسان .. يطاردان المرء فى كل أوان وفى كل مكان .. مثل الموت تماما .

لاشىء يفوق حزن الرجل .. ولاشىء يفوق اشتياق المرأة .. تلك حقائق تكشفها طبائع البشر ..تنهد عويس طويلا ولزم الصمت المهيب ،وقد رأته هكذا فداهمها خوف غريب ،وأدركت بحسها وبخبرتها به أن رجلها فى صدره شىء ما .

حاول أن يتكلم فلم يطاوعه لسانه ، وأحس بأنه مشلول فباغتته بالسؤال :

ـ أنت خائف أليس كذلك ؟!

ـ كيف عرفت ياهداية ؟!

ـ لاأحد فى الدنيا يحس بك مثلى .. لكن ماالذى يخيفك ياعويس ؟!

أجفل قليلا وطأطأ رأسه ولزم الصمت ،وبعد لحظات مد يده ليقبض على كوب الشاى الساخن ثم تجرع نصفه دفعة واحدة ، وفتح النافذة بزاوية صغيرة يستطلع منها سواد الليل ، وزمهرير الريح ودموع السماء ، فمست قطرات المطر كف يده وبللته .. عندئذ اقتربت منه هداية حتى كادت تدخل فى ضلوعه وقالت بدلال :

- الدنيا برد .. أغلق النافذة ، وضمنى فى حضنك ياعويس .

فكر قليلا فى ألف عين وعين تترصده لوخرج من عندها فى جوف الليل ،وهى نفسها لن تسمح له بالخروج ، بل تريده أن يبقى عندها العمر كله ، أويبقى شهرا على الأقل كعريس فى شهر العسل .

ياسبحان الله .. يأتيه العسل بعد مرارة السجن !

تمدد باسترخاء ووضع رأسه على فخذها يتوسده ،وأغمض عينيه محاولا النوم لكن من أين له بالنوم ؟!

مسحت بيدها الناعمة على وجهه المرهق المكدود الأصفر من طول البعاد عن ضوء الشمس ،الأيام الصعبة حفرت أخاديد من الأهوال على تقاسيم وجهه ، وراحت هداية تهدهده كطفلها الوحيد ، وتحكى له حكاياتها الساذجة ، وتستعيد من الذاكرة مواقف تافهة ، وأحداث عادية مرت عليها وعاشتها فى غيابه ،احتضنها باعتذار غير منطوق

ثم فتح عينيه يتأمل تعبيرات وجهها المتورد بحمرة الورد فى أوانه ،وقد استقر اليأس والخوف من شىء مجهول يأبى أن يبوح به لها أولغيرها ، لكنها لن تستسلم أبدا .. لابد أن تعرف ولن تتركه لشيطانه يلقى به فى المهالك لأنها تخاف أن تخسره للأبد ..إن سكة الشيطان محفوفة بالمخاطر ، ونهايتها التهلكة لامحالة .

وإن خسرته فقد خسرت نفسها ، وإن هلك هو فقد هلكت هى الأخرى .. هذا ظنها وليس كل الظن إثم .. وربما يكون عندها حق .

عاد يفتح فرجة صغيرة من النافذة ، وهو يسمع صوت الريح يعوى ، ويضرب الهواء فى خشب النافذة كطارق غير مرغوب فيه ، وأطل نحو السماء فوجدها معتمة ترصعها النجوم ، والعتمة بين النجوم تبعث على اليأس .

سألته هامسة :

- هل تخاف الليل ياعويس ؟!

- ومن لايخاف من سواد الليل ياهداية ..و كنت أظن أن قاتل مثلى قد هجر الطفل الذى يسكن داخله منذ سنوات بعيدة .. لكن يبقى الإنسان إنسانا يخاف ويحب ويعشق ، وكل شىء يفعله الإنسان فى كل زمان ومكان .

- هل تكره ليل الشتاء وتخافه ولاينتابك مثل هذا الاحساس مع ليل الصيف ؟!

- آه ياهداية .. أظن أنك تذكرين الليالى الحلوة التى عشناها سويا فى ليالى الصيف ، والقمر ساطع يبتسم للعاشقين الساهرين ، وينعكس فى عيونهم ، ويلمع على وجوههم ، ويضىء قلوبهم بأشعته الوضاءة .

نظرت لسقف الغرفة ،وارتسم الشجن على محياها ، وتوردت وجنتاها وازدادت احمرارا ثم هتفت بدلال وأنوثة وتأوهات :

- ياسلام ياسيد الرجال ،كانت أيام حلوة ، وكلها شهد وعسل .

فى ليالى هذه الأيام وحين ينتصف الليل يظهر الكروان فوق النهر ،يطوف أجواء العزبة ، ويغرد ويبتهل إلى الله ،وفى بعض الليالى يغيب ، ولاأحد يعرف السبب .

تنهد بأسى ومد إحدى قدميه على كامل طولها فاصطدمت بكوب الشاى الفارغ الذى سقط على الأرض وأحدث صوتا مزعجا فى صمت الليل الساكن .. عندئذ شهقت ثم قالت :

- خير .. اللهم اجعله خيرا .

مرغ رأسه فى فخذها الطرى فأحس بليونة حرم منها طويلا ، وشعر بالدفء والترفيه وهمس لها :

- ربما يمضى الوقت الطويل ياهداية قبل أن نسمع غناء الكروان وابتهالاته مرة أخرى ..وطبعا لم أكن أسمعه طوال سنوات السجن اللعينة ، فماالذى يجبر هذا الطائر الرقيق الشفاف الصوفى أن يزور ملاذ المجرمين وقوقعتهم الحصينة ، وأظن أنه لايغرد إلا للعشاق الساهرين على ضوء مصابيح السماء أونور الشموع ،كما يغرد للعابدين الساهرين المتعبدين الذين يحرصون على صلوات الليل وقيامه تطوعا وتقربا إلى رب العالمين .

- لكن ياعويس لم تخبرنى حتى اللحظة لماذا أنت خائف وقلق ياحبيبى ؟!

أغمض عينيه مثل طفل شبع من الهدهدة فنام فى حجرها ، مدت يدها وأحضرت وسادة لطيفة طرية وضعتها تحت رأسه ،فتح عينيه وهى تنقل رأسه من فوق فخذها إلى الوسادة بعد أن أحست بألم خفيف ، ومد يده فجذبها إليه بشىء من القسوة فتأوهت قليلا بابتسامة ثم استسلمت فى حضنه ،وطاف بأنفاسه الساخنة فوق وجهها ورقبتها ، والريح الباردة تصرخ خارج وكر الحب الدافىء !

وقال كمن يزيح حجرا ثقيلا فوق صدره :

- خائف من أمرين .. الأول .. أننى سأكون عاطلا عن العمل لفترة طويلة لأن السجن نسيان ، ولن يتذكرنى أحد ، ولوتذكرنى شخص ما سيبتعد عنى خشية الشبهات !

والأمر الثانى .. أننى سأقتل شخصا ما قريبا جدا .

صاحت بإنزعاج :

- تقتل من ياعويس ؟!

- سأقتل العمدة .. فراج عوض أبودومة .

- يانهار أسود .. فراج أبودومة عمدة عزبة الحنكاتى ؟! حرام عليك ياعويس .. ألايكفيك مأأصابك ؟! ابعد عن طريق الحرام وكف عن إزهاق الأرواح البريئة .

كان من العبث أن يرضخ لها أويقاومها .. وإن كانت لها سطوة عليه فى كل شىء .. فالأنوثة سلطة جبارة ،وتبدأ من الفراش ،وتسرى إلى كل الأماكن الأخرى وكل الظروف والأحوال حتى يبدو الرجل مثل العبد فى حضرة أميرته ! وكان من الجنون أن يجادلها كثيرا أويقاومها طويلا .. بدت متسلطة وحانقة من شدة الملل ،والخوف من تهوره ثم غيابه القسرى عنها عدة سنوات !

وكان هو يحس أن جزءا من روحه تم انتزاعه ، وانحدروا به إلى أسفل سافلين ، فكر فى أن يقود قاربها بهدوء فوق أمواجها العاتية ، وعليه ألايسرف فى التجديف عكس التيار ، ولايستسلم للأمواج الطائشة بدعوى الخوف ،وإن كان الخوف حاضرا فى كل حين .

ظل منتشيا بماأعطته فى هذه الليلة كأن كل ذكرياته المبهجة قد استيقظت من سباتها العميق وعادت إليه فى هذا العش خافت الإضاءة ساطع بالسعادة وقاهر للحرمان، بينما المطر لايكف عن السقوط خارج الدار !

بنبرة ساخرة قال :

ـ الأبرياء .. هو ليس من الأبرياء أبدا .. سيدفع ثمن عذابى ليالى سوداء طويلة كنت أحسب نفسى فيها أشبه بالأموات فى مقابر ضيقة مظلمة ،وهذا حال كل المساجين .. أحياء عند الناس .. أموات عند أنفسهم !

بإستجداء قالت :

ـ أرجوك ياعويس لاتقتله ..من أجلى لاتقتل .. ولوفعلت ذلك ستكون قد قتلتنى أنا !

ثم سحبت يده بسرعة ، وانكبت عليها تقبلها مثل طفلة ، وهى تلح عليه بحرارة عساه يستجيب ويتراجع .. شرد لحظات وأغمض عينيه ثم همس لنفسه :

ـ قضى الأمر .. وسيهلك العمدة لامحالة ..أفكر الآن فى ملاذ آمن بعد تلك العملية .

نظر إليها فرأى الفزع يطل من عينيها ، وعلى وجهها استقر الأسى ثم لانت ملامحه ورق لها قليلا بينما السماء حبلى بالعتمة والمطر والهواء بارد غاضب عاصف لايهدأ ، وفجأة جاء من بعيد صوت مئذنة فى مكان ما تنادى .. الله أكبر .. الله أكبر ..

بينما العواصف تصفر وصوت زخات المطر يصفع وجه الأرض ، وربما يعانقها اشتياقا منه إليها أواشتياقا منها إليه .. الله وحده أعلم بحالهما .

****

(45)

تواصلت حالة الود بين (رضوان حاليا ـ فاطمة سابقا) وصاحبة المقهى الست فريال التى تشبه تحية كاريوكا نجمة السينما المصرية وراقصة مصر الأولى فى زمانها بجلبابها البلدى والإيشارب المحلاوى المعصوب فوق رأسها بطريقة جذابة .. والذهب الأصفر يلمع فوق صدرها ،وفى معصمها ببريق أخاذ يخطف الأبصار ،تتحرك بين الرجال كفراشة أليفة ، تحدثهم بجرأة وعفوية ، وتشاركهم مشاكلهم وتساعدهم فى حلها ،وبخبرة الحياة وتجارب السنين صار لديها فراسة تجعلها قادرة بسهولة أن تصنف معادن الناس ، وتعرف الفرق بين الذهب الخالص والفالصو من البشر !

وسرعان ماتحول الود إلى اعجاب ، وبنفس السرعة صار الاعجاب حبا من طرف واحد ، بينما رضوان يعرف أن ماتفكر فيه تلك المرأة المشبوبة بالعاطفة المملوءة بالأشواق لأحضان رجل أمر مستحيل .

يدرك رضوان أن هذه المرأة تحس بنفس أحاسيسها .. ولم لا أليست أرملة مثلها ؟! لكن فريال تواجه الناس بجلباب حريمى وبملامح أنثى حقيقية ، أما فاطمة فهى مضطرة للهروب تحت جلباب رضوان ! تلك هى القضية .

بالفعل أمر مستحيل لأن فريال صاحبة المقهى تفكر فى رضوان على أنه رجلها القادم ،وهدفها الذى تسعى لاقتناصه من هذه الحياة ، ومن بين كل الرجال وماأكثرهم رواد المقهى وزبائنه الدائمين والمؤقتين ، وسرعان مارفعت صورة صاحب المقهى زوجها المرحوم من على الحائط داخل المقهى فى اشارة لايخطئها أى صاحب عقل يفكر ،وفهمتها فاطمة بحس الأنثى ،وعقل الأرملة وقلب المرأة ! فلايفهم المرأة ومشاعرها إلاامرأة مثلها .

الست فريال صاحبة المقهى الشهير فى سمنود تبعث برسالة لمن يهمه الأمر - وهو رضوان دون سواه - أن زمن المعلم صاحب المقهى انتهى ، ولم يعد للمرحوم مكانا فى قلبها سواء حيا أوميتا .. دون أن تدرى أن الرجل الذى وقعت فى غرامه ماهوإلا أنثى مثلها وأرملة من بنات جنسها !

همست فريال لنفسها :

- الحى أبقى من الميت .. يجب أن أعيش مثل كل النساء ماتبقى لى من حياة ، فليس من المعقول أن أدفن رأسى فى الرمال مثل نعامة حمقاء ، وليس من المقبول أن أدفن جمالى وشبابى فى التراب مع المرحوم !

أديت رسالتى والأولاد كبروا والحمد لله.

ومن حين لآخرتتودد لرضوان ، وتلمح له بأكثر من وسيلة واشارة وإيماءة أنه رجلها الذى كانت تبحث عنه منذ أربعين المرحوم ! وأنه هو الرجل الذى عليه العين ، واختاره القلب وأنه النهر الذى تود الوردة الذابلة أن تشرب منه حتى ترتوى كى تتفتح للحياة من جديد .

لم يكن يخفى على فاطمة - وهى تختبىء تحت جلباب رضوان ، وتعيش باسمه وتتقمص روحه وجسده - ماتفعله وماترمى إليه صاحبة المقهى .. ولكن أين المفر ؟! وإلى أين بعد أن هربت من فخ مشابه فى مدينة المحلة الكبرى ؟! وكأن سمنود والمحلة قد نصبا لها نفس الفخ !

آه لوعرفت فريال حقيقة فاطمة ..آه لوعرف الرجال فى كل مكان حقيقتها .. آه وألف آه لوعرفت النساء أيضا حقيقتها !

كان الجميع سيرجمونها بالحجارة ، الرجال سيفعلون ذلك غيظا وغلا لأنهم يريدونها لأنفسهم ، والنساء سيفعلن ذلك أيضا لأنهن يريدن لها أن تختفى من الوجود تماما ، لأن تختفى تحت جلباب رجل اسمه رضوان .. اللعنة تطاردها من كل جانب ،وهى امرأة على حقيقتها كما تطاردها اللعنة أيضا وهى تحت لافتة رجل !

فكرت فى أن تكشف حقيقتها للست فريال المتلهفة المتهافتة للإرتباط بها، لكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة خوفا من العواقب الوخيمة .

تملكتها الحيرة ولم تكن تدرى ماذا تفعل فى تلك الورطة ؟!

وظلت عدة أيام تتجول فى المدينة بحثا عن الأقدام والأحذية بعيدا عن مقهى الست فريال شبيهة تحية كاريوكا ، وعن مرمى بصرها ، ونظراتها الشرهة العاشقة ،تود أن تصرخ فيها وتقول لها :

- أنا امرأة مثلك يافريال .. أنا أرملة مثلك .. اتركينى فى حالى ،وابحثى لنفسك عن رجل من صنف الرجال !

لكنها لم تستطع أن تواجه تلك المرأة بالحقيقة المرة ، وإن استطاعت أن تهرب بعيدا عن المقهى ، وتختفى فى أماكن أخرى عند مصنع الملابس الجاهزة عند مدخل سمنود من جهة المحلة الكبرى ،أوأمام محطة المياه والمستشفى العام أوحتى محطة القطار من اتجاه مدينة المنصورة ، وأحيانا تدخل مركز الشرطة لتلمع أحذية

الضباط والأمناء ..ولم لا والرزق يحب الحركة ؟! عليها أن تسعى فى كل مكان بعيدا عن عينى فريال المعجبة المتلهفة التى لاتكف عن التفكير فى المستحيل !

لكن لماذا تخفى فاطمة حقيقتها .. وإلى متى تظل تخبىء أنوثتها ؟! .

هى تراهن على الزمن ، وتتصرف بنفس ذكاء حجا .. هذا الأعرابى العبقرى الذى خدع الجميع ، واشترى الوقت وراهن عليه وكسب الرهان ، حدث ذلك حين جمع حاكم المدينة الناس فى ميدان عام ، وقال لهم :

ـ إن من يستطيع منكم أن يجعل حمارى يتكلم سأعطيه فى التو واللحظة مبلغا كبيرا من المال يجعله أغنى أغنياء البلدة كلها .

عندئذ تقدم جحا وقال بدهاء :

ـ أنا أستطيع ياسيدى الحاكم أن أعلم حمارك الكلام .

قال الحاكم مندهشا :

ـ هيا افعل أمام هؤلاء الناس جميعا كى تحصل على المكافأة الكبرى .

حيئنذ تلعثم جحا وفكر بسرعة ثم قال :

ـ الأمر ليس بهذه السهولة ياسيدى الحاكم ..إنما أحتاج لبعض الوقت كى أعلم الحمار الكلام .

ـ وكم تحتاج من الوقت ياجحا ؟!

ـ ياسيدى أحتاج إلى عام واحد ..عام واحد فقط ، وبعد مرور العام نلتقى هنا أمام الناس أجمعين ليروا هذا الحمار يتكلم كما يتكلم البشر تماما .

بدا الحاكم منبهرا بجحا وثقته الكبيرة فى نفسه ،وأعطاه المكافأة الكبرى ثم قال :

ـ سوف نلتقى بعد مرور عام واحد من الآن ياجحا ،وفى هذا الميدان وأمام الناس ، ولولم يتكلم الحمار سأقتلك فى هذا المكان على مرأى من الجماهير .

تبسم جحا وهز رأسه قائلا :

ـ من حقك ياسيدى الحاكم أن تفعل ماتشاء لولم يتكلم الحمار بعد عام من الآن !

عندئذ دهش الناس أجمعين كما دهشت زوجة جحا ، وصرخت فى وجهه محذرة :

ـ أيها المجنون لقد هلكت .. الحاكم سيقتلك بعد عام لامحالة .. عليك أن ترد له ماله ،وتخبره أن هذا أمر مستحيل لأن الحمار لن يتكلم ولوبعد ألف عام .

ضحك جحا كثيرا وهو يحصى الدراهم الذهبية الكثيرة فى أكياس ثقيلة ثم قال :

ـ يازوجتى .. أيتها الساذجة .. أنا أراهن على الزمن .. ولاأحد يدرى ماالذى سيحدث بعد ساعة واحدة من الآن .. فمابالك بعام كامل ؟!

ـ ياجحا .. الحاكم سيأمر بقتلك بعد عام من الآن .

ـ ياامرأة كفى عن الهلع والصياح مثل دجاجة بائسة .. بعد عام تتغير الأحوال ..ربما يموت الحمار .. وتنتهى المشكلة وأنجو بجلدى وأفوز بدراهم الحاكم .

ـ وماذا ستفعل ياجحا لولم يمت الحمار ؟!

ضحك ساخرا وقال :

ـ ربما لايموت الحمار ، ويموت الحاكم ، وفى هذه الحالة أكون قد نجوت أيضا من المقصلة والدراهم الذهبية الكثيرة أستمتع بها عمرى كله .

صرخت زوجته متسائلة :

ـ وماذا لولم يمت الحمار وكذلك الحاكم ياجحا .. ستكون نهايتك على المقصلة أمام الناس ؟!

بهدوء تبسم قائلا :

ـ فى هذه الحالة أيتها الزوجة المتشائمة ربما أكون أنا قد مت وتنتهى المشكلة بحمد الله ،وتفوزين أنت وحدك بالثروة التى حصلتها من الحاكم الساذج الذى ينتظر حماره أن يتكلم !

باصرار وعناد قالت :

ـ وماذا ستفعل يازوجى الحبيب لولم يمت الحمار ، ولم يمت الحاكم ولم تمت أنت ؟!

ـ فى هذه الحالة أكون أنا وأنت يازوجتى الذكية قد تمتعنا ،وعشنا فى منتهى السعادة بهذه الثروة الطائلة التى هبطت علينا من عند الله بأمر الحاكم ، وبعد ذلك فليكن مايكون ، ولتكن مشيئة الله فوق الجميع .

بمثل منطق جحا ظلت فاطمة تعيش فى جلباب رضوان ،وتواجه الظروف الصعبة ، وتتحدى الأمور المستحيلة !

تشترى الوقت وتراهن عليه ، وكلما تحرك الزمن خطوات إلى الأمام ، وقفزت الأيام والشهور كبر توأمها ، وتقدما فى طريق الدراسة ،وتفوقا في هذا الطريق .

لاشىء أبدا يعرقل حلمها ، وهى تدرك أنها تحمل أمانة كبيرة فوق عاتقها ، أمانة تركها لها أعز الناس ..ثمرة حبهما .. أغلى مالديها فى الحياة الدنيا .

فى تلك الأثناء كان العمدة فراج أبودومة يدبرأمره بمشورة مستشاره بسييونى المحامى ويفكر معه فى طريقة يكسر بها شوكة فاطمة عبدالعاطى الأرملة الآسرة التى تتحدى الظروف كما تتحدى شبابها ،وتحبس جمالها ورغباتها فى قمقم الترمل ، وتتحدى أيضا الرجال ، وتأنفهم وتستعصى عليهم مثل قلعة حصينة محصنة !

أرجأ فراج أبودومة خطة خطف التوأم لبعض الوقت عساه يستطلع الأمر أويجد ثغرة يمر منها ـ طوعا أوكرها ـ إلى عقلها وقلبها ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

كلف فراج العمدة خفيره الخصوصى ، وخادمه المخلص الأمين هنداوى بمراقبة فاطمة .. متى تخرج من دارها ومتى تعود إليها ؟! ومن الذى يزورها ، ومن تزوره ؟! كان يريد أن يعرف عنها كل شىء ، كل تحركاتها وسكناتها وكيف تعيش ؟!

وشدد على الخفير أن يفعل ذلك بمنتهى الذكاء ، ودون أن تشعر بأنها تحت المراقبة ، ولتكن مهمته تلك سرية للغاية .

ظل الخفير هنداوى على مدى أسبوع كامل يحوم بالقرب من دارها ، وأحيانا يطوف حولها كأنه يطوف حول الكعبة ،يبدأ مهمته مع سطوع الشمس وحتى غروبها ، ولم ير شيئا غير عادى ،فى الصباح يذهب التوأم للمدرسة بنشاط وحماس ،يتضاحكان بمرح وسرور كأنهما فى رحلة ممتعة ثم ينغلق وراءهما باب الدار ،وفى منتصف النهار يعودان منهكين من المشوار الطويل سيرا على القدمين ذهابا وإيابا إلى المدرسة ، وصداع فى رأسيهما من حشو الكتب ، وثرثرة المدرسين التى لاتنتهى إلا مع دقاق جرس المدرسة ، وكأنهم فى مكلمة طويلة عريضة مستديرة !

فى نهاية فترة المراقبة لم يلحظ الخفير هنداوى شيئا استثنائيا ، وكاد يتوقف عن المراقبة لكنه استغرب وفكر طويلا .. وسأل نفسه .. أين فاطمة ؟! ولماذا لم يرها ؟!

الغريب فى الأمر أنه على مدار أسبوع كامل لم يقع بصره عليها ،وهو الذى جاء ليراقبها ،هل معقول أنها لم تغادر الدار طوال الأسبوع ؟! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا .. هل هى مريضة مثلا ؟!

عاد الخفير هنداوى إلى سيده وولى نعمته وعمدة عزبته فراج أبودومة ،وحكى له الأمر بكل مافيه من ريبة وشكوك ،فشاركه فراج الدهشة والاستغراب ،وطلب منه العمدة أن يستمر فى المراقبة ليل نهار حتى يتبين حقيقة الأمر ، وعليه ألايكتفى بالمراقبة ساعات النهار فقط .

وظل فراج يتساءل :

- كيف لايدخل أحد الدار ولايخرج منها سوى توأمها ؟! وكأن فاطمة تعيش فى سجن أوتحولت لشبح فلم يعد يراها أحد .. سبحان الله .

ألف سؤال وسؤال يطرق رأسه ، ويقض مضجعه هو وخفيره الخصوصى هنداوى ..هل ياترى الأرملة الشابة فاطمة عبدالعاطى مريضة طريحة الفراش لاتغادر الدار ؟! ولوكانت مريضة .. لماذا لايزورها أحد من الأقارب أوالجيران ؟! صحيح إن دارها منعزلة بعض الشىء عن باقى ديار العزبة .. لكن الصحيح أيضا أن الناس فى عزبة الحنكاتى سواء النساء أوالرجال يحرصون على زيارة المريض .. تلك عادة متأصلة فى نفوسهم ، ولواشتكى أحدهم تداعى له باقى الناس مثل الجسد الواحد لواشتكى منه عضو .

لاسر يبقى سرا للأبد .. تلك طبيعة الأشياء فى هذه الحياة ،ودائما هناك من يراقب لغرض فى نفس يعقوب ، أومن باب التطفل والفضول وحب الاستطلاع ، دائما هناك من يراقب الآخرين ، وربما يراقبه الآخرون أيضا وهو لايدرى أن من يراقبهم هم أيضا يراقبونه !

المراقبة للمراقبة فى حد ذاتها متعة للنفس البشرية التى يستهويها شغف الإطلاع على أسرار الآخرين !

إن البعض يراقب البعض .. وربما الكل يراقب الكل .. العيون دائما مفتوحة لايغلقها إلاالنوم أوالموت ، والآذان كذلك أيضا .. دائما هناك هدف أوشخص أوغرض تترصده وتراقبه !

ولسوء حظ هنداوى ، ولحسن حظ فاطمة عبدالعاطى أنها كانت تخرج مبكرا قبل أن يبدأ الخفير هنداوى مهمته فى المراقبة ،وتعود فى الظلام بعد أن يكون قد أنهى فترة المراقبة ، ولذلك لم يرها على الإطلاق على مدى أسبوع كامل من التلصص على دارها .

وذات ليلة بعد أن حل الظلام وفرد أجنحته على العزبة وديارها ونخلها ونهرها ،وسكنت الحركة فى الحقول والشوارع ، واختبأت العصافير فى أعشاشها فوق أغصان الشجر ،بينما الكروان هادىء مستكين فى مكان ما لايغرد ولايبتهل كعادته ،والنيل يتهادى فى طريقه حيث أراد له الله منذ ألاف السنين ، كان الجو باردا والضوء شاحبا ، والحركة شحيحة فى شوارع العزبة وحواريها ،والقلق يخيم على الخفير هنداوى الذى يتدثر فى بالطو

من الصوف الخشن الثقيل ،ومن تحته السروال المحكم حول ساقيه ،وسلاحه القديم الطويل معلق على كتفه الأيمن كأنه ذراعه الثالثة .. بندقية من العصر الحجرى !

وفجأة وهو يحوم حول الدار من قريب أحيانا ، ومن بعيد أحيانا أخرى كما يحوم المجرم حول مسرح جريمته بطريقة لاإرادية .. ظهر أمامه شبح يتهادى قادما من أول الطريق يتجه صوب هنداوى فى خط مستقيم .. حدق الخفير فى هذا الشبح الرجل لعله يعرفه ،ويتبين ملامحه كلما اقترب منه أكثر .

لكن هيهات فقد كان الرجل الشبح يلف رأسه ووجهه بغطاء محكم يخفى كل ملامحه ، ولاتظهر منه سوى عينان تبرقان فى الضوء الخافت ،وقف الخفير شاخصا متسمرا فى مكانه كأنه تمثال من جرانيت أصم !

كتم أنفاسه يترقب ، ويده اليمنى تتأبط سلاحه بينما يده اليسرى مستقرة بمحازاة جانبه الأيسر ، وهبت ريح عاصفة تشبه مد وجزر النهر الغاضب فى عنفوانه ، وعلى بعد أمتار قليلة منه توقف الرجل الغريب المجهول الملثم كالشبح ، وعرج قليلا نحو باب الدار ثم طرق ثلاث طرقات فانفتح الباب على الفور ، ودخل الرجل الغريب دار فاطمة عبدالعاطى ،واختفى أثره والباب أغلق وراءه .. عندئذ سأل الخفير نفسه :

ـ من يكون هذا الغريب المجهول الذى يدخل دار فاطمة فى هذا الوقت من الليل ؟! ومتى سيخرج ؟! وماذا سيفعل فى دار أرملة لارجل لها ؟!

انتظر ساعة وطال الانتظار أكثر حتى انتصف الليل ،ولابارقة أمل تلوح فى الأفق بأن هذا الغريب سيخرج ، وقد انطفأت الأنوار فى الدار وربما نام الجميع ، حينذاك اقترب الخفير هنداوى ،وتنصت على الباب والنوافذ عساه يسمع شيئا ،لكنه لم يسمع أى شىء ، ولم يلحظ أثرا لأى حركة فى الداخل .. صارت الدار صامتة كالقبر !

إن النوم سلطان وغالب للجميع ..دارت فى رأسه الظنون ، ولعبت به أفكار شريرة ،وهواجس مجنونة .. آه .. تكاد رأسه تنفجر ، وشغف الفضول يكاد يقتله ، فكر فى أن يقتحم الدار ، ويكشف اللثام عن وجه الرجل الملثم ،ويفضح أمره .. ياللعار !

آه منك أيتها الأرملة .. تتمنعين على كل رجال العزبة ، وتعشقين فى الظلام رجلا غريبا ؟!

طار الخفير كالغراب يحمل الشؤم إلى سيده وولى نعمته عمدة العزبة فراج أبودومة ، ويزف إليه الخبر المذهل الذى رآه الليلة بعينيه ولوقاله له أحد ماصدقه ..إن الأرملة التى هجرت كل الرجال ، وحرمتهم جميعا على نفسها تلتقى رجلا مجهولا تحت جنح الظلام وفى دارها .. ياللعار يافاطمة !

حين سمع العمدة فراج هذا الكلام الخطير من الخفير بهت الذى سمع ، ولم يصدق أذنيه ، لكنه لم يشهد على الخفير هنداوى كذبا من قبل فلماذا يكذبه الآن ؟!

سأله مستفهما :

ـ أمتأكد أنت ياهنداوى.. أم أن خيالك ربما هيأ لك شيئا لم يحدث ؟!

أقسم الخفير بأغلظ الأيمان ، وأقسم برحمات الأحياء والأموات أنه رأى رجلا ملثما يدخل دار فاطمة ، وهو يتلفت يمينا ويسارا بشكل مريب ،ويخبىء وجهه مثل لص جاء يسرق ثروة أوعاشق جاء يقابل معشوقته بليل .

والذهول يسيطر على فراج أبودومة أشاح بيده غاضبا فى الهواء أمام وجه الخفير آمرا إياه أن يغرب عن وجهه ثم أمسك بهاتفه واتصل بشيطانه الذى ينصحه :

ـ اسمع يابسيونى .. أريدك أول النهار فور أن يسطع نوره تكون عندى .

كان بسيونى المحامى نائما واستيقظ مذعورا على رنات متتاليات من هاتفه وقال :

ـ ماذا حدث ياعمدة ؟!

ـ ستعرف عندما تأتى .. مصيبة كبرى يابسيونى !

ثم أغلق الهاتف وظل شاردا يدخن ويفكر ،وهو فى حالة عصبية أشبه بالجنون !

****

(46)

بينما عزبة الحنكاتى تستيقظ وتفتح عيونها على الدنيا مع بزوغ خيوط الشمس فى يوم جديد من أيام الله جاء بسيونى مهرولا يتعثر فى ساقيه بعد أن نزل من سيارته الفيات الحمراء الصغيرة التى لاتليق أبدا بشيطان بارع مثله يمسك بخيوط القانون التى تشبه خيوط العنكبوت ، ويتلاعب بها كيفما شاء !

وعلى الفور طلب من الخفير هنداوى أن يوقظ العمدة ، تردد وتلعثم وحاول أن يثنيه عن هذه الفكرة لأن الوقت مازال مبكرا جدا ، والعمدة ينام متأخرا جدا فهو ينام بعد الفجر تقريبا .

ويعرف الخفير هنداوى أنه لوحاول أن يوقظ العمدة فراج فى هذا الوقت ستكون العواقب وخيمة ،ولعلها مخاطرة كبرى أن يفعل ذلك .

لكن بسيونى ألح باصرار مؤكدا أن تلك هى رغبة العمدة نفسه ، وأمره أن يفعل ذلك على مسئوليته ! عندئذ تشجع الخفير ولملم أطراف شجاعته وقال للمحامى بسيونى :

ـ لله الأمر من قبل ومن بعد .. سأفعل لكن لوحدث لى أى ضرر من حضرة العمدة على مسئوليتك ياأستاذ .

ضحك بسيونى وقال :

ـ لاتقلق ياهنداوى .. هذا ماطلبه العمدة بنفسه .

أدرك الخفير هنداوى بفراسته أن وراء هذا المجىء المبكر المباغت للمحامى مصيبة جديدة يدبران لها أويتشاوران بأمرها ، وبحسه وخبرته عرف أن هذا التدبير لاشك يتعلق بفاطمة بعد مارآه البارحة وأخبره بكل أمانة وصدق لحضرة العمدة .

شهق وزفر وتنهد بعمق ثم كتم تنهيدته ، ودخل غرفة نوم العمدة ليوقظه ،والغريب أنه استيقظ على غيرعادته هادئا مستسلما منتفخ الوجه ، وعيناه جاحظتان محمرتان ، ومن تحتهما سواد يحيط بالجفون ، وكأن السحابة السوداء استقرت حول عينيه إلى أجل غير مسمى .. قاتل الله السهر !

حين عرف العمدة أن بسيونى المحامى وصل نهض متثاقلا ، وهو يشعر بأن جسمه كله يؤلمه ، ويحس بوخز الإبر فى كل مسامه ، وحتى عظامه يحس بها هشة تكاد تتكسر !

لابأس .. كل شىء يمكن احتماله إلاماسمعه عن فاطمة ..دخل الحمام وغاب دقائق معدودات ثم خرج ورذاذ الماء يقطر من وجهه ، ثم عاد إلى غرفة نومه وارتدى جلبابا يليق باستقبال ضيف ماهو بضيف !.. ارتدى الجلباب فوق الصديرى والسروال القطنى وقد كان نائما بهما .

حكى له الحكاية بحذافيرها كما سمعها من الخفير هنداوى ثم سكت يترقب مجهدا وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ، ويحس بحشرجة مؤلمة فى صدره وقلبه من أثر السهر والدخان ، ولم يسبق له مغادرة فراشه فى هذا الوقت المبكر منذ سنوات طويلة .

بدا بسيونى مذهولا مأخوذا وفى قمة استغرابه ،ومنتهى دهشته وهو ينصت لهذا الكلام ، عندئذ أحس أنه يهذى وأن ماسمعه منه الآن مجرد تخاريف نائم لم ينهض بعد !

وتشكك بسيونى فى الأمر ، واستدعى الخفير هنداوى يستجوبه بنفسه ،وسأله أن يحكى له مارآه عن الزائر الليلى المجهول الملثم الذى دخل دارالأرملة الحسناء فاطمة عبدالعاطى ولم يخرج منها حتى مابعد منتصف الليل .

استيقظ فجأة شيطانه ووسوس له أن فاطمة التى ظنها الجميع قديسة عفيفة من كثرة ماسمع عن عفتها وشرفها وصونها لنفسها ،وتحديها لكل الظروف القاسية والإغراءات الكثيرة من حولها قد وقعت فى شر عملها ، ولابد من انتهاز تلك الفرصة واحكام الحبل حول رقبتها ثم سحبها مثل الشاة إلى دار العمدة لتكون له زوجة بدرجة جارية أوحتى عشيقة خادمة !

ورسم الخطة ببراعة ودهاء ، ووضع السيناريو المذهل الذى حاز على اعجاب العمدة فراج أبودومة ،واتفقا على تنفيذها ليلا بعد تشديد الرقابة على مداخل ،ومخارج دار فاطمة للقبض على عشيقها ـ كما يظنون ـ فى حالة تلبس كاملة الأركان ، ومن المؤكد أن هذا العاشق سيعاود دارها ليلة بعد أخرى ، لأن العشق نهر لايرتوى منه العشاق مهما شربوا !

إن العشق جنون وإدمان ، والليل ستر وغطاء للعاشقين .

تبسم بسيونى بمكر ووعد العمدة بأن يجعل تلك الأرملة الفاتنة تركع تحت قدميه ذليلة خاضعة تلتمس رضاه ، وساعتها يفعل بها مايشاء !

كانت الخطة الجهنمية التى اقترحها بسيونى المحامى تقضى بأن يتم ضبطها متلبسة فى أحضان عشيقها الغامض الذى يأتيها تحت جنح الليل ، وفى هذه الحالة يحرر لها محضر تلبس فى جريمة زنا تقودها إلى السجن خمس سنوات على الأقل ، وفضيحة بجلاجل فى عزبة الحنكاتى والعزب المجاورة ، عندئذ سوف تتوسل وتركع تحت قدمى العمدة فراج تطلب الرحمة والستر من الفضيحة !

فى تلك اللحظة تكون له اليد العليا ليفعل بها مايحلو له ،ويملى شروطه عليها ،ولاتستطيع هى أن ترد له أمرا أوتكسر له شرطا ، ولو واتتها الشجاعة ورفضت أوامره وشروطه سيكون السجن مصيرها ومستقرها ،وتطولها الفضيحة ويلحقها العار ، ويلطخ سمعتها وسمعة عائلتها وتوأمها إلى يوم الدين !

ـ ياالله على براعة الشيطان !

قالها الخفير هنداوى حين سمع من بسيونى ثم همس لنفسه مذهولا جاحظ العينين بنبرة ساخرة :

ـ الله يرحمك يافاطمة يابنت عبدالعاطى .. لقد وقعت فى قبضة إبليس ولن تقوم لك قائمة بعد اليوم .

لم يكن فراج متأكدا من أنهم يستطيعون الإيقاع بهذه القطة العنيدة الشرسة بمثل هذه السهولة ،لكن الساعات القليلة القادمة حبلى بالأحداث والمفاجآت ، وعليه أن ينتظر ليرى .

وإن كان الوعد الذى أعطاه إياه بسيونى ، وقطعه على نفسه فتح شهيته ، وجدد حلمه البعيد فى النيل من هذه الأرملة الجميلة المستعصية عليه ، وعلى كل أقرانه من الرجال ، وتظل متمسكة برجل واحد يسكن القبر الآن ، وتأبى الإرتباط بغيره وكأنها زوجة نبى .. وزوجات الأنبياء لايتزوجن بعد رحيل أزواجهن .

وعد غامض ومبالغ فيه .. هذا هو كل ماظفر به العمدة الشاب العاشق للأرملة الحسناء، وبعد أن رسم بسيونى الخطة وكتب السيناريو بالوصف التفصيلى طلب الإذن بالإنصراف على أن يعود إليه قبل أن يحل الظلام لتنفيذ الخطة كاملة .. وقال له :

- يجدر بك ياعمدة أن تنام عدة ساعات لترتاح ، وأنا سأذهب إلى المحكمة لأنهى بعض الأعمال .

قال فراج منشرحا :

- أنا لاأحتمل فشلا فى هذا الأمر يابسيونى .. أنت تعرف أن فاطمة هى شغلى الشاغل ، وهى الصداع الدائم فى رأسى ، والوجع الذى لايهدأ فى قلبى .. لونجحت خطتك أيها الملعون ستكون لك عندى مكافأة كبرى لاتخطر لك على بال .. وأتمنى أن أنام عدة ساعات لأنال قسطا من الراحة ثم أستيقظ لأجدها هنا تخدمنى فى الدوار ذليلة كسيرة تحت رحمتى نهارا ، ومعشوقتى ليلا تلبى كل رغباتى ، وكأنها تنفذ أوامرعسكرية غيرقابلة للنقاش !

ضحك بسيونى بخبث ، وهو يدرك أن هذه الأرملة هى نقطة ضعف العمدة الشاب ، وأن الفريسة باتت اليوم أقرب ماتكون - عن أى وقت مضى - من عرين الأسد وأنيابه .

انصرف بسيونى مغادرا الدوار ، وهجع فراج إلى فراشه مجددا بعد أن خلع عنه جلبابه ، وألقاه بيده بعيدا فى ركن من الغرفة بلامبالاة ،وإن ظل يترقب بخيط رفيع من الأمل أن تسقط المرأة التى يحبها ويشتهيها بين يديه مثلما سقطت التفاحة فى حجر نيوتن .

يحتاج إلى لمسة من الحظ الذى افتقده تماما فى محاولاته الدائمة لإصطيادها كزوجة ورفيقة .

همس لنفسه وهو يغمض عينيه بوجهه الشاحب ، وزفر الهواء المحبوس فى صدره قبل أن يستسلم بخدر إلى سلطان النوم :

- آه منك أيتها الأرملة العنيدة .. أنت التعويذة الفرعونية القديمة التى أبحث عنها ، كونى بجانبى أيتها الأنثى الكاملة ،كونى تميمة حظى الضائع .. لاتتركينى وحدى .. هذه الليلة أوالليلة القادمة ستكونين لى ، وأنا منذ زمن بعيد أسعى بجنون للفوز بك ، ولاأدرى إن كنت أستطيع أن أفعل ذلك الآن ، وإن كنت تظنين أننا من عالمين مختلفين فأنت مخطئة يابنت عبدالعاطى ! ياالله ..كيف يمكن أن نلتقى تحت سقف واحد ، وبين أربعة جدران ياقطتى العنيدة ؟!

أخذه سلطان النوم وأغرقه فى أحلامه الوردية ،وقد هدأت نفسه وطابت روحه ، وكله ثقة ويقين أنها باتت قريبة منه ،وقريبا جدا ستقع فى الفخ ولامنقذ لها من بين يديه .

وقبل أن تغطس الشمس فى النهر كعادتها ،وتختبىء تحت أمواجه المخملية عند الغروب ، استيقظ من نومه يتمطى وقد جاءه الداهية صاحب السيناريو المحكم للقبض على الوردة البرية بأشواكها ، وترويضها ونزع أشواكها رغما عنها للأبد .. القطة الشرسة ستكون قطة أليفة لطيفة بعد اليوم .

كان بسيونى راسما على محياه ابتسامة الثقة والنصر ، وقد طلب من فراج أن يكون معه أربعة شهود لضبط الواقعة فى دار فاطمة ،عندئذ استدعى ستة من الخفراء كى يكونوا حاضرى ضبط الواقعة ،وشهود عليها حتى يستطيع بسيونى المحامى أن يرتب أوراق القضية ، ويجعل محضر الضبط كامل الأركان ولايجوز الطعن عليه .

أما لوآثرت فاطمة السلامة ، ورضخت لشروط العمدة ،واستسلمت له حينئذ يكون الله قد كفى فراج ورجاله شر القتال .

أمرهم ألايخرجوا فى جماعة ، وأن يتفرقوا فى أماكن قريبة من دارها حتى لايثير وجودهم الشبهات فيأخذ العاشق الغامض الذى يأتيها ليلا حذره ويتراجع وتفشل الخطة .

وإن كان يعلم علم اليقين أن العاشق دائما أعمى فمابالة بعاشق لايظهر إلافى ظلام الليل ؟! العاشق دائما على عينيه غمامة ، ولايرى من أمر الدنيا شيئا بقلبه سوى معشوقته .

نصبوا الكمائن فى مداخل الشوارع المؤدية لدارها المنزوية عن بقية الديار كأنها تختبىء هى الأخرى من العيون مثل من يسكنها ..ستة رجال مسلحين والعمده ومستشاره بسيونى الذى ضحك قائلا :

- ستكون حفلة الليلة ليس لها مثيل ياعمدة ..الليلة ستقطف الوردة ،وتضعها فى بستان دارك ودوارك .

أطرق فراج واختلطت مشاعره بين الفرح والحزن والأسى والأمل .. صحيح أنه يريد فاطمة له للأبد زوجة معززة مكرمة ، لكنه فى نفس الوقت لايريدها بهذه الطريقة ، لايريدها مفضوحة مكرهة مرغمة بوصمة عار !

فكر فى التراجع عن خطة بسيونى والعودة لداره ، وليتركها لشأنها تفعل ماتريد مع من تريد .. والله أعلم بكل شىء ،وهو سبحانه الذى يحاسب العباد .

تعشق .. تتزوج ..تعيش مع من يهواه قلبها لكن شيطان الإنس المرافق له ، اتهمه بالجنون والعبث وأنه سيندم لوأهدرهذه الفرصة من بين يديه والتى ربما لاتأتيه بعد ذلك .. وإن كان قد زهد فيها فليكسرعينها ويذلها بوصمة العار تلك !

لقد استلزم الأمر سنوات من الصبر قبل أن يجد نفسه واقفا منتفخ الصدر منزوى فى مكان خافت الإضاءة خلف حائط قديم قريبا من دار فاطمة عبدالعاطى ، والهواء يسفح الوجوه ، والبرد يتسلل تحت الجلابيب الثقيلة كوخز الإبر المؤلمة .

كانت الأوامر صريحة بأن يتركوا الرجل الغامض الملثم يمر ويدخل الدار بشوقه ولهفته متنكرا كعادته ثم انتظار الأوامر بمداهمة الدار والقبض عليه متلبسا ، وبذلك تكون الجريمة كاملة الأركان ، وعلى الأرملة الجميلة فاطمة عبدالعاطى أن تختار بين الفضيحة أو الإستسلام للعمدة فراج والرضوخ لمايريده .

بدا فراج واقفا بوجه جامد كتمثال لايتحرك ، وبجواره بسيونى مثل قط جائع يتربص بفأر ماكر ، وشغف الشر يطل من عينيه الضيقتين ، وكأنه قاب قوسين أوأدنى من بلوغ غايته الموعودة .

مرت ساعة ثم ساعة أخرى ،ولاشىء يظهر فى الأفق لاعاشق ولامعشوق ،فمازال الرجل الغامض الملثم لاأثر له فى درووب العزبة وشوارعها المؤدية إلى دار الأرملة ، زامت الريح وزمجرت ، وبدت السماء متوترة تتأهب لإرسال دموعها إلى الأرض .

طال الانتظار حتى نال اليأس منهم ، وحطم الملل آمالهم فى النصر المبين ، وقبل أن ينفض فراج يده من الأمر كله ، ويغادر المكان المتمترس فيه غاضبا حانقا محبطا لأن هذا الموقف لايليق به كعمدة مهاب الجانب يعمل الكبير والصغير له ألف حساب .

لمح بسيونى بعينى صقر الرجل الشبح قادما من بعيد يتهادى على مهل ، ويغطى وجهه ورأسه ولايظهر منه سوى عينيه تبرقان فى الإضاءة الخافتة ،وبلهفة أخبر العمدة قائلا :

ـ العاشق وصل .. العاشق وصل !

سرت الهمهمات وأعطى فراج الإشارة للخفراء بالتحفز والإستعداد .. فها هوالهدف المنتظر بين أيديهم ،وظل الجميع يراقبه بحذر شديد حتى وصل باب دار فاطمة ، لكنهم لاحظوا أنه لم يطرق الباب بل دس يده فى جيب جلبابه ، وأخرج المفتاح ثم وضعه فى ثقب الباب ،وأداره ناحية اليسار مرتين فإنفتح على الفور .

ودخل الشبح الملثم إلى الدار ، وبعد لحظات أعطى فراج أوامره لرجاله أن يقتحموا المكان ليقبضوا عليه ، وليكن بعدها مايكون !

وعلى الفور هاجموا الباب الذى كان مغلقا بإحكام ، فدق الخفير هنداوى بكعب بندقيته خشب الباب بقوة وعنف ، ففتح عز الدين مذعورا ، وإذا بالخفراء الستة يندفعون كالسيل الجارف إلى داخل الدار ،، وهنداوى يصيح كالمجنون ومن خلفه بسيونى :

ـ أين هو .. أين هو ؟!

وظل فراج مذهولا على عتبة الباب يراقب مايجرى ، وقلبه يدق بعنف ، ولايدرى ماذا أصابه ؟! أنه يريد فاطمة يحبها كثيرا ، ويكره أن يراها فى هذا الوضع المزرى ، ولم يكن الرجل الشبح قد تحرر من ملابسه وغطاء رأسه ولثام وجهه بعد ، فجذبوه بقوة تحت المصباح فى الصالة بالقرب من الباب ليراه العمدة بنفسه ويعرف من يكون هذا الرجل الملثم ، وبسيونى يهتف :

ـ من أنت .. ومن أى نجع أوعزبة جئت تحت جنح الليل لتقابل عشيقتك ،وتدنس شرف عزبة الحنكاتى ؟! وأين هى فاطمة عبدالعاطى الأرملة التى تدعى العفة والشرف ؟!

ودفع الخفراء بالرجل الملثم الغامض أمام العمدة فراج فسقط على الأرض ، ومد بسيونى يده بعنف فنزع غطاء الرأس والوجه عنه ، فإذا بالمفاجأة المذهلة التى نزلت عليهم كالصاعقة المدوية ، وألجمتهم عن الكلام ،ظهر وجهها الآسر الجذاب ، ورموشها الطويلة المثيرة ،وعيناها الواسعتان الكحيلتان ، والشفتان الطازجتان المخلوقتان من طمى النهر وماءه العذب .. إنها فاطمة بملامحها الخلاسية الفاتنة فى جلباب رجل ملثم ، وهاهى أمامهم جميعا بكل جمالها وسحرها .

ذهلوا جميعا وأخرستهم الصدمة المروعة ، وتسمروا فى أماكنهم كأصنام من لحم ودم ،ولم ينطقوا سوى بكلمات قليلة :

ـ فاطمة .. فاطمة .. الأرملة فى ثياب رجل .. لماذا ؟!

كررها فراج وهو فى حالة من الهذيان الهستيرى غير مصدق لمايرى ..وقد إنتابهم جميعا احساسس بالخزى ! وقال فراج :

ـ لماذا يافاطمة كل هذا التنكر ؟!

قالت بنبرة لوم :

ـ وهل ملابس الرجال حرام على النساء ؟!

ـ بالطبع لا يافاطمة .. لكن مالسر ؟!

قالت بثقة :

ـ أخفى نفسى عن عيون الذئاب .. كل الذئاب البشرية .. الله يرحمها صباح دفعت حياتها ثمنا لغدر ذئب بشرى .

قال الخفير السباعى :

ـ لاحول ولاقوة إلابالله .. سامحينا يافاطمة..إن بعض الظن إثم .

ثم انسحب الخفير متراجعا للوراء قليلا بينما التوأم يراقبان فى ذهول مايحدث لأمهما ولايفهمان شيئا .

عندئذ قال فراج لرجاله آمرا بخزى وخجل :

هيا اخرجوا جميعا من الدار وإذهبوا إلى الدوار .. سيكون حسابى معكم عسيرا .

خرجوا جميعا منكسى الرؤوس يلملمون أذيال الخيبة ، بينما وقف بسيونى ذاهلا متحسرا بوجه شاحب ونظراته زائغة كأنه فى كابوس ثقيل ،فقد خاب مسعاه ، وخسر خسرانا مبينا ، وطارت المكافأة الموعود بها من العمدة أدراج الرياح .

والآن حان دوره فى أن يتلقى اللوم والتقريع تلك هى المكافأة التى ستحل به .

وحينما خرجوا من الدار نظر فراج إلى فاطمة بأسى وبنبرة أسف قال لها :

ـ متأسف يافاطمة .. سامحينا لوسمحتى .. أخطأنا فى حقك .. أرجو أن تقبلى اعتذارى .

ودون أن يسمع ردها استدار خارجا مبتعدا عن باب الدار يتبعه بسيونى صاحب تلك الخطة مكللا بالخزى والخجل والندم .

وعندما ابتعدوا عن دارها تملك الغضب من فراج وقال لبسيونى بصوت عصبى مخنوق :

ـ اللعنة عليك يابسيونى ، لم أر فى حياتى أغبى منك ومن أفكارك يامستشار السوء ، وكنت كلما تقدمت أنا خطوة نحوها باللين والمعروف جئت أنت بحماقتك لتفسد كل شىء ،أنا أبنى جسرا من الود بينى وبينها وأنت تهدمه ،لقد أبعدتنى عنها ألف خطوة إلى الوراء ، هذه المرأة أكثر رجولة وشهامة منا جميعا .. وهى أشرف منا جميعا .

لمعت عينا بسيونى ببريق شرير ثم قال :

ـ اسمع ياعمدة طالما فشلت خطة الليلة ، فلدينا الخطة الأساسية ،وهى اختطاف التوأم ، ووضع رقبتها تحت سيف المساومة .. إما الزواج منك أوالحرمان من ولديها والتهديد بقتلهما .. مارأيك ياعمدة ؟!

سكت فراج ولم ينطق فقد كان مضطربا والغيظ يملأ صدره ، ويكتم أنفاسه ولايستطيع أن يتكلم أويفكر فى أمر كهذا .. فقد أسقط فى يده والنار تحرقه منذ رأى نظرات فاطمة تحتقره كأنه حشرة مؤذية ، وهى بملابس الرجال .. فى تلك اللحظة أحس أنه هو المرأة وهى الرجل !

فى تلك الليلة بكت الأرملة الصغيرة كما لم تبك من قبل ،تهرب من الناس .. وتهرب من عيون الناس ،وبرغم ذلك لاتسلم منهم.. بل يترصدونها ويراقبونها ولايتركونها فى حالها .

عاشت كما يعيش القنفد الذى يحرص على الإبتعاد عن الآخرين حتى لايتأذى من أشواكهم ، ولايؤذيهم بأشواكه .. لكن كل هذا لايجدى .. لأن الكل يراقب الكل ، والكل يتلصص على الكل ، وسوء الظن يعشش فى العقول والقلوب ، ومن يظن نفسه فى مأمن من العيون المتلصصة فهو واهم .. ومن يظن نفسه مكسو بقماش الناس فهو عار تماما دون أن يدرى !

ظلت فاطمة قابعة فى فراشها تفكر فيماجرى لها من أهل عزبتها حتى سمعت الكروان ـ من مكان ما ـ يشدو بشجن ويبتهل إلى ربه بالتسبيح :

ـ الملك لك .. الملك لك .. لك لك .

****

(47)

تؤمن فاطمة عبدالعاطى أرملة عزبة الحنكاتى بماقاله أبوحيان التوحيدى منذ سنوات بعيدة بأن (تجارب الأولين مرآة للآخرين !)

وفى نهار اليوم التالى لواقعة اقتحام العمدة فراج ورجاله لدارها بوسوسة من شيطان الشك ذهبت إلى وصيفة الأرملة العجوز والأكثر خبرة بدهاليز الحياة ومكرها ،وقالت لها كل شىء .. حكت بالتفصيل الممل رغبة الست فريال صاحبة المقهى فى سمنود فى الزواج منها باعتبارها رجلا ! والناس تحكم دائما بالمظاهر ، ومظهر فاطمة رجل مكتمل الرجولة حين تدخل فى الجلباب وترتدى عمامة الرجال .

وشكت لها وبكت من سوء ظن فراج أبودومة ورجاله ومراقبتها وتتبع خطاها ، وقالت بمرارة تكاد تشل لسانها وتسكب دموعها :

ـ عشت مع حبيبى رضوان 5 سنوات فقط قبل أن ينتقل إلى جوار ربه ، ويتركنى وحدى فى هذا العالم الموحش المتوحش ،وهى مدة كافية تماما لكى أعيش عليها ، وأظل أحيا بذكراه خمسين سنة .. لكن كما ترين ياخالة وصيفة الناس لاترحم ، ولايتركوننى فى حالى .. النساء تطاردنى والرجال أيضا ..دبرينى يأم الأرامل ..بالله عليك ماذا أفعل ؟!

تبسمت العجوز وظهرت فراغات أسنانها وقالت بحنو وهى تضمها إلى صدرها مثل أم رؤوم :

ـ لاتخافى ولاتحزنى يافاطمة .. طالما أنك لاتخافين من شىء ،ولاتشتهين أى شىء ستبلغين بأمر الله قمة أحلامك ،ومنتهى آمالك حتى لوكانت تلك الأحلام بعيدة بعد السحاب، وتبدو مستحيلة .

لالوم عليك يابنيتى على الإطلاق فى التنكر والتخفى كما تشائين ،فقد جربت الحياة وخبرتها بما يكفى ، واكتشفت بعد أن عجنتها وخبزتها أن هذه الحياة ماهى إلاحفلة تنكرية كبرى فلاتعيشيها بوجهك الحقيقى .. لأن الجميع متنكرون ! وحسنا فعلت يافاطمة حين خبأت نفسك ورسمك وحسنك عن العيون فى جلباب رجل .

ـ ليس أى رجل ياخالة وصيفة ، بل الرجل الذى جعله الله لباسا لى وجعلنى لباسا له كما قال رب العالمين .

تنهدت الأرملة العجوز دون أن ترفع بصرها عن وجه الأرملة الشابة اليافعة ، وفكرت لحظات ثم قالت :

ـ اسمعى يافاطمة .. العمدة وأزلامه لن يتركوك فى حالك ، وكذلك فريال صاحبة المقهى ، وغيرها .. سيظل الجميع هنا يلاحقونك ويطاردونك .. مارأيك فى دنيا جديدة ووجوه جديدة .. أرض الله واسعة فلماذا لاتهاجرين فيها ؟!

استغربت ماتقوله الأرملة العجوز ، وأدهشها هذا الكلام ثم قالت متسائلة :

ـ أهاجر .. كيف وإلى أين ياخالة وصيفة ؟!

ـ لاتقلقى يافاطمة .. إن شاء الله سأدبر لك ملاذا آمنا ،وعملا شريفا بأجر كبير يضمن لك حياة كريمة ميسورة ، وعند رجل طيب كبير القدر والمكانة ،ويعرف الله حق المعرفة .. ولكن بشرط واحد هو أن تبقى كما أنت .

ـ كيف ياخالة وصيفة .. ماذا تقصدين ؟!

ـ أقصد ألاتعودى لملابس النساء مرة أخرى .

ـ ولماذا ياخالة طالما أننى سأكون فى مكان آخر بعيد تماما ؟!

ـ الرجل الذى ستعملين عنده فى قصره يمنع دخول النساء تماما، ويحرم وجودهن فى حياته لأسباب شخصية يعلمها الله لاشأن لنا بها ، ولكن سنقدمك له على أنك رجل .

ـ ألايعد هذا خداعا وغشا ياخالة وصيفة للرجل الذى تصفينه بالطيبة والكرم ؟!

ـ يافاطمة ياابنتى .. الضرورات تبيح المحظورات ، ونحن لانقصد سوى الخير بهذا الأمر ..

تبسمت فاطمة وتذكرت قائلة :

ـ كان رضوان يرحمه الله يردد دائما على أسماعى ..(أنت أجمل النساء لأنك فى حضورى أنثى وفى غيابى رجل) لذلك أنا مستعدة ياخالة وصيفة لهذه المغامرة الكبرى ،ولايهمنى سوى الحياة الهادئة ، وكسب رزقى ورزق أولادى بعمل شريف حتى أستطيع مواصلة مشوارى فى تعليمهما وتربيتهما على أفضل مايكون .

هزت الأرملة العجوز رأسها وقالت ناصحة محذرة :

ـ اجعلى الأمر سرا بيننا ، وأعدى نفسك للإنتقال للمكان الجديد .

ـ هل لى أن أعرف الآن ياخالة .. أين هو وعند من سأعمل ؟!

عزبة حبيش تعرفينها طبعا ، وهلى لاتبعد عن عزبتنا سوى ساعة زمن .. أما الرجل الذى ستعملين فى قصره فهو الدكتور عبدالله حبيش رجل ذو أصل كريم ومن عائلة كبيرة وثرية ، وهو مليونير وعلى درجة وزير وكما تعلمين لايجوع فقير وهو تحت مظلة غنى كريم .

ـ هل تعرفين هذا الرجل ياخالة وصيفة ؟!

ـ للأسف يافاطمة لاأعرفه شخصيا .. وإن كنت أعرف أقرب المقربين إليه الشخص المسئول عن رعايته وخدمته وإدارة شئون قصره وأرضه ومزرعته .

باعجاب قالت فاطمة :

ـ ماشاء الله .. ماشاء الله .. ومن يكون هذا الرجل ؟!

ـ عبدالصبورابن عمى ..هو الكل فى الكل ، والأقرب إلى قلب صاحب القصر ، وسيساعدك ويشد من أزرك فوق ماتتصورين .

ـ وهل يعرف حقيقة أمرى ياخالة وصيفة ؟!

ـ بصراحة .. حينما سمعت منه أن صاحب القصر لايطيق النساء ، ويحظر دخولهن قصره أوأرضه ومزرعته خشيت أن أخبره بأنك امرأة أرملة ، وعندما قال أمامى إن القصر فى حاجة إلى حارس بعد أن مات عبدالوارث حارس القصر ، وترك مكانه شاغرا على الفور طلبت منه أن شخصا ما يهمنى أمره ـ اسمه رضوان ـ ماتت زوجته ولديه ولدين توأم يحتاج لهذه الوظيفة ،فأبدى عبدالصبورابن عمى ترحيبه ، وطلب منى مهلة يومين فقط كى يستأذن صاحب القصر ، وسيدبر لك مكانا مناسبا تعيشين فيه مع ولديك ، وتواصلين حياتك بسلام وأمان بعيدا عن مضايقات فراج ورجاله .

انشرح صدر فاطمة لهذا الأمر ، وأعجبها دهاء المرأة العجوز وقالت بإمتنان وسرور :

ـ أحسنت القول والفعل ياخالة وصيفة .. الحمد لله أنك موجودة فى حياتى .. لولاك لكنت فى معاناة شديدة ومحنة كبيرة .. جزاك الله خيرا .

تبسمت الأرملة العجوز وقالت :

ـ غدا أوبعد غد ستأتيك البشارة ، وتغادرين العزبة سرا ، ولسوف أشتاق إليك كثيرا يافاطمة .

اقتربت منها وضمتها إلى صدرها بحب وعرفان ثم همست فى أذنها :

ـ أطال الله فى عمرك ياخالة وصيفة، لن أنسى كل مافعلتيه من أجلى ، وعندما تحين الفرصة سأزورك كى أراك وأطمئن عليك .

سالت دموع الأرملة العجوز فمدت يدها المرتجفة تجففها ثم قالت بصوت مبحوح متحشرج :

ـ أنا أرى فيك يافاطمة شبابى ، وأراك امتدادا لى ، وأدعو الله أن تصلى بسفينتك إلى برالأمان فى هذه الدنيا كما سبق ووصلت أنا بسفينتى إلى بر الأمان بأمر الله .. أحس يابنيتى أنك جزء منى .. ربنا يوفقك ويحفظك بعين رعايته التى لاتغفل ولاتنام .

عندئذ احتضنتها فاطمة وأحست أن جسم الأرملة العجوز النحيل يرتجف بين يديها ،وهى تودعها بحب وحزن وقالت بصوت واهن :

ـ يافاطمة كونى كما أنت .. كونى الرجل رضوان .. لابأس عليك .. خبئى فاطمة تحت جلباب رضوان عسى الله أن يعوضك عن كل هذا خيرا .

مر يومان .. ثلاثة .. والرابع كان هوالموعد لمغادرة عزبة الحنكاتى التى أحبتها ،وعاشت فيها أجمل أيام عمرها ، فيها عرفت لهو الطفولة ومرح الصبا وغرام الشباب ،فيها ذاقت طعم الحب مع ابن خالتها رضوان ، وتزوجته وأنجبت توأمها ونور عينيها .. حان الآن وقت الرحيل .. وعلى المضطر أن يركب قارب الصعب لينجو .. وهاهى تفعل .

تحت جنح الليل أرسل لها عبدالصبور سيارة نصف نقل وضعت فيها أشياءها ، وحملت متاعها القليل ومعها ولديها ، وانطلقت بهم تلك السيارة التى يقودها سائق نحيل ضامر كأنه لايأكل سوى الهواء ، ويدخن بشراهة كأنه يهرول نحو الانتحار ، لآخر مرة ترى ديار عزبتها وأرضها ونهرها والسيارة تمرق بين الحقول على الطريق الترابى الموازى للنهر ، تشم رائحة الزرع الأخضر ،والسيارة تتقدم للأمام مسرعة ،والديار تتراجع إلى الخلف بنفس السرعة ، وتمد فاطمة بصرها لترى النخيل العالى يتحدى كل شىء ، كرهت النخيل بعد حب عميق،وهجرت عناقيد البلح الذى كان تعشقه ،وزهدت فيه بعد أن كانت تظن أنه سر الحياة .. كيف لاتكرهه وقد أصبح بينها وبينه ثأر فظيع .. ألم تقتل نخلة أعز الناس إلى قلبها فى هذه الدنيا ؟!

ملعونة تلك النخلة التى وأدت حبها فى عز عنفوانه .. ملعونة فى كل كتاب لأنها حرمتها من حبيبها ذات نهار عاصف مشئوم مجنون هبت فيه ريح عاتية لاتبقى ولاتذر .. فوقعت الواقعة !

فى دار قديمة لاتبعد كثيرا عن القصر استقر بها وبولديها المقام .. لقد أوفى عبدالصبور بالوعد ، ونفذ العهد .. وبالفعل وجدته فاطمة كما وصفته الخالة وصيفة .. وجدته رجلا طيبا شفافا هادىء الطباع ، باسم الثغر ، لايحمل للدنيا هما ، ولاينتظر منها شيئا ، قلبه يتسع للجميع ، ولسانه رطب بذكر الله دائما .. يسر لها كل أمورها ووفر لها كل احتياجاتها من مأكل ومشرب ومسكن وملبس وقال لها :

- يارضوان .. اعتبرنى من اليوم أخا لك ، وإن كنت أنا فى عمر والدك .. لكن لابأس .. كل ماتحتاجه وولديك رهن الإشارة .. لن أتأخر عنكم فى شىء .

ضحكت فاطمة ،وهى تطمئن أن ملابسها وغطاء رأسها الذى يشبه الحجاب على مايرام ، وأن كل شىء فى موضعه ،وأن كنوزها كأنثى فى مأمن من أن يكشف حقيقتها أحد ..ثم قالت بصوت رجالى مصطنع :

- الله يكرمك ياعم عبدالصبور .. الخالة وصيفة تشكر فى أخلاقك كثيرا وتفتخر بك كثيرا .

- بنت عمى ولها أفضال كثيرة ،ولابد أن أهتم بأمركم اكراما لها ، فقد أوصتنى بكم خيرا ، وظلت تلح وتؤكد على الإهتمام بكم رغم أنها لم تطلب منى شيئا من قبل .. من الغد بأمر الله تأتينى للقصر كى تتسلم عملك ..وعليكم الآن أن تستريحوا عدة ساعات قبل أن تشرق شمس النهار .. والله المستعان .

وتركهم وانصرف لحال سبيله ،وعلى الفور بدأوا يتجولون فى الدار ويتعرفون على ملامحها ،تبدو مفروشة بكل شىء .. فيها أثاث بسيط لكنه مناسب ،وبوتاجاز وغسالة وكل مايلزم الأسرة ، وفيها ثلاجة ملأها الرجل الطيب باللحوم والأسماك والخضر والفواكه تكفيهم لمدة أسبوع على الأقل .

انشرح صدر فاطمة وهمهمت فى داخلها تحمد الله وتشكر فضله .

وهى تنظر لولديها بشىء من حذر ، وقد وقفا أمامها صامتين شاخصين تجاوزا مرحلة الطفولة وصارا فى مرحلة الصبا ، فرحت بهما واحتضنتهما ، وقد هدأت روحها واطمأن قلبها لأنها كانت تشعر أن فراج وشيطانه ورجاله من الإنس والجن لن يتركانها فى حالها أبدا .

وربما انتابها هاجس بأنه يدبر لولديها تدبيرا شريرا ، فلم يكن أمامها سوى أن تنجو بنفسها وبولديها ، ولاشىء يهم بعد ذلك .

عادت الأيام تقفز إلى الأمام بسرعة كعادتها ، ودخلت فاطمة على الفور فى أجواء المكان الغريب والناس الغرباء ، وتحت جلباب الرجل تحس بالأمان ،ولم تكن مهمتها داخل القصر صعبة ،بل على العكس تماما .. ألفت المكان وأحبته بسرعة وارتاحت إليه نفسيا ، وشعرت بأن كل من يعملون فيه ويترددون عليه أسرتها .

كانوا جميعا من الرجال ، وليس سوى الرجال هم من يدخلون القصر، ويتعاملون مع صاحب القصر بناء على أوامره الصارمة .

ضحكت الأرملة الشابة حين سمعت بالفرمان الذى أصدره منذ فترة ليست بالقصيرة ولابالطويلة الدكتور عبدالله حبيش سليل عائلة آل حبيش وصاحب القصر ، وتحمل العزبة اسم عائلته .

لم يكن سر هذا الفرمان مفهوما عند فاطمة حتى همس لها عبدالصبور ذات يوم بأن الرجل صدمته امرأة ما ، وتلك المرأة كانت زوجته وهى ألمانية الجنسية .. لابأس لم تتوقف طويلا أمام هذا الأمر ..فهى الآن رجل ولها عملها فى حراسة القصر ومتابعة شئونه .

وذات يوم غاب الطباخ الذى يأتى من مدينة المحلة الكبرى كل يوم ليطهو طعام صاحب القصر ، وعندما اتصل به عبدالصبور فأخبره أولاده أنه مريض طريح الفراش ، وبعد أيام قليلة مات الطباخ .

عندئذ أدرك عبدالصبورأنه فى مشكلة حقيقية ، ولابد من البحث بسرعة عن طباخ آخر ، وخاصة أن صاحب القصر لايأكل بسهولة من يد أى شخص ،وأشار عبد الصبور على الدكتورعبدالله أن يعتمد على المعلبات الغذائية من الجبن والفول والمربى والفواكه لحين البحث عن بديل للطباخ الراحل .

وصاحب القصر بطبيعته لايأكل الطعام إلامن يد شخص يثق فيه ويحبه ، ويأمن إلى إتقانه لفن الطهى بجانب حرصه على النظافة والجودة .

وذات يوم دخلت فاطمة إلى المطبخ ، وأعدت وجبة شهية من الملوخية بالأرانب ، وقد عرفت من حكايات عبدالصبور أن صاحب القصر مغرم بهذه الأكلة ، وكان آنذاك الدكتور عبدالله حبيش فى المدينة لإجراء بعض الفحوصات الطبية ، وبعد أن صلى العصر اقترب عبدالصبور منه قائلا :

ـ وجبة الغذاء يادكتور أكلة تحبها كثيرا .. ملوخية بالأرانب .

دهش صاحب القصر ،وحدق فيه متسائلا :

ـ ومن الذى تجرأ على أن يدخل المطبخ ويطهو الطعام ؟!

ـ اكتشفت يادكتورعبدالله أن لدينا فى القصر شخص بارع جدا فى الطهى.. آه والله .

بضيق وسأم قال :

ـ ياعبدالصبور .. أنت تعرف أننى لاآكل من يد الغرباء !

ـ فلنجرب يادكتور وأنا أضمن أنك لن تتوقف عن تناول ماطهاه بشهية مفتوحة .

ـ ومن الذى فعل ذلك ؟! ومن أذن له أن يدخل المطبخ ؟!

ـ رضوان .. الحارس الجديد للقصر هوالذى فعل ذلك .. وأنا أذنت له يادكتور .

ـ وكيف تأذن له بذلك دون أن تسألنى ؟!

ـ سيادتك كنت فى المدينة ، ولاحظت أن وزنك قد نقص منذ رحيل الطباخ ، كما أن العلاج الذى تتعاطاه يلزمه تغذية مناسبة وأكل صحى دسم .

أخيرا لانت ملامح صاحب القصر وانفرجت أساريره ثم قال :

ـ لامانع فلنجرب .. لكن بشرط .

ـ ماهو الشرط يادكتور ؟!

ـ أن تأكل معى ياعبدالصبور .

ضحك عبدالصبور قائلا :

ـ معك أم قبلك يادكتور ؟!

ـ معى بالطبع .

هز عبدالصبور رأسه وقال :

ـ أمرك يادكتور عبدالله .. بكل سرور .

على مائدة الطعام جلس الدكتور عبدالله يتصدر المائدة الطويلة ، وبالقرب منه وقف عبدالصبور يساعد رضوان فى وضع أطباق الطعام ،وحين تذوق الملوخية بالأرانب أحس بنشوة لذيذة ، وسعادة غامرة ، وتذكر ماكانت تطهوه أمه عليها رحمة الله ، ومنذ سنوات بعيدة لم يتذوق طعاما يذكره بماكانت تطهوه أمه ! آه .. كم يحن إلى خبز أمه وطعام أمه.. ابتسم وهو يمضغ الطعام ثم نظر إلى رضوان الذى وقف يراقب وسأله :

ـ من الذى علمك أصول الطهى يارضوان ؟!

استغربت فاطمة من هذا السؤال ،ولكن عليها أن ترد بشكل لايثير الشك فيها، وفكرت بسرعة ثم قالت :

ـ هواية .. هواية منذ صغرى يادكتور .. كانت أمى تعلمنى أحيانا ، وكنت أخترع أنا بنفسى أكلات فى كثير من الأحيان .

ـ سبحان الله .. أنت تصلح للطهى فى الفنادق الكبرى ، والقصور يارضوان .

ـ لاتعنينى الفنادق يادكتور .. هذا القصرهوالذى يعنينى .

أحس صاحب القصر بشهامة رضوان ونبل أخلاقه ، ثم سأله عن توأمه .. فقال :

ـ الحمد لله نجحا فى الثانوية العامة بتفوق ، وإلتحق عز الدين بكلية الإعلام بينما إلتحق شرف الدين بكلية الهندسة .

ابتهل الدكتور عبدالله وهتف :

ـ ماشاء الله .. ماشاء الله .. كل ماتحتاجه من نفقات أنا متكفل بها فى الجامعة والمدينة الجامعية والكتب الدراسية وكل شىء .

ثم نظر إلى عبدالصبور وقال ضاحكا :

ـ أتعرف ياعبدالصبور أننا ظلمنا رضوان ؟!

ـ أعوذ بالله يادكتور من الظلم .. كيف ذلك ؟!

ـ لأن رضوان يعمل عندنا فى وظيفتين بأجر واحد ..هو حارس للقصر وطباخ فى نفس الوقت ، وهو يستحق راتبين لاراتب واحد .

تنهد عبدالصبور ونظر إلى رضوان باسما ولم ينطق .

****

(48)

خرج من سجنه بعد شهور طويلة مظلمة في زنزانة ضيقة رطبة شتاء .. حارة صيفا ..أيام سوداء كان فيها ميتا بالحياة ، وحيا يسكن مقبرة أموات .. لايرى الشمس ، ولايتنفس نسمة هواء جديدة ، كل الهواء الذى يدخل صدره عفن عطن مكتوم مثله بين أربعة جدران !

غادر السجن ولكن السجن لم يغادره بعد .. فمازال السجن يسكنه كما سكنه هو شوطا طويلا من عمره .

إذا تحرك بحرية يشعرأنه تجاوز الخطوط الحمراء ، ووقع فى المحظور .. لايجرؤ أن يتحرك فى البراح الواسع ، ويظن أن حوله الجدران والأسوار والحوائط رغم أنه لم يعد حوله أى شىء من هذا .

تلاشى السجن وتلاشت الزنزانة وتلاشت الأسوار والعتمة فى الحقيقة ،ولكنها ظلت ملازمة له فى وجدانه وخياله لاتبرح عقله الباطن ، ولاتفارق ضميره الخفى .

ظل السجان يسكن عقله ، ويحد من حركته ، ويئد حريته ، وإن كان يحس به ولايرى له أثرا .

الليلة سيقتل فراج أبودومة ،ويثأر لنفسه ،فهذا العمده السفيه الأرعن صغير السن قليل العقل لابد أن يموت ، وهو فى نظره ليس أكثر من ذبابة طنانة يجب قتلها ،والإجهازعليها حتى يرتاح الناس من طنينها المزعج ، ومن المؤكد أن الدنيا ستكون أكثر هدوءا وأقل شرا بدونه !

حمل سلاحه وتأكد من جدواه لإطلاق النار المهلكة ،ثم حشاه بالرصاصات النحاسية اللامعة التى ستستقر فى قلب فراج بعد ساعات قليلة ، كان يبتسم وهو يفعل ذلك ،وكأنه يتأهب لحفلة ممتعة فى سهرة ريفية رومانسية .

اتجه إلى الطريق المؤدى إلى عزبة الحنكاتى ،ظل عويس يسير فى ساعة العصارى ،وقبل أن تغطس شمس الشفق تعب من المشى على قدميه ، ارتاح قليلا على ناصية ساقية تبدو قديمة متهالكة تظللها شجرة جميز عالية عتيقة ضخمة كفيل أفريقى أصيل ، ولها فروع وأغضان وأقدام راسخة فى الأرض .

أحس بالجوع ربما من طول الوقت أومن كثرة المشى ،نظر حوله فوجد المزارع عامرة بكل مالذ وطاب من خيرات الله لعباده ، ليأكل ماشاء له .. خيار .. خس .. فول أخضر .. برتقال أويوسفى .. الحقول مائدة طويلة عريضة متنوعة الألوان والأشكال لاتترك جائعا على حاله .

إن سواد الأرض يطرح ثمارا من كل صنف بأمر الخالق العظيم .. سبحان العاطى الوهاب الذى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى .. أكل عويس من أنواع مختلفة بدأها بالخيار الأخضر الطازج ، وانتهى بالبرتقال الزاهى بطعم السكر ، شبع وامتلأت معدته ثم تجشأ مثل وحش كاسر يسكن البرية ، وعاود سيره نحو هدفه .

من حين لآخر يتحسس مسدسه النائم فى جيب الصديرى بجوار قلبه ،وتحت جلبابه الرمادى .. ويناجى نفسه ويمنيها هامسا :

ـ اليوم هو آخر أيام عمدة عزبة الحنكاتى على وجه الأرض .. اليوم سيقل عدد سكان الدنيا شخصا واحدا .. اليوم سيقل عدد الأشرار على هذا الكوكب حين تنطلق رصاصة نحاسية لامعة من سلاحى ، وتستقر فى جسد فراج أبودومة .

لكن كيف سيصل إليه ليسلمه الرصاصة التى يستحقها عن جدارة ؟!

العمدة لايتحرك دائما إلا وحوله الحرس من الخفر المسلحين ، وإذا خرج وحده لايفارق سلاحه ، وهو مثل الذئب ينام بعين مفتوحة ، ويسير بحذر يتحسس الخطر من بعيد ، ولايأمن لأحد .. لكن عويس لايأبه بكل هذا فقد عزم أمره وحسم مصيره ،ولن يتراجع مهما كانت الظروف ، لقد خرج للإنتقام ولن يعود بدون أن يشفى غليله .. إما قاتل أومقتول !

بدا عويس مع غبشة الظلام حينما بدأ يحل على الدنيا مثل رجل أسطورى بجلبابه الرمادى ، ومن فوق رأسه طاقية كالحة من صوف الأغنام ، وحول رقبته تلفيحة بنية اللون مصنوعة من القطن ، وعندما اقترب من مدخل العزبة من ناحية الغرب حيث النهر والمقابر وأشجار النخيل العالية ،كانت النار تشتعل فى صدره ، والشيطان يوسوس له بحماس ،فقد أفنى أجمل سنوات عمره فى قفص حديدى خرسانى ملعون لايفتح له إلا مرة واحدة فى الأسبوع ،ولمدة ساعة واحدة فقط ليرى الشمس ، ويجرب ساقيه على المشى كطفل يحبو من جديد ، ويتعلم كيف يخطو دون أن يسقط على الأرض !

يسحب التلفيحة البنية القطنية من فوق رأسه ، ويخبىء بها كل ملامح وجهه إلا العينين حتى لايتعرف عليه أحد من أهالى العزبة فيفسد عليه أمره ، وإن كان إصراره على الخلاص من فراج يجعله على استعداد لفعل أى شىء جنونى أوخارق للعادة فى سبيل استخراج شهادة وفاة لمن زج به فى قفص العذاب والحرمان من كل شىء حتى نسمة الهواء والشمس العذراء !

يؤمن بأن سيف الأقدار قاطع بتار لايرده نار ولايمنعه شرار ، ولسوء حظ فراج أبودومة أنه كان يهوى أن يتجول على النهر ، ، يرى الأرض والزرع والحقول قبل الغروب ، وبعد الغروب من فوق حصانه مثل أمير خرج توا من كتاب الأساطير .

يتهادى الحصان بخيلاء وتفاخر بذاته وعضلاته على شاطىء النيل ، ونسمات معطرة برائحة فواحة من الزرع والنهر والطمى تصافح وجه الحصان ، وتلاطف الفارس الجالس باعتزاز وشموخ فوق جواده ، وعلى بعد أمتار لاتقل عن مئتى متر يسير الخفير هنداوى كحارس أمين على سيده وعمدة عزبته وولى نعمته ،يتابعه بشكل روتينى دورى كالمعتاد دائما ،ويغمره احساس بأن العمدة فى أمان طوال الوقت،ولاخطر يتهدده على الإطلاق .

يظن الخفير هنداوى - وليس كل الظن إثم - أن لا أحد يجرؤ على أن يقترب من العمدة أوحتى حصانه بسوء .. فالفتى الذى صار عمدة بالوراثة بعد رحيل أبيه مهاب الجانب يخشاه الجميع ،ويحسبون له ألف حساب ، ولو ابتلع أحد المغامرين حبوب الشجاعة ، وحاول أن يتعرض له بالشر فهو مسلح ويمكن له أن يدافع عن نفسه بسلاحه الميرى المرخص .

لذلك كان يسير هنداوى على مهل ، وكأنه فى نزهة ساعة الغروب اللازوردية ، وعينه على سيده وحصانه ، ومن حين لآخر يتأمل عصافير النهر التى تلهو بين السماء والأرض ، وتتراقص فوق الماء بكل ارتياح وكأنها تملك البراح كله والنهر ملاذها النهارى ، وأغصان الشجر مأواها الليلى .

لاشىء يوحى بالخطر على الإطلاق ،ولاشىء فى الأفق يشى بالقلق ، كما أن نزهة الغروب فوق الحصان على حافة النهر شبه يومية للعمدة وحصانه وخفيره ، والناس تمر عائدة من الحقول فى مواكب فردية وجماعية .. هذا فوق حماره ، وذاك مع زوجته وأولاده فوق عربة كارو خشبية يجرها حمار أوحصان ، وتلك امرأة تسجب جاموستها الوحيدة ،وتتجه بها من حقلها إلى دارها ، والنهار يودع الدنيا بغلالة معتمة ، والشمس ترحل إلى دارها هى الأخرى .

طقوس عادية يومية فى مثل هذا الوقت تثبت تضامن الحيوان مع الإنسان ، وشراكتهما فى تلك الحياة على ضفاف النهر القديم قدم الزمان .

فجأة وفى لحظة خاطفة خرج الرجل الملثم من أحد الحقول بجلبابه الرمادى ، وطاقيته الصوف ، وتلفيحته البنية اللون القطنية الخيوط ، وبسرعة تفوق سرعة الضوء باغت العمدة فراج برصاصة صائبة استقرت فى القلب ، ثم استدارعويس بسرعة البرق مهرولا من حيث خرج محاولا الفرار والاختباء .

سقط فراج من فوق حصانه ، والدم ينزف من صدره وفمه ، والحصان فى حالة هياج يصهل ، ويتلفت لينظربحسرة لفارسه الذى كان فوق ظهره مزهوا بنفسه منذ لحظات ، أطل الهلع من عينى الحصان ، وكأنه أدرك بعقله ماجرى لصاحبه !

وظل يضرب الأرض بساقيه ويدور حول فراج ، ويزمجرغاضبا طالبا النجدة ، وحين دوت الرصاصة فى الجو وسكنت قلب فراج ، انتبه الخفير هنداوى من شروده وغفلته واسترخائه الروتينى ، وسيره الهادىء المنسجم على شاطىء النهر ، وعلى الفور انتزع بندقيته الطويلة المعلقة فى كتفه الأيمن ، وصرخ وهو يجرى ويطلق الرصاص نحو القاتل الذى ولى مدبرا فى الإتجاه المعاكس :

- توقف ياابن الكلب .. توقف ياابن الجزمة !

أطلق هنداوى كل مافى جعبته ، وأصابت إحدى رصاصاته ساق عويس فسقط يتأوه من الألم ، وينزف غير قادر على مواصلة الفرار بعيدا عن حقل جريمته ،وفى لحظات اقترب منه هنداوى وأمسك به ، والتف حوله نفر من الفلاحين كانوا يمرون فى طريق عودتهم بمواشيهم إلى ديارهم فى العزبة .

وكأن الرصاصات كانت جرس إنذار ، ولم تمر عدة دقائق حتى لحق بهم بعض الخفراء من الحقول والمزارع ، وحملوا العمدة على عربة كارو خشبية يجرها حمار إلى الوحدة الصحية بالعزبة لكن السر الإلهى كان قد خرج .. مات فراج .

فى تلك الأثناء قبضوا على عويس ،وساقوه إلى دوار العمدة ، وضربه السباعى الخفير الشرس بكعب بندقيته ، ولعنه بأمه ، ووضعوا يديه خلف ظهره بأساور حديدية ، ثم زجوا به فى غرفة الحبس فى قاع الدوار.

وعلى الفور اتصل الخفير هنداوى بالمركز ، وتحدث إلى المأمور شخصيا بأنفاث لاهثة والحزن يكسو نبراته ، ويكاد يجهش بالبكاء ، وأبلغه بالواقعة بالتفصيل ، وبعد نصف ساعة تقريبا وصلت سيارة الشرطة إلى عزبة الحنكاتى ،وفيها ضابط برتبة رائد ومجموعة من العساكر المدججين بالسلاح ، وأخذوا عويس إلى سجن المركز ، وبدأت النيابة التحقيق على الفور وسماع الشهود .

وفى المركز تم استدعاء الطبيب ليوقف النزيف من ساق عويس .. فأشار عليهم بضرورة نقله إلى المستشفى ، وبالفعل طارت به السيارة تحت الحراسة المشددة ليرقد فى المستشفى العام بسمنود .

هناك فى غرفة العمليات خضع لجراحة عاجلة على يد جراح بارع استطاع أن يلتقط الرصاصة التى خرجت من فوهة بندقية الخفير هنداوى ، واستقرت فى فخذه الأيمن ،وطار الخبر بسرعة الريح - كما تطير فوق النهر العصافير - حتى وصل إلى هداية العاشقة المعشوقة ، حدث ماكانت تخشاه وتتوقعه وتحذر منه ،وجاءت باكية مكلومة كسيرة القلب تدرك أن عويس زج بنفسه إلى التهلكة الكبرى من جديد ، ولكن هذه المرة جناية قتل مع سبق الإصرار والترصد ، لافكاك من عقوبة تلك الجريمة ولامهرب منها ، وليس له من ورائها سوى الإعدام أو المؤبد لوكان القاضى به رحيما .

أيقنت أن رجلها إما ميت أومحبوس لربع قرن من الزمان .

عنيد أحمق لايسمع النصح ولايعقل العواقب ،وهاهى النتيجة سيظل حتى نهاية عمره فى مقبرة يسمونها الزنزانة الإنفرادية .. حيوان نافر عرفته فى كثير من المواقف .. الإنسان الذى وهبه الله نعمة العقل يفكر فى الأمر قبل الإقدام عليه ،أما هذا الثور الهائج المتهور يرتكب الحماقة أولا ثم يفكر فيها ويبكى على أطلالها !

وينطبق عليه المثل العربى الحكيم الذى يقول (من فش غبينته خرب مدينته !) .. وهذا يعنى أن من يسير وراء تهوره سيدفع ثمنا باهظا من الخراب فى حياته .

وحين التقته هداية وهو راقد فى المستشفى تحت حراسة مشددة بعد العملية الجراحية ، وتعافيه من الرصاصة لامته بلطف ،ودموعها تسح على خديها بلاهوادة .

احتضنته وهى تعرف أنها ربما تكون هى المرة الأخيرة التى تحتضنه أوتراه فيها ، ربما تحتضنه المشنقة وتلتف بحبلها حول رقبته ، وقد تنطوى صفحته من هذه الدنيا جزاء تهوره وجنونه وحماقته .

فما الذى يضيره لوترك أمر فراج أبودومة لله ؟! وماالذى يضره لوتركه حيا يرزق وعفا الله عما سلف ؟! وماجدوى الثأر إلادفع الثمن من جديد ؟! والثمن هذه المرة هو عمره ..إن الثأر لعنة تطارد الطرفين !

لم يرد على لومها الخفيف اللطيف سوى بإبتسامة باهتة وكأن الأمر لايعنيه،أوأنها تتحدث إلى شخص آخر غيره ،أضاع نفسه وأضاعها معه .

ارتسمت على وجهه علامات البلاهة كما لوكانت تحكى له حدوتة قبل النوم .. لم يكن يدرى أن لاشىء يستطيع أن يقهر المرأة فى هذه الحياة سوى أن تخسر قلبها حين تخسر الرجل الذى استحوذ بالحب على قلبها .

ولاشك أن قلب المرأة غير قلب الرجل .. مواصفاته مختلفة وطريقة عمله مختلفة ،ومن يسكن قلب المرأة عليه أن يعلم أن عنده إقامة دائمة ، والساكن فى قلبها عمره طويل ، عكس قلب الرجل الذى يشبه مقعد القطار ، كل ساعة ،وكل محطة وكل يوم زائر جديد وضيف جديد ، وعابر سبيل .

إن قلب المرأة مثل الشقة التمليك .. أما قلب الرجل فهو مثل الشقة الإيجار !

قال لها بعد صمت طويل مريب :

ـ توقفى عن البكاء ياهداية .. الله يهديك .. ارحمى نفسك وارحمينى .

ـ ضيعت عمرك وضيعتنى معك ياعويس !

ـ لاتخافى ولاتحزنى ياهداية .. لن أتركك تضيعى أبدا .

ـ كيف وأنت الآن قاتل ورهن الإعتقال حتى وأنت جريح وعلى الفراش طريح ؟! وربما يتهورالقاضى ويحكم عليك بالإعدام .

تلاشت ابتسامته البلهاء ، وهربت ثقته العمياء من على محياه وقال :

ـ اطمئنى ياهداية .. لن يحكم على القاضى بالإعدام .

ـ لماذا ؟!

ـ لأننى كنت فى حالة ثأر لنفسى من فراج أبودومة الذى زج بى فى السجن ظلما .. كنت فى حالة انتقام شخصى .. هذا هو القصاص العادل ياهداية .

ـ لاأفهم شيئا مما تقول ياعويس .. أنت قتلت العمدة فراج أبودومة ، والقاتل لانجاة له .. ومصيره إما الإعدام أوالمؤبد .

بنبرة الواثق :

ـ اهدئى .. كل مشكلة ولها ألف حل .

ـ إلامشكلتى معك ياعويس .. لقد حذرتك ونصحتك وتوسلت إليك ألاتفعل مافعلت .. لكن الشيطان سيطرعليك وتحكم فيك ودفعك للقتل .

ـ وحتى لوحكموا على بالإعدام .. فلابد من طريقة للنجاة .

ـ لانجاة لك من يد الحكومة ياعويس .. وأنت سيد العارفين .. الحكومة يدها طويلة وقوية .. الحكومة يدها من حديد ! وها هوالحديد فى يدك ، والحرس على باب غرفتك بالسلاح يمنعونك حتى من الذهاب بمفردك إلى الحمام .

هز رأسه وارتجفت عينه ثم قال همسا :

ـ الهروب من السجن هو الحل كى أنجو بحياتى .

ـ لاسبيل إلى الهروب ياعويس ، وربما تموت فى زنزانة ضيقة لولم تمت على حبل المشنقة .

بشىء من الغضب والعصبية :

ـ يا امرأة بشرى ولاتنفرى .. الله يلعنك فى كل كتاب .. ماالذى جاء بك إلى هنا ؟! هل جئت لتخففى عنى أم لتزفى إلى نبأ المشنقة ؟!

بنبرة خافتة من بين دموعها المنهمرة :

ـ ماكنت أريد أن أفقدك ياعويس بعد أن عانيت الأمرين من قبل خلال سنوات سجنك ، وكابدت عذاب الدنيا والآخرة فى غيابك ، وكنت أسعد إنسانة حينما عدت لى ..

ـ كفى ياهداية .. توقفى .

استرسلت قائلة :

ـ ماتمنيت يوما أن يكون لى فى هذه الحياة رجلا غيرك ، وإن كنت تصر على أن تسير وحدك فى طريق الهلاك ،وتتركنى وحدى أصارع الدنيا بعذابها عليك أن ...

سكتت فجأة حين دخل عليهما أحد جنود الحراسة ، وقال لها بنبرة آمرة حاسمة :

ـ انتهت الزيارة .

****

منذ سنوات طويلة مضت ،والأرملة التى كانت دوما جميلة متنكرة فى زى رجل لتخفى أنوثتها تحت الجلباب الفضفاض ،وتدارى فتنتها وسهولها وهضابها عن كل العيون بملابس خشنة خشونة الرجال ، ولم تكتف بالملابس الرجالى الخارجية فقط ، بل امعانا فى وئد احساسها بالأنوثة كامرأة لجأت أيضا إلى الملابس الداخلية الرجالى !

شىء غريب وعجيب ضد طبيعة المرأة وتركيبتها النفسية ،لكن فاطمة عبدالعاطى كانت تريد أن تنجح فى مهمتها المستحيلة ، وتكسب قوت يومها ،وتعود فى نهاية اليوم برزق ولديها ، وهاهى قد صارت أرملة قديمة تقترب من نهاية العقد الخامس من عمرها ، وتجاوزت مرحلة الربيع ، وصارت على أبواب خريف العمر ، والعمر يجرى ويجرف أمامه كل شىء كالسيل الأعمى !

أكملت رسالتها ، وأدت أمانتها بكل إخلاص وتفانى ،وتخرج ولديها فى الجامعة بتفوق .. عز الدين حصل على بكالوريوس الإعلام ، وصار مذيعا مرموقا فى الإذاعة ، بينما شرف الدين نال درجة البكالوريوس فى الهندسة ، وطار إلى الكويت ليعمل فى إحدى مؤسساتها الكبرى .

ومضى قطار العمر كما شاء له رب العالمين أن يمضى ، وتزوج التوأم ، وصارت فاطمة جدة بارتياح ورزقها الله بالأحفاد ، وآن لها أن ترتاح لوأرادت ..وألح عليها ولديها لكنها رفضت وتمسكت بالكفاح الذى صار بالنسبة لها عبادة ، منذ ساقتها الأقدار إلى الخالة وصيفة عليها رحمة الله ، فكانت لها نعم السند والمعين فى دروب مملكة الأرامل المحاطة بأشواك لاتعد ولاتحصى .

استمرت تعمل فى قصر الرجل الطيب الدكتورعبدالله حبيش رئيس أكاديمية البحث العلمى فى أزهى عصورها ،هذا المليونير فاعل الخير ، نصير الفقراء وسند الضعفاء ،أراد الله أن يبتليه بداء السرطان اللعين بعد أن تجاوز الستين من عمره ، واستسلم الرجل المؤمن لقضاء رب العالمين ، وسلم أمره لخالقه ، وهو على يقين من عدله وحكمته ،وعندما ذاق طعامها ووثق فيها سلمها كل شىء فى قصره ، وقد أعجب صاحب القصر بأداء وأخلاق هذه الأرملة دون أن يعرف أصلا أنها امرأة ! برغم أنه الأقرب إليها ويتعاطى الحياة اليومية معها كما يتعاطى الشمس والهواء نهارا ، وضوء القمر الساطع فوق النهر ليلا .

وعندما داهمه المرض الخبيث ، ترك لها كل شىء من المطبخ إلى توكيل رسمى للتوقيع على صرف مايلزم من أموال لإدارة مزارعه وحقوله الواسعة ، أعطاها الرجل ثقته التامة فى التصرف فى كل مايملك ، وحين اشتد عليه المرض ، وصار طريح الفراش يوشك أن يودع الدنيا ، وتراه يتألم كثيرا لم يكن بجواره أحد يخدمه سواها .. هى رضوان ولايعرف الرجل المريض غير رضوان الخادم الأمين الذى يعطيه الدواء ، ويعد له الغذاء ويسهر على راحته ، ويهتم بكل شئونه وشجونه !

عاشت معه فى صورة رجل ، وإلى جواره مايقرب من عشرين عاما شهد لها بالأمانة والشرف فى كل شىء حتى أعطاها الثقة التى لم يعطها لغيرها أبدا بعد سنواته العجاف ،وتجربته المؤلمة التى عاشها مع أنجيلا الخائنة .

لقد اختصرت ـ فاطمة ـ كل الرجال والنساء فى حياة صاحب القصر فى كل شئونه ،وأثبتت جدارة حتى فى المهن النسائية مثل طهى طعامه ،وغسل ملابسه ، وإدارة شئون قصره وأرضه ومزارعه وأمواله الهائلة ، كانت ومازالت هى ملاكه الحارس الأمين على شخصه الحريص على ماله ، وإن كان يحز فى نفسها، ويعذبها الإحساس بالذنب لأنها خدعت هذا الرجل النبيل كل هذه السنوات ،وظل ضميرها يؤنبها منذ مايقرب من عشرين عاما إلتزاما بنصيحة الخالة وصيفة عليها رحمة الله حين قالت لها محذرة وناصحة وواعظة :

ـ لاتبوحى بسرك لمخلوق يافاطمة .. إن الضرورات تبيح المحظورات يابنيتى .

ربما كانت ـ الخالة وصيفة ـ تلك الأرملة العجوز الخبيرة بنفوس الناس ،ومكر الحياة على حق .. لكن اليوم وقد صار ماصار ، وفعل الزمن أفعاله بالجميع فماجدوى كتمان السر الكبير عن الرجل الوحيد فى هذه الدنيا الواسعة الذى منحها ثقته بلاحدود ، وأعطاها مما أعطاه الله بلاحساب حتى وصلت بسفينة حياتها وولديها إلى برالأمام ؟!لم يكن له أطماع فيها ولم يعرف أصلا أنها امرأة .

اليوم لالوم عليها إن هى أفشت سرها المخبوء فى صدرها منذ سنوات بعيدة ، وضميرها يؤنبها ويحثها على البوح بالحقيقة لهذا الرجل الطيب النبيبل وليكن مايكون ..

وماذا سيفعل حين يعلم أنها خدعته بملابس رجل كل هذه السنوات ؟!

وماذا سيفعل حين يعلم أنها عاشت معه تحت سقف واحد فى قصره الكبير بانتحال صفة رجل اسمه رضوان ، وماهى برضوان .. ماهى إلا أنثى واسمها فاطمة عبدالعاطى ؟! هل سيطردها من قصره ؟!

أتراها تخرج مقهورة مهزومة مطرودة شر طردة من هذه الجنة التى أحبتها ؟! أم يستدعى لها الشرطة ،ويزج بها فى ظلمات السجن بدعوى التزوير وانتحال صفة الغير ؟!

لاشىء يهم .. الرجل كان معها أكرم من الريح المرسلة ، وعليها أن تتقبل كل النتائج والعواقب .. لكن المهم الآن أن تكشف له الحقيقة ، ربما تشعر بالراحة ، وربما يعفو ويصفح ،وينتهى الأمر بسلام .

تحس برغبة ملحة فى أن تخلع عن نفسها ثوب الخداع على الأقل فى نظر هذا الرجل الذى تشعر نحوه بأشياء غريبة لم تشعر بها من قبل نحو رجل آخر باستثناء زوجها الراحل رضوان عليه رحمة الله .

لاتريد فاطمة أن تكون أقل نبلا وشرفا ونزاهة من الدكتورعبدالله حبيش لذلك تفكر جديا فى أن تخبره بحقيقة أمرها ، ولماذا فعلت مافعلت طوال كل هاتيك السنوات ؟!

لم تعد قادرة على أن تخرس صوت ضميرها الذى يصرخ بداخلها طالبا ابراء الذمة ،والإعتراف بالحقيقة للرجل الذى عاشت فى ظله ، وأكلت وشربت وعلمت توأمها أفضل تعليم من حر ماله .

إن المصيبة التى تفزعها دائما أن هذا الرجل كامل الأوصاف الذى لاينقصه شىء لم يقترب من النساء منذ ربع قرن أوأكثر ، وحرم دخول بنات حواء لقصره وأرضه ومزارعه الشاسعة .. شىء عجيب وتلك هى مشكلتها معه ، ولواعترفت له بأمرها ربما تكون المشكلة أكبر والمصيبة أعظم !

وربما يكون وقع الأمر عليه مروعا ، وقد يموت من هول الصدمة .

وسوس لها شيطانها بكل هذه المخاوف ، وصار عقلها يطالبها بالصمت ،ويصارع الشيطان لكى يسكته ،وظل فى صدرها شىء ما يحيك فيك ،ولكن لافرار من الحقيقة .. لافرار من الحق .

إن الإعتراف بالحقيقة لهذا الرجل النبيل فضيلة ، لاسيما وهو الآن على فراش المرض .. ومن المؤكد أن اعترافها له سيشفى صدرها ، وربما يخفف عن صاحب القصر شيئا من ألمه أويزيده ألما .. الله وحده يعلم بعواقب الأمور ، وما فى نفوس البشر .

ظل عقلها يصارع وساوس الشيطان ، ويحاول أن يردها عما قررت ، لكنها كانت عنيدة صلبة كعادتها تفعل ماتراه صائبا وليكن مايكون .. ياالله إنها تشعر بفراغ كبير فى الدنيا بدون الست وصيفة ، ولوكانت على قيد الحياة الآن لسألتها الرأى ، والتمست عندها المشورة ، فربما أشارت عليها بأن موعد البوح قد حان ، وزمن إعلان الحقيقة قد آن .

تفتقدها كثيرا ، وتحن إليها أكثر ، وتفتقد خبرة هذه الأرملة العجوز الحكيمة التى فهمت الناس ، وخبرت كل شىء يؤرق الإنسان .. لكن ماذا تفعل والموت سلطان لايقهرعلى كل الأنفس !

ثلاثون عاما أويزيد قليلا مرت على رحيل رضوان وفراقه .. لم تصدق أن كل هذه السنوات هرولت بهذه السرعة ، وأن كل هذا العمر انقضى ومضى ،وهى تعيش فى جلبابه لتأمن الذئاب البشرية ، وتتحاشى الكلاب المسعورة ، وتحفظ نفسها ، وجسدها من القيل والقال .

هتفت من أعماقها بإمتنان وعرفان لربها وفاطرها على هذا النحو من البهاء والجمال .. ياالله لك الحمد ولك الشكر .

لاخوف اليوم على فاطمة عبدالعاطى الأرملة التى تحن إلى ملابسها النسائية القديمة ،تحن إلى أسرارها الخاصة مثل كل النساء ،وتشتاق إلى قميص نومها الوردى ، وتتلهف إلى أن تشم رائحة عطرها القرنفلى الفواح ،وتحس بالحنين إلى شعرها الطويل الذى كان يسترسل على كتفيها ،وظهرها ممدا بارتياح واسترخاء ، تحتاج إليه أن يعود طويلا كما كان يفعل أيام زمان ، دون أن تمد يدها بقسوة المقص وتجزه جزا .. كما يفعل الراعى مع نعجة يتأهب لذبحها ،وسلخها فى عيد الأضحى !

وكثيرا مافعلت ذلك بنفسها فى موسم الأرامل الطويل جدا منذ رحيل الزوج .

لاشىء عندها اليوم يعادل أن تعود امرأة كما أراد لها ربها أن تكون وكما خلقها .

لاتنكر بعد اليوم ، ولااخفاء لشىء ولااختفاء من أحد .. ستخبر الرجل الذى إئتمنها على قصره وماله وحياته ،لن تتركه يموت مخدوعا فيها بعد كل هذه السنوات التى لم تر منه فيها سوى النبل والكرم والأخلاق الحميدة ،تراه يعبد ربه كأنه يراه ، ويرعى الناس بماله حق رعاية ،ولايضن على محتاج ،ولايبخل على بائس أومسكين .

تحس أنه آية من آيات الله تمشى على الأرض ، ولومات هذا الرجل على خديعة منها فلن تسامح نفسها أبدا .

فكرت فى أن تستعين برأى عبدالصبور بديلا عن رأى الخالة وصيفة الله يرحمها ويحسن مثواها ، وتستشيره فى الأمر ، وهو رجل اشتعل رأسه شيبا ، ويملك من حكمة الدنيا الكثير .. لكنها سرعان ماتراجعت فقد رجحت كفة عقلها على كفة شيطانها !

لملمت ملابسها وأغراضها من غرفتها فى الطابق الأرضى من القصر ، ووضعت كل شىء فى حقيبة كبيرة ثم تأهبت لمغادرة المكان الذى أحبته ، وعاشت فيه وعاش فيها حوالى عشرين عاما .

توقعت أن يطردها صاحب القصر كاره النساء المخدوع فى زوجته ، وعندما تحين تلك اللحظة لن تنتظر شيئا بل ستحمل حقيبتها وتغادر القصر عائدة من حيث جاءت قبل 20 عاما ، ودار أبيها مازالت موجودة فى عزبة الحنكاتى .

لابأس عليها من أن تودع القصر ، وتفارق عزبة حبيش للأبد ، وترجع إلى مسقط رأسها ، إن الظروف اليوم غير الأمس ، ولم يعد الزمن الحاضر مثل الزمن الماضى ، كما أن الخوف القديم الذى سكن قلبها حرصا على توأمها وسبل رزقها لم يعد له مكان الآن .

لقد كبر توأمها وحلقا بأجنحة قوية فى حقول بعيدة رحبة ،أحدهما يقيم فى القاهرة ، والآخر هناك على شاطىء الخليج العربى .

وهى الآن كأم شجاعة مناضلة صبورة تتعامل معهما بمنطق الطير ، فليطيرا حيثما شاء ، وليمض كل منهما فى طريقه ، ويحقق ذاته بالطريقة التى يراها مناسبة لأحلامه وطموحاته وقدراته .. والنجاح ليس له وطن ..وأرض الأحلام ليست ثابتة فى مكان معلوم .

انتهزت فاطمة عبدالعاطى الفرصة حين كان الدكتور عبدالله حبيش مضجعا فى فراشه ، وقدمت له طعامه ثم الدواء ، وجلست على كرسى قريب منه ، ولاحظت أنه يبدو هادىء الملامح مرتاح النفس ، فى غاية الرضا ، غير متذمر ولاضجر من شىء رغم آلام الداء اللعين ، ثم قال لها بنبرة خافتة :

- بصراحة يارضوان لاأستطيع أن أكافئك على كل ماقدمته على مدى سنوات ومازلت تقدمه لى .

ضحكت قائلة بصوت رجالى مصطنع :

- أنا فى خدمتك يادكتور .. كما أنك تعطينى أجرا كبيرا ماكنت أحلم بالحصول عليه .

- صدقنى يارضوان كل أجور الدنيا لاتوفيك حقك ..أنت تطهو لى طعامى ببراعة ، وتغسل ملابسى بإتقان ، وتحرس القصر بقلب أسد وعين صقر ،كما أنك تمرضنى وتحفظ مواعيد تناولى للدواء كأفضل طبيب وأنبل ممرض .. الحمد لله الذى وضع فى طريقى شخص مثلك يتسم بالوفاء والإخلاص والأمانة .

بعد لحظات من التفكير والتردد :

- لكن عندى سر كبير أخفيته عنك يادكتور، وأريدك أن تعرفه منى حتى يرتاح ضميرى .

لم يندهش وظن أن الأمر مجرد دعابة ثم قال :

- أظن يارضوان أنك تعمل معى منذ عشرين عاما أوأكثر قليلا ، وأننى أعرفك بمايكفى كما أعرف ملامح وجهى ، وليس هناك مالا أعرفه عنك .

- أستأذنك لحظة يادكتور .

خرج رضوان من الغرفة ثم عاد بعد لحظات ووقف أمام الدكتور عبدالله حبيش ، وخلع الجلباب الرجالى وغطاء الرأس والطاقية ، فظهرت فاطمة بعباءة حريمى جميلة سوداء اللون فيها نقوش من ورود وخطوط بيضاء على الصدر والأكمام ، وشعرها الأسود الحريرى الناعم استطال بعض الشىء ،ونزل مفرودا مسترسلا على كتفيها ، والحياء يطل من عينيها ، ومدت يدها لتسوية شعرها بأصابعها ، وتصفيفه بأناملها ثم قالت :

- هذا هو السر .. أنا فاطمة امرأة كما ترى يادكتور .. أنا أرملة منذ حوالى ثلاثين عاما ، وكنت أتخفى فى ثياب رجل !

حدق فيها وحملق مدهوشا وجحظت عيناه ،وتقلصت ملامحه ، ونزل عليه الصمت فألجمه وأخرسه ، وأصابته سهام الذهول ، وبعد أن تأمل ملامحها من أخمص قدميها حتى شعر رأسها تجمعت كل علامات الإستفهام والاستغراب على وجهه ثم قال :

- ماهذا .. ماكل هذا .. ولماذا ؟!

قالت بدلال أنثوى وصوت رقيق عذب :

ـ فعلت ذلك لأحافظ على نفسى من كل الطامعين ،وقد زهدت فى كل شىء لأصون عهدى مع زوجى الراحل رضوان عليه سلام من قلبى ،واخترت أن أواجه الدنيا بلارجل حبا فى رجلى الوحيد فى الدنيا كى أكون معه فى الجنة بمشيئة الله .. أليس هذا وعد الله ورسوله للأرملة .. وقال رسولنا الكريم وهو الصادق الأمين (المرأة فى الجنة لآخر أزواجها فى الدنيا) .. أما أنا فقد عشت حوالى ثلاثين عاما أرملة فى جلباب زوجى .. تقمصت روحه وشخصه وأخذت اسمه ،وتلبست دوره وارتديت ملابسه ! وكنت مضطرة لذلك وأرجو أن يسامحنى الله ، وأرجو منك أن تسامحنى يادكتورعبدالله ..

ويقول رب العالمين (فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلاإثم عليه إن الله غفور رحيم) صدق الله العظيم .

والآن الحمد لله .. انتهى المشوار .. ومرت السنوات الثلاثين العجاف ، وبلغت ـ بفضل الله وبفضل مساندتك لى يادكتور عبدالله ـ قمة جبل النجاح .. انتهت المعاناة وشكرا لك أيها الإنسان النبيل .. الآن ارتاح ضميرى ، ومن اليوم لاخداع لك أولغيرك ، ولن أكون سوى فاطمة كما خلقها الله ،وكما أرادها الله أنثى ..وليس الذكر كالأنثى .. ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سادت لحظة صمت ، والرجل مشدود الملامح ، مأخوذ المشاعر ، صامت شارد مثل تمثال من الشمع يرقد فى متحف مدام توسو ، وبعد لحظات من السكون الرهيب توقعت منه عاصفة هوجاء ، وغضب يطيح بها إلى الشارع ،لكن حدث مالم تكن تتوقعه على الإطلاق ، فوجئت بوجهه يتهلل ، وينهض من فراشه واقفا على بعد خطوتين منها ،ثم ينحنى أمامها بأدب جم واحترام كبير وعظيم تقدير ثم قال :

ـ مأعظمك من امرأة .. ياليتنى عرفت سرك هذا من قبل ،ياليتنى عرفت حقيقتك ،وأنا فى صحتى وشبابى .

تبسمت بمكر ودهاء جميل وسألته بدلال :

ـ وماذا كنت ستفعل ؟!

ـ كنت قدمت لك قلبى مع باقة ورد من حديقتى ، وألقيت بكل حياتى وأموالى تحت قدميك.. أنت يافاطمة لست أرملة عادية !

ـ والله أنا أرملة .. والله أنا امرأة عادية .

ـ لا .. لايافاطمة .. لاأظنك أرملة على الإطلاق .. أنت إما ملاك ملاك من السماء أوحورية من الجنة !

ضحكت بسعادة بالغة ولم تصدق ماتسمع من مديح واطراء ثم قالت بحياء العذارى :

ـ هذا كثير .. لا أستحق كل هذا يادكتور .

ـ الآن يافاطمة عرفت سر براعتك فى كل شىء ، فلايقدر رجل على أن يدبر أمور القصر بمثل براعتك وحسن تصرفك ،كان لابد أن أفكر فى أمرك لأكشف سرك بنفسى ،فلاأحد يستطيع أن يخفى امرأة جميلة حتى ولووضعها تحت ألف جلباب رجالى ، ولاأحد يستطيع أن يخفى الشمس تحت ستائر الدنيا كلها ، ولاأحد يستطيع أن يخفى القمر فى تمامه بألف حجاب وغطاء رأس !

ثلاثة لايمكن اخفاؤهن أبدا .. (المرأة الجميلة والشمس والقمر) .

أما أنا فأشعر اليوم يافاطمة بالكثير من الندم لأننى حرمت على نفسى الاقتراب من المرأة .. أى امرأة وكل امرأة .. الآن عرفت كم كنت ساذجا وكم كنت أحمقا، وأهدرت أجمل سنوات عمرى ،وأنا أظن أن كل النساء أنجيلا !

لقد أخطأت فى حق نفسى خطأ لايغتفر ، وأخطأت فى حق بنات حواء خطأ لايغتفر !

ثم سالت دموعه على وجهه ،وقال بصوت مبحوح متهدج :

ـ ياليتنى عرفتك يافاطمة ،وعرفت حقيقتك قبل أن يصل قطار العمر إلى محطته الأخيرة .

****

(50)

طار الخبر فى كل الأنحاء كما تطير عصافير النيل تحت السماء ،وذاع فى الصحف ووكالات الأنباء والفضائيات ومواقع التواصل الإجتماعى .. (امرأة أرملة تتنكر فى ملابس رجل 30 عاما لتعمل بين الرجال ، وتناضل من أجل تربية وتعليم ولديها التوأم) .. مع صور لفاطمة عبدالعاطى ،وهى فى جلباب وشخصية رضوان تبدو كرجل وسيم قسيم مكتمل الرجولة مستقيم البنيان ،وصور أخرى لها بملابس نسائية تشى بسحرها الفتان ، وتبرز نعومتها كامرأة تامة الأنوثة .

وبين عشية وضحاها ذاع صيت تلك الأرملة الحسناء التى خبأت حسنها تحت ملابس خشنة ثلاثة عقود من عمر الزمن ، وتنكرت لجمالها ، وحبست كنوزها وفتنتها عن كل العيون .. ولم لا ؟!

ألايخبىء الناس كل غال وثمين ؟! ألايخبىء الناس ثرواتهم فى خزائن من حديد ؟! ألايخبىء الناس أموالهم فى بنوك مغلقة بألف باب ،وألف حارس أمين ؟! ألايخبىء الناس الذهب والفضة فى حصن حصين ؟!

ألايخفى الفلاح البسيط حافظة نقوده تحت جلده ، ويربطها على بطنه ،وفوق قلبه إذا سافر للمدينة خوفا من يد النشال فى الزحام ؟!

وماعند فاطمة أغلى من الذهب والفضة .. جمالها أغلى من الجنيه والدرهم والدولار !

حين رآها صاحب القصر على شاشة التلفاز فى نشرة أخبار التاسعة ليلا تبسم ولم يعلق ، وإن همس لنفسه بأن هذه الأرملة جوهرة ،وليست امرأة عادية ، وهى جديرة بكل تكريم وتقدير .

إن مافعلته يفوق الوصف ، ويتجاوز الخيال .. فمن تستطيع أن تفعل مافعلت بنت عبدالعاطى ؟! نحن لسنا فى زمن الصبر والصابرين .. نحن لسنا فى زمن النبى أيوب عليه السلام ..أين هى المرأة التى تتحدى كل شىء حتى أنوثتها وجمالها ، وتعيش كل هذه السنوات مخلصة لزوجها الراحل وولديها التوأم ؟! أين هى المرأة ـ غير فاطمة عبدالعاطى ـ التى تشق طريقها المزروع بالأشواك والألغام والقنابل الموقوتة لتصل إلى قمة المجد ، وتحقق رسالتها السامية حتى ولودفعت الثمن الرهيب من شبابها وسحرها وجمالها كى تنتصر لذاتها بالعرق والدموع ؟! ولسان حالها يقول .. لابأس طالما أن نهاية طريق الأشواك ورود ورياحين ، ولم تكن أبدا لتندم لوعاد بها الزمن 30 عاما إلى الوراء لفعلت نفس الشىء ،واختارت ذات الطريق المحفوف بالمخاطر والألام والمزروع بالأشواك .

لوعاد بها الزمن إلى الوراء ماكانت لتختار سوى جلباب رجلها وحبيبها وزوجها الغائب الحاضر حضور الخلود فى قلبها .

لم يكن أمامها كى تتجاوز تلك الألغام ، وتتفادى الكثير من الأزمات سوى تلك الفكرة العبقرية للخالة وصيفة عليها رحمة الله .

إن المرأة تدفع ضريبة كبيرة لجمالها ، وأحيانا يكون جمالها سر تعاستها ولعنة عليها ، فالجمال مثل المال ربما يسعد صاحبه وربما يتعسه .

وتكون المرأة فى ظروف أكثر قسوة لوكانت جميلة ،وأرملة فى نفس الوقت .. عندئذ تكون الضريبة أكبر .

أدركت أن ظل الرجل هو الستر والغطاء .. كما أدركت أن جلباب الرجل الفقيد كان لها سترا وحصنا وحصانة على مدى ثلاثة عقود .

ولم لا .. أليس الرجل هو حامى حمى المرأة ،ودرعها الواقى منذ إنسان الكهوف ؟! ألم يقل الحق سبحانه وتعالى فى سورة النساء ..

(الرجال قوامون على النساء بمافضل الله بعضهم على بعض) صدق الله العظيم .

وذات يوم من شهر يونيو جاءت سيارة مرسيدس سوداء من رئاسة الجمهورية ، وفيها أربعة رجال يرتدون ملابس أنيقة ،ونظارات سوداء لامعة كأنهم ضباط فى ثياب مدنية ، وعند باب القصر سألوا عنها ، استغرب عبدالصبور الأمر، وانزعج قليلا حين عرف أنهم من رئاسة الجمهورية ، وجاءوا من القاهرة لأجل فاطمة .

تحدثوا قليلا مع الدكتورعبدالله حبيش صاحب القصرالذى انشرح صدره حين عرف بالأمر ،وبالفعل اصطحبوها معهم ، وتعهدوا بإعادتها فى اليوم التالى إلى العزبة بعد اللقاء الكبير الموعود .

وبينما السيارة المرسيدس السوداء تنهب الطريق مسرعة إلى القاهرة طاف بخيالها شريط ذكرياتها الممتد كأنه ألف عام ثم همست لنفسها ،وعلى وجهها ابتسامة غامضة مثل ابتسامة الموناليزا التى حيرت الدنيا كلها :

ـ أصعب شىء على الأرملة أن تواجه طغيان الحياة ،وجبروتها بدون رجل تتوكأ عليه فى مشوارها الطويل الشاق ، وحولها ألف ذئب وذئب من فصيلة المفترس يتربصون بها فى صورة رجال أطهار أبرياء كما تتربص بها الحياة ذاتها بكل خداعها ،وتلونها كما تفعل الحرباء !

وفى اليوم التالى الموافق الثلاثاء 23 يونيو ـ وهواليوم العالمى للأرملة ـ تابع الجميع فى عزبة الحنكاتى وعزبة حبيش وكل عموم عزب مصر المحروسة ،ونجوعها وقراها ومدنها القريبة والبعيدة عبر شاشة التلفاز فاطمة عبدالعاطى ،وهى تتسلم جائزة (أرملة مصر الأولى) من رئيس الجمهورية شخصيا ،والمدهش أنها حرصت على لقاء الرئيس فى القصر الجمهورى ،وهى ترتدى جلباب زوجها رضوان .. وكأنها تصر على أن فاطمة هى رضوان .. ورضوان هو فاطمة لايفترقان أبدا .

عندئذ تبسم الرئيس ومد يده مصافحا ، ثم أهداها الجائزة وهى تمثال من الذهب الخالص لإمرأة تحمل الكرة الأرضية فى أحضانها باهتمام وحنان .. ثم قال لها :

ـ يشرفنى أن أمنحك جائزة (أرملة مصر الأولى) .. يافاطمة وأهنئك .. لقد عرفت قصتك من البداية وحتى النهاية ، وبقدر دهشتى بقدر ماكان اعجابى بالعمل النبيل ، والنضال العظيم الذى قمت به على أفضل وجه .. أنت نموذج مشرف للمرأة التى تحمل النور للدنيا كلها ،وأنت فخر لكل امرأة مناضلة من أجل الحياة والحب .

****

تمت بحمد الله .

المؤلف :

نصر رأفت

كاتب روائى وإعلامى مصرى ..

حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة القاهرة ، ودبلوم الدراسات العليا فى الإبداع الأدبى والفنى من أكاديمية الفنون .

عمل بالصحافة فى مؤسسة (أخبار اليوم) لمدة عشر سنوات ثم إنتقل إلى العمل بالإذاعة والتليفزيون ، وحاليا يعمل مذيعا فى إذاعة صوت العرب ، ويشغل فى نفس الوقت منصب مدير المذيعيين والمراسلين .

الأعمال الإبداعية :

صدرت له مجموعة من الروايات والأعمال الأدبية عن كبرى دور النشر المصرية والعربية منها .. رواية (الرجال لايعرفون الرحمة) التى إختارتها جامعة جورج تاون فى واشنطن لتدريسها لطلابها كأفضل رواية تتناول الحياة فى القرية المصرية فى السنوات العشر الأخيرة .. تم إختيار روايته (الجورنالجى) لتكون ضمن رسالة دكتوراه فى كلية الآداب / جامعة بغداد تحت عنوان (الصحافة فى الرواية العربية)..ورواية (عاشق القبيحات) عن دار الفاروق للنشر .. ورواية (ماسبيرو) عن دار نشر مدبولى ،ورواية (الجورنالجى) عن مركز الحضارة العربية للنشر ، ورواية (عاشق القبيحات) عن دار الفاروق للنشر ، ورواية (سمو الأميرة) .. رواية (كاتمة الأسرار) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ..رواية (الأفيال تختبىء لتموت) ..وأخيرا رواية (الحورالعين) عن الهيئة المصريةالعامة للكتاب التابعة لوزارة الثقافة .

هاتف :
01153064411 / 002 القاهرة .
البريد الإلكترونى : nasrraafat@yahoo.com